من أسرار اللغة

في الكتاب والسنة

معجم لغوي ثقافي

تأليف

العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي

١٩٣٥ - ١٩٩٩م رحمه الله تعالى



المكتبة المكية

دار الفتح للدراسات والنشر

مِنْ أَسْرَارِ اللُّغَةِ

فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

مُعْجَمٌ لُغَوِيٌّ ثَقَافِيٌّ

تَأْلِيفُ

الْعَلَّامَةِ الدُّكْتُورِ مَحْمُودٍ مُحَمَّدٍ الطَّنَاحِيِّ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

الجزء الاول

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

□ من أسرار اللغة في الكتاب والسنة (معجم لغوي ثقافي)
تأليف: العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي (١٩٣٥ - ١٩٩٩م)
الطبعة الاولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م
حقوق الطبع محفوظة للمكتبة المكية ©
تم التحقيق والإخراج والتصميم بدار الفتح للدراسات والنشر
عدد الصفحات: ٤٣٦
قياس القطع: ١٧×٢٤
الرقم المعياري الدولي: ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٠٧٤-٦
رقم الإيداع بدائرة المكتبة الوطنية: ٢٠٠٧/٩/٢٨٦٢

المكتبة المكية
الهواتف: ٠٥٣٦٦٢٢٩٩ (٩٦٦٢+)، ٠٥٣٠٠٣٦٦ (٩٦٦٢+)
البريد الإلكتروني: almakkiah@hotmail.com
مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

دار الفتح للدراسات والنشر

جوال ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)
فاكس ٦٢٠١ ٥١٥ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن
البريد الإلكتروني: info@alfathonline.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.alfathonline.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبهِ نستعِين

كلمةُ ذِكرىٰ ووَفاء

ناصر الدين الأسد

منذُ أنْ عرفتُ محموداً الطناحيَّ في مجالسِ شيخِنا محمود محمد شاكر بمصرَ الجديدة، وأنا أتابعُ مسيرتَه العلمية: مِن مطالِعِ شبابِه في عَشْر الستينَ منَ القرنِ الميلاديِّ الماضي حينَ كان يجلسُ هناك مجلِسَ التلميذ: يُطِيلُ الصمت، ويحرِصُ علىٰ تلقُّفِ ما كان يلقيه شيخُ المجلِس وبعضُ كبار السنِّ من الحاضرين من مختلف أقطار الوطن العربي والبلادِ الإسلامية، إلىٰ أنِ اكتملَتْ له أدواتُه الفكريةُ والعلمية، وأصبحَ هو نفسُه شيخاً من شيوخِ ذلك المجلِس، يُصغِي إليه الحاضرون، وفيهم مَنْ كان أكبرَ منه سنّاً وأعلىٰ منصِباً، ويحرصون علىٰ تتبُّعِ ما كان ينشُرُه مما ادّخَره ــ خلالَ تلك السنوات ــ من لمعاتِ فكْره، ولمحاتِ محفوظه، ونوادرِ طُرَفه وفكاهاتِه. فقد كان ــ علىٰ غزيرِ علمِه ــ خفيفَ الظّل، تخرُجُ منه النكتةُ المِصريةُ الحُلْوة من غير تكلُّف، سواءٌ ما كان منها مبتكَراً من اختراعه ووضعِه، وما كان منها متداولاً بينَ

النـاس، وما كان منها مقتبَسـاً منَ التراث، كل ذلك بلهْجـةٍ حُلوة ولفْظٍ عَفّ، يطرَبُ له حتّىٰ أكثرُ الحاضرينَ تزمُّـتاً.

وترقّىٰ محمـودٌ الطناحيّ في مناصب العمَـل العلمـيّ: إدارةً وتدريساً، وظهـرَ له نِتـاجٌ علمي: تأليفاً، وتحقيقاً، ومقالاتٍ في المجـلاتِ والصحُف. وحقّق له علمُـه وخُلُقـه مكانـةً أدبية وسُمعةً علمية بين أساتذتِه وطلبتِه وزملائه وكثيرٍ منَ المشتغلين بالعلم في مصرَ وسائرِ الأقطار العربية؛ حتىٰ أصبحَ ــ في سنواتٍ معدودة ــ رأسَ طبقةٍ منَ العلماء الشبّان المحققين الذين زيَّنوا ساحتَنا الأدبية في النصفِ الثاني منَ القرنِ العشرينَ الماضي. وإذا كان يحلُو لبعضِنا أن يصِفَ بعضَ علمائنا الأجلاّءِ الأحياءِ أو الأموات بأنه آخرُ طَبقةٍ من كبارِ العلماء أو الشعـراءِ أو الأدبـاء، فإنَّ محمـوداً الطناحيَّ كان مثـلاً متميّـزاً علىٰ تواصُلِ الأجيال بحيثُ كان آخرَ طبقـةٍ سبقَتْه وفي الوقتِ نفسِه كان رأسَ طبقةٍ من لِدَاتِه وأقرانِه فيها الكثيرُ من الطبقةِ الأُولىٰ وفيها الكثيرُ منَ التجديدِ والابتداع.

ولكنّ ذلك زمنٌ ــ إنْ كان لا يزال حاضراً في ذاكرتي وفي خاطري كأني ما زِلـتُ أعيـشُ فيه ــ فإنه أصبـحَ ماضيـاً قديماً، وأصبـحَ مَن كانوا تلاميذَ فيه أساتـذةً علماء، لهمُ الآنَ تلامذتُهم ومريدوهم المنبثُّونَ في مختلـفِ المناصِب والمعاهـد وفي كثيـرٍ من البـلاد العربية وبعض البـلاد الإسلاميـة، وقد يشهَدُ بعضُنـا ــ ممن يمُـدُّ اللّهُ في عمـره ــ هؤلاء التلاميـذَ الآن وقد أصبحوا كذلك أساتذةً كباراً. وهكـذا تتوالىٰ هذه الحلقاتُ من سلاسِلِ الذهَب، ويظلُّ الخَير في هذه الأمّةِ ما بَقِيَتْ.

ومحمودٌ الطناحيّ غنيٌّ بعلمه عن كل لقَبٍ ومنصِب، وإني لأجدُ في ذكرِ اسمه مجرَّداً منَ اللقبيْـن اللذَيـن يسبقانِه وقْعاً في النفس، ودلالةً علىٰ العلْم، أعمَقَ مما لو قيل: الأستاذ الدكتور محمود الطناحي. فهذان اللقبانِ أصبحا لا

يزيِّنـان عالمـاً بعـدَ أن تزيّنَ بهمـا وتزيّا في جامعاتِنا وفي خارجِها مَنْ لا يقبـل محمودٌ الطناحيُّ أنْ يكونوا تلامذةً له ينتسبونَ إليه.

وجزىٰ اللّٰهُ ابنَه محمداً خيرَ الجزاء، فقد جمـعَ كثيراً من مقالاتِ أبيه في مجلدَين(١)، وجمعَ أكثر ما كتبه الكاتبون عنه في كتـابٍ جعـل عنوانَه «محمود الطنـاحي: ذكرىٰ لنْ تغِيب»(٢). ومن أجلِ هذا اكتفيتُ بكلمتـي هذه أن تكونَ محضَ استرجاعٍ للذكرىٰ وتعبيرٍ عن الوفاء لصديقٍ عزيز وعالمٍ جليل أسألُ اللّٰهَ أنْ يتغمّدَه برحمتِه ورضوانِه كِفاءَ ما قدَّمَ للغتِنا العربية وعلومِها.

❊ ❊ ❊

---

(١) نشر دار البشائر الإسلامية ببيروت ٢٠٠٢م.

(٢) توزيع دار المدني بجدّة ١٩٩٩م.

بين يدي الكتاب

بقلم: سليمان أحمد عليوات[١]

الحمدُ للّه الذي جعل لكل قومٍ لساناً ولغة، وفضّلنا ــ نحن العربَ ــ بلسانٍ عربيّ مبين. والصلاةُ والسلام علىٰ سيّدنا محمد، دعوةِ أبينا إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، وبشارةِ عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، أشرفِ الخلْق، وخيارِ بني هاشمٍ خيارِ العرب.

«كانَ ﷺ بالمحلّ الأقصىٰ في فصاحةِ اللسان، وجَزالةِ القول، وصحةِ المعاني، وقلةِ التكلُّف، مخصُوصاً ببدائع الحِكم، وعُلِّم ألسنةَ العرب، يخاطب كلَّ أمةٍ بلسانها. قال له أصحابُه: ما رأيْنا أفصحَ منك! قال: ما يمنعُني وأُنزل القرآنُ بلساني؟»[٢].

صلىٰ اللّه عليه، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعدُ:

فهذا كتابُ «مِن أسرار اللغة في القرآن والسُّنة».

---

(١) باحث ومحرّر لغوي، من الأردن.

(٢) من كلام شيخ الإسلام تقي الدين السُّبْكي رحمه اللّه في كتابه «السيف المسلول» ص٤٧٢. والحديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢ : ١٥٨ برقم ١٤٣١)، وبنحوه الرامَهُرمُزي في «الأمثال» ص١٥٦.

إنّ هذا الكتابَ يشتمل بين دفَّتَيْه علىٰ مادةٍ إذاعيـة كان يقدّمهـا المغفورُ له العلاّمـة الدكتور محمود محمد الطناحيّ رحمه اللّه، علىٰ أثير إذاعةِ القـرآن الكريم بمكةَ المكرَّمة فترةَ إقامته فيها حرسها اللّه.

وموضوعُ هذا الكتاب: «غريبُ القرآنِ الكريم، والحديثِ النبوي الشريف»، وهو فنٌّ كان حضرتـه، سقىٰ اللّه رَمْسَه، حريّاً وحقيقـاً ببحثـه والغَـوص فيـه وبيانِ أسـراره، وهُو مَن هُـو في مِـراس التحقيق العلمي الرصين للتراثِ العربيّ عمـوماً، والآثارِ التي تتناول علمَ الغريب بشكل خاصّ.

ذلك أنّ النهضةَ بعلمٍ لغويّ صعب ــ كعلم الغريب ــ يتطلب أن يكون مسبوقاً بدرايـةٍ وٱطّـلاع شامل، وجَلَـدٍ علمي غالب، معَ عشقٍ ظاهر للغـة وعلومها، يدوم بدوام حياة العربية في هذه الأمة الخالدة.

وهي خصَـالٌ نراها بوضوح فيما كتبه العلاّمة الدكتـور الطنـاحيّ ممّـا قُسِم له ــ عليه رحماتُ ربّي ــ أن يكتبَه ويودعَه هذا الكتاب المفيد.

فلقد كان من خِطّة هذا الكتاب ونهجه: اختيارُ غريب القرآن العظيم، وما هو غريبٌ في الحديث الشريف، من المادة الثلاثية الواحدة، ثم بحثُ معنىٰ الغريب، وبيانُه وإيضاحه، معَ سهولةٍ في الشرح، وجزالةٍ في الأسلوب، وإثراءٍ للنص، حتىٰ لَيقتربُ اقتراباً معنىٰ كل كلمةٍ للقارىء الذي من شأنه النفورُ من جمود معاجم اللغة، فكيف بمن آتـاهُ اللّهُ حظّاً من محبة العربيـة وأهلِهـا، ورزقه نصيبـاً من الثقافة؟ إذن لتمنّىٰ كلاهمـا أنْ لو كـان هذا السِّفرُ السهلُ و«**المعجمُ اللغويُّ الثقافي**» تامّاً لم يقف عند مادة (رف ف)!

* * *

وأقول: «**معجم**»؛ لأن مؤلفَه رحمه اللّه تعالىٰ قال في مقدمته:

«وسنعرض في هذا الكتاب ــ بعون اللّه وتوفيقه ــ إلىٰ شرح الغريب الوارد

في القـرآن الكريم وحديث الرسول الأميـن ﷺ، وما قد يوجدُ منه في آثار الصحابة والتابعين رضوانُ اللّه عليهم أجمعين، **علىٰ ترتيب حروف الهجاء**».

وأقول: «**لُغَويّ**»، لوجوه:

الأول: أنه عرض مفرداتِ الغريب في الجذر الواحد بشكل حسنٍ واعب، لم يكد يُسقطُ شيئاً.

وقـد صـرّح ــ في أكثـرَ من موضـع ممّا كتَـبَ رحمـه اللّه هنـا ــ أنـه حشَـدَ المفرداتِ من كتابيْن شهيريْن في هـذا الفنّ هما: «مفردات ألفـاظ القـرآن» للعلاّمة الراغب الأصبهاني، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» للإمام مجد الدين المبارك ابن محمد الجَزَري، المعروفِ بأبن الأثير، ثم جعل يُـثْري من غيرهما ما يراه وظيفيّـاً كُلاًّ في مادته وألفاظه، فنقل عن أبي عبيدٍ الهَرَوي في كتابه «الغريبيْن» الذي فسّر فيه غريـبَ القرآن الكريم والحديث الشريف معاً ــ ويُعَدّ هذا الكتابُ «من أسرار اللغة» علىٰ نَسَقـه[1] ــ ونقـل عن أبي عبيـدةَ مَعمَـرِ بن المثنّىٰ، والأخفـش، وابن قُتيبـة، والزجّـاج، والنضـر بن شُميل، ومحمد بن المستنيـر المعـروف بقطرب، والفرّاء، والقاسم بن سلاّم، وابن جرير الطبري، وابن دريد، والدامغاني في «إصلاح الوجوه والنظائر»، وغيرهم ممن له تأليفٌ في «غريب القرآن الكريم»، سواءٌ من كتابه مباشرةً أو بواسطة النقَلَةِ عنه. وينقلُ رحمه اللّه عن جار اللّه الزمخشري في «الفائق»، وعن السيوطـي في «الدرّ النثيـر تلخيـص نهايـة ابن الأثير»، وعن أبي سليمانَ الخطابي، وغيرهم ممن له تأليفٌ في «غريب الحديث النبوي الشريف».

* * *

والغريبُ عنده ــ رحمه اللّه ــ مصطلحٌ يُراد به: الكلماتُ الغامضة، القليلةُ

---

(١) والمجلـد الأول من كتـاب «الغريبين» محقَّـقٌ بقلـم المؤلف الطناحي رحمه اللّه، وقد نشره المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

الاستعمالِ في كلام الناس، وتأتي غالباً في الكلام العالي الفصيح.

وليست الغرابةُ في اللغةِ كالغرابةِ في البلاغة، لأنَّ هذه يُرادُ بها الكلامُ الحوشي المستكْرَه، أصواتاً ودلالة. أمّا الغرابة في اللغة فتُقال في مقابل الوضوح[١].

وقد نقل رحمه اللّه عن الإمام أبي سليمانَ الخطّابيّ أنّ الغريبَ هو: اللفظ الغامضُ البعيدُ منَ الفهم، كما أن الغريبَ من الناس هو البعيدُ عن الوطن المنقطعُ عن الأهل[٢].

وهو أحد العلوم التي احتواها «فن علوم القرآن»، بل هو من أهمها[٣].

ولقد نشِط العلماءُ إلىٰ التأليف في «علم غريب القرآن الكريم» حين خالط العربَ غيرُهم من الروم والفرس والحبَش، وتداخلت اللغات واختلطت الألسن، وأخذ اللحنُ طريقَه إلىٰ المنطوق والمكتوب معاً بعد إذ لم يزل اللسانُ العربي فصيحاً، بوجود النبي ﷺ بين أظهُر القوم هدىً ورحمة، إن جهِلوا شيئاً من القرآن الكريم سألوه، وهكذا حتىٰ انقضىٰ عصرُ النبي ﷺ، وعصرُ الصحابة والتابعين منتصفَ القرن الثاني الهجري.

أما الحديثُ النبويُّ فقد ٱشتمل علىٰ شيء من الغريب، ويرجع ذلك إلىٰ أنه ﷺ أُوتي جوامعَ الكلم، وكان ﷺ يخاطب كلَّ قوم بلغتهم. وأيضاً، فقد يتكلم في بعض الأمور وبحضرته أخلاطٌ من الناس، قبائلهم شتىٰ ولغاتهم مختلفة وليسوا كلهم علىٰ درجةٍ واحدة في ضبط اللفظ وحصره، فيتعلق كلٌّ منهم بالمعنىٰ، ويؤديه

---

(١) «مقالات الطناحي» (١ : ٢٨٣).

(٢) مقدمة تحقيق «منال الطالب» (١ : ٥)، نقلاً عن «غريب الحديث» للخطّابي (١ : ٧٠).

(٣) وقد عدّه الإمام السيوطي في أنواع علوم القرآن في كتابه «الإتقان» (١ : ٣٥٣ النوع السادس والثلاثون)، وقال هناك: «ومعرفة هذا الفن للمفسِّر ضرورية».

بلغة قومه وقبيلته[١].

* * *

الوجهُ الثاني لقولنا: «لغوي»: أنه التزم النقلَ عن معاجمِ العربيةِ المعتبَرة، وعن أربـاب العربيةِ ورُواتها الكبـار. فأنت تقرأُ لديه كلامَ الخليل بن أحمد، وأبي منصورٍ الأزهري، والجوهري، وابنِ دُريد، والفيروزآبادي، وأبي عمرٍو الشيباني، وأبي عليٍّ الفارسي، وثعلب، والكسائي، والسُّدّي، وأبي بكرٍ الأنباري، وشَمِر بنِ حَمْدَوَيْه، وابن الأعرابي، وابن السكِّيت، والأصمعي، والمبرِّد، وابن هشام، وأبي موسىٰ المديني الأصبهاني، وابن عصفور الإشبيلي، وأبي نصرٍ الباهلي شارح ديوان ذي الرُّمة، والفَـيُّومي صاحب «المصباح المنير» نقَلَ عنه وأثنىٰ عليه ونصَحَ باقتناء «معجمه» المفيد.

ولئن خلا هذا الكتاب ــ الذي هو جزءٌ من معجمٍ كبيرٍ مفيدٍ يا ليتَه تَمّ ــ من ذكْر سيبويـه، فقد عوَّضَنا الدكتور الطناحـي رحمه اللّٰه بالنقـل كثيراً عن إمام النحاة إبراهيم بن محمد الأزدي المعروف بنفطويه.

الوجه الثالث: أنه ــ وإن تضمَّـن كتابُـه المعاجمَ اللازمـةَ والخاصـة «بتفسير غريـب القـرآن والحديث الشريف» ــ نصَّ علىٰ أنَّ أخْـذَ المعنىٰ للفـظ الغريبِ من الكتـبِ المؤلَّفةِ لهذا الفنّ بخاصة، لا يُعفي الباحثَ من عرض الكلمـة نفسِها علىٰ المعجـم اللغويّ العامّ، إذ إن فيه شموليـةً يضفيهـا ــ بعدَ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ــ كلامُ العرب.

فمن ذلك قولُه رحمه اللّٰه:

أ ــ في مادة (أ ب ب):

«الأبُّ في اللغة علىٰ معنييْن، أحدهما المرعىٰ، والآخرُ القصدُ والتهيؤ.

---

(١) اقتبسنا في هاتين الفقرتين من كلام المؤلف الطناحي في كتابه هذا ص٥٨ ــ ٥٩.

أما المعنىٰ الأول فهو في الآية الكريمة: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١].

والمعنىٰ الثاني للأبّ: أنه مصدرُ «أبَّ فلانٌ إلىٰ سيفِه: إذا ردَّ يدَه إليه لِيَستلَّهُ، وأبَّ إلىٰ وطنِه: إذا نزَعَ إليهِ وتهيَّأ لقصْدِه.

ولم يَرِد الأبُّ ــ بهذا المعنىٰ ــ في القرآن الكريم، ولا في الحديث الشريف».

ب ــ وفي مادة (أ ك ل):

«تدلُّ مادة (أكل) ــ في أصل وضعها ــ علىٰ التنقُّص، فنحن حين نأكل ما علىٰ المائدة إنما نَنقُصُه ونقلِّل من مقداره وكميّته.

ولقد تصرفت العرب في هذا اللفظ علىٰ وجوهٍ شتىٰ من المعاني والاشتقاقات، ونحن نكتفي هنا بما جاء من ذلك من كتاب اللّه العزيز والحديث الشريف».

والوجه الرابع: أنه تسلسَلَ في الكشف عن معنىٰ مفردات الغريب وغموضه، بحيث بدأ أولاً بذكْر المقياس اللغوي الذي ينضمُّ إليه مجموع مفردات اللفظ الغريب، فإذا أتمّ ذلك فرَشَ مفردات الجذر، وأعمَلَ فيها النظريةَ التي أبدعها الإمامُ الأجلُّ أحمد بن فارس بن زكريا وأودعها في كتابه الجليل «معجم مقاييس اللغة».

والقارىءُ للكتاب، أعني كتابَنا هذا، بعيْن أهل العربية، يتحسّس نفَس ابن فارسٍ رحمه اللّه من أول مادةٍ فيه، معَ أنّ التصريحَ بأبن فارسٍ وكتابه جاء عندَه متأخراً في حرف الجيم، قال الطناحيّ رحمةُ اللّه عليه في مادة (ج ن ح): «وهذه المادة (جنح) تدلُّ علىٰ أصلٍ واحدٍ في اللغة، هو الميل والعُدْوان. لهذا قال أبو الحسين بن فارس في كتابه الفذّ «مقاييس اللغة»: ويمكنُ أن يكون معنىٰ هذه المادة هو الميلَ فقط، فإنّ العدوان في حقيقته هو ميلٌ عن الحق والإنصاف».

فبهذا النموذج وأمثاله يُعلم أنَّ من خطة مؤلف «من أسرار اللغة» احتضانَ معجم «المقاييس» والترويجَ له ولفكرته البارعة، وهو بهذا ــ أعني العلاّمةَ الدكتور الطناحي ــ قد أتىٰ عملاً أكاديمياً فريداً تستوجبُه الفائدة والبيان، وأمانة الاستقصاء

وأداؤها، في معجم لغويّ وثقافيّ كهذا.

ومعنىٰ كلمة المقاييس كما بيّنها العلاّمةُ الأستاذ عبد السلام هارون رحمةُ اللّه عليه ــ في مقدمته لـ «معجم المقاييس» ــ هو: ما يسمّيه بعض اللغويين «الاشتقاقَ الكبير» الذي يَرجِعُ مفرداتِ كل مادة إلىٰ معنىً واحد أو عدة معانٍ تشترك فيها هذه المفردات.

* * *

فأمّا الصعيدُ الثقافي الذي يلمَحُه القارىءُ الكريم في هذا الكتاب، فهو أنه يحفِلُ بما قد حفَلَتْ به أعمالُ العلاّمة الطناحي المحقَّقةُ والمؤلَّفةُ من مهارةٍ في التنويع وتوظيفِ المعلومات التوظيفَ المناسب في المكان المناسب، إذ هو ينثُر في المسألة الواحدة فوائدَ من علوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، وسيرته ﷺ، وقَصَصٍ نبوي، وقضاءٍ نبوي، ومواقفَ نبوية. وكذلك تقرأ له سرداً لأقوال العرب، وعاداتهم، وفضائل أقوامٍ منهم كبني هاشم، ولهجاتهم. وتقرأ لطائفَ في اللغة، والنحو والصرف، والبلاغة، والفروق، وقِطَعاً من الأدب، وتقرأُ نُبَذاً تاريخية ومواقف. ثم لا تأخذْك الغرابةُ إذا قلتُ لك: إنه يحدّثُك عن خصائص بعض الحيوانات، كالغراب والكلب والحمار، وخصائص بعض النباتات، كشجرة الأرز، ويُجيبُك عن سؤالك: ما الجوع؟ وغير ذلك ممّا أنتَ واجدٌ فيه من فوائدَ ولطائفَ ومواعظ.

وفي الكتاب استطرادات نافعةٌ متنوعة، منها ما انتشر وتفرَّق تفرقاً تتطلبه الشواهد، ومنها ما اجتمع في موضعٍ واحد لتتهيّأ للقارىء الكريم متعةٌ محقّقة في تفهُّم مسألةٍ برمتها في مكانٍ واحد.

ومن جميل استطراداته المنثورة في أكثرَ من موضع في كتابه رحمه اللّه: شرحُ قوله تعالىٰ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ من الآية **٢٤** من سورة الإسراء.

كما أنّ له استطراداً في بيان صفات المنافقين وسلوكِهم، تفرَّقَ في مواضعَ من الكتاب. وله استطرادٌ مجموعٌ في مكان واحد في شرح معنىٰ كلمة الحياة في القرآن، واستطرادٌ حولَ معنىٰ قوله ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ أُنزل علىٰ سبعة أحرف...»، واستطرادٌ ثالث مُتحِف في بيان معنىٰ كلمة الرِّزْق، ورابعٌ حول تلقيب أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها «حُميراء»، وغير هذا أيضاً من ثمرات، كأنما يطوفُ بك في بستان، بل هو بستانٌ معرفيٌّ وممتعٌ حقّاً.

عمَلُنا في الكتاب:

قمنا بما يلي:

* صدّرنا الكتابَ بترجمة للعلاّمة الدكتور محمود الطناحي رحمه اللّه تضمّنت سيرته، ونِتاجَه العلمي.

* نضَدْنا الأصلَ الخطّيَّ للكتاب، بعد تحريره بحيث ينقلبُ مِن مادةٍ إذاعيةٍ كتاباً.

* صحَّحنا التجارِبَ الطباعيةَ للكتاب عدةَ مرات حتىٰ ساغ ــ فيما نرجو ــ من غير أخطاء طباعية.

* قمنا بتخريج الآيات الواردة في الكتاب، ونضَدْناها بحرفٍ أصغر.

* قمنا بتقسيم فقرات الكتاب بما يريحُ القارىء.

* قمنا بتثبيت الجذر الثلاثي لكل مادة من الكتاب بين معكوفتيْن.

* قمنا بالتعليق علىٰ بعض مواضعَ من الكتاب، وقد ميّزنا تعليقاتِنا غالباً بكلمة (الناشر) بين قوسين في آخر كل تعليق، وإلا فليس للمؤلِّف أيةُ هوامش علىٰ كتابه هذا.

واللّهَ نسأل أن يجعل عملَنا هذا خالصاً لوجهه، وأن ينفعَ به، إنه سميع مجيب.

العلاّمة الدكتور محمود الطناحيّ
خاتمة جيل الروّاد
(سِيرةٌ في سطور)

بقلم: إياد أحمد الغوج(١)

لم يَزَلْ تراثُنا العربيُّ الإسلاميّ الدوحةَ الغنّاءَ التي ترتاحُ في ظلالها الوارفةِ نفوسُ عشاق المعرفة الإنسانية، وتَرتع في ربوعها الخصيبةِ قلوبُ محبِّي العربية، فيعيشون حالةً منَ السعادةِ الغامرة لا يَعرفُ لذّتَها إلا ثلةٌ مِن أبناء هذه الأمّة، رقّتْ طِباعُهم، وصَفَتْ فِطرتُهم، ولامسَتْ أرواحَهم بَشاشةُ ذلك الحقِّ المبين.

ومِن تلك النفوسِ التي غَدَتْ تشدو في تلكَ الدوحة، ثم أمسَتْ مِن حُماة حَرِيمها، وصارَتْ تهوي إليها أفئدةُ رُوّادِها: الأستاذُ الكبير الدكتور محمود محمد الطناحي، تغمّده اللّه تعالىٰ برحمتِه.

كانت «طبقاتُ الشافعية الكبرىٰ» للإمام تاج الدين السُّبْكي، محطةَ اللقاءِ الأولىٰ بالأستاذ الكبير، تلك الموسوعةُ التي استولَتْ ــ بتحقيقِها المتقَن ــ علىٰ إعجابِ القرّاء علىٰ اختلافِ منازِعهم؛ شرعيةً كانت أو أدبيةً أو تاريخية.

ثم حجبَتْني سنينُ عِجافٌ عن قراءة تراثِ الطناحيِّ بتأنٍّ واستيعاب، وكان مِن محاسنِ الأقدارِ أنْ تُوكَلَ إليَّ مَهمةُ إعداد كتابه: «مِن أسرارِ اللغة في الكتابِ والسنة»

---

(١) باحث في الدراسات الإسلامية، من الأردن.

للطبـع، واستـدعَتْ مُهِمتي تلك كتابةَ كلمةٍ في سيرته، وإجالـةً فاحصةً في تراثه، فعدتُ إليه بشَوق، وكان أولَ ما شدَّني ذلك الكتابُ الذي منّيتُ نفسي زمناً بالفراغ لقراءته: «مَدخَـلٌ إلىٰ تاريـخِ نشرِ التراثِ العربي». وإني وإنْ كنتُ عرفتُ الطناحيَّ ــ قديماً ــ من قراءتي لكتاب السُّبْكي؛ لكني عرفتُـهُ عن قُربٍ لمّا قرأتُ «المدخَل»، وعرفتُه بحقّ ــ فأخذَ بجماع فكري وقلبي ــ لمّا قرأتُ «مقالاته» المجموعة.

لقد اجتهـدتُ أنْ أجمعَ في هذه السيـرةِ الوجيـزةِ أطـرافَ الحديـثِ عن نشأة الطنـاحـيِّ ومراحـلِ حياتِـه المختلفـة، وحرصـتُ علىٰ استيفـاءِ أعماله العلميـة، واستدراكِ ما فات منها مَن كتبَ عنه قبلي، وتصحيحِ بعض الأوهام في ذلك. وآمُلُ أن أكونَ بهذه السطور قد أوفيتُ الطناحيَّ بعضَ حقه عليَّ بما نفعني اللّه به من كتاباتِه وفكـرِه الأصيـل، وبعـضَ حقـه علىٰ الجيـل الذي اتخـذه مثالاً يُحتـذىٰ في سبيـل العلم[1].

محمود محمد الطناحي

(١٣٥٣ ــ ١٤١٩هـ = ١٩٣٥ ــ ١٩٩٩م)

مولدُه ونشأتُه:

ولد محمود بن محمد بن علي الطناحيّ عام ١٩٣٥م في قرية من قرىٰ محافظة المنوفيـة تُسمَّىٰ (كفر طبلوهـا) بمركـز (تلا)، ثم انتقـل إلىٰ القاهـرة في الثامنة من عمـره، وأقبَـلَ ــ شأنُه شأنُ من عُنـي أهلوهـم بحُسْن تنشئتهـم ــ علىٰ حفظ القرآن

---

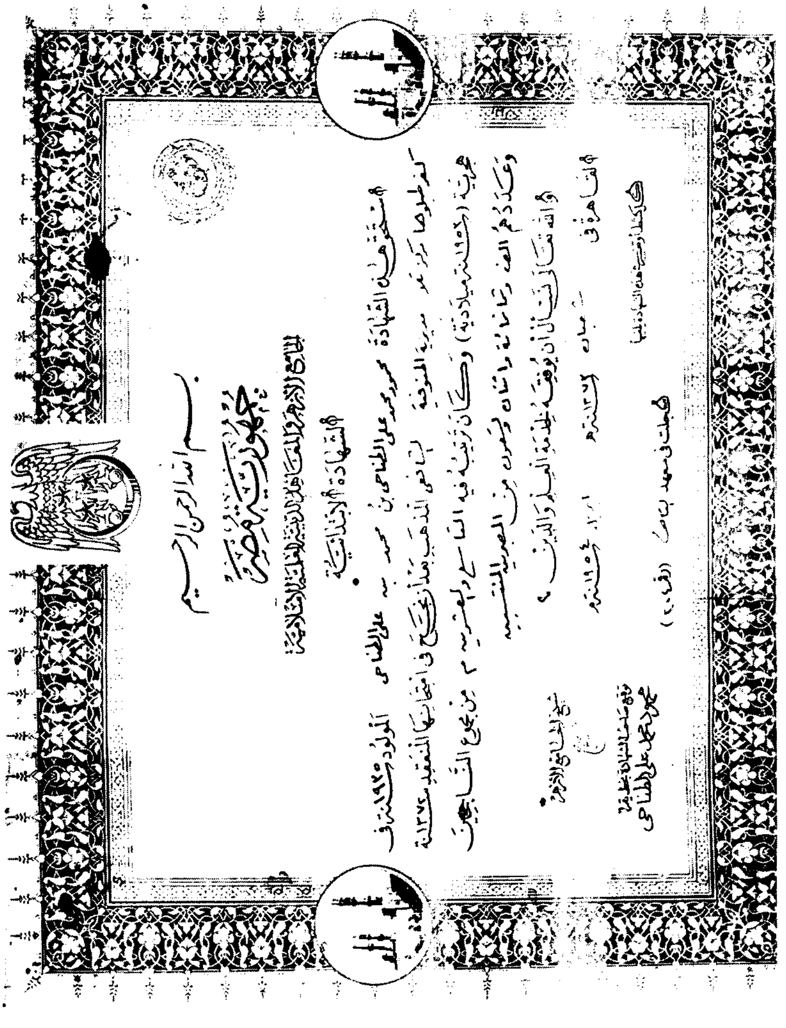
(١) وكنتُ توجّهتُ قبـلَ كتابتي هذه، إلىٰ أحدِ هامـاتِ العلـم في بلدي، وأحدِ أصدقاء الطناحي القدماء، وهو العلامةُ الكبير، الدكتور ناصرُ الدين الأسَد، متّعه اللّه بالعافية، فتفضّلَ بكتابة كلمـةٍ بين يدي هذا الكتاب «مِنْ أسرار اللغة»، استرجعَ فيهـا شيئاً من ذكرياتِه مع الطناحي، فكانـت كلمتُـه تلك دُرّةً ثمينةً ازدانَ بها ــ كما ترىٰ ــ جِيدُ الكتـاب، فجـزاه اللّه عن العلم وأهلِه خيرَ الجزاء.

الكريم حتىٰ أتمه وهو في الثالثةَ عشْرةَ من عمره، ثم التحق بمعهد القاهرةِ الديني بالأزهر الشريف، وحصل علىٰ الشهادة الإبتدائية عام ١٩٥٤م، وبعدها بنحو خمس سنينَ حصَلَ علىٰ الشهادة الثانوية. وكان رحمه اللّه فخوراً بأزهريته، معتزاً بنشأته في تلك الأحياء القاهرية العابقةِ بعراقةِ التاريخ وأمجاد السالفين.

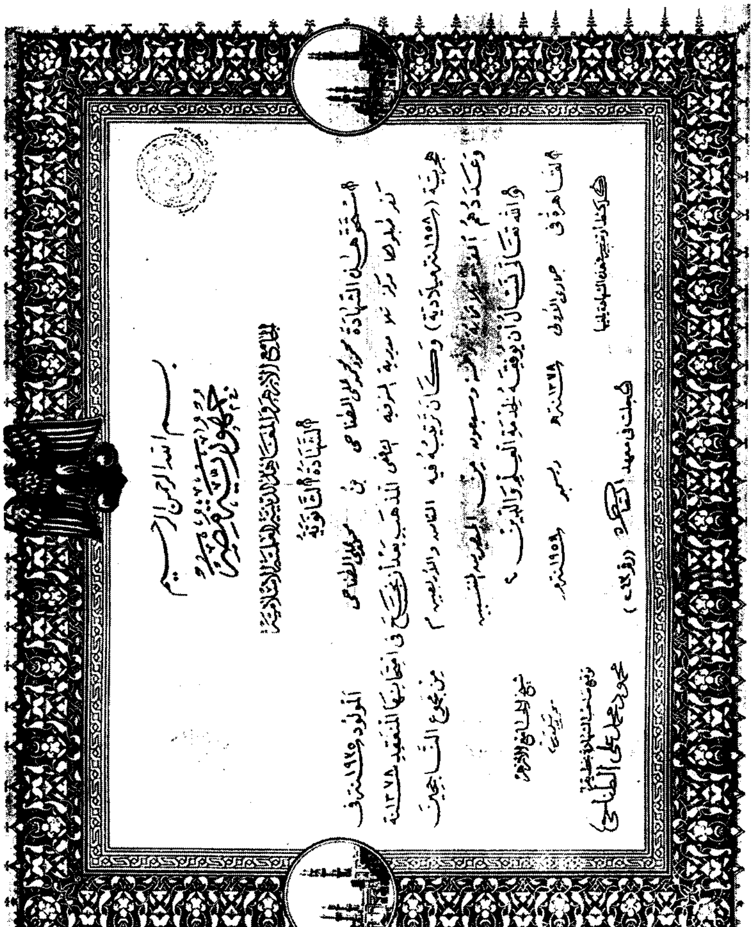
عاش الطناحي تلك السنينَ من عمره في محيطٍ لصيقٍ بالعلم والعلماء، وكان لذلك أثرٌ كبير فيما امتلأ به قلبُه ووجدانُه. يقول الطناحي عندَ كلامه عن مطبعة الفتوح الأدبية بشارع النبوية، بحي الدرب الأحمر: «ولا زلتُ أذكرُ هذه المطبعةَ العتيقة، إذ كنا صغاراً من أبناء ذلك الحي، نلهو حولَها، ونجمعُ الحروفَ الطباعيةَ القديمة التي يُلقىٰ بها خارجَ المطبعة، نلتقطُها، ونضمُّ بعضَها إلىٰ بعض، لنصنعَ منها أسماءنا، ونكوِّنَ منها البسملة، وكان السعيدُ منا الذي يلتقط ذلك الحرفَ الكبير، الذي يشبه (الإكلشيه)، والمكتوبَ عليه جملةُ: (صلّىٰ اللّه عليه وسلَّم) بالشكل القديم المركَّب هكذا: ﷺ. وكان لذلك أثرٌ كبير في تحسين خطوطنا. وهذا حي النبوية ينسب إلىٰ السيدةِ فاطمةَ النبويةِ بنتِ الحسين، رضيَ اللّه عنهما، ويقال: إنها مدفونةٌ في هذا المكان الذي أُقيم حوله مسجدٌ جامع. وفي هذا المسجد كنا نذاكر دروسَنا، ونجد رَوْحاً وأُنساً لا نكاد نجدهما في بيوتنا. وفي هذا المسجد عرفنا كبارَ العلماء الذين كانوا يلقُون الدروس حِسْبةً، ثم عرفنا أيضاً كبار القرّاءِ وأئمتَهم. . .»[١].

---

(١) «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي» ص٤٧ ــ ٤٨.



صورة الشهادة الابتدائية للطناحي



صورة الشهادة الثانوية للطناحي

التعرُّف إلىٰ التراث:

التحق الطناحيُّ بكليـة دار العلـوم بجامعـة القاهـرة سنةَ ١٩٥٨م، وفي تلك المدةِ من الزمـن، عَمِل في تصحيـح الكتـب. يقـولُ عندَ كلامـه عن مطبعـة عيسىٰ البابي الحلبـي: «وقد عملتُ مصحِّحاً بهذه المطبعة في صدر شبابي، ثلاثَ سنوات كانـت كلُّهـا خيـراً وبركةً عليّ، فقد تعلمـتُ من تصحيـح الكتـبِ الشـيءَ الكثيـر، وعرفتُ من العلماء المتردِّدين علىٰ المطبعةِ العددَ الكثير، وخرَجَتْ أعمالي الأُولىٰ منها. . .»[١].

وكان الطناحيّ يتردّد في تلك الفترة علىٰ الأستاذِ المحقّق، العالِم بالتراث، فؤاد سيّد رحمه اللّه[٢]، في منزله بالحِلْمية كلَّ يوم جُمُعة، يقرأ معه أثناءَ تحقيقه، وينهل من علمه وفوائده، بل ومن لطافتِه وظَرْفه، وفي ذلك يقول الطناحي: «كانت كلماتُـه حبيبةً إلىٰ كل قلب، خفيفـةً علىٰ كـل سمع، يمـزج الفائـدةَ العلمية بالنكتةِ العذبة، معَ نقاء طبعٍ وصفاء رُوح»[٣].

ومنـذ أن كـان رحمـه اللّه طالبـاً في السنـةِ الأولىٰ بكليـة دار العلـوم، اتصل بالمخطـوطاتِ العربية، ناسخـاً ومُفهرِساً ومحققاً، فنسـخَ الكثيرَ من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعضَ المستشرقين، الذين نزلوا مصْرَ، بالنسخ والقراءةِ والمقابلـة، كالألماني هانس روبـرت رويمـر، والهولنـدي بونيبـاكر، والإنكليزي مارْسْـدن جونـز، وغيـرهـم[٤]. وحصـل الطنـاحـيُّ في عـام ١٩٦٢م علىٰ شهـادة

---

(١) «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي» ص٥٢.

(٢) انظر ترجمةً ضافيةً لفؤاد سيّد بقلم الطناحي في «مقالاته» (١ : ٧٠ ــ ٨٢) [طبع دار البشائر الإسلامية ببيروت، وحيثُما ذُكرتْ مقالاتُه بعدُ فهيَ هذه].

(٣) «مقـالات الطنـاحي» (١ : ٨٢). ويُنظَر: «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٣٠ (كلمة د. أيمن فؤاد سيّد).

(٤) «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي» ص٢٢٤ ــ ٢٢٥.

(الليسانس) في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية. وفي عام ١٩٦٣م أصدر أولَ أعمالـه في تحقيـق المخطوطات، وهو كتـاب: «النهاية في غريب الحديث والأثر» للإمام أبي السعادات مجد الدين ابن الأثير.

في هـذه الفترة دخـل حيـاةَ الطناحي عالمـانِ كان لهمـا أثرٌ كبير في صيـاغـة شخصيته العلمية، أحدُهما: شيخُ المحققين، العلاّمة عبد السلام محمد هارون، الذي كان أحدَ أساتذته في الجامعة، وأمّا الآخرُ فهو: إمامُ العربية، العلاّمة الأستاذ محمود محمد شاكر، الذي لقيه الطناحي أولَ مرّة سنةَ ١٩٦٨م فورَ خروج شاكر من المعتقَل[١]، ودامت صحبتُه معَ هذين الشيخين الجليلين إلىٰ وفاتهما[٢].

وفي عام ١٩٧٢م، ومن الكليـة نفسِهـا (قسم النحـو والصـرف والعَروض)، حصلَ الطناحي علىٰ شهادة (الماجستير) بتقدير ممتاز، بدراستـه التي قدّمها حول ابنِ معطي وآرائه النحْوية، معَ تحقيق كتابه «الفصول الخمسون».

---

(١) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٣٠ (كلمة د. أيمن فؤاد سيّد).

(٢) توفـي عبد السلام هارون سنـةَ ١٩٨٨م عن ٧٩ عاماً، وتوفـي ابنُ عمتـه محمـود شاكر سنةَ ١٩٩٧م عن ٨٨ عاماً. وهما قرينـان عجيبـان! وُلدا في نفس السنة (١٩٠٩م)، ونفس البلد (الإسكنـدريـة)، ونشآ نشأةً أزهريـة، وزهـد كلاهمـا في (الشهـادات الجامعيـة)، وأصبحا علَمَينِ في مدرسـة التراث، وهمـا شيخـا الطناحي اللذَين لا يفتأ يلهج بمآثرهما، رحمةُ اللّه عليهم جميعاً.

الجمهورية العربية المتحدة

جامعة القاهرة

بعد الاطلاع على نتيجة الامتحان لكلية دار العلوم في يونيه سنة ١٩٦٢

قرر مجلس الجامعة بتاريخ ٢٥ من يوليه سنة ١٩٦٢

منح السيد: محمود محمد علي الطناحي بن السيد محمد علي الطناحي المولود في كفر طبلوها. تلا ١٩٣٥

درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية بتقدير جيد

القاهرة في شوال سنة ١٣٨٢ هجرية و مارس سنة ١٩٦٣ ميلادية

العميد — المدير — الرئيس الأعلى للجامعة

صورة شهادة (الليسانس) التي حصل عليها الطناحي من دار العلوم سنة ١٩٦٢م

الطناحي ومعهد المخطوطات :

عمِلَ الطناحي عقبَ حصولـه علىٰ (الليسانـس) عـامَ ١٩٦٣م مُعيـداً بمعهد الدراسـات العربية بالجامعـة الأمريكيـة بالقاهـرة، وفـي عام ١٩٦٥م ترك الجامعةَ الأمريكيـةَ وعُيِّن خبيراً بمعهد المخطوطات التابع لجامعـة الدول العربية، وظل في ذلك المعهد دهْراً من الزمن إلىٰ عام ١٩٧٨م، ويصف الطناحيُّ معهدَ المخطوطات وموقعَه في حياته بقوله: «ومعهدُ المخطوطات هوَ بيتي وشبابي وأحلامي»[١].

وفي معهـد المخطوطات تعرَّفَ الطناحـي إلىٰ واحـدٍ من أعز شيوخه أفادَ منه الكثيـر، وهو الباحثُ المطّلع، أحدُ أبرع علماء المخطوطات، الأستاذ محمد رشاد عبد المُطَّلب رحمه اللّه[٢]، يقول الطناحـي: «ولقـد كان مِن صُنْـع اللّه لي وتوفيقِه إيايَ أني عرفتُه منذ خمسةَ عشَرَ عاماً، قضيتُ منها عشرةً كواملَ لَصِيقاً به، مجاوِراً له. . . ، وقد رافقتُه في رحلتَين من رحلات معهد المخطوطات: الأولىٰ إلىٰ تركيا سنـةَ ١٩٧٠م، والثانية إلىٰ المغـرب سنـةَ ١٩٧٢م، ولقد رأيـتُ منـه في الرحلتين عَجَباً، وأفدتُ منه علماً كثيراً»[٣].

وقد شارك الطناحي في نشاط معهد المخطوطات علىٰ امتداد ثلاثةَ عشَرَ عاماً، وخرَجَ عضـواً في بعثاته لدراسة المخطوطـات وتصويـرها، ومن البلدان التي زارها وفَهْرَسَ نوادرَ مخطوطاتِها: تركيا (عام ١٩٧٠م)، والمغـرب الأقصىٰ (مرتين: عام ١٩٧٢م، و١٩٧٥م)، والمملكة العربية السعودية (عام ١٩٧٣م)، وجمهورية اليمن الشمالـي (آنذاك قبـلَ الوحدة) (عام ١٩٧٤م). وقد اكتشـف في هذه البلدان عـدداً

---

(١) مقدمة تحقيق «منال الطالب» لابن الأثير (١ : ٨)، الطبعة الثانية بمكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) توفي سنة ١٩٧٥م. قـال الزركلي في «الأعلام» (٣: ٢١): وكان شعلة نشاط انطفأت فجأة بإصابة قلبية في القاهرة. انتهىٰ. قلت: كتب الطناحي له ترجمة متقنة، انظرها في «مقالاته» (١ : ٨٣ ــ ٨٩).

(٣) «مقالات الطناحي» (١ : ٨٥ ــ ٨٧).

من المخطـوطاتِ المجهولة التي لم يَعلم بها الباحثون ولا حواها فهرسٌ من الفهارس المطبوعة.

تابع الطناحي خلالَ ذلك مسيرتَه الدراسية حتىٰ حصلَ عام **١٩٧٨**م من دار العلوم أيضاً علىٰ درجة (الدكتوراه)، من القسم نفسِه (النحو والصرف والعروض)، حائزاً مرتبـةَ الشـرف الأولىٰ بأطروحتِه: «ابنُ الشجَري وآراؤه النحْوية، معَ تحقيق الجزء الأول من كتابه: الأمالي النحْوية».

الطناحيّ عالِماً ومعلِّماً:

استوَتْ لدىٰ الطناحي في هذه المرحلة مَلَـكاتُه العلمية وبدا نبوغُه، فلم يكن الطناحي نحْوياً ولُغوياً فحسْب، بل كان عالِماً مشارِكاً متفنناً، له الأنْسُ التامّ بالعلوم من غير العربية، من قرآنٍ وحديثٍ وفقهٍ وتاريخٍ وغيرها، ودونَك تحقيقَه الفائقَ لكلام الإمام تاج الدين السبكـي في «طبقاتـه»، معَ ما حوتـه تلك «الطبقـات» من المباحثِ المتشعِّبة أيَّما تشعُّب، في مختلف العلوم، وطالعْ مقالاتِه النفيسةَ لترىٰ عالماً متمكّناً يصولُ في رياض المعـارف، وتحقيقاتُـه العلميـة وتدقيقاتُه من أكبر الشواهـد علىٰ ما نقول، إذ كان فيها بحـقّ ـ كما قيـل ـ واحـداً من أُولي العزم من الباحثين.

وفي هذه السنة نفسها (**١٩٧٨**م)، انتُدِبَ الطناحي للعمل أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسـات العليا العربية في كلية الشريعـة بجامعة الملك عبد العزيز بمكةَ المكرمة (المسمّـاةِ لاحقـاً كليةَ اللغة العربيـة بجامعـة أم القرىٰ)، وعُومِـلَ وظيفيّاً تحتَ بند (كفـاءة نادرة) كما كان يُعامَـل أمثـالُ الشيخ الشعـراوي ومحمد الغـزالي وأبـي شهبة وأضرابهم. وبَـقيَ فيهـا إحدىٰ عشْـرةَ سنـةً (حتّىٰ عام **١٩٨٩**م)، كانـت فترةَ عطاءٍ ثَرٍّ من عُمُـر الطناحـيّ، وترك فيها آثاراً زكية، وأبناءً بَرَرةً في تلك الديار[1]. يقول

(١) ونظرةٌ سريعة في كتاب «محمـود الطناحـي، ذكرىٰ لن تغيب» تنبىء بقدر ذلك الأثر، حيث شغَلت الأقلام التي كتبت عنه في الصحف السعودية أزيَدَ من نصف مقالات الكتاب! =

الطناحي عن تلكَ الفترةِ من حياتِه: «وكانت أياماً زاكيةً مباركة، قرأتُ فيها معَ إخواني الشبابِ هناك شيئاً من علوم العربية، وقد أعطيتُهم وأعطَوني، أعطيتُهم خِبرةَ الأيام، وثمارَ مجالسةِ أهل العلم ومشافهتِهم والرِّوايةِ عنهم، وأعطَوني حماسةَ الشبابِ وتوقُّدَه. . .، وهكذا، مضت أيامي معَ هؤلاء الأحباب، فقضيتُ معَهم وبهم أحلىٰ الأوقات، وسَعِدتُ بأكرم جِوار، ونَعِمتُ بأرحَبِ دار، ولولا أكبادُنا التي تمشي علىٰ الأرض لما كان لي عن هذه الديار مَذهَبٌ ولا مُتحوَّل. .»[1].

واستمر الطناحيُّ في مكةَ ــ زادها اللّه تعظيماً ــ حتىٰ نهاية العام الدراسي ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، حيث استقال وآبَ راجعاً إلىٰ أرضِ الكِنانة للاستقرار النهائي. وفي سنة ١٩٩١م عُيِّن أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة ــ فرع الفَيّوم (هي الآن: كلية دار العلوم ــ فرع الفيّوم)، ثم رئيساً لقسم النحو والصرف بالكلية نفسها. ثم رُقِّيَ إلىٰ رتبة أستاذ سنة ١٩٩٥م، عمل بعدَها ــ سنةَ ١٩٩٦م ــ أستاذاً ورئيساً لقسم اللغةِ العربيةِ وآدابها بكلية الآداب بجامعة حلوان، وكانت هذه آخرَ وظائفه.

وكان للطناحي إلىٰ جانب ذلك أعمالٌ أخرىٰ، فقد عمل خبيراً بمَجْمَع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وكان عضواً في الهيئة المشترَكة لخدمة التراث العربي بالمنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد إحياء المخطوطات العربية)، وعضواً بالمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، وعضواً بالهيئة الاستشارية العليا لدائرة سفير للمعارف الإسلامية، ومستشاراً بدار هَجَر بالقاهرة.

وخلالَ هذه السنينَ المتطاولةِ كتب الطناحيُّ بقلمه الرشيق وبيانه الرائع في العديد من المجلاّت العربية العريقة كـ(الهلال) و(الأهرام) و(العربي) وغيرها،

---

(١) مقدمة الطناحي علىٰ تحقيقه لـ«منال الطالب» لابن الأثير (١ : ٩).

فضلاً عن مؤلفاته وتحقيقاته، وسيأتي الحديثُ مفصَّلاً عن ذلك كلِّه.

«لقد خدم الطناحي الثقافةَ الإسلامية خيرَ خدمة من خلال موقعه العلمي المتميِّز أستاذاً مبرِّزاً في أعرق الجامعاتِ العربية، وعضواً ومستشاراً وخبيراً في أكبر الهيئات والمؤسَّسات الثقافية العربية، وكاتباً مدقِّقاً في أقدم المجلات الثقافية العربية وأشهرِها، وبما قدَّمَه للمكتبة العربية من مؤلفاتٍ وتحقيقات دلّت علىٰ علمٍ غزير واطلاع وَسِيع وثقافة متبحِّرةٍ قلَّ نظيرُها»(١).

الطناحيّ الإنسان:

ومعَ كل ما تقدّم، فإنّ الطناحيَّ كان زاهداً في الصِّيت والشهرة، عاكفاً علىٰ خدمة أُمّته بهمّةٍ وهدوء، بعيداً عن الأضواء، لكن الأمّةَ التي لا ينقطعُ خيرُها ووفاءُ أبنائها عرَفَتْ له قدْرَه وجهدَه، وطارَ ـ ببركة صدْقِ الطناحي ـ صِيتُه وسُمعتُه العَطِرة. ولعل هناك سبباً آخرَ مهماً وراءَ تلك السيرة الشذية، وهو شخصُ الرجل وخُلُقه الرفيع.

فقد أجمعَ أصحابُ الطناحي وزملاؤه وتلامذتُه وعارفوه أنه كان علىٰ جانبٍ عظيم من الخُلُق والأدب والنبْل والعِفّة، وحسْنِ العشرة والوفاء، وطَلاقةِ الوجه والعَوْن للناس، وردِّ الإساءة بالإحسان، وأنه كان آيةً في الظَّرْفِ والنادرةِ وسرعةِ البديهة، «طبعُه المرَح والدعابة في غير ابتذالٍ أو إخلالٍ بوَقار العلماء»(٢)، معَ صفاءٍ ونقاءٍ تصحبُهما همّةٌ عليّة وألمعيّةٌ متوقّدة.

يقول الدكتور سعد الغامدي: «وهو من الذين جمعوا إلىٰ العلم حُسْنَ الخُلُق، فما حضرَ مجلساً قطّ إلاّ شاعت فيه البهجةُ والمرَح، وتبدّدت فيه الكآبةُ وسقطت

---

(١) من كلمة نجله محمد حفظه اللّه في صدر كتاب «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٧ ـ ٨، مع بعض تصرُّف.

(٢) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص١٨٧ (كلمة أ. د. محمد جبر أبو سعدة).

أقنعةُ التجَهُّم والتكلُّف، واندَحَرتْ أدواءُ النفس وأدرانُها. في هذه الجلَساتِ التي كان يَزِينُها أبو محمد تعلَّمْنا أنّ الحياةَ جِدٌّ وهزل، بكاءٌ وضَحِك، أسَفٌ وأمَل، ظلامٌ ونُور، قيودٌ وحرية. فهذه مسألةٌ عويصة له يدٌ طُولىٰ في إثارتها وبحثها وتقصِّي مناحِيها، وتلك طُرْفةٌ تستخرج الضحكةَ المجلجِلةَ من فمِ الغضوبِ المتزمِّت. نعم، إنها مجالسُ حافلة كان الطناحيُّ زينتَها...»[1].

ويقولُ في ذلك تلميذُه إيهاب أبو ستة الذي تلقّب بـ(غلام الطناحي): «لو أنك لم ترَ في الطناحي رحمه اللّه إلا علمَه لكفاكَ سطرٌ مما كتب، آيةً علىٰ دقةٍ عجيبة، وذهنٍ متيقّظٍ ذَكُور، وصبرٍ كالجبال، وعُمرٍ من الاطّلاع. ولو أنك لم ترَ في الطناحي رحمه اللّه إلا حُنُوَّه وحَدَبَه لكفاك لمحةٌ من بَشاشِ وجهه حينَ يحتضِنُك بسْمُه الآسِر الودود، وهو الذي لم يعرفْك قبلُ، وأنت الذي لمّا تعرفْه بعد، ثم لا يلبث إلا قليلاً حتىٰ ترىٰ أباً يباسِطُ ولدَه في الحديث، فكأنك منه، وكأنه منك. يُلقي علىٰ مَسمَعِكَ الطُّرْفةَ والنادرة، فتشعر كأنما رتّب كلامَه لكلامِك، وأعدَّ جوابَه لسؤالِك حتىٰ ترتاب. وترىٰ أمامَك جبلَ علم، ووادِيَ حنان، ونهْرَ أبوّة، ونسيمَ ظَرْف، وكلُّ ذلك ملفَّفٌ في بِجادٍ من تواضع يَذْهَلُك بفَرْطِه حتىٰ تنسىٰ أنك في حضرةِ أستاذٍ جليل، يحمِلُ إليكَ اللقمة ليضعها في فيك! أو ينازعُكَ حملَ الكوبِ لك، و...، و...، حتىٰ تراكَ قد هَلَكْتَ بتواضُعِه المطبوع، وتصاغَرْتَ أمام نفسه الرضيّة، فإذا لمحَ ذلك منكَ هدّأ رَوعَك، وسكّن جزَعَك، وأبان عن خبيئتِه في خُلُقه، بأنَّ السرَّ في هؤلاء الذين جالَسَهم طولَ العُمر. ولا يترك لك تَكرارَ التسآلِ حتىٰ يُلقِيَ البُشرىٰ بأنك يوماً ما ــ لو ظللتَ علىٰ الدرْب ــ ستصل إلىٰ ما وصلَ إليه، لكن لا تَستَطِلِ الطريق، وإياك والكسَل، وإياكَ والملل.

ولا يفتأُ يخُطُّ لك الدرب، مُلقِياً الصُّوىٰ، مُزْجِياً ما خبَرَه إليك سهلاً رَهْواً،

---

(١) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٦٩ (كلمة أ. د. سعد حمدان الغامدي).

يختصُّك في كل مناسبةٍ للقول ببعضِ الكلام، يَميلُ بك فيه إلىٰ العربية، وكِتَابِها مخطوطاً ومطبوعاً، ومن وراء ذلك حديثُ القراءة، والإخلاص، وأنه حتىٰ يومِه هذا يقرأ، ويَستظهِر، ويردِّدُ كالطّلاب! ثم يقيِّدُ في دفترِه، وعلىٰ حاشيةِ كتابه، لتنظرَ فتراكَ أمامَ طالبِ علمٍ علىٰ درجة أستاذ، فإذا أنت أردته فهاك السبيلَ أمامك، قد بيَّن لك مدارجها، بجوامع كَلِمٍ تعجَبُ له، يردِّدُه لك وكأنه يريد مزجَكَ به حتىٰ يُحكِمَ كلَّ خطاك، ويُجَنِّبَكَ كلَّ صواب، ويُجنِّبَكَ كلَّ خطأ. . . هذه أخلاقُ رجلٍ ولَجَ بابَ العربية يحمِلُ عِبءَ الذودِ عنها، فينضَحُ بنَبْلِ مُخالقةِ الناسِ بخُلُقٍ حسَن، ويُجالِدُ بسيفِ علمٍ لا يُفَلّ. . . »[١].

آثار الطناحيّ:

وأعني بها تراثَه العلميَّ المدوَّن، وقد قسّمتُه إلىٰ ستة أقسام:

الأول: مؤلفاتُه.

الثاني: تحقيقاتُه.

الثالث: بحوثُه.

الرابع: فهارسُه.

الخامس: مقدِّماتُه ومراجعاتُه لكتبِ غيرِه.

السادس: مقالاتُه في الصحُف والمجلات.

ومجموعُ ما بينَ أيدينا من مؤلفاتِ الطناحي وتحقيقاته وبحوثه: نَيِّفٌ وأربعون عنواناً منها ما هو في عدّة مجلّدات، فضلاً عن مقالاتِه التي جاءت في مجلّدَين،

(١) من الكلمة الرفيعة التي ألقاها الأستاذ إيهاب أبو ستة (غلام الطناحي) في حفل التأبين الذي أقيم بالفيوم بكلية الدراسات العربية الإسلامية ــ جامعة القاهرة، ثم نُشرت في كتاب «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٣٤ ــ ٣٦.

ومنشوراتٍ أخرىٰ[١]. وهو نِتاجٌ وفير، خصوصاً بالنظر إلىٰ: نَمَطه العميق في البحث والتحرير، وإلىٰ: ما فيه من مخطوطاتٍ مستغلِقة توفَّرَ الطناحيُّ علىٰ تذليلها وتفتيح أقاحِها، وصرَفَ في ذلك الجهدَ الباهظ والزمنَ المديد، معَ قلّةِ المعاوِن، وغُربة العلم، وعناءِ التحقيق الذي لا يدريه إلا مَن تكبّد وَعْثاءه، هذا معَ ما أنفقه في أعباء التعليم والتوجيه سنينَ. . . ولن ترىٰ حينَها وجهاً لكلمة الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد الخرّاط بأنّ الطناحيَّ كان مُقِلاً[٢].

ولْنسرد ما حواه كل قسمٍ من الأقسام المذكورةِ آنفاً، وقد رتبتُ محتوياتِ كلِّ قسم علىٰ حسب سنةِ النشر:

أولاً: مؤلَّفاتُه:

١ ــ «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي»، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٢ ــ «التصحيف والتحريف»، محاضرة نُشرت في ذيل الكتاب السابق، ثم نُشِرَت بعد وفاته في كتاب «في اللغة والأدب، دراساتٌ وبحوث» (٢: ٤٥٧ ــ ٤٨٩)[٣].

٣ ــ «الموجَز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم»،

---

(١) كمقدماته لبعض تآليف غيره، ومراجعاته، وأشياء أُخَر.

(٢) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٢٣ (كلمة أ. د. أحمد محمد الخرّاط).

(٣) هذا المجموع المسمّىٰ: «في اللغة والأدب، دراساتٌ وبحوث»، الذي طُبِعَ بدار الغرب الإسلامي ببيروت سنةَ ٢٠٠٢م: سِفْرٌ من مجلّدين، جمعَ فيه الأستاذ محمد ابن الفقيد العلاّمة محمود الطناحي، بحوثَ والده المتفرقة التي نُشِرَت في دوريات أو أُلقيت في مؤتمرات، وقد حُفِظَت بذلك وأصبحت تراثاً مجموعاً قريب المنال بين أيدي الباحثين ومحبّي الطناحي، فجزىٰ الله محمداً الطناحيَّ خيراً كِفاءَ هذا الوفاء الجميل لوالده وللعلم.
وقد أشرتُ عند تعداد أعمال الطناحي وبحوثه إلىٰ ما أُعيد نشرُه منها في هذا المجموع، وعيّنتُ محلَّه فيه.

مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

٤ ــ «الفهرس الوصفي لبعض نوادر المخطوطات» بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٥ ــ «الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر، تاريخ وتحليل»، نشرَتْه دارُ الهلال ضمن سلسلة (كتاب الهلال) الشهرية، أغسطس ١٩٩٦م.

٦ ــ «من أسرار اللغة في القرآن والسنة»، معجَمٌ لغويٌّ ثقافي، وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

ومما تجدُر الإشارةُ إليه هنا أنّ الطناحيَّ رحمه اللّه كان مهتَمّاً بإكمال كتاب العلاّمة أحمد تَيمور باشا: «الأمثال العامية» بكثيرٍ من الأمثال التي فاتت تَيمورَ[١] ووعاها الطناحيُّ من مسموعاتِه الحياتية[٢]، وأخبرني ولدُه محمدٌ، سَلَّمه اللّه، أنّ ذلك كان مجرَّدَ ملاحظاتٍ قيّدها والدُه علىٰ طُرّة الكتاب المذكور، ولم يتعدَّ الأمرُ ذلك. وأخبرني أيضاً أنّ والدَه رحمه اللّه ذكرَ له قبلَ وفاتِه بأيام قليلة أنه جمع مادةً لدراسةٍ واسعةٍ حولَ (الموشَّحات). فسبحانَ الذي جعلَ لكلِّ أجلٍ كتاباً، ولكلِّ (كتابٍ) أجَلاً!

ثانياً: تحقيقاتُه:

١ ــ «النهاية في غريب الحديث والأثر»، لمجد الدِّين ابن الأثير، المتوفّىٰ سنة ٦٠٦هـ، (خمسة أجزاء)، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي بالقاهرة، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م[٣].

---

(١) تيمور: لفظةٌ أعجمية (تركية)، معناها: الحديد، كما ذكر ذلك أحمد تيمور نفسُه في كتابه «تاريخ الأسرة التيمورية» ص٧، فهي ممنوعةٌ من الصرف للعَلَمية والعُجمة.

(٢) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص١٠٤ ــ ١٠٥ (كلمة أ. عبد الرحمن شاكر).

(٣) هذا التاريخ للمجلّد الأول فحسب، وكذلك في «طبقات الشافعية الكبرىٰ». وقد صدرت=

٢ ــ «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، لتاج الدين السُّبكي، المتوفّىٰ سنةَ ٧٧١هـ، (عشرة أجـزاء بالاشتراك مع صديـق عمـره الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه اللّه)، الطبعة الأولىٰ بمطبعة عيسىٰ البابي الحلبي بالقاهرة، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م، والطبعة الثانية بدار هَجَر بالقاهرة سنة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٣ ــ «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، لتقي الدِّين الفاسي، المتوفّىٰ سنةَ ٨٣٢هـ، (الجـزء الثامـن منه فقط)، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م.

٤ ــ «كتاب الغريبين»: غريبَي القرآن والحديث، لأبي عبيد الهروي، المتوفّىٰ سنـةَ ٤٠١هـ (الجـزء الأول)، المجلـس الأعلىٰ للشـؤون الإسـلاميـة بالقـاهرة، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

٥ ــ «الفصـول الخمسون» في النحـو، لابن معطـي، المتوفىٰ سنة ٦٢٨هـ، وهو رسالتُه لنَيل درجة (الماجستير) من كلية دار العلوم، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي بالقاهرة، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٦ ــ «تاج العروس من جواهـر القامـوس»، للسيّد محمـد مرتضىٰ الزَّبيدي، المتوفىٰ سنةَ ١٢٠٥هـ، (الجزء السادس عشر)، وزارة الإعلام بالكويت، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٧ ــ الجزء الثامن والعشرون منه، الكويت، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٨ ــ أرجوزة قديمة في النحو لليشكري، المتوفّىٰ سنة ٣٧٠هـ، نُشرت ضمن

= الأجزاء الثلاثة الأولىٰ من «النهاية» مقروناً فيها اسم العلاّمة الطناحي باسم الشيخ طاهر أحمد الزاوي مفتي ليبيا. وقد أوقفني محمد الطناحي علىٰ نسخة والده من «النهاية» التي في مكتبته الخاصـة وعليهـا زيـاداتٌ وتصحيحاتٌ كثيرة بخطه رحمه اللّه، ويُتوقـع صدور الكتاب في المستقبل في طبعة جديدة مخدوماً بإشراف الأستاذ محمد الطناحي، وفّقه اللّه تعالىٰ.

كتاب: «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلىٰ أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين»، مطبعة المدني بالقاهرة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م. ثم نُشرت في كتاب «في اللغة والأدب» (١ : ١٣٩ ـ ١٥٣).

٩ ـ «منال الطالب في شرح طوال الغرائب»، لمجد الدِّين ابن الأثير، المتوفّىٰ سنة ٦٠٦هـ، (جزءان)، الطبعة الأولىٰ بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ـ جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، والطبعة الثانية بمكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م. وقد حصل هذا الكتاب علىٰ الجائزة الأولىٰ في تحقيق التراث بمجمَع اللغة العربية بالقاهرة.

١٠ ـ «كتاب الشعر» أو: «شرح الأبيات المشكلة الإعراب»، لأبي علي الفارسي، المتوفّىٰ سنة ٣٧٧هـ، (جزءان)، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١١ ـ «أمالي ابن الشجري»، المتوفىٰ سنة ٥٤٢هـ، المشتملة علىٰ ٨٤ مجلساً، منها (٤٩) مجلساً حصل بها المحقق علىٰ شهادة (الدكتوراه) من كلية دار العلوم، ثم نشر كاملَ الكتاب في ثلاثة أجزاء بمكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

١٢ ـ «ذكر النسوة المتعبِّدات الصوفيات»، لأبي عبد الرحمٰن السُّلَمي، المتوفَّىٰ سنة ١٤١٢هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٣ ـ «أعمار الأعيان»، لابن الجوزي، المتوفّىٰ سنة ٥٩٧هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

ثالثاً: بحوثُه:

١ ـ كتاب «الفَرْق» (بين صفات الإنسان وصفات الحيوان)، لثابت بن أبي ثابت، من علماء القرن الثالث الهجري، عَرْضٌ لنشْرته، وتعريفٌ بمخطوطةٍ ثانيةٍ له

اكتشفهـا الدارس في خزانة القروييـن بفـاس، مجلـة مجْمَـع اللغة العربية بدمشق، المجلـد ٥١، ج٢، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م. ثم نُشِـرَ هذا البحث ثانيـةً في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ١٩ ــ ٤١).

٢ ــ «التنبيه علىٰ خطأ (الغريبَيْن)»، للحافظ أبي الفضل ابن ناصر السَّلاَمي[1]، المتوفّىٰ سنة ٥٥٠هـ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، جامعة أم القرىٰ ــ مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٤٣ ــ ٥٥).

٣ ــ «مجدُ الدِّين ابنُ الأثير وجهودُه في علم غريب الحديث»، بحثٌ شارك به سنةَ ١٩٨٢م في نـدوة «أبنـاء الأثير» بالموصل الآتي ذكرُها. ثم نُشِرَ هذا البحث في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٣٩٣ ــ ٤٥٦).

٤ ــ «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»، بحثٌ شارك به سنةَ ١٩٩٠م في ندوة «مستقبل التعليـم في مصر» الآتي ذكرُها. ثم نُشِرَ هذا البحث بعدُ في كتاب «في اللغة والأدب» (٢: ٧٤٣ ــ ٧٨١).

٥ ــ «ديوان المعاني» لأبي هلالٍ العسكري المتوفّىٰ بعد ٣٩٥هـ، وشيءٌ من التحليـل والدراسـة العروضيـة، المجلَّـد ٦٦، ج١، ٣، مجلة مجْمَع اللغة العربية بـدمشـق، ١٤١٠، ١٤١٢هـ = ١٩٩٠، ١٩٩١م. ثم نُشِـر في كتـاب «فـي اللغـة والأدب» (١: ١٥٥ ــ ٢٠٧). وللطنـاحيِّ فهرسٌ لأشعـار «ديـوان المعاني»، يأتي ذكرُه في فهارسه.

٦ ــ «جموع التكسير والعُرْف اللغوي»، مجلة مجْمَع اللغة العربية بالقاهرة،

---

(١) بفتح السيـن المهملة، وتخفيف اللام ألف، نسبةً إلىٰ مدينة السلام (بغداد). «اللباب» لابن الأثير (١: ٥٨٣).

المجلَّد ٧١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (٢: ٥٤٧ ــ ٦٢٣).

٧ ــ «المتنبي»، للأستاذ محمود محمد شاكر، بحثٌ استعرض فيه الكتابَ المذكورَ وقضاياه، وطرفاً من سيرة مؤلِّفِه. نُشِرَ في موسوعة عصر التنوير (أهم مئة كتاب في مئة عام) (١: ٣١١ ــ ٣٢٤)، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٢م. ثم نُشر في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٢٠٩ ــ ٢٣١).

٨ ــ «الرسالة»، للإمام الشافعيّ، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، بحثٌ تحدَّث فيه عن الشافعي في كتابه المذكور، ومنهج الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه، مع طرفٍ من سيرة شاكر. نُشِر في موسوعة عصر التنوير (أهم مئة كتاب في مئة عام) الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٩٣م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٢٨١ ــ ٢٩٤).

٩ ــ «شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي»، لابن بَرِّي المصري المتوفَّىٰ سنة ٥٨٢هـ، عرضٌ ونقد، مجلة مجْمَع اللغة العربية بالقاهرة، المجلَّد ٧٢، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٢٣٣ ــ ٢٨٠).

١٠ ــ دار العلوم ومكانتها في البعث والإحياء، نُشِر في الكتاب التذكاري للاحتفال بالعيد المئوي لدار العلوم سنة ١٩٩٣م، ثم نُشِرَ في كتاب «في اللغة والأدب» (٢: ٨٢٥ ــ ٨٥٦).

١١ ــ أوائل المطبوعات العربية في مصر، بحثٌ شارك به سنةَ ١٩٩٥م في ندوة «تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسعَ عشر» بدبي الآتي ذكرُها. ثم نُشِرَ هذا البحث في كتاب «في اللغة والأدب» (٢: ٦٢٥ ــ ٧٠٧).

١٢ ــ قضيةُ إنقاذ المخطوطات، ما تحقّق منها وما لم يتحقّق، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة

والأدب» (٢ : ٧٠٩ ــ ٧٤٢).

١٣ ــ كتاب «صنعة الشعر» لأبي سعيد السِّيرافي، تحقيق نسبته ونقد نشرته، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (١ : ٢٩٥ ــ ٣٤٠).

١٤ ــ كتاب «الردة والفتوح» وكتاب «الجمل ومسير عائشة وعلي»، لسيف بن عمر التميمي، عرضٌ ونقد، نُشِرَ ضمن الكتاب التذكاري للعلاّمة الدكتور ناصر الدين الأسد، المنشور بعنوان: «قطوف أدبية مهداة إلىٰ ناصر الدين الأسد»، الأردن، ١٩٩٧م. ويقع البحث فيه في المجلَّد الثاني من ص١٢٢٧ إلىٰ ص١٢٧٥. ثم نُشِرَ البحث كاملاً في كتاب «في اللغة والأدب» (١ : ٣٤١ ــ ٣٩١).

١٥ ــ لغتنا المعاصرة والثقة الغائبة، بحثٌ شارك به الطناحيّ سنةَ ١٩٩٧م في ندوة «اللغة العربية المعاصرة في مصر» الآتي ذكرُها. ثم نُشِر في كتاب «في اللغة والأدب» (٢ : ٧٤٣ ــ ٧٨١)، نقلاً عن النسخة التي بخط الطناحي كما أخبرني ولدُه محمد.

١٦ ــ ثقافةُ المفهرِس، بحثٌ شاركَ به سنةَ ١٩٩٨م في ندوة «قضايا المخطوطات» الثانية الآتي ذكرُها، ونُشِرَ في الكتاب الذي جُمعَتْ فيه بحوث تلك الندوة: «فن فهرسة المخطوطات، مدخل وقضايا» ص١٨٩ ــ ١٣٤. ثم نُشِرَ ثانيةً في كتاب «في اللغة والأدب» (٢ : ٧٨٣ ــ ٨٢٤).

ولعلَّ مِن الخير أن أذكُرَ هنا الندواتِ العلميةَ التي شاركَ فيها الأستاذُ الطناحيّ، وقد مرَّ ذكرُ بعضِها أثناءَ توصيفِ البحوث، وأسوقُها هنا جميعاً:

١ ــ ندوة «أبناء الأثير» التي عقدتها جامعة الموصل بالجمهورية العراقية (مارس ١٩٨٢م)، شارك فيها ببحثه: «مجد الدِّين ابن الأثير وجهوده في علم غريب الحديث»، وقد تقدّم.

٢ ــ ندوات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (لندن)، التي عقدتها المؤسسة لدراسة المخطوطات الإسلامية وفهرستها: القاهرة ــ يناير ١٩٩٤م، إصطنبول ــ سبتمبر ١٩٩٤م، لندن ــ يونيه ١٩٩٥م.

٣ ــ ندوة «تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسعَ عشر» التي أقامها مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبي، أكتوبر ١٩٩٥م. وشارك فيها ببحثه: «أوائل المطبوعات العربية في مصر»، وقد تقدَّم.

وقد تحدَّث الطناحيُّ رحمه اللّه عن ندوة جمعة الماجد هذه وبحثِهِ فيها في مقالةٍ نشرتها «الأهرام» المصرية في ٢٣/ ٢/ ١٩٩٦م عنوانها: «من حصاد الندوات: أولية الطباعة العربية في مصر»[١]، وبعدَها بأشهر أتمَّ كتابَه «الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر» الذي نشرتْه دارُ الهلال، وقد تقدَّم ذكرُه.

٤ ــ ندوة «المحافظة علىٰ كنوز التراث الإسلامي» التي عقدت علىٰ هامش الدورة الثالثة للمجلس التنفيذي لمؤتمر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عمّان ــ الأردن، سبتمبر ١٩٩٦م.

٥ ــ ندوة «اللغة العربية المعاصرة في مصر»، التي أقامها المجلس الأعلىٰ للثقافة، إبريل ١٩٩٧م. شارك فيها ببحثه «لغتنا المعاصرة والثقة الغائبة»، وقد تقدَّم.

٦ ــ ندوة «علي الجارم»، التي أقامها المجلس الأعلىٰ للثقافة سنةَ ١٩٩٨م.

٧ ــ ندوة «قضايا المخطوطات» الثانية، التي عقدها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة في ٢٧ ــ ٢٨ سبتمبر ١٩٩٨م، وشارك فيها ببحثه «ثقافة المفهرس»، وقد تقدَّم.

---

(١) ثم نُشرت هذه المقالة بعد وفاته في «مقالاته» (٢: ٤٢٩ ــ ٤٣٣).

٨ ــ ندوة «مستقبل التعليم في مصر» التي أقامها نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط[١] سنةَ ١٩٩٠م، شارك فيها ببحثه: «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»، وقد تقدَّم.

يُضافُ إلىٰ ذلك:

٩ ــ مشاركته في تدقيق وتحرير (مدخل قاموس القرآن الكريم) الذي أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

١٠ ــ تحريره لمادة «أحمد محمد شاكر» في دائرة المعارف الإسلامية التي تصدر في إصطنبول باللغة التركية.

١١ ــ مشاركته في تقييم برامج كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ــ الإمارات العربية المتحدة، نوفمبر ١٩٩٦م.

رابعاً: فهارسُه:

١ ــ فهارس كتاب «غريب الحديث»، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم، المتوفّىٰ سنة ٢٢٤هـ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م. وهو فهرسٌ لما حواه الكتابُ من الشعر واللُّغة. وقد نُشِر هذا الفهرس ثانيةً في كتاب «في اللغة والأدب» (١: ٥٧ ــ ١٣٧).

٢ ــ فهارس كتاب «الأصول في النحو»، لابن السّرّاج، المتوفّىٰ سنة ٣١٦هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٣ ــ فهرس الأشعار لكتاب «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، المتوفّىٰ بعد سنة ٣٩٥هـ، مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، المجلدان ٣٧ و٣٨، ١٤١٣،

(١) «مقالات الطناحي» (١: ٣٦١).

١٤١٤هـ = ١٩٩٣، ١٩٩٤م. ثم نُشِر في نهاية المجلَّد الثاني من «ديوان المعاني» (ص١٠٨٣ ـ ١١٧٨)، من طبعة دار الغرب الإسلامي سنةَ ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م، التي حققها أحمد سليم غانم.

٤ ـ فهرس كتاب «فعلت وأفعلت» للزجّاج، بتحقيق الدكتور جليل العطية، ولا يزال مخطوطاً، وبحَوزة صديق الطناحي: الدكتور عبد الرحمٰن العارف نسخةٌ منه[(١)].

خامساً: مقدِّماتُه ومراجَعاتُه:

قدَّم الطناحيُّ رحمه اللّه ـ في حدود علمي ـ بين يدي الكتب الآتية:

١ ـ «الطب النبوي»، لابن قيّم الجوزية الحنبلي المتوفّىٰ سنة ٧٥١هـ، طبعة مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي بالقاهرة، سنةَ ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م. وعنوان تقدِمته لهذا الكتاب: «نبذةٌ في تاريخ الطب العربي».

٢ ـ «من إعجاز القرآن في أعجميّ القرآن»، العَلَم الأعجمي في القرآن مفسَّراً بالقرآن، للأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة، دار الهلال بالقاهرة، ١٩٩٣م.

وقد نُشِرَ هذا التقديم في يناير سنة ١٩٩٤م بمجلة الهلال[(٢)]، ثم نُشِرَ ثانيةً في «مقالات الطناحي» (١ : ٢٧٠ ـ ٢٧٩).

٣ ـ «محمود محمد شاكر، قصة قلم»، للكاتبة الراحلة عايدة الشريف، نشرَتْه دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٩٧م، بعد أشهُرٍ من وفاة مؤلِّفته. وعنوان تقدمة الطناحي: «عايدة الشريف وأيامٌ من البهجة».

---

(١) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص١٠٠ (كلمة د. عبد الرحمن حسن العارف).

(٢) كما يستفاد من هامش ص٢٧٠، من الجزء الأول من «مقالات الطناحي».

ومن الكتب التي راجعها:

١ ــ «أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلَيْ صِفّين»، لأبي الخطّاب ابن دِحْية المتوفّىٰ سنة ٦٣٣هـ، نشر دار الغرب الإسلامي ببيروت سنةَ ١٩٩٨م(١).

٢ ــ «غريب الحديث»، للإمام أبي إسحاقَ إبراهيمَ بن أسحاقَ الحَرْبي المتوفّىٰ سنةَ ٢٨٥هـ، (المجلَّدة الخامسة)، بتحقيق تلميذه الدكتور سليمان بن إبراهيمَ العايد. قال العايد في مقدمة تحقيقه للكتاب المذكور (١ : ١٣): «ولا يسعني أن أنسىٰ فضلَ من كان لهم عليَّ فضل، وأخصُّ منهم الدكتور راشد بن راجح الشريف. . . والدكتور محمود محمد الطناحي، الذي أتمَّ الإشراف وقرأه [أي البحث] من أوله إلىٰ آخره. أشكرُهما لقاءَ ما أولياِنيه مِن عنايةٍ وتسديدٍ ونصحٍ وتوجيه، وإرشادٍ لمظانّ البحث وطرائقه».

٣ ــ «التذكرة في القراءات»، لأبي الحسن ابن غَلْبون المتوفّىٰ سنةَ ٣٩٩هـ، بتحقيق تلميذه المقرىء الدكتور أيمن رشدي سويد، حيث قابل الكتاب معه كلمةً كلمة، يعلِّمُه خلال ذلك أصولَ التحقيق والتعامل معَ النصوص(٢).

سادساً: مقالاتُه:

كتب الطناحي رحمه اللّٰه مجموعةً من المقالات العلمية الماتعة، في عددٍ من المجلاّت الثقافية الجادّة والصُّحف السيّارة، كـ(الرسالة الجديدة)، و(الهلال) و(الكتاب العربي) و(الثقافة) و(المجلة) و(الشعر) و(الأهرام) و(مجلة معهد المخطوطات)، وغيرها من صُحفِ ومجلاّتِ القاهرة، ومجلتَي مجمَعَي اللغة العربية: القاهري والدمشقي، و(العربي) الكويتية، و(دعوة الحق) المغربية،

---

(١) والغريب أنه لم يُشَر في الكتاب أدنىٰ إشارة إلىٰ جهد العلاّمة الطناحي أو ملاحظاته العلمية أثناء المراجعة، سوىٰ ما كُتب علىٰ الغلاف: (مراجعة الدكتور محمود الطناحي)!

(٢) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٢٨ (كلمة د. أيمن رشدي سويد).

و(مجلـة كليـة اللغـة العربية بجامعة أم القرىٰ) بمكة المكرمـة، وصحيفة (المدينة) السعودية، وغيرها.

وهذه المقالاتُ البديعة أبانت عن تمكُّنِه الشديد من الثقافة العربية، مع قدرةٍ علىٰ الإبانةِ في أسلوبٍ طَليٍّ وجذّاب، ومَنْ يُطالع هذه المقالات يعلمُ أنّ الرجلَ قد احتشَـدَ لها واستعد، فهي ليست مما يقرؤه الناس من بعـض الأقلام تحملُ خواطر وآراء، إنما هي وعاءُ علمٍ وأدب، نثرَ فيهـا غواليَ من الفوائـد اللغويـة والتـاريخية وغيرها، وهي خلاصةُ خبرته ومطالعاته الطويلة ومشافهته لأهل العلم[١].

وقد كـان أولُ جمْع لهـذه المقـالات في عـام ١٩٩٩م، عامَ توفـيَ سقىٰ اللّه جدَثَه، حيث رأت (مجلّة الهلال) المصرية أن تكرّم الفقيدَ بإعادة نشر بعض مقالاته، فتخيّرت منها ثماني عشرةَ مقالة[٢] وطبعَتْها مجموعةً تحت عنوان: «مستقبل الثقافة العربيـة»[٣]، ثم نشط ولدُه البارّ محمـد، فجمع جُـلَّ مقـالاتِ والدِه، ونُشرت في مجلَّدَين بعنـوان: «مقالات العلاّمـة الدكتور محمود محمد الطناحي، صفحاتٌ في التـراث والتراجـم واللغة والأدب»، طبعَتْها في بيـروت دارُ البشائر الإسلامية سنةَ ٢٠٠٢م[٤]. ومجموعُ تلكَ المقالات ٦٨ مقالةً.

---

(١) اقتبستُ طرفاً مما هنا من كلام الأستاذ الأديب أحمد تمّام في مقالته «الطناحي، العالِمُ والإنسان».

(٢) وقع سهواً في كـلام الدكتـور محمد سليم العوّا ــ في كلمتـه في كتـاب «محمـود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص١٩٢ ــ أنها ١٣ مقالة، وليس كذلك.

(٣) وليس من الصواب أن يدرج هذا المجموع بهذا العنوان بوصفه كتاباً من مؤلفات الطناحي، كما صنـع صديقـي الأستاذ أحمد العلاونة في كتابه «محمـود الطناحي عالم العربية وعاشق التراث» ص٩٦، وكذا كان يعزو إليه في تضاعيف كتابه، فالعنوان من وضع المجلة، فينبغي أن يقال عند العـزو إليه: من مقالات الطناحي المنشورة بعنوان «مستقبل الثقافة العربية».
ثم إنّ هذه المقالات الثماني عشرةَ نُشِرَت بتمامها ثانيةً في «مقالات الطناحي» (طبع البشائر الإسلامية ــ بيروت) الآتي الحديث عنها.

(٤) وهي طبعـةٌ أنيقة، مصحَّحةٌ مفهرَسة. ولكل من سعىٰ في إخـراج تلك المقـالات ــ محمد=

الطناحيّ في جوار الحقّ:

في صباح الثلاثاء، السادس من ذي الحجة الحرام، سنةَ ١٤١٩هـ، (٢٣/ ٣/ ١٩٩٩م)، في الدقيقةِ الخامسةَ عشْرةَ بعدَ السابعة، بعد أربعةٍ وستين عاماً أمضاها في هذه الدنيا، وإثرَ نوبةٍ قلبيةٍ مفاجئة، فاضت روحُ محمود الطناحي إلىٰ بارئها. . .

لقد اعتاد الطناحيّ أن يخرجَ بعدَ صلاة الفجر، يتمشّىٰ حول حديقةٍ عامةٍ قربَ منزله بمدينة نصر، تُدندنُ شفتاهُ بذكر اللّه معَ أنفاس كلِّ صباح، ثم يقفل إلىٰ بيته ليتلوَ من كتاب اللّه. وكان ذلك آخرَ ما جرت به أنفاسُه الطاهرة. . .

لقد كانت وفاتُه حدَثاً صكَّ الآذان، وخفقَتْ له القلوب، «ولا أظنُّ أحداً عرفَ الطناحيَّ لم يعتصِرْهُ الألمُ ولم تزلزل نفسَه الصدمةُ في فقده»[1]، وأزعمُ أنها كانت فاجعةً أشدَّ مِن وفاة شيخ العربيـة العلاّمـةِ محمود شاكر، الراحل قبلَه بعامين، فقد عُمّر شاكرٌ ما شاء اللّه له وناطحَ التسعين، وكانت وفاتُه مما ترتقبه الأسماعُ علىٰ وَجَل، إذ جاءت بعدَ صراعٍ دام عاماً معَ المرض. ولقد كان لنا في الطناحي عزاءٌ كبير في شاكر، لكن، مَن يكونُ عزاءً لنا في الطناحيِّ الذي فارق الأمّةَ وهو في أَوجِ عطائه، وهي في أشدّ الحاجةِ إلىٰ مثله؟!

= الطناحي، وصديقنا الأستاذ محمد بن ناصر العجمي، والمرحوم الأستاذ الأديب عبد الحميد بسيوني أحد أصفياء الطناحي ــ لكلٍّ منهم أزكىٰ التحية، فقد ذخروا للجيل حقاً مَعالمَ هدىً بنشر تلك الصحائف المباركة.

وقد ندَّ عن هذه المجموعة من المقالات، مقالةُ الطناحي: «عبد السلام هارون، عالِمٌ وتاريخ»، المشارُ إليها في كتاب «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص١٧٩. وقد أشار الطناحي نفسُه إليها وإلىٰ مناسبتها ومعلومات نشرها في كتابه «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث» ص٩٩ (الهامش١).

(١) «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب» ص٤٨ (من كلمة د. توفيق الفيل).

لقد كانت وفاة الطناحي صيحةَ نذير لِمَن بعدَه، ولنا معشَرَ هذا الجيل، لنُهرَع لإنقاذ الأمّة مِنْ أنْ يخلوَ منها أمثالُ أولئك الأعلام الهُداة، ولقد أدمَتِ القلبَ أنّاتُ الطناحي النائحةُ علىٰ رحيلِ الأعلام، أفلا نهضةٌ تُحيي ما فات، وتُوقِظ القومَ مِنَ السُّبات؟!

إنّ مجرَّد سردِ سيرة هذا الرجل وتَعدادِ خِلال الخير فيه، دروسٌ ومقتدىً للجيل الناهد. ولن تَعْقُمَ هذه الأمةُ المباركة ــ وَلُودُ الرجال ــ أنْ تُنجِبَ أمثالَ الطناحي مهما بدا الأُفقُ شاحباً، فالظنُّ باللّه حَسَن.

يرحمُ اللّه الطناحيّ، فقد أفضىٰ إلىٰ ربّه عالماً عامِلاً، ناصحاً لأُمته ودِينِه، وسيبقىٰ ما تركَه مِنْ علمٍ نافع وبيانٍ تراثاً زَكيّاً نَستنيرُ بهَدْيِه، والحمدُ للّه ربّ العالمين[1].

إياد الغوج

---

(١) **مصادر الترجمة:**

ــ «مقالات الطناحي»، نشر دار البشائر الإسلامية ــ بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م.

ــ بحوث الطناحي المنشورة بعنوان: «في اللغة والأدب»، نشر دار الغرب الإسلامي ــ بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

ــ «مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي»، للطناحي، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٤م.

ــ «منال الطالب» لابن الأثير، بتحقيق الطناحي، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

ــ «محمود الطناحي، ذكرىٰ لن تغيب»، إعداد نجله محمد الطناحي، جمع فيه جلَّ ما كُتب في رثاء والده وتأبينه، مطبعة المدني بالقاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.

ــ معلوماتٌ شفاهية أخذتُها من أخي وصديقي الأستاذ محمد نجل العلامة الطناحي، الذي طالع هذه الترجمة كاملةً قبلَ طبعها، وأفادني فوائد مهمةً فيها، ونعمَ الولدُ الصالحُ لأبيه هو، صانه اللّه وحفظه في خيرٍ وعافية.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

مستمعيّ الكرام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يقول الله تعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون» قوله «أتى أمر الله» أي عقابه للمشركين، وقيل هو يومُ القيامة، وقال أبو إسحاق الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم. وقد عبّر سبحانه وتعالى عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقق وقوعه. قال نفطويه: تقول العرب: أتاك الأمرُ، وهو متوقَّعٌ بعدُ. أي أتى أمرُ اللهِ وعدًا فلا تستعجلوه وقوعًا.

وقال ابن قيم الجوزية في كتابه «كنوز العرفان في أسرار وبلاغة القرآن»: التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهًا في التحقيق، والعرب تفعل ذلك لفائدة، وهو أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المضارع الذي لم يوجد بعدُ، كان أبلغَ وآكدَ، وأعظمَ موقعًا، وأفخمَ بيانًا؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها، ومثل ذلك قوله عز اسمه: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه»، فأتى هنا بمعنى يأتي، وإنما حسن فيه لفظُ الماضي لصدقه إثبات الأمر، ودخوله في جملة ما لا بُدَّ منه حدوثه ووقوعه، فصار «يأتي» بمنزلة أتى ومضى.

مستمعيّ الكرام: مما يدل على رحابة العربية وسعة أفقها: أن العرب إذا وضح أمامها مساق الكلام أوقعت بعض أمثلة الأفعال موقعَ بعض، فأوقعوا الماضيَ موضعَ المستقبل، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» أراد: وإذا يقول الله؛ لأن هذا القولَ إنما توجّه من الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام في يوم البعث. ومثله: «ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة» أراد: وينادي؛ لأن هذا النداء إنما يكون يوم القيامة، وجاء ذلك في الشعر في قول الطرماح:

وإني لآتيكم تشكّرَ ما مضى ... من البرّ واستيجاب ما كان في غدِ

أوقع كان في موضع يكون. وجاء عكس ذلك، وهو إيقاع المستقبل في موضع الماضي، في قوله تعالى: «فلم تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبل» أوقع تقتلون في موضع قتلتم، ومثله قوله عزَّ من قائل: «ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل» المعنى: كما عبد آباؤهم. ومما جاء منه ذلك في الشعر قول زيادٍ الأعجم:

فإذا مررتَ بقبرِه فاعقِرْ به ... كُومَ الهجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابحِ
وانضحْ جوانبَ قبرِه بدمائها ... فلقد يكونُ أخا دمٍ وذبائحِ

أراد: فلقد كان. أيها السادة المستمعون: من غريب هذه المادة أن الإتيان يتصرف إلى معانٍ مختلفة، ففي قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرًا» يأت: أي يَعُدْ بصيرًا، لقوله في سورة

نموذج لخطّ العلامة الطناحي من كتابه هذا (من أسرار اللغة)

قالوا في الطَّنَاحي(١)

«لقد قرأت كتاب «الشعر» لأبي عليٍّ الفارسي مخطوطاً، أما بعدَ تحقيق الطناحي له فكأني ما قرأته قبل! فمحمود الطناحي هو أفضل محقق الآن».

العلاّمة محمود محمد شاكر

«لقد أدخلني وفاءُ محمودٍ الطناحي النادرُ في باب التاريخ، الذي مَن دخله لم يخرج منه».

العلاّمة عبد السلام هارون

«لم أُفاجأْ بما رأيت في تحقيق الطناحي للجزء الأول من كتاب «الغريبيْن» للهروي من علائم الجهد والعناية والإتقان، فمن قبلُ رأيتُ نحو ذلك في تحقيقه لكتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير».

العلاّمة أحمد راتب النفاخ

«إن وفاة العالم والمحقق الكبير، والصديق العزيز، الأستاذ الدكتور محمود الطناحي، لخسارةٌ كبيرة للعلم والبحث الجامعي، ولأصدقائه وطلابه وعارفي فضله».

أ.د. ناصر الدين الأسد

---

(١) وهي كلماتٌ انتقاها وحرَّرها الأستاذ محمد محمود الطناحي، حفظه اللّه.

«إنّ لِفراقِ الأخ والصديق العزيز، العلاّمة الأستاذ الدكتور محمود الطناحي، أثراً كبيراً في نفوس إخوانه ومحبيه الذين افتقدوا علمه وفضله ولطفه».

أ. إبراهيم شَبُّوح

«لقد كان الطناحي رحمه اللّه ــ في كل مكان ينزل فيه ــ فارساً من فرسان التراث العربي المجيد، ورجلاً من رجالات اللغة البارزين، ولقد خسرت الأمة الإسلامية بوفاته عالماً من أجل علمائها، وخسرتُ أنا شخصياً بفقده أخاً غالياً وصديقاً عزيزاً، وخسر زملاؤه العارفونَ له بعلم وافر وعطاء متصل وخلق رفيع، وتداً من أوتاد التراث في وطننا العربي».

أ.د. عبد اللّه يوسُف الغنيم

«لقد تابعتُ كتابات الطناحي في مجلة «الهلال»، وأحمَدُ له دائماً هذا النزوعَ نحو التحقيق والتثبت، وتصحيح المفاهيم والنقد العلمي الرصين، والتعريف بأمهات كتب التراث العربي، مما يجعله في طليعة العلماء الأكادِيميين المشتغلين بالثقافة والتراث العربي، والمنقطعين إلىٰ العلم تدريساً وتطبيقاً».

د. عبد العزيز بن عثمان التوَيْجري

«إنّ الباحِثينَ مدعوونَ إلىٰ العكوف علىٰ دراسة منهج الطناحي وقراءة كتبه، وقبلَ هذا تمثُّلِ مراحل حياته التي أوصلته إلىٰ هذه القمة العالية من العلم والفضل، والتي تُصوّرُها سيرة حياته الثرية بالتجارِب، ثم الاستفادةِ من تلك التجاربِ التي صقلته، والتي سطر منها كثيراً في كتبه وهوامشه».

أ.د. عبد اللّه حمد محارب

«إن الطناحي ــ وإن غادر الحياة الفانية بجسده ــ إلا أنه لا يزال يعيش بين الناس بأخلاقه وعلمه وفضله، فلقد فقدتْ ساحة العلم والمعرفة وتحقيقِ التراث برحيله واحداً من أهم وأبرز رجالاتها معرفة وخبرة ودراسة».

أ.د. عبد اللّه بن عبد الرحيم عسيلان

«لقد لقي الطناحي ربَّه وهُو مرابط في ثغر اللغة العربية يدفع عنها البلايا ويذود عن حياضها، فقد عاش رحمه اللّه طيلة حياته منغمساً في بحر الحياة الثقافية العربية، سابحاً في محيط الفكر العربي، وقد ماج كلاهما في عمُرِه القصير الكثير العطاء بآلاف الأفكار والأحداث التي أدلىٰ فيها بدلوه، فكان عادلاً لا يجور، منصفاً لا يحيف، وكان ميزانُ هذه العدالة ومعيار ذلك الإنصاف يتمثل في عوْدِه الدائب إلىٰ قضية اللغة العربية وحراستها والذوْد عن حياضها والرباط في ثغورها».

د. محمد سليم العوّا

«الطناحي هُو خلاصة السلف الكريم من أعيان المحققين وشيوخ اللغة والأدب، وسلالة النبع الرَّوي من جبابرة التراث العربي الأصيل، ووارث علم السلف العظيم الذي حفظ للسان العربي عبَقَ القدامىٰ في قواريرَ عصريةٍ، وبقيةَ ما ترك الأصمعي والمبرد وابن الأثير، موصولاً بالأخويْن: أحمد ومحمود شاكر وعبد السلام هارون... ولكننا علىٰ الرغم من هذا فإننا لم نفد منه الإفادة المرجوة، فهو مدرسة قائمة بذاتها في تحقيق التراث، ولم نُفد منه عضواً بمجمع اللغة العربية، وكثيرون من أعضائه ليسوا في قامته.

يا أبا محمد، لقد رحلتَ فجأةً، فالتاعَتْ لرحيلك أفئدة، وبرَدَت أفئدةٌ أخرىٰ كان وجودُك يذكّرُها بنقصها، وقد تركتَ محبِّيك ـ وهم كثير ـ أكباداً وارية... فأيُّ عِلمٍ رُفع برحيلك!».

أ. د. عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام)

«لقد اتصلَتِ الأسباب بيني وبين محمود الطناحي علىٰ مدىٰ سنوات طوال، فلم أعرف فيه إلا دماثة الخلق وطيب العشرة وحب الخير للجميع، يجمع ذلك إلىٰ التواضع وعدَم الإدلال بعلمه، والوفاء لأساتذته وزملائه، وعفة اللسان. لقد حورِب حتىٰ في رزقه، ولكني لم أسمعه يذكر أحداً بسوء حتىٰ أولئك الذين أذَوه لم

يجرِ علىٰ لسانه إلا طلب المغفرة لهم، وفي ذلك من نبل النفس والترفع عن الصغائر ما لا نجده إلا في نماذج نادرةٍ من الرجال كان الطناحيُّ أحدَهم».

أ. د. محمود علي مكّي

«كان الطناحي رحمه اللّٰه نعمَ الدارس والعاشق للتراث، حيث نشأ في رحابه وتربىٰ علىٰ يدي خيرةٍ من رجاله، فذاق حلاوة العمل فيه، وعرف متعة الكشف عن المجهول والمستغلق والساقط منه، فكان لهذا كله خيرَ تلميذ لخير أساتذة».

أ. د. حسين نصّار

«حين تقدم الطناحي للترقية إلىٰ درجة الأستاذية، كان من حسن طالعي أن كنت أحد الفاحصين لإنتاجه، وما أن بدأتُ في قراءة أعماله أيقنت أن إطار الدرجات العلمية الرسمية هو الذي قلب الحقائق، وأدركت أنني التلميذ وأن الطناحيَّ هو الأستاذ! فقد كان رحمه اللّٰه واحداً من الذين يذكّروننا دائماً أن الخير معقود في هذه الأمة، وأنه مهما كثر الغُثاء فإن النافع موجود وباق، وقد ترك لنا الطناحي علماً كثيراً وعملاً نافعاً ومنهجاً مستقيماً، وظل طيلة حياته حارساً أميناً للغة القرآن الكريم».

أ. د. عبده الراجحي

«حين نبكي الطناحي فإننا نبكي مدرسة كاملة ذاتَ أصول وضوابطَ وقواعد ومناهج، مدرسة الأصالة والصيانة والديانة والتحقيق، المدرسة الشاكرية مدرسةِ شيخِنا العلاّمة محمود شاكر، التي علىٰ عظم فجيعتها فيه لم تُقبَرْ يومَ وفاته ولكنها قُبرت يوم وفاة محمود الطناحي الذي كان بحق وارث هذه المدرسة وحامل لوائها».

أ. د. عبد العظيم الدِّيب

«كان للطناحي قلب نابض بالمودة للناس، وهذا القلب هو الذي طبعه بطابع المرح والدعابة في غير ابتذال أو تفريط. لذا، فقد كان مجلسه عامراً بالشوارد

اللطيفـة والنـوادر الطريفـة، ولا يكاد يشبـع منـه أحبـاؤه وجلساؤه، وهو في تلك الخصوصيـة قد خالـف أكثر المشتغلين بتحقيق التـراث الذين طبع الجد والصَّرامة مُحيّاهم. أما عن لسـان الطناحي فحدِّث عن العفـاف والصيانـة وعدم الخوض في أعراض الناس، والحديث الشيق والمنطق الرائع الذي يجذب الناس إلىٰ مجلسه».

أ. د. محمد جبر أبو سعدة

«لقد كان الطناحـي عالماً متمكناً ملَكَ ناصية العربية أدباً وشعراً ونقداً، وكان لا يعوزه الاستشهاد، ولا تغيـب عنه البديهة إن طلب استشهاداً في موضعه من شعر أو نثر وكأنك مع راوية من رواة العرب القدامىٰ! تتجاوب معه ملكته الحافظة في كل مقام إن إراد رواية طرفة أو نادرة أو مستملحاً من القول مستطرفاً. وأما عن تمكنه من غريب اللغة وشواردها فحدث ولا حرج، فقد أتقن فن القول وبرز فيه، فكان له باع واسـع في تصـاريف اللغـة قياساً وسماعـاً. ولقد انطـوت بموتـه صفحـة من ألمع صفحات الأدب واللغة وتحقيق التراث العربي».

أ. د. محمد إبراهيم الفيُّومي

«حين قرأت للطناحي أول مرة منذ مدة طويلة، ظننت من أول سطر أنني أقرأ لشيخ من شيوخ العربية العجائز الذين شبُّوا فيها وشابوا، فصارت بين أيديهم قواماً هيّناً ليّناً يشكلونه ويصرفونـه كيفما شاءوا، وحين رأيته وجدته رجلاً فتياً أقرب إلىٰ الشباب منه إلىٰ الكهولة، نضارته من نضارة أسلوبه، وفتوته من فتوته، ووقاره أيضاً من وقاره، في دعابة حلـوة وروح فكِهة ودماثةٍ بادية وتواضع جمّ، هذا معَ حنكته بمكنون التراث ووعيه بروحه وامتلائه بعبَقه وجلالته».

د. السيّد عبد المقصود

«لقد حصَّل العالـم الكبير الأستاذ الدكتـور محمود الطناحي من بطون الكتب وأفـواه الرجـال ومجالسـة العلمـاء علماً غزيـراً، ووعت حافظته أخباراً وشواهدَ

ومعارف قلَّ أن تجد لها نظيراً عند غيره من أهل جيله».

د. أيمن فؤاد سيّد

«كان في كتابات الطناحي رحمه اللّه علمٌ غزير متدفق، فضلاً عن أسلوب رصين يحكي تمكنه من العربية وامتلاكه زمامها، فقد كان واحداً من القلائل العاملين ــ عن طريق الكتابة ــ علىٰ إعادة رونق العربية الأصيل إلىٰ الكتابات الأدبية والصحفية، بعد أنِ اكتظت سوقُها بكثير من التهافت والغثاثة والضحالة».

أ. عبد الرحمٰن شاكر

«يشدُّك في شخصية الطناحي رحمه اللّه خِلالٌ عدة، فمن طيبِ معشر إلىٰ حسن تأتٍّ للأمور، إلىٰ معرفة عميقة بكتب التراث، إلىٰ بيان آسر، غيرَ أن الوفاء يظل أعلىٰ خلاله، وهو وفاء رحب المناحي، فهو وفاء لتراث الأمة الخالد لم يُشغل عنه طيلة حياته، وهو وفاء ملَكَ عليه أقطار نفسه، تلمسه في كتاباته وفي محاضراته وفي حديثه، ونعمَ الخلة الوفاءُ في زمن النكران الذي نعيشه».

أ. د. عيّاد بن عيد الثبيتي

«كان التراث بين عيني الطناحي رحمه اللّه لكثرة مطالعاته وقراءاته فيه، فكان يستحضِر كثيراً من نصوصه يهدي السائل إلىٰ مظنتها ولا يخيب أبداً. ولذلك، كنا نفـزَعُ إليه في كثير ممّا يعرِضُ لنا من مشكلات في التحقيق والتخريج وقراءة النص وعويص المسائل وغريبها، وهذا يشهد به كثير ممن خالطوه وأفادوا منه».

أ. د. سليمان بن إبراهيم العايد

«إن موت الطناحي واعظٌ شديدُ الحضور قوي الدلالة فصيح العبارة، بارع الحجة صائب الإشارة؛ لأنه موت للفرح والبهجة والأمل والحياة، ولأنه يذكّرنا في الوقت نفسه بحياة مُلئت علماً وأملاً وبهجة وفرحاً، بحياة رائعة عاشها الطناحي ممارساً فيها إنسانيتَه بعُجَرِها وبُجَرِها، فقد كان رحمه اللّه أنموذجاً إنسانياً واضحاً

في عطائه ومنْعه وفي كل جوانبه الإنسانية».

أ. د. سعد حمدان الغامدي

«لقد شدَّ الطناحي رحمه اللّه انتباهي كثيراً ببيانه الجزل إذا تكلم في شأن التراث ومصادره ومشاقِّ العمل فيه ومتعة الحياة العلمية علىٰ موائده، كما كان رحمه اللّه لطيف العبارة جيد الإشارة، حاضر النكتة والفكاهة، نقي الصوت، واثقاً من نفسه، متئداً في كلامه، لا تختلط الجُمل في كلامه ولا تضيع الفائدة من بيانه، وربما نثر في هذا البيان الجزل شيئاً من العامية المصرية المعروفة، فتكسب حديثه فكاهة وحسناً لا يَملُّها سامعه، فكيف بمن رآه وسمعه؟!».

أ. د. علي بن سلطان الحَكَمي

«لقد كان الطناحي رحمه اللّه سراجاً كبيرَ الشعلة، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكاً، ولكنه رحمه اللّه كان هو الشعلة التي لا تنطفىء بمرور الأزمان بل تزداد توهجاً».

أ. د. محمد أبو الأنوار

«كان الطناحي رحمه اللّه فارساً صادقاً يحُوطُ التراث بقلبه وعقله، ويدفع عنه الغوائل بقلمه وببيانه، حتىٰ أسلم الراية وهو متقدم في المواجهة غيرَ مُفرِّط أو ناكلٍ عن الجهاد».

د. محمد أحمد فايد هيكل

«ينتمي الطناحي رحمه اللّه إلىٰ ذلك الجيل من العلماء الأدباء الذين أخذوا علىٰ أنفسهم تجويد عباراتهم وتجميلَها، معَ ذلك التضلع من العربية وآدابها والتراجم والسير وعلم الرجال».

د. حسين محمد بافَقِيه

«لقد كان الطنـاحي عفـا اللّه عنه حفياً بأهل العلم، عالماً بأحوالهم، جامعاً لأخبارهم، عاقداً لصداقتهم، حافظاً لودهم، مدافعاً عنهم ووفياً لهم ما وسعه الود والدفـاع والوفـاء، وقد تجلَّىٰ هذا في كتابـه الشيق الممتع «مدخـل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي» الذي نجد فيه وفاءً نادراً قل نظيره في هذا الزمن الرديء».

د. عبد الرحمن حسن العارف

«لقد جمع الطناحي رحمه اللّه بين الفكر والأدب، وعرفتْه بطاحُ مكةَ ووديانها وقاعـاتُ الـدرس فيها، كما عرفتـه أيضاً أرض الكنانة بقلعتهـا الحصينـة (الأزهر) ومعاهد البحث والتحقيق فيها، وعرف طلاب العلم فيه لساناً عفاً وخلقاً كريماً وذهناً متوقداً».

د. عاصم حمدان

«لقد كانت العربية تعلق آمالاً كباراً علىٰ الطناحي في أن يحل محل جيل الرواد أمثال: عبـد السلام هارون ومحمود شاكـر ومحيي الدين عبد الحميد، ولكن القدر لم يمهلـه ليواصـل خدمـة هـذه اللغـةِ الشريفـة، ولا شك في أنّ مَن فُجِـع في وفاة الطناحي هو اللغة العربية نفسُها».

أ. د. صلاح حسنين

«ينذُر أن نجد مثل الطناحي رحمه اللّه اليومَ راهباً في محراب التراث العربي، عالماً بأسرار لغة الضاد، وقد ترك رحمه اللّه للمكتبة العربية ما يخلده ويحيي ذكراه من مؤلفات وتحقيقات أحيا بها آثاراً عظيمة».

أ. مصطفىٰ عبد اللّه

* * *

مِنْ أَسْرَارِ اللُّغَةِ

فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

مُعْجَمٌ لُغَوِيٌّ ثَقَافِيٌّ

تَأْلِيفُ

الْعَلَّامَةِ الدُّكْتُورِ مَحْمُودٍ مُحَمَّدٍ الطَّنَاحِيِّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

الجزء الاول

دَارُ الْفَتْحِ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمةُ المؤلِّف

الحمد لله، فاتحةِ كل خير وتمام كل نعمة، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الناطق بأفصح لسان والمبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.
وبعد:

فقد تكفل ربُّنا عزَّ وجل بحفظ كتابه العزيز في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ١٥]. ولقد كان من تمام هذا الحفظ أنِ اهتم به المسلمون منذ فجر الإسلام حفظاً له، وحرصاً عليه، واستزادة منه، ثم قام فريقٌ منهم بجمعه وكتابته ووضعه في مصحف واحد، وانصرفت طوائفُ أخرى منهم بتأييد من الله عز وجل إلىٰ العناية بنقطه وضبطه، ومعرفة وجوه قراءاته وإعرابه وتفسيره، وبيان أسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، والكشف عن نواحي إعجازه. ودراسة مقاصده وتأويل مُشكِله، وآداب حمْلِهِ وتلاوته، إلىٰ غير ذلك مما تضمَّنه ذلك الفن الذي عُرف بعلوم القرآن.

ومن أهم هذه العلوم: علم غريب القرآن الكريم.

والمراد بالغريب هنا: الغامض البعيد من الفهم. كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، ومن ذلك قولك للرجل إذا نَحَّيته وأقصيته: اغرُب عني بوجهك، أي: ابعُدْ.

وقد أنزل الله كتابه العزيز بلسان عربي مبين، قرآناً عربياً غير ذي عِوَج، فلم يجد هؤلاء الذين نزل فيهم في فهمه شيئاً من عناء، ولم يكابدوا في تعرّف مراميه أيّ

مشقـة، وذلك راجـع إلىٰ نقـاء ألسنتهـم وسلامـة سلائقهم وغلبة الفصاحة عليهم. ويروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما كنـت أدري ما قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتىٰ سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول لزوجها: تعال أفاتحْك، تعني أقاضيك.

وقال أيضاً: ما كنت أدري ما فاطـر السمـاوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يعني ابتدأتها. وروي عنه كذلك أنه قال: ما كنـت أدري ما «يحور» في قـوله تعـالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] حتىٰ سمعت أعرابية تدعو بنيّةً لها: حُوري، أي: ارجعي إلي.

ومهما يكن من أمر فقد كان وجود النبي ﷺ بين أظهر القوم هدىً ورحمة، فهم إن جهلوا شيئاً من القرآن الكريم سألوه فكشف لهم عن معناه.

واستمـر عصره ﷺ إلىٰ حين وفاتـه علىٰ هذا السَّنَن المستقيم، ثم جـاء العصـر الثانـي وهو عصر الصحابـة والتابعيـن، جارياً علىٰ هذا النمط، سالكاً هذا المنهج، فكان اللسان العربي سليماً فصيحاً، ثم اختلف الأمر بعد ذلك حين فُتِحت الأمصار، ودخـل الناس في ديـن الله أفواجـاً، وخالـط العـربَ غيـرُهـم من الـروم والفـرس والحبش، فاختلطت الألسن، وتداخلت اللغات، وأخذ اللحن طريقه إلىٰ المنطوق والمكتوب معاً.

ومن هنا نشِطَ العلمـاء إلىٰ التأليف في علم غريب القرآن الكريم. وإلىٰ جانب هذا فقـد ورد الحَثُّ علىٰ معرفـة غريب القرآن، فيما ذكره السيوطـي في «الإتقان»، قال: وينبغي الاعتناءُ به، فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أعربوا القرآنَ والتمسوا غرائبَـه»، وأخـرج من حديث ابن عمـر مرفوعـاً: «من قـرأ القـرآن فأعربه، كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشْر حسنات».

يقول السيوطي: المراد بإعرابه معرفةُ معاني ألفاظه، وليس المرادُ به الإعرابَ المصطلح عليه عند النحاة ــ وهو ما يقابل اللحن ــ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولاثواب فيها.

وكما اعتنى العلماء بحصر غريب القرآن الكريم وشرْحه اعتنَوْا كذلك بالغريب الوارد في حديث رسول الله ﷺ وآثار الصحابة والتابعين؛ حصراً وشرحاً.

وقد اشتمل حديث الرسول ﷺ علىٰ شيء من الغريب، ويرجع ذلك إلىٰ أنه عليه السلام أُوتي جوامعَ الكَلِم، وجوامعُ الكَلِم هي المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وكان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم، كما نراه في أحاديث الوفود. وأيضاً فقد يتكلم ﷺ في بعض الأمور وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتىٰ ولغاتهم مختلفة، وليسوا كلُّهم على درجة واحدة في ضبط اللفظ وحصره، فيتعلق كل منهم بالمعنىٰ، ويؤدِّيه بلغة قومه وقبيلته.

وسنعرض في هذا الكتاب ــ بعون الله وتوفيقه ــ إلىٰ شرح الغريب الوارد في القرآن الكريم وحديث الرسول الأمين ﷺ، وما قد يوجد منه في آثار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، علىٰ ترتيب حروف الهجاء. ونسأل الله الكريم أن يجعل في هذا النفعَ والخير. إنه علىٰ ما يشاء قدير.

* * *

﴿ أ ﴾

[أ ب ب]

يقـول الله تعالىٰ، معدداً نعمـه علىٰ عبـاده، وما أخـرج لهم من الطيبـات من الرزق: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١].

الأبّ في اللغة علىٰ معنيين: أحدهما المرعىٰ، والآخر: القصد والتَّهيُّؤ.

فأما المعنىٰ الأول فهو في هذه الآية الكريمة. قال أبو زيد الأنصاري: لم أسمع للأبّ ذِكْـراً إلاّ في القرآن. وقال الخليل وأبو زيد وابن اليزيـدي: الأبّ: المرعىٰ. وقـال أبو إسحاق الزجاج: الأبّ جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد: الفاكهة ما أكله الناس، والأبُّ: ما أكلت الأنعام. قال الشاعر:

فـأنـزلـتَ مـاءً مـن المعصـرات فـأنبـتّ أبًّـا وغُلْـبَ الشَّجَـرْ

والمعنى الثاني للأبّ أنه مصدرُ: أبَّ فُلانُ إلىٰ سيفه: إذا ردَّ يـده إليـه ليستلّه، وأبَّ إلىٰ وطنـه: إذا نزع إليه، وتهيـأ لقصده، ولم يَرِد الأبُّ بهذا المعنىٰ في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف.

[أ ب د]

قال تعالىٰ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ﴾ [النساء: ٥٧].

ترجع مادة أبد إلىٰ معنيين: الأول طول المدة، والثاني: التوحُّش.

ومن الأول هـذه الآية الكريمـة. قال الراغـب: الأبدُ: عبـارة عن مُـدَّة الزمان الممتدّ الذي لا يتجزأ، كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبَدُ كذا. ومنـه ما جاء في حديث الحـج: قال سراقة بن مالك رضي الله عنه للنبي ﷺ: أرأيت عمرتنا هذه، ألِعامِنا أم للأَبَد؟ فقال: «بل هي للأبد» أي: هي لآخر الدهر.

ومن المعنى الثاني للأَبَد، ما رواه رافع بن خَدِيج رضي الله عنه، قال: أَصَبْنَا نَهْبَ إبِل، فندَّ منها بعير، فرماه رجلٌ بسهم فحبسه، فقال رسول الله ﷺ: «إن لهذه الإبلِ أوابِدَ كأوابدِ الوحش، فإذا غَلَبكم منها شيءٌ فافعلوا به هكذا».

والأوابد: جمع آبدة، وهي التي قد تأبّدت، أي: توحَّشَتْ ونَفَرتْ من الإنس. وقد ردَّ الزمخشريُّ هذا المعنى إلىٰ المعنى الأول، وهو طول المدّة، فقال عن أوابد الوحش: لأنها طويلة العمر، لاتكاد تموت إلاّ بآفة، قال: ونظيره ما قالوه في الحَيّة: إنها سُمِّيت بذلك لطُولِ حياتها.

[أ ب ر]

جاء في الحديث: «خيرُ المال مهرة مأمورة، أو سِكَّةٌ مأبُورة». السِّكّة: الطريقة المصطفّـة من النخل، وقوله: مأبـورة، أي مُلقَّحة. وأراد خيرُ المال نِتاج أو زرع. وبناء هذه المادة «الأبْر» يدل على نَخْس شيءٍ بشيء محدَّد، ومنه الإبرة المعروفة.

والأَبْرُ: ضَرْبُ العقْرب بإبرتها، والأبرُ : إلقاح النخل، وعلاج الزرع بما يصلحه من السَّقي والتعهد، ثم تُوسِّع فيه فاستُعمل في مطلق الإصلاح.

قال الشاعر:

فإن أنتِ لم تَرْضيْ بسَعْييَ فاترُكي لـيَ البيـتَ آبُـرْهُ وكُـونـي مَكـانيـا

ومن استعمـالِ الأَبْرِ بمعنـى لسع العقرب حديثُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل له: ألا تتزوجُ ابنـةَ رسـول الله؟فقال: «ما لي صفراءُ ولا بيضـاء، ولست بمأبُورٍ في ديني فيُوَرِّيَ بها رسـولُ الله ﷺ عنِّي، إني لأولُ من أسلم»، فهذا الحديث من: أَبَرَتْـه العقربُ، أي: لسعَتْـه بإبرتِهـا. ويريـد علي رضي الله عنـه: لسـت غيرَ الصحيحِ الدين، ولا المتَّهَمَ في الإسلام فيتألَّفَني عليه بتزويجها إيَّاي.

ومن استعمال الأَبْر بمعنى الإبْرة حديـثُ مالك بن دينار رضي الله عنه: «مَثَلُ المؤمنِ مثَلُ الشاةِ المأبورة» أي: التي أكلت الإبرةَ في عَلَفِها فنَشِبَتْ في جوفها، فهي لا تأكل شيئاً، وإن أكلتْ لم يَنْجَعْ فيها.

وفيه أيضاً حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: «والذي فَلَقَ الحَبَّة، وبَرَأَ النَّسَمَـة، لتُخْضَبَنَّ هذه من هـذه، وأشار إلىٰ لحيتـه ورأسه. فقـال الناس: لو عرفناه أَبَرْنا عِتْرتَـه» أي: أهلكنـاه. وهو من أبرْتُ الكلـبَ، إذا أطعمْتَـه الإبـرةَ في الخبز.

[أ ب س]

في حديـث جُبَيْـر بن مُطعِم رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى قريش من فتح خيبر، فقال: إن أهل خيبـر أسـروا رسول الله ﷺ، ويريدون أن يرسلوا به إلىٰ قومه ليقتلـوه، فجعـل المشركون يؤبِّسـون به العَبَّاس» أي: يعيِّرونـه، وقيل: يخوّفونه،

وقيل: يرغمونـه، وقيل: يغضبونـه ويحملونه علىٰ إغلاظ القـول له. وهـذه المادة «الأبس» تدلُّ على القهر، يقال: أَبَسَ الرجلُ الرجلَ، إذا قهره، قال العجاج:

أَسُودُ هَيْجا لم تُرَمْ بأَبْسِ

والأَبس: كلّ مكان خشن، وتأبَّس الشيءُ: تَغيَّر. قال المتلمس:

ألم ترَ أن الجَوْنَ أصبحَ راسياً   تُطِيفُ بـه الأيّـامُ لا يَتـأبَّـسُ

[أ ب ق]

يقـول تعالى في قصة يونُسَ عليه السـلام: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٠]. تدل هـذه المـادة على الهـرب والاستتـار. يقال: أبق العبـدُ يأبَقُ ويأبِق إباقاً: إذا هرب. وفي الحديث أن عبداً لابن عمر رضي الله عنهما أبَقَ فلحق بالروم. وفي حديث شريح القاضي أنه كان يردُّ العبدَ من الإباق الباتّ، أي: القاطـع الذي لاشبهة فيه. ودلالة هذه المادة على الاستتار إنما جاءت على تشبيه الاستتـار بإباق العبد، وهو هربه واختفاؤه. يقول الأعشىٰ الكبير ميمون ابن قيس:

فذاك ولم يَعْجِز من الموتِ ربُّه   ولكـن أتـاه المـوتُ لا يتـأبَّـقُ

[أ ب ل]

يقـول عـزَّ من قـائـل، في قصـة أصحـاب الفيـل: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]. معنى أبابيل: جماعـات في تفرقة، هكذا قال أبو عبيدة معمرُ بن المثنىٰ،

قال: ولم نرَ أحداً يجعل لها واحداً، أي أنها من الجمع الذي لا واحد له، وقال المبرد: واحدها إبّيل بوزن سكّين، وقيل: إبّوْل مثل عِجّوْل. وقيل غيرُ ذلك.

ويستعمل هذا اللفظ حالاً، فيقال: جاءت الخيل أبابيلَ، أي: جماعات من ها هنا وها هنا. قال أبو جعفر النحاس: وحقيقته أنها جماعاتٌ عِظام.

وقال ﷺ: «الناس كإبلٍ مئةٍ لا تجد فيها راحلة». وليس في هذا الحديث غريب لفظٍ، فإن الإبل معروفة، ولكن العلماء عرضوا لهذا الحديث الشريف بالشرح والبيان، فقال ابن الأثير: يعني أن المرضيَّ المنتَجَبَ من الناس، في عزّة وجودِه كالنجيب من الإبل، القويّ علىٰ الأحمال والأسفار، الذي لايوجد في كثير من الإبل، وقال أبو منصور الأزهري: الذي عندي فيه أن الله ذمّ الدنيا وحذَّر العبادَ سوءَ مغبَّتها، وضرب لهم فيها الأمثال، ليعتبروا ويحذروا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الآية [يونس: ٢٤] وما أشبهها من الآي، وكان النبي ﷺ يحذرهم ما حذَّرهم الله ويزهّدهم فيها، فَرَغِب أصحابُه بعده فيها، وتنافسوا عليها، حتىٰ كان الزهدُ النادر القليل منهم، فقال: «تجدون الناسَ بعدي كإبلٍ مئةٍ ليس فيها راحلة» أي: أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل، كقلة الراحلة في الإبل، والراحلةُ هي البعير القوي على الأسفار والأحمال، النجيبُ التامُّ الخَلْق، الحَسَنُ المنظر، ويقع على الذكر والأنثىٰ والهاء فيه للمبالغة.

ومن غريب هذه المادة: كلمة «الأَبَلَة» وهي الثِّقل والطَّلِبَة، جاء في حديث يحيىٰ بن يَعْمر: «كل مالٍ أدَّيْتَ زكاتَه فقد ذهبَتْ أَبَلَتُهُ»، ويرىٰ الزمخشري أن الهمزة في «أبلته» منقلبة عن واو، وعلى هذا فهو من الكلإ الوبيل. والمعنىٰ: ذهب وباله ومأْثمتُه.

وفي الحديث: «تأبَّل آدَمُ علىٰ حَوَّاءَ بعد مَقْتَلِ ابنه كذا وكذا عاماً». أي: توحَّشَ عنها وترك غِشيانَها، وهذا مأخوذ من: أَبَلَت الإبلُ وتأبلت: إذا تركت الماء،

واجتزأت عنه بالرُّطْـب، والرُّطُب، بضم الراء وسكون الطاء، أو بضمهمـا معاً هو العُشْبُ الأخضر. أما الرَّطب بفتح الراء فهو ضد اليابس، وبعض الناس يخلط بينهما.

[أ ب ن]

وصف علي بن أبي طالـب رضي الله عنه مجلس رسول الله ﷺ، فقال: مجلسُ علم وحيـاء، وصبرٍ وأمانة، لا تُرْفع فيه الأصـوات، ولا تُؤْبَـنُ فيه الحُرَم، ولا تُنْثىٰ فلتاتُه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يَقْبلُ الثَّناءَ إلاّ عن مكافىء». قولـه: «لا تَؤْبَنُ فيه الحُرَمُ» أي: لايُذكرن بقبيح، كان يُصان مجلسُه ﷺ، عن رفث القول وفُحْش الكلام. وهذا الاشتقاق مأخوذ من الأُبَنِ ــ جمع أُبْنة، وهي العُقَد تكون في القِسِيّ، تُعابُ بها وتُفسدها.

ويأتي الأَبْنُ بمعنى التُّهمة، ومنه حديث الإفـك: «أشيروا عليَّ في أُنـاس أَبَنُوا أهلـي»، ومنه أيضاً حديث أبي الـدرداء رضي الله عنه: «إنْ نُؤْبَنْ بما ليس فينا فربَّما زُكِّينا بما ليس فينا». يقال: أَبَنْتُ الرجـلَ آبِنُه وآبُنُـه: إذا رَمْيتَـه بخَلَّةِ سوء. والرجل مَأْبونٌ، أي: مقروفٌ ومَرْمِيٌّ بهذه الخَلَّة.

[أ ب هـ]

تدل مادة (أبه) على النباهـة والسمـو، يقال: ما أَبَهْتُ به، أي: لم أعلم مكانه، ولا أَنِسْتُ به. وجاء في الحديث: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم علـى الله لأبرَّه» أي: لا يُحتَفَـلُ به لحقارتـه، يقال: أَبَهْتُ له آبَـهُ، ويُشتَـقُّ من هذه المـادة: الأُبَّهَةُ، وهي العظمة والجلال، وفي كلام علي رضي الله عنه: «كم من ذي

أُبَّهةٍ قد جعلتَه حقيراً».

[أ ب و]

تكرر في الحديث عبارة «لا أبا لك»، وهو أكثر ما يذكر في المدح، أي: لا كافي لك غيرُ نفسك، وقد يذكر في معرض الذم، كما يقال: لا أمّ لك، وقد يذكر في معرض التعجب، كقولهم: لله درُّك، وقد يذكر بمعنىٰ جِدَّ في أمرك وشَمِّر؛ لأن من له أبٌ اتَّكل عليه في بعض شأنه. وفي حديث الأعرابي الذي جاء يسأل عن شرائع الإسلام، فقال له النبي ﷺ: «أفلَحَ وأبيه إن صَدَق»، قال ابن الأثير: هذه كلمة جارية علىٰ ألسن العرب، تستعملها كثيراً في خطابها، وتريد بها التأكيد، وقد نهىٰ النبي ﷺ أن يحلف الرجل بأبيه، فيَحْتمل أَن يكون هذا القول قبل النهي، ويحتمل أن يكون جرىٰ منه علىٰ عادة الكلام الجاري علىٰ الألسن، ولا يقصد به القسم كاليمين المعفوِّ عنها من قبيل اللغو، أو أراد به توكيد الكلام، لا اليمين، كقول الشاعر:

لعمرُ أبي الواشِينَ لا عمْرُ غيرِهمْ ... لقد كَلَّفَتْني خُطةً لا أُريدُها

فهذا توكيد لا قسم، لأنه لا يقصد أن يحلف بأبي الواشين. وهو في كلامهم كثير.

[أ ت ى]

يقول الله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: عقابه للمشركين، وقيل: هو يومُ القيامة، وقال أبو

إسحاق الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم. وقد عبّر سبحانه وتعالىٰ عن المستقبـل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه. قال نفطويـه: تقول العرب: أتاك الأمرُ، وهو متوقَّعٌ بعدُ، أي أتىٰ أمرُ الله وعداً، فلا تستعجلوه وقوعاً. وقال ابن قيم الجوزية في كتابه «كنوز العرفان في أسرار وبلاغة القرآن»: التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهاً في التحقيق، والعرب تفعل ذلك لفائدة، وهو أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المضـارع الذي لم يوجدْ بعـدُ، كان أبلغَ وآكدَ، وأعظمَ موقعاً، وأفخم بياناً، لأن الفعل الماضـي يعطي من المعنـىٰ أنه قد كـان ووجـد، وصار من الأمور المقطوعـة بكونهـا وحدوثها، ومثل ذلك قوله عزّ اسمه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] فأتىٰ هنا بمعنى يأتي، وإنما حَسُن فيه لفـظُ الماضي لصدق إثبات الأمر، ودخولِه في جملة ما لابُدَّ من حدوثه ووقوعه، فصار «يأتي» بمنزلة أتىٰ ومضى.

مما يدل على رحابـة العربيـة وسَعةِ أفقها: أن العرب إذا وضـح أمامَهـا سياقُ الكـلام أوقعت بعضَ أمثلة الأفعال موقع بعضٍ؛ فأوقعـوا الماضيَ موضعَ المستقبل كما في الآيـة السابقة، وكما في قـولـه تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. أراد: وإذ يقول الله؛ لأن هذا القـول إنما يُوجَّه من الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ ابن مريـم عليهمـا السلام في يوم البعث. ومثلـه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أراد: وينـادي، لأن هـذا النداء إنما يكون يوم القيامة، وجاء ذلك في الشعر في قول الطِّرماح:

وإنـي لآتيكـم تشكُّـر مـا مضـىٰ ... من البرِّ واستيجاب ما كان في غدِ

أوقع (كان) في موضـع (يكون). وجاء عكـس ذلك، وهو إيقاع المستقبل في موضـع الماضي، في قوله تعـالىٰ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] أوقع (تقتلون) في موضع (قتلتم)، ومثله قوله عزَّ من قائل: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [هود: ١٠٩] المعنىٰ: كما عبـد آباؤهم. ومما جاء من ذلك في الشعـر قـول زيادٍ الأعجم:

فـإذا مـررت بقبـرِه فـاعقِـرْ بـهِ كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابحِ
وانضَحْ جوانبَ قبرِه بدمائها فلقـد يكـون أخـا دمٍ وذبـائحِ

أراد: فلقد كان.

من غريـب هذه المادة أن الإتيـان يتصـرَّف إلىٰ معانٍ مختلفة، ففي قوله تعالىٰ على لسـان يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] يأت: أي يَعُدْ بصيراً، كقوله في السورة نفسها: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]. والقـرآن يفسّـر بعضُه بعضـاً، وقـوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ [الأنعام: ٧١] أي: تابعْنـا. يجيء الإيتاء بمعنى الإعطـاء، قـال تعـالـىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] أي: أعطاهم جزاءَ اتقائهم. وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]. أي أعطَوْا ذلك من أنفُسهم. ومن قرأ: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ بغير مـدٍّ فيكـون المعنى من الإتيان، أي: لو نُدِبُوا إلىٰ الفساد لجاؤوه.

ومن غريب هذه المـادة ما روي أن النبي ﷺ سأل عاصم بن عدي الأنصاريَّ، عن ثابت بن الدَّحداح، حين تُوفّي: «هل تعلمون له نَسَباً فيكم؟» فقال: إنما هو أتيٌّ فينا، فقضـىٰ بميراثه لابن أخته. الأَتِيُّ: هوالغريـب الذي قدِم بلادَك، فعول بمعنى فاعل، من أتى، ويقال له أيضاً: أتاوي، قالت شاعرة:

أطعتـم أتـاويَّ مِـن غيـرِكـمْ فـلا مِـن مُـرادٍ ولا مَذْحِجِ

ومنه حديـث عثمـان بن عفـان رضـي الله عنـه: أنـه أرسـل سليـط بن سليـطٍ وعبد الرحمن بن عَتّـاب إلىٰ عبد الله بن سَلام، فقـال: ائتيـاه فتنكَّـرا له وقولا: إنا رجـلان أتاويّان، وقد صنـع النـاسُ ما ترى، فما تأمر؟ فقالا له ذلك، فقـال: لستما بأتاوِيّيْن، ولكنكما فلان وفلان، وأرسلكما أميرُ المؤمنين.

ورُوِي أنه لما توفي إبراهيـم ابنُ النبيّ ﷺ، بكىٰ عليـه ثم قـال: «لولا أنه وعدٌ

حق، وقولٌ صِدق، وطريـقٌ مِئْتاءٌ، لحزِنا عليـك يا إبراهيـم». الطريق المِئْتاء: هو الطريـق المسلـوك، أي: يأتيـه الناسُ كثيـراً ويسلكونـه، وهو مِفْعـالٌ من الإتيـان. ونظيره: دار مِحْلالٌ، وهي التي تُحَلُّ كثيراً. وأراد ﷺ طريـق الموت. وروي أن أبا ثعلبة الخُشَنيّ استفتى النبيّ ﷺفي اللقطة، فقال عليه السلام: «ما وجَدْتَ في طريقٍ مئتاءٍ فعرِّفْه سنةً».

وفي حديـث ظبيان بن كَـدادة الذي وفـد على النبـي ﷺ في سَراة مذحج، قال يصف ديار ثمود: «وأتَّوْا جَداوِلَها» أي: سَهَّلوا طُرق المياه إليها، يقال: أتَّيْتُ للماءِ، إذا أصلحت مجراه حتى يجري إلى مقاصده. وقال الخليل بن أحمد: الأتيُّ ما وقع في النهر من خشب أو ورقٍ مما يحبِسُ الماء.

وفي حديـث الزبير بن العـوام رضي الله عنه: «كنّا نَرْمِـي الأَتْوَ والأَتْوَيْن» أي: الدَّفْعـة والدَّفْعتيـن، وهو مشتـق من الأَتْـو، وهو العَدْوُ، والاستقـامـةِ في السير، ومنه قولهـم: ما أحسن أَتْوَ يَدَيْ هذه الناقـة، وأتْيَهما، أي: رَجْعَ يَدَيْها في السَّيـر، ويريـد الزبيـر رضـي الله عنه رَمْـيَ السِّهـام عن القِسِـيِّ بعـد صـلاة المغرب.

[أ ث ر]

يقول الله تعـالىٰ على لسـان إخوة يوسـف عليه السـلام،بعد أن علموا من أمـره وأمرهـم ما علمـوا: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١] ﴿ ءَاثَرَكَ ﴾، أي: فَضَّلك، يقـال: لفلانٍ عليَّ أَثَرَةٌ، أي: فضل، ومن ذلك قوله عز وجل في وصف الأنصار: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] أي: يفضّلون إخوانهم المهاجرين عليهم، وأيضاً قوله عزّ مِن قائل: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعلىٰ: ١٦].

وهـذه المادة (أثر) تـدور حول ثلاثـة معان: تقديـم الشـيء، وهو الفضل والتفضيل، وذكر الشيء، ورسم الشـيء الباقي. ومن استعمالها بمعنى التفضيل ما جاء في الحديث: أنه ﷺ قال للأنصار: «إنكم ستَلْقَوْنَ بعدي أثَرَةً فاصبروا». أراد ﷺ: أنه يُستأثـرُ عليكم فيُفضّـل غيرُكم نفسَـه عليكـم في الفـيء. والأَثَرَة: الاسم من: آثر يؤثر إيثـاراً. ومن ذلك الاستئثار وهو الانفراد بالشيء. جاء في الحديث: «إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه » أي: دعه ولا تشتغل به، فإنه لا يمكن الوصول إليه. وقال الأعشىٰ:

استـأثــر الله بــالبقــاء وبــالـ ـعدلِ وولّى الملامةَ الرَّجُلا

أي: تفرد بالبقاء جل جلاله. والأثرة بمعنى الاستئثار تُجمع على الإِثر.

قال الحطيئةُ في شعر يمدح به عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

مـا آثـروك بهـا إذ قـدّمـوك لهـا لكنْ لأنفُسِهم كانت بكَ الإِثَرُ

ومن استعمال هذه المادة في معنى ذكر الشـيء قولهُ تعـالـى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] أي: يرويه واحدٌ عن واحد، يقال: حديثٌ مأثور، أي: يأثُره ويذكره عدلٌ عن عدل، ومن ذلك مآثر العرب، وهي مكارمها ومفاخرها، ومفردها مأثُرةٌ، ومنه حديث حِجّة الوداع: «ألا إن كلَّ دم ومالٍ ومأثُرَة كانت في الجاهلية فهي تحت قدميَّ هاتين»، يعني: ما كانوا يتفاخرون به من الأنساب وغير ذلك من مفاخر أهل الجاهليـة. ومن ذلك أيضاً ما روي أن النبي ﷺ سمع عمـر بن الخطـاب رضي الله عنه يحلف بأبيه، فنهاه، قال عمر: فما حلفتُ بها ذاكراً ولا آثراً، أي: ما حلفت بأبي مبتدئاً من نفسي، ولا رويت عن أحد أنه حلف بها.

ومن استعمال (الأثر) بمعنى الشيء الباقي قولُه تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤] أي: بقيـة من علـم يُؤْثَـر عن الأوليـن، أي: يُسند إليهم.

والأثارة والأثر: البقية. وجاء في الحديث: «من سَرَّه أن يبسط اللهُ في رزقه وينسأَ في أثرِه فلْيصل رَحِمَه» الأثر هنا: الأجل، وسُمِّي الأجل أثراً، لأنه يتبع العمر. قال كعب بن زهير رضي الله عنه في شعرٍ حكيم:

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سَعْيُ الفتى وهْو مخبوءٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدركُها والنفسُ واحدةٌ والهَمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا ينتهي العمْرُ حتىٰ ينتهي الأثَرُ

قال ابن الأثير: وأصله من أثر مشيه في الأرض، فإن من مات لا يَبْقى له أثر، ولا يُرى لأقدامه في الأرض أثر. ومن ذلك قوله ﷺ للذي مَرَّ بين يديه وهو يصلي: «قطع صلاتنا قطع الله أثره». دعا عليه بالزَّمانة والعجز، لأنه إذا زَمِن وعجَز انقطع مشيه فانقطع أثرُه.

[أ خ ذ]

تدل مادة «الأخذ» في أصل وضعها على حوز الشيء وجمعه وتحصيله. قال الخليل بن أحمد: هو خلاف العطاء، وهو التناول، وقد يُراد بالأخذ العقوبةُ والقهر، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ومنه قوله عزّ وجل: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] أي: ليوقعوا به. ومن الأخذ بمعنى القهر قيل للأسير: أَخِيذٌ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] أي: أئسِروهم. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] أي: نأسِر، ويقال: نَحبِس.

ومن هذا المعنى ما جاء في الحديث، أنه أخذ السيف وقال لفلان: «من

يمنَعُك مني؟» فقـال: كن خيرَ آخـذ، أي: خيـر آسر. ومن هـذا المعنى جاءت كلمـة: «التأخيذ» وهو حَبْسُ السَّـواحر أزواجَهـن عن غيرهـنّ من النسـاء. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة جاءتها فقالت لها: أُؤَخِّذُ جملي؟ــ وكَنَتْ بالجمـل عن زوجهـا ــ فلم تَفْطَـن لها عائشـة حتى فُطِّنـت، فأمـرت بإخـراجها وقالت: وجهي من وجهِك حرام.

ومن غريب هذه المـادة: الإخاذة، وجمعها إخاذٌ وإخاذات، وهي الغُدران التي تأخـذ ماء السمـاء فتجمعه وتحبسه على الشاربـة، وفي حديث مسروق بن الأجدع الهمْداني رضي الله عنه، قال: ما شبّهتُ بأصحاب محمد ﷺ إلاّ الإخاذ، تكفـي الإخاذة الراكـبَ، وتكفي الإخاذة الراكبيـن، وتكفـي الإخـاذة الفئـام من الناس. والفئام: الجماعة. يعني أن فيهم ـ رضوان الله عليهم ـ الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

[أخ و]

يقول الله تعالى في ذمِّ أهل التبذير والإسراف: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧].

قـال ابن عرفـة نفطويـه: الأخـوّة إذا كانت في غيـر الولادة كانـت المشـاكلـة والاجتماع في الفعـل، كما تقول: هذا الثوب أخو هذا، أي: يشبهه. ومنه قوله عزَّ وجـل: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ ﴾ [الزخرف: ٤٨] أي: مـن التـي تشبهها، وقيل: مِن التي تقدمتها، وسمّاها أختاً لها، لاشتراكهما في الصحة والإبانة والصدق. وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨] أي: يا شبيهة هارون في الزُّهـد والصلاح، وكان رجـلاً عظيم الذِّكر في زمانه. وقيـل: كان لمريـم أخ يقـال له: هـارون. والأصـل في الأخ أن يكـون المشـارك

لآخر في الولادة، من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع. ويستعار لكلّ مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة، أو في غير ذلك من المناسبات، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] جعله أخاهم؛ لأنه وإياهم ينتسبون إلىٰ أبٍ واحدٍ، كما يقال: يا أخا العرب، ويا أخا تميم، وقيل: إنما سمّاه أخاً تنبيهاً على إشفاقه عليهم شفقة الأخ على أخيه. ومثله قوله عزّ من قائل: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]، قوله: ﴿ إِخْوَٰنًا ﴾ تنبيه على انتفاء المخالفة من بينهم.

وقد نُظر في الأخوَّة إلىٰ معنىٰ الملازمة فاشتُق منها الآخيّة، وجمعها الأواخيّ والأخايا. وهي حبل أو عود صغير يُعَرَّض في الحائط، ويُدفن طرفاه فيه ويصير وسَطُه كالعُروة، وتُشدّ فيها الدابّةُ. وجاء في الحديث: «مثلُ المؤمن والإيمان كمثل الفرس في آخيّته». ومعنىٰ هذا الحديث أن المؤمن يبعُد عن ربه بالذنوب، لكنّ أصل إيمانه ثابت. ومنه الحديث الآخر في صفة الصلاة: «لاتجعلوا ظهوركم كأخايا الدوابّ» أي: لا تقوّسوها في الصلاة حتىٰ تصير كهذه العرىٰ.

وقد نُظر في الأخوة أيضاً إلىٰ معنىٰ التواصل والاستمساك، فاشتُق منها الأخيّة، وقد جاء في حديث عمر بن الخطاب أنه قال للعباس، رضي الله عنهما: «أنت أخِيَّةُ آباء رسول الله ﷺ». قال ابن الأثير: أراد بالأخِيّة البقيّة، يقال: له عندي أخِيّة، أي: ماتَّةٌ قوية، ووسيلةٌ قريبة، كأنه أراد أنت الذي يُستند إليه من أصل رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ويُتمسَّك به.

[أ ذ ن]

يقول الله تعالىٰ متوعداً محذراً هؤلاء الذين يتعاملون بالربا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. قوله: ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ أي: فاعلموا، يقال في فعله: أَذِن يأذَن إِذْناً وأَذَنا، أي: عَلِم. ومن قرأ: ﴿فآذنوا﴾ فمعناه: أعْلِموا من وراءكم بالحرب. وهذه المادة «أذن» ترجع إلىٰ أصلين متقاربين في المعنىٰ أحدهما: الأُذُن، وهي هذه الجارحة المعروفة. والثاني: العِلْم. وعن هذين الأصلين تتفرع استعمالات كثيرة. والتقارب بين الجارحة والعلم واضح، فإنه بالأُذُن يقع علمُ كلِّ مسموع، فقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] أي: أعلمتكم ما ينزل عليَّ من الوحي، لتستووا في الإيمان به، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣] أي: إعلام، وهو الأذان والإيذان والأَذين أيضاً. قال جرير يهجو الأخطلَ النصراني:

هل تملكون من المشاعر مشعراً   أو تشهدون لدىٰ الأذان أذينا

والأذين أيضاً هو المؤذِّن المُعْلِم بأوقات الصلاة. والمؤذِّن أيضاً: هو المنادي، قال عزّ من قائل: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: نادىٰ منادٍ، أَعْلَمَ بندائه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بعلمه، ومثله قوله عزَّ وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي: بعلمه وقيل: بتوفيقه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ﴿ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، أي: أعْلَمَ ربُّك، وربما قالت العرب في معنىٰ أفعلتُ: تَفَعَّلْت، ومثله: أوعدني وتَوعَّدني. وهذا قول أبي زكريا الفرّاء. وقال الخليل بن أحمد:

التأذُّن من قولك: لأفعلنَّ كذا، تريد به إيجاب الفِعل، أي: سأفعله لا محالة.

ومن استعمال هذه المادة في معنىٰ الجارحة والاستماع قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]، يُقال للرجل السامع من كلّ أحد: أُذُن. ومعنىٰ ﴿ هُوَ أُذُنٌۚ ﴾ أي: يأْذَنُ لما يُقال له، أي: يستمعه فيقبله. وقال أبو منصور الأزهري: أرادوا: متى بلغه عنّا أنّا تناولناه بسوء أنْكرنا ذلك وحلفْنا عليه فيقبل؛ لأنه أُذُنٌ. والأَذَنُ: الاستماع. يقال: أذِن يأذَن أَذَناً، وقيل هكذا للاستماع؛ لأنه بالأُذُن يكون، ومنه الحديث: «ما أَذِن الله لشيء كأَذَنِه لنبي يتغنىٰ بالقرآن» أي: ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنىٰ بالقرآن، أي: يتلوه يجهَرُ به. وبعض الناس يقول: كإذْنه، يجعله من الاستئذان، وهو خطأ. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٢] أي: سمعت سَمْعَ طاعةٍ وقبول. والله أعلم.

[أ ر ب]

يقول الله عز وجل علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨]، قوله: ﴿ مَـَٔارِبُ ﴾ أي: حوائج، الواحدة مأرُبة، بفتح الراء وضمها. وهذه المادة (أرب) تتصرف في كلام العرب على أربعة معانٍ، وهي: الحاجة، والعقل، والنصيب، والعَقْد. فأما الحاجة فقد مضىٰ شاهدها في الآية السابقة، وأيضاً في قوله تعالىٰ، في آية الحجاب وإظهار زينة المرأة وعدم إظهارها، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ [النور: ٣١] قيل: معناه غير أولي الحاجة إلىٰ النساء مثل الشيخ والصبيّ الصغير الذي لم يدرك، والعِنِّين. وجاء في حديث أم المومنين عائشة رضي الله عنها: كان النبيّ ﷺ

يقبّل ويباشر وهو صائم، ولكنه كان أملككم لإربه. أرادت لحاجته. تعني أنه ﷺ كان غالباً لهواه قامعاً لشهوته. وقال مجد الدين ابن الأثير: «وأكثر المحدِّثين يروونه بفتح الهمزة والراء، [كان أملككم لأَرَبه] ويعنون الحاجة، وبعضهم يرويه بكسر الهمزة وسكون الراء: «لإرْبِه» وله تأويلان: أحدهما أنه الحاجة، والثاني أنه العضو.

ومن استعمال الأرب بمعنى العقل ما روي أن أبا أيوب رضي الله عنه قال: يا رسول الله! دُلني على عمل يدخلني الجنة. فقال ﷺ: «أرُبَ، ما لَهُ؟ تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»، قوله: «أرُبَ» أي: صار ذا فِطنة وخبرة وعلم. ورجلٌ أريبٌ، أي: فَطِنٌ، ويقال: أرِبْتُ بالشيء، أي: صرتُ به ماهراً، قال قيس بن الخطيم:

أرِبْتُ بدفع الحربِ لمّا رأيتُها ... علىٰ الدفع لا تزدادُ غيرَ تقارُبِ

ويأتي الإرْب بمعنى الدهاء والمكر والإيذاء. جاء في الحديث أنه ﷺ ذكر الحيّات فقال: «من خشيَ إرْبَهنّ فليس منا» أي: من خشي غائلتها، وجَبُن عن قتلها، اعتقاداً بما قيل في الجاهلية أنها تؤذي قاتلها أو تصيبه بخَبَل، من فعل ذلك فقد فارق سنتنا وخالف ما نحن عليه. ومن هذا الاستعمال جاءت المواربة أو المؤاربة، وفي الحديث: «مؤاربةُ الأريب جهلٌ وعناء»، أي: إن الأريب ـ وهوالعاقل ـ لا يُختل ولا يخدع عن عقله. ومن استعمال هذه المادة بمعنى النصيب الوافر: ما جاء في الحديث أنه ﷺ أُتي بكتفٍ مؤرَّبةٍ فأكلها وصلّى ولم يتوضأ. مؤرّبة، أي: موفَّرة لم يَنْقُص منها شيء. أرَّبْتُ الشيء تأريباً: إذا وفّرته. قال الكميت:

وكان لعبدِ القيسِ عضوٌ مؤرَّبُ

أي: صار لهم نصيبٌ وافر. وآخر استعمالات هذه المادة: العَقْدُ والتّشدُّد، ومنه ما جاء في الحديث: «قالت قريش: لاتعجلوا في الفداء، لا يأرَبُ عليكم

محمدٌ وأصحابُه». أي: يتشـددون عليكم فيه، يقال: أربَ الدَّهـرُ يأرَبُ إذا اشتدَّ، وتأرَّب عليَّ: إذا تعدَّىٰ، وكأنه من الأُربة وهي العُقْدة، ويقال: أرَّبْتُ العقدة، أي: شددتها، وهي التي لا تنحلُّ حتى تُحلَّ حلاًّ. ومنه حديث سعيد بن العاص رضي الله عنه، قال لابنه عمرو: لا تتأرَّبْ علىٰ بناتي. أي: لا تتشدد ولا تتعدَّ.

[أ ز ر]

يقول ربُّنا عز وجلَّ في قصة موسىٰ عليه السلام ودعائه ربَّه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣١] أي: قوِّ به ظهري. والأزْر: القوة والشدة. يقال: تأزَّر النبتُ، أي: قويَ واشتد، ومنه قوله عز من قائل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، آزره: أي: قوّاه وأعانه وشدَّه. وفي حديث مَبْعَث النبي ﷺ قال له ورقة بن نوفل فيما قال: إنْ يدركني يومُك انصرْك نصـراً مؤزَّراً، أي: قويـاً بالغـاً، من الأزْر، وهو القـوة والشـدة. واشتُـق من ذلك الإزار؛ لأن المؤتزرَ يشدُّ به وسَطَه وصُلبَه. ومن ذلك حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنـه أنه قال للأنصـار رضـوان الله عليهم يوم السقيفـة: لقد نصـرتـم وآزرتـم وآسيتم. ومعنى آسيتم: وافقتم وتابعتم، من الأُسوة، وهي القدوة. وفي الحديث: «قال الله تبارك وتعالىٰ: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي»، ضرب الإزار والرداء مثلاً في انفـراده بصفة العظمـة والكبريـاء. والمعنىٰ أن هاتيـن الصفتيـن ليستـا كبعـض الصفات التي قد يتصـف بها الخلق على جهـة التوسع، كالرحمة والكرم، وشبَّههما بالإزار والرداء، لأن المتصِف بهما يشملانـه، كما يشمل الرداءُ الإنسـان، ولأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد. فكذلك الله تعالىٰ لاينبغي أن يَشْرَكَهُ فيهما أحد. وجاء في حديث الاعتكاف، أنه ﷺ كان إذا دخل العشـرُ الأواخـرُ من رمضان أيقـظ أهله وشدّ المئزر. أي: أيقظ أهله للصـلاة واعتزل النساء، فجعـل شدّ الإزار كناية عن

الاعتزال. كما جُعل حلُّه كناية عن ضِدّ ذلك، قال الأخطل:

قـومٌ إذا حـاربـوا شَـدُّوا مـآزِرَهُـم دونَ النساء، ولو باتت بأطهارِ

وقيل: أراد تشميره للعبـادة، يقال: شَددتُ لهذا الأمر مئزري، أي: تشمرت له، وفي بيعـة العقبـة قال ﷺ للأنصار: «أبايعكم علىٰ أن تمنعونـي مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرورٍ بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنَّـك مما نمنـعُ منـه أُزُرَنـا. كنَىٰ عن النسـاء بالأزر كمـا كُنـي عنهـن باللّبـاس والفرُشِ. وقيل: أراد نفوسهم. كما قال أبو المنهال في شكاته إلىٰ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه:

ألا أبلـــغ أبـــا حفـــص رســـولاً فدًى لك ــ من أخي ثقةٍ ــ إزاري

[أ ز ز]

أي: أهلي ونفسي.

يقول ربنا عزَّ وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تعجلهـم وتحركهـم إلىٰ المعاصـي، يقال: أزّه، وهزَّه بمعنًى واحـد. ومعنىٰ الإرسـال هنا التسليط، ومن ذلك قـولـه تعالىٰ لإبليس: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. والأزّ والهـزّ والاستفـزاز معناهـا كلُّهـا التحريـك والتهييج والإزعاج. فأخبـر الله سبحانه أن الشياطيـن تحرك الكافريـن وتهيّجهم وتغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم. وقيل: معنى الأزّ الاستعجال، وهو مقارِب لما تقدم؛ لأن الاستعجال تحريـك وتهييج واستفزاز وإزعاج. وقال الخليل بن أحمد: الأزُّ: حملُ الإنسانِ الإنسانَ علىٰ الأمر برفقٍ واحتيال. ومن أحاديث هذه المادة ما رُوي أن النبي ﷺ كان يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاء. الأزيز هو الخنين الذي

يخرج من الجوف، وهو صوت البكاء، وقيل: هو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء. يقال: أزَّ قِدْرَك، أي ألهب النارَ تحتها. والخنين الذي جاء في شرح الحديث هو بالخاء المعجمة، وهو خروج الصوت من الأنف، فإذا خرج الصوت من الفم فهو الحنين بالحاء المهملة. وجاء في الحديث: أنه ﷺ كان يُسمع خنينُه في الصلاة وذلك من شدة ورعه وخشيته من ربه ﷺ. والمرجل الذي جاء في الحديث: هو كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو خزف أو حديد. وقيل: إنما سمي المرجل كذلك، لأنه إذا نصب فكأنه أقيم علىٰ أرجُل.

والأَزَزُ: الامتلاء والتَّضامُّ. وقال أبو بكر بن دريد: بيتٌ أَزَزٌ: إذا امتلأ ناساً. وفي حديث سَمُرة رضي الله عنه: كُسِفت الشمسُ على عهد رسول الله ﷺ، فانتهيتُ إلىٰ المسجد فإذا هو بأززٍ، أي: ممتلئ بالناس. يقال: أتيت الواليَ والمجلسُ أززٌ، أي كثير الزِّحام، ليس فيه متسع. والناس أززٌ: إذا انضم بعضهم إلىٰ بعض. وأنبّه هنا إلىٰ تصحيف عجيب في هذا الحديث، فقوله: «بأزز» جاء مكانه في «سنن أبي داود»: «بارزٌ»، جعله من البروز وهو الظهور، وهو خطأ من الراوي: نبّه عليه الإمام الخطابي في «المعالم شرح سنن أبي داود»، وأبو منصور الأزهري في «التهذيب»، وحكى ذلك مجد الدين بن الأثير في «النهاية».

[أ س ر]

يقول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]. ﴿أَسۡرَهُمۡۖ﴾: أي خَلْقَهم. والأسر: شدة الخَلْق. يقال: شدَّ اللهُ أسْرَ فلان، أي: قوّىٰ خَلْقَه. ويقال: فرسٌ شديدُ الأسر، أي: الخَلْق، قال لبيد:

سـاهِـمُ الـوجـهِ شـديـدٌ أسـرُهُ ... مشرفُ الحاركِ محبوكُ القَتَدْ

وأصل هذه المـادة يرجع إلىٰ معنى الحبس والإمساك، ومنه الإسار، وهو القِـدُّ الذي تُشَدّ به الأقتـاب، ومن ذلك سمِّـي الأسير لأنـه يُشَدّ بذلك الإسار، وجـاء الإسارُ أيضاً مصـدر: أسرتُه أسْراً وإساراً، ومنه حديث الدعـاء: «فأُصبحُ طليق عفوِك من إسار غضبك»، وفي حديث ثابت البُناني رضي الله عنه، قال: كان داود عليه السلام إذا ذكر عقـاب الله تخلَّعـت أوصالُه لا يَشُدُّها إلاّ الأسرُ. أي: الشدُّ والعصب. والأُسرة عشيرة الرجل وأهلُ بيته، وسمِّيت بذلك لأنه يتقوىٰ ويشتدّ بهم، وجاءت في الحديث: «زنىٰ رجل في أُسْرة من الناس». ومن استعمال هذه المـادة في معنى الحبس والإمسـاك جاء: الأُسْرُ، وهو احتباسُ البول، والرجل الذي به ذلك يقال له: مأسور. أما احتبـاس الغائـط فهو الحَصْر. وفي حديـث أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رجلاً قال له: إن أبي أخذه الأُسْرُ.

[أ س ف]

يقـول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] الأسِفُ ـ بكسرالسين ـ: الشديد الغَضَب، ويقال فيه أيضاً: الأسيف. قال الأعشىٰ ميمون ابن قيس:

أرىٰ رجـلاً منهـم أسيفـاً كـأنمـا ... يضـم إلىٰ كَشْحيْهِ كفّاً مخضَّبا

وقال الراغب الأصبهانـي هنا كلاماً نفيسـاً، قال رحمـه الله: الأسـف: الحزن والغَضَبُ معاً، وقد يقـال لكل واحد منهما على الانفـراد، وحقيقته ثورانُ دمِ القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك علىٰ من دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان علىٰ من فـوقـه انقبـض فصار حزناً، ولذلك سئـل ابن عبـاس رضـي الله عنهمـا عن الحزن والغضب، فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف، فمن نازع مَن يقوىٰ عليه أظهره

غيظاً وغضباً، ومن نازع مَن لايقوىٰ عليه أظهره حزناً وجزعاً.

وقـوله تعـالىٰ: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥]. معنى ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، وقيل: معناه أغضبوا رسلنا. وقال بعضهم: إن الله لا يأسـف كأسفِنـا، ولكن له أوليـاءُ يأسفـون ويرضَـوْن، فجعـل رضاهم رضاه وغضبهم غضبـه. وسئل رسول الله ﷺ عن موت الفُجاءة فقـال: «راحـةٌ للمؤمن، وأَخْذةُ أسفٍ للكافر»، والأسـف هنا: الغضب. وفي حديث السيـدة عائشـة تصف أباها رضي الله عنهما: إن أبا بكر رجـلٌ أَسِيف، تعني سريع الحزن والبكاء، وهذا مثل حديثهـا الآخَر في وصفه أيضاً: كان والله غزير الدمعـة، وقيذ الجوانح، شجيّ النشيج. وكل هذا بمعنى كثرة البكاء من رقة قلبه وصفاء نفسه رضي الله عنه.

[أ ص ر]

يقول الله عز وجل على لسان عباده المؤمنين في دعائهم وتضرعهم: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الإِصْرُ: العبء الثقيل الذي يأصِرُ صاحبه، أي: يحبسُه مكانَـه، لا يستقلّ به لثقله، والمراد به هنا التكليفُ الشـاق، والأمرُ الغليظ الصعب. وقيـل: الإصر: شدة العمـل، وما غُلّـظ على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، ومنه قول النابغة:

يا مانعَ الضيْم أن تُغْشى سراتُهُمُ والحاملَ الإصرِ عنهُمْ بعدَما غَرِقوا

وهذه المادة (الأصر) مَعناها الحَبْسُ وعطفُ الشيء على الشيء، واستعمالاتُ المادة كلها ترجع إلىٰ هـذا المعنى وتتفرع عنه، فيسمّـىٰ العَهْـدُ والميثاق إصْراً، لأن المأخـوذ عليه العهدُ يُحْبَس عليه ويُلْـزَم به، ومن ذلك قـولـه تعـالىٰ: ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهـدي وميثـاقـي، وقـولـه تعـالـى:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: ما عُقِدَ من عَقْدٍ ثقيل عليهم، مثلَ قتلهم أنفُسَهم وما أشبه ذلك من قرض الجلد إذا أصابته النجاسة، وكان ذلك في بعض الشرائع الأولىٰ التي نُسخت برسالة نبينا محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة وهدًى للعالمين.

وجاء في الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلَّت له الرِّقاب، وخضعت له الأجساد، ما هو؟ قال: «ظِلُّ الله في الأرض، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر وعليكم الصبر». والإصر هنا هو الثقل الذي يأصر حاملَه، أي: يحبسه في مكانه لفَرْط ثقله، والمراد الوزر العظيم، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «من حلف علىٰ يمين فيها إصرٌ فلا كفارة لها». هو أن يحلف بطلاقٍ أو عِتاق أو نذر، لأنها أثقل الأيمان وأضيقها مخرجاً، يعني أنه يجب الوفاءُ بها ولا يُتعوَّضُ عنها بالكفارة. وفي حديث صلاة الجمعة: «من غسل واغتسل وغدا وابتكر ــ يعني إلىٰ الجمعة ــ ودنا ولغا، كان له كِفْلان من الإصْر» أي: كان له نصيبان من الوزر للغوه، وتضييعه عملَه. ومن اشتقاقات هذه المادة كلمة الآصرة، وجمعها الأواصر، وهي: ما عطفك علىٰ رجلٍ من رحمٍ أو قرابةٍ أو صِهْرٍ أو معروف. قال الحطيئة:

عطفوا عليَّ بغير آ　　　صرةٍ فقد عظُمَ الأواصِرْ

أي: عطفوا عليَّ بغير عهد أو قرابة.

[أ ف ك]

تدل مادة (أَفَكَ) علىٰ معنىً واحد يتصرّف إلىٰ استعمالات مختلفةٍ ترجع كلها إليه وهو: قلبُ الشيء وصرفُه عن جهته، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ

ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، أي: لتصرفنا عنها بالإفكِ، وهو الكذب، وسمّي الكذب إفْكاً، لصرف الكلام فيه عن الحقّ إلىٰ الباطل، وقد جاء الإفك بمعنىٰ الكذب في القرآن الكريم كثيراً، فمن ذلك قوله تعالىٰ في قصة أم المؤمنين التقيةِ النقيةِ السيدةِ عائشةَ رضي الله عنها، وما رُميت به من الحديث الباطل الكاذب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: تختلقون الكذب.

ومن استعمال هذه المادة بمعنىٰ الصرفِ لا غيرُ قولُه تعالىٰ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]، أي: يصرف عن الإيمان برسول الله ﷺ، وبما جاء به، أو يصرف عن الحق مَن صُرف في سابق علم الله تعالى. وقيل: إن المعنى: يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق، وهذا الاختلاف هو: المذكور في الآية السابقة: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مختلف﴾ [الذاريات: ٨] ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] أي: يُصرفون عن الحق في الاعتقاد إلىٰ الباطل، ومن الصدق في المقال إلىٰ الكذب، ومن الجميل في الفعل إلىٰ القبيح. وجاء في حديث عَرْض نفسه ﷺ، على قبائل العرب: «لقد أُفك قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك» أي: صُرِفُوا عن الحق ومنعوا منه. ولأن هذه المادة تعود إلىٰ معنى قلب الشيء فقد سمّىٰ الله عزَّ وجل قرىٰ قوم لوط: المؤتفكات. قال عزَّ من قائل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، وذلك أن قوم لوط لما كذَّبوه وخالفوا عن أمره أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] فسمِّيت مؤتفكات، أي: منقلبات، وهو قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤].

وفي حديث بشير بن الخصاصيَّةِ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «ممّن أنت؟» قال: من ربيعة. قال: «أنتم تزعمون لولا ربيعةُ لائتفكت الأرضُ بمن عليها» أي: لانقلبت بأهلها. ولأن هذه المادة ترجع أيضاً إلىٰ معنىٰ صرف الشيء عن جهته، فقد سمِّيت الرياحُ المنحرفة التي تختلف جهاتُ هبوبها: المؤتفكات. جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إذا كثرت المؤتفكاتُ زكت الأرضُ. أي: كثر رَعْيها.

[أ ك ل]

تدلُّ مادة (أكل) في أصل وضعها على التنقّص، فنحن حين نأكل ما على المائدة إنما نَنْقُصه ونُقلِّل من مقداره وكميته. ولقد تصرفت العرب في هذا اللفظ على وجوه شتى من المعاني والاشتقاقات، ونحن نكتفي هنا بما جاء من ذلك في كتاب الله العزيز، والحديث الشريف. يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. قوله: ﴿أُكُلَهَا﴾ أي: ثَمَرها. ويقول تعالى مبيناً عجيبَ صنعه وكمالَ قدرته في تجاور الزروع واختلافِ طعومها: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ [الرعد: ٤]. أراد سبحانه وتعالى أنها تُسقى بماء واحد وتختلف طعومُها ومذاقاتُها، فهذا حلوٌ يجاوره حامض، وذاك بالغ الجودة، بجانبه دونه في الجودة، مع اتفاق المكان واتحاد السَّقْي. فلم يبق سببٌ للاختلاف إلا قدرةُ الله الباهرة وصنعُه العجيب. ولذلك خُتمت الآية الكريمة بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ويقول تعالى في وصف الجنة التي أعدَّها لعباده المتقين: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: ثمارها دائمة، وليست كثمار الدنيا تجيئك وقتاً دون وقت.

ويقال على سبيل التشبيه من طريق الكناية: أكل فلانٌ فلاناً، أي: اغتابه، وكذا أَكَلَ لحمه. ومِن أبلغ ما قيل في ذلك قوله تعالىٰ ناهياً عباده عن كثير الظن والتجسس والاغتياب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وفي هذا التشبيه من التنفير من الغِيبة ما فيه، فإذا كان أكل لحم الإنسان مما تستقذره الطبائع السويّة وتستوحشه النفوس السليمة، فكيف إذا كان لحم هذا الإنسان ميتاً، ثم كيف إذا كان هذا اللحم البشريُّ الميت لحمَ الأخ الذي تعطفك إليه القرابة، ويربطك به الدم. والغيبة محرمة بالإجماع. ولا زالت نصوص السنة ناطقةً بتحريمها محذرةً من إتيانها، فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبُك من صفية كذا وكذا. تعني أنها قصيرة. فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزَجْته». وروى أبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرىء من الشرّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم». وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: « يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتْبَعُوا عوراتِهم، فإنه من يَتْبعْ عوراتِ المسلمين يَتْبعِ اللهُ عورتَه، ومَن يتبعِ اللهُ عورتَه يَفْضَحْه ولو في جوفِ رحله». وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما نظر يوماً إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمكِ وأعظمَ حُرْمتَكِ، ولَلْمُؤمِنُ أعظمُ حرمةً عند اللهِ منك». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

ولما كان الأكلُ إنما يُحتاج فيه إلى المال فقد عُبِّر بالأكل عن إنفاق المال. قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا

﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. فأكل المال بالباطل صرفُه إلى ما ينافيه الحقُّ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾ تنبيه على أن تناولهم ذلك يؤدِّي بهم إلى النار. وقد يُعبَّر بالأكل عن البسط في الرزق، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ﴾ [المائدة: ٦٦]. أي: لوُسِّع عليهم الرزق.

ومن استعمال الأكل بمعنى الاغتياب، ما روي في الحديث: «من أكل بأخيه أُكْلَة»، ومعناه أن الرجل يكون صديقاً لرجل، ثم يذهب إلى عدوه فيتكلم فيه بغير الجميل ليجيزَه عليه بجائزة، فلا يُبارِكُ اللهُ له فيها. والأُكلة بضم الهمزة: هي اللقمة، وبالفتح المرةُ الواحدة من الأكل مع الاستيفاء. وفي الحديث: ينهى النبي ﷺ عن المؤاكلة. وهي: أن يكون للرجل على الرجل دين فيُهدي إليه شيئاً ليؤخِّرَه ويمسكَ عن اقتضائه، وسمي هذا الفعلُ مؤاكلةً لأن كل واحد من الرجلين يُؤْكِلُ صاحبه، أي: يُطعِمه، فهذا يأكل المال، وذلك يأكل الهدية. وفي الحديث قال ﷺ: «أُمِرتُ بقرية تأكل القرى» وهي: المدينة المنورة. أي: أمرتُ بالهجرة إليها. ومعنى أنها تأكل القرى، أي: يغلب أهلها وهم الأنصار، بالإسلام، على غيرها من القرى، وينصر اللهُ دينه بأهلها، ويفتحُ القرى عليهم، ويُغَنِّمهم إياها فيأكلونها. ويجوز أن يكون هذا القول منه ﷺ تفضيلاً للمدينة المنورة على غيرها من القرى، كقولهم: هذا حديث يأكل الأحاديث، أي: يَفْضُلها ويظهر عليها. والله أعلم.

[أ ل ت]

يقول ربُّنا عز وجل، منكراً على الأعراب الذين ادعَوْا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟

أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

قوله: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا يَنْقُصكم من أجوركم شيئاً. وقد نزلت هذه الآية الكريمة في بني أسد حين أتت عليهم سنةُ قحط وجدب فأظهروا الإسلام، يريدون الصدقة، فأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، أي: لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلوصِ نية وطمأنينة. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾: أي استسلمنا خوفَ القتل أو السبي، أو طمعاً في الصدقة، وهذه صفة المنافقين، لأنهم أسلموا في ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾، أي: لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم، بل مجردَ قولٍ باللسان، من دون اعتقاد صحيح، ولا نية خالصة.

وقد جاءت هذه المادة (الألت) مرة أخرى في الكتاب العزيز، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، أي: وما نقصنا الآباءَ بإلحاقِ ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئاً. ومعنى الآية الكريمة أن الله تبارك اسمُه يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ عينُه وتطيبَ نفسُه، بشرط أن يكونوا مؤمنين.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية الكريمة، قال: هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفعَ من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً.

وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته

ووالده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا ربِّ، قد عمِلتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا ربِّ، أنَّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له».

[أ ل ف]

يقول تعالى معدداً نعمه على قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

الإيلاف هنا مصدر آلَفَ يُؤْلِفُ، ومعنى الإيلاف العهدُ والذِّمام للإجارة والحماية، وأول من أخذ هذه العهود لقريش هاشم بن عبد مناف، أخذها من ملك الشام. قال محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي: أصحاب الإيلاف أربعةُ إخوة: هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف، فأما هاشم فأخذ عهداً من ملك الروم، وأخذ نوفل عهداً من كسرىٰ فارس، وأخذ عبد شمس عهداً من نجاشيّ الحبشة، وأخذ المطلب عهداً من ملوك حِمْيَر باليمن، وكان هؤلاء الإخوة يُسَمَّوْن المُجيرين، ثم كان تجارُ قريش يترددون ويختلفون إلىٰ هذه الأمصار بهذه العهود

التي أخذها لهم الإخوة الأربعة ويقولون: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد.

وهذه اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ ما موضعها؟ قيل: هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها، وهي سورة الفيل، كأنه قال سبحانه: أهلكت أصحاب الفيل لأجل أن تؤالف قريش الرِّحْلتين.

ففي سورة الفيل ذكَّر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بأبرهة والأحباش، ثم قال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، إذ كان صاحب الفيل قد جاء ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناسُ إليه، وبذلك يَسلُبُ قريشاً هذا الشرف ويحرمُها ذلك الانتماء، فلا يبقى لها شيء تفاخر به أو تمشي به بين الناس وتتنقّل به في البلاد والأمصار. وقد رُوي هذا الرأي عن أبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي زكريا الفراء، وحكي أيضاً عن أبي محمد بن قتيبة، وأبي إسحاق الزجّاج. وردَّه ابنُ عرفة نفطويه وأبو جعفر الطبري، وذلك لأن بين السورتين بسم الله الرحمن الرحيم، فهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

والرأي الثاني أن هذه اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، والمعنىٰ: أنه سبحانه وتعالىٰ أمر قريشاً أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، وينسب هذا الرأي إلىٰ الخليل بن أحمد، وذكره صاحب «الكشاف». وذهب الكسائي وأبو الحسن الأخفش مذهباً ثالثاً، فقالا: اللام لام التعجب: والمعنى: اعجبوا لإيلاف قريش. والله أعلم.

وتدل هذه المادة الألف واللام والفاء على انضمام الشيء إلى الشيء، والاجتماع مع الالتئام، فمثلاً: سُمّي العدد ألفاً لأن الألف اجتماع عشر مئات. وتأليف القلوب جمعُها على شيء واحد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. والمؤلفة

قلوبهم هو قوم من الكفار أو من المنافقين كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات ويتألفهم ليسلموا. وجاء هذا صريحاً في حديث غزوة حنين: «إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم»، التألُّف: المداراة والإيناس ليثبتوا على الإسلام رغبةً فيما يصل إليهم من المال.

[أ ل ل]

يقول الله تعالىٰ كاشفاً فسادَ قلوب المشركين، وأنهم لا عهدَ لهم ولا ذمة: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]، وقال أيضاً: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠]. الإلُّ هنا معناه العهد والقرابة، أو قُرْبَىٰ الرحم خاصة. قال الشاعر:

هـمْ قطَعـوا مِـن إلٍّ مـا كـان بينَنـا ... عُقوقاً، ولم يُوفُوا بعهدٍ ولا ذِمَمْ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يهجو أبا سفيان بن الحارث:

لعمرُك إن إلَّـكَ مـن قـريشٍ ... كإلِّ السَّقْبِ من رألِ النَّعامِ

والسَّقْبُ: ولد الناقة ساعةَ يولد. والرأل: ولد النعام. وقيل: إن (الإلَّ) في الآيتين الكريمتين هو اسم الله عز وجل بالعبرانية، ويراد به الرُبوبيّة. ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذلك أنه لما قدِمَ وفد اليمامة بعد قتل مسيلمة الكذاب، قال لهم أبو بكر: ما كان صاحبكم يقول؟ فاستَعْفَوْه من ذلك ــ أي: طلبوا منه أن يُعفيَهم من الكلام ــ فقال: لتقولُنّ. وعزم عليهم، فقالوا: كان يقول: يا ضِفْدَعُ نِقِّي كم تنقيّن، لا الشراب تَمْنَعِين، ولا الماء تُكَدِّرين. . . في كلام من هذا كثير قال أبو بكر رضي الله عنه: ويحكم! إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ ولا بِرّ، فأين ذُهِب بكم؟ أي: إن هذا الكلام لم يخرج من ربوبية وألوهية، كما يخرج

كلام الأنبياء الذين يوحىٰ إليهم. وكان مسيلمة عليه لعنة الله يريد أن يعارض القرآن الكريم المنزل من حكيم حميد. وقال مؤرِّج بن عمرو السَّدُوسيّ: الإلُّ: الأصل الجيد والمعدن الصحيح. أي أن كلام مسيلمةَ هذا لم يجىء من الأصل الذي جاء منه القرآن. ومعنىٰ البِرّ في كلام أبي بكر رضي الله عنه: لم يخرج من إلٍّ ولا بِرّ، معناه هنا الصدق، من قولهم: صدقْتَ وبَرَرْتَ. قال الزمخشريُّ: وهو من العام الذي أدركه تخصيص. والمعنى: إن هذا كلام غير صادر عن مناسبة الحقّ ومقاربته، والإدلاء بسبب بينه وبين الصدق.

ومن أحاديث هذه المادة ما روي عن النبي ﷺ مرفوعاً: «عجب ربكم من إلّكم وقنوطِكم وسرعةِ إجابتِه إياكم». الإلّ في هذا الحديث بكسر الهمزة: شدة القنوط، ويجوز أن يكون الألّ بفتحها. بمعنى النحيب ورفع الصوت بالبكاء والدعاء. والمعنىٰ أنّ إفراطكم في البكاء والنحيب ورفع الصوت، كما يفعل القانطون من رحمة الله، هذا العمل مستغربٌ منكم مع ما ترَوْن من آثار رأفة الله بكم، وسرعةِ استجابته لأدعيتكم، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

[أ ل و / أ ل ىٰ]

يقول ربنا عزَّ وجل معدّداً نعمه على عباده من الإنس والجن، وأن هذه النعم تحيط بكل مخلوقات الله وتغْمُر الكون كلَّه، بحيث لا يمكن دفعها أو إنكارها، فيقول تعالىٰ في سورة الرحمن بعد ذكر كل نعمة، مخاطباً الإنس والجن: ﴿ فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦]. الآلاء: النِّعم. وواحد الآلاء: إلىً، تكتب بالألف واللام والياء. ويقال: أَلْيٌ وإِلْيٌ وأَلْوٌ وإِلًى، فهذه خمس لغات في المفرد وأكثرها «إِلىً»، فقد جاء نظيره في مِعىً وأمعاء.

وهذه المادة (أَلَوَ) أو (أَلَىٰ) ترجع إلىٰ معنيين متضادين، الأول: الاجتهاد والمبالغة، والثاني: التقصير والإخلال. وزاد بعضهم من معاني الأَلْو: المنعَ والعطية والاستطاعة. كل ذلك قد جاء وله شواهد من كلام الله عزَّ وجلَّ وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام، وكلام الفصحاء من العرب، قال تعالىٰ ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة وأولياء يطلعونهم على سرائرهم وخاصةِ أمرهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، أي: لا يقصّرون في إفساد أموركم، ولا يُبْقُون غاية في إلقائكم في الخبال، وهو الفساد.

ومن مجيء هذه المادة للمبالغة والإسراف في الحكم ما جاء في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها: «ويل للمتألِّين من أمتي» قيل: هم الذين يحلفون بالله متحكّمين عليه فيقولون: والله إن فلاناً في الجنة وإن فلاناً في النار. ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن أبا جهل لعنه الله قال له: يا ابن مسعود، لأقتلنّك، فقال ابن مسعود: من يتألّ علىٰ الله يكذّبْه. والله، لقد رأيتُ في النوم أني أخذت حَدَجةَ حَنْظل فوضعتها بين كتفيك، ورأيتني أضرب كتفيك بنعل، ولئن صَدَقَت الرؤيا لأَطَأنّ علىٰ رقبتك، ولأذبحنّك ذبح الشاة.

ويأتي من هذه المادة بمعنى المنع: الإيلاء، وهو حَلِفُ الرجلِ ألاّ يأتي زوجتَه مدةً من الزمان، وله أحكام معروفة، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. يقال: آلىٰ وائتلىٰ وتألّىٰ كل ذلك بمعنى حَلَفَ، واستعمال هذه المادة في معنى الحَلِف مقبول، فإن من معاني المادة كما قلت: التقصير.

والحَلِف إنما يحمـل عليه في الغالب تقصيرٌ في الأمر الذي يُحلَف عليه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ الآية [النور: ٢٢]. وقد نـزلت في مسطـح بن أُثاثـة وكان قريباً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم خاض في الإفـك علىٰ السيدة عائشـة رضي الله عنهـا. وكان أبو بكر ينفق عليه فأقسـم ألا ينفـق عليه، فنزلت الآيـة الكريمـة. ومن استعمـال المـادة بمعنـى الاستطاعة ما جاء في الحديـث: «من صام الدهرَ لا صام ولا ألَّى» أي: لا صام ولا استطاع أن يصوم.

[أ م ت]

يقول تعالى مبيناً حال الجبال يوم القيامة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]. **الأمـت**: أن يغلُظَ مكانٌ ويـرقَّ مكان، أو يرتفع مكان وينخفـض مكان، والمـراد أن الله سبحانه وتعالىٰ في ذلك اليوم يُذهـب الجبال عن أماكنها وينسفها ويمحقها، ويسيِّرها، كما جـاء في الآيـة الأخـرى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، فتصير الأرضُ أو مواضعُ هذه الجبال بساطاً واحداً، فلا ترى يومئذٍ وادياً ولا رابيةً ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. فهذا هو معنى الأمت في الآية الكريمة.

وجاء في الحديـث: «إن الله تعالىٰ حـرَّم الخمـر فلا أَمْتَ فيها، وأنا أنهى عن السُّكْر والمسكر». قيل: «لا أمت فيها»، أي: لا نَقْصَ في تحريمها. يعنى أنه تحريم بليغ، من قولهـم: ملأ قِرْبَتَـهُ حتى لا أَمْتَ فيها. وقيل: بل معنـاه لا شـكَّ فيها ولا ارتيـاب أن هذا الحكم تنزيـلُ ربّ العالميـن، لأن الأمـت في صيغة اللغـة: الحزرُ

والتقـدير، ويدخلُهما الظنُّ، يقـال: بيننا وبين المـاء ثلاثة أميالٍ على الأمت، أي: على التقديـر. ويقال: كم تأمِـتُ هذا الأمر؟ أي: كم تقـدِّره؟ وقيل: معناه: أن الله سبحانـه وتعالىٰ حرَّم الخمر تحريماً لا هوادة فيه ولا ليـن، يقال: سار فلان سيراً لا أمـتَ فيه، أي: لا وهْن ولا فُتور، هكـذا قال أئمة اللغـة. وأرى أنه لا مانـع من أَنْ يُفسَّـرَ «الأمت» في حديث تحريم الخمـر بما فُسّر به في الآيـة الكريمـة. فإن الأمت هناك بمعنـى أن يرتفـع مكان وينخفض مكان. وهذا مظهر من مظاهـر الاختلاف لا محالة. فيكون المراد ــ والله أعلم ــ أنه سبحانه وتعالى حرَّم الخمر تحريماً قاطعاً لا اختلاف فيه ولا تأويل.

[أ م ر]

تأتي مادة (أمر) في العربية لمعان خمسة: الأمر من الأمور، والأمر ضدُّ النهي، والأمْرُ: البركة والنماءُ والزيادة، والأمْرُ: المَعْلَمُ والعلامة، والأمر: العَجَبُ. ولكلّ ذلك شواهِدُ ومُثُل. فمن مجيء الأمر بمعنى الشأن من الأمور في الكتاب العزيز قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقـد يقال للإبداع في الصنعـة: أمـر، نحـو قولـه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، قـال الراغبُ الأصبهانيُّ: ويختص ذلك بالله تعالـىٰ دون الخـلائق، وقد حُمل على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]، وعلى ذلك حمل الحكماء قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي: من إبداعه جلَّ وعز.

ومجيء الأمر بمعنى ضدِّ النهي في القرآن والحديث كثير جداً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، قيل: المعنى أمرناهم بالطاعة فعصوا. وقرأ بعضهم: ﴿آمَرْنا﴾ بالمد، أي: كثَّرنا. وهذا هو استعمال المادة بمعنى الزيادة والنماء. ومنه حديث أبي سفيان: «لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة» أي: كثر وارتفع شأنه ويعني النبيَّ ﷺ. ومنه الحديث أن رجلاً قال له: ما لي أرىٰ أمرَكَ يأْمَرُ؟ فقال: «والله ليأمَرَنَّ» أي: ليزيدَنّ على ما ترىٰ، وفي الحديث: «أميري من الملائكة جبريل» أي: صاحبُ أمري ووليِّي، وكل من فزِعتَ إلى مشاورته ومؤامرته فهو أميرُك.

وتأتي المؤامرة والائتمار بمعنى المشاورة في الخير أو في الشر ــ وليس على ما يظنه الناس أن المؤامرة في الشر فقط ــ قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٦]، والمعروف هو الجميل، فهذا في الخير، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، فهذه مشاورة في الشر، أي: إن الملأ يتشاورون، يؤامر بعضهم بعضاً في قتلك. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الرجال ثلاثة: رجلٌ إذا نزل به أمرٌ ائتمر رأيه» فَسَّره شَمِرُ بن حمدَوَيْهِ فقال: أي شاور نفسه وارتأىٰ قبل مواقعة الأمر. وهذا الحديث رواه جار الله الزمخشري على هذا النحو: «الرجال ثلاثة: رجل ذو رأي وعقلٍ، ورجلٌ إذا حزَبَه أمرٌ أتىٰ ذا رأي فاستشاره، ورجلٌ حائرٌ بائر، لا يأتمرُ رَشَداً ولايُطيع مرشداً» أي: لا يأتي برَشَدٍ من قبل نفسه، ولا يقبلُ قول غيره. ويقال: المؤتمر: كلُّ من فعل فِعْلاً من غير مشاورة، كأنَّ نفسَه أمرته فائتمر، قال النمر بن تولب:

اعلمَنْ أن كلَّ مؤتمَرٍ　　　مُخطِئٌ في الرأيِ أحيانا

وقال امرؤ القيس أو غيره:

أحارِ بنَ عمرٍو، وكأني خَمِرْ　　　ويعدو على المرءِ ما يأتمرْ

ومن استعمـال مادة الأمر بمعنى المَعْلَـم والعلامة ما جاء في حديث عبد الله ابن مسعودٍ رضي الله عنه، في الذي لُدِغ وهو محرمٌ بالعمرة فأُحْصِر، فقال عبد الله: ابعثوا بالهَدْي واجعلوا بينكم وبينه يوم أمارٍ، فإذا ذَبح الهدي بمكة حلَّ هذا. الأمار والأمـارة: العلامة التي تَعرِف بها الشيء، يقـول: اجعلوا بينكـم وبينه يوماً تعرفونه لكيلا تختلفوا فيه. وأنشد الكسائي:

إذا طلعت شمسُ النهارِ فإنها   أمارةُ تسليمي عليكِ فسلِّمي

ومن استعمال المادة بمعنى العجب قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١]، قال قتادة: عجباً، وقال مجاهد: منكراً، والله أعلم.

[أ م م]

تدور مادة (أمم) في اللسان العربي حول أربعة معان، وهي: الأصل والمرجع، والجماعـة، والدِّين، وقد تستعمـل في معنـىٰ الحين والقَصْـد. يقـول إمامُ العربية الخليلُ بن أحمد الفَراهيديّ: كل شيء يُضم إليه ما سواه ممّا يليه فإن العرب تسمي ذلك الشيء أُمّاً. انتهى كلام الخليل. وقد سُمِّيت فاتحةُ الكتاب أمَّ الكتاب لأنها أوّلُه وأصلـه، وبهذا المعنىٰ سُمِّيت مكةُ أمَّ القرى ــ زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة ــ لأنها أول الأرض وأصلها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧]، وقيل: سُمِّيـت الفاتحـةُ أمَّ الكتاب؛ لأنه إليها تضاف السور ولا تضاف هي إلى شيء من السور.

وقـولـه تعـالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي عند الله عز وجل، وهو أيضاً في قوله تعـالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] اللـوحُ المحفـوظ،

وذلك لكون العلوم كلِّها منسوبةً إليه ومتولدةً منه. وقوله تعالىٰ: ﴿و هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] أمُّ الكتاب هنا يراد بها معظمه، يقال لمُعظم الطريق: أمُّ الطَّريق. وأمُّ الرمح: لواؤه. قال الشاعر:

وسلبْنا الرِّيحَ فيه أمُّهُ   من يد العاصي وما طال الطِّوَلْ

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] أي: مسكنه النارُ، وسُمِّيت جَهَنَّمُ أُمّاً لأن الكافرَ يأوي إليها، فهي كالأمِّ، أي: كالأصل. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] أي: أصلِها وأعظمِها.

وجاء في الحديث: «اتقوا الخمر فإنها أم الخبائث» قال شَمِر بنُ حَمْدَوَيْه: هي التي تجمع كل خبيث، وقال بعض أعراب قيس: إذا قيل: أمُّ الشر فهي تجمع كلَّ شر، وإذا قيل: أمُّ الخير، فهي تجمع كل خير. وفي الحديث أيضاً: «إن أطاعوهما ـ يعني أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما ـ فقد رَشِدوا ورشِدَت أمُّهم»، أراد بالأمّ الأُمّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] أي: قائماً مقام جماعة في عبادة الله، كما يقال: فلان في نفسه قبيلة، وقال محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابيّ: يقال للرجل الجامع للخير: أمَّة، وقال أبو زكريا الفراء: الأمَّة: معلِّم الخير.

والأُمَّةُ: الرجل المنفرد بدين، ومنه حديث قُسِّ بن ساعدة الإيادي: «أنه يُبْعَثُ يوم القيامة أمَّةً وحده». وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على دين مجتمع ومذهب، ومنه قوله عز وجل: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] أي: على دين واحد وطريقة واحدة في الضلال والكفر، وكذلك قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] قال الضحاك: أي: دينك. والمعنىٰ: إن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملةٌ واحدة، وشريعة

متحدة، يجمعهـا أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبيـاءه وأنزل فيه كتبـه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

وتأتي الأمَّة في القرآن الكريم بمعنى كلِّ جماعةٍ في زمانها. قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة: ١٣٤] أي: صنف قد مضى، وكذلك قوله عز من قائل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: أصنافٌ أمثالكم في الخلـق والمـوت والبعـث. وقوله: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠] أي: فِرَقـاً. وقـولُـه سبحـانـه وتـعـالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣] أي: عصبةً وجماعة.

وتأتـي الأمَّة بمعنى المدَّة من الزمـان، والحِيـن، ومنه قولـه سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ [هود: ٨]، وقولـه أيضـاً: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥]. وقال أبو محمد عبد الله بنُ جعفر، المعروف بابن دَرَسْتَوَيْه: والأمَّة لا تكون الحين إلا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقَامَه، كأنه قال ــ والله أعلم ــ وادَّكر بعد حين أمَّة، أو بعد زمن أمَّة، وما أشبه ذلك، والأمَّة: الجماعة الكثيرة من الناس.

وتأتي الأمَّة بمعنى الطريقة المستقيمة، وذلك في قوله تبارك اسمه: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي: قائمـةٌ بأمر الله مطيعة لشرعـه، متبعـةٌ نبـيَّ الله، فهي قائمة، يعنـي مستقيمـة. وشاهده من الشعر قول النابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان بن المنذر:

حلفْتُ فلم أترُكْ لنفْسِكَ رِيبةً ... وهل يأْثَمَنْ ذو أمَّةٍ وهْو طائعُ

أي: ذو طريقة مستقيمة.

ويقال لكل جيل من الناس والحيوان: أمَّة، ومنه الحديث: «لولا أن الكلاب أمَّةٌ تُسبِّحُ لأمرت بقتلها». وتسبيح الكلاب مما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهذا عامٌّ في جميع مخلوقات الله من الحيوانات والجمادات والنباتات، روىٰ الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوفٌ على دوابَّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبةٍ خير من راكبها، وأكثرُ ذكراً لله منه».

ومن أحاديث هذه المادة ما جاء في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار، وقد جاء في هذا الكتاب قوله ﷺ: «وإن يهودَ بني عوف أنفُسَهم ومواليَهم أمَّةٌ من المؤمنين، لليهود دينُهم وللمؤمنين دينُهُم». وقد يبدو في هذا الحديث شيء من التعارض، فكيف يقول عليه السلام: «إن يهودَ بني عوف أمَّة من المؤمنين» ثم يقول: «لليهود دينُهم وللمؤمنين دينُهم»؟ لكنّ المراد أن هؤلاء اليهودَ صاروا بالصلح الذي وقع بينهم وبين المؤمنين كأمَّة من المؤمنين، كلمتهم وأيديهم واحدة على عدوّ المؤمنين، إلاّ أنّ لهؤلاء دينَهم ولهؤلاء دينَهم.

ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. الأمِّيون: هم مشركو العرب، نُسبوا إلى ما عليه أمَّة العرب وكانوا لا يكتبون كما نقول: «عامّيّ» لكونه على عادة العامَّة، ومنه قوله ﷺ: «بُعثت إلى أُمَّة أمِّية» وقوله: «إنا أمةٌ أمية لا نكتُب ولا نحسُب» وقيل: الأمَّة الأمِّية: هي التي على أصل ولادات أمهاتها، لم تتعلم الكتاب، والنبيّ الأُمّيُّ على هذا، على جبلته التي وُلد عليها، نُسب إلىٰ ما ولدته عليه أمُّه، ولم يكن النبي عليه السلام يكتب ولا يقرأ، معجزةً وفضيلة له، لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] ثم دَفْعاً ونفياً لتهمة الكذب والاختلاق عنه ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ومن كلمات المادة (الإمام)، والإمام هو الذي يأتمُّ به الناسُ ويتبعونه، مأخوذ من الأَمِّ، وهو القصد، كأنهم يقصدون أفعاله ويتبعونها، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: يأتمون بك ويتبعونك، وقوله: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢] أي: رؤساءه، وقوله: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] معنى الإمام هنا: الأئمة، فهو مفرد أُريد به الجمع، أي: يأتم بنا مَن بعدنا. وقولُه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بنبيهم، وقيل: بكتابهم، وقيل: بإمامهم الذي اقتدوْا به، وقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] قيل: إن المرادَ بالإمام هنا أمُّ الكتاب، وهو اللوح المحفوظ.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٩] يعني قرية قوم لوط عليه السلام، وأصحاب الأيكة، أي: أن هاتين القريتين المُهلَكَتين لبطريق واضح، يراهما من اعتبر، وإنما قيل للطريق: إمام؛ لأنه يُؤَمُّ فيه، أي يُقصَد. والأَمُّ: القصد، وهو التوجّه نحو مقصود، يقال: أَمَّ الشيءَ، وتأَمَّمَه، وتيَمَّمه، ويَمَّه، كلُّ ذلك بمعنى قَصَده، قال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أي: ولا تقصدوا، وصدر الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأَنْفَسه، ونهاهم عن التصدق برُذالةِ المال ودنيئه، وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. ومعنى: ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أي: لو أعطاكموه أحدٌ ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه. فالله أغنى منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

ومن هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ [المائدة: ٢] أي: قاصدين، وفي حديث بعضهم: «كانوا يتأمَّمون شرارَ ثمارهم في الصدقة»، ويروىٰ «يتيمَّمون» أي: يتعمّدون ويقصدون، ومنه حديث كعبِ بن مالك رضي الله عنه: «وانطلقتُ أتأمَّم رسول الله ﷺ».

ومن هذا الاشتقاق جاء «التيمُّم» الذي يقوم مقام الوضوء بالماء في ظروف مخصوصة بشروط مخصوصة. قال الخليل بن أحمد: التيمُّم يجري مجرىٰ التوخيِّ، يقال له: تيمَّم أمراً حسناً، وتيمَّموا أطيب ما عندكم: تصدقوا به، والتيمُّم بالصعيد ــ أي: التراب ــ من هذا المعنى، أي: توخَّوا أطيبَه وأنظفه، وتعَمّدوه، فصار التيمُّم في أفواه الناس فعلاً للتمسُّح بالصعيد حتى يقولوا: قد تيمَّم فلانٌ بالتراب، قال تعالىٰ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

ومن ألفاظ المادة: الآمَّة والمأمومة، وقد جاءا في أحاديث الدّيات، وهما الشَّجَّةُ التي بلغت أمَّ الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدِّماغ، والعرب تصوغ من إصابة الجوارح أفعالاً من لفظها فيقولون: رأيت فلاناً ورأسْتُهُ وصدرْتُه وبطنْتُه وظهرتُه، بمعنى: أصبتُ رئتَه، ورأسه، وصدره، وبطنه، وظهْره، وهذا ما يسمَّىٰ بملاحن العرب، ولأبي بكر بن دُريد فيه تصنيف، وعلى هذا يقال: رجل مأمومٌ وأميمٌ، أي: مضروبٌ علىٰ أمِّ رأسِه.

وقد يستعار ذلك في غير الرأس قال الشاعر:

قلبي من الزَّفَرات صدَّعه الهَوَىٰ　　　وحشايَ من حَرِّ الفراقِ أَمِيمُ

ومن المادة أيضاً: الأَمَمُ، وهو القُرْبُ، واليسير، ومنه حديث الحسن رضي الله عنه: لايزال أمرُ هذه الأُمّة أمَماً ما ثبتت الجيوش في أماكنها.

ومن استعمال «الأَمَم» بمعنى القرب قولُ زهير بن أبي سُلمىٰ:

كأنَّ عيني وقد سال السليلُ بهم　　　وعَبرةٌ ما هُمُ لو أنهم أَمَمُ

وقولُ أبي الطيب المتنبي:

جيشٌ كأنك في أرضٍ تُطاوِلُه　　　فالأرضُ لا أَمَمٌ والجيشُ لا أُمَمُ

[أ ن س]

يقول تعالىٰ: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ٩]. قوله: ﴿ ءَانَسْتُ ﴾ أي: رأيتُ وأبصرتُ.

وهذه المادة (أَنَسَ) تدلُ على ظهور الشيء، وكلِّ شيءٍ خالَفَ طريقة التوحُّش، ومن ذلك سُمِّي الإنْسُ إنْساً، لأنهم يُؤْنَسُون، أي: يُرَوْن ويظهرون بخلاف الجن المستترين، ويقال: آنسْتُ وأحسستُ ووجدتُ بمعنىً واحدٍ، ويقول تعالىٰ جَدُّه في حقّ اليتامىٰ: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦] أي: علمتم، والأصل فيه رأيتُ وأبصرتُ كما سبق، ومن ذلك أُخذ إنسانُ العين، وهي حَدَقَتُها التي يُبْصَر بها، ومن ذلك أيضاً قوله عزَّ من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧]. ومعنى «تستأنسوا» فيما قال إبراهيم بن عرفة نِفطوَيْهِ، أي: تنظروا هل هنا أحدٌ يأذن لكم؟ وقال أبو زكريا الفراء عن ابن عباس: معناه تستأذنوا، والاستئذان: الاستعلام، وآنست منه كذا وكذا، أي: علمتُ، يقول: حتى تستعلموا، أمطلقٌ لكم الدخولُ أم لا؟ وهذا من الآداب الشرعية التي أدَّب الله بها عباده المؤمنين.

قال الحافظ عمادُ الدين ابن كثير: أمرهم ألاّ يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويُسلّموا بعده، وينبغي أن يستأذن المرءُ ثلاث مرات، فإن أُذن له وإلا انصرف كما ثبت في «الصحيح»، أن أبا موسى الأشعريَّ رضي الله عنه حين استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاثاً فلم يؤذن له، انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال له عمر: ما رجَعك؟ قال: إني استأذنت

ثلاثـاً فلم يُؤذن لي، وإني سمعـت النبـي ﷺ يقول: « إذا استـأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصـرف» فقال عمر: لتأتيني على هذا ببينـة وإلاّ أوجعتك ضرباً، فذهب إلىٰ ملإٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقـالوا: لا يشهد لك إلا أصغرُنا، فقام معه أبو سعيد الخدريّ فأخبر عمرَ بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفقُ بالأسواق.

ومن ذلك أيضاً حديثُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كان إذا دخل داره استأنَسَ وتكلّم». قال أبو منصور الأزهري فيما حكاه عن أبي زكريا الفراء: العرب تقول: اذهب فاسْتأْنِسْ، هل ترى أحداً؟ ومعناه: تبصَّرْ، وروىٰ ابن جرير عن زينب امرأة عبد الله بن مسعـود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهىٰ إلىٰ الباب تنحنح وبزق، كراهة أن يهجُمَ منّا علىٰ أمر يكرهه. وروي عن ابن مسعـود أيضاً أنه قال: عليكـمُ الإذْنَ علىٰ أمهاتكـم. وكلّ هذا من الأدب النبـويّ الكريم الذي تلقاه الصحابة الكرام عن الهادي البشير الذي بُعث ليُتمم مكارم الأخلاق. وقد روي عنه ﷺ أنه نهىٰ أن يطرق الرجلُ أهلَه طروقاً ــ وفي رواية ــ ليْلاً يتخوفهم، وروي أيضاً أنه ﷺ قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال: انتظروا حتى ندخل عشاءً ــ يعني آخر النهار ــ حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة.

[أ ن ف]

يقول الله تعالىٰ مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم وعدم اكتراثهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]، قـولـه تعالى: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾، أي: ماذا قال الساعة. مأخوذ من استأنفتُ الشيء، أي: ابتدأته. والمعنى: ماذا قال في وقت يقرب منّا، ومنه ما جاء في الحديث: « أُنزلت عليَّ سورةٌ آنفاً» أي: مستأنفاً، الآن.

وهذا المادة (أنف) تدل على معنيين في الأصل، يتفرع منهما استعمالاتٌ شتى. المعنى الأول: أخذُ الشيء من أوله. والثاني: الأنف، هذه الجارحة المعروفة. ومن المعنى الأول وهو أخذُ الشيء من أوله، جاء الاستئناف والائتناف وهو ابتداء الشيء، ومن اشتقاقاته بهذا المعنى ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسأله يحيى بنُ يَعْمَر، فقال: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قِبَلَنا ناسٌ يقرؤون القرآن ويتقَفَّرون العلم ــ أي يتتبعونه ــ وإنهم يزعمون أن لا قدَرَ، وأن الأمر أُنُفٌ. قال ابن عمر: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم بُرآءُ مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثْلَ أحدٍ ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر. قوله: «الأمر أنُف» أي: مستأنَفٌ استئنافاً من غير أن يسبق به سابق قضاء وتقدير، ولا عِلمٌ من الله تعالىٰ، وهذا من زعمهم الباطل، تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً. وأنفُ الشيء أولُه، تشبيهاً بالأنف لأنه أول وأبرز ما يُرى من الوجه، ومنه ما جاء في الحديث: «لكل شيء أُنْفة، وأنْفة الصلاة التكبيرة الأولىٰ». أُنْفة الشيء: أوله وابتداؤه، والأُنفة بضم الهمزة هكذا جاء في الرواية. قال أبو عبيد الهروي: والصحيح أَنْفة بفتح الهمزة. وجاء في الحديث: «المؤمنون هَيِّنون ليِّنون ــ أو هَيْنون لَيْنون ــ كالجمل الأنِف إن قيد انقاد، وإن أُنيخ استناخ». قوله: الأَنِف، أي: الذي عقَر الخِشاشُ أنفَه فهو ذلولٌ لا يمتنع على قائده، بسبب الوجع الذي به من أثر الخشاش، وهو عود يُجْعَل في عظم أنف البعير. جعلنا الله وإياكم من الهيِّنين الليِّنين الهادين المهتدين.

[أ ن ى]

يقول تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. قوله: ﴿إِنَىٰهُ﴾، أي

نُضْجَـه وبلـوغَ وقتـه. وهذا توجيـهٌ من ربّ العـزة جل جـلاله لعبـاده المـؤمنين في تعاملهم مع النبي ﷺ، فهو سبحانه يحظر عليهم أن يدخلوا منازل النبي عليه السلام بغير إذن، كما كانوا يصنعون قبل ذلك في بيوتهم في الجاهلية وفي ابتـداء الإسلام، ثم استثنىٰ سبحانه من ذلك فقال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، أي: غيـر منتظرين ومتحينين نضجـه واستـواءه، أي: لا ترقبوا الطعام وهو يُطبخ، حتىٰ إذا دنا وقارب الاستواء دخلتم، وهذا ما يسمىٰ بالتطفل أو التطفيل، وهو معيب ومذموم.

وهذه المادة (أنىٰ) تدل علىٰ معـانٍ منها: إدراكُ الشـيء وبلـوغُ وقتـه، وهو ما سبق في الآيـة الكريمـة، ومنه قـولـه تعـالـىٰ: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] أي: ألم يحِنْ. يقال: آن يئين، وما أنىٰ لك و: لم يأنِ لك، أي: لم يحن.

وتأتي بمعنىٰ الإبطـاء والتأخير، ومن ذلك ما ورد في الحديث: أن رجلاً جاء يومَ الجمعة ورسـولُ الله ﷺ يخطب، فجعل الرجل يتخطىٰ رقابَ الناس حتىٰ صَلَّىٰ مع النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، فلما فرغ من صلاته، قال له النبي ﷺ: «أما جمَّعْتَ يا فـلان؟» فقـال: يا رسـول الله، أما رأيتني جمَّعـتُ معـك؟ فقـال: «رأيتك آنيت وآذيـت» قوله: آنيـت، أي: أخّـرْتَ المجـيء وأبطأت، وآذيت، أي: آذيت الناس بتخطِّيـك رقابَهـم. ومن ذلك قيـل للمتلبّث المتمكّث في الأمور: متأنٍّ. ويقال في فعله: آنيتُ وأنَّيْتُ.

قال الحطيئة:

وآنيـــتُ العَشـــاءَ إلـــىٰ سُهَيْـــلٍ   أوِ الشِّعرىٰ، فطال بيَ الأَناءُ

ويقـال في فعلـه أيضـاً: استأنيـتُ. وشاهـده ما جاء في حديث غزوة حنين: «اختـاروا إحدىٰ الطائفتين: إمّا المالُ وإما السَّبْـيُ، وقد كنـتُ استأنيتُ بكم» أي:

انتظـرتُ وتربّصتُ. ومن معاني مادة (أنىٰ): الساعةُ والوقتُ من الزمان، ومن ذلك آناءُ الليل والنهار، أي: أوقاتُهما وساعاتُهما. ومفردُ الآناء: إناً، مثلُ مِعىً وأمعاء، وإنْيٌ أيضـاً مثل نِحْيٍ وأنحاء، وأناً مثـل قَراً وأقـراء. وتستعمـل المادة أيضاً بمعنىٰ الظـرف الذي يوضـع فيـه الشـيء. ومنـه قـوله تعـالـىٰ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥]، والآنية: جمع إناء، مثل غِطاء وأغطية وكساء وأكسية.

وقد بقي من غريب هذه المادة آيتان من كتاب الله عز وجل. وهما قوله تعالىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقـولـه: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، فقوله: آنٍ، أي: حارٌّ قد بلغ الغاية في الحرارة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قد انتهـىٰ غليـه واشتدَّ حـرُّه. وكذلك قولـه: (آنية) أي: قـد انتهـىٰ حـرّها وغليـانها. واشتقـاق هاتين اللفظتيـن يرجع إلىٰ المعنىٰ الأول الذي ذكرناه للمادة، وهو إدراك الشـيء وبلوغ وقتـه، وهو المعنىٰ الذي فسروا عليه قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لكن يضاف إلىٰ هذا المعنىٰ هنا المبالغةُ والنهاية في الإدراك.

[أ هـ ل]

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] أي: هو أهلٌ أن يُتَّقىٰ ويُخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب، وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنـه أنه قـال: قرأ رسول الله ﷺ الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] وقال: «قال ربكـم: أنا أهلٌ أن أُتقَّىٰ فلا يُجعلَ معي إله، فمن اتقـىٰ أن يجعـل معي إلهـاً، كان أهـلاً أن أغفـر له». رواه الترمـذي وابن ماجـه، وقال الترمذي: حديـثٌ حسنٌ غريـب. وقـال أبو عبيـد الهـروي: سمعتُ الأزهـريَّ يقـول: المعنىٰ أنه يؤنَسُ باتقائه؛ لأنه يؤدِّي إلىٰ الجنة، ويؤنَسُ بمغفرته

لأنه غفور، ويقال: أهِلْتُ بفلان آهَلُ به: إذا أنستَ به، وهم أهلي وأهْلَتِي، أي: هم الذين آنسُ بهم.

وهذه المادة (أهَلَ) تدلّ علىٰ القُربِ والإلفِ والأُنْس. قال الخليل بن أحمد: أهل الرجل: زوجُه، والتأهل: التزوّج، وأهل الرجل: أخصُّ الناس به، وأهل البيت: سكانُه. وأهل الإسلام: من يدين به. وجاء في الحديث: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» أي: حفظةُ القرآن العاملون به هم أولياء الله، والمختَصون به اختصاصَ أهل الإنسان به. ومنه حديث أبي بكر في استخلافه عمرَ رضي الله عنهما: «أقول له إذا لقيتُه: استعملتُ عليهم خير أهلِك» يريد خيرَ المهاجرين، وكانوا يُسمُّون أهلَ مكة أهل الله، تعظيماً لهم، كما يقال: بيت الله.

وفي حديث الفيء والغنيمة: «أعطىٰ النبي ﷺ الآهلَ حظّين، والأعزَبَ حظّاً» الآهِل: الذي له زوجة وعيال، والأعزَب: الذي لا زوجة له. قال ابن الأثير عن لفظ «الأعزب»: وهي لغة رديئة، واللغة الفصحى: عَزَبٌ.

ومن غريب هذه المادة كلمة «الإهالة»، وهي: ما أُذيب من الألية والشَّحْم. وقيل هي: الدسَمُ الجامد.

ومنه الحديث: أن النبي ﷺ كان يُدْعَىٰ إلى خُبزِ الشعيرِ والإهالةِ السَّنِخَةِ فيجيب. والسنخة: المتغيرة الريح.

ومنه حديث كعب رضي الله عنه: «تُمسَك النارُ يوم القيامة حتىٰ تَبصَّ كأنها مَتْنُ إهالَةٍ، فإذا استوت عليها أقدامُ الخلائق نادىٰ منادٍ: أمسكي أصحابَك، ودعي أصحابي، فتخنُس بهم ــ أو فتخسفُ بهم، فيخرج منها المؤمنون نديّةً ثيابُهم».

ومعنىٰ تبصّ: تَبْرُق. أعاذنا الله وإياكم من النار وحرّها، ومتّعنا وإياكم بالجنة وبردها ونعيمها.

[أ و ب]

يقول ربنا عز وجل عن يوم القيامة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]، قوله: ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: عملاً يرجع إليه وطريقاً يهتدي إليه. وهذه المادة (أوب) تدل على الرجوع. والفرق بين الأوب والرجوع أن الأوب لا يستعمل إلاّ في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يستعمل فيه وفي غيره. ويقال: آب يؤوب أوباً وإياباً ومآباً. ومن ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، والأوّاب: هو الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الطاعات، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] أي: كثير الرجوع إلى الله عز وجل. ومثله قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]. ويأتي التأويب بمعنى الترجيع، وهو راجع إلى المعنى الأصلي للمادة وهو الرجوع؛ فإن المُرجِّع إنما يَرْجِع إلى ما قاله أولاً فيكرره. ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]. قوله: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي معه النهارَ كلَّه إلى الليل ورَجِّعي بالتسبيح. وقرأ الحسنُ وقتادة: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾بالتخفيف، ومعناه أيضاً: عودي معه في التسبيح كلما عاد. قال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ❁ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ❁ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧- ١٩]، وكانت الطير والجبال ترجّع التسبيحَ مع داود عليه السلام.

ومن استعمال هذه المادة في الحديث: ما روي في دعاء السفر: «توباً توباً لربّنا أوباً»، أي: توباً راجعاً مكرراً. وفي الحديث أيضاً: «شغَلونا عن الصلاة حتى آبت الشمسُ» أي: غَرَبت، لأنها ترجع بالغروب إلى الموضع الذي طلعت منه. قال

مجدُ الدين بن الأثير: ولو استُعمل ذلك في طلوعها لكان وجهاً، لكنه لم يُستعمل. وفي حديث عكرمة رضي الله عنه قال: «كان طالوت أيّاباً»، جاء تفسيره في الحديث أنه السَّقّاء، ورَبْطُ هذا بأصل المادة مقبول، فإن من شأن السقَّاء أن يرجع مرة بعد أخرىٰ.

[أ و د]

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ قال الحافظ ابن كثير: أي لا يثقله ولا يعجزه حفظُ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت، الرقيب علىٰ جميع الأشياء. فلا يعزُب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعّال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العليّ العظيم، لا إله غيره ولا ربّ سواه.

وهذه المادة (أود) في أصل معناها تدل على العطف والانثناء، يقال: أُدْتُ الشيءَ، أي: عطفتُه وأملتُه، وتأوَّد النبتُ مثلُ تعطّف وتعوَّج، قال الأعشى ميمون ابن قيس:

فلو أنّ ما أبقيت منّي معلقٌ ... بعُودِ ثُمامٍ ما تأوَّدَ عودُها

وإلى هذا المعنىٰ الأصلي للمادة يرجع: آدَنِي الشيءُ يؤودُني، كأنه ثقُل عليك حتى ثناك وعَطَفك وأمالك، ومن ذلك: الأَوَدُ، بمعنى العِوج، جاء في حديث أم المؤمنين السيدة عائشة تصف أباها رضي الله عنهما: «وأقام أَوَدَه بثقافه»، وفي

حديث رثاء عُمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «أقام الأوَد وشفىٰ العَمَد». ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «سَنَح لي رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسولَ الله؛ ما لقيتُ بعدَك من الإدد والأَوَد» والإدد، بكسر الهمزة: الدواهي العِظام، مفردُها إدّة، بالكسر والتشديد، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ ــ ٩٠].

[أ و ل]

يقول ربنا عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]. قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ قال أبو إسحاق الزجّاج: أي: ما يؤول إليه أمرهم من البعث. وقال مجاهد: أي: ما وُعِدوا به من العذاب والنكالِ والجنةِ والنار.

وفي معنى هذه الآية الكاشفة عن ضلال المشركين وتمنيهم العودة إلىٰ الدنيا ليعملوا غير ما عملوا يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ــ ٢٨].

وهذه المادة (أَوَلَ) تدل على الرجوع، يقال: آل يؤول: إذا رجع، ومنه المَوئِلُ، للموضع الذي يُرْجَع إليه، ومنه قوله عز من قائل: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]. وبعضهم يجعل اشتقاق هذا من «وأل». قال الراغبُ الأصبهانيُّ: وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادةِ منه، عِلماً كان أو فعلاً،

ففي العلم نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، وفي الفعل كقول الشاعر: «وللنَّوى قبلَ يومِ البين تأويلُ». انتهى كلام الراغب.

ويقال: تَأَوَّلْ، أي: انظر إلىٰ ما يؤول إليه المعنى، ومن ذلك قوله تـعالىٰ على لسان يوسف عليـه السلام: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] قوله: ﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ﴾ أي: عاقبة رؤياي وما آلت إليه من التصديق، وفي الآية التي تلي هذه يقـول تعالـىٰ على لسان يوسفَ أيضاً: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١] وذلك قـولـه سبحانـه في أول السـورة الكـريمـة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]. قال مجاهد: يعني تعبير الرؤيا، وهو مما اختص الله به نبيه يوسف عليه السلام.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النسـاء: ٥٩]. قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسـنُ عاقبـةً ومآلاً، كمـا قالـه السُّدِّيُّ. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب من قول السُّدِّيُّ.

وفي حديـث ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: «اللهم فقهـه في الـديـن، وعلمـه التأويـل». قال مجد الدين بنُ الأثير: هو من: آل الشيءُ يؤول إلىٰ كذا، أي: رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل: نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلىٰ ما يحتاج إلىٰ دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ. ومنه حديث أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعـه وسجـوده: سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن» تعني رضي الله عنهـا أنه مأخـوذ من قول الله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]، وفي روايـة قالـت عائشـة رضـي الله عنها: كان رسـول الله ﷺ يكثر في آخـر أمرِه من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرىٰ علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن

أسبح بحمده وأستغفرَه إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

ومن أحاديث مادة (أول): «من صام الدهر فلا صام ولا آل» قوله: «ولا آل» أي: ولا رجع إلىٰ خير. وهذه إحدىٰ روايتين في هذا الحديث، والرواية الأخرى: «فلا صام ولا ألّ» أي: ولا استطاع أن يصوم. وقد تقدمت هذه الرواية فيما سبق.

آلُ الرجل هم أهله وخاصَّتُه، وسُمِّيَ أهلُ الرجل آلَهُ؛ لأنه إليه مآلُهم، وإليهم مآلُه، أي: هو يرجع إليهم وهم يرجعون إليه، والفَرق بين الآل والأهل أن الآل لا يُضافُ إلاّ إلىٰ الأشرف، فيقال: آلُ الله، وآل محمد، وآل السلطان، ولا يقال: آلُ الخَيّاط أو آل العَجّان، والأهل يستعمل في كلّ ذلك.

وجاء في الحديث: «لا تحلُّ الصدقةُ لمحمد وآل محمد». قال ابن الأثير: قد اختُلف في آل النبي ﷺ، فالأكثر على أنهم أهلُ بيته. قال الشافعي رضي الله عنه: دلَّ هذا الحديثُ أن آل محمد هم الذين حَرُمت عليهم الصدقةُ، وعُوِّضوا منها الخُمُس، وهم صليبة بني هاشم وبني المطّلب، وقيل: آله أصحابه ومن آمن به، وهو في اللغة يقع على الجميع.

وجاء في الحديث: «آلُ محمد كلُّ تقي» قال الراغب الأصبهاني: قيل: وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه. وقيل: المختصون به من حيث العلمُ، وذلك أن أهلَ الدِّين ضربان: ضربٌ متخصص بالعلم المتقن، والعمل المحكم. فيقال لهم: آلُ النبيِّ وأمتُه، وضرب يختصون بالعلم علىٰ سبيل التقليد، ويقال لهم: أمةُ محمد عليه الصلاة والسلام، ولا يقال لهم: آلُه، فكلُّ آلٍ للنبيِّ أمةٌ له، وليس كلُّ أمةٍ له آلَه. وقيل لجعفر الصادق رضي الله عنه: الناسُ يقولون: المسلمون كلُّهم آلُ النبيّ عليه الصلاة والسلام، فقال: كذبوا وصدقوا، فقيل له: ما معنى ذلك؟ فقال: كذبوا

في أن الأمـة كافَّتهم آلُه، وصدقوا في أنهم إذا قامـوا بشـرائط شريعته آلُه. وجاء في الحديث في صفة قراءة عبد الله بن مسعـود رضـي الله عنه: «لقد أُعطِيَ هذا مزماراً من مزاميـر آل داود» أراد: من مزامير داودَ نفسِه، والآل هنا مقحمة زائدة، ومعناها مجرد الشخص، ومثله قولُ الشاعر:

ولا تبـكِ ميْتـاً بعـدَ ميْـتٍ أجَنَّـهُ   علـيٌّ وعبـاسٌ وآل أبـي بكـرِ

أراد: أبا بكر، ليس غير.

[أ و هـ]

يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: الأوَّاه: المتأوِّه شفقاً، المتضـرع يقينـاً ولزوماً للطاعة، وقال ابن مسعود: الأوّاه: الدّعّـاء. وقـال ابن جرير: قـال رجـل: يا رسـول اللّه، مـا الأوّاه؟ قـال: المتضـرّع، وقال ابن جريـر أيضاً: إن رجلاً كان يكثـر ذِكـر الله ويسبّح، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ، فقال: إنه أوّاه، وقال أيضـاً، عن ابن عبـاس، أن النبـي ﷺ دَفـن ميتـاً، فقال: «رحمك الله، إن كنت لأوّاهاً» يعني: تلاّءً للقرآن.

قال ابن جريـر رحمه الله: وأولىٰ الأقـوال قـولُ من قـال: إنـه الدَّعّـاء، وهو المناسب للسِّياق، وذلك أن الله تعالىٰ لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قـولـه: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦- ٤٧] فحلُـمَ عنـه مع أذاه لـه، ودعـا واستغفر، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]. وجـاء في حديث الدعـاء: «اللهم اجعلني لك مُخْبِتاً أوّاهاً منيباً». ويقال في فعله:

تأوّه، إذا شكا وتوجع. قال المثقِّبُ العبديّ يصف ناقته:

إذا ما قمتُ أرحَلُها بليلٍ   تأوَّهُ آهةَ الرجلِ الحزينِ

[أ ي د]

يقول تعالىٰ منبِّهاً علىٰ خلق العالَم السُّفليّ والعُلويّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨] قوله: بأيدٍ، أي: بقوّة وقدرة.

وهذه المادة «أَيَدَ» تدلّ على القوّة والحفظ، يقال: أيّدك اللهُ بنصره، أي: قوّاك بمعونته، ومنه قوله عزّ من قائل: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٣] وقولهُ: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال تعالىٰ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. قال مجاهد: الأيْدُ: القوةُ في الطاعة، وقال قتادة: أُعطِيَ داودُ عليه الصلاة والسلام قوةً في العبادة وفقهاً في الإسلام، قال الحافظ عمادُ الدين ابن كثير: وقد ذُكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام ـ يعني داودَ ـ كان يقوم ثُلُثَ الليل، ويصوم نصفَ الدهر، وهذا ثابت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبُّ الصلاةِ إلىٰ الله تعالىٰ صلاة داود، وأحبُّ الصيام إلىٰ الله عز وجل صيامُ داود، كان ينام نصفَ الليل، ويقوم ثلثَه، وينام سُدُسَه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرُّ إذا لاقى»، وقد جاءت هذه اللفظةُ في خطبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي يتحدث فيها عن بديع صنع الله في خلق السماوات والأرض، وذلك حيث يقول: «وأمسكها من أن تمور بأيده» أي: بقوّته.

[أ ي م]

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢]. الأيامىٰ: جمع أيّم، وقال الإمام الجليل أبو إسحاق الحربيّ: الأيّمُ: التي مات زوجُها أو طلقها، ومنه الحديث: «تأيَّمت حفصةُ من زوجها خُنَيس». قال: والبكر التي لا زوجَ لها: أيِّمٌ أيضاً، ومنه الحديث: «تطولُ أيْمةُ إحداكنّ» فهذا في البكر خاصة. قال: والرجل إذا لم تكن له امرأةٌ: أيّمٌ أيضاً. وقال أبو عبيدة: رجلٌ أيّم، وامرأةٌ أيّم، ويقال في الفعل منه: آمت المرأةُ، ويقول الرجلُ عن نفسه: إمْتُ. قال الشاعر:

لقد إمتُ حتى لامَني كلُّ صاحبٍ رجاءً لِسَلْمىٰ أن تَئيمَ كما إمْتُ

ويقال: الغزوُ مأيَمة، أي: يُقتل فيه الرجالُ، فتصيرُ نساؤهم أيامىٰ، والمصدر: الأيْمة، وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الأَيمة والعَيمة والغيمة»، فالأَيمة: أن تطولَ العُزبة، والعَيْمةُ: شدة الشَّهوة للّبن، والغيمة: شدة العَطَش. وجاء في كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مِن حَظّ المرءِ نَفاقُ أيِّمه، أي: من حظِّه ألاّ تبورَ عليه بناتُه وأخواتُه.

ومن غريب هذه المادة: الأَيْمُ وهي الحَيَّة الصغيرة، ويقال لها: الأيِّم، بتشديد الياء، ويقال أيضاً بالنون، وفي الحديث: أنه أمر بقتل الأَيْم، ومنه الحديثُ الآخر: أنه أتىٰ علىٰ أرضٍ جُرُزٍ مُجْدبةٍ مثلِ الأَيْمِ، شَبَّه هذه الأرضَ في ملاستها بالحية. ومما يأتي على ظاهر لفظ هذه المادة قولهم: «وايْمُ الله» وقد تكررت في الحديث، وهي من ألفاظ القسم، كقولك: لعمرُ اللهِ، وهمزتها همزةُ وصل، وبعضهم يعتبرها همزةَ قطع فيقول: وأيْمُ الله، لكنه قليل. وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع يمين، وغيرهم يقول: هي اسمٌ موضوع للقسم. ذكره مجد الدين بن الأثير.

[أ ي ي]

يقول جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قوله: ﴿ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾، أي: علامة ملكه. واشتقاقُ الآية من التَّأيِّي الذي هو التثبتُ والإقامة على الشيء، يقال: تأيَّ، أي: ارفُقْ، ويقال: تأيّا يتأيّا تأيِّياً: أي: تمكَّثَ وانتظَرَ. قال الكميت:

قِفْ بالدِّيارِ وقوفَ زائرْ وتأيَّ، إنك غيرُ صاغِرْ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] أي: علامتين يدلان على خالقهما وبديع صنعه، والله سبحانه وتعالى يمتنُّ علىٰ عباده بآياته العِظَام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، ثم ليعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وقال أبو بكر بنُ الأنباريّ: سُمِّيت الآية من القرآن آية لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام، ويقال: إنما سُمِّيت آية؛ لأنها جَماعةٌ من حروف القرآن. يقال: خرج القَومُ بآيتهم: أي: بجماعتهم. قال بُرْجُ بن مُسْهِر:

خرَجْنا مِن النَّقْبَيْنِ لا حَيَّ مِثلُنا بآيتِنا نُزْجي المَطِيَّ المَطافلا

وقوله تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي: معلماً بناءً مشهوراً. وقوله عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولم يقل: آيتين؛ لأن قصتهما واحدة. هكذا قال إبراهيمُ بن عرفة نِفطويه، وقال أبو منصور الأزهري: لأن الآية فيهما معاً آية واحدة، وهي الولادة دون الفحل. ومعنى «آية» في الآية الكريمة: «عِبْرة»، ووجه العبرة أن الله سبحانه وتعالىٰ يخبر عن عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آيةً للناس، أي: حجةً قاطعةً على

قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم أبا البشر من غير أب ولا أم، وخلق حواءَ من ذكرٍ بلا أنثىٰ، وخلق عيسىٰ ابن مريم من أنثىٰ بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثىٰ. وربُّك يفعَلُ ما يشاءُ ويختار.

❋ ❋ ❋

﴿ ب ﴾

الباء هي الحرف الثاني من حروف الأبجدية العربية، وقد تصرفت إلىٰ معانٍ كثيرة أوصلها ابنُ هشام في «المغني» إلىٰ أربعة عشر معنىٰ، ويعنينا من هذه المعاني ما اهتم به علماءُ غريب القرآن والحديث، فمن ذلك قوله عزَّ من قائل: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. ذهب ابنُ عرفة نِفطوية إلى أن معنى «يشرب» في هذه الآية بمعنى يَرْوَىٰ، فلذلك دخلت الباء، لأن الفعل يشرب يتعدىٰ إلىٰ المفعول بنفسه، دون حرف الجر، واستُشهد على ذلك بقول عنترة:

شَرِبَتْ بماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحَتْ زَوْراءَ تنفِرُ عن حِياضِ الدَّيْلَمِ

وذهب بعضهم إلى أن الباء في الآيةِ وبيتِ الشعر بمعنى «من»، وحُكي عن العرب: سقاك الله بحوض الرسول، أي: من حوض الرسول. وفريق ثالث ذهب إلى أن الباء هنا زائدة مع المفعول، وله نظائر في الكتاب الكريم، منها قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، والجمهور علىٰ أن الباء لا تجيء زائدة، وأنه إنما يجوز الحكمُ بزيادتها إذا تأدّىٰ المعنىٰ المقصودُ بوجودها وحالةِ عدمها علىٰ السواء. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] أي: ما يتأتّىٰ لك الصبرُ إلاّ بتوفيق الله وتثبيته وإعانته.

وقال عزَّ من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. الضمير في «به» يعود إلىٰ ما ذُكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش، وذلك قوله

تعالىٰ في صدر الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، والمعنى: فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالاً من هذه الأمور خبيراً، والمراد بالخبير الله سبحانه، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلاّ هو، ولذلك قال مجاهد في تفسير الآية: ما أخبرتُك من شيء فهو كما أخبرتك. وقال الحافظ ابنُ كثير: أي: استعلم عنه من هو خبيرٌ به عالمٌ به، فاتبعْه واقتدِ به، وقد عُلِم أنه لا أحدَ أعلمُ بالله ولا أخبرُ به من عبده ورسوله محمد ﷺ، سيدِ ولدِ آدم على الإطلاق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحَى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]. وذهب بعضهم إلىٰ أن الباء هنا بمعنى «عن»، ونظيره في الكتاب العزيز قوله تعالىٰ: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] أي: عن عذاب واقع، وقولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٢٥] أي: عن الغمام، وفي الشعر قول عنترة:

هلاّ سألْتِ الخيْلَ يا ابنةَ مالكٍ   إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلَمي

وقولُ علقمة بن عَبَدة [بفتح العين والباء]:

فإن تسألوني بالنساءِ فإنني   خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

وتعدِّي يسأل بعَن في القرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال عز من قائل على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: أحسنَ إليَّ. يقال: أحسنتُ به، وأحسنت إليه، وأسأت به، وأسأتُ إليه.

والأصل في فعل الإحسان أن يتعدىٰ، وقد يتعدَّىٰ بالباء، كما في الآية الكريمة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقيل: إن «أحسن» هنا مضمَّنةٌ معنى لطَفَ، أي: لطف بي محسناً، وهذا يتعدَّىٰ بالباء كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ١٩]. وفي حديث

سلمـة بن صخـر، أنه أتىٰ النبيَّ ﷺ، فذكر أن رجلاً ظاهرَ من امرأته ــ أي قال لها: أنت عليَّ كظهـر أمـي ــ ثم وقع عليها، فقال له النبي ﷺ: «لعلَّك بذلك يا سلمة!» فقـال: نعـم، أنا بذلك. قوله: «لعلك بذلك» أي: لعلك صاحبُ الأمر والقضية، وفي حديـث عمـر رضي الله عنه أنه أُتي بامرأةٍ قد فجَرَتْ، فقال: من بِكِ؟ أي: من الفاعلُ بك؟

قال شَمِـر بن حَمْدَويه: العرب تقـول: لمّـا رآني بالسلاح هرب، أي: مقبلاً، وروىٰ مجـاهد عن ابن عمـر، أنـه كان يَرْمِـي، فـإذا أصـاب خصلةً ــ أي غلبَ في النِّضـال والرمـي ــ قـال: أنا بها، أنا بها. يعنـي إذا أصاب قال: أنا صاحبُها. وفي الحديث: «من توضـأ للجمعة فبها وَنِعْمـت» قـال الأصمعـي: قـولـه: «فبها» أي: فبالسُّنَّـة أخذ. وقال الفقيه أبو حامد الشارَكـيُّ: أراد: فبالـرُّخصَة أخذ، وذلك أن السُّنَّة الغُسَلُ يوم الجمعة، فأضمر، والتقدير: ونعمت الخَصْلةُ هي.

وفي الحديث أنه عليه السلام كان إذا أوىٰ إلىٰ منزلـه جـزَّأ دخولَه ثلاثةَ أجزاء، جـزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءاً لنفسـه، ثم جـزَّأ جزءَه بينه وبين الناس، فيرُدُّ ذلك بالخاصَّة علىٰ العامة. قال أبو بكر بن الأنباري: فيه ثلاثة أقوال: أحدها: فيرُدُّ ذلك من الخاصَّةِ علىٰ العامَّة، أي: يجعل وقت العامة بعد الوقت الذي يخُصُّ به الأهل، فإذا انقضـىٰ ذلك الزمان ردَّ الأمـر إلىٰ العامة فخَصَّهم وأفادَهم، والباء معناها مِنْ، والقول الثاني: أن العامةَ كانت لا تصل إليه في هذا الوقت، بل الخاصَّةُ تصل إليه، ثم تُخبر العامة بما سمعت منه، فكأنـه أوصل الفوائد إلىٰ العامةِ بالخاصة، أي: عن طريق الخاصة. والقول الثالث: فيرُدُّ ذلك بدلاً من الخاصَّة علىٰ العامة، أي: يجعل العامة مكان الخاصة، فيجري هذا مجرىٰ قول الأعشىٰ:

علـىٰ أنهـا إذ رأتنـي أُقـا دُ قالت بما قد أَراه بصيرا

أي: هذا العَشَا مكان ذلك الإبصار القديم وبدلٌ منه.

[ب أ س]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ﴿ الْبَأْسَاءُ ﴾: الشدّة. والمراد بها هنا الأمراض والأسقامُ والآلام والمصائب والنوائب. وهذه المادة (بأس) تدلّ على أصل واحد، هو الشـدّةُ وما ضارعها. قال الراغب الأصبهاني: البؤس والبأس والبأساء: الشدةُ والمكروه، إلاّ أن البؤس في الفقر والحرب أكثرُ، والبأسَ والبأساءَ في النكاية، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤]، وقوله تعالىٰ في صدر الآية المذكورة: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ٨٤] يعني شدتهم في الحرب. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] أي: دُرُوعاً تقيكم في الحرب. وكذلك قوله عز وجل عن داود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] أي: في الحرب والقتال، وهي صنعة الدروع، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١] وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، قوله: ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي: شديد، وكذلك يقال: رجلُ بئيس، أي: شديد. وقوله عزَّ من قائل في لحوم الأضاحي: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٨] البائس: ذو البؤس، وهو شدة الفقر، فذكر سبحانه الفقير بعده لمزيد الإيضاح. وقال تعالىٰ مخبراً عن المنافقين واليهود، لعنهم الله جميعاً: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤]، قوله

تعـالـىٰ: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضهـم غليـظ فـظٌّ علىٰ بعـض، وقلـوبهم مختلفـة، ونيّاتُهـم متباينة، وعداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالـىٰ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال السـدّيّ: المـراد اختـلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا علـىٰ أمر واحد، وقال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام والوعيد، والمعنىٰ أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلىٰ الشدة والبأس وإذا لاقوْا عدوّاً ذلُّوا وخَضَعوا وانهزموا. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، أي: لا تذلَّ ولا تضعف، ولا يشتـدّنَّ أمرهـم عليـك. والابتئاس: شدة حزنٍ مع استكانة، فنهىٰ الله سبحانه نبيه نوحاً عليه السلام أن يحزَنَ حزنَ مستكين، وفي الخبر أن النبي ﷺ كان يكره البؤسَ والتباؤس والتبؤس، أي: الذلَّ والضعف عند الناس.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

مـا يَقْسِـمِ الله أَقْبَـلْ غيـرَ مبتئسٍ ... منه، وأَقْعُدْ كريماً ناعِمَ البالِ

ومنه الحديث في صفة أهل الجنّة: «إنَّ لكم أن تَنَعَّموا فلا تبْؤُسُوا» يقال: بَؤُس يبؤُسُ: إذا اشتد حُزنُه. وإذا كان النبي ﷺ قد كره التباؤس وهو الذل والضعفُ عند الناس، فإنه قد أمر به وندب إليه بين يدي الخالق عز وجل.

جاء في الحديـث: «الصـلاةُ مَثْنَـىٰ وتشهُّـدٌ في كل ركعتين وتَبْأَسُ» ــ ورُوي: «وتباءَسُ وتَمَسْكنُ وتُقْنِعُ يديك» ــ وروي: «وتُقْنع رأسك، فتقول: اللهمَّ اللهمّ». وإقنـاع اليديـن: أن ترفعهما مستقبـلاً ببطـونهما وجهَـك، وإقناعُ الرأس: أن ترفعه وتُقبلَ بطَرْفك على ما بين يديك.

وكل ذلك لتحقيق معنى الخشوع والخضوع والتذلل لله عز وجل الذي تعنو له الجباهُ والوجوه.

وقـد يأتـي البأسُ بمعنـى الأمر المقتضي والشأن الموجِبِ، جاء في الحديث:

أنه ﷺ نهىٰ عن كسر السِّكةِ الجائزة بين المسلمين إلاّ من بأَس». السِّكّة: حديدة قد كُتب عليها، يُضرب عليها النقد، وهي مما يقال عنها في أيامنا هذه: المسكوكات. والمـراد في الحديث الدنانير والدراهم المضروبة، أي: لا تُكسر إلا من أمرٍ يقتضي كسرَهـا؛ إما لرداءتها، أو شـك في صحـة نقدهـا، وكُـرِه ذلك لما فيها من اسمِ الله تعالـىٰ، وقيـل: لأن في هذا الفعـل إضاعـة المـال، وقيـل: إنما نهىٰ النبي ﷺ عن كسـرها على أن تعـادَ تِبْـراً، فأما للنفقة فلا، وقيـل: كانت المعاملـة بها في صـدر الإسلام عدداً لا وزناً، فكان بعضُ الناس يقصُّ أطرافَها، فنُهُوا عنه.

وقـد تكرر لفظ «بِئْسَ» في القرآن الكريم والحديث الشريـف، وهو فعْلٌ ماضٍ جامد، جامـعٌ لأنـواع الذم، كما أن «نِعْمَ» مستـوفٍ لجميـع أنواع المدح، فإذا جاء بعدهمـا اسمٌ فيه الألف واللام ارتفع علىٰ أنه فاعل لهما، فإذا لم يكن فيه ألفٌ ولام انتصب علىٰ التمييـز. تقـول: بئس الرجل هو، ونعم رجلاً أنت. وللنحويين فيهما كـلام. قـال تعالـىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩] وقـال: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

[ب ت ر]

يقـول عز وجل رافعاً ذكرَ نبيّه ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وذلك أن العـاصَ بنَ وائل السّهميَّ كان يقول: إنما محمدٌ أبْترُ لا ولد له، فإذا مات انقطع ذِكرُه، فرفع الله ذكره كما أراد، فأخبر سبحانه وتعالىٰ أن الذي ينقطع ذكرُه هو الذي يشنـؤه، أي: يُبْغِضُـه، فأما هو ﷺ فكما أخبر عنه عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] بأن جعله أباً للمؤمنيـن، وجعلـه يُذكـر معه كلما ذُكر، وذلك في الأذان والتشهد.

والبترُ هو: القطعُ، وفي الحديث: «كلُّ أمرٍ لا يُبدأ فيه بحمد الله هو أبترُ» أي: أقطعُ. ونهي في الضحايا عن المبتورة، وهي التي قُطع ذَنَبُها. وفي الحديث أنه نَهَىٰ عن البُتَيْراء، قيل: هي أن يُوتر بركعة واحدة، وقيل: هو الذي شرع في ركعتين فأتم الأولى وقطع الثانية.

[ب ت ل]

يقول تعالىٰ مخاطباً نبيّه محمداً ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]. قال إبراهيم بن عرفة نفطويه: أي: انفرِدْ له في طاعته، وأفرِدْها له، والتبتّل عند العرب: التفرد، وقال أبو منصور الأزهَري فيما حكاه عن أبي إسحاق الزجاج: معناه: انقطِعْ إليه، والبَتْل: القَطْعُ، وقد تبتّل تبتُّلاً، وتبتّل، يُبَتِّلُ، تبتيلاً. ويقال: صدقةٌ بتَّةٌ بتلة، أي: منقطعة من جميع المال إلىٰ سبيل الله.

وهذه المادة (بتل) تدل علىٰ أصل واحد، هو القطع وإبانةُ الشيء ــ أي فصلُه عن غيره ــ ومنه الحديث: «لا رهبانيةَ ولا تبتُّلَ في الإسلام»، وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ردَّ رسول الله ﷺ التبتُّلَ على عثمان بن مظعون. يعني الانقطاعَ عن النساء وترْكَ النكاح. ثم استعير للانقطاع إلىٰ الله عز وجل. ومنه: امرأةٌ بتول، أي: منقطعةٌ عن الرجال لا شهوة لها فيهم. وبها سُمِّيت مريم أمُّ عيسىٰ المسيح عليهما السلام، وسُمِّيت السيدة فاطمة بنتُ سيدنا رسول الله ﷺ: البتول؛ لانقطاعها عن نساء زمانها ونساء الأمة، عفافاً وفضلاً وديناً وحَسَباً.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: أُقيمتِ الصلاةُ فتدافعوها، وأَبَوْا إلاَّ تقديمَه، فلما سلَّم قال: «لَتَبْتَلُنَّ لها إماماً أو لَتُصَلُّنَّ وُحداناً»، معناه: لَتَنصِبُنّ لكم إماماً، وتَقْطَعُنَّ الأمرَ بإمامته ــ من البتل: القطع ــ أو لَتُصَلُّنَّ وحداناً، والوُحدان، بضم

الـواو: جمع واحـد، مثـل رُكْبان وراكـب. ويـروىٰ: «لَتُبتَلُـنَّ» من الابتلاء، وهو الامتحان والاختبار.

[ب ث ث]

يقول ربُّنا عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] وقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾ [لقمان: ١٠]. قـولـه تعالىٰ ﴿وَبَثَّ﴾ أي: فَـرَّق في الدنيا. وهذه المادة (بثث) تدلّ على أصل واحد، هو تفريقُ الشيء وإظهاره. يقال: بَثُّوا الخيلَ في الغارة، أي: فرّقوهـا، والله تعالىٰ خلـق الخلـق وبثّهم في الأرض لمعاشهـم، وإذا بُسِط المتاعُ بنواحـي البيـت والدار، فهو مبثوث، قال تعالىٰ: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٦] أي: مفرقةٌ في مجالسهم. ويقال: بثـثـتُك سِرِّي، وأبثـثْـتُك، أي: نشَرْتُه لك وأظهرتُه. ومن ذلك قولُ امرأةِ دُرَيْد بن الصِّمّة لزوجها: والله، لقد أطعمتُك مأدُومي، وأبْثَثْتُك مكتومي. وقولـه عز وجـل، علىٰ لسـان يعقـوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فالبـث: أشَـدُّ الحُـزْن، واشتقاقه مما سبق، لأنه شيءٌ يُشْتكَىٰ ويُبَثُّ ويُظْهَر. والإبثاث: أن يشكُوَ الرَجلُ إلىٰ الرجل فقره وضَيعتَه وكلَّ ما يُهمُّه، ويكون الإبثاث لما لا يعقل. قال ذو الرُّمَّة:

وأبكيـه حتـى كـاد ممـا أُبثُّـه تُكَلِّمُني أحجارُه وملاعِبُهْ

وفي حديـث كعب بن مالك رضي الله عنـه، وتخلُّفِـه عن غـزوة تبوك: فلمّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد تَوجَّه قافِلاً من تبوكَ حضرني بثِّي، وفي حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ذكر بني إسرائيل وتحريفهـم، وذكر عالِماً كان فيهم،

عرضوا عليه كتاباً اختلقوه علىٰ الله، فأخذ ورقةً فيها كتابُ الله، ثم جعلها في قَرَن ــ أي في جَعْبة ــ ثم علَّقه في عُنُقه، ثم لبس عليه الثياب فقالوا: أتؤمن بها؟ فأومأ إلىٰ صدره، وقال: آمنت بهذا الكتاب، يعني الكتاب الذي في القَرَن، والذي علَّقه في عنقه، فلما حضره الموتُ بَثْبَثُوه، فوجدوا القَرَنَ والكتاب، فقالوا: إنما عنىٰ هذا. قوله: بَثْبَثُوه، أي: كشفوه وفتَّشوه، وهو من البَثِّ وهو الإظهار كما تقدم، والأصل في بثبثوه: بَثَّثُوه، فأبدلوا من الثاء الوسطى باءً، لاستثقال اجتماع ثلاث ثاءات، كما قالوا: حَثْحَثْتُ، والأصل حَثَّثْتُ.

[ب ح ر]

قال الله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. قال ابن عرفة نِفْطويه: البَحيرةُ: الناقةُ كانت إذا نُتِجَتْ خمسة أبطُن، نظَروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجالُ والنّساء، وإن كان الخامسُ أُنْثى بَحَرُوا أُذُنَها، أي: شَقُّوها، فكانت حراماً علىٰ النساء؛ لحمُها ولبنُها وركوبُها، فإذا ماتت حلَّتْ للنساء، وتُجمَع البحيرة علىٰ بُحُر، بضم الباء والحاء، ومنه حديثُ مالك الجُشَمِيّ، قال له النبي ﷺ: «فتقطع آذانَ بعضها فتقول: هذه بُحُر». قال ابن الأثير: وهو جمعٌ غريب في المؤنث، إلا أن يكون قد حمله علىٰ المذكر، نحو نذير ونُذُر، علىٰ أن بحيرة فعيلةٌ بمعنىٰ مفعولة، نحو قتيلة، ولم يُسمع في جمع مثله: فُعُل، وحكىٰ الزمخشري: بحيرة وبُحُر، وصريمة وصُرُم، وهذه المادة (**بحر**) تدل علىٰ الانبساط والاتساع، والبحر: هو كل مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير، وقيل: كلُّ ماءٍ مِلحٍ فهو بَحْر، وقد أبحر الماءُ، قال نصيب بنُ رباح:

وقد عاد عذبُ الماءِ بحراً فزادني ... إلىٰ مرضي أنْ أبْحَرَ المَشْربُ العَذْبُ

وكلُّ شـيء اتَّسع وانبسط يُشَبَّه بالبحر، فيقال: استبحر فلانٌ في العِلم، وتبحَّر الراعي في رِعْيٍ كثيـر. ويقـال للفرس السريـع: بحر، ومنه الحديث: أن النبي ﷺ ركب فرساً لأبي طلحة، فقال: «إن وَجَدْناهُ لبحراً» أي: واسعَ الجري والسير.

[ب خ س]

يقول الله تعالىٰ في آية الدَّين: ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. قوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ أي: ولا يَنْقُصْ منه شيئاً. والبَخْسُ: هو نقصُ الشيء علىٰ سبيل الظلم، ومنه قوله عزَّ من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] أي: لا يُنقَصون من أرزاقهم ولا يقلَّلُون.

وهذه الآية نزلت في اليهود والنصارىٰ، كما قال أنسٌ والحسن، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة في تفسير الآية: من كانت الدنيا همَّه ونيَّته وطَلِبَتَهُ، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي إلىٰ الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطىٰ بها جزاء، وأما المؤمن فيجـازىٰ بحسناتـه في الدنيا ويثابُ عليها في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ــ ١٩]، وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقوله تعالىٰ: ﴿ولا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أي: لا تظلمـوهـم أموالهم. وكلُّ ظالمٍ باخِسٌ.

وقال تعالـى مخبراً عمـا جرىٰ ليوسـف عليه السلام بعد أن التقطته السيارةُ من

الجُب: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]، قال أبو منصور الأزهريّ: أي: بثمن ذي ظلم، لأنه كان حرّاً بِيع ظلماً. وقال مجاهدٌ وعكرمة: باعه إخوتُه بثمنٍ قليل، أي: اعتاض عنه إخوته بثمن قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبةٌ فيه، بل لو سُئلُوه بلا شيء لأجابوا.

وفي الحديث: «يأتي علىٰ الناس زمانٌ يُسْتحلُّ فيه الربا بالبيع، والخمرُ بالنبيذ، والبَخْسُ بالزكاة، والسُّحتُ بالهدية، والقَتْلُ بالموعظة». أراد بالبخس: ما يأخذُه الولاةُ باسم العُشْر، يتأوَّلون فيه الزكوات والصدقات.

[ب خ ع]

يقول الله تعالىٰ مسليّاً رسوله ﷺ في أسفه وحزنه على المشركين، لعدم استجابتهم لدعوته والإيمان به: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]. قوله: ﴿ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي: مهلكٌ نفسَك بحزنك عليهم، وقاتلُها مبالِغاً فيها، حرصاً علىٰ إسلامهم.

وهذه المادة (بخع) تدلّ علىٰ معنًى واحد وهو القتل وما أشبهه من إذلال وقهر، يقال: بخع بالشاة إذا بالغ في ذبحها، وبخع الشاة: إذا قطع نُخاعَها. وقال الخليل بن أحمد: بخع الرجلُ نفسَه: إذا قتلها غيظاً من شدة الوجد، قال ذو الرُّمَّة:

ألا أيُّهذا الباخِعُ الوجدِ نفسَه   لشيءٍ نَحَتْهُ عن يديهِ المقادِرُ

وهذا أصل البخع، أن يستعمل في معنىٰ القتل، ثم كثر حتى استعمل في كلّ مبالغة، فقيل: بَخَعْتُ له نُصحي وجهدي وطاعتي، ومنه الحديث: «أتاكم أهلُ

اليمن، هم أرقُّ قلوباً، وأبْخَعُ طاعةً» أي: أبلغ وأنصحُ في الطاعة من غيرهم، كأنهم بالغوا في بَخْعِ أنفسهم، أي: قهرها وإذلالها بالطاعة. ومنه حديثُ عمر بن الخطابِ رضي الله عنه: أنه مرَّ بضَجْنَان، فقال: رأيتُني بهذا الجبل أحتطب مرة وأختبط أخرى علىٰ جمالٍ للخطّاب ــ وكان شيخاً غليظاً ــ فأصبحتُ بجَنَبَتَي الناس ومن لم يَبْخَعْ لنا بطاعة، ليس فوقي أحد. ويقال: بخَعْتُ الأرضَ بالزراعة: إذا تابعتَ حراثتَها وجَهدْتها ولم تُرِحْها سنةً، ومنه حديثُ السيدة عائشة وذكرت عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما، فقالت: «بَخَع الأرضَ فقاءت أكُلَها»، تقول: نهَك الأرضَ بالحرث وجهَدها، واستخرج ما فيها من الكنوز، وقولها: «أُكُلَها» أي: بِذْرها وثَمَرها، أي: أن الأرض أكلت البذر وشربت ماء المطر، فقاءت ذلك، أي: أنبتت.

[ب د ع]

يقول الله تعالىٰ وتقدس: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] قوله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبتدئ خلقهما علىٰ غير مثالٍ ولا حدٍّ. والإبداع: إنشاءُ صنعة بلا احتذاء واقتداء، وهذه المادة (بدع) تدل علىٰ معنيين في أصل اللغة: أحدهما ابتداءُ الشيء وصُنعُه لا عن مثال سابق. والمعنى الآخر: الانقطاع والإعياء والكلال.

فمن استعمال المادة في المعنىٰ الأول ما سبق من قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأيضاً قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] قوله: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ما أنا بأول رسول بُعِثَ إلىٰ الناس. ومن هذا المعنىٰ اشتُقَّت البدعة، وهي ضربان: بِدْعة شرعية وهي الأمر المُحدَث الذي يبتدعه

صاحبه علىٰ خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام: «فإن كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»، وبدعة لغوية، وهي التي جاءت في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جمع الناس لصلاة التراويح واستمرارهم: نِعْمَت البدعةُ هذه؛ لأنها لما كانت من أفعال الخير سمّاها بدعةً ومدحها . وقد قال عليه السلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»، وقال: «اقتدُوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر».

ومن استعمال مادة (بدع) بمعنى الكَلال والإعياء ما روي أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني أُبْدِعَ بي فاحملني» أي: انقُطِع بي لكلال راحلتي. ويمكن أن يرجع هذا إلىٰ المعنىٰ الأول، كأنه جعل انقطاع دابته عما كانت مستمرةً عليه من عادة السير إبداعاً، أي: إنشاءَ أمرٍ خارج.

[ب ر د]

يقول الله تعالىٰ في وصف ما يلقاه الكفار الطغاة في نار جهنم: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، أي: لا يذوقون فيها راحة، والعرب تقول: أنا أتبرّدُ وأبتردُ بذاك، أي: أستريح، وقال مجاهد والسُّدّيُّ وأبو عبيدة والكسائيُّ والفضلُ ابن خالد وأبو معاذ النحويُّ: البرد المذكور في هذه الآية هو النوم، وشاهده من الشعر القديم قوله:

بـرَدَتْ مراشفُها عليَّ فصَدَّني عنها وعن تقبيلها البَرْدُ

وهذه المادة (برد) تدل علىٰ أصولٍ أربعة: أحدها: خلافُ الحرّ، والثاني: السكون والثبوت، والثالث: الملبوس، والرابع: الاضطرابُ والحركة. فمن استعمال هذه المادة في معنىٰ خلاف الحرّ قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ

إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] أي: كوني ذات بردٍ وسلام، لا يتأذّىٰ ببردها كما لا يتأذّىٰ بحَرِّها، ومن ذلك ما جاء في الحديث: «أبْرِدُوا بالظُّهر» فالإبرادُ: انكسارُ الوهَج والحرّ، وقيل: أراد: صلُّوها في أوّل وقتها، من بَرْدِ النهار، وهو أوّله، ويستعار ذلك لمعنى السهولة والراحة، كما سبق في تأويل الآية الكريمة: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤].

ومنه ما رُوي أن النبي ﷺ لما توجه نحو المدينة خرج بُريدةُ الأسلمي رضي الله عنه في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهم، فتَلقَّى نبيَّ الله ليلاً فقال له: «من أنت؟» فقال: بُريدةُ، فالتفت إلىٰ أبي بكر وقال: «يا أبا بكر، برَدَ أمرُنا وصَلَحَ»، ثم قال: «ممَّن؟» قال: من أسلَمَ، قال لأبي بكر: «سَلِمْنا»، ثم قال: «ممَّن؟» قال: من بني سهمٍ، قال: «خرج سهمُكَ». قوله صلىٰ الله عليه وسلم: «برد أمرنا». أي: سَهُل، من العيش البارد، وهو الناعمُ السهل.

ومنه أيضاً: «الصوم في الشتاء الغنيمةُ الباردة» أي: لا تعب فيه ولا مشقَّة، وكلُّ محبوب عندهم بارد، ومنه قولهم في الدعاء للميّت: اللهم برِّدْ عليه مَضْجَعَه، وفي الحديث: «لا تُبرِّدُوا عن الظالم» أي: لا تشتُموه فتخفِّفُوا عنه، وتُسهِّلوا عليه من عُقوبة ذنبه، وهذا كما قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وسمعها تدعو علىٰ سارق، فقال: «لا تُسَبِّخي عنه بدعائك عليه»، يقول: لا تُخفِّفي عنه بدعائك عليه.

وفي الحديث: «إذا أبصر أحدُكم امراةً فليأتِ زوجته، فإن ذلك بَرْدُ ما في نفسه»، قال مجدُ الدين بن الأثير: هكذا جاء في كتاب مسلم، بالباء الموحدة، من البَرْد، فإن صحت الرواية فمعناه أن إتيانه زوجته يُبَرِّد ما تحرّكت له نفسُه من حَرِّ شهوةِ الجماع، أي: يُسَكِّنُه ويجعله بارداً، والمشهور في غيره: «فإن ذلك يرُدُّ ما في نفسه» بالياء، من الردّ، أي: يَعْكِسُه.

ومن استعمال مادة (برد) بمعنى السكون والثُّبُوت ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، وهو النوم في أحد التفسيرَين، ومنه حديث عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه، قال: فهبَره بالسيف حتى برَدَ، يعني مات، وفي النوم والموت من السكون والثبوت ما لا يخفىٰ، ويقال: بردَ لي علىٰ فلان حقٌّ، أي: ثبت. ومعلوم أن النوم من جنس الموت، لقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أصلُ كلِّ داءٍ البَرَدَة» البَرَدة: هي التُّخَمَة، وسُمِّيت كذلك لأنها تُبَرِّدُ المعدة فلا تستمرئ الطعام، وقيل: سُمِّيت كذلك لأنها ثقيلة على المعدة، بطيئة الهَضْم والذَّهاب، من بَرَدَ: إذا ثبت وسكن، وأنشد أبو عبيدة:

اليومَ يومٌ باردٌ سَمُومُهُ   مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا نَلُومُهُ

فباردٌ هنا بمعنىٰ دائم ثابت.

ومن استعمال المادة في الملبوس: «البُرْدُ والبُرْدَةُ»، وقد تكرر هذان اللفظان في الحديث. ومنه ما جاء في الحديث: « وعلىٰ ابن عمرَ يومَ الفتح بُرْدَةٌ فَلوُتٌ»، فالبُردة: الشَّملة المخطَّطة، وقيل: كساءٌ أسودُ مُرَبَّعٌ تَلْبَسه الأعراب، وتسمى أيضاً: نَمِرَة. ومن استعمال مادة (برد) لمعنى الاضطراب والحركة جاءت كلمة «البريد» وهو الرسول، لأنه يجيئ ويذهب. وفي الحديث: «إذا أبردتم إليَّ بريداً فاجعلوه حسن الوجهِ حسن الاسم»، أي: إذا أرسلتم إليَّ رسولاً. قال الراجز:

رأيتُ للموت بَريداً مُبْرَدا

ويقال: الحُمَّىٰ بريدُ الموت، قال جارُ الله الزمخشريّ: والبريدُ في الأصل: البَغْلُ، وهي كلمة فارسية، أصلها: بُرَيْده دُمْ، أي محذوف الذَّنَب؛ لأن بِغال البريد كانت محذوفة الأذناب. فعُرِّبت الكلمةُ وخُفِّفت، ثم سُمِّي الرسول الذي يركبه بريداً، والمسافة التي بين السِّكَّتين بريداً. وفي حديث أبي رافع رضي الله عنه قال: بعثتني قريش إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما رأيته أُلقي في قلبي الإسلامُ، وقلتُ: واللهِ لا

أرجعُ إليهم. فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: « إني لا أخيسُ العهد، ولا أحبسُ البُرُدَ، ولكنِ ارجع، فإن كان في نفسك التي في نفْسِك الآن فارجع»، قوله ﷺ: «لا أحبسُ البُرُد» أي: لا أحبسُ الرسل الواردين عليَّ من الملوك والأطراف، وقوله: «فإن كان في نفسِك التي في نفسك» أراد النيَّة والعزيمة، فأنَّث الاسم الموصول. ومن ذلك أيضاً حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال للقوم الذين حضروا وفاته: «أنشُدُكم الله والإسلام، ألاّ يُكَفِّنني رجلٌ منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً»، فالبريد هنا أيضاً الرسول.

[ب ر ر]

يقول ربنا عز وجل معيّراً وموبِّخاً بني إسرائيل حين كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه ويخالفون عن ذلك: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. النِّسيان هنا بمعنى الترك، أي: وتتركون أنفسكم، وقد ذمَّ الله عز وجل بني إسرائيل علىٰ هذا الصنيع، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المرادُ من الآية الكريمة ذمَّهم علىٰ أمرهم بالبرِّ مع تركهم لهم، بل علىٰ تركهم له، فإن الأمر بالمعروف واجب علىٰ العالِم، ولكن الواجب والأولىٰ بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود: ٨٨]، وقال أبو العتاهية:

وصفْتَ التُّقىٰ حتى كأنك ذو تُقى ... وريحُ الخطايا من ثيابِك تَسْطعُ

وقال آخر:

وإنما حَمَّلَ التَّوراةَ قارئَها ... كسْبُ الفوائدِ لا حبُّ التِّلاواتِ

والبِرُّ: التوسُّع في فعل الخير. وقيل: هو جِماعُ الخير. وهذه المادة (برر) ترجع في مشتقاتها إلىٰ ذلك المعنى وهو التوسُّع، فالبَرُّ خلاف البحر، وسُمِّيت الصحراءُ بَرِّيَّةً لِسَعَتها. والبُرُّ، هذا الطعام المعروف، سُمّي كذلك لكونه أوسعَ ما يحتاج إليه في الغذاء، ولا غنىً عنه مع كثرة صنوف الطعام الأخرى. ولِسَعَة رحمة الله علىٰ عباده، وفضله العميم عليهم جاء في أسمائه الحسنىٰ «البَرُّ»، وقال عزَّ من قائل على لسان عباده المؤمنين في جنات النعيم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، ويُنْسَب ذلك إلىٰ العبد أيضاً فيقال: بَرَّ العَبْدُ ربَّه، أي: توسَّع في طاعته ومرضاته. فالبِرُّ في حق الله عز وجل هو السعة في الثواب والرحمة، والبِرُّ من العبد: التوسّع في الطاعة والخضوع لخالقه، وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في الأعمال، وقد اشتمل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه الآية متضمنة لنوعي البِرّ في الاعتقاد والأعمال معاً. وبِرُّ الوالدين: هو التوسُّع في الإحسان إليهما والعطف عليهما، وضدُّه العقوق، وهو الإساءة إليهما والتضييع لحقّهما.

ويستعمل البِرُّ في معنى الصِّدق، لكونه بعض الخير المتوسَّع فيه، وكذلك الصدق دائماً خيرٌ كثير، فيقال: بَرَّ فلانٌ في قوله، وبرَّ في يمينه فهو بارٌّ، ومن استعمال البِرِّ بمعنى الصدق ما جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قدم عليه وفد اليمامة وسمع منهم كلام مسيلمة الكذاب، قال: ويحكم! إن هذا الكلام لم يخرج من إلٍّ ولابِرٍّ، فأين ذُهب بكم؟ أي: لم يخرج من ربوبية ولا صدق.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في حديث القُنوت: صدقت وبَرَرْت، ويقال: بَرَّ فلانٌ أبويه فهو بارٌّ وبَرٌّ. وجمع البارّ أبرارٌ وبررَة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وقال في صفة الملائكة: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]. فبَرَرَةٌ خُصَّ بها الملائكةُ في القرآن الكريم من حيث إنه أبلغ من أبرار، فإنه جمعُ بَرّ، وأبرار: جمع بارّ، وبَرٌّ: أبلغُ من بارٍّ كما أن عدلاً أبلغ من عادِل. ومن ذلك الحديث: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البَرَرة».

وفي الحديث: «الحج المبرور ليس له ثوابٌ إلاَّ الجنة». قال شَمِرُ بن حمدويه: هو الذي لا يُخالطه شيءٌ من المآثم، وقال غيره: هو المقبولُ المقابَلُ بالبر، وهو الثوابُ الواسع. وقال أبو قِلابة لخالد الحذَّاء حين قدِمَ من الحج: «بُرَّ العمل»، يعني عمل الحج، دعا له أن يكون مبروراً لا مأثم فيه، وفي الحديث: أنه ﷺ سئل: أيُّ الكسب أفضل؟ فقال: «عملُ الرجل بيده وكلُّ بيعٍ مَبْرور»، شرحه أيضاً شَمِرُ بن حمدويه، فقال: هو الذي لا شبهة فيه ولا خيانة، وقال أبو العباس ثعلب: هو الذي لا يُدالِسُ فيه ولا يوالسُ، قال أبو عبيد الهروي: معنى يدالس: يَظْلم ويختل، ويُوالِس: يَخون ويُوارب. والدَّلَسُ: السَّوادُ.

وفي الحديث: «تمسّحوا بالأرض فإنها بكم برّة» قوله ﷺ: «بَرّة» أي: مشفقة عليكم كالوالدة البَرَّة بأولادها. ويعني: منها خُلقتم وفيها معاشكم، وهي بعد الموت كِفاتُكم، أي: موضع ضمِّكم وجمعِكم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥]. وقيل في شرح الحديث: هو أن تباشرها بنفسك في الصلاة من غير أن يكون بينك وبينها شيءٌ تصلّي عليه، وقيل: هو التيمم. وفي الحديث أنه ﷺ غيَّر اسم امرأةٍ كانت تُسمَّى بَرَّة، فسمّاها زينب، وقال: «تُزكِّي نفسها». كأنه عليه الصلاة والسلام كره لها ذلك. وسُمِّيت زمزمُ: بَرَّة، لكثرة منافعها وسَعةِ مائها. وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: «من أصلح جَوّانيّه أصلح الله برّانيّه» المراد بالبرّاني العلانية، وأصله من قولهم: خرج فلان

برّاً، أي: خرج إلىٰ البرِّ والصحراء، والألف والنون من زيادات النَّسَب، كما قالوا في صنعاء: صنعانيّ.

[ب ر ز]

يقول الله تعالىٰ في قصة طالوت وجالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. قوله عز وجل: ﴿بَرَزُوا۟﴾ أي: ظهروا. وهذه المادة (برز) تدل على أصل واحد هو الظهور، سواءٌ أكان حسياً أم معنويّاً. فيقال: برز الشيء، أي: ظهر، فهو بارزٌ، ومنه يقال للمكان الواسع الظاهر: بَراز. ويقال: برَّزَ الرجل في العلم تبريزاً، أي: برع وظهر وفاق نظراءه، وأيضاً: برَّز الفرسُ تبريزاً: إذا سبق الخيل في الحَلْبة.

وتستعمل هذه المادة في انفراد الشيء عن أمثاله، نحو تبارُز الفارسين، وذلك لأن كل واحدٍ منهما يظهَر وينفرد عن جماعته إلىٰ صاحبه الذي يبارزه.

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] بارزةً، أي: ظاهرة بادية، ليس فيها مستظَلٌّ ولا مُتفيّاً، وليس فيها بناءٌ ولا مَعْلَمٌ، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ظاهرون بادون لربهم لا تخفىٰ عليه منهم خافية، وذلك يوم القيامة، جعلنا الله فيه من الناجين.

وهذا أيضاً قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]، أي: برزت الخلائقُ كلُّها، بَرُّها وفاجرُها، محسنُها ومسيئُها لله الواحد القهار، أي:

اجتمعوا له في بَرازٍ من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستُر أحداً، ومنه قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، قال الحافظ عماد الدين بن كثير: أي: ظاهرون بادون كلُّهم، لا شيءَ يكنُّهم ولا يظلهم ولا يسترهم. وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، أي: أُظْهرت وكشف عنها ورآها الناسُ عِياناً. وفي حديث أمّ معبد رضي الله عنها: أنها كانت امرأةً بَرْزَةً، يقال: امرأةٌ بَرْزَةٌ، أي: كهلةٌ لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة، تجلس للناس وتحدثهم. واشتقاق الكلمة أيضاً من البُروز، وهو الظهور والخروج. ويقال للرجل أيضاً: بَرْزٌ إذا كان طاهراً عفيفاً منكشفَ الشأن، وذلك لأن الرجل المريبَ يدسُّ نفسه ويخفيها. قال العجاج يمدح:

بـرْزٌ، وذو العفـافـةِ البَـرْزيُّ

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا أراد البَرازَ أبْعد، وفي الحديث: «اتقوا الملاعن الثلاث: البرازَ في الموارد، وقارعةِ الطريق، والظل». البَرازُ، بفتح الباء: اسم للفضاء الواسع، فكَنَوْا به عن قضاء الغائط، كما كنوا عنه بالخلاء، لأنهم كانوا يتبرزون في الأمكنة الخالية من الناس.

[ب ر ق]

يقول الله عز وجل عن أهوال يوم القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧] قرئ (بَرِقَ) بكسر الراء، و(برَق) بفتحها . والمعنى علىٰ قراءة الكسر: حارَ من الفزع. كما قال تعالـى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذلّ من شدة الأهوال، ومن

عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور. قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢]. وأنشد أبو زكريا الفراء علىٰ هذا المعنى:

ونفْسَك فانْعَ ولا تَنْعَنِي ... وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرَقِ

أي: لا تفزع من كثرة الكُلُوم التي بك. وقال الأعورُ بن براء الكلابيّ:

لما أتاني ابنُ عُميرٍ راغِباً ... أعطيتُه عَيْساءَ منها فبَرَقْ

أي: تحيَّر فلم يَطْرف، ومن قرأ: ﴿فإذا بَرَقَ البصرُ﴾ بفتح الراء، فالمعنىٰ: لمَعَ بصُره من شدّة شخوصه للموت، وفي حديث عمرو بن العاص: أنه كتب إلىٰ عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما: «يا أمير المؤمنين، إن البحر خلقٌ عظيم، يركبه خلقٌ ضعيفٌ، دودٌ على عُود، بين غَرَقٍ وبَرَق». فقال عمر رضي الله عنه: لا يسألني الله عن أحدٍ حَملتُه فيه.

قوله: «وبرَق» راجع إلىٰ معنى الحيرة والفزع. قال أبو محمد بن قتيبة: أراد أن راكب البحر إما أن يَغْرق، وأما أن يكون فيه مدهوشاً حيران، ومن هذا المعنى حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لكلِّ داخَلٍ بَرْقَة» أي: دهشة.

ومن استعمال هذه المادة في معنى اللمعان والتلألؤ حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: «الجنَّةُ تحت البارقة» أي: تحت السُّيوف، يقال: رأيت بارقة القوم: إذا رأيت بريق سيوفهم، وقد أبرق الفارسُ بسيفه إذا لَمَّع به. قال الأعشىٰ لامرأته:

وبِيني فإنَّ البَيْنَ خيرٌ من العَصَا ... وإلا تَزالي فوق رأسِكِ بارِقَةْ

يريد: سيفاً يَبْرُق. ومنه أيضاً ما جاء في الحديث: «تبْرُق أسَاريرُ وجهه» أي: تلمع وتستنير كالبَرْق. وتأتي هذه المادة (برق) بمعنى اجتماع السَّوادِ والبياض في شيء، ومنه ما جاء في الحديث: «أبرقوا فإنَّ دمَ عَفْراءَ أزكىٰ عند الله من دم

سوداويـن» أي: ضَحُّوا بالبَرْقـاء، وهي الشاة التي في خلال صوفها الأبيض طاقاتٌ سـودٌ. والعفراءُ: هي الشـاة التي يضرب لونُها إلىٰ بيـاض، من عُفْرة الأرض، ومنه يقال للمكان الذي يَخلطُ تُرابَه حصىً: أبْرَقُ، وبُرْقةٌ.

ومن غريـب هذه المـادة ما جاء في حديث قتـادة رضي الله عنه: تسوقهم النارُ سوق البَرَقِ الكسير، أي: المكسور القوائم، والبَرَق ــ في هذا الحديث ــ بفتح الباء والراء، هو الحَمَل، وهو مُعَرَّب «بَرَهْ» عن الفارسية.

[ب س ر]

يقول الله تعالىٰ جدُّه، في صفة الكفار الفجّار يومَ القيامة: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٤]، قوله: ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾، أي: كالحـة متكرهـة قاطبـة مقطَّبة، ومن ذلك قوله تعالىٰ، في قصة عناد الوليد بن المغيرة وكفرِه: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ [المدثر: ٢٢] أي: كلح وجهه وتغيَّر. قال توبةُ بنُ الحُمَيِّر:

وقـد رابَنـي منهـا صـدودٌ رأيتُـه وإعراضُها عن حاجتي وبُسورُها

والعرب تقول: وجهٌ باسرٌ: إذا تغيَّر واسوَدّ، وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: لمَّا أسلمـتُ راغمتْنـي أُمِّي، وكانت تلقاني مرَّةً بالبِشْر، ومرة بالبَسْـر وهو القُطُوب. وفي حديـث الأشجِّ العبدي (وهو المنذر بن عائذ) رضي الله عنه: لا تَبْسُروا ولا تثجُـرُوا البَسْر: هو خلْـطُ البُسْـر بالتَّمـر وانتبـاذُهما معاً ليصيرا خمـراً، وقوله: «ولا تثْجُروا» من الثجيـر، وهو ثُفْـل البُسْرِ بالتمر فيُنبَذ أيضاً. وفي الحديـث أن النبي ﷺ كان إذا نهـض في سفـره قـال: «اللهم بـك ابتـسرْتُ وإليـك توجَّهـتُ». قوله عليه الصلاة والسلام: «ابتسَرتُ» أي: ابتدأت سفري. وكلُّ شيءٍ أخذْتَه غضّاً فقد بسَرْتَه وابتسرْتَه.

وهذه اللفظة «ابتَسَرْتُ» رواها هكذا أبو منصور الأزهري، ورواها غيرُه: «انتشَرْتُ» أي: تحرَّكْتُ وسِرْتُ. وفي حديث الحسن البصريِّ رضي الله عنه أنه قال للوليد التياس [وهو الذي يمسك التيس وهو الذكر من المعز] قال له: لا تَبْسُرْ البسْر هنا: هو ضرب الفحل الناقة قبل أن تَطْلب، فيقول له: لا تحمل على الناقة والشاة قبل أن تطلب الفحل. وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: أنه كان مَبْسُوراً، أي به بَواسير، وهي المرض المعروف.

وهذا عمران بن حصين رضي الله عنه، كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم. وكان مجاب الدعوة، وقد صبر على مرضه صبراً جميلاً. وكان في مرضه تسلِّم عليه الملائكة حتىٰ اكتوىٰ ففقد التسليم، وروي عنه أنه قال: إنه كان يُسَلِّم عليَّ، وإن ابن زياد أمرني فاكتويتُ فاحتبَس عني حتى ذهب أثرُ الكيِّ»، وروي عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ نهىٰ عن الكي، قال عمران: «فاكتوينا فما أفلحنا ولا أنجحنا» وكان به رضي الله عنه استسقاءٌ، فطال به سنين كثيرة وهو صابر عليه، لا يجزع ولا يفزع، وشُقّ بطنُه وأُخذ منه شحم، وثُقب له سرير، فبقي عليه ثلاثين سنة، ودخل عليه رجل، فقال: يا أبا نُجيد! والله إنه ليمنعني من عيادتك ما أرىٰ بك. فقال: يا ابن أخي، فلا تجلسْ، فوالله إنَّ أحبَّ ذلك إليَّ أحبُّه إلىٰ الله عزّ وجلّ.

[ب س س]

يقول عزَّ من قائل عمَّا يعرض للجبال يومَ تقوم الساعة: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]. قوله: «بُسَّت» أي: فُتِّتتْ فصارت أرضاً، من قولهم: بسسْتُ الحنطة والسَّويق بالماء: أي فَتَتُّهُ به، وهي البسيسة. وقيل: معنىٰ بُسَّت، أي: نُسفت، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقيل: بُسَّت، أي:

سيقت، من قولهم: انبسَّت الحيَّاتُ، أي انسابت انْسياباً سريعاً، فيكون ذلك كقوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] وقوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠].

وفي الحديث: «يخرج قومٌ من المدينة إلىٰ العراق والشام يبُسُّون، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون». البَسُّ: السَّوْقُ والطَّرد، يقال: بُسَّ القوم عنك، أي: اطرُدْهم، ويقال في دفع الناقة وزجرها: بِسْ بِسْ. ومن أسماء مكة زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة: الباسَّةُ، سُمِّيت بذلك لأنها تَبُسُّ من أخطأ فيها ومن أَلحَدَ بظُلم، أي: تطرُدُه أو تَحْطِمه، ورُوي «النَّاسّة» بالنون مكان الباء، وهو بمعنى الزَّجْر والسَّوق أيضاً.

[ب س ط]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] قوله: يَبْسُط، أي: يُوَسِّع. وهذه المادة (**بسط**) تدل علىٰ أصل لغويٍّ واحد، هو الاتِّساعُ، وامتداد الشيء في عِرَضٍ أو غير عِرَضٍ. وفي أسماء الله الحسنى: «الباسط»، وهو الذي يبسط الرزق لعباده، ويوسِّعه عليهم بجُوده ورحمته، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] يعني: بالعطاء والرزق، وقال: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩] يقول: لا تُسْرف.

والبَسْطةُ في كل شيء: السَّعة، قال تعالىٰ: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ويقال: بسَط يده بالسَّطْوة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ

إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: مسلَّطون عليهم كما يقال: بُسِطَتْ يده عليه، أي: سُلِّط عليه. وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]، قوله: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ أي كالداعي الماءَ، يوميءُ إليه ويطلبه فلا يُجيبه. ويقال: كالقابض علىٰ الماء، ويُضرَب ذلك مثلاً لمن طلَبَ الممتنِع.

وفي الحديث، في صفة الغيث: «فوقع بَسيطاً متداركاً» أي: انبسط في الأرض واتَّسع. وفي حديث عُروة: «مكتوبٌ في الحكمة: ليكُنْ وجْهك بُسْطاً تكن أحبَّ إلىٰ الناس ممَّن يعطيهم العطاء» أي: منبسطاً منطلقاً. ومنه حديث فاطمة الزهراء رضي الله عنها: «يبسطني ما يبسطها» أي: يسرُّني ما يسرُّها؛ لأن الإنسان إذا سُرَّ انبسط وجههُ واستبشر.

[ب س ل]

يقول ربنا عز وجلَّ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠] قوله تعالىٰ: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: تُسلم للهلكة، والمعنى: ذكِّر الناس بهذا القرآن وحذِّرْهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة، لئلا تَهلك نفس بما كسبت واقترفت. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الأنعام: ٧٠] أي سُلِّموا للهلاك بما فعلوه واقترفوه. وهذه المادة (بسل) تدلُّ في أصل وضعها على معنى واحد تتقارب فروعه. وهذا المعنى هو المنعُ

والحبس. ومن ذلك قول العرب للحرام: بَسْلٌ.

قال الأعشى:

أجارتُكمْ بَسْلٌ علينا محرَّمٌ وجارَتُنا حِلٌّ لكم وحَليلُها

ويأتي البسلُ بمعنى الحلال أيضاً. قال ابنُ همَّام:

أيثبُتُ ما زدْتمْ وتُلْغىٰ زيادتي دَمي إن أُحلَّتْ هذه لكم بَسْلُ

وكلُّ شيء امتنع فهو بَسْلٌ. والبسالةُ: الشجاعة، من هذا أيضاً لأنها الامتناع عن القِرْن والأعداء. وقال الراغب الأصبهانيُّ: البسْلُ: ضَمُّ الشيء ومنعه، ولتضمنه لمعنى الضمّ استعير لتقطيب الوجه، فقيل: هو باسلٌ ومبتسلُ الوجه. انتهىٰ كلامه.

ويقال: أسدٌ باسلٌ، وتبسَّل لي فلانٌ: إذا رأيتَه كريه المنظر. ومن ذلك ما جاء في حديث خَيْفانَ بن عَرابة حين قدم علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه فوصف له قبائل اليمن حتى قال: وأمّا هذا الحيُّ من هَمْدان فأنجادٌ بُسْلٌ. وهو جمع باسل علىٰ الوجه الذي شرحناه. وجاء في الحديث: مات أُسيدُ بن حُضَيْرٍ، فأُبسلَ مالُه بدَيْنه، فبلغ عمر، فردَّه فباعه ثلاث سنين متوالية، فقضى دينه. قوله: «أُبْسِل» أي: أُسْلِم بدَيْنه واستغرقه، وكان هذا المالُ نخلاً، فردَّه عمر رضي الله عنه وباع ثمره ثلاث سنين وقضى دَيْنه. ومن هذا قولهم: أُبْسِل فلانٌ بجريرته، أي: أُخِذ وأُسْلِم، قال الشَّنفرىٰ:

هنالك لا أرجو حياةً تَسُرُّني سميرَ الليالي مُبْسَلاً بالجرائرِ

وقال عوف بن الأحوص:

وإبسالي بنيَّ بغيرِ جُرْمٍ بَعَوْناهُ ولا بدمٍ مُراقِ

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في دعائه: آمينَ

وبَسْـلاً، قيـل: معنـاه: إيجابـاً وتحقيقـاً يا ربِّ. قـال: أبـو نُخَيلـة ــ ونُسب إلى المتلمِّس:

لا خابَ مِن نَفْعِكَ مَن رجاكا   بَسْلاً، وعادَىٰ اللهُ من عاداكا

[ب ش ر]

يقول عزَّ من قائل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الشورى: ٢٣]. يقال: بَشَرتُه وبشَّرْته، مخففاً ومشدداً، قال الشاعر:

بشَرتُ عيالي إذ رأيتُ صحيفةً   أتتْك من الحجّاجِ يُتْلىٰ كتابُها

قال ابنُ عرفة نِفْطوَيْه: سُمِّيت البشارة بشارةً لأنها تتبيّن في بشرة مَن بُشِّر بها. وقـال الراغب الأصفهاني ــ وقد أحسـن كـلَّ الإحسان في شرح هذه المادة وانتزاع الشواهد لها من الكتاب العزيز ــ قال رحمه الله: وأبشرتُ الرجل وبَشَّرْته، وبَشَرْتُه: أخبرتُه بسارٍّ بَسَط بشَرَة وجهه، وذلك أن النفس إذا سُرَّتْ انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر.

وهذه المادة (بشر) تدل علىٰ أصل واحد هو ظهورُ الشيء مع حسن وجمال، فالبشـرة ظاهر جلدِ الإنسان، ومنه: باشـر الرجل المرأةَ، وذلك إفضاؤُه ببشَرَته إلى بشرتهـا، وسُمّي البَشَر بَشَراً لظهورهـم؛ كما سُمِّي الجِنُّ جنّاً لاستتارهم، إذ كانت مـادة (جنن) تدلّ علىٰ الاستتار والخفـاء. والبشيرُ: الحسنُ الوجه، والبشير أيضاً: المبشـر، قـال تعـالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الـروم: ٤٦]، أي: تُبشِّـر بالمطـر، وقال صلىٰ الله عليه وسلم: «انقطع الوحي ولم يبق إلا المبشرات، وهي الرؤيـا الصالحة التي يراهـا المؤمـن أو تُرَىٰ لـه». والبشارة والتبشير يكون بالخير، وربما يكـون في الشر علىٰ وجـهٍ من التبكيـت والتقـريـع، قـال تعـالىٰ: ﴿ فَبَشِّرْهُم

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وعلىٰ هـذا جـاء قولهـم: عتـابُك السيفُ، وتحيتُك الضرب. قال عمرو بن معد يكرب:

وخيـلٍ قـد دلفـتُ لهـا بخيـلٍ　　　تحيـةُ بينِهـم ضـربٌ وجيـعُ

ويقـال: وجهٌ بشيرٌ: إذا كان حسناً. وجاء في الحديث: «ما من رجل له إبلٌ وبقرٌ لا يؤدِّي حقَّها إلا بُطِحَ لها يوم القيامة بقاعٍ قَرْقَرٍ ثم جاءت كأكثرِ ما كانت وأبشرِه». قال الهروي: أي: أحسنـه، وتعقَّبه الحافظ ابنُ ناصر الحنبلي وذكر أن رواية «وأبشرِه» تصحيف، وأن الصـواب: «وآشرِه» يعني: «أنشطَه»، مأخوذ من الأشر وهو النشاط والمرح، لا من البشر الذي هو الحسن، ومعنى الحديث أن الإبل التي لم تؤدَّ زكاتُها يُبطَح لها صاحبها بأرض مستوية يوم القيامة فتطأه بأخفافها وتجيء مسرعة نشيطة.

وفي حديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه: «من أحـبَّ القـرآن فلْيَبْشَرْ»، وروي: «فليَبْشُرْ»، ومن روى «فَلْيَبْشَر» فمعنـاه ليَفْـرَحْ وليُسَرَّ، أراد أن محبة القرآن دليـلٌ على محضِ الإيمـان، ومن روىٰ «فليبْشُرْ» فهو من بَشَـرْتُ الأديم أبشُرُه: إذا أخـذتَ باطنه بشفرة، وأراد علىٰ هذا المعنىٰ: فليُضَمِّرْ نفسَه للقرآن، فإن الاستكثار من الطعـام ينسيه إياه. ومنه الحديث الآخر: «إني لأكره أن أرىٰ الرجل سميناً نَسِيّاً للقرآن»، وفي الحـديـث: أُمِرْنا أن نَبْشُرَ الشَّـواربَ بَشْـراً، أي: نحُفَّهـا حتى تتبين بَشَرتُها.

[ب ض ع]

يـقـول عــز وجـل: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. البِضْع من الشيء: القطعة منه، والعرب تستعمـل ذلك فيما بين الثلاث إلىٰ التسع. وهذه المادة تدور في معظم استعمالاتها

حول معنىٰ القطع والشقّ. قال الخليل بن أحمد: بَضَع الإنسانُ اللحمَ يبضَعُه بضْعاً، وبضَّعـه يُبضِّعه تبضيعـاً: إذا جعله قطعاً، والبَضعة: القطعة وهي الهَبْرَةُ. ومن ذلك سُمّيت بضاعة الرجل، وهي القطعة أو الطائفة من ماله الذي يتجر فيه. قال تعالىٰ: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ [يوسف: ١٩] وقال: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف: ٨٨] وقال: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥].

ومن غريب الاتفـاق أن هـذه اللفظة «بضاعـة» وردت في القرآن الكريم خمس مرات، كلُّها في سورة يوسف عليه السلام، وذلك الآيات الثلاث التي ذكرتها، وآية رابعـة هي قـولـه عزّ من قـائـل: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]، وروي أنـه كان لرجل حـقٌّ علىٰ أمِّ سلمـة رضي الله عنها، فأقسـم عليها أن تُعطيَه، فضربـه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أدبـاً له ثلاثين سوطـاً، كلُّهـا يَبْضَعُ ويحْدُر. معنىٰ يَبْضَع، أي: يشقُّ الجلد، ومنه المِبْضَع، هذا الذي يستعمله الجرَّاح، ومعنى يَحْدر، أي: يُوَرِّم.

وفي الحديـث: «فاطمةُ بَضْعَـةٌ مني». البَضْعَـة ــ بفتـح البـاء، وقد تكسر ــ: القطعـة من اللحم، أي: أنها جـزءٌ مني، كما أن القطعة من اللحم جزء من اللحم، وقال الأصمعي: البَضْعةُ: قطعةٌ من اللحم مجتمعة، وأُخِذ من هذا المعنىٰ على وجهٍ من الكنايـة: المُباضَعـةُ، وهي مباشرة النِّسـاء، قال أبو الحسين بن فارس: وهو من حَسَنِ الكنايات.

قال الأصمعي: باضَـعَ الرجل امرأته: إذا جامعها، وجاء في الحديث أنه ﷺ أمر بلالاً رضي الله عنه يوم صبَّح خيبر، فقال: «ألا من أصاب حبلىٰ فلا يقرَبنَّها، فإن البُضْـعَ يزيـد في السمع والبصر»، قال أبو منصـورٍ الأزهريُّ: هذا كقوله: «لا يسقي ماءه زرْع غيره» والبُضْعُ: الجِماع، وقال بعضهم: البُضْع: الفرج. وقال الأصمعيُّ: ملك فلانٌ بُضْعَ فلانة: إذا ملك عقدة نكاحها، وهو مالك بُضْعِها، أي: تزويجها.

قال الشاعر:

يا ليت ناكِحَها ومالكَ بُضْعِها　　　وبني أبيهم كلَّهم لم يُخْلَقُوا

وقالت أم المؤمنين التقية النقية السيدة عائشة رضي الله عنها في كلمتها البليغة يومَ الجمل: أيها الناس، صَهْ صَهْ، إنَّ لي عليكم حُرْمةَ الأمومة وحقَّ الموعظةِ والصُّحبة، لايتهمني منكم إلاَّ من عصىٰ ربَّه، قُبض رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري وحاقنتي وذاقنتي، وأنا إحدىٰ نسائه في الجنَّة، وله حصَّنني ربي من كلِّ بُضْع» أي: منعني ربي من كل نكاح، لأنه صلىٰ الله عليه وسلم كان تزوجها بكراً دون سائر نسائه، وفي الحديث: «تُستأمر النِّساء في أبضاعهن» روي: «إبضاعهن» أيضاً، قال الإمام الفيّومي في «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» ــ وهو معجم نافع على صغر حجمه، أُوصي طلبة العلم باقتنائه والرجوع إليه ــ قال رحمه الله: يروىٰ بفتح الهمزة وكسرها، وهما بمعنىٰ، فالمفتوح جمع ــ أي: جمع بُضْعٍ، مثل: قُفْل وأقفال، والمكسور مصدر من: أبْضَعْت.

والاستبضاع نوعٌ من نكاح أهل الجاهلية، وذلك أن تطلب المرأة جماعَ الرجل لتنالَ منه الولد فقط، كان الرجل منهم يقول لأمته أو امرأته: أرسلي إلىٰ فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها فلا يمسُّها حتى يتبين حملُها من ذلك الرجل، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد.

ومن ذلك ما روي أن عبد الله بن عبد المطلب أبا النبيّ ﷺ، مرَّ بامرأةٍ صاحبةِ علم وفراسة، فدعتْه إلى أن يستبضع منها، والمرأة هي كاظمةُ بنت مُرَّة، قرأت الكتُبَ، مرَّ بها عليه عبدُ المطلب بعد انصرافه من نَحْر الإبل التي فدَّىٰ بها، فرأت في وجهه نوراً، فقالت: يا فتىٰ! هل لك أن تقع عليَّ وأعطيكَ مئةً من الإبلِ، فقال عبد الله:

أمَّا الحرامُ فالحِمامُ دُونَهُ　　　والحِلُّ لاحِلَّ فأستَبِينَهُ

فكيـف بـالأمـرِ الـذي تبغِينَـهُ   يحمي الكريمُ عِرْضَهُ ودينَهُ

وفي الحديـث المرويّ، في زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خُويلـد، أن النبي ﷺ مشىٰ إلىٰ عمها عمرو بن أسد، ومعه عمه أبو طالب الذي خطب خطبة النكاح، وكان مما قاله في تلك الخطبة الحكيمة: أما بعد، فإن محمداً ممَّن لا يُوازَنُ به فتىً من قريش إلاَّ رجح به شرفاً ونُبْلاً، وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المالِ قُلٌّ فإنَّ المال ظلٌّ زائل وعاريةٌ مسترجَعة، وله في خديجة بنت خُويْلدٍ رغبةٌ، ولها فيه مثلُ ذلك. فقال عمُّها عمرو بن أسد: هذا البُضْعُ لا يُقْرَعُ أنفُه، وروي: هذا الفحلُ. يريد: هذا الكُفْـؤ الذي لا يُـرَدُّ. وأصل ذلك في الإبـل، وذلك أنَّ الفحـل الهَجيـن إذا أراد أن يضرب كرائم الإبل ضربوا أنفه بعصاً أو غيرها، ليرتدَّ عنها ويتركها ولا يتعرَّض لها.

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسـولَ الله، ذهب أهل الدثـور بالأجـور ــ أي: أهلُ المال الكثير ــ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أوليس قد جعل الله ما تصدَّقون؟ إن بكلِّ تسبيحـة صدقـة، وكلِّ تكبيرة صدقـة وكلِّ تحميدة صدقة، وكلِّ تهليلـةٍ صدقة، وأمرٌ بالمعـروف صدقـة، ونهيٌ عن منكر صـدقـة، وفي بُضْع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وَضَعها في حرام أكان عليه فيها وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» وصدق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

[ب ط ن]

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]

قولـه: «الباطن» أي: العالـم بما بَطَـن، لأنـه عزَّ وجـلَّ يعلـم من السِّرّ ما يعلم من

العلانيـة، فهو الظاهرُ الباطـن، ويقال: هو يبطُنُ أمرَ فلان، أي: يعلمُ سريرة أمرِه، رویٰ الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعـو عند النـوم: «اللهمَّ ربَّ السمٰـوات السبـع وربَّ العـرش العظيـم، ربَّنا وربَّ كـل شيء، مُنْـزِلَ التـوراة والإنجيل والفـرقـان، فالـق الحـبِّ والنـوىٰ، لا إله إلاَّ أنت، أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذٌ بناصيتـه، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن وأغْننا من الفقر».

وهذه المادة «بطن» تدل علىٰ أصل واحد هو المقبلُ من الشيء، فالبَطنُ خِلاف الظَّهر في كل شيء، ويقال لكلِّ غامضٍ: بَطْنٌ، ولكلِّ ظاهر: ظَهْرٌ، ويقال لما تدركه الحاسَّةُ: ظاهـر، ولما يَخْفَىٰ عنهـا: باطـنٌ. قـال عزَّ من قائل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] أي: المعصيـة في السِّـرِّ والعلانية. كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ورُوي أن سعدَ بن عبادة رضي الله عنه قال: لو رأيتُ مع امرأتي رجـلاً لضربتُه بالسيفِ غيرَ مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرةِ سعد؟ فوالله لأنا أغيرُ من سعد، والله أغيرُ مني، من أجل ذلك حرَّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن».

والبِطانَةُ خلاف الظِّهـارة، وبطَّنْتُ ثوبـي بآخـر، أي: جعلتـه تحتَه، وتُستعار البطانـةُ للشخص الذي تختصـه بالاطـلاع على باطن أمـرِك، وتجعلـه من أوليائك وخاصَّتِك. قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ففي هذه الآيـة الكريمـة ينهـى الله عز وجل عبادَه المؤمنيـن عن اتخاذ أعداء الله من المنافقيـن والكفار أولياءَ وبطانة، يُطلعونهم على سرائرهـم وما يضمرونه لأعدائهـم، وأعداءُ الله لا يألـون المؤمنين خبـالاً، أي: لا يقصـرون في مخالفتهـم والكيـد لهم والسعي فيما يضرّهم بكلِّ ممكن، ويَوَدُّون ما

يُعْنِت المؤمنين، أي: يُحرجُهم ويشقُّ عليهم، وقد روىٰ الإمامان الجليلان أبو عبد الله البُخاريُّ وأبو عبد الرحمن النَّسائيُّ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفةٍ إلا كانت له بطانتان: بطانةٌ تأمره بالخير وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالسُّوء وتحضُّه عليه، والمعصومُ من عصمه الله».

وقال ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ هاهنا غلاماً من أهل الحِيرة، حافظٌ كاتب، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذتُ إذاً بطانةً من دون المؤمنين. قال الحافظ عمادُ الدين بن كثير رحمه الله: ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليلٌ علىٰ أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالةٌ على المسلمين، واطّلاعٌ على دواخلِ أمورِهم، التي يُخْشى أن يُفْشُوها إلىٰ الأعداء من أهل الحرب. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، أي: تَمنَّوْا وقوعكم في المشقة.

ويقول تعالىٰ منبِّهاً عبادَه على نعمه عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، المراد بالنعم الظاهرة ما يُدْرَك بالعقل أو الحِسّ، ويعرفه من يتعرَّفُه، وبالباطنة ما لا يُدْرَك للناس ويَخْفَىٰ عليهم. وقيل: النعم الظاهرة: الصحةُ وكمالُ الخَلْق، والباطنة: المعرفة والعقل. وقيل: النعم الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات. والباطنةُ: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات. وقيل: الظاهرة نعمُ الدنيا، والباطنة نعم الآخرة.

وجاء في الحديث: «المَبْطُون شهيد» المبطون: هو الذي يموت بمرض بطنه، كالاستسقاء ونحوِه. وفي الحديث: «لو توكلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً». بِطاناً، أي: ممتلئة البطون، والمعنى أن

هذه الطيور تغدو أولَ النهار وهي جياع. ثم تعود آخِرَه وهي ممتلئة الأجواف، وسبحان من تكفَّل بأرزاق مخلوقاته من سائر دوابِّ الأرض. قال تقدست أسماؤه: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦]. ومن غريب هذه المادة ما جاء في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنه قال ــ لمَّا مات عبدُ الرحمن بنُ عوف رضي الله عنه ــ: هنيئاً لك ابنَ عوف. خرجْتَ من الدنيا ببِطْنَتِك لم يتغَضْغَضْ منها شيء. البِطْنة، بكسر الباء: امتلاء البطن من الطعام، والتغضغض: النُّقصان. يقال: تغضغض الماءُ: إذا نَقَص، وغضغضتُه إذا نقصتُه. قال الأحوص:

سأطلبُ بالشامِ الوليدَ فإنَّه ... هو البَحْرُ ذو التيارِ لا يتغضغضُ

وأراد عمرو بن العاص أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما سبق الفتنَ، ومات وافرَ الدين لم يَنْقُص منه شيء، وكان موت عبد الرحمن قبل قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وضَرَب البِطنةَ مثلاً في أمْرِ الدين، أي: خرج من الدنيا سليماً لم يثلَمْ دينَه شيء؟ وفي حديث إبراهيم بن يزيد النخعي: أنه كان يُبَطِّنُ لِحْيته ويأخذ من جَوانبها. يُبَطِّنُ لِحْيتَه، أي: يأخذ شَعرَها من تحت الذَّقَن والحَنَك.

[ب ع ث]

جاء في أسماء الله تعالىٰ الحسنى: «الباعث» وهو الذي يبعث الخلق، أي: يحييهم بعد الموت يوم القيامة.

وهذه المادة (بعث) تدلُّ على معنىً واحد هو الإثارة والتوجيه. فقوله تعالىٰ، في قصة أصحاب الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ [الكهف: ١٩] أي: أثَرْناهم وأيقظناهم من نومهم، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠]، ومنه أيضاً قوله عزَّ من قائل: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

ويكون البَعْث إرسالاً، كما تقول: بعثتُ فلاناً في حاجتي، أي: أرسلته، ومنه قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] ونحو: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويكون البعثُ نُشُوراً وإحياءً بعد الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ٦] وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] أي: ما خَلْقُ جميع الناس وبَعْثُهم يومَ المعاد بالنِّسبة إلىٰ قدرته، إلا كنسبة خلْق نفسٍ واحدة، الجميع هيِّنٌ عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: إلاّ كخلق نفسٍ واحدة وبعثها. قال أبو جعفر النحاس: كذا قدره النحويون: كخَلْق نفسٍ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني: واسأل أهل القرية. وقال أبو إسحاق الزجاج: أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. وقوله تعالىٰ في قصة ابنَي آدم عليه السلام، قابيل وهابيل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] «بعثَ» هنا، أي: قيضَ ووَجَّه.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يصف النبيَّ ﷺ: «شهيدُك يوم الدين وبعيثُك نعمةً» بعيثُك، أي: مَبْعوثُكَ الذي بَعَثْتَهُ إلىٰ الخَلْق، أي: أرسلتَه، و«بعيث» هنا: فعيل بمعنى مفعول، مثل: قتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح. وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: «إنَّ للفتنة بَعَثاتٍ ووقفات، فمن استطاع أن يموت في وَقَفاتها فليَفْعَل». قوله: «بعثات» أي: إثاراتٍ وتهييجات، والبَعَثات

جمع بَعْثة، وهي المرةُ من البَعْث. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمَّا صالح نصارىٰ الشام كتبوا له كتاباً: إنَّا لا نُحدِثُ في مدينتنا كنيسة ولا قِليَّةً ولا نَخْرُج سَعانين ولا باعُوثـاً. القِليَّةُ: شِبْهُ الصومعـة. والسَّعانيـن: عيدُ النصارىٰ الأول قبل الفِصْـح بأسبوع يخرجون بصُلبانهم. والباعُوث للنصـارىٰ كالاستسقاء للمسلمين، يخرجون إلى الصحراء بصلبانهم فيستسقون.

ويـأتي من مـادة (بعث) الانبعـاثُ، وهو الخـروجُ والمضـيُّ في نشـاط، قـال تعـالـىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَـرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيـلَ ٱقْعُـدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقـال تعـالىٰ في قصـة عاقر ناقة صالح عليـه السلام: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] أي: حين انطلق أشقى القوم بسُرعةٍ ونشاط يعقر الناقة.

ومن رُباعـيِّ هذه المـادة قـولـه تعـالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤] قوله: ﴿ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلِبت فأُخْـرِج ما فيها، كما يُبَعْثَـرُ المتاعُ فيُجْعَـلُ أعلاه أسفله. ومنه قـولـه تعالـىٰ: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]، وبعـض اللغـوييـن يقول: إنَّ بُعْثِرَ مركب من فِعْلين هما: بُعِث وأُثير. قال الراغب الأصفهـاني: وهذا لا يبعـد في هذا الحرف، [أي الفعل]، فإن البعثـرةَ تتضمن مَعنى بُعِث وأُثير. وفي حديـث أبي هـريرة رضي الله عنه: «إني إذا لـم أرَكَ تبعثـرت نفسـي» أي: جـاشَـت وانقلبَتْ.

[ب ع د]

يقول ربنا عز وجل على لسان الكافرين الجاحدين المنكرين للبعث: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، يعنون البعثَ بعد الموت، قالوا ذلك منكرين، كما

يقول الرجل لصاحبه، للأمر ينكره: إنَّ هذا لبعيد.

وهـذه المادة (بعد) تدلُّ على ضـدِّ القُـرْب. يقال ذلك في المحسـوس، وهو الأكثر، ويقال في المعقول، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] قوله ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد من قلوبهم.

وقـال أبو زكريا الفراء: يقال للرجـل الذي لا يفهم عنك قولك: هو يُنادَىٰ من مكـان بعيـد. ويقـال للرجـل الفَهِم: إنَّه ليأخـذُ الأشيـاء من قـرْب، وقال ابن عرفة نفطويـة: أراد أنهم لا يسمعـون. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، أي: يتباعدُ بعضهم في مُشاقّة بعض.

وقـد يأتي البُعْـدُ بمعنى الهلاك والموت، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] أي: هلاكـاً لمدين كما هلكـت ثمـود. يقـال: بَعِـدَ يَبْعَـدُ، أي: هَلَك، وبَعُدَ مَحَلُّه يَبْعُدُ. ضِدّ قَرُبَ. ويقال: بَعِدَ فلانٌ عن الخير ، فهو باعدٌ، أي: هالك، والأبْعدُ: الهالك. والأبْعَدُ أيضاً : الخائن.

وفي الحديـث أن رجـلاً جاء فقال: إنَّ الأبْعَـدَ قد زنىٰ. ومعناه: المتباعد عن الخيـر والعصْمة، ومنه قولهـم : كبَّ الله الأَبْعَدَ لفيهِ. وفي حديث شهادة الأعضاء يوم القيامـة: يقول مَن تشهد عليه أعضـاؤه: بُعْداً لَكُنَّ وسحقاً! أي: هلاكاً. وتمام هذا الحديـث ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قـال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «أتدرون ممّ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربَّه. يقول: يارِبِّ، ألم تُجِرْني من الظّلم؟ فيقول: بلىٰ، فيقول: لا أُجيـزُ عليَّ شاهداً إلاَّ من نفسـي، فيقـول: كفـىٰ بنفسـك اليـوم عليـك شهيداً ، وبالكرام عليك شهوداً، فيُخْتَم علىٰ فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم

يُخَلَّىٰ بينه وبين الكلام فيقول: بُعْداً لكنّ وسُحْقاً، فعنكنّ كنت أناضل».

[ب ع ض]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨].

قوله: ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾. بعض الشيء: جزءٌ منه، وهو يقال في مقابلة «كلّ». وفي تأويل هذه الآية الكريمة يقول أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب: كان وعَدَهم شيئين من العذاب، عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة. فقال: يصبْكم هذا العذاب في الدنيا وهو بعضُ الوَعْدَين، من غير أنْ نَفَىٰ عذابَ الآخرة. وذهب الخليل بن أحمد والليثُ بن المظَفر إلى أن كلمة «بعض» هنا زائدة، وأراد ــ وهو أعلم بمراده ــ: يصبكم الذي يعدكم، كما زيدت «ما» في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ﴾ [نوح: ٢٥]. وذهب أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ إلىٰ أن «بعضاً» هنا بمعنى «كلّ»، ووجَّه على ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف: ٦٣]، واستشهد على ذلك بقول لبيد رضي الله عنه:

تــرَّاكُ أمكنــةٍ إذا لــم أرْضَهــا ... أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُها

ورُدَّ عليه بأن مرادَ لبيد من قوله «بعضَ النفوس» نَفْسَه. والمعنى: إلاّ أن يتداركني الموت. لكنْ عرَّض ولم يصرِّح حسَبَ ما بنيت عليه جملةُ الإنسان في الابتعاد من ذكر موته. هكذا قال أبو القاسم الراغب الأصفهاني.

ومن أحسن ما وجدت في توجيه الآية الكريمة ما ذكره أبو إسحاق الزَّجاج، وحكاه عنه أبو منصور الأزهريّ في «التهذيب»، قال أبو إسحاق: من لطيف المسائل أن النبيَّ عليه السلام إذا وعد وعداً وقع الوعدُ بأسره، ولم يقع بعضه، فمن أين جاز أن يقول: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وحقُّ اللفظ: كلّ الذي يعدكم، وهذا بابٌ من النظر يذهب فيه المناظرُ إلى إلزام الحجّةِ بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكلّ، ومثله قول القطاميّ:

قد يُدرك المتأنِّي بعضَ حاجتِه وقد يكون مع المستعجلِ الزَّللُ

وإنما ذكر البعض ليوجب له الكلّ، لا أنَّ البعض هو الكلّ، ولكن القائل إذا قال: أقل ما يكون للمتأنِّي إدراكُ بعض الحاجة، وأَقَلُّ ما يكون للمستعجل الزَّللُ، فقد أبان فضْل المتأنِّي على المستعجل، بما لا يقدر الخَصمُ أن يدفعه، وكأن مؤمن آلِ فرعونَ قال لهم: أقلُّ ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم. انتهى كلامُ الزّجاج.

وقد استشهد أبو بكر الصديق رضي الله عنه بهذه الآية الكريمة في موطنٍ من مواطن الإيذاء التي تعرَّض لها رسول الله ﷺ من كفار قريش المعاندين الجاحدين. روىٰ الإمام الجليل أبو عبد الله البخاري في «صحيحه»، عن عروة ابن الزبير رضي الله تعالىٰ عنهما، قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدِّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبةُ ابن أبي مُعَيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوىٰ ثوبَه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمَنكِبه، ودفَعَه عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وروىٰ ابنُ أبي حاتم، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه سُئِل: ما أشدَّ ما رأيت قريشاً بَلَغوا من رسول الله ﷺ، قال: مرَّ ﷺ ذات يوم، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبدُ آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك»، فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه،

فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنَه من ورائه، وهو يصيح بأعلىٰ صوته، وإن عينيه ليسيلان وهو يقول: يا قوم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الفتح»: ولقصة أبي بكر هذه شاهدٌ من حديث عليّ، أخرجه البزّار، من رواية محمد بن علي، عن أبيه، أنه خطب فقال: مَن أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزني أحدٌ إلاَّ أنصفتُ منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يَجَؤُه، وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكر، يضربُ هذا، ويدفع هذا ويقول: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم بكىٰ عليّ، ثم قال: أَنْشُدُكُم الله، أمؤمنُ آل فرعونَ أفضلُ أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعةٌ من أبي بكرٍ خيرٌ منه. ذاك رجلٌ يكتمُ إيمانه. وهذا يُعلن بإيمانه. اللهم ارضَ عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة أجمعين واحشرنا معهم بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

[ب ع ل]

يقول الله عز وجل في شأن المطلقات: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]. البُعُولة: جمع البَعْل، وهو الذكر من الزوجين. قال عز من قائل: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] ويقال في جمع البعل ثلاثة جموع: بِعالٌ وبُعُولٌ وبُعولةٌ. وهذه الهاء التي في «بعولة» زائدة مؤكدة لتأنيث الجماعة كما قالوا: فحل وفحولة وخالٌ وخؤولة وسهل وسهولة وحَزْن وحُزُونة، وقالوا أيضاً: ذكَرٌ وذكورة، وهو جمعٌ شاذٌّ لا يقاسُ عليه ويُعتبَرُ فيه السماع ليس غير، فلا يقال في

كَعْب: كُعُوبة. ويجوز أن تكـون البعولة مصدراً. فيقال: بَعَلت المرأةُ بعولةً، أي: صارت ذات بعل. ولكنها في الآية الكريمة السابقة تُحمل علىٰ الجمع، وكذلك في قوله تعالىٰ في آية الحجاب: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية.

أمّا حديـثُ ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مُصَلَّىٰ لامرأة أفْضَلَ من أشَدِّ مكان في بيتهـا ظلمـةً، إلاّ امرأةً قد يئسـتْ من البُعُولة فهي في مَنْقَلَيْهـا» فإن «البعولة» فيه تحتمل أن تكون جمع البعـل وهو الـزَّوج، وتحتمـل أن تكون المصدر، من بَعَلَتِ المرأة بعولةً، أي: صارت ذات بَعْل كما سبق، وقوله: «في مَنْقليها» فإن المَنْقَلَ هو الخُفّ، أي: هي لابسةٌ خُفَّيها، لخروجها من البيت، وتردُّدها في الحوائج. والمراد من هذا الحديـث: كراهةُ الصلاة في المسجـد للنِّسـاء الشّـوابّ، والتـرخيص فيها للعجائز.

وهذه المادة «بَعَل» تدلُّ على معنى العلوّ والاستعلاء، وجميعُ استعمالاتها تُردُّ إلىٰ هذا المعنـىٰ وتُحمل عليه. فزوج المرأة هو بعلها، لما يُتَصور فيه من الاستعلاء عليها، بتدبيـر شؤونها والقيـام علىٰ أمـورها، لقـوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وبُني من لفظ البعل: المباعلةُ والبِعالُ، وهما كنايةٌ عن الجماع والمباشرة، ومن ذلك حديثه ﷺ حين ذكر أيام التشريق، فقال: «إنها أيامُ أكل وشُرب وبِعال» قال أبو عبيد القاسم ابن سلاّم: البعـالُ: النكاح، وملاعبة الرجل أهْلَـه. يقال للمرأة: هي تُباعل زوجَها بِعالاً ومباعلةً: إذا فعلت ذلك معه. قال الحطيئة يمدح رجلاً:

وكم من حَصانٍ ذاتِ بَعْلٍ تركْتَها ... إذا الليلُ أدْجَىٰ لم تَجِدْ مَن تُباعِلُهْ

يقول: إنكَ قد قتلـتَ زوجَهـا أو أسرْتَه. وكلُّ مستعلٍ علىٰ غيره يُسَمَّى بعلاً، ومن ذلك تسميةُ قوم إلياس عليه السلام معبودَهم الباطل: بعلاً، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣]، قال الواحـديُّ: وهو بلغة اليمـن، يقولـون للسيِّد والرَّبّ: البَعْل.

وتقـول العربُ: فلانٌ بَعْلُ هذا، أي: مالكُـه وربُّـه، وفي حديـث الإسلام والإيمان وعلامـات الساعـة في إحدىٰ الروايات: «وأن تلد الأمَةُ بعلَها»، قال مجد الدين بن الأثير: المراد بالبعل هاهنا: المـالك، يعنـي كثرة السَّبْـي والتَّسـرِّي، فإذا استـولـد المسلمُ جاريةً كان ولدُها بمنزلة ربِّها وسيِّدها. قال الإمام النوويّ: لأنّ مال الإنسان صائرٌ إلى ولده، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين. وقيل: معناه أن الإماء يلدن الملوكَ فتكون أمُّه من جملة رعيّتِه، وهو سيّدُها وسيّدُ غيرها من رعيّته. وهذا قول إبراهيم الحربي.

ومن ذلك حديث ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: أنه مرَّ برجلين يختصمان في ناقة، وأحدهما يقول: «أنا والله بعلُها» أي: مالكها وربُّها. وعلىٰ هذا المعنى أيضاً فُسِّـر الحديث: أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أبايعـك علىٰ الجهاد. فقال: «هل لك من بَعْل؟» قال: نعم، قال: «انطلقْ فجاهِدْ فيه، فإنَّ لك فيه مجاهَداً حسناً». المراد بالبعل في هذا الحديث: الكَلُّ، أي: هل لك مَن تلزمك طاعته من أب وأم ونحوهما؟ وقيل: إن المـراد بالبعل في هذا الحديـث: الكَلُّ. يقال: صار فلانٌ بعلاً علىٰ قومه، أي: ثقلاً وعيالاً.

قال الراغبُ الأصفهانـي: لما كانت وطأة العالـي علىٰ المستولىٰ عليه مُستثقلة في النفس قيل: أصبح فلانٌ بعلاً على أهله، أي: ثقيلاً لعلوِّه عليهم، وبذلك يرجع تفسيـر هذا الحديث إلىٰ المعنـىٰ الأصلي للمـادة وهو العلوُّ والاستعلاء. وسُمِّي ما عظـم من النخل حتى يشربَ بعروقـه: بَعْلاً، لاستعلائه. ومن ذلك حديث الزكاة: «ما سُقِيَ بَعْلاً ففيه العُشْر». قال أبو منصـور الأزهـريّ: هو ما ينبُـت من النخل في أرض يقـرُب ماؤها، فرسخت عروقهـا في الماء، واستغنت عن ماء السماء وغيرها من الأنهار. وجاء في حديث الشورىٰ: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قوموا فتشاوروا، فمَن بَعَل عليكم أمرَكم فاقتـلوه. يعني من أبىٰ وخالـف. وفي روايـة: فإن بعـل أحدٌ علىٰ المسلمين يريـد تَشتّـتَ أمرِهم فقـدِّمـوه فاضربوا عنقـه. وهـذا

مردودٌ أيـضاً إلى معنىٰ العـلو والاستعـلاء. فإنَّ من يأبىٰ ويخالف عن الجماعة إنما يستعلي عليهم ويرىٰ لنفسه حقاً فوق حقوقهم. والله أعلم.

[ب غ ي]

يقول ربنا عز وجل، مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قولـه تعالىٰ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلب ربّاً سـواه. وهذه المادة «بغىٰ» تدلّ في أصل وضعها اللغوي علىٰ معنيين اثنين: أحدهما: طلبُ الشيء، والثاني: تجاوز الحدِّ المفضي إلىٰ فساد، فمن المعنى الأول يقـال: بغيتُ الشيء أبغيه: إذا طلبته، ويقال: بَغيتُك الشيءَ: إذا طلبته لك، وأبغيتُكَ الشيء: إذا أعنتـك على طلبه، ومن الفعل الثلاثيّ جاء الحديث: «ابْغِني أحجاراً أستطبْ بها» بهمزة الوصل، أي: اطلب لي. ومن الرباعي جاء الحديث: «أبغوني حديدة أستطبْ بها» بهمزة القطع، أي: أعينوني على طلبها. والمصدر من بَغَىٰ بمعنى طلب: بُغاء، ومنه حديثُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه «أنَّه خرج في بُغاءِ إبل» أي: في طلبها، جعلوا البُغاء بضم البـاء علىٰ وزن العلل والأدواء، كالعُطـاس والزُّكام، تشبيهاً بها لِشُغْل قلب الطالب بالداء.

وفي حديث الهجرة وخروج النبي ﷺ إلىٰ المدينة قال سراقة بن مالك: فبينا أنا جالسٌ أقبَلَ رجلٌ فقـال: إني رأيت آنفاً أسوِدةً بالساحل، أُراهم محمداً وأصحابه، قال: فقلت: ليسـوا بهم، ولكن رأيتُ فلاناً وفلانـاً انطلقوا بُغْياناً. البُغيان: الطالبـون الناشدون، وهو جمع باغٍ، مثل راعٍ ورُعْيان. وفي حديث الهجرة أيضاً: لقيهما رجلٌ بكُراع الغميم، فقال: من أنتم؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: باغٍ وهادٍ.

أراد بقوله: «باغٍ» بُغاءَ الإبل، وبقوله: «هاد» هداية الطريق، قال ذلك على سبيل التعريض والكناية، وهو يريد طلب الدِّين والهداية من الضلالة. ويقول الرجل للرجل: ما ينبغي لك أن تفعل كذا، أي: ما يصحُّ لك ولا يتسهَّل. وهو مطاوع بغى، تقول: بغيتُ فانبغىٰ، كما تقول: كسرتُه فانكسر، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] معناه: لا يصحُّ له الشعرُ، ولايتأتَّى منه، ولا يسْهُلُ عليه لو طَلَبه وأراد أن يقولَه، بل كان ﷺ إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر، متمثلاً به، كسَر وزْنَه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ

قال ويأتيك من لم تزوّدْه بالأخبار، وأنشد مرّةً أخرىٰ بيت العباس بن مرداس السُّلميّ:

أتجعل نهبي ونهبَ العُبَيْـ ـدِ بين عُيينةَ والأقرعِ

فقال: بين الأقرع وعينية، فخرج به من وزن الشعر، وأنشد أيضاً قول سحيم عبد بني الحسحاس:

كفىٰ بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله، إنما قال الشاعر:

كفىٰ الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

ثم قال: أشهد أنك رسول الله. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

قلنا: إن مادة (بغىٰ) تدل في أصل وضعها اللغوي على معنيين: أحدهما طلب الشيء وقد فرغت من تحقيقه والاستشهاد له. والثاني هو: تجاوزُ الحدِّ المُفْضي إلى فساد. فيقال بَغىٰ الجرحُ، أي: تجاوز الحَدَّ في فساده. وكل تجاوزٍ للحَدِّ: بَغْيٌ. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنه قال لرجل: «أنا أُبْغِضك». قال: لمَ؟

قـال: «لأنك تبْغي في أذانـك»: أراد التطريـب فيه والتمديـد، من تجـاوز الحـدّ. ويقـال: بغت المرأةُ تبغي بغـاءً، فهي بَغِيٌّ، إذا فَجَرت وزنت، وذلك لتجاوزها ما ليس لها من الفجور والزّنا قال عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣] وقال تقدست أسماؤه علىٰ لسـان مريـم عليها السلام: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] وهـذا مختـصٌّ بـزنا النساء، فلا يقال للرجل إذا زنا: إنه بَغيّ.

ويأتـي البغي بمعنـى الحسَـد، قـال تعـالـىٰ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البـقـرة: ٩٠] والمعنى أن اليهـود عليهم لعنة الله باعوا أنفسهـم بهذا الثمـن البخـس وهو ما عدَلوا إليـه ورضـوا به من الكفر بما أنـزل الله علىٰ محمـد ﷺ، وإنما حملهـم علـىٰ ذلك الحسـدُ والمنافسة مع معرفتهم بصدقـه وصـدق ما جاء به، وذلك قوله عز من قائل في الآيـة السـابـقـة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ويأتي البغـي في القرآن الكريم بمعنـىٰ الاستطالة على الناس والكبر، والفسادِ والظلم، فمن مجيئه بمعنى الكِبر والاستطالة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. أمّا مجيء البغي في القرآن الكريم بمعنى الظلـم والفساد فشواهده كثيـرة جداً. حفظنا الله وإياكم من الظلم والفساد وأشرب قلوبنا حُبَّ العدل والإصلاح.

[ب ق ي]

يقول تقدست أسماؤه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو تمييز وأولو طاعة. يقال: إن فلاناً لذو بقية، إذا كان فيه خير، ويقال أيضاً: في فلان بقية، أي: فضلٌ مما يمدح به. فهلاً وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهَوْن عما كان يقع بينَهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وهذا إخبارٌ عن الأمم الخالية وبيانُ أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من يَنْهَى عن الفساد ويأمر بالرشاد. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: ولهذا أمر الله تعالىٰ هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمرُ بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وروىٰ الإمام أحمد، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم».

وقال أبو منصور الأزهري: البقيَّةُ: الاسم من الإبقاء، كأنه أراد والله أعلم: أولو إبقاءٍ علىٰ أنفسهم لتمسُّكهم بالدِّين المرّضيِّ، والعرب تقول للعدوِّ إذا غلب: البقيَّةَ، أي: أبْقوا علينا ولا تستأصلونا. وقال عز وجل على لسان شعيب عليه السلام يخاطب قومه بعد أن نهاهم عن نقص المكيال والميزان: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦].

قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: طاعة الله. وقال أبو زكريا الفراء: ما أبقى الله

من الحلال خيرٌ لكم. وقال ابن جرير الطبريُّ: أي ما يفضُلُ لكم من الرِّبح بعد وفاء الكيل والميزان خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس.

وهذه المادة (بقي) تدلُّ علىٰ أصل واحد هو الدَّوام والثبات، يقال: بقي الشيء يبقىٰ بقاءً وهو ضدُّ الفَناء. وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ يعني الأعمال الصالحة التي يبقىٰ ثوابها، وهذا أجمعُ ما قيل في تفسير الباقيات الصالحات، وأخرج ابن جرير، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات». ونعم، إن تمثلَ المعاني الجليلة التي تتضمنها هذه الكلمات الكريمة والعمل بمقتضاها هما من أظهر الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم، وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٤٦] كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خيرٌ لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشَّفقةِ المفرطةِ عليهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ومن غريب مادة (بقىٰ) ما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله تعالىٰ عنه، قال: بَقَيْنا رسولَ الله ﷺ ذات ليلة في صلاة العشاء حتى ظننَّا أنه قد صلى ونام، ثم خرج إلينا فذكر فضل تأخير صلاة العشاء. قوله: «بَقَيْنا» أي: انتظَرْنا وتبصَّرْنا. يقال منه: بَقَيْتُ الرجل أبْقِيه بقْياً، أي: انتظرْتُه، ومنه أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصلاة الليل: فبقيتُ كيف يصلي النبيُّ ﷺ وفي رواية: كراهة أن يرىٰ أني كنت أبقيه، أي: أنظرُه وأرصُده، وتقول العرب: فلانٌ يبقي الشيءَ ببصره: إذا كان ينظر إليه ويرصده، وكذلك يقولون: بات فلانٌ يبقي البرق: إذا صار ينظر إليه أين

يلمع، قال شاعرٌ من فَزارة:

قدها جنىٰ الليلة برقٌ لامعُ　　　فبتُّ أبقيه وطرفي هامعُ

وجاء في حديث النبي ﷺ: «تَبَقَّهْ وتَوَقَّهْ» أي: استَبْقِ النّفس ولا تُعَرِّضْها للهلاك، وتحرَّزْ من الآفات. والهاء في تبقَّهْ وتوقَّهْ هاء السكت، والتبقي: بمعنى الاستبقاء، كالتقصِّي بمعنى الاستقصاء، وجاء في حديث الدُّعاء وذكر النار: «لا تُبْقي علىٰ من يَضْرع إليها». يقال: أبقيتُ عليه أبقي إبقاءً، أي: رحمته وأشفقت عليه، والاسم البُقْيا. قال اللعينُ المنقري، يخاطب جريراً والفرزدق:

فما بُقْيا عليَّ تركْتُماني　　　ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ

[ب ل س]

يقول ربنا عز وجل، مخبراً عن الأمم السابقة في شركهم وعنادهم، وعدم اللجوء إليه عند الشدة، والاغترار والغفلة عند النِّعمة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٥]. قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي: حائرون يائسون من كل خير. قال إبراهيم بن عرفة نفطويه: الإبلاس: الحيرة واليأس، ومنه سُمِّي إبليس، لأنه أبلس عن رحمة الله، أي: يئس منها وتحير. وقال أبو منصور الأزهري: مبلِسون: نادمون ساكتون متحسرون على ما فرط منهم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] أي: ينقطعون انقطاع يائسين. وكل من انقطع في حجته وسكت فقد أبْلَسَ. قال العجاج:

يا صاحِ هل تعرف رسماً مُكرَسا قال: نعم، أعرفُه وأبْلَسا

ومن ذلك يقال: أبلست الناقة، وهي مِبْلاسٌ: إذا لم تَرْغُ ـ أي: لم تُصَوِّت من شدة الضَّبَعَة، وهي إرادة الفحل.

ومن مجيء هذه المادة في الحديث ما روي أن النبي ﷺ كان في سفر، فرفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢]، فتأشَّب أصحابُه حوله وأبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة». وتأشَّبوا: أي: التفُّوا عليه، من أشَبِ الشجر، وهو التفافه، وأبلسوا: سكتوا، وما أوضحوا بضاحكة، أي: ما طلعوا بضاحكة وهي واحدة الضواحك من الأسنان. ونعود إلىٰ استلهام العبرة والاعتبار من قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فرُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: من وسَّع الله عليه فلم يرَ أنه يُمْكَرُ به فلا رأيَ له، ومَن قتَّر عليه فلم يرَ أنه يَنظرُ له فلا رأيَ له، ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أُخذوا. وقال قتادة: بَغَتَ القومَ أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلاَّ عند سكرتهم وغِرَّتهم ونَعْمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغترُّ بالله إلا القوم الفاسقون.

وقال مالكٌ عن الزهريّ: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: رخاءُ الدنيا ويسرُها. وروىٰ الإمام أحمد عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبدَ من الدّنيا علىٰ معاصيه ما يُحبّ، فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إذا أراد الله بقوم بقاءً أو نماءً رزقهم القصد والعفاف،

وإذا أراد الله بقـوم اقتطاعاً فتح لهم ــ أو فتح عليهم ــ باب خيانة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾» [الأنعام: ٤٥].

[ب ل غ]

يقول عزَّ من قائل، واصفاً كتابه الكريم: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] يقـول: هذا القـرآن ذو بـلاغٍ للناس، أي: ذو بيـان كافٍ، والبلاغـة: هي البيان الكـافي. والبـلاغ اسم مصدر يقوم مقام المصدر وهو الإبلاغ والتبليـغ، كما يقوم العطـاء مكان الإعطاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وقـوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣] أي: قولاً كافياً. يقال في فعله: بَلُغَ الرجل يبلُغ بلاغةً فهو بليغ، إذا كان يبلغ بلسانه كُنْهَ ما في ضميره.

وهذه المادة (بلغ) تدل على معنًى واحـد، تتفرع عنـه استعمالات شتىٰ، وهو الوصـول إلى الشيء، مكاناً كان ذلك الشـيء، أو زمانـاً، أو أمراً من الأمور، وقد تُسمّىٰ المشارفـةُ علىٰ الشـيء والدنوُّ منه بلوغاً، بحق المقاربة، وتصديق ذلك قوله تعـالـىٰ: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٢]، قـال الحافـظ عماد الدين بن كثيـر: يقول تعالـىٰ: فإذا بلغـت المعتـدّاتُ أجلهنَّ، أي: شارَفْنَ علىٰ انقضاء العِدّة وقاربْنَ ذلك، ولكن لم تفرغ العدَّةُ بالكلية، فحينئذ إمّا أن يعزم الزوج علىٰ إمساكها، وهو رجعتُها إلىٰ عصمة نكاحه، والاستمرارُ بها على ما كانت عليـه عنـده ﴿ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: محسنـاً إليها في صحبتهـا، وإمّا أن يعزم على

مفارقتهـا ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: من غير مُقابحةٍ ولا مشاتمةٍ ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن.

[ب ل و]

يقـول تقدسـت أسمـاؤه، مذكِّـراً بني إسرائيل وممتنّاً عليهم بإنقاذهم من أسْرِ فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عـدوهـم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]. قوله: ﴿بَـلَآءٌ﴾ أي: نِعمةٌ ومنَّة، وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَـلَآءٌ﴾ ـــ الإشارة إلى ما كان فيه بنو إسرائيل من العذاب المهين، من ذبـح الأبناء واستحياء النساء. قال القرطبي: وهذا قـول الجمهور، والبلاء هاهنا في الشـر. والمعنىٰ: وفي الذبـح مكروه وامتحان، وقـال أبو الهيثم: البلاء يكون حسناً، ويكون سيئاً، وأصله المحنة، والله يبلو عبده بالصنع الجميل، ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوىٰ التي يكرهها، ليمتحن صبرَه، فقيل للحسَن: بـلاء، وللسيِّء بلاء. والعـرب تسمـي الخيـرَ بلاءً، والشَّرَّ بلاءً، غير أنّ الأكثر في الشرّ أن يقال: بلوتُه أبلوه بلاءً، وفي الخير: أبليتُه أبلوه إبلاءً وبلاءً، ومن ذلك قولُ زهير بن أبي سلمى:

جزىٰ اللهُ بالإحسانِ ما فعَلا بكمْ ‏ ‏ ‏ ‏ وأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يبلو

فجمـع بين اللُّغتين؛ لأنه أراد: فأنعـم الله عليهمـا خيـرَ النعـم التي يختبر بها عبـاده. أفاد ذلك الإمام أبو جعفـر الطبـريّ، وهذه التفرقـة بين الفعلين: أبليتُه في الخير وبلوتُه في الشرّ، تُنْسب إلى ابن قُتيبة. وتعقبه مجد الدين بن الأثير، فقال بعد أن حكىٰ تفرقته: والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشّرِّ معاً، من غير فرق بين

فعليهما، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وهذه المادة: (بَلَوَ) تدلُّ علىٰ معنيين في أصل اللغة: أحدهما: إخلاقُ الشيء، والثاني: الاختبار والامتحان، ويُحمَل عليه الإخبار أيضاً. فمن استعمال المادة بمعنى إخلاق الشيء في القرآن الكريم قوله تعالى، على لسان إبليس عليه لعنةُ الله: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠] قوله: ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾، أي: لا يزول ولا ينقضي، يقال في فعله: بَلِيَ الشيءُ يَبْلَىٰ، المصدر: البِلَىٰ، ويقال: البَلاء، قال العجاج:

والمرءُ يُبليه بلاءَ السِّرْبالْ مرُّ الليالي واختلافُ الأحوالْ

واستعمال المادة بمعنى الاختبار والامتحان في الخير والشر كثير جداً في القرآن الكريمِ والحديثِ الشريف، ويردُّ الراغبُ الأصفهانيُّ المعنى الثاني إلى المعنى الأول، فيقول: «وبلوتُه: اختبرتُه، كأني أخلقْتُه من كثرة اختباري له، وسمِّي الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبْلي الجسمَ، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] وقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥] قال: وسُمِّي التكليف بلاءً من أوْجُه: أحدُها أنَّ التكاليف مَشاقٌّ علىٰ الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء، والثاني: أنها اختبارات، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] والثالث: أنَّ اختبار الله تعالىٰ للعباد، تارةً بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبرُوا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسَرُ من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحةُ أعظمَ البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: بُلينا بالضرَّاء فصَبَرْنا، وبُلينا بالسَّرّاء فلم نصبر، ولهذا قال أمير المؤمنين ــ يعني علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ــ: من وُسِّع عليه دُنياه فلم يَعْلم أنه قد مُكر به فهو مخدوع عن عقله، وقوله عز وجل ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] راجع إلى الأمرين، إلى المحنة التي في قوله

عز وجل ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وإلى المحنة التي أنجاهم في قوله ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]» . اهـ.

ومن استعمال المادة بمعنى الإخبار ما جاء في حديث أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة رضي الله عنها، حين ذكرت قول النبي ﷺ: «إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن فارقني، فقال لها عمر رضي الله عنه: بالله أمِنْهُم أنا؟ قالت: لا، ولن أُبلي أحداً بعدك» أي: لا أُخبر بعدك أحداً، وأصله من قولهم: أبليت فلاناً يميناً، إذا حلفت له بيمين طيبت بها نفسه، قال أوس بن حجر:

كأنَّ جديدَ الدار يُبْليك عنهمُ نقيُّ اليمينِ بَعدَ عهدِك حالفُ

قال ابن الأعرابيّ: يُبليكَ: يُخْبِرُكَ، وجاء في الحديث: «وتبقىٰ حثالةٌ لا يُباليهم الله بالة» وفي رواية: «لا يبالي بهم الله بالة» أي: لا يرفع لهم قَدْراً ولا يقيم لهم وزناً، وأصل بالة: بالية، مثل عافاه الله عافية، فحذفوا الياء منها تخفيفاً، كما قالوا: لم أبالِ، ولم أُبَلْ، فحذفوا الألف، ويقال: ما باليته وما باليت به، أي: لم أكترثْ به، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن رجل شرب لبناً، أيتوضأ؟ فقال للسائل: ما أباليه بالة، اسْمَحْ يُسْمَحْ لك.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زالت أُكْلَةُ خيبر تُعادُّني، فهذا أوان قطعت أَبْهرِي».

الأبهر: عرق مستبطنٌ في الصلب، والقلب متصلٌ به، فإذا انقطع مات صاحبه.

قال الشاعر:

وللفؤادِ وَجيبٌ تحتَ أبْهَرِه لَدْمَ الغُلامِ وراءَ الغَيبِ بالحجرِ

واللّدم: الضرب.

[ب و أ]

يقول ربنا عز وجل في شأن المعاندين من بني إسرائيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]. قوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا بغضب الله ولزمهم. يقال: باء بكذا، أي: رجع به، ولا يقال: باء إلا موصولاً، إما بخير، وإما بشر، يقال منه: باء فلانٌ بذنبه يبوء به، ومنه قوله تعالىٰ في قصة قابيل وهابيل: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وهذه المادة (بوأ) ترجع إلىٰ معنيين اثنين في أصل اللغة، أحدهما: الرجوع إلى الشيء ولزومه، والثاني: تساوي الشيئين، فمن استعمالها في معنىٰ الرجوع واللزوم ما سبق من الآيتين الكريمتين، ومنه قوله ﷺ، في دعائه ومناجاته وهو الدعاء المسمَّىٰ سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلاَّ أنت». قوله عليه السلام: «أبوء» أي: ألتزم وأرجع وأُقر.

ومنه الحديث: «فقد باء به أحدهما» أي: التزمه ورجع به، ومنه حديث وائل ابن حُجْر: «إن عفوت عنه يبوء بإثمه وإثم صاحبه» أي: كان عليه عقوبةُ ذنبه وعقوبةُ قتل صاحبه، فأضاف الإثم إلى صاحبه، لأن قتْلَه سببٌ لإثمه. وفي رواية: «إنْ قَتَلَه كان مثله» أي: في حكم البواء، ولما كان الإنسان يرجع إلى منزله ويقرُّ فيه ويلازم سكناه سمّي منزل القوم: باءةً ومَباءةً ومُبَوَّءاً ومُتَبَوَّءاً، قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [يونس: ٩٣]، أي: أنزلناهم منزلاً صالحاً،

وقال في شأن الأنصار رضوان الله عليهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ أي: أقرُّوها واتخذوها مسكناً. وللنحويين في عطف الإيمان على الدار في هذه الآية كلام، وذلك أن التَبوُّء في الأصل إنما يكون للمكان، فكيف صرفه أيضاً إلى الإيمان، وهو معنًى وعقيدة، قالوا: جعل الإيمان مثل الدار؛ لتمكنهم فيه، تنزيلاً للحالِّ منزلة المحلِّ.

وقال أبو علي الفارسي: إن «الإيمان» منصوب بفعل غير الفعل المذكور، والتقدير: تَبَوّءوا الدار واعتقدوا الإيمان، أو وأخلصوا الإيمان، ويجوز أن يكون علىٰ حذف مضاف، أي: تبوءوا الدار وموضع الإيمان، كما قالوا ــ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] ــ: إن التقدير: واسأل أهل القرية، ويجوز أن يكون (تبوءوا) مضمَّناً معنىٰ لزموا، والتقدير: لزموا الدار والإيمان. وروي أن النبي ﷺ قال في المدينة: «هاهنا المتبوَّأ».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١]، أي: تُنْزِلُهم مراكزَهم في مصافِّهم للحرب: الميمنة والميسرة، والقلب، والطلائع، والكمين، وفي الحديث: «من كذب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار» أي: لينزلْ منزله من النار، وفيه أيضاً: « من سرَّه أن يمثُلَ له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وقوله عليه السلام: «فليتبوّأ» في الحديثين جاء علىٰ صيغة الأمر، ومعناه الخبر. كأنه قال: من فعل ذلك وجب له أن ينزل منزلَه من النار، وحُقَّ له ذاك. ولما كانت الباءةُ والمباءة بمعنى المنزل، قيل لعقد النكاح، وللنكاح نفسه: باءة، لأن من تزوج امرأة بوَّأها منزلاً، أي: اتخذ لها منزلاً، وقيل: لأن الرجل يتبوّأ من امرأته، أي يستمكنُ منها، كما يتبوأ من منزله، وفي الحديث: «عليكم بالباءة». ومنه الحديث الآخر: «أن امرأة مات عنها زوجُها، فمرَّ بها رجل وقد تزيَّنت للباءة»

أي: النكاح والتزوج.

ومن استعمال مادة (بوأ) بمعنىٰ تساوي الشيئين ما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية. قالوا: كان بين حيَّيْنِ من العرب قتال، وكان لأحد الحيَّيْن طولٌ وتطاولٌ على الآخرين، فقالوا: لا نرضىٰ إلاّ أن يُقتلَ بالعبد منّا الحرُّ منهم، وبالمرأة الرجلُ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يتباءَوْا، بوزن يتباعَوْا. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: هو عندي: يتباوَءُوا، مثل يتقاوَلُوا. وفي حديث آخر أنه عليه السلام قال: «الجراحاتُ بَواء» يعني أنها متساوية في القصاص، وأنه لا يُقْتَصُّ للمجروح إلاَّ من جارحه الجاني عليه بعينه، وأنه مع هذا لا يؤخذ إلا مثلُ جِراحته سواء، فذلك البواء، قالت ليلىٰ الأخيلية في مقتل توبة ابن الحُمَيِّر:

فإن تكن القتلىٰ بواءً فإنكم فتىً ما قتلتُمْ آل عوفِ بنِ عامرِ

وقيل لجعفر الصادق: ما بال العقرب مغتاظةً علىٰ ابن آدم؟ فقال: تريد البَواء، أي: تؤذي كما تُؤْذَىٰ.

[ب و ر]

يقول تقدست أسماؤه، في شأن كفار قريش: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قام فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليومَ أحداً أعلمَ به مني وإن كان من وراء البحر لأتيتُه، فقام عبد الله بن الكوّاء فقال: مَنْ ﴿ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾؟ قال عليّ: مشركو قريش، أتتهم نعمةُ الله، الإيمان، فبدّلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا

قومهـم دار البوار. وقوله عز وجل: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أي: دار الهلاك، وهي جهنم نعوذ بالله منها، وذلك قوله تعالىٰ في الآية التالية: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وهذه المادة (بور) تدلّ في أصل اللغة علىٰ معنيين: أحدُهما: هلاك الشيء، وما يشبـه الهلاكَ من التعطّـل والخُلُوِّ والكسـاد، والمعنـى الآخـر: ابتـلاءُ الشيء واختباره وامتحانه. فمن استعمالها بمعنى الهلاك: ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وأيضـاً قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمَۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] أي: هلكىٰ، يقال: رجلٌ بُورٌ، وقومٌ بُورٌ، ويكون بورٌ جمعَ بائر، وقد بار يبُورُ: إذا بطل وهلك، والاسم البَوارُ، قال الشاعر:

فلـم أرَ مثلَهـم أبطـالَ حـربٍ غَداةَ الحربِ إذ خيفَ البَوارُ

وقال يعقوب بنُ السكّيـت: البُـورُ: الرجلُ الفاسـدُ الذي لا خير فيه، وأنشد لعبد الله بن الزبعرى رضي الله عنه:

يـا رسـولَ المليـكِ إنَّ لسـانـي راتـقٌ مـا فَتَقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ

وقـال أبو زيـد: إنه لفي حُور وبُور، أي: ضَيْعـة. وقال عزّ من قائل في شأن عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] أي: يرجون تجارة لن تكسُد، يقال: بارت السوقُ: إذا كسَدتْ ونامت. وفي الحديث: «نعوذ بالله من بَوار الأيِّم» أي: كسادها. وهذا في المعنىٰ كحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من حظِّ المرء نَفاق أيِّمه»، أي: من حظِّه وسعادته أن تُخطبَ إليه نساؤُه من بناته وأخواته، ولا يكْسَـدْنَ كسـادَ السلع التي لا تَنفُـق. وفي كتاب النبيِّ ﷺ لأكَيْدر دُومة: «وإن لكم البَوْرَ والمعامي» البَورُ: الأرضُ التي لم تُزْرَع، والمَعامي: المجهولة. والبَوْرُ في

هذا الحديـث يروىٰ بفتح البـاء، ويُروَىٰ بضمهـا، وهو بالفتـح مصـدرٌ وُصف به، وبالضـم، جمعُ البوار.

ومن مجيء هذه المـادة (بور) بمعنى ابتلاء الشيء واختباره وامتحانه، ما جاء في حديـث علقمـة الثقفـيّ رضي الله عنه، قـال: كنـت في الوفد الذين قدموا علىٰ رسـول الله ﷺ، فضَرَب لنا قبّتيـن، فكان بلال رضـي الله عنه يأتينـا بفطْرنا، ونحن مسفـرون جداً، حتى والله ما نحسـب إلاّ أن ذاك شيءٌ يبتارُ به إسلامنا، وكان يأتينا بطعامنا للسُّحور ونحن مسْدِفون، فيكشف القُبّة فيَسْدِفُ لنا طعامنا. قوله: «يُبتارُ به إسلامُنا» أي: يُخْتبَر ويُمْتَحَن، وأراد أنه كان يُعجِّل الفُطور ويؤخِّر السُّحور امتحاناً واختباراً لهم. ومن الابتيار بمعنى الاختبار أيضاً: ما رواه عونُ بن عبد الله بن عتبة ابن مسعـود وكان من آدب أهل المدينـة وأفقههـم، وكان راويةً ناسباً قاصّاً، قال: بلغني أن داود سأل سليمان صلواتُ الله عليهما وهو يَبْتارُ علمَه، فقال: أخبرني، ما شَرُّ شيء؟ قال: امرأةُ سُوءٍ، إن أعطيتها باءتْ وفخَرتْ، وإن منعتَها شكَتْ ونَفَرتْ. قوله: «يبتار علمه» أي: يختبرُه، وقوله: «باءت» أي: تكبَّرتْ.

[ب هـ ل]

يقـول عزّ من قائل في شأن نصارىٰ نجران الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ يحاجّون في عيسـىٰ عليه السلام، ويزعمـون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهيّة، فيخاطب سبحانه نبيه محمداً عليه السلام: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. قـولـه تعـالـىٰ: «نبتهـل» أي: نَلْتِعـن، وابتهـل في الدعاء، أي: أجتهد، قال جار الله الزمخشريُّ في «الفائق»: «المباهلَةُ، مفاعلة من

البَهْلـة، وهي اللعنـةُ، ومأخـذها من الإبهال، وهو الإهمال والتخلية؛ لأن اللعنَ والطردَ والإهمالَ من وادٍ واحد. ومعنىٰ المباهلـة: أن يجتمعوا إذا اختلفوا فيقولوا: بَهْلَةُ الله علىٰ الظالم منّا». وقال في «الكشاف»: ثم استُعمل ــ أي الابتهال ــ في كلّ دعاءٍ يجتهد فيه وإن لم يكـن التعاناً، وفي كـلام أبـي بكـر رضي الله عنه: من وَلِيَ من أمر الناس شيئـاً فلم يُعطهـم كتابَ الله فعليـه بَهْلـةُ اللّه. أي: لعنتـه. ويقـال: بَهْلة وبُهْلة. ومن المباهلة حديثُ ابن عباسٍ رضيَ اللّه عنهما: من شاء باهَلْتُـه أنّ الله لم يذكـر في كتابه جدًّا، وإنما هـو أبٌ. وفي حديـثٍ آخرَ له، قال: من شاء باهلْتُه أن الظِّهـارَ ليـس من الأمـة، إنمـا قـال الله عز وجـلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٣].

[ب هـ م]

يقول ربنا عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائـدة: ١]. قولـه: بهيمة الأنعـام: الأنعام كلها بهائـم، وسميـت الأنعـام بهائم لأنها استبهمت عن الكلام، يقال: استبهـم الشيءُ: إذا استغلق، ويقـال: أبهمتُ الباب: أي: أغلقته إغلاقاً لا يُهْتَـدَىٰ لفتحـه، وليـلُ بهيـم، أي: أُبْهِم أمـره بسبب الظُّلمـة. وقـال أبـو منصورٍ الأزهريُّ: البهيمة في اللغة: معناها المبهَمةُ عن العقل والتمييز.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان إذا نزل به أحدىٰ المُبهَمات كشفها. يريد: مسألةً معضلةً شاقة، قيل لها: مبهمة؛ لأنها أَبْهَمت عن البيان، فلم يُجعَل عليها دليل، ومنه قيل لما لا ينطِق: بهيمة. وجاء في الحديث: «يُحشَرُ الناسُ يوم القيامـة عراةً حفاةً بُهْماً». قال أبو عمرو الشيبانيّ: البُهْم: واحدُها بهيم، وهو

الذي لا يخالط لونَه لونٌ سواه من سواد كان أو غيره، قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: معناه عندي أنه أراد بقوله: «بُهْماً» يقول: ليس فيهم شيء من الأعراض والعاهات التي تكون في الدنيا، من العمىٰ والعرَج والجُذام والبـرص، وغير ذلك من صنوف الأمراض والبلاء، ولكنها أجسادٌ مُبهمةٌ مصحَّحة لخلـود الأبد. وقال بعض بعضهم في تمام الحديث: قيل: وما البُهْم؟ قال: «ليس معهم شيء». قال أبو عبيد: وهذا أيضاً من هذا المعنىٰ، يقول: إنها أجسادٌ لا يخالطها شيء من الدنيا كما أن البهيم من الألوان لا يخالطه غيره.

وفي حديث الإيمان والقدر، قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة رعاءَ الإبل والبَهْم يتطاولون في البنيان». البَهْمُ ـ بفتح الباء ـ: جمع بَهْمة، وهي ولـد الضأن الذكرُ والأنثى، وجَمْع البَهم: بِهام، وجاء في رواية: «رُعاةَ الإبلِ البُهُمَ» بضـم الباء والهاء، علىٰ أنه نعت للرعاة، وهم السُّود. قال أبو سليمان الخطابي: والبُهُم، بالضم: جمع البهيم، وهو المجهول الذي لا يعرف.

ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]. ولـم يُبيّن أدخل بهنّ الابنُ أم لا، فقال: أبهِمُوا ما أبهم الله.

قال أبو منصـور الأزهـريُّ، فيما حكى عنه أبو عبيد الهروي: رأيت كثيراً من أهل العلم يذهبون بهذا إلىٰ إبهام الأمر واستبهامه، وهو إشكالُه، وهو غَلط، فقوله تعـالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء: ٢٣] هذا كلُّـه يسمَّىٰ التحريمَ المبهَـمَ؛ لأنه لا يحـلُّ بوجه من الوجوه، كالبَهيم من ألوان الخيل الذي لا شية فيه تخالفُ معظمَ لونه. ولما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قـوله: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ـ ولـم يبيِّـن الله تعـالىٰ الدخـول بهنّ ـ أجاب فقال: هذا من مُبْهَم التحريم، الذي لا وجْـهَ فيه غير التحريم، سواءٌ دخلتم

بالنساء أم لم تدخلوا بهنّ، فأمهات نسائكم حُرِّمْن عليكم من جميع الجهات. وأما قوله: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] فالربائب هاهنا ليس من المبهمة، لأن لهنّ وجهين، أُحْلِلْن في أحدهما وحرِّمن في الآخر، فإذا دخل بأمهات الربائب حَرُمْن، وإن لم يُدْخَل بهنّ لم يَحرُمْنَ، فهذا تفسير المبهم الذي أراد ابن عباس، فافهمه. انتهىٰ كلام الأزهري. قال مجد الدين ابن الأثير: وهذا التفسير منه إنما هو للربائب والأمهات، لا لحلائل الأبناء، وهو في أول الحديث إنما جعل سؤالَ ابنِ عباس، عن الحلائل، لا الربائب والأمهات.

[ب ي ت]

يقول عزّ من قائل مخبراً عن المنافقين الذين يُظهرون الموافقة والطاعة ويضمرون المخالفة والعصيان: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]. قوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: غيروا قولك وبدَّلوه. يقال: بيَّت فلانٌ رأيه: إذا فكّر فيه ليلاً، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. وقال أبو اسحاق الزّجاج: كلُّ مافُكِّر فيه أو خِيضَ فيه بليل فقد بُيِّت. يقال: هذا أمرٌ قد دُبِّر بليل، وبُيِّـت بليل، بمعنًى واحد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] قوله ﴿بَيَٰتًا﴾: أي: ليلاً، وهو اسمٌ من بيَّت يبيِّت تبييتاً وبياتاً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، أي: لنوقعن به بياتاً، أي: ليلاً.

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يبيِّتُ مالاً ولا يقيِّله» أي: إذا

جاءه مالٌ من الصدقة لم يُمسكه إلى الليل ولا إلى القائلة، وهي نصف النهار، بل يُعَجِّل قسْمتَه. وفي شعر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يمدح النبي ﷺ:

حتى احتوىٰ بيتُك المهيمنُ من خنـدفَ عَلْيـاءَ تحتَهـا النُّطُـقُ

أراد ببيته شرفَه العالي فجعله في أعلىٰ خندِفَ بيتاً. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله ﷺ علىٰ بيتٍ قيمته خمسون درهماً». أي: على متاع بيت، أو فرْشِ بيت، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مُقامه. قال الزمخشري: وروي على «بتٍّ» وهو الكساء، وقيل: الطيلسان من خز.

[ب ي ن]

يقول ربنـا تقدسـت اسمـاؤه واصفـاً كتابـه العـزيـز: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ال عمران: ١٣٨]. قوله: ﴿ بَيَانٌ ﴾ أي: فصلٌ بين الحقِّ والباطل.

وهذه المادة «بيَن» تدل علىٰ أصل واحدٍ في اللغة، وهو بُعْدُ الشيء وانكشافُهُ وظهوره، ثم تتفـرع إلىٰ استعمـالات كثيـرة ترجع إلى هذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣ ـ ٤]. البيـان: هـو الفصـل بين كل شيئيـن. يقـال: بان: أي فارق، وأبـان: إذا فصـل بين شيئين. ويقال: بـانَ لك الشيءُ وأبانَ، واستبان، وبيَّن، وتبيَّن. كلّه بمعنى واحدٍ، وهو الظهور والانكشاف، ومنـه قولـه عـز من قائـل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. أي: لتتبيَّن سبيلهـم من سبيل المؤمنين، وهذا علـى قـراءة «سبيـلُ» بالرفع، وقرىء: ﴿وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلَ ٱلمُجْرِمِيْنَ﴾ بالنصـب، أي: ولتستبيـن أنت يا محمدُ. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ

﴿تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]. قولـه: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تقطـع ما كنتـم فيـه من الشِّركة بينكم، أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل. و«بين» علىٰ هذا التأويل: ظرف منصوب. قال القرطبي: فيكون المعنى: لقد تقطع وصلُكم بينكم، ودلَّ علىٰ حذف الوصل ــ وهو فاعل تقطع ــ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] ــ فـدلَّ هذا علىٰ التقاطـع والتهـاجر بينهم وبين شركائهم إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم، ومقاطعتهم لهم هي: تركهـم وصلَهم لهم، فحسُـن إضمار الوصـل بعد «تقطـع» لدلالة الكلام عليه. وقرىء ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُـكُمْ﴾ بالرفع، علىٰ جعل «بين» اسماً مرفوعاً علىٰ الفاعلية لتقطع. والمعنى: لقد تقطـع شملُكـم ووصلُكم. وقوله تعالـىٰ على لسان الخضر يخاطب موسى عليهما السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]. قال أبو إسحاق الزجاج: المعنى: هذا فِراقُ بيْنِنا، أي: هذا فراق اتصالنا. وإنما قال: بيني وبينك توكيداً، كما يقال: أخـزىٰ الله الكاذب منّي ومنـك، ومعنـاه: مِنّـا. وواضـحٌ ــ مما سقتـه من الآيات الكريمة ــ أنَّ البين يكون فُرقةً ويكون وصْلاً، ويكون ظرفاً، ويكون اسماً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]. قوله تعالىٰ: ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرىء بالكسر هكذا: مبيِّنات، أي: موضِّحـات مفسِّرات، وقرىء بالفتح: مبيَّنات، أي: أن الله بيَّنها، فلا لَبْسَ فيها ولا غموض. وهذه الآية من الآيات الكريمة التي وصفت القرآن العظيم. وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في وصف القرآن: فيه حُكمُ ما بينكم، وخبرُ ما قبلكم، ونبأُ ما بعدَكم. وهو الفصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]. قوله: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: أنا على أمرٍ بيِّنٍ وحُجةٍ وبرهان، ولستُ متّبعاً هوى.

روي أن قيس بن عاصم والزّبرقان بن بدر وعمرَو بن الأهتم قدموا علىٰ النبي ﷺ فسأل النبيُّ عليه السلام عمراً عن الزبرقان فأثنىٰ عليه خيراً، فلم يرض الزبرقانُ بذلك. فقال: والله يارسول الله، إنه ليعلمُ أني أفضل مما قال، ولكنه حسدني مكاني منك، فأثنىٰ عليه عمرو شراً، ثم قال: واللّه يا رسول الله، ما كذبتُ عليه في الأولىٰ ولا في الآخرة، ولكنه أرضاني فقلت بالرضا، وأسخطني فقلت بالسخط. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحراً». قال أبو سليمان الخطابي، فيما حكى عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح»: البيان اثنان: أحدهما ما تقع به الإبانةُ عن المراد بأي وجه كان، والآخر ما دخلته الصنعة، بحيث يروق السامعين، ويستميل قلوبهم، وهو الذي يُشَبَّه بالسحر إذا خلب القلب وغلب علىٰ النفس، حتى يحوِّلَ الشيء عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرِضٍ غيره، وهذا إذا صُرف إلى الحقّ يمدح، وإذا صرف إلىٰ الباطل يُذمّ. قال: فعلى هذا، فالذي يُشَبّه بالسحر منه هو المذموم. هذا كلام الخطابي في شرح الحديث، وقد تعقبه الحافظ ابن حجر في كلام طويل نفيس تراه في: باب «إن من البيان سحراً» من كتاب الطب في «فتح الباري».

وروي أن صعصعة بن صُوحان قال حين سمع هذا الحديث: صدق رسول الله ﷺ: «الرجلُ يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحُجَّة من صاحب الحق، فيسحرُ الناسَ ببيانه فيذهب بالحق». وقال مجد الدين بن الأثير: البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب، وأصله الكشف والظهور. وقيل: معناه أن الرجل يكون عليه الحقُّ وهو أقومُ بحُجّته من خَصْمه فيقلبُ الحقَّ ببيانه إلىٰ نفسه؛ لأن معنىٰ السحر قلب الشيء في عين الإنسان؛ وليس بقلب الأعيان، ألا ترىٰ أن البليغ يمدح إنساناً حتى يصرف قلوب السامعين إلى حبه، ثم يذُمه حتى يصرفها إلىٰ بغضه؟ قال: ومنه: «البَذَاءُ والبيان شعبتان من النفاق»، أراد أنهما خصلتان منشؤهما النفاق. أما البذاء ــ وهو الفحش ــ فظاهر، وأما البيان فإنما أراد منه بالذم

التعمُّقَ في النُّطـق، والتفاصـح، وإظهار التقـدّم فيه على النـاس، وكأنـه نـوعٌ من العُجْب والكِبْر، ولذلك قال في رواية أخرىٰ: «البذاء وبعضُ البيان»؛ لأنـه ليس كل البيان مذموماً. انتهى كلام ابن الأثير. وقد جاء في شعر حكيم يُنسب لابن الرومي:

فـي زُخـرفِ القـولِ تـزيـنٌ لبـاطلِـهِ ... والحـقُّ قـد يَعتَـرِيـهِ سُـوءُ تعبيـرِ
تقولُ: هذا مُجَاجُ النحلِ تمدَحُهُ ... وإن تعِبْ قلتَ: ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مدْحاً وذَماً وما جاوَزْتَ وصفَهما ... حسْنُ البيانِ يرىٰ الظلماءَ كالنُّورِ

نسأل اللّهَ أن يرزُقنا الصدق في القول والعمل.

❋ ❋ ❋

﴿ ت ﴾

[ت ب ع]

يقول تقدستْ أسماؤُه: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ [يونس: ٩٠]. قال ابن عرفة نفطويه: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾: أي لحقهم أو كاد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾، أي: لحقه. قال أبو زكريا الفراء: يقال: تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه. وقال أبو محمد بن اليزيديّ، كأن أتبعه أي: قفاه، واتَّبَعه مشدَّد: حذا حذوه، ولا يجوز أن يقال: أتْبعناك وأنت تريد: اتَّبعناك، لأن معناه: اقتديْنا بك، ويقال: ما زلتُ أتَّبعه حتى أتْبعْته، أي: لحقْتُه.

وهذه المادة (تبع) تدل علىٰ معنىٰ القَفْو واللحوق، ولهذا قيل: إن ملوك اليمن سُمُّوا تبابعة، لأنه إذا مات الواحدُ منهم تبعه الآخر، فكان بدلاً منه. قال تعالىٰ: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾، [الدخان: ٣٧] وفي الحديث: «لا تسُبّوا تُبَّعاً، فإنه أولُ مَن كسا الكعبة». وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ [إبراهيم: ٢١]، هو جمع تابع، كما تقول: خادمٌ وخدمٌ.

وفي الحديث: «مطلُ الغنيِّ ظُلْم، وإذا أُتْبع أحدكم علىٰ مليءٍ فليَتْبَعْ» معناه: إذا أحيل أحدكم علىٰ مليء ــ أي: قادر ــ فليحْتَلْ» من الحوالة. والتَّبيع: الذي يتبَعُك بحقٍّ يطالبك به، ومنه قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ

تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]. أي: تابعاً مطالباً بالثأر، والتَّبيع أيضاً الذي يأتي في أحاديث الزكاة: هو ولد البقرة أوّلَ سنة، ومنه حديث معاذ رضي الله عنه: «في كلِّ ثلاثين تبيع». وبقرةٌ مُتْبِع، أي: معها تبيعٌ، وهو ولدها. ومنه الحديث: « أن فلاناً اشترىٰ معدناً بمائة شاةٍ مُتْبع»، أي: يتبعها أولادها. وفي حديث قيس بن عاصم المِنْقَريّ، قال: يا رسول الله، ما المال الذي ليس فيه تَبعةٌ من طالب ولا ضيف؟ فقال: «نعم المالُ: أربعون والكثر ستون، وويل لأصحاب المئين، إلاَّ من أعطى الكريمة، ومنح الغزيرة، وذبح السمينة، فأكل وأطعم القانع والمعترّ»، يريد بالتبعة: ما يتبع المال من الحقوق، وهو مأخوذ من: تبعْت الرجُلَ بحقِّي وتابَعْتُه، ومنه حديث أبي واقد الليثيّ: تابَعْنا الأعمال فلم نجد شيئاً أبلغ في طلب الآخرة من الزُّهد في الدنيا. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله : تابعنا الأعمال ، أي: أحكمناها وعرفناها، يقال للرجل إذا أتقن الشيء وأحكمه: قد تابَعَ عملَه، وقال أبو زكريا الفراء: يقال: هو تبيع الكلام: أي محكَمُه. وفي حديث أبي موسىٰ الأشعريّ رضي الله عنه: «إنّ هذا القرآن كائنٌ لكم أجراً، وكائنٌ عليكم وزراً، فاتّبعوا القرآن ولا يتَّبعنّكم القرآن، فإنه من يتّبع القرآن يهبطْ به علىٰ رياض الجنة، ومن يتبعْه القرآن يَزُخُّ في قفاه حتى يقْذف به في نار جهنم». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: «اتَّبعوا القرآن» أي: اجعلوه أمامكم ثم اتلوه، كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١]. وروى بسنده عن عكرمة ــ في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال: يتبعونه حقَّ اتباعه، إلا ترىٰ أنك تقول: فلانُ يتلو فلاناً؟ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ــ ٢].

قال أبو عبيد: وأما قوله: «لا يتبعنَّكم القرآن» فإن بعض الناس يحمله علىٰ معنى: لا يطلبَنَّكم القرآن بتضييعكم إياه، كما يطلب الرجل صاحبه بالتبعة، وهذا معنى حسن، يصدِّقه الحديث الآخر: «إن القرآن شافع مشفَّع، وماحلٌ مصدَّق»، فجعله يمحَلُ بصاحبه، أي: يسعىٰ به إذا لم يتّبعْ ما فيه، يعني أنّ من اتَّبع القرآن وعمل بما فيه فإنه شافعٌ له مقبول الشفاعة، ومصدَّقٌ عليه فيما يُرفَع من مساوئه إذا

ترك العمل به، قال أبو عبيد: وفيه قولٌ آخر هو أحسن من هذا: قوله: ولا يتبعنَّكم القرآن، يقول: لا تَدَعُوا العملَ به فتكونوا قد جعلتموه وراء ظهوركم، وهو أشدُّ موافقة للمعنى الأول؛ لأنه إذا تبعه كان بين يديه، وإذا خالفه كان خلفه، ومن ذلك حديثٌ يروىٰ عن الشعبيّ في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. قال: أما إنه كان بين أيديهم ولكنهم نبذوا العمل به. قال أبو عبيد: فهذا يبيِّن لك أن من رفض شيئاً فقد جعله وراء ظهره. وفي حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما، قال: بينا أنا أقرأ آية في سكة من سكك المدينة إذ سمعت صوتاً من خلفي: أَتْبِعْ يا ابنَ عباس، فالتفتُّ فإذا عُمرُ، فقلت: أُتْبِعُك علىٰ أُبيّ بن كعب. قول عمر رضي الله عنه: أتْبعْ يا ابن عباس: أي أَسْنِدْ قراءتك ممَّن أخذْتَها، وأحلْ علىٰ من سمعْتَها منه. وفي حديث الدعاء: «تابعْ بيننا وبينهم علىٰ الخيرات» أي: اجعلنا نتَّبعهم علىٰ ما هم عليه.

[ت ر ب]

يقول ربنا عز وجل مبيِّناً لعباده طرق الطاعة، التي فيها النجاة والخير: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ــ ١٦]. قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: فقيراً مدقعاً، لاصقاً بالتراب، قال ابن عباس: ذا متربة: هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب. يقال: ترِب الرجل: إذا افتقر، وأتْرب: إذا استغنى، كأنه صار له من المال بقدر التراب، أي: في الكثرة والوفرة. وفي الحديث: «أُحثوا في وجوه المدَّاحين التراب» قيل: أراد به الردَّ والخيبة، كما يقال للطالب المردود والخائب: لم يحصل في كفه غيرُ التراب، وقريبٌ منه قوله ﷺ في حديث آخر: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر». أي: أن الولد لصاحب الفراش من الزوج أو

السيد، وللزاني الخيبة والحرمان، وقيل: أراد به التراب خاصة، واستعمله المقدادُ بن الأسود علىٰ ظاهره، وذلك أنه كان عند عثمان بن عفان، فجعل رجلٌ يُثني عليه، وجعل المقدادُ يحثو في وجهه التراب، فقال له عثمان: ما تفعل؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «احثوا في وجوه المداحين التراب»، وأراد بالمدَّاحين الذين اتخذوا مدح الناس عادةً، وجعلوه صناعةً ونفاقاً، يستأكلون به الممدوح. فأمّا من مدَح علىٰ الفعل الحسن، والأمر المحمود، ترغيباً في أمثاله، وتحريضاً للناس علىٰ الاقتداء به في أشباهه، فليس بمدّاح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول. ومن ذلك الحديث الآخر: «إذا جاء من يطلب ثمن الكلب فاملأ كفه تراباً»، يجوز حمله علىٰ الوجهين السابقين من إرادة التراب نفسه، أو الردِّ والخيبة.

وفي حديث أبي هريرة، أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «تُنكح المرأة لأربع؛ لمالها ولحسَبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». قيل: الصحيح في معنى هذا الحديث أن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس في العادة، فإنهم يقصدون عند الزواج هذه الخصال الأربع، وآخرها عندهم ذاتُ الدِّين، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين؛ لأنه ﷺ أمر بذلك. وقوله: «تربت يداك» من قولهم: ترِبَ الرجلُ: إذا افتقر، كما سبق، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يروْن ــ والله أعلم ــ أن النبي ﷺ لم يتعمد الدعاء عليه بالفقر، ولكنها كلمةٌ جاريةٌ على ألسنة العرب، يقولونها وهم لا يريدون وقوع الأمر. وذهب ابن عرفة نِفطويه في تفسير الحديث إلىٰ ما يُعطيه ظاهرُه، فقال: أراد: تربتْ يداك إن لم تفعل ما أمرْتُك، وقال أبو بكر بن الأنباري: معناه: لله درُّك إذا استعملتَ ما أمرتك به، واتعظت بعظتي. قال: وذهب بعضُ أهل العلم إلىٰ أنه دعاءٌ عليه، على الحقيقة.

والمحققون من العلماء علىٰ أن النبيَّ ﷺ أراد بقوله: «تربت يداك» الحثَّ علىٰ الفعل، والمَثَلَ، ليَرىٰ المأمورُ بذلك الجِدَّ، وأنه إن خالفه فقد أساء. واستدلّوا علىٰ

ذلك بقولـه ﷺ في حديـث خزيمـة السُّلمي: «انعَمْ صباحاً تربتْ يداك»، فهذا يدلُّ علىٰ أنه ليس بدعاءٍ عليه، بل هو دعـاءٌ له، وترغيبٌ في استعمال ما تقدمت الوصيةُ به، ألا تراه قال: انعَمْ صباحاً، ثم عقّبـه بقولـه: تربت يداك، والعرب تقول: لا أمَّ لك، ولا أبَ لك، وقاتله الله، وغيرَ ذلك من الألفـاظ التي ظاهرها الذّمُّ، ولكنها ترجع إلىٰ معنىٰ التعجّب والاستحسان. ومن ذلك قولُ كعب بن سعد الغنويِّ، يَرثي أخاه أبا المغوار:

هوَتْ أمُّه ما يَبعَثُ الصبحُ غادياً ... وماذا يؤدّي الليلُ حين يؤوبُ

فظاهره: أهلكه الله، وباطنه: لله درُّه. ومن ذلك أيضاً قولُ جميل بن معمر:

رمـىٰ الله فـي عينـيْ بُثينـة بـالقَـذَىٰ ... وفي الغُرِّ من أنيابِها بالقوادحِ

أراد: لله دَرُّها، ما أحسنَ عينيها، وأراد بالغُرّ من أنيابهـا: ساداتِ أهل بيتها. وفي حديث أنسٍ رضي الله عنه: لم يكن رسولُ الله ﷺ سبّاباً ولا فحاشاً، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: «تَرِبَ جَبينُهُ»، قيل: أراد به دعاءً له بكثرة السجود.

يأتي من هذه المادة «**ترب**»: التَّرائبُ، وهي ضلوع الصدر، الواحدة: تَرِيبة، قال عزَّ من قائل: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] أي: أن الولد يخرج بقدرة الله من صُلْب الرجل وترائب المرأة. وعن ابن عباس أنه قـال: هذه الترائـب، ووضع يده علـىٰ صـدره. وعن مجاهد: الترائب: ما بين المنكبين إلىٰ الصدر. والمشهور في اللغة أن الترائبَ هي عظام الصدر والنحر، ومنه قول دريد بن الصِّمّة:

فإن تُدبروا نأخذكمُ في ظهورِكمْ ... وإن تُقبلوا نأخذكمُ في الترائبِ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣] وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢] أي: لداتٌ نشأنَ معاً، تشبيهاً في التَّساوي والتَّماثُل بالتَّرائب التي هي ضلوع الصدر، وقيل: سُمِّين أتراباً، لأنهنّ في حال الطفولة والصِّبا يلعَبْن بالتراب معاً.

[ت ر ك]

يقول عزَّ من قائل علىٰ لسان يوسفَ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

قوله: ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ أي: رغبتُ عنها، والمراد بالتَّرك هنا هو عدم التلبُّس بذلك من الأصل، لا أنه قد كان تلبَّس به ثم تركه كما يدلُّ عليه قوله في الآية التالية: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]. ويقول ابن عرفة نفطويه: الترك علىٰ ضربين: مفارقةُ ما يكونُ الإنسان فيه، وترك الشيء رغبةً عنه من غير دخول فيه. وقال تعالىٰ، عن نوح عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]، أي: أبقينا له ذِكراً حسناً. وقال أبو إسحاق الزّجّاج: تركنا عليه الذكرَ الجميلَ إلىٰ يوم القيامة، وذلك الذكرُ هو قوله تعالىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

ويأتي التركُ بمعنىٰ الجَعْل: ومنه ما جاءَ في حديث العباس رضي الله عنه: أنه نادىٰ يومَ حُنين، فقال: يا أصحاب السَّمُرة، فرجع الناسُ بعدما ولَّوْا حتى تأشَّبُوا حول رسول الله ﷺ، حتى تركوه في حَرَجة سَلَم وهو علىٰ بغلته، والعباسُ يشتَجرها بلجامها. تركوه في حرجَة سَلَم، أي: جعلوه، ذكره الزمخشري.

وفي الحديث: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر. قيل: هو لمن تركها جاحداً، وقيل: أراد المنافقين؛ لأنهم يُصَلّون رياءً، ولا سبيلَ عليهم حينئذ، ولو تركوها في الظاهر كفروا، وقيل: أراد بالترك تركها مع الإقرار بوجوبها، أو حتى يخرجَ وقتُها، ولذلك ذهب أحمدُ بن حنبل إلىٰ أنه يكفُر بذلك، حملاً للحديث علىٰ ظاهره. وقال الشافعيُّ: يُقْتَل بتركها، ويُصلّىٰ عليه، ويُدْفَن مع المسلمين.

وفي حديث إبراهيمَ الخليل عليه السلام: «أنه جاء إلىٰ مكة يطالع تَرْكَتَه».

التَّرْكَـة، بسكـون الراء: في الأصل: بَيْـضُ النعـام، وجمْعها: تَرْك. ويريد به ولَدَه إسماعيلَ وأمَّه هاجَرَ، لما تركهما بالمكان القفر بمكة المكرمة، وقيل لبيض النعامة: تَرْكـة لأن النعامـة لا تبيض إلا واحدة في كلِّ سنة، ثم تتركُهـا وتذهب. ولو رُوي: يطالع تَرِكَتَـه بكسر الراء، لكان وجْهـاً من التَّرِكـة، وهـي الشـيء المتروك، كما أن الطَّلِبة اسمٌ للمطلوب، ومنها تركةُ الميت، وهي ما يُخَلِّفه لورثته بعد موته.

وفي حديث الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه: أن عطاءً السُّلمّي قال له: يا أبا سعيد، أكان الأنبياء يَشْرَحون إلىٰ الدُّنيا والنِّساءِ مع علمهم بالله؟ فقال: نعم، إنّ لله تَرائـكَ في خَلْقِه. أي: هل كانوا يَشْرَحُونَ إليها صدورَهم، ويبسُطون أنفسَهم؟ وقوله: «ترائك» أي: أموراً أبقاها في العباد، من الأمل والغفلة، حتى ينبسِطوا بها ويَسْترسِلُوا إلى الدنيا.

[ت ل و]

يقول تقدست أسماؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقـرة: ١٢١]. قـولـه: ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أي: يقرؤونه حقَّ قراءته، وسُمِّي القارىء تالياً؛ لأنه يَتْبَعُ ما يقرؤه، والتالي: التابع، وقد تلاه يتلوه: إذا تبعه. قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: والذي نفسي بيده، إن حقَّ تلاوَته أن يُحلَّ حلالَه ويحـرّمَ حرامـه، ويقرأَه كما أنزله الله، ولا يحرّفَ الكلمَ عن مواضعـه، ولا يتـأوّلَ منـه شيئاً علىٰ غير تأويله. وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمـه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلـون ما أشكل عليهم إلىٰ عالمه. وقال سفيان الثـوري عن عبد الله بن مسعـود في قولـه: ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يتّبعونه حقَّ اتباعه. وروي عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنه قال: من يتَّبعِ

القرآنَ يهبطْ به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الذين إذا مرُّوا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مرُّوا بآية عذاب استعاذوا منها، وقد روي هذا المعنىٰ عن النبي ﷺ، أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب تعوَّذ.

وقوله تعالىٰ في قراءة: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]. قال أبو زكريا الفراء: أي: تقرأ. وقال غيره: تَتْبَع. وقال الراغب الأصبهاني: «التلاوةُ تختصُّ باتّباع كتب الله المنزّلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهي وترغيب وترهيب، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة، فكلّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كل قراءةٍ تلاوة، لا يقال: تلوت رُقْعتَك، وإنما يقال في القرآن في شيء: إذا قرأته وجب عليك اتباعُه». وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ٣]: قيل: هم الملائكة، يأتون بالوحي فيتلونه علىٰ أنبياء الله عليهم السلام. وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكرَ الله وكتبه. وقيل: المرادُ آياتُ القرآن، ووصفها بالتلاوة، وإن كانت متلوَّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]، وقيل: لأن بعضَها يتلو بعضاً ويتبعه، وجاء في بعض الروايات: «فيقال للكافر في قبره: لا دريتَ ولا تليْتَ» أي: ولا قرأتَ. وأصله: تلوت، ولكنهم قلبوا الواو ياءً فقالوا: تليت، ليُناسب: دريْت. والمناسبة مرعيّةٌ ومُرَادةٌ في كلامهم.

[ت م م]

يقول ربنا عزَّ وجل، منبِّهاً علىٰ شرف خليله إبراهيمَ عليه السلام: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وذلك أن الله تعالىٰ جعل إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، يُقتدَىٰ به في إخلاص التوحيد، حين قام بما كلّفه الله تعالىٰ به من الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال أبو زكريا الفراء: يريد: فعَمِل بهنّ.

وقال غيره: يقال: تمَّ إلىٰ كذا، وتَمّ كذا: أي بلغه ومضىٰ عليه، قال العجّاج:

لما دَعَوْا: يالَ تميم تَمُّوا إلىٰ المعالي، وبهنّ سُمُّوا

وقيل: فأتمّهنّ، أي: قام بهنّ أتمَّ قيام، وامتثل أكمل امتثال.

وهذه المادة (تمم) تدلُّ علىٰ أصل واحد في اللغة، هو دليلُ الكمال، يقال: تمَّ الشيءُ: إذا كمَل، وأتممتُه أنا، وفي معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قوله تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] أي: وفَّىٰ جميع ما شُرِع له، فعمل به عليه السلام. وقوله تعالىٰ: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: بشرائعَ وأوامرَ ونَواهٍ.

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها خليله إبراهيم عليه السلام، فروي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: ابتلاه الله بالمناسك، ورُوي عنه أيضاً قال: ابتلاه بالطهارة: خمسٌ في الرأس، وخمسٌ في الجسد، فاللواتي في الرأس: قصُّ الشارب، والمضمضة والاستنشاق والسِّواك، وفرق الرأس. واللواتي في الجسد: تقليم الأظفار، وحلْقُ العانة، والخِتان، ونَتْفُ الإبْط، وغَسْلُ أثر الغائطِ والبول بالماء. وروىٰ محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: الكلماتُ التي ابتلىٰ الله بهنّ إبراهيمَ فأتمهنّ: فراقُ قومه في الله حين أُمِر بمفارقتهم، ومحاجَّتُه نُمْروذَ، في الله، وصبرُه علىٰ قَذْفه إياه في النار ليحرقوه في الله علىٰ هول ذلك من أمرهم، والهجرةُ بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أُمر به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابْتُلِيَ به من ذبح ابنه، حين أمره بذبحه، فلما مضىٰ علىٰ ذلك من الله كلِّه، وأخلصه للبلاء، قال الله له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وروي أن الحسن البصريَّ رضي الله عنه كان يقول: إي والله، لقد ابتلاه بأمرٍ فصبَر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمسِ والقمر، فأحسنَ في ذلك، وعرفَ أن ربَّه دائمٌ لا يزول، فوجَّهَ وجْهَه للذي فطَرَ السمٰواتِ والأرضَ حنيفاً وما كان منَ المُشرِكين،

ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلىٰ الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبَرَ علىٰ ذلك، وابتلاه بذبح ابنه، والختان، فصبر علىٰ ذلك.

وروي عن سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه، أنه قال: إبراهيم عليه السلام أولُ من اختُتِن، وأولُ من ضاف الضيف، وأولُ من قلَّم أظفارَه، وأولُ من قصَّ الشارب، وأوَّلُ مَن شاب، فلما رأىٰ الشيب قال: ما هَذا؟ قيل: وقار، قال: يا ربِّ زدني وقاراً. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن هذا كلَّه مما ابتُلي به إبراهيم. وقال أبو جعفر الطبري: يجوز أن يكون المرادُ بالكلمات جميعَ ما ذُكر، وجائزٌ أن يكون بعَضَ ذلك، ولا يجوز الجزمُ بشيءٍ منها أنه المراد علىٰ التعيين إلاَّ بحديث أو إجماع. قال: ولم يصحّ في ذلك خبرٌ بنقل الواحد. ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليمُ له.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]. قوله: ﴿ وَتَمَّتْ ﴾ أي: حقَّتْ ووجبَتْ. والمعنىٰ: أن الله تعالىٰ قد أتمَّ وعدَه ووعيدَه، فظهر الحقُّ وانطمس الباطل. وفي الحديث: «أعوذ بكلمات الله التامّات»، قال مجد الدين بن الأثير: إنما وصف كلامه بالتمام لأنه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه عزَّ وجلَّ نقصٌ أو عيبٌ، كما يكون في كلام الناس، وقيل: معنىٰ التمام هاهنا: أنها تنفع المتعوِّذ بها وتحفظه من الآفات وتكفيه، ومنه حديثُ دعاءِ الأذان: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامَّة»، وصفها بالتمام لأنها ذكرُ الله تعالىٰ، ويُدْعَىٰ بها إلىٰ عبادته، وذلك هو الذي يستحق صفة الكمال والتمام.

ومن مادة (تمم) تأتي التَّميمةُ، وهي خرزاتٌ كانت العرب في جاهليتها تُعلِّقُها على أولادهم، ويزعمون أنها تقيهم العينَ والحسد، وقد أبطل ذلك الإسلامُ فيما أبطل من عاداتِ ومعتقدات الجاهلية. جاء في الحديث: «من علَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له». وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن التمائم والرُّقىٰ من الشرك».

وسُمِّيت التميمة كذلك من مادة (تمم)، كأنهم يريدون أنها تمامُ الدواء والشفاء المطلوب. وجاء هذا في شعرهم، قال أبو ذؤيب الهذلي، من قصيدته البليغة التي رثىٰ بها أولاده الخمسة الذين هلكوا في عام واحد بالطاعون:

وإذا المنيةُ أنشَبَتْ أظفارَها ألفيْت كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

ومن أحاديث المادة ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسولُ الله ﷺ يقوم ليلة التَّمام. ليلة التمام هي ليلة أربعَ عشرةَ من الشهر؛ لأنَّ القمَر يَتمُّ فيها نورُه، أي: يكمُل، ويقال: التَّمام والتِّمام بفتح التاء وكسرها.

* * *

﴿ ث ﴾

[ث ب ر]

يقـول تقدّست أسماؤه علىٰ لسـان موسىٰ عليه السلام يخاطب فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. قوله: ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي: مُهْلَكاً، والثُّبُور: الهلاكُ والخسـران، قال الكميت:

ورأت قضـاعـةُ فـي الأيـا ... مـنِ رأيَ مثبـورٍ وثـابـرْ

أي: مخسور وخاسر. وقيل: المثبور: الملعون، ومنه قول الشاعر:

يا قومَنا لا تروموا حَرْبَنا سَفَهاً ... إن السِّفـاه وإنَّ البغـيَ مثبـورُ

أي: ملعون. وقال ابنُ عرفة نفطويه في تفسير الآية الكريمـة: يقال: ثَبَرَه عن الأمر، أي: منعه، فمعنى المثبور: الممنوعُ من الخير، وذلك هلاكٌ له، يقال: ما ثَبَـرك عن هذا الأمر؟ أي: ما صَرَفك عنه. وروي أن أبا موسىٰ الأشعريَّ رضي الله عنه قال لأنس بن مـالك رضي الله عنه: ما ثَبَرَ النـاسَ؟ ما بَطَّـأ بهـم؟ فقال: الدُّنيا وشهواتُهـا. ومعنـىٰ قوله: ما ثبَر الناسَ؟ أي: ما صدَّهم ومنعهم من طاعة الله؟ وقال تعالـىٰ مبيّناً حالَ الكافرين والمعاندين حين يُلْقىٰ بهم في نار جهنـم: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا

كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣- ١٤].

روىٰ الإمـام أحمد بن حنبل، عن أنس بن مالك. أن رسول الله ﷺ قال: أوّلُ من يُكسىٰ حُلّةً من النار إبليسُ، فيضعها علىٰ حاجبيه ويسحبها مَن خلفَه، وَذرّيتُه من بعده، وهو ينادي: يا ثُبوراه! ويُنادون: يا ثُبورَهم! حتى يقفوا علىٰ النار، فيقول: يا ثُبوراه! ويقولـون: يا ثُبـورَهم! فيقـال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان ١٤]. وعن ابن عباس، أي: لا تدْعُوا اليوم ويلاً واحداً وادْعُوا ويلاً كثيراً. وقال الضحاك: الثبور: الهلاك.

قال الحافـظ عمـاد الدين بن كثير: والأظهـر أن الثبـور يجمع الهلاك والويل والخسـار والدمـار، كمـا قال موسـىٰ لفرعـون: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، والمعنىٰ: أنهم يتمنـوْن هنالك الهـلاكَ، وينـادُونه لما حلَّ بهم من البـلاء. فأجيـب عليهم بقولـه: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ أي: فيقـال لهم هـذه المقالة، والقائل لهم هم الملائكة، أي: اتركوا دعاءَ ثبورٍ واحد، فإن ما أنتم فيه من الهـلاك أكبرُ من ذلك وأعظم. كذا قال أبو إسحاق الزجّاج. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، جاء «ثبوراً» مفـرداً مع أنه في سياق الجمع، والذي سوغ ذلك أن الثبـور مصدر، والمصدر يدلُّ علىٰ القليـل والكثيـر معاً، فلهذا لم يُجمَع، ومثله: ضربتـه ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويـلاً، فالكثـرة ها هنا هي بحسَـب كثرة الدعاءِ المتعلق به، لا بحسَب كثرته في نفسه، فإنه شيء واحد.

ومن غريـب مادة (ثبر) في الحديث ما جاء في حديـث أبي بردةَ قال: دخلتُ علىٰ معاوية حين أصابتُه قرحةٌ، فقال: هلمَّ يا ابن أخي فانظرْ. فنظرتُ فإذا هي قد ثَبرَتْ. قال ابن قتيبة: أي: انفتحتْ. والثَّبرةُ: النُّقْرةُ في الشيء، ومنه قيل للنُّقْرة في الجبل يُستنقـعُ فيها الماء: ثَبْرة، وفي حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه: أن أُمَّه دخلت الكعبةَ وهي حاملٌ به، فأدركها المخاض، فولدت حكيماً في الكعبة، فحُمل في نِطع ــ أي: في بساط من أديم ــ وأُخذ ما تحت مَثْبرها فغُسل عند حوض زمزم.

المَثْبِر: حيث يسقط الولدُ وينفصل عن أمه، وحقيقته موضع الثَّبْر، وهو القطع والفصل، وأكثر ما يقال ذلك في الإبل.

ويأتي من مادة (ثبر) المثابرة، وهي المواظبةُ علىٰ الشيء، ومنه ما جاء في الحديث: «من ثابر علىٰ ثِنْتَيْ عشْرة ركعة من السنة» الحديث. . . . قال ابن الأثير: المثابرةُ: الحرص علىٰ الفعل والقول، وملازمتهما.

[ث ج ج]

يقول عز من قائل، مبيناً قدرته العظيمة علىٰ خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة علىٰ قدرته علىٰ ما يشاء من أمر المعاد وغيره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، المعصرات: هي السحاب، وقوله: «ثجَّاجاً» أي: سيَّالاً صَبَّاباً.

وهذه المادة **(ثجج)** تدل علىٰ معنى واحد في أصل اللغة، وهو صبُّ الشيء، يقال: ثجَّ الماءُ، وثجَّ فلانٌ الماءَ، يستوي فيه اللازم والمتعدي. وجاء في الحديث: «أفضل الحجِّ العَجُّ والثجُّ» فالعَجُّ: رفعُ الصوت بالتلبية، والثجُّ: سيلانُ دماء الهدي، ومنه حديث أم معبد، أنها أتت النبي ﷺ بإناء فحلَبَ فيه ثجّاً، أي: لبناً سائلاً كثيراً من هذه الشاة الهزيلة التي لم يكن يُظَنُّ بها لبن، وهذا من بركاته ﷺ.

وروي عن الحسن البصريّ أنه قال: كان ابنُ عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم علىٰ منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران، فيفسّرُهما آيةً آية، وكان مِثَجّاً يسيل غَرْباً. قوله: «مِثَجّاً» أي: كان يَصبُّ الكلامَ صَبّاً، وهو مِفْعَلٌ من الثَّجّ، وهو السيل والصبُّ الغزير، شبَّه فصاحتَه وغزارة منطقه بماء يَثُجُّ ثَجّاً، ومثله قولهم: مِثَجٌّ؛ للفرس الكثير الجري، وقوله: «يسيل غَرْباً». فالغَرْب: هو ما سال بحدّةٍ واتصالٍ بغير انقطاع.

[ث خ ن]

يقـول ربنـا عز وجل، في شأن أُسارىٰ بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]. قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: حتىٰ يُكثِرَ القتـلَ والإيقاعَ بالعدُوِّ. يقال: أوقـع بهـم فأثخن فيهم، أي: أكثر القتل، ومثله قوله تعالـىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ [محمد: ٤]. وحكىٰ أبو عبيـد الهروي عن أبي منصـور الأزهري، قال: معنىٰ «يثخن» أي: يبالـغ في قتل أعدائـه، يقال: أثخنـه المـرضُ: إذا اشتـدَّ عليـه، وكذلك: أثخنته الجراحُ. وقال أبو بكر بن الأنباري: ويجوز في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: يتمكَّن في الأرض.

وهذه المـادة (ثخن) تدلّ في أصـل وضعها اللغوي علىٰ ثقل الشيء ورزانته، ومن ذلك الثـوبُ الثخين، وهو المكتنـزُ من جـودة نسجـه، ويقال للرجل الحليم الرّزين: ثخين، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وذلك أن القتيلَ قد أثقل حتى لا حراكَ به، وقد توسَّعُوا في هذه المادة فاستعملوها في كل مبالغة. أنشد المفضَّل في امرأة ترائي بصلاتها:

تصلّـي الضُّحَـىٰ مـا دهـرُهـا بتعبُّـدٍ وقد أثخنَتْ فِرعونَ في كُفرِهِ كُفْرا

أي: فاقَتْ في كفرها كفرَ فرعون؛ وجاء في حديث عائشة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما: «لم أنشَبْها حتى أثخنتُ عليها» أي: بالغتُ في جوابها وأفحمتُها.

وقد عاتب الله عز وجل بهذه الآية الكريمة المؤمنين علىٰ الاستكثار من الأَسْرىٰ يوم بدر، ليأخذوا منهم الفداء، وأخبر سبحانه وتعالىٰ أن قتل المشركين يومئذٍ كان أولىٰ من أسرهم وفدائهم، ثم لما كثر المسلمون واشتدّ أمرهم رخَّص لهم في ذلك،

فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ [محمد: ٤].
ورُوي أنه لمَّا كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم: «ما تقولون في هؤلاء الأُسارىٰ؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومُك وأهلك، استَبْقِهم واستَتِبْهُم لعلّ الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يارسول الله، كذَّبوك وأخرجوك فقدّمْهم فاضربْ أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يارسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه. قال: فسكت رسول الله ﷺ، فلم يردَّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثُمَّ خرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله ليُلينُ قلوبَ رجال تكون ألين من اللِّين، وإنّ الله ليشدّدُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة. وإن مَثلَك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثَل عيسىٰ عليه السلام. قال: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مَثَلك يا عمر كمثل موسىٰ عليه السلام، قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن مَثَلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. أنتم عالة، فلا ينفكنّ أحدٌ منهم إلاَّ بفداء أو ضربة عنق».
قال ابن مسعود: قلت: يا رسولَ الله، إلا سُهيلَ بنَ بيضاء، فإنه يذكر الإسلام. فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوفَ من أن تقعَ عليَّ حجارةٌ من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء». فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمَّا أُسر الأُسارىٰ يومَ بدر، أُسر العباسُ فيمن أُسر، أسره رجلٌ من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصارُ أن يقتلوه، فبلغ ذلك

النبيَّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: إني لم أنَمِ الليلة من أجل عمّي العباس. وقد زعمَتِ الأنصـار أنهـم قاتلوه، فقال له عمر بن الخطاب: أفآتِهم؟ فقال ﷺ: «نعم»، فأتىٰ عمرُ الأنصـارَ، فقال لهم: أرسلـوا العبـاس، فقـالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمـر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضاً؟ قالوا: فإن كـان لرسول الله ﷺ رضاً فخذوه. فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباسُ أسلمْ، فوالله لأنْ تُسلم أحبُّ إليَّ من أن يُسلـمَ الخطاب، وما ذاك إلاّ لما رأيـتُ رسـول الله ﷺ يعجبـه إسلامك. قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم. فقال أبو بكر: عشيرتُك فأرسلْهـم. فاستشار عمـرَ فقال: اقتلهـم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

[ث ر ب]

يقـول سبحانـه وتعالىٰ مخبراً عن يوسف عليه السلام حين دخل عليه إخوته وشكَوْا له ما أصابهم من الجَهْد والضيق والجدب، وما كان من رحمته بهم وشفقته عليهـم حين تذكَّر أباه وما هو فيه من الحـزن لفقـد ولديه، فيقول تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. قـولـه تعالىٰ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: لا تَعدادَ للذنوب، ولا توبيخَ عليكم. يقال: ثرَّب فـلانٌ علىٰ فلان: إذا بكَّتَـه بفعلـه، وعدّد عليـه ذنوبه. وقال أبو نصـر الجوهريُّ: التثريب: كالتأنيب والتعيير والاستقصاء في اللوم. يقال: لا تثريبَ عليك، وأنشد لبشر بن أبي خازم ــ ويروىٰ لتُبَّعٍ اليماني:

فعفوتُ عنهم عفوَ غيرِ مُثرِّبٍ وتركتُهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وحكـي عن الأصمعيّ، قال: ثرَّبتُ عليه وعرَّبْتُ عليه بمعنىٰ: إذا قَبَّحْتَ عليه فِعْله. وأخـرج أبو الشيـخ عبد الله بن محمـد بن حبـان الأصبهـاني، عن عمرو بن شعيـب، عن أبيـه، عن جده، قال: لمَّا فتـح رسول الله ﷺ مكة، التفت إلىٰ الناس فقال: «ماذا تقولـون وماذا تظنون؟» فقالوا: ابن عمٍّ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم». وجاء في الحديث: «إذا زنت أمةُ أحدكم فليَضْربْها الحدَّ ولا يُثَرِّبْ» أي: لا يُوَبِّخْهـا ولا يُبكِّتْها ولا يُقرِّعها بالزِّنا بعد الضرب. هكذا قال أبو عبيد الهرويُّ، وجـار الله الزمخشـريُّ. وحكاه ابن الأثيـر، ثم زاد، فقال: وقيل: أراد: لا يقنعْ في عقوبتهـا بالتثريب، بل يضربُها الحدَّ، فإنّ زنا الإماء لم يكن عند العرب مكروهاً ولا مُنكراً، فأمرهم بحَدِّ الإماء، كما يأمرهم بحدِّ الحرائر.

ومن غريب هذه المادة (ثرب) ــ ولا صلـة بينـه وبين المعنى السابق ــ ما جاء في الحديث: أنه ﷺ نَهَىٰ عن الصلاة إذا صارت الشمسُ كالأثارِب، أي: إذا تفرّقت وخصَّـت موضعاً دون موضع عنـد المغيـب، شبَّهها بالثُّروب، وهي الشَّحم الرَّقيق الذي يُغشِّـي الكَرِشَ والأمعـاء، شبَّه بها ضيـاء الشمـس إذا رقَّ عند العشيّ ودخول المغرب، ومنه الحديث: «إنّ المنافق يؤخّر العصر، حتى إذا صارت الشمس كثَرْب البقرة صلاَّها».

[ث ر ر]

من أدب النبـوة العـالي ما رواه الترمـذيّ، من حديث جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبّكم إليّ وأقربِكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسِنَـكم أخـلاقاً، وإنّ أبغضَكـم إليّ وأبعدَكـم منـي يوم القيـامـة الثرثـارون والمتشـدِّقون والمتَفيْـقِهون». قالوا: يا رسـول الله، قد علمنـا الثرثـارون والمتشـدقـون. فمـا

المتفيقهـون؟ قال: «المتكبـرون». وهذا الحديـث العالي الشريف يرويه أهل اللغة والأدب، كأبي العباس المبرد والزمخشري، علىٰ هذا النحو: «ألا أُخبركم بأحبّكم إليَّ وأقربِكم مني مجالسَ يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطَّؤون أكنافاً، الذين يألفـون ويؤلفُـون، ألا أخبرُكـم بأبغضكم إليَّ وأبعدكـم مني مجالسَ يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون». قيل: يا رسول الله، وما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

الثرثارون: هم الذين يكثـرون الكلام تكلفـاً وخروجاً عن الحق. يقال: عين ثرثارة: إذا كانت واسعة الماء، ويقال لنهر بعينه ــ وهو بين سِنجار وتكريت ــ يقال له: الثرثـار، سمِّـي بذلك لكثـرة مائه، والمتشدقـون: هم المتطاولون علىٰ الناس بكلامهـم، المتكلمـون بملء أفواههم تفاصُحـاً وتعظيماً لكلامهم. والموطؤون أكنافاً، قال أبو العباس المبرد: قولهم: فلان موطـأ الأكناف، أي أن ناحيته يتمكَّن فيها صاحبهـا غير مؤذٍ ولا نابٍ به موضعُـه. من التوطئـة، وهي التمهيد والتذليل. والمتفيهقـون: مأخوذ من الفَهَق، وهو الامتلاء، يقال: فَهِق الحوض يَفْهَق فَهَقاً، أي: امتلأ. والمتفيهـق: هو الذي يملأ فمَـه بالكـلام ويتوسَّـع فيه، ويُغْرب تكبُّراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة علىٰ غيره. وهذا من العُجْب بالنفس والتكبر والرُّعونة. وهذا الحديث العظيم أصل من أصول محاسن الأخلاق التي دارت عليها أقوال النبي ﷺ وأفعاله.

روىٰ الإمام مسلـم، عن النوَّاس بن سِمعان رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن البـرّ والإثـم، فقال: «البرُّ حسْـنُ الخلُـق، والإثـمُ ما حـاك في صدرك وكرهت أن يطلـع عليه الناس». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قـال: لم يكن رسـول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشـاً. وكـان يقـول: «إنّ من خياركم أحسنَـكم أخلاقاً». وروىٰ الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليـه وسلم قال: « ما من شيءٍ أثقل في ميزان العبد المؤمـن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يُبغِضُ الفاحش البذيَّ». وروىٰ الترمذي أيضاً، عن أبي هريرة رضي

الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة، قال: «تقوىٰ الله وحسنُ الخُلق». وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار فقال: «الفم والفَرْج». وروىٰ أبو داود، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدركُ بحُسْن خلُقِه درجة الصائم القائم». اللهم اجعلنا من عبادك الهادين المهديين، وارزقنا حسن الأخلاق وأطيبها.

[ث ر و / ث ر ىٰ]

يقول ربنا عزّ وجلّ، مخبراً أن جميع ما خلق في ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦]. الثَّرىٰ: هو التُّرابُ النديُّ الذي تحت التُّراب الظاهر. وجاء في التفسير: الثَّرىٰ: هو ما تحت الأرض. وفي حديث علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه: «اللهم صلِّ علىٰ محمد عددَ البَرَىٰ والثَّرى والوَرَىٰ». فالبَرَىٰ: هو التراب الذي علىٰ وجه الأرض، وهو العفَرَ. من قولهم: بَرَىٰ له، أي: عَرَض وظَهَر. والثَّرىٰ: هو النَّدَىٰ الذي تحت البَرَىٰ. وجاء في الحديث أن النبي ﷺ كان في بعض أسفاره فدَعا بالأزواد، فلم يُؤْتَ إلاَّ بالسَّويق، فأمر به فثُرِّيَ فأكل، ثم قام إلى المغرب فتمضمض ثم صلَّى ولم يتوضأ. ثُرِّيَ السَّويقُ، أي: بُلَّ، يقال: ثَرَّىٰ الترابَ يُثرِّيه تثرية: إذا رشّ عليه الماء. ويقال: ثرِّ المكان، أي: رُشَّه. ومن ذلك قولُ سهل بن سعد رضي الله عنه: كنا نطحن الشعير وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثرَّيْناه فأكلناه.

ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: إني أعلم بجعفر ــ يعني جعفرَ بن أبي طالب- إنه إن عَلِم ثرَّاه مَرَّةً واحدةً ثم أطعمه. أي: بلَّه. يريد أن جعفر

ابن أبي طالب كريمٌ مِطْعام، فإن ظَفِر بهذا الذي أرسله عليٌّ، ندَّاه بالسَّمن، وأطعمه النـاسَ وحرَمَه أولادَه. وفي حديـث موسى والخَضر عليهما السلام: «فبينا هو في مكانٍ ثَرْيان»يقال: مكانٌ ثرْيـان وأرضٌ ثرْيا: إذا كـان فـي تُرابهما بَلَلٌ وندىٰ. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يُقْعي في الصـلاة ويُثَرِّي، معناه: أنه كان يضع يديه في الأرض بين السجدتين، فلا يفارقان الأرض حتى يعيد السجدة الثانية، وهو من الثَّرَىٰ: التراب، لأنهم أكثرَ ما كانوا يصلون علىٰ وجه الأرض بغير حاجز. قال أبو منصور الأزهري: وكان ابن عمر يفعـل هذا حين كَبِرَتْ سنُّه، في تطوُّعه، والسنّة رفع اليدين عن الأرض بين السجدتين.

ومن كلام العرب: الذي بيني وبين فلان مُثْرٍ، أي: إنه لم ينقطع، وأصل ذلك أن يقول: لم يَيْبَسِ الثَّرَىٰ بيني وبينه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بُلُّوا أرحامَكم ولو بالسَّلام». ومن أمثال العرب في تخـوُّف الرجلِ هَجْرَ صاحبه: لا تُوبِسَنَّ الثرىٰ بينـي وبينك، أي: لا تقطعـنّ الأمر بيننـا. قالـه أبو عبيد القاسم بن سلام، وأنشـد لجرير:

فلا تُوبِسُوا بيني وبينكمُ الثَّرَىٰ ... فإنّ الذي بيني وبينكمُ مُثْرِي

وهذه المادة (ثرو) أو (ثرىٰ) تدل علىٰ معنيين في أصل اللغة، المعنىٰ الأول: خـلافُ اليُبْس، وهو البَـلَلُ والنداوة وتقدمـت شواهـدُه، والمعنـىٰ الثاني: الكثرةُ والنَّماء. قال الأصمعيُّ: ثَرَا القوم يَثْرون: إذا كثُروا ونَمَوا، وأثْرَىٰ القوم: إذا كثُرت أموالهم. والثروة: كثرة العدد.

وجاء في الحديث: «رحمة الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلىٰ ركن شديد ــ يعني الله عز وجلّ ــ فما بعث الله بعده من نبيّ إلا في ثروة من قومه». الثروة في هذا الحديث العدد الكثير.

وذلك أن لوطـاً عليه السلام حين جاءتـه الملائكـة، وكانوا في أجمل صورة

تكون، علىٰ هيئة شبان حسان الوجوه، ساءه شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم، خوفاً عليهم من قومه، لما يعلمُ من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط، وذلك قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] وجواب «لو» محذوف، والتقدير: لدافعتكم عنهم، ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام علىٰ طريق التمنّي، ومراده بالركن الشديد: العشيرة وما يمتنع به عنهم هو ومن معه، ولذلك جاء الحديث: «فما بعث الله بعده من نبيٍّ إلا في ثروة من قومه» أي: في عدد كثير يستظهر بهم ويقْوىٰ. والثَّراء: كثرة المال، قال علقمةُ بن عبدة الفحل:

يرِدْن ثراء المالِ حيث علمْنَه وشَرْخُ الشَّباب عندهنّ عجيبُ

ومنه حديث إسماعيل عليه السلام، وقال لأخيه إسحاق عليه السلام: إنَّك أثْرَيْتَ وأمشَيْتَ، أي: كثر ثراؤُك، وهو المال، وكثُرت ماشيتُك. وجاء في حديث أمِّ زرع: «وأراح عليَّ نَعَماً ثريّاً» أي: كثيراً. وجاء في حديث صلة الرحم: «هي مَثْراةٌ في المال، مَنْسأةٌ في الأثر». قوله: «مثراةٌ» هي مَفْعَلةٌ من الثراء: الكثرة. ومَنْسأة: من النَّسْء، وهو التأخير، وفي الحديث: «من أحبّ أن يُنْسأ في أجله فلْيصلْ رَحِمَه»، والأحاديث في صلة الرحم كثيرة مستفيضة.

فرَوىٰ أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرمْ ضيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصلْ رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيقُلْ خيراً أو ليصمت». وعنه أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخَلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحمُ، فقالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضينَ أنْ أصلَ من وصلكِ، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلىٰ. قال: فذلك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقْرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾» [محمد: ٢٢]. اللهم اجعلنا ممن يَبَرُّون والِديهم، ويصلون أرحامهم. إنك سميع الدعاء.

[ث ق ف]

يقـول عز من قائـل آمراً بقتـال أعـداء الله وأعداء نبيه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقـرة: ١٩١]. قـولـه ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيـث وجدتمـوهم، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]. ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، أي: تصـادفنَّهـم وتجدنَّهم. يقال: ثقفْتُه أثْقَفُـه ثَقْفًـا، أي: وجدتـه، وَثَقِفَتْـهُ يدي، أي: صـادفته. ويقال: ثقفتُ به، أي: ظفِرتُ به، قال شاعر:

فـإمـا تُثْقِفـونـي فـاقتلـونـي وإن أُثْقَفْ فسوف تَرَون بالي

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

فـإمـا يَثْقفـنَّ بنـي لـؤيٍّ جُـذيمـةُ إنّ قتْلَهُـمُ دواءُ

وفي حديث الهجرة: مكث رسول الله ﷺ في الغار وأبو بكر ثلاث ليالٍ يبيت عندَهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلامٌ شابٌّ لَقِنٌ ثَقِفٌ، يُدلج من عندِهما فيصبح مع قريش كبائتٍ»، اللَّقِنُ: الحسَنُ التلقُّنِ لما يسمعه، والثَّقِفُ: ذو الفِطْنة والفهم، قال طرفة بن العبد:

أو ما علمتَ غداةَ تُوعِدُني أنِّي بخِزْيك عالمٌ ثَقِفُ

ويقال: رجلٌ ثَقْفٌ وامراةٌ ثقاف. ومنه قول أم حكيم بنت عبد المطلب: إنِّي حَصَـانٌ فما أُكَلَّم، وثَقَـافٌ فما أُعَلَّـم. وفي حديـث عائشة، تصف أباها رضي الله عنهمـا: وأقام أَوَدَهُ بثِقافه. الثِّقَافُ: ما تقوَّم به الرماحُ. تريد أنه رضي الله عنه سوَّىٰ عوَجَ المسلمين بحُسْن سياسته. يقال: ثقَّفْتُ القناة: أي أقمت عِوَجَها. قال عديٌّ ابن الرّقاع العامليّ:

نظَرَ المثقِّف في كُعُوب قناته حتى يُقيم ثِقافُه مُنْآدَها

[ث ق ل]

قال سبحانه وتعالىٰ آمراً المسلمين بالنفير العام مع الرسول عليه الصلاة والسلام عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من كفرة الروم: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قيل: موسرين ومعسرين. وقيل: خَفَّت عليكم الحركةُ أو ثقُلَتْ. والعرب تقول: رجلٌ مُثْقِلٌ: إذا كان معه ما يُثقله، ويكون ذلك من العوائق. وضدُّه: رجلٌ مُخِفٌّ، وقال قتادة: أراد: نِشاطاً وغير نشاط. يعني جمعَ نشيط. وروي هذا عن ابن عباس.

وهذه المادة (ثقل) تدل في أصل وضعها اللغوي علىٰ معنى واحد، تتفرع منه استعمالات متعددة. وذلك المعنىٰ هو ضدُّ الخفَّة، وتَرِدُ استعمالاتُ المادة كلُّها إلىٰ هذا المعنىٰ بشيء من البصر والحذق في فهم أسرار اللغة. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] قيل: موتاها، لأنها تثقل بهم. وقيل: ما فيها من الكنوز. قالت الخَنْساء:

أبَعْدَ ابن عَمْرٍو منَ آل الشريـ ـد حَلَّتْ به الأرضُ أثقالَها

أي: زيَّنَتْ موتاها به. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي: أخْلَدْتُم إليها. وقال النضر بن شميل: يقال: ثَقَلْتُ إلىٰ الأرض، أي: اضطجعْتُ واطمأننْتُ. وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال نفطويه: ثقُلتْ عِلْماً وموقعاً. وقال ابن قتيبة: ثقُلَتْ: أي خفيتْ، وإذا خفي عليك

الشيءُ ثَقُل. وإلىٰ مثل هذا ذهب السُّدِّيُّ، قال: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلـم قيامها حين تقوم مَلَكٌ مقـرَّبٌ، ولا نبـيٌّ مُرْسَـلٌ، وقـال ابـن جُريج: إذا جاء انشقَّت السماء، وانتثرت النجوم، وكُوِّرَت الشمسُ، وسيّرت الجبالُ؛ وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلُها.

وقال تعالىٰ مخبراً عن حال عباده يومَ القيامة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]. قوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ مثقلةٌ بالذُّنوب، أي: وإن تدعُ نفسٌ مثقَلةٌ بأوزارها إلىٰ أن تساعَدَ علىٰ حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، لا يحملْ منه شيء ولو كان ذا قربىٰ، أي: وإن كان قريباً إليها، حتىٰ ولو كان أباها أو ابنَها، كلٌّ مشغـولٌ بنفسـه وحاله، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]. وقال تعالىٰ يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. ﴿ثَقِيلًا﴾، أي: لـه وزنٌ. يقـال: ثَقَّلْـتُ الشـيء، أي: وزنتُه ورزنتُه، وذلك إذا رفعتَه لتنظرَ أثقيلٌ هو أم خفيف. وجاء في تفسير قوله: «ثقيلاً» أن أمور الله عز وجل ونواهيه وفرائضه لا يؤدِّيها أحد إلا بتكلُّفِ ما يثقل.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] هما الجنّ والإنس، سُمِّيا ثقلين، لأنهما فضِّلا بالتمييز الذي فيهما علىٰ سائر الحيوان، وكلُّ شيء له قَدْرٌ ووزنٌ يُتنافَسُ فيه فهو ثَقَلٌ.

وجاء في الحديـث: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعِتْرتي» قال أبو عمر الزاهد: سألت ثعلباً عن قوله ﷺ: «إني مُخَلِّفٌ فيكم الثقلين» لمَ سُمِّيا ثقلين؟ فأومأ إليَّ بِجُمْعِ كفّه، ثم قال: لأن الأخذ بهما ثقيل والعملَ بهما ثقيل.

وفي حديث ابن عباس: بعثني رسول الله ﷺ في الثَّقَل من جَمْع بليل. الثَّقَل هو: متاع المسافر، وجَمْع هي: المزدلفة.

[ث ن ي]

يقـول ربنا عز وجـل في وصـف كتابـه العظيـم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الـزمـر: ٢٣]. قـولـه تعـالـىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ وجـه التشـابـه: أنه يُشبـه بعضُـه بعضاً في الحسن والإحكـام وصحّةِ المعاني وقوة المباني، وبلوغه إلىٰ أعلىٰ درجات البلاغة. وقال قتادةُ بنُ دِعامة السَّدُوسيّ: يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتُبَ الله المنزلةَ علىٰ أنبيائه. وقوله: «مثاني» أي: تُثنَّىٰ فيه القصصُ والأمثال، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام. وقال عبد الله بن عباس: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ أي: القرآنُ يشبه بعضه بعضـاً، ويُردَّ بعضُـه علىٰ بعض. وقال عبد الرحمن ابن زيد: مثاني: مُرَدَّد. رُدِّدَ مـوسىٰ في القرآن، وصالحٌ وهودٌ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في أمكنة كثيرة.

وهذه التفسيرات ترجع كلّها إلىٰ المعنىٰ الأصلي لكلمة (ثنىٰ). قال أبو الحسين ابنُ فارس في كتابه الفذّ «مقاييس اللغة»: الثاء والنون والياء أصلٌ واحد، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين. انتهىٰ كلامه.

وقـد اختلـف في السبـع المثـاني من قولـه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، فقيل: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، لأنها تُثنَّىٰ في كل ركعـة مكتوبـةٍ أو تطوع، أي: تُعاد وتكرَّر. وقيل: إنها السّبعُ الطِّوال، أي: البقرة، وآلُ عمران، والنسـاءُ، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. واستدلّ القائلـون بذلك علىٰ أنه قد بُيِّـن في هـذه السـور: الفـرائـضُ والحدودُ والقصـص والأحكـام، واستدل القائلـون بأن المراد بها الفاتحـة بالحديـث الذي رواه الإمام

البخـاري في «صحيحه» في أول كتاب التفسير، وفي باب فضل فاتحه الكتاب من كتاب فضائل القرآن. وهو حديث أبي سعيد بن المعلَّىٰ، قال: كنت أصلّي، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبـه، قلتُ: يا رسـول الله، إني كنـت أصلـي، قال: «ألم يقل الله: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾؟» [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجـد؟» فأخـذ بيـدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: لأعلمنَّك أعظم سورة في القـرآن. قال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيته».

وذكر الحافظ عمادُ الدين بن كثير، حديـث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أمُّ القرآن هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم»، قال ابن كثير: فهذا نصٌّ في الفاتحة أنها هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطِّوال بذلك لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. هـذا، وقد زاد الراغـب الأصبهانيُّ علىٰ هذا التأويل فقال: ويصحُّ أنه قيل للقرآن: مثاني من الثناء، تنبيهاً علىٰ أنه أبداً يظهر منه ما يدعو إلىٰ الثناء عليه، وعلىٰ من يتلوه ويَعْلَمُهُ ويعملُ به، وعلىٰ هذا الوجه وصفه بالكرم في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] وبالمجد في قوله: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البروج: ٢١].

يقول عز من قائـل مبينـاً حال الدعـاة إلىٰ الضـلالة من رؤوس الكفر والبدَع: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩]. قوله: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ أي: متكبـراً. وعِطفا الإنسـان: ناحيتـا جسده، يقال: ثَنَىٰ عِطفَه، وثَنَىٰ جيده، وصعَّر خدَّه، ونأىٰ بجانبه، ولوىٰ عنقه، ومال برأسه، كلُّ ذلك بمعنىٰ تكبَّر وشمخ بأنفه، والمعنى: ومن الناس من يجادل في الله بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوىٰ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ فَتَوَلَّىٰ

بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩] وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧] إلىٰ أشباهٍ لذلك كثيرة في القرآن الكريم.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. قال أبو عبيد الهروي: أي: يطوون صدورهم علىٰ عداوة رسول الله ﷺ، يقال: ثنيتُ الثوبَ وغيره: إذا عطفت بعضه علىٰ بعض حتىٰ يخفىٰ داخله. وروي عن ابن عباس أن المراد الشكُّ في الله وعملُ السيئات، أي: أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستَخْفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالىٰ أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم ما يُسرُّون من القول وما يعلنون، وقال زهير بن أبي سُلْمىٰ:

فلا تكتُمُنَّ اللّهَ ما في قلوبكم ... ليَخْفىٰ، ومهما يُكْتَمِ اللّهُ يعلمِ

ومن غريب هذه المادة ما جاء في الحديث: «لا يثنَىٰ في الصدقة» أي: لا تؤخذ الزكاة مرتين في السنة. وجاء في حديث كعبٍ أو سعيد بن جبير: «الشهداء ثنيّةُ الله في الأرض». الثنيّةُ هنا بمعنىٰ الاستثناء، كأنه تأول قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فالذين استثناهم الله من الصعق الشهداء، وهم الأحياء المرزوقون. فإذا صَعِق الخلقُ عند النفخة الأولىٰ لم يَصْعَقُوا.

[ث و ب]

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]. المثوبةُ والثواب: ما جُوزي به الإنسانُ علىٰ فعله من

خير أو شر. يقال: ثاب يثوب: إذا رجع. فالثَّوابُ هو: ما يرجعُ علىٰ المحسن من إحسانه، وعلىٰ المسيء من إساءته.

وهذه المادة (ثوب) ترجع إلىٰ أصل واحد في اللغة، وهو العَوْدُ والرجوع. وتُردَّ جميع استعمالات المادة إلىٰ هذا المعنىٰ، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿مَثَابَةً﴾، أي: معاداً يصدرون عنه ويثوبون إليه، أي: يرجعون، والمثَابةُ والمَثاب، واحد، مثلُ المَقامة والمَقام، فيقال: إن فلاناً لمثابةٌ، أي: يأتيه الناس للرغبة، ويرجعون إليه مرةً بعد أخرىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، إنما سمّيت الثيّبُ ثيّباً لأنها تُوطأ وطئاً بعد وطء. وقال تعالىٰ: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] أي: هل جُعل لهم ثوابُ أعمالهم؟ أي: هل جوزي الكفار علىٰ ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والسخرية أم لا؟ يعني قد جُوزُوا أوفرَ الجزاء وأتمَّه وأكمله.

والثوب الذي يلبسه الإنسان سُمِّي كذلك لأنه يُلبَس ثم يخلع ويثاب إليه، أي: يعاد. وقوله تعالىٰ مخاطباً نبيّه المصطفىٰ ﷺ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. قال ابن عباس: يعني من الإثم، وهم يقولون: فلان طاهر الثياب: إذا لبسها على اجتناب المحارم والمكاره، فإذا لبسها علىٰ فَجْرَةٍ أو غَدْرَةٍ قالوا: إنه لدنِسُ الثيابِ، وروي عن ابن عباسٍ أيضاً أنه سئل عن هذه الآية. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقال: لا تلبَسْها علىٰ معصية ولا علىٰ غدرة. ثم قال: أما سمعتَ قولَ غيلانَ بن سلمة الثقفي:

فإنّي بحمد الله لا ثوبَ غادرٌ ... لبِستُ، ولا من غَدْرةٍ أتقنَّعُ

ومن إطلاق الثياب علىٰ النفس قول عنترة:

فشككت بالرُّمح الأصمِّ ثيابَهُ ... ليس الكريمُ علىٰ القنا بمحرَّمِ

وقولُ الآخر:

ثيابُ بني عوفٍ طهارىٰ نقيَّةٌ

وقال أبو اسحاق الزجاج: المعنىٰ: وثيابَك فقَصّر، لأن تقصير الثوب أبعدُ من النجاسات إذا انجرَّ علىٰ الأرض، وبذلك قال طاوسُ بن كيسان. وذهب المحققون من العلماء إلىٰ أن المراد الثيابُ الملبوسةُ علىٰ ما يقتضيه ظاهر المعنىٰ اللغوي. أمره الله سبحانه وتعالىٰ بتطهيرِ ثيابه وحِفْظها عن النجاسات، وإزالة ما وقع فيها منها، فقد كان المشركون لا يتطهرون.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: لما حضره الموتُ دعا بثياب جُدُدٍ فلبسها، ثم ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها». قال أبو سليمان الخطابيّ: أما أبو سعيد فقد استعمل الحديث علىٰ ظاهره، وقد رُوي في تحسين الكفن أحاديث، وقد تأوَّله بعض العلماء علىٰ المعنىٰ، وأراد به الحالة التي يموت عليها الإنسان من الخير والشرِّ، وعملِه الذي يختم له به، يقال: فلانٌ طاهر الثياب: إذا وصفوه بطهارة النفس والبراءة من العيب، وهذا كالحديث الآخر: «يبعث العبدُ علىٰ ما مات عليه»، وقال أبو عبيد الهرويّ: وليس قولُ من ذهب به إلىٰ الأكفان بشيء؛ لأن الإنسانَ إنّما يكفَّن بعد الموت. وفي حديث أم سلمة أنها قالت لعائشة رضي الله عنها حين أرادت الخروج إلىٰ البصرة: «إنَّ عمودَ الدِّين لايثابُ بالنساء إن مال» أي: لا يُعاد إلىٰ استوائه، من ثاب يثوب: إذا رجع. وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قيل له في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك؟ قال: أجدني أذوبُ ولا أثوب، أي: أضعُف ولا أرجع إلىٰ الصحة.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا أعرفنَّ أحداً انتقص من سُبُل الناس إلىٰ مثاباته شيئاً إلاّ فعلتُ به كذا. المثابات: جمع مثابة، وهي المنزل، لأن أهله يثوبون إليه، أي: يرجعون. وأراد عمر: لا أعرفنّ أحداً اقتطع شيئاً من طرق المسلمين وأدخله داره.

وفي الحديث: «إذا ثُوِّب بالصلاة فائتوها وعليكم السكينة». قال مجد الدين ابن الأثير: التثويب ها هنا: إقامة الصلاة، والأصل في التثويب: أن يجيء الرجل

مستصرخاً فيلوح بثوبه ليُرَىٰ ويَشْتهر. فسُمِّي الدعاء تثويباً لذلك، وكلُّ داعٍ مثوِّب.
قال زهير بن مسعود الضبيّ:

فخيـرٌ نحـن عنـدَ النـاسِ منكـمْ إذا الداعي المثوِّبُ قال: يالا

والتثويب في أذان الفجر: أن يقول المؤذن ــ بعد قوله: حيَّ علىٰ الصلاة حيَّ علىٰ الفلاح ــ: الصلاةُ خيرٌ من النوم، وسُمِّي ذلك الصنيع تثويباً، لأنه رجوعٌ إلىٰ الأمر بالمبادرة إلىٰ الصلاة، وذلك أن المؤذن إذا قال: حيَّ علىٰ الصلاة فقد دعاهم إليها، وإذا قال بعدها: الصلاة خير من النوم، فقد رجع إلىٰ كلام معناه المبادرة إليها. وفي الحديث: أن بلالاً رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ ألاَّ أثوِّبَ في شيءٍ من الصلاة إلا في صلاة الفجر، وهو قوله: الصلاة خير من النوم. مرتين.

❊ ❊ ❊

﴿ ج ﴾

[ج ب ر]

يقول عز من قائل على لسان قوم موسى عليه السلام، يردُّون عليه، حين حرَّضهم على الجهاد ودخول بيت المقدس الذي كان بأيديهم زمان أبيهم يعقوب: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. قوله: ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال ابن عرفة نفطويه: أي: أهلُ سطوة وقهر. وقال ابنُ اليزيديّ: جبارين، أي: عظماء.

وهذه المادة (جبر) تدلُّ في أصل وضعها اللغوي على معنى العظمة والعلوّ، ومنه النخلةُ الجبّارة، وهي العظيمة التي فاتت يدَ المتناولِ.

وفي أسماء الله تعالى: «الجبّار» ومعناه الذي يقهر العبادَ على ما أراد من أمر ونهي، يقال: جبَر الخلقَ وأجبرهم، وأجْبر أكثَرُ. وقيل: الجبَّار: هو العالي فوق خلقه، وفعَّال من أبنية المبالغة، ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «يا أمةَ الجبَّار»، إنما أضافها إلى الجبَّار، دون باقي أسمائه عز وجلّ، لاختصاص الحال التي كانت عليها، من إظهار العِطر، والبَخُور، والتباهي به، والتبختر في المشي. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: بمُسَلَّطٍ تقهرهم على ما تريده، كقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: أي: ولستَ بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كُلِّفْتَ به، وقال

مجاهدٌ والضحاك: أي: لا تتجبَّرْ عليهم، والقول الأوَّلُ أولىٰ.

قال أبو زكريا الفراء: سمعت العربَ تقول: جبرَ فلانٌ فلاناً علىٰ كذا، بمعنىٰ أجبره. وفي الحديث أن امرأة حضرت النبيَّ ﷺ، فأمرها بأمر فتأبَّتْ عليه، فقال: «دعوها فإنها جبَّارة» أي: مستكبرةٌ عاتية.

ومن استعمال «الجبّار» في معنىٰ العاتي المتكبر قوله تعالىٰ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وما جاء في الحديث: «أن النار قالت: وُكِّلْتُ بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبكلِّ جبّار عنيد، وبالمصوِّرين»، وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]: إن الجبار هنا هو القتّال في غير حقّ، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]، قال أبو إسحاق الزجاج: الجبار في اللغة: الذي لا يتواضع لأمر الله، والقاتلُ بغير حقٍّ جبّار. وجاء في حديث ذكر الكافر في النار: «وكثافة جلده: أربعون ذراعاً بذراع الجبار». أراد به هاهنا الطويل، وقيل: الملِك كما يقال: بذراع الملِك. قال ابن قتيبة: وأحسَبه ملِكاً من ملوك الأعاجم، كان تامَّ الذراع.

وجاء في الحديث: «سبحان ذي الجَبَرُوتِ والملكوت» الجَبَرُوت: بوزن فَعَلُوت، مأخوذ من الجَبْر والقهر، ومنه الحديث الآخر: «أوَّل دينكم نُبوّةٌ ورحمة، ثم خلافةٌ ورحمة، ثم مُلْكٌ أعفَر، ثم مُلْكٌ وجَبَرُوَّة». الجَبَرُوّة: هي الجبروت، وجاء في دعائه ﷺ: «واجبُرْني واهْدِني» أي: أغْنني، وهذا مأخوذ من: جبر الله مصيبته، أي: ردَّ عليه ما ذهب منه وعوَّضه، وأصله مِن جبْرِ الكسر، يقال: جبرْتُ العَظْمَ فجَبَر، قال العجَّاج في مطلِع أرجوزته الشهيرة:

قد جَبَر الدِّينَ الإلهُ فجَبَرْ

ويقال للخَشَب الذي يُضَمُّ به العَظْمُ الكسير: جِبارةٌ، ويقال للخرقة التي تُشَدّ علىٰ المجبور: جَبيرة.

وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، المتضمنِ الصلاة علىٰ النبي ﷺ يقـول: اللهـم داحيَ المدحـوَّات وبـارىء المسموكـات، وجَبّـار القلوب علىٰ فطراتها. . . . . إلىٰ آخر ما قال.

الجبّار هنا: من الجَبْر الذي هو ضدُّ الكسر، أي: أثْبَتَ القلوب وأقامها علىٰ ما فطرهـا عليـه من معرفته، ويجـوز أن يكون من جبْره علىٰ الأمر بمعنىٰ أجبره عليه، أي: ألزم القلوبَ وحتَّم عليها الفِطرةَ علىٰ وحدانيّته، والاعترافِ بربوبيته.

هـذا، وقـد أورد الـراغـب الأصبـهـاني رحمـه الله كـلامـاً جيـداً في كتـابـه «المفردات»، ربط فيه بين الجبر الذي هو إصلاح الشيء والمعنـى الأصلي للجبر، وهو العظمة والقهـر. قال: أصل الجبـر: إصـلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرتُه فانجبر، واجتبر، وقد قيل: جبرته فجَبَر، كقول الشاعر ــ وهو العجّاج ــ كما سبق:

قد جَبَر الدِّينَ الإلهُ فجَبَرْ

وقد يقـال الجبـرُ تارةً في الإصـلاح المجـرَّد، نحو قـول علي رضي الله عنه: «يا جـابـر كـلِّ كسير، ويا مسَهِّـل كـلِّ عسيـر»، وتارة في القهر المجّـرد وتقدمـت أمثلته.

وجاء في الحديث: «العجماءُ جُبار، والبئرُ جُبار، والمعدنُ جُبار». جُبارٌ هنا، أي: هَدَرٌ، يقال: ذهب دمُه جُباراً، أي هدراً، والعجماء: هي البهيمة، والمعنىٰ أن جنايتها هدرٌ، هذا إذا لم يكن لها سائقٌ ولا قائدٌ ولا راكبٌ، فإن كان لها أحدُهم فهو ضامـن، لأنه أوطأها النـاس، فأما البئر فهي العاديّـةُ القديمة لا يُعلمُ لها حافرٌ ولا مالك، يقـع فيها الإنسانُ أو غيره، فذلك هَدَرٌ، وأما المعدنُ فإذا انهار علىٰ الحَفَرة فهم هَدَرٌ، لأنهم مستأجَرُون يعملون بكِراء.

[ج ب ل]

يقـول تقدسـت أسمـاؤه، علىٰ لسان نبيـه شعيـب عليه السلام يُخاطبُ قومه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]. الجِبلّـة: هـو الجمـعُ ذو العدد الكثيـر من النـاس، والمراد الخَلْـقُ الأولون، ويقـال: الجبلَّـة، والجُبُلَّة، والجِبلُّ والجُبُلّ، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢] أي: خلقـاً كثيـراً. وقـرئ: «جُبْلاً» و«جُبُلاً»و «جُبُلاًّ» و «جِبْلاً». قال أبو جعفر النحاس: وأبْيَنُها القراءة الأولى ـ يعني: «جِبِلاًّ»، والدليل علىٰ ذلك أنهم قد قـرؤوا جميعـاً: «والجِبلَّـةَ الأوَّلِيْـن» ــ بكسـر الجيم والباء وتشديد اللام ــ فيكون «جِبِلاًّ» جمع جِبِلَّة، واشتقاق الكلِّ من: جبَلَ الله الخلق، أي: خلقهم.

وهذه المادة (جبل) تدلُّ في أصل وضعهـا اللغوي علىٰ معنًى واحد هو تجمّع الشـيء في ارتفاع، ومن هذا الجَبَـلُ المعروف، والجَبَـلُ أيضاً، الجماعة العظيمة الكثيرة، قال الشاعر:

أمَّـا قـريـشٌ فـإن تلقـاهُـمُ أبـداً　　　إلاَّ وهم خيرُ من يَحْفَىٰ وينتعلُ
إلاَّ وهـم جَبَلُ الله الذي قصُرَتْ　　　عنه الجبالُ فما ساوىٰ به جَبَلُ

قال الراغب: واعتُبِر معاني الجَبَل، فاستُعير، واشتُقَّ منه بحسَبه، فقيل: فلانٌ جَبَلٌ لا يتزحزح، تصوُّراً لمعنى الثبات فيه، وجَبَله الله علىٰ كَذا، إشارةٌ إلىٰ ما رُكِّبَ فيه من الطبع، الذي يأبىٰ علىٰ الناقل نقلُه، وفلانٌ ذو جِبِلَّةٍ، أي: غليظ الجسم.

وجاء في حديث الدعاء: «أسألك من خيرها وخير ما جُبلتْ عليه» أي: خُلقَتْ وطُبعتْ عليه. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أتاه زيادُ بنُ عَدي، فوَطَده إلـىٰ الأرض ــ وروي: فأطـره، وكـان رجـلاً مجبـولاً عظيمـاً. . . . . إلـىٰ آخـر الحديث. قوله: «مجبولاً» هو المجتمِعُ الخَلْق، العظيمُ الجِبلَّة، أي: الخِلْقة، وفي

حديث عكرمة: أن خالداً الحذّاءَ كان يسأله، فسكت خالد، فقال له عكرمة: ما لكَ أجْبَلْتَ؟ أي: انقطعتَ، والأصل فيه: أن يحفر الرجلُ حتى إذا بلغ صخرةً لا يحيك فيها المِعْولُ، قيل: أجْبَلَ، أي: أفضىٰ إلىٰ الجبل.

[ج ب ي]

يقول عز من قائل مخبراً عن تسخير الجنّ لنبيّه سليمان عليه السلام وما كانوا يعملونه له: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. قوله: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾. قال ابن عرفة نفطويه: الجوابي: جَمْع الجابية، وهي حفيرةٌ كالحوض ونحوه، يجتمع فيها الماء.

وهذه المادة (جبىٰ) تدلُّ علىٰ أصل واحد في اللغة، وهو جَمْعُ الشيء والتجمع، يقال: جبيتُ المالَ أجْبيه جباية، وجبيتُ الماء في الحوض، والحوض نفسُه يسمى جابيةً، قال الأعشىٰ الكبير، ميمون بن قيس:

تروحُ علىٰ آل المُحَلَّق جَفْنةٌ كجابية الشيخ العراقيِّ تَفْهَقُ

ومن استعمال المادة بمعنى الجمع في القرآن الكريم قوله تعالىٰ، مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

ويُتوسَّع في معنىٰ الاجتباء، فيُراد به الاصطفاء علىٰ جهة الاختيار، ومن ذلك قوله عز وجلّ مخبراً عن نبيه يونس، حين استجاب لتسبيحه ونجّاه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] أي: اختاره، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ

وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٨٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. قوله تعالىٰ: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ أي: يقولون: هلاّ اختلقتها من ذاتك، وهلاً جمعتها؟ تعريضاً منهم بأنه عليه الصلاة والسلام يخترع هذه الآيات وليست من عند الله، ولذلك أمره ربه عز وجل أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾.

وجاء في حديث ثقيف أنهم اشترطوا ألاَّ يُعْشَرُوا ولا يُحْشَرُوا ولا يُجَبُّوا، فقال: «لكم ألا تُعْشَروا ولا تُحْشَروا، ولا خير في دين ليس فيه ركوع». قوله: «ولايُجَبُّوا» من التجبية، وهي أن يقوم الإنسانُ قيام الراكع، وقيل: هو أن يضعَ يديه علىٰ ركبتيه وهو قائم. وقيل: هو السجود. والمراد بقولهم: «لا يُجبُّوا» أنهم لا يصلُّون، ولفظ الحديث يدلّ علىٰ الركوع، لقوله في جوابهم: «ولا خير في دين ليس فيه ركوع»، فسمىٰ الصلاة ركوعاً؛ لأنه بعضها. وسئل جابر رضي الله عنه عن اشتراط ثقيف أن لا صدقة عليها ولا جهاد، فقال: علم أنهم سيصَّدَّقون ويجاهدون إذا أسلموا، ولم يرخِّص لهم في ترك الصلاة، لأن وقتها حاضرٌ متكرر، بخلاف وقت الزكاة والجهاد.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في ذكر القيامة حين يُنفَخ في الصور، قال: «فيقومون فيُجبُّون تجبية رجلٍ واحدٍ قياماً لربّ العالمين». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: التجبية تكون في حالين، إحداهما: أن يضع يديه علىٰ ركبتيه وهو قائم. وهذا هو المعنىٰ الذي في الحديث، ألا تراه يقول: «قياماً لرب العالمين»، والوجه الآخر: أن ينكبَّ علىٰ وجهه باركاً، وهذا هو الوجه المعروف عند الناس، وقد حمله بعض الناس علىٰ قوله: «فيخرّون سجوداً لرب العالمين»، فجعل السجود هو التجبية.

[ج د د]

يقول تعالىٰ حاكياً قولَ الجنّ بعد أن استمعوا القرآن وآمنوا به وصدَّقوه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] قولـه: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: ملكُه وسلطانه وعظمته. ومن معاني الجَدّ، بفتح الجيم: العظمـة والغنىٰ والحظُّ، يقال: زال جَدُّ القوم: إذا زال مُلْكُهم وحظُّهم. وروي أن معاوية كتب إلىٰ المغيرة بن شعبة، رضي الله عنهما: أن اكتُبْ إليَّ بشيءٍ سمعته من رسول الله ﷺ. فكتب إليه المغيرة: إني سمعته يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير. اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيت ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجَدُّ» أي: لا ينفع ذا الغنىٰ منك غناه، إنما ينفعه الطاعة والعمل، وهـذا كقولـه تبـارك وتعـالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعـراء: ٨٨ ـ ٨٩] وقـولـه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ومن ذلك ما روي في الحديث أن النبي ﷺ قال: «قمت علىٰ باب الجنة، فإذا عامّةُ مَن يدخلها الفقراء، وإذا أصحاب الجَدِّ محبوسون» يعني: ذوي الحظ في الدنيا والغنىٰ.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد زعم بعضُ الناس أنه إنما هو: «ولا ينفع ذا الجِدّ منـك الجِدّ» بكسر الجيم، والجِدُّ إنما هو الاجتهـاد في العمل، وهذا التأويل خـلاف ما دعا الله عز وجلّ إليه المومنيـن، ووصفهم به، لأنه قال في كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنـون: ٥١]، فقـد أمرهـم بالجِـدّ والعمـل الصالح، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلىٰ آخر الآيات. وقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] في آيات كثيرة، فكيف

يحثّهـم علىٰ العمل، ويَنْعَتُهـم به ويَحْمَـدُهم عليه، ثم يقول: إنه لا ينفعهم؟ انتهىٰ كلام أبي عُبيد.

وقد أورد الحافـظ ابن حجر علىٰ هذا الحديـث كلاماً جيداً في باب الذّكر بعد الصـلاة من كتاب الأذان في «فتح الباري»، وجـاء في حديث أنس رضي الله عنه، قال: كان الرجلُ إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جَدَّ فينا، أي: عظُم قَدْرُه، وصار ذا جَدّ.

وقال تعالىٰ، منبهاً علىٰ كمـال قدرتـه في خلقه الأشياء المتنوعةَ المختلفة من الشيء الواحد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] قـولـه: ﴿جُدَدٌ﴾ أي: طرائق، الواحدة منها: جُدَّة، وهي الطريقة والخَطة تكون في الجبل، تخالفُ لون ما يليها. وقال أبو العباس المبرِّد: جُدَد: طرائق وخطوط. وقال أبو زكريا الفراء: هي الطرق تكون في الجبال. كالعروق، بيضٌ وسودٌ وحمرٌ، واحدُها جُدَّة، والمعنىٰ أن الله سبحانـه وتعالىٰ أخبر عن جدَد الجبال ــ وهي طرائقها أو الخطوط التي فيها ــ بأنَّ لونَ بعضِهـا البياض ولون بعضهـا الحمـرة، وهـو معنـىٰ قـولـه: ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾.

وجاء في حديث ابن سيرين: كان يختار الصلاة علىٰ الجُدِّ إن قدر عليه، الجُدُّ، بالضـمّ: شاطىء النهر، والجُـدَّة أيضاً، وبه سُمِّيت جُـدَّة لأنها ساحل البحر. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: كان لا يبالي أن يصلّيَ في المكان الجَدَد والبطحاء والتـراب. المكان الجَدَد: هو المستـوي الصُّلْبُ من الأرضين، وفي الحديث: أن النبي ﷺ نهَىٰ عن جَداد الليل وعن حصـاد الليل » الجَـداد، بفتـح الجيم وكسرها: صرامُ النخل، وهو قطع ثمرتها. يقال: جَدَّ الثمرة يَجُدُّها، وإنما نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك رعايـة لحقّ المساكيـن، حتى يحضـروا في النهار فيُتصدَّق عليهم منـه، لقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: ١٤١]. قال أبو عبيد القاسم بن سلام:

فإذا فعَـل ذلك ليلاً، فإنما هو فارٌّ من الصدقة، فنَهَىٰ عنه لهذا، ويقال: بل نَهَىٰ عنه لمكان الهوامّ أن لا تصيب الناس إذا حَصَدوا، أو جَدُّوا ليلاً، قال أبو عبيد: والقول الأول أعجب إليَّ. والله أعلم.

وفي الحديث: أنه أوصىٰ من خيبر بجادٍّ مئة وِسْق للأشعريين، وبجادٍّ مئة وِسْق للشيبيِّيـن أو للشَّنَئيِّين. الجادّ: بمعنى المجدود، أي: المقطوع، أي: أوصىٰ بِنَخْلٍ يُجَدُّ منـه ما يبلغ مئة وسْق. وفي حديـث أبي بكر: أنه قال لعائشة رضي الله عنهما: إني كنت نحلتُكِ جادَّ عشرين وسْقاً من النخـل، وبوُدِّي أنك كنت حُزْتيه، فأمّا اليوم فهو مالُ الوارث». قال أبو عبيد الهروي: تأويله: أنه كان نَحَلها في صحته نَخْلاً كان يُجَدُّ منـه في كل صرام عشرون وسْقاً، ولم يكـن أَقْبضَها ما نَحَلها، فلما مرض رأىٰ النَّخلَ وهو غيـر مقبوض غيرَ جائز، فأعلمهـا أن ورثته شركاؤها فيه، ورحم الله أبا بكر، فقد كان حريصاً علىٰ أن يلقىٰ ربَّه غيرَ مضيِّعٍ لحق، ولا مجانباً لعدل.

[ج د ل]

يقـول ربنا عز وجل آمـراً رسولـه محمـداً ﷺ أن يدعو الخلق إلىٰ الله بالحكمة وهي ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، والموعظة الحسنة، ثم نبهه إلىٰ أن مَن احتاج منهـم إلىٰ مناظرة وجدال فليكن ذلك بالوجه الحسن، برفـق ولين وحسن خطاب، فيقول عز من قائل: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم﴾ من الجَدَل، وهو مقابلة الحجّة بالحجّة، والمناظرةُ: أن تُدفعَ الحجة بنظيرتها. والجدل منه محمود ومنه مذموم، فالمحمود ما كان لإظهار الحقِّ، وإقرار العدل، وهو الذي في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، والمذموم ما كان

علىٰ سبيل المنازعة والمغالبة علىٰ الباطل، وهو المراد في الحديث: «ما أوتي قوم الجَدلَ إلا ضلّوا»، وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]: هذا جدال دفع لها وردّ.

وقال بعض أهل اللغة: الجَدَل: اللَّددُ في الخصام، ورجل جَدِلٌ. وأصل ذلك كله من جَدْل الحبل، وهو شدَّة الفتْل، ومنه قيل للحبل الذي يجعل في رأس البعير: جديلٌ. ويقال: رجلٌ مجدول الخلق، أي: شديده، ولأن هذه المادة ترجع إلىٰ معنى الشدة، قيل للأرض ــ وهي صُلْبة ــ: الجدَالَة.

قال الراجز:

قـد أركـب الآلـة بعـد الآلـهْ وأتـرُكُ العـاجـزَ بـالجـدَالَـهْ

ولذلك يقال: طعن فلانٌ فلاناً فجَدَّله، أي: رماه بالأرض.

ومن ذلك قوله ﷺ: «أنا خاتم النبيين في أمّ الكتاب، وإنّ آدم لمنجدلٌ في طينته». منجدلٌ، أي: ملقىً علىٰ الجَدالة، وهي الأرض، والطِّينة: الخِلقة. والمعنىٰ: كُتبْتُ خاتم الأنبياء في الحال التي آدمُ عليه السلام مطروح علىٰ الأرض، حاصلٌ في أثناء الخِلْقة لمّا يُفْرغْ من تصويره وإجراء الروح فيه. ومن ذلك حديث علي بن أبي طالب حين وقف علىٰ طلحة رضي الله عنهما يوم الجمل وهو قتيل فقال: أعْزِزْ عليَّ أبا محمد أن أراك مجدَّلاً تحت نجوم السماء في بطون الأودية، شفيتُ نفسي وقتلتُ معشري، إلىٰ الله أشكو عُجَري وبُجَري. ومنه أيضاً حديث معاوية رضي الله عنه، قال لصعصعة بن صوحان: أنت رجلٌ تتكلُم بلسانك، فما مرَّ عليك جدَّلْتَه، ولم تنظر في أرْز الكلام، ولا استقامته، فقال له صعصعة: والله إنّي لأترُك الكلام حتى يختمر في صدري، فما أُزْهف به ولا ألْهِبُ فيه، حتىٰ أقوِّمَ أوَدهَ وأنظُرَ في اعوجاجه، فآخذَ صفوه وأدَعَ كدرَه، أراد معاوية أن صعصعة يتكلّم بكلّ ما يعنُّ له من غير رويّة، فشبّهه بالصائد الذي يرمي فيجدِّل كل ما أكثبه من الوحش

المارّ عليه. وأرْزُ الكلام: هو التئامه واجتماع شمله، مأخوذ من: أرَزَ الشيء: ثبت في مكانه فاجتمع. ومنه الآرزة من الإبلِ وهي القوّية الشديدة. وقول صعصعة: «فما أُزهِفُ به» الإزهاف: الاستقدام. يقال: أزْهفْتُ قُدْماً. ويعني صعصعة أنه ما يقدِّم كلامه قبل النظر فيه، ويجوز أن يكون من أزهف فلانٌ في الحديث: إذا زاد فيه وقال ما ليس بحق، وقوله: «ولا أُلهبُ فيه» من الإلهاب، وهو الإسراع.

ومن أحاديث هذه المادة ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت في العقيقة: تُذبَحُ يومَ السابع، وتُقَّطعُ جُدُولاً، ولايُكسرُ لها عظم. الجُدول: جمع جَدْل، بفتح الجيم وكسرها، وهو العضو، وقال أبو العباس المبرّد: الجَدْل: العَظْمُ يُفْصلُ بما عليه من اللحم.

ومن أحاديث المادة أيضاً: ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كتب في العبد، إذا غزا علىٰ جديلته، لا ينتفع مولاه بشيء من خدمته: «فأسْهِمْ له» الجديلة: الحالة الأولىٰ. يقال: القوم علىٰ جديلة أمرهم، أي: علىٰ حالتهم الأولىٰ. وركب جديلة رأيه، أي: عزيمته. والجديلة أيضاً: الناحية، وأراد عمر رضي الله عنه أن العبد إذا غزا منفرداً عن مولاه، غير مشغول بخدمته عن الغزو، فإنه يسهم له من الغنائم.

وروي عن مجاهد رضي الله عنه، أنه قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] قال: علىٰ جديلته، أي: علىٰ طريقته وناحيته، وقال شمر: ما رأيت تصحيفاً أشبه بالصواب مما قرأ مالك بن سليمان، عن مجاهد، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: علىٰ جديلته، فإنه صحّف قوله علىٰ جديلته، فقال: علىٰ حدٍّ يليه.

[ج ذ ذ]

يقـول ربنا عزَّ وجلّ مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام، وما فعله بأصنام قومه: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي: كسَّر الأصنام، وجعلها فُتاتاً. وقوله: ﴿جُذَٰذًا﴾ قرىء بضم الجيم علىٰ أنه فُعال الذي يأتي بمعنىٰ مفعول، مثل حُطام بمعنىٰ مَحطوم. ورُفات بمعنى مَرْفوت، وفُتات بمعنىٰ مَفتوت، وقرأ الكسائيُّ والأعمش وابن محيصن: ﴿جِذاذاً﴾ بكسر الجيم، علىٰ أن يكـون جمع جذيذ، وهو الهشيـم، مثل خَفيف وخِفـاف، وظَريف وظِراف، وقال الشاعر:

جـذَّذَ الأصنـامَ فـي مِحـرابِهـا ذاك في اللّهِ العليِّ القادرِ

وأفاد الجوهريُّ أن الضم في «جُذاذ» أفصح من الكسر.

وهذه المادة «جذذ» تدلُّ علىٰ الكسر أو القطع، ومن ذلك قـوله عزّ من قائل، مخبراً عما أَعَدَّه لعباده المؤمنين من نعيم خالد: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هـود: ١٠٨]، أي: غيـر مقطوع. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: معنى الاستثنـاء ها هنا أن دوامهم فيما هم فيـه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكـولٌ إلى مشيئة الله تعالىٰ، فله المنَّـةُ عليهم دائماً، وعقب ذلك بقـوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع، لئلا يتوهَّم متوهِّم، بعد ذكـره المشيئـة أن ثَمَّ انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع.

وفي الحديث أنه قال يوم حنين: «جُذُّوهم جَذّاً» أي: استأصلوهم قتلاً، ومنه حديـث مازن بن الغضوبة، قـال: فثُرتُ إلىٰ الصنم فكسرتـه أجـذاذاً، أي: قطعـاً وكِسَراً، وواحد الأجذاذ: جَذٌّ. ومن أحاديث المادة ما جاء في حديث أنس بن مالك

رضي الله عنه، وهو ما ذكره محمد بن سيرين، قال: أصبحنا ذات يوم بالبصرة ولا ندري علىٰ ما نحن عليه من صومنا، فخرجت حتىٰ أتيت أنس بن مالك، فوجدته قد أخـذ جذيـذة، كان يأخذها قبل أن يغدو في حاجته ثم غدا. قوله: «جذيـذة» أي: شَرْبةٌ من سَوِيق أو نحو ذلك، وسُمِّيتْ جذيذةً لأنها تُجَذُّ، أي: تُدقُّ وتطْحن، ومنه حديث علـي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه أمر نَوْفًا البِكاليَّ أن يأخذ من مِـزْوَدِه جذيذاً، وحديثه الآخر: رأيتُ علياً رضي الله عنه يشرب جذيذاً حين أفطر.

[ج ذ و]

يقـول عزَّ من قائـل في قصة موسى عليه وعلىٰ نبينـا الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩]. الجَذْوة، بفتح الجيم وضمها وكسرها، ثلاث لغات، وهي ما يبقىٰ من الحطب بعد الالتهاب. وقيل: هي الخشبة يُشْعَل فيها النار. وقال مجاهد في الآية: إن الجَذْوة: قطعةٌ من الجمر في لغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: الجَذْوة: هي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نارٌ أو لم يكن. ومما يؤيّد أن الجَذْوة هي الجمرة قول الشاعر:

وبُـدّلـتُ بعـدَ المِسـكِ والبـانِ شِقـوةً دُخانَ الجَذَىٰ في رأسِ أشمطَ شاحبِ

وروي عن النبي ﷺ أنه قـال: «مَثَلُ المؤمن مَثَلُ الخامةِ من الزرع تُميِّلها الرِّيحُ مرَّةً هكذا ومرَّةً هكذا، ومَثَـلُ المنافق ــ وروي الكافر ــ مَثَـلُ الأَرْزةِ المجذية على الأرض حتى يكون انجعافُها مرَّة».

المجذيـة: هي الثابتـة في الأرض المنتصبـة. يقـال: جـذا يجـذو، وأجذىٰ

يُجْـذي، أي: ثبـت وانتصـب. والأرْزة، بتسكيـن الـراء. شجـر معـروف بالشام، ويُسمّـىٰ بالعـراق: الصَّنَوْبـر. قال أبو عبيد: والصنوبر ثمر الأرز، فسُمِّـي الشجر صنوبراً من أجل ثمره. والخامة: هي الطاقة الغضة اللينة من الزرع. قال الطرماح:

إنمـا نحـن مِثـلُ خـامـةِ زَرْعٍ　　فمتـىٰ يـأْنِ يـأتِ مُحْتَصـدُهْ

والانجعاف: الانقلاع. والحديث مَثَلٌ في أن المؤمن معرَّضٌ للبلايا تطهيراً له وزيـادةً في حسناته يومَ يلقىٰ ربَّه، وأن الكافر منعَّمٌ في الدنيا مُمتَّعٌ موفور، حتى إذا جاءه الموتُ واقتلعه من هذه الحياة الفانية، كان عذابه كلُّه في الدار الباقية. قال أبو عبيـد القاسم بن سلام: والمعنـى فيما نرىٰ أن النبـي ﷺ شبَّـه المؤمنَ بالخامة التي تميّلها الريحُ؛ لأنه مُرَزَّأٌ في نفسه وأهلِه وماله وولدِه، وأما الكافر فمَثَلُ الأرْزةِ التي لا تميّلها الريحُ؛ والكافر لا يُرْزَأ شيئاً حتى يموت، فإن رُزِىءَ لا يؤجَرُ عليه، فشبَّه موته بانجعافِ تلك الأرزة، حتىٰ يلقى الله بذنوبه جمة، نسأل الله أن يجعل ما نلاقيه في هذه الحياة الفانية تكفيراً لسيئاتنا، وزيادةً في حسناتنا يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

[ج ر ح]

يقـول تقدسـت أسماؤه، مبيناً لعباده ما يحلّ لهم من الأطعمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. قـال مقـاتـل: الطيبـاتُ: ما أُحِلَّ لهم من كل شيء أن يصيبـوه، وهو الحـلالُ من الرزق. وقوله تعـالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أُحلَّ لكم الذبائـحُ التي ذُكِـر اسمُ الله عليها والطيبـاتُ من الرزق، وأُحِـل لكـم ما صِدْتمـوه بالجـوارح، وهي الكلاب

والصقور وأشباهُهما.

وسُمّيت هذه الحيواناتُ التي يُصطاد بها جوارح، من الجَرْح، وهو الكسْب، كما تقول العرب: فلانٌ جَرَحَ أهله خيراً، أي: كسَبَهم خيراً. ويقولون: فلانٌ لا جارحَ له: أي لا كاسبَ له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] الآية. ويقال: جرح واجترح، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وسمِّيت أعضاء الإنسان جوارح؛ لأنها تكسب وتتصرَّف.

وهذه المادة (جرح) تدل على معنيين في أصل اللغة: أحدهما: الكسبُ، والآخرَ: شقُّ الجلد. وقد مضت شواهد المعنى الأول. والمعنى الثاني معروف، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكذلك الحديث: «العجماءُ جَرْحُها جُبار». والعجماء: الدابة، وجُبارٌ، أي: هَدَر. والجَرْح بفتح الجيم: المصدر، والجُرْح بالضم: الاسم. وسُمّي القَدْحُ في شهادة الشاهد وردُّها: جَرْحاً، تشبيهاً بذلك. ويقال: استَجرحَ فلانٌ: إذا عمل عملاً يُجْرَحُ من أجله. وقال عبد الملك بن مروان في خطبته: وقد وعظتكم فلم تزدادوا على الموعظة إلا استجراحاً، أي: لم تزدادوا إلا فساداً تستحقُّون به أن يُطعَن عليكم كما يُفْعَلُ بالشاهد الذي يجرح فتُردُّ شهادتُه. ومن ذلك قول ابن عون رحمه الله: كثرت هذه الأحاديث واسْتَجْرَحَتْ، أي: فسدت وقلَّ صِحاحُها، مأخوذٌ من جرَحَ الشاهد: إذا طعن فيه وردَّ قوله. وأراد ابن عون: أن الأحاديث كثرت حتىٰ احوجَتْ أهل العلم بها إلى جَرْح بعض رُواتها وردِّ روايته. ومن ذلك سمي علمُ قبول الرواة وردِّهم: علمَ الجرح والتعديل.

[ج ر م]

يقول عزَّ من قائل، على لسان نبيه شعيب عليه السلام يخاطب قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ [هود: ٨٩]. قوله: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ أي: لا يحملنّكم خلافي وبُغْضي علىٰ تكذيبي، وهو قول الكسائيّ وثعلب. وهذا الفعل يتعدىٰ إلىٰ مفعولين، يقال: جَرَمني كذا علىٰ بغضك، أي: حملني عليه، ومنه قول الشاعر:

ولقد طعنتُ أبا عُيَيْنَةَ طعنةً   جرَمَتْ فَزارةَ بعدَها أن يغضَبوا

أي: حملتهم على الغضب. وقال أبو عبيدة والفراء: معنىٰ ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ أي: لا يُكسبنّكم، وفسَّرا علىٰ هَذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: ٢] قالا: لا يُكسبنّكم بغضُ قوم أن تعتدوا الحقَّ إلىٰ الباطل، والعَدْلَ إلىٰ الجور. ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنّكم ولا يكسبنّكم بغض قوم على مخالفة أحكام الله عزَّ وجلَّ. وقوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] قيل: جَرَم معناه كسب. وقيل: حقَّ ووجب. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] أي: كسب لهم كفرُهم الخَسارَ. وقال مجد الدين ابن الأثير: هذه كلمة تردُ بمعنىٰ تحقيق الشيء، وقد اختلف في تقديرها، فقيل: أصلها التبرئة بمعنىٰ لا بُدَّ، ثم استعملت في معنىٰ حقاً. وقيل: جرم بمعنىٰ كسب، وقيل: بمعنىٰ وجب وحُقَّ، و«لا» ردٌّ لما قبلها من الكلام. ثم يُبتدأ بها، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] أي: ليس الأمر كما قالوا، ثم ابتدأ فقال: وجب لهم النار.

وقد ردَّ ابن فارس كلَّ اشتقاقات هذه المادة «جرم» إلى معنًى واحد هو القطع،

فجرَمَ بمعنىٰ كسب، لأن الذي يحوزه فكأنه اقتطعه، والجُرْم والجريمة الذنْب، لأن الذنْبَ كسْبٌ، والكسبُ اقتطاع، والجَسد من الإنسان والدوابِّ: جِرْم، لأنَّ له قدْراً وتقطيعاً. وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اتقوا الصُّبْحَةَ، فإنها مَجْفَرةٌ مَثْـنَةٌ للجرْم» أي: البدن، والصُّبحة المنهيُّ عنها هي: النومُ أوّلَ النهار، لأنه وقت الذكـر، ثم وقت طلب الكسْب. وجاء في بعض الحديث: «لا والذي أخرج العَذْقَ من الجريمة». والعَذْق: النخلة، والجريمة: النواة، وهو راجع لمعنىٰ القطع أيضاً، فيقال لصِرام النخل: الجِرام. والجَرامُ والجَرِيمُ: التمرُ اليابس.

[ج ر ى]

يقول ربُّنا عز وجل مخبراً عن نوح عليه السلام، حين أمر من آمن من قومه أن يركبوا في السفينة، فيقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]. أي: باسم الله يكون جريُ السفينة علىٰ وجه الماء، وباسم الله يكون منتهىٰ سيرها وهو رسوُّها. والسفينة نفسها تسمَّىٰ جارية، لانسياحها علىٰ وجه الماء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]. وتُجْمَـع الجاريـة بمعنـىٰ السفينة، علىٰ جوارٍ وجاريـات، قال عزّ من قائل، ذاكراً بعض آياته الدالة علىٰ كمـال قدرته، الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]. قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: هي السُّفُن.

ومن أحاديث هذه المادة، مادة (جرىٰ)، ما رُوي عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، أنه قال: قدمتُ علىٰ النبيّ ﷺ في رهط من بني عامر، فسلَّمْنا عليه،

فقالـوا: أنت والدُنا، وأنت سيدنا، وأنت أطول طَوْلاً، وأنت الجفنةُ الغراء، فقال ﷺ: «قولوا بقولكم، ولا يَسْتجريَنَّكم الشيطان»، وروي: «ولا يستهوينّكم». قوله عليه الصلاة والسلام: «قولوا بقولكـم» أي: بما هو عادتُكـم من القـول المسترسَل فيـه، علىٰ السجيَّـة، دونَ القول المتكلف المتعمَّـل، للتزيّـد في الثنـاء، وقيل: إن المراد: قولوا بقول أهل الإسلام، ومخاطبتهم له بالنبي والرسول، لأن ما خاطبوه به من تحيـة أهل الجاهليـة لملوكهـم. وقوله: «لا يستجرينّكم الشيطـان» مأخوذ من قولهم: استجرْيتُ فلاناً: أي اتخذتُه وكيلا، واشتقاق ذلك من الجَرْي، لأن الوكيل يجري مَجْرَىٰ موكِّله.

ينهاهم ﷺ ان يتكلفوا الكـلام تكلُّفاً، كأنهم وكلاءُ الشيطان، يتّبعون خطواتِه وينطقون عن لسانِه. وجاء في حديث النهي عن الرياء: «من طلب العلمَ ليجاريَ به العلمـاء» أي: يجري معهم في المناظـرة والجـدال، ليُظهرَ علمَه إلى الناس، رياءً وسمعـة. ورُوي: «مَن طلب العلـمَ ليبـاهيَ به العلمـاء، أو ليمـاريَ بـه السفهاء، وليصـرفَ وجوه الناسَ إليه فهو في النار». وفي رواية ثالثة: «من طلب العلـمَ لغير الله، أو أراد به غيرَ الله فليتبوأ مقعدَه من النار». وجاء في الحديث: «الأرزاق جاريةٌ والأُعْطياتُ دارَّة». قوله «جارية» و«دارَّة» هما شيء واحد. يقول: هو دائم، يقال: جرىٰ له الشيءُ ودرَّ له، بمعنى دام له.

[ج ز أ]

يقـول تعالـىٰ مخبـراً عن المشركين في افترائهم وكذبهم: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]. قوله ﴿جُزْءًاۚ﴾ قال قتادة: أي عِدْلاً، يعني ما عُبـد من دون الله عز وجـل. وقـال أبو إسحاق الزجـاج: معنـاه: جعلـوا

الملائكـة بناتِ الله، وقد حكىٰ المبّردُ والزجاجُ قولهم: أجزأت المرأة: أي ولدتْ أنثى. ثم قال الزجّاج: وقد أُنْشِدتُ لبعض أهلِ اللغة بيتاً يدلُّ على أن معنى: «جُزْء» معنىٰ الإناث، ولا أدري! البيتُ قديمٌ أو مصنوع. وذلك قول الشاعر:

إنْ أجـزأتْ حـرَّةٌ أنثـىٰ فـلا عجـبٌ   قد تُجزئُ الحرَّةُ المِذكارُ أحياناً

ولم يُرضِ الزمخشريَّ تفسيرُ الجُزء بالإناث، وادعاءُ أن الجُزءَ في لغـة العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلاَّ كذبٌ على العرب، ووضعٌ مستحدثٌ منحول، ولـم يُقنعهم ذلك حتـى اشتقُّوا منه: أجزأت المرأةُ، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً: «إن أجزأت حرَّةٌ يوماً فلا عجبٌ». وقوله:

زوِّجْتُهـا مـن بنـاتِ الأرضِ مُجْـزئـةً

وقال أبو منصور الأزهريُّ أيضاً: ولا أدري ما الجُزْءُ بمعنىٰ الإناث، ولـم أجدهُ في شعـر قديم، ولا رواه عن العـرب الثقـات، ولا يُعبـأُ بالبيـت الـذي ذكروه لأنه مصنوع.

وقد ردَّ الإمـامُ الشوكانيُّ علىٰ الزمخشري إنكاره تفسير الجُزء بالإناث، فقال بعد أن حكـىٰ قوله السابق: ويُجاب عنه بأنه قد رواه الزجـاج والمبرِّد، وهما إماما اللغـة العربيـة وحافظاها، ومَن إليهما المنتهـىٰ في معرفتهـا. ويؤيّـد تفسير الجزء بالبنـات ما سيأتـي من قوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٦] وقولـه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧] وقـوله: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]. قال الشوكاني: وقيل: المراد بالجزء هنا الملائكة فإنهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه. قاله مجاهـد والحسن. قال الأزهـري: ومعنىٰ الآية أنهم جعلوا لله من عباده نصيباً علىٰ معنىٰ أنهم جعلوا نصيبَ الله من الولدان. والله تعالىٰ أعلم بمراده.

ومما جاء من مادة (جزأ) في السنة المطهرة مارواه الإمام البخاريّ، من حديث

أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». الجزء: النصيب والقطعة من الشيء، قال مجد الدين بن الأثير: إنّما خُصَّ هذا العدد؛ لأنّ عمُر النبي ﷺ ـ في أكثر الروايات الصحيحة ـ كان ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدّةُ نبوّته منها ثلاثاً وعشرين سنة؛ لأنه بُعِثَ عند استيفاء الأربعين، وكان في أول الأمر يرىٰ الوحي في المنام، ودام كذلك نصف سنة، ثم رأىٰ الملَك في اليقظة، فإذا نُسبت مُدَّةُ الوحي في النوم ـ وهي نصف سنة ـ إلىٰ مدة نبوّته، وهي ثلاث وعشرون سنة، كانت نصفَ جزء من ثلاثة وعشرين جزءاً، وذلك جزءٌ واحد من ستّة وأربعين جزءاً.

وقد تعاضدت الرواياتُ في أحاديث الرؤيا بهذا العَدد، وجاء في بعضها «جزءٌ من خمسة وأربعين جزءاً»، ووجْه ذلك أن عمره ﷺ لم يكن قد استكمل ثلاثاً وستّين ومات في أثناء السنة الثالثة والستين، ونسبةُ نصف السنة إلىٰ اثنتين وعشرين سنة، وبعضِ الأخرىٰ نسبةُ جزءٍ من خمسة وأربعين جزءاً. وفي بعض الروايات جزءٌ من أربعين. ويكون محمولاً علىٰ من روىٰ أن عمره ﷺ كان ستين سنة، فيكون نسبةُ نصفِ سنة إلىٰ عشرين سنة كنسبةِ جزء إلىٰ أربعين.

هذا، وقد حكىٰ الحافظ ابن حجر في «الفتح» كلام العلماء في تخصيص العدد الوارد في هذا الحديث، ثم نقل عن الإمام الخطابي قوله: وهذا، وإن كان وجهاً تحتمله قسمة الحساب والعدد، فأول ما يجب علىٰ من قاله أن يُثبت بما ادَّعاه خبراً، ولم يُسمع فيه أثرٌ، ولا ذكَر مُدَّعيه في ذلك خبراً، فكأنه قاله علىٰ سبيل الظنّ، والظنُّ لا يغني من الحقّ شيئاً، ولئن كانت هذه المدّة محسوبة من أجزاء النبوة ـ علىٰ ما ذهب إليه ـ فليُلحقْ بها سائر الأوقات التي كان يُوحىٰ إليه فيها في منامه في طول المدَّة كما ثبت ذلك عنه في أحاديث كثيرة جليلة القدر، والرؤيا في أُحُد، وفي دخول مكة، فإنه يتلفق من ذلك مدةٌ أخرىٰ، وتزاد في الحساب فتبطل القسمة التي ذكرها. قال الخطابي: فدلّ ذلك علىٰ ضَعف ما تأوَّله المذكور. وليس كلُّ ما خفي علينا علمه لا يلزمنا حجَّتُه، كأعداد الركعات، وأيام الصيام، ورمي الجمار،

فإنّا لا نصل من علمها إلىٰ أمر يوجب حصرها تحت أعدادها، ولم يقدح ذلك في موجب اعتقادنا للزومها، وهو كقوله ﷺ في حديث آخر: «الهَدْيُ الصالح والسمت الصالح جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوّة»، فإن تفصيل هذا العدد وحصر النبوة متعذّر، وإنما فيه أن هاتين الخصلتين من جملة هَدي الأنبياء وسَمْتهم، فكذلك معنىٰ حديث الباب: المراد به تحقيق أمر الرؤيا، وأنّها ممَّا كان الأنبياء عليه، وأنها جزءٌ من أجزاء العلم الذي كان يأتيهم، والأنباء التي كان ينزل بها الوحي عليهم. هذا كلام الخطابيّ.

وحكىٰ ابن حجر أيضاً في هذا المقام كلامَ أبي عبد الله المازَرِيّ، من كبار فقهاء المالكية، وهو صاحب كتاب «المُعْلِم بفوائد مسلم». قال المازَرِيّ رحمه الله: وأما خصوص العدد فهو مما أطلع الله عليه نبيَّه ، لأنه يعلم من حقائق النبوَّة ما لا يعلمه غيره . ثم قال: لا يلزم العالِم أن يعرف كل شيء جملة وتفصيلاً، فقد جعل الله للعالمِ حدّاً يقف عنده، فمنه ما يعلم المراد به جملة وتفصيلاً، ومنه ما يعلمه جملة لا تفصيلاً. وهذا من هذا القبيل. انتهىٰ كلام المازريّ.

وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ: أجزاء النبوّة لا يعلم حقيقتها إلاَّ ملَكٌ أو نبيّ، وإنما القدْرُ الذي أراده النبيّ ﷺ أن يبيّن أن الرؤيا جزءٌ من أجزاء النبوّة في الجملة، لأن فيها اطلاعاً علىٰ الغيب من وجه ما، وأما تفصيل النسبة فيختص بمعرفته درجةُ النبوّة.

وقد أورد الحافظ ابن حجر كلاماً طويلاً نفيساً حول تخصيص العدد في هذا الحديث الشريف، فمن أرادهُ فليتمسه في «فتح الباري»: باب رؤيا الصالحين من كتاب التعبير، وإنما أطلت في النقل عنه لأني رأيت كثيراً من الناس يعوِّلون في فهم هذا الحديث علىٰ ما ذكره ابن الأثير وحده، وحديث رسول الله ﷺ أجلُّ وأدَقُّ من أن يُرْكَن في فهمه وتأويله إلىٰ قولِ واحدٍ من العلماء والإعراض عمن سواه. ونسأل الله التوفيق في الفهم والعمل.

[ج ز ى]

يقول ربنا عز وجل محذراً بني إسرائيل من نقمته بهم يوم القيامة ومنبِّهاً إلىٰ أنه لن يُغني أحدٌ عن أحد في هذا اليوم، فيقول عز من قائل: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقضي نفس عن نفس شيئاً ولا تنوب. والمعنىٰ: لا يُغني أحدٌ عن أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي: لا تحمل نفس وزر نفس أخرىٰ، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] وقوله: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

وهذه المادة (جزىٰ) تدلُّ في أصل وضعها اللغوي على قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إيّاه. تقول: جَزَىٰ عني هَذا الأمرُ يَجْزي، كما تقول: قَضَىٰ يَقْضي. وتجازيت دَيني علىٰ فلان، أي: تقاضيته. قال ابن فارس: وأهل المدينة يُسَمُّون المتقاضي: المتجازي. وجاء في الحديث: «أن رجلاً كان يداين الناسَ، وكان له كاتبٌ ومُتجازٍ»، فالمتجازي: هو المتقاضي. وجاء في حديث الضحيّة: « لا تَجْزي عن أحد بعدك» أي: لا تقضي. ومنه حديث صلاة الحائض: «قد كُنَّ نساءُ رسول الله ﷺ يحِضْن، فأمرهن أن يَجْزين» أي: يَقْضين. ومعنىٰ قولهم: جزاه الله خيراً، أي: قضاه الله وأعطاه جزاء ما أسلف وقدَّم من طاعته.

وقوله تعالىٰ في قصة يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥] أي: جزاء السارق استعباده، وفيه اختصار، كأنه قال: جزاؤه استرقاق من وجد في رحله. وهكذا كان الحكم في شريعة إبراهيم عليه السلام، أن السارق يُدْفَعُ إلىٰ المسروق منه فيسترقه ويكون عبدَه.

ومن مـادة (جزىٰ) الجزْية، وهي المال الذي يؤخَذُ من أهل الذمَّة، وهي من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتلهم. قال تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ويقـال: فـلانٌ جازيك، أي: كافيـك، ويقـال: جزيتـه بكـذا وجازيته. قال الراغب الأصبهانيُّ: ولم يجئ في القرآن إلاَّ جَزَىٰ دون جازَىٰ، وذاك أن المجـازاة هي المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحد من الرجلين. والمكافأة هي مقابلة نعمةٍ بنعمةٍ هي كُفْؤها، ونعمةُ الله تعالىٰ ليستْ من ذلك، ولهذا لا يُسْتَعمل لفظ المكافأة في الله عزَّ وجلَّ.

وجاء في الحديث القدسي الذي يرويـه رسول الله ﷺ عن ربه: «قال الله عزّ وجل: كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصومَ، فإنه لي وأنا أجزي به». قال مجد الدين ابن الأثير: قد أكثر الناسُ في تأويل هذا الحديث، وأنه لِمَ خَصّ الصوم والجزاء عليه بنفسه عز وجل، وإن كانت العبادات كلها له، وجـزاؤها منه، وذكروا فيه وجوهاً مدارُها كلُّهـا علىٰ أن الصوم سرٌّ بين الله والعبد لا يطَّلع عليه سواه، فلا يكون العبد صائمـاً حقيقـة إلا وهو مخلص في الطاعـة. وهذا، وإن كان كمـا قالوا، فإنَّ غيـر الصوم من العبادات يشاركه في سرِّ الطاعة، كالصلاة علىٰ غير طهارة، أو في ثوب نجس، ونحو ذلك من الأسرار المقترنة بالعبادات التي لا يعرفها إلا الله وصاحبها.

وأحسن ما سمعت في تأويل هذا الحديث: أن جميع العبادات التي يتقرّب بها العبـاد إلى الله عز وجل من صـلاة وحج وصدقـة واعتكـاف وتبتُّـل ودعـاء وقربان وهَـدْي، وغير ذلك من أنواع العبادات ــ قد عبـد المشركون بها آلهتهـم وما كانوا يتخذونـه من دون الله أنـداداً، ولم يسمع أن طائفـة من طوائف المشركيـن وأرباب النِّحَل في الأزمان المتقادمة عبدت آلهتها بالصـوم، ولا تقرَّبت إليها به ، ولا عُرف الصوم في العبادات إلاّ من جهة الشرائع، فلذلك قال الله عز وجلّ: «الصوم لي وأنا

أجزي به»، أي: لم يشاركني أحد فيه، ولا عُبِدَ به غيري، فأنا حينئذ أجزي به وأتولّىٰ الجزاء عليه بنفسي لا أكِلُه إلى أحد من ملَك مقرَّب أو غيره، علىٰ قدْر اختصاصه بي.

هذا كلام ابن الأثير في كتابه «النهاية»، ولم يصرح بصاحب هذا الرأي الذي سمعه واستحسنه في تأويل الحديث، وقد صرَّح به في كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول» فقال: «وهذا القول أخبرني به الأمير مجاهد الدين أبو منصور قايماز بن عبد الله أدام الله سعادته، وذكر أنه مما وقع له ابتكاراً ولم يسمعه من أحد ولا وقف عليه في كتاب، ولم أسمعه أنا من غيره، ولقد أصاب فيما وقع له وأحْسَن».

[ج س س]

يقول ربنا عزَّ وجل، ناهياً عباده المؤمنين عن كثير الظنّ، وعن التجسُّس والغيبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ قال مجاهد: أي خذوا ما ظهر، ودعوا ما ستر الله عز وجل، والتجسُّس بالجيم: هو البحث عما يُكتَم عنك من عيوب الناس وعوراتهم، وأكثر ما يقال في الشرّ، ومنه الجاسوس، وهو صاحب سرِّ الشرّ.

والتحسُّس ــ بالحاء ــ هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسِّه، ومنه قوله عز وجل، إخباراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقيل: إن

التجسُّس والتحسُّس بالجيم والحاء معناهما واحد في تطلُّب معرفة الأخبار.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن التجسُّس وتتبع عورات الناس. منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم. المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقرُه، التقوىٰ هاهنا، التقوىٰ هاهنا، ويشير إلىٰ صدره. بحَسْب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم علىٰ المسلم حرامٌ: دمه وعرضه وماله. إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم، ولا إلىٰ صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم».

وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول مكارم الأخلاق التي دعا إليها المبعوث ليتمِّم مكارم الأخلاق ﷺ.

ورُوي عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتَّبعْتَ عورات المسلمين أفسَدْتَهم، أو كِدْتَ أن تُفسدهم». وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أُتي برجل فقيل له: هذا فلانٌ تقطُرُ لحيته خمراً، فقال: إنَّا قد نُهِينا عن التجسُّس، ولكن إنْ يظهرْ لنا شيءٌ نأخذْ به.

وإن كان الشارع قد نهىٰ عن التجسس وتتبُّع عورات المسلمين، فإنه قد نَدَبَ إلىٰ ستر عورات المسلمين ونهىٰ عن إشاعتها لغير ضرورة من رَدْع أو زجر أو عظة. قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تؤذوا عبادَ الله ولا تعيِّروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته». وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يسترُ عبدٌ عبداً في الدنيا إلاَّ

ستره الله يوم القيامة». وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ أمتي معافىً إلاَّ المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبحَ وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه ويصبح يكشف ستر الله عليه». وعنه أيضاً رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «إذا زنت الأمَةُ فتبيَّنَ زناها فليجلدْها الحدَّ ولا يثرِّبْ عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحدَّ ولا يُثرِّبْ عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبعْها ولو بحَبْل من شعر» والتثريب هو التوبيخ. وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أُتي النبيُّ ﷺ برجل قد شرب، قال: «اضربوه»، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمنّا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله. قال: «لا تقولوا هكذا، لا تُعِينوا عليه الشيطان»، وفي رواية للبخاري أيضاً: «لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم». قال الحافظ ابن حجر: ووجه عونهم الشيطان بذلك: أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية، أن يحصل له الخزيُ، فإذا دعَوْا عليه بالخزي فكأنهم قد حصَّلوا مقصود الشيطان. ووقع عند أبي داود زيادةٌ في آخر الحديث: «ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمْه».

وروىٰ الإمام أحمد، عن أبي الهيثم، عن دُجَين كاتب عقبة، قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر. وأنا داعٍ لهم الشُّرُطَ فيأخذونهم، قال: لا تفعل ولكن عِظْهم وتهدَّدْهم. قال: ففعل فلم ينتهوا، قال: فجاءه دُجَين، فقال: إني قد نهيتهم وإني داع لهم الشُّرُط فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مَوْءُودَةً من قبرها». وهكذا كان ﷺ في شأنه كله، رحيماً بأمته حريصاً على هدايتهم وأَخْذهم بمكارم الأخلاق، فكان كما وصفه ربه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

[ج ع ل]

يقول ربنا عز وجل عن كتابه الحكيم: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] قوله: ﴿ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: سمّيناه ووصفناه، وقال السُّدّيّ: المعنىٰ أنزلناه، وقال سفيان الثوريّ: بيَّنّاه.

وهذه المادة (**جعل**) تتصرَّف في اللسان العربيّ علىٰ وجوه شتَّىٰ لا يُشبه بعضها بعضاً. والفعل «جَعَل» أيضاً يتصرف إلىٰ وجوه كثيرة، فيأتي بمعنى صيَّر، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ويأتي بمعنىٰ أَوْجَدَ، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ويأتي بمعنىٰ إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢] وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل: ٨١]، ويأتي بمعنىٰ الحكم بالشيء علىٰ الشيء حقاً كان أو باطلاً، فأما الحقُّ فنحو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] وأما الباطل فنحو قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩١] أي: حكموا عليه بالسحر تارة، وبالكهانة تارة، وبأساطير الأولين ثالثة، فهذا هو العَضْه. وتقول: جعل فلانٌ زيداً أعلم الناس، أي: وصفه بذلك وحكم به، ومنه قوله عز من قائل: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] أي: خلقْناه. قال أبو منصور الأزهريّ عقب هذا التفسير: وإذا قال المخلوق: جعلت هذا الباب من شجرة كذا، فمعناه صيّرتُه.

هذا، وقد حصر مجد الدين الفيروزآبادي «الجَعْلَ» في القرآن الكريم وفي كلام

العرب في ثلاثة عشر وجهاً، ومن أراد كلامه هذا فليطلبْه في كتابه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز». وهو كتاب نافع مفيد.

ومن غريب هذه المادة، ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنه ذُكر عنده الجعائل، فقال: «لا أغزو علىٰ أجر، ولا أبيع أجري من الجهاد». الجعائل: جمع جَعيلة، أو جِعَالة ــ بفتح الجيم وكسرها، والاسم: الجعل بضم الجيم، والمصدر الجَعْل بفتحها، يقال: جعلت كذا جَعْلاً وجُعْلاً، وهو الأجرة علىٰ الشيء فعلاً كان أو قولاً. والمراد في حديث ابن عمر هذا أن يكتب الغزو علىٰ الرجل، فيُعطيَ رجلاً آخر شيئاً ليخرج مكانه، أو يدفع المقيمُ إلىٰ الغازي شيئاً، فيقيم الغازي، ويخرج هو، وقريبٌ من هذا ما يسمّى في عصرنا الحاضر: الجنود المرتزقة. وقيل: الجُعْل: أن يكتب البعث على الغزاة، فيخرج من الأربعة والخمسة رجلٌ واحد ويجعلَ له جُعل. ومن ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «إن جعله عبداً أو أمةً فغيرُ طائل، وإن جعله في كُراعٍ أو سلاحٍ يختصُّ به، فلا بأس» أي: أن الجُعل الذي يعطيه للخارج إن كان عبداً أو أمةً يختصُّ به، فلا عبرة به، وإن كان يُعينه في غزوه بما يحتاج إليه من سلاح أو كُراع فلا بأس به، ومن ذلك حديث ابن عباس أيضاً: «جَعيلةُ الغرق سُحْتٌ»، وهو أن يجعل له جُعْلاً ليخرج ما غرق من متاعه، وجَعل ابنُ عباس ذلك سُحْتاً؛ لأنه عقدٌ فاسدٌ بالجهالة التي فيه.

[ج ف أ]

يضرب الحقُّ تبارك وتعالىٰ مثلين للحقِّ في ثباته وبقائه، وللباطل في اضمحلاله وفنائه، فيقول عزَّ من قائل: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال ابن الأنباري: شبَّه نزول القرآن الجامع للهدىٰ والبيان بنزول المطر، إذ نَفْعُ نزول القرآن يعمُّ كعموم نفع نزول المطر، وشبَّه الأودية بالقلوب، إذ الأودية يستكنُّ فيها الماء كما يستكنُّ القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين. والزَّبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ علىٰ وجه السَّيل، ويقال له: الغُثاء، والرغوة، والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحلُّ ويعلَقُ بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحلُّ. والجفاء: ما جفأه السيل فرمىٰ به. والمعنىٰ: الباطلُ وإن علا في وقت فإنه إلىٰ فناء واضمحلال، وجاء المثل الثاني في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

وما ينفع الناس هو الماء الصافي الذي يستقر ويمكث في الأرض فينبت المراعي ويخصب الحياة. وجاء في حديث جرير بن عبد الله البجليّ رضي الله عنه: «خلق الله الأرض السفلىٰ من الزَّبد الجُفاء» أي: من زبد اجتمع للماء. ومنه حديث البراء يوم حنين: «انطلق جفاءٌ من الناس إلىٰ هذا الحيّ من هوازن» أراد سَرَعان الناس وأوائلَهم، شبَّههم بجُفاء السَّيل. يقال: جفأ الوادي جُفاءً: إذا رمىٰ بالزَّبَد والقَذَىٰ.

[ج ف و]

يقول ربنا عز وجل في صفة عباده المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] قوله تعالىٰ:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي: ترتفع وتتباعد عن الفرش.

وهذه المـادة (جفو) تدلُّ علىٰ معنًى واحد في أصل اللغة، وهو نبوُّ الشيء عن الشيء وارتفاعه عنـه، ومن ذلك الجفـاء بين الناس وهو التَّباعد، ويقال: جفوت الرجلَ أجفُوه، وفي الحديث: «كان ﷺ يجافي عضدَيه عن جنبيه في السُّجود» أي: يباعدُهما، ومنه الحديث الآخر: «إذا سجـدْتَ فتجـافَ». وهو من الجفاء أيضاً، يقـال: جفاه إذا بعد عنه، وأجفاه: إذا أبعده، ومنه الحديث: «اقـرؤوا القرآن ولا تجفُوا عنه» أي: تعاهَدُوه ولا تَبْعُدوا عن تلاوته، والحديث الآخر: «وحامل القرآن غيـرُ الغالي فيه، ولا الجافي عنه» والغالي في القرآن هو المتعمّـقُ فيه حتى يخرجه ذلك إلى إكفـار الناس، كمذهب الخـوارج، وأهل البـدع والأهواء. والجافي عن القرآن هو التارك لتلاوته وللعمل به.

ويأتـي الجفـاء أيضـاً بمعنـىٰ ترك الصِّلة والبِـرّ، ومنـه الحديـث: «البذاء من الجفـاء»، والبذاء: الفحش من القـول. ويأتي الجفـاء بمعنـىٰ غلـظ الطبـع، ومنه الحديث: «من بدا جفا» وبدا، أي: خرج إلىٰ البادية، قال الشاعر:

تجنَّـبَ روضـةً وأحـال يَبْـدُو

ومعنىٰ الحديث: أن من سكن البادية غَلُظ طبعُه لقلّة مخالطة الناس.

وجاء في الحديـث الطويل المأثور، عن هنـد بن أبي هالة، في وصف النبي ﷺ: «ليس بالجافي ولا المَهين» الجافي: المعرضُ المتباعد عن الناس، من الجفاء بمعنىٰ ترك الصلة والبر. وقيل: الجافي: الغليظ الخِلقة والطبع، وقد جفا أصحابه يجفوهم: إذا قاطعهم، أو خشن عليهم، والمهين في هذا الحديث يروىٰ بضم الميم وفتحهـا، فالضمُّ من الإهانـة، وهي الإذلالُ والاطِّـراح، أي: لا يُهيـن أحـداً من أصحابه أو من الناس، والمَهين بفتح الميم: من المهانة بمعنىٰ الحقارة والصِّغر، والرسول ﷺ قد ارتفع عن الإهانة والمهانة، وقد كرَّمه ربُّه عز وجل فحسَّن خَلْقه وخُلُقَه.

ونعود إلىٰ قـول الحـق تبارك في شـأن عبـاده الأتقياء: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وهم المتهجِّـدون في الليـل الذيـن يقومـون للصلاة عن الفراش، والمراد بالصلاة صلاة التنفّل بالليل من غير تقييد.

وقد وردت أحاديث كثيرةٌ في الترغيب في قيام الليل؛ منها ما روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبيَّ الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «لقد سألـت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ علىٰ من يسَّره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلُّك علىٰ أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ ﷺ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ثم قال: «ألا أخبـرك بـرأس الأمـر وعموده وذروة سنامه؟» فقلـت: بلىٰ يا رسول الله، فقال: «رأسُ الأمرِ الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامـه الجهاد في سبيل الله». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كلِّه؟» فقلـت: بلىٰ يانبـيَّ الله، فأخذ بلسانه، ثم قال: «كفَّ عليـك هذا». فقلت: يا رسـول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: «ثكلتك أمك يامعاذ ! وهل يكبُّ الناسَ في النار علىٰ وجوههم ــ أو قال: على مناخرهم ــ إلا حصائدُ ألسنتهم؟».

وقال تعالىٰ: آمراً نبيه عليه الصـلاة والسلام بقيام الليل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال في صفة عباده المتقين: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: قال رجلٌ من بني تميم لأبـي: يا أبا أسامة، صفةٌ لا أجدهـا فينـا، ذَكَـر الله تعالىٰ قوماً فقـال: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن واللّهِ قليـلاً من الليـل ما نقوم، فقـال له أبي: طوبىٰ لمن رقد إذا نعس، واتقىٰ الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ــ أي:

ذهبوا مسرعين نحوه ـــ فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بَوجْه كذّاب، فكان أوّلَ ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفْشُوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفِرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». اللهم ارزقنا اتباع سنة نبيك والاهتداء بهديه.

[ج ل و]

يقول عز وجل في شأن الساعة، والردِّ على قريش حين كانوا يسألون عن وقت قيامها، استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يُظهرها إلاّ الله عز وجل. وهذا مما استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه ملَكاً مقرباً ولا رسولاً.

وهذه المادة (**جلو**) تدلُّ علىٰ أصل واحد في اللغة هو انكشاف الشيء وظهوره وبروزه، ومنه يقال: وقفت علىٰ جلية الخبر، أي: علىٰ حقيقته الظاهرة المنكشفة، ومن ذلك قولهم: أجليت القوم عن منازلهم، فجَلَوْا عنها، أي: أبرزتهم عنها، ويقال: جلا الرجل عن وطنه وهو الجَلاء.

قال عزّ من قائل في شأن يهود بني النَّضير: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٣] أي: لولا أن كتب الله علىٰ يهود بني النضير الخروج من أوطانهم علىٰ ذلك الوجه وقضىٰ به عليهم، لعذبهم بالقتل

والسَّبي في الدنيا، كما فعل ببني قريظة.

والجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا الرجلُ بنفسه جَلاءً، وأجلاه غيرُه إجلاءً، والفرق بين الجلاءِ والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. والثانية: أن الجلاء لا يكون إلاَّ لجماعة، والإخراج يكون لجماعة، ولواحد.

وقوله تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام وطلبه رؤية ربّه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، تجلّىٰ معناه: ظهر، من قولك: جلوْت العروس، أي: أبرزْتُها، وجلوت السيف، أي: أظهرته وخلصتُه من الصدأ، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢] أي: ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل، وذلك بطلوع الشمس. ومنه قوله عز من قائل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٣] أي: جلّى الشمس، وذلك لأن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء، فكأنَّ النهارَ جلاَّها مع أن الشمس هي التي تبسُطه، وقيل: الضمير في «جلاها» عائدٌ إلىٰ الظلمة، أي: جلىٰ النهارُ الظلمةَ وإن لم يجرِ للظلمة ذكرٌ في السورة، لأن المعنىٰ معروف . قال أبو زكريا الفراء: كما تقول: أصبحتْ باردةً، أي: أصبحت غداتُنا باردة، والأول أولىٰ، ومنه قول قيس بن الخطيم في بائيته المعروفة:

تجلَّتْ لنا كالشمسِ تحتَ غَمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

وقال بعضهم: إن المعنىٰ: أن النهارَ جلّىٰ ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل.

ومن غريب هذه المادة في الحديث، ما جاء في حديث بيعة العقبة: أن أسعد ابن زُرارة رضي الله عنه أخذ بيده الشريفة ﷺ، وقال: أيها الناس؛ أتدرون علىٰ ماذا

تُبايعـون محمداً ﷺ؟ إنكم تُبايعونه علىٰ أن تحاربوا العرب والعجم والجنَّ والإنس مُجْليةً. قالوا: نحن حربٌ لمن حارب، سِلْمٌ لمن سالَم. قوله: «مجلية» أي: حرباً مجليةً. مخرجـةً عن الأوطـان والأمـوال، والعرب تقـول: اختـاروا، فإمّـا حربٌ مُجْليـة، وإمّا سِلْمٌ مخزيـة، أي: إما حربٌ ودمـار، وخروج عن الدار، وإما صلحٌ وقـرارٌ علىٰ صَغار. ومنه حديـث أبي بكر رضي الله عنه: أنه خيَّـر وفـد بُزاخـة بين الحـرب المجلية والسِّلْم المخزيـة. وجـاء في حديث قتادة رضي الله عنه في صفـة الدجـال: «أنـه أجْلَـىٰ الجبهة». الأجلـىٰ: هو الذي ذهـب شعـرُ رأسـه إلى نصفه، فظهـر جزءٌ من جلدة رأسه. فهو تعبير راجع إلىٰ معنىٰ الظهور الذي هو أصـل مادة (جلا).

وجاء في حديث أم المؤمنين أُمِّ سلمة رضي الله عنها: أنها كرهت للمرأة المُحِدِّ التي مات عنها زوجها أن تكتحل بالجِلاء. الجِلاء بكسر الجيم، والمدّ: هو الإثمد، وهو نـوعٌ من الكحـل، وسمي بذلك لأنه يجلـو البصـر فيقوّيـه، أو يجلـو الوجه فيحسِّنه. وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «إن القلبَ يَدْثُرُ كما يَدْثُر السيف، فجلاؤُه ذِكْرُ الله». جلاؤه، أي: ما يُجْلىٰ به فينكشف ويظهر. شبَّه ما يغشىٰ القلبَ من الرَّين والقسوة بما يركبُ السيفَ ويُغطِّيه من الصدأ، وهو من دُثورِ المنزل، وهو أن تهبَّ الرياح فتُغَشّي رسومَه ومعالمَه بالرمل، وتغطيها بالتراب. وفي حديث ابن سيرين رضي الله عنه: أنه كره أن يَجْليَ امرأته شيئاً ثم لا يفي به. يقال: جلا الرجل امرأته وصيفاً، أي: أعطاها إياه، والوصيف الخادم، غلاماً كان أو جارية. وجاء في حديـث الكسوف: فقمت حتىٰ تجلاَّني الغَشْـي. تجـلاّني، أي: غَطّـاني وغشّاني، وهذا التفسيـر علىٰ أن أصله: تجلَّلنـي، فأبـدلت إحـدىٰ اللاّمات ألفـاً، مثل تظنَّىٰ وتمطَّـى، في تظنَّـنَ وتمطَّط. ويجوز أن يكون معنىٰ تجـلاّني الغشْـي، أي: ذهب بقوتي وصبري من الجلاء، أو بمعنىٰ ظهر وبان عليّ.

[ج م ع]

يقول ربنا عز وجل لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. قوله: ﴿ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ قال ابن عرفة نفطوية: يقال: أجمع أمره وأجمع عليه وعزم عليه بمعنًى واحد. وقال أبو الهيثم: يقال: أجمع أمرَه، أي: جعله جميعاً بعد ما كان متفرقاً، وتفرُّقه أن يقول: مرةً أفعل كذا ومرةً أفعل كذا، فلما عزم علىٰ أمر واحد فقد جمعه، أي: جعله جميعاً، فهذا هو الأصل في الإجماع، ثم صار بمعنىٰ العزم.

قال الحارث بن حلِّزة:

أجمعوا أمرَهُمْ بليلٍ فلمّا ... أصبَحوا أصبَحتْ لهمْ ضوضاءُ

وهذه المادة (**جمع**) تدل علىٰ أصل واحد في اللغة، وهو تضامُّ الشيء، ثم تصرفت إلىٰ استعمالات كثيرة في القرآن الكريم والحديث الشريف.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ٧] معناه يوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢] قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ أي: علىٰ أمر طاعة يجتمعون عليها نحو الجمعة وعيد النحر والفطر والجهاد وأشباه ذلك. قال المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة: كان رسول الله ﷺ إذا صَعِد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي ﷺ حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم. قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. وقال أبو إسحاق الزجاج: أعلم الله أن المؤمنين

إذا كانوا مع نبيه فيما يُحتاج فيه إلىٰ الجماعة لم يذهبوا حتىٰ يستأذنوه، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع الإمام، لا يخالفونه ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنه، وللإمام أن يأذن وله إلاَّ يأذن علىٰ ما يرىٰ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. والحاصل أن الأمر الجامع هو الذي يعمّ نفعه أو ضرره، وهو الأمر الجَلَلُ الذي يحتاج إلىٰ اجتماع أهل الرأي والتجارب. وقال الراغب الأصبهاني في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ [النور: ٦٢] أي: على أمر له خطرٌ يجتمع لأجله الناسُ، فكأنَّ الأمرَ نفسَه جمعهم.

وجاء في الحديث: «أوتيتُ جوامع الكلم». يعني القرآن الكريم، جمع الله تعالىٰ بلطفه في الألفاظ اليسيرة منه معانيَ كثيرة. ومنه ما جاء في صفته ﷺ: «يتكلم بجوامع الكلم»، يعني أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ. ومفرد الجوامع: جامعة؛ أي: كلمةٌ جامعة. وجاء في أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ: «الجامع» قيل: هو الذي يجمع الخلائق ليوم الحساب. وقيل: هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات في الوجود.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: عجبت لمن لاحن الناس كيف لا يعرف جوامع الكلم! يقول: كيف لا يقتصر علىٰ الوجيز ويترك الفضول؟ وجاء في الحديث: كان ﷺ يستحبُّ الجوامع من الدعاء، وهي التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، أو هي التي تجمع الثناء علىٰ الله تعالىٰ وآداب المسألة.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، عن عبد الله بن عمرو، قال: أتىٰ رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: أقرئني يارسول الله، قال: «اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء»، فقال الرجل: كبر سنّي واشتد قلبي وغلُظ لساني، قال: «اقرأ ثلاثاً من ذوات حم»، فقال مثل مقالته الأولىٰ. فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات»، فقال مثلَ مقالته

الأولىٰ، وقال: ولكن أقرئني يارسول الله سورةً جامعة، فأقرأه: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحقّ، لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرُّويجل، أفلح الرُّويجل».

وقول الرجل: اقرئني سورة جامعة؛ لأنها تجمع أسباب الخير وأسباب الشر، لقوله تعالىٰ فيها: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وفي الحديث: حدثني بكلمة تكون جماعاً، فقال: «اتق الله فيما تعلم». قوله: «تكون جماعاً». الجماع: ما جمع عدداً، أي: كلمة تجمع كلمات، ومنه الحديث: «الخمر جماعُ الإثم» أي: مَجْمَعُه ومَظِنَّته.

والدليل علىٰ أن الخمر تجمع كل إثم ما رواه الزهري، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: اجتنبوا الخمر، فإنها أمُّ الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلِقَتْه امراةٌ غوية، فأرسلت إليه جاريتها تدعوه لشهادة، فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقَتْه دونه حتى أفضىٰ إلىٰ امرأة وضيئة عندها غلامٌ وباطِيةُ خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذه الخمر، فسقته كأساً فقال: زيدوني، فلم يَرِمْ حتىٰ وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمانُ أبداً إلا أوشك أحدهما أن يُخرج صاحبه. فهذا بيانُ أنّ الخمر جماعُ الإثم، أعاذنا الله منها ووقانا شرها.

ومنها أيضاً حديث الحسن البصري رضي الله عنه، قال: اتّقوا هذه الأهواء فإن جماعَها الضلالة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣] قال: الشعوب: الجُمَّاع، والقبائل: الأفخاذ. الجُمّاع، بضم الجيم وتشديد الميم: مجتمع أصل كل شيء، وأراد منشأ النسب وأصل المولد، وقيل: أراد به الفِرق المختلفة من الناس، كالأوزاع والأوشاب، ومنه الحديث: «كان في جبل تهامةَ جُمّاع قد غصبوا المارّة من كِنانة

ومزينة وحَكَم والقارة» جُمَّاع، أي: جماعاتٌ من قبائل شتّىٰ متفرّقة، فإذا كانوا مجتمعين قيل: جَمْعٌ. قال أبو قيس بن الأسلت في قصيدته المفضّلية:

حتىٰ تَجَلَّتْ ولنا غايةٌ   من بينِ جَمْعٍ غيرِ جُمَّاعِ

وفي حديث النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه، كما تُنتجُ الإبلُ من بهيمةٍ جمعاء، هل تحسُّ من جَدْعاء؟». قوله ﷺ: «بهيمة جمعاء» أي: سليمةً من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها، فلا جَدْعَ بها ولا كَيَّ، يعني أن البهيمة تولد سوية الأعضاء سليمةً من الجدع ونحوه، لولا الناس وتعرُّضهم لها لبقيت كما وُلدت. وهذا مثل ضربه ﷺ للمولود يُولَدُ علىٰ نوع من الجِبِلّة، وهو فطرة الله، وكونه متهيئاً لقبول الحنيفية طوعاً لا إكراهاً، وطبَعاً لا تكلُّفاً، لو خلّتْه شياطين الجن والإنس وما يختار، لم يختر إلا إياها، ولم يلتفت إلى سواها.

وفي حديث النبي ﷺ حين ذكر الشهداء، فقال: «ومنهم أن تموت المرأة بجُمْع». قال أبو زيد الأنصاري: يعني أن تموت وفي بطنها ولدٌ. والجُمْع بضم الجيم بمعنى المجموع، كالذُّخر بمعنى المذخور، وقيل: المرأة التي تموت بجُمْع: هي التي تموت بكراً، لم يمسسها رجلٌ، ومنه الحديث الآخر: «أيُّما امرأة ماتت بجُمْع لم تطمَثْ دخلت الجنة»، ومنه قول امرأة العجاج: إني منه بجُمْع، أي: عذراء لم يفتضَّني، والمعنىٰ في التفسيرين أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: بعثني رسول الله ﷺ في الثَّقَل من جَمْع بليل. الثَّقَل: هو متاع المسافر. و«جَمْع» علم للمزدلفة وهي المشعر الحرام، سُمّيتْ بذلك لأن آدم عليه السلام وحواء لما أُهبطا من الجنة اجتمعا بها، وازْدلفا إليها، فيما روي عن ابن عباس.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه صلّىٰ المغربَ، فلما انصرف

درأ جُمْعةً من حصىٰ المسجد وألقىٰ عليه رداءه واستلقى». الجمعة: المجموعة، يقال: أعطني جمعة من تمر، وهو كالقُبْضَة، وقوله: «درأ» أي: سوّاها بيده وبسطها، وفي الحديث: «رأيت خاتم النبوة كأنه جُمْعٌ» يريد مثل جُمْعِ الكفِّ، وهو أن يَجْمَع الأصابع ويضمَّها، ويقال من ذلك: ضربه بجُمْعِ كفِّه، ويوم الجمعة سمِّي بذلك لاجتماع الناس فيه كلَّ أسبوع مرَّة، وقيل: إنما سُمِّيت جمعةً، لأن الله جمع فيها خلق آدم، وقيل: لأن الله فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعتْ فيها جميع المخلوقات. ويُشتقُّ منها فعْلٌ مشدد، فيقال: جَمَّع الناسُ، أي: صَلَّوا الجمعة، ومن ذلك الحديث: «أوَّل جمعة جُمِّعت بعد المدينة بجُواثىٰ» وجُواثىٰ حُدِّد قديماً بأنه اسم حصن بالبحرين، ومنه حديث معاذ رضي الله عنه: أنه وجد أهل مكة يجمِّعون في الحِجر فنهاهم عن ذلك. يجمِّعون، أي: يصلُّون صلاة الجمعة، وإنما نهاهم عنه؛ لأنهم كانوا يَستظلُّون بفيء الحِجر قبل أن تزول الشمس، فنهاهم لتقديمهم في الوقت.

وجاء في حديث أُحُد: أن رجلاً من المشركين جميع اللأْمةِ كان يحوز المسلمين. يحوزهم، أي: يسوقهم. وجميع اللأمة، أي: مجتمع السلاح. ومنه حديث الحسن البصريِّ: أنه سمع أنس بن مالك وهو يومئذ جميع، أي: مُجتمع الخلق قويُّ البنيان لم يَهْرَم ولم يضعف، والضمير راجع إلىٰ أنس. وفي صفته ﷺ: كان إذا مشىٰ مشىٰ مجتمعاً، أي: شديد الحركة قويَّ الأعضاء، غير مُسْتَرخٍ في المشي، وقد وردت ألفاظ كثيرة في صفة مشيه ﷺ، منها: إذا زال زال قَلْعاً يخطو تَكَفِّئاً، ويمشي هوناً، ذريعَ المِشْية، إذا مشىٰ كأنما ينحطُّ من صبب، أو يتحدَّرُ من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً.

وكل هذه صفات ترجع إلىٰ معنًى واحد هو استواء خلقه ﷺ واجتماع أسباب الكمال له، تشريفاً وتكريماً له عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام.

[ج م ل]

يقول ربنا عز وجل ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ الجمال: ما يُجَمَّل به ويتزَيَّن، وهو الحُسْنُ، والمعنىٰ هنا: لكم فيها تَجمُّلٌ وتزيُّنٌ عن الناظرين إليها.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: في هذين الوقتين، وهما وقت عودتها من مراعيها، ووقت تسريحها إليها، فالرّواح: رجوعُها بالعشيّ من المراعي، والسَّراح: مسيرها إلىٰ مراعيها بالغداة، وقدَّم الإراحة علىٰ التسريح؛ لأن منظرها عند الإراحة والعودة أجمل، وذواتها أحسن، لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب، فعظُمت بطونها وانتفخت ضروعها. وخصَّ هذين الوقتين؛ لأنهما وقت نظر الناظرين إليها؛ لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة، كلُّ واحد منها يرعىٰ في جانب.

وهذه المادة (**جمل**) تدل علىٰ معنيين في أصل اللغة: أحدهما الحُسْن، والثاني التجمُّع وعِظَم الخلق، وشاهد استعمال المادة بمعنى الحُسْنِ ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾.

وشاهده في الحديث: ما رواه أحمد ومسلم والترمذي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جميل يُحبُّ الجمال»، وفي بعض الروايات زيادة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها» وفي بعضها: «ويحب أن تُرىٰ أثر نِعَمِه على عبده». وفي بعضها: «سخيٌّ يحبُّ السخاء، نظيفٌ يحبّ النظافة».

قوله: «جميلٌ يحبُّ الجمال» أي: حسن الأفعال كامل الأوصاف، يحبُّ حُسْنَ الأفعـال وكمـال الأوصاف. وقال الراغب الأصبهانيُّ رحمه الله: الجمال: الحسن الكثير، وذلك ضربان: أحدهما جمالٌ يختصُّ الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله، والثاني: ما يُوصَلُ منه إلىٰ غيره، وعلىٰ هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحبُّ الجَمال» تنبيهاً أنه منه تعالىٰ تفيض الخيرات الكثيرة، فيُحبُّ من يختصُّ بذلك، والجمال من حيث هو كمالٌ توصف به المعاني، قال عز من قائل: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ١٨]، وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج: ٥].

ومن استعمال مادة (جمل) في معنىٰ التجمـع والضمّ قولك: أجملتُ الشيء، وهذه جُملةُ الشيء. وأجملت الشيء: حصَّلته. قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: هّلا أُنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة. كما نُزِّلَـت الكتبُ قبله جملةً واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيـرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهـم الله تعالىٰ عن ذلك بأن القرآن إنما نزل منجَّماً ومفرَّقـاً في ثـلاث وعشريـن سنة بحسب الوقائـع والحـوادث وما يُحْتـاج إليـه من الأحكـام ليثبِّـت قلوب المؤمنيـن بـه، وكذلك فإن نـزول القـرآن منجّماً أدعىٰ إلىٰ حفظه وفهم معانيه، فقال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وجاء في حديث القدر: «كتابٌ فيه أسماء أهل الجنة وأهل النار، أُجْمِل علىٰ آخرهم، فلا يُزاد فيهم ولا يُنقَص». قوله: «أُجمل علىٰ آخرهم» مأخوذٌ من: أجملتُ الحساب، أي: جمعت آحاده وكمَّلْتُ أفراده، أي: أن أهل الجنة وأهل النار أُحصوا وجُمعوا، فلا يُزاد فيهم، ولا يُنقص.

وفـي حديـث عمر بن الخطـاب رضي الله عنه قـال: إنّ سَمُـرة بن جُنْدَب باع خمـراً، قاتل الله سَمُرة! ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعـن الله اليهود، حُرِّمت عليهـم الشحوم فجمَلُوها وباعوها وأكلوا ثمنها». قوله: «جملوها» أي: أذابوها،

والجميل عند العرب: ما أذيب من الشحم، يقال: جملت الشحم وأَجْمَلْتُه، أي: أذبته، ويقال: اجتملته أيضاً. قال لبيد:

وغـلامٍ أرسلَتْـهُ أمُّـهْ بـألوكٍ، فبـذَلْنا ما سـألْ
أو نَهَتْـهُ فـأتـاه رزقُـهْ فاشتوىٰ ليلةَ ريحٍ واجْتملْ

وقال أبو سليمان الخطابي ــ فيما حكاه عنه ابن الأثير ــ تعليقاً علىٰ قول عمر رضي الله عنه: إن سَمُرة بن جُنْدُب باع خمراً، قاتل الله سمرة. قال الخطابي: إنما باع عصيراً ممّن يتخذه خمراً فسمّاه باسم ما يؤول إليه مجازاً، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦] فنَقَم عليه عمر ذلك، لأنه مكروه، أو غير جائز، فأمّا أن يكون سَمُرة باع خمراً فلا؛ لأنه لا يجهل تحريمه مع اشتهاره.

وذهب الزمخشري مذهباً آخر في تأويل فعل سمرة رضي الله عنه، قال: المعنى أنه خَلَّلَ الخمر، ثم باعها، فكان ذلك مضاهياً لفعل يهود في إذابتهم الشحم حتى يصير ودَكاً ثم بيعهم له متوهِّمين أنه خرج عن حكم الأصل بالإذابة.

ومن استعمال المادة بمعنىٰ إذابة الشحم أيضاً ما جاء في الحديث: «يأتوننا بالسقاء يَجْمُلُون فيه الوَدَك». قال ابن الأثير: هكذا جاء في رواية، ويروىٰ بالحاء المهملة: «يحملون»، وعند الأكثرين: «يجعلون فيه الودك»، والوَدَكُ: هو دَسَمُ اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.

ومنه ما جاء في حديث فضالة، قال: «كيف أنتم إذا قعد الجُملاءُ علىٰ المنابر، يقضون بالهوىٰ ويقتلون بالغضب؟». الجملاء: الضِّخامُ الخَلْق، كأنه جمْع جميل، والجميل: هو الشَّحم المذاب. وجاء في حديث الملاعنة: «إن جاءت به أورق جَعْداً جُماليّاً فهو للذي رميتْ به» الجُماليّ، بضم الجيم وتشديد الياء: هو الضخم الأعضاء، التام الأوصال. يقال: ناقة جُمالِيّةٌ، مشبَّهةٌ بالجمل، عِظماً وبدانة.

وقـال تعالىٰ: في وصف شرَر نار جهنم ــ أعاذنا الله وإياكم منها: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢- ٣٣]. الجِمالة بكسر الجيم: جمع جَمَل، وقُرِىء: «جمالاتٌ» وهو جمع جِمالة. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] أي: إن هـؤلاء الكفـار المكـذبيـن المستكـبريـن لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علّقه سبحانه وتعالىٰ بالمستحيـل، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وهو لا يلج أبداً! وخَصَّ الجمل بالذكر لكونـه يُضْرب به المَثَـلُ في كِبَر الذات، وخصَّ سَـمَّ الخياط ــ وهو ثَقْبُ الإبرة ــ بالذكـر، لكونه غايـةً في الضيق. وقرأ ابن عبـاسٍ رضـي الله عنهمـا: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الجُمَّلُ في سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، والجُمّل بضم الجيم وتشديد الميم، هو حَبْل السفينة الذي يقال له: القَلْسُ، وهو حبال مجموعة. وقيل: الحَبْلُ الذي يُصعَد به في النخل، قال ابن عرفة نفطـويـه: وهذا كـلام العـرب، إذا أرادوا اليـأسَ من الشـيء مثَّـلوه ــ يريـد مثَّـلوه بالمستحيل ــ كما قال النابغة:

فـإنـك سـوف تَعْقِـلُ أو تنـاهَـىٰ إذا ما شِبْتَ أو شابَ الغُرابُ

ويروىٰ أن أهل الكوفة أوفدوا العِلباء بن الهيثم السَّدُوسيَّ إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان العِلباء هذا رجلاً دميماً أعورَ، ولكنه كان جيّدَ اللسان، حسن البيان، فلما تكلم أحسن وأجاد، فصعّد عمر رضي الله عنه بصره فيه وحَـدَّدَهُ، فلما فـرغ قال عمر متمثـلاً: لكلِّ إناس في جَمَلِهم خبر. ويروىٰ لكل أناس في بعيرهم خبر، يريد بجملهـم: صاحبَهم، وهو مَثَـلٌ يُضرَبُ في معرفة كلِّ قوم بصاحبهم، يعني أن المسوَّدَ يُسَوَّدُ لمعنى، وأن قومه لم يُسوِّدوه إلا لمعرفتهم بشأنه، وهذا معنىٰ قول الشاعر:

عـزمـتُ علىٰ إقـامـة ذي صباحٍ لأمـرٍ مـا يُسـوَّدُ مـن يَسُـودُ

وروي أن امرأة جاءت إلىٰ عائشة رضي الله عنها، فقالت: أؤخِّذُ جملي؟ فلم تفطن لها عائشة حتىٰ فُطِّنت، فأمرت بإخراجها. وروي أنها قالت: أأقيّد جملي؟ فقالت عائشة: نعم، فقالت الثانية: أأقيد جملي؟ فلما علمت عائشة ما تريد، قالت: وجهي من وجهك حرام. جعلَتْ تأخيذ الجملِ، وهو المبالغة في أخذه وضبطه مجازاً عن الاحتيال لزوجها بحيل من السِّحر، تمنعه بها عن غيرها من النساء. وقول المرأة: «جملي». تريد زوجي، وكَنَتْ بالجمل عن الزوج، لأنه زوج الناقة.

وفي حديث أبي عبيدة رضي الله عنه: أنه أذن في جَمل البحر. جمل البحر: هو سمكة ضخمةٌ جداً، شبيهةٌ بالجمل. وجاء في حديث ابن الزبير رضي الله عنه: كان يسير بنا الأبردَيْن، ويتَّخذُ الليلَ جَمَلاً. الأبردان: هما الغداة والعشيّ، وقيل: ظلاَّهما، وقوله: ويتخذ الليل جملاً: يقال للرجل إذا سَرَىٰ ليلته جمعاء، أو أحياها بصلاة أو غيرها من العبادات: اتّخذ الليل جملاً، كأنه ركب الليل ولم ينمْ فيه. ومثله ما جاء في حديث عاصم بن أبي النَّجود رضي الله عنه قال: لقد أدركت أقواماً يتخذون هذا الليل جمَلاً، يشربون النبيذَ ويلبسون المُعَصْفَر، منهم زرٌّ بن حبيش، وأبو وائل. وقد أخذ هذا المعنىٰ أبو تمام وصاغه في شعره، قال:

جعل الدُّجىٰ جملاً وودَّع راضياً ... بالهُون يتخذُ العقود قعوداً

ويأتي هذا بصيغة الأمر، فيقال في الأمر بالجدّ: اتخذ الليل جملاً، كما يقال: شمِّر ذيلاً وادَّرِعْ ليلاً.

ومن غريب هذه المادة ما جاء في حديث الإسراء: ثم عرضت له امرأةٌ حسناءُ جَمْلاء. جملاء، أي: جميلةٌ مليحة، ولا يأتي من هذا أفعل من لفظه، كدِيمة هطلاء، ومنه الحديث: جاء بناقة حسناء جملاء.

[ج م م]

يقول ربنا عز وجل في سياق آيات كريمات تدل علىٰ اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير، وعند إصابة الشرّ، وأن مطمح أنظارهم ومعظم مقاصدهم هو الدنيا، فيقول عزّ من قائل: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] جمّاً، أي: كثيراً، ومنه جَمَّة الماء، وهو اجتماعه في البئر.

وهذه المادة (جمم) تدل علىٰ كثرة الشيء واجتماعه، ومنه حديث أبي ذرّ رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وعشرون ألفاً». قلت: كم الرسُلُ من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وخمسة عشر»، وفي رواية: «ثلاثة عشر جَمَّ الغفير». يقال: جاء القوم جمّاً غفيراً، والجمّاءَ الغفير، وجمّاءَ غفيراً، أي: مجتمعين كثيرين، وأصل الكلمة كما قلنا من الجُموم والجَمّة، وهو الاجتماع والكثرة، والغفير: من الغَفْر، وهو التغطية والسَّتر، فجعلت الكلمتان في موضع الشُّمول والإحاطة.

وفي الحديث: كان لرسول الله ﷺ جُمَّةٌ جَعْدة. الجُمَّةُ من شعر الرأس: ما سقط علىٰ المَنكِبَيْن. وفي الحديث: «لعن الله المُجمِّمات من النساء»، يعني النساء المترجِّلات اللائي يتخذن شعورهنّ جمّة كما يفعل الرجال، ولا يُرْسِلْنها إرسال النساء شعورهن.

وقد وردت أحاديث كثيرةٌ تنهىٰ عن تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال، منها ما رواه البخاريُّ وأبو داود والترمذي، عن ابن عباس: «لعن الله المخنَّثين من الرجال والمترجِّلات من النساء»، وفي لفظ عند أحمد وأبي داود وابن ماجه: «لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء». ولأبي داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لِبْسة المرأة،

والمرأة تلبس لِبْسة الرجل». ولأبي داود أيضاً، عن عائشة رضي الله عنها: «لعن الله الرَّجُلَةَ من النساء».

ومن أحاديث المادة أيضاً: حديث عائشة رضي الله عنها، حين بنىَ بها رسول الله ﷺ، قالت: وقد وفَتْ لي جُمَيمة. أي: كثُرتْ، والجُمَيْمة: تصغير الجُمَّة. وفي حديث خزيمة بن ثابت أو ابن حكيم السلمي حين وفد على النبيّ ﷺ يوم فتح مكة، ووصف له ما أصاب قومه وأرضه من السنوات الشداد، قال فيما قال: واجتاحت جميمَ اليبيس. اجتاحت، أي: أهلكتْ واستأصلتْ. والجميم: نَبْتٌ يطول حتى يصير مثلَ جُمَّة الشَّعَر. واليبيسُ: اليابس من النبات. وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: تُوفِّي رسول الله ﷺ والوحيُ أجمُّ ما كان، لم يَفْتُر عنه، قوله: «أجمُّ ما كان» يعني أكثرَ ما كان، وهو راجع إلى المعنىٰ الأصلي للمادة، وهو التجمع والكثرة، ولهذا المعنىٰ قيل للقوم الذين يجتمعون ويَسْألون في دية: جُمَّة والجمع جَمَمٌ. وشاهده في حديث أم زرع: «مالُ أبي زرع وما مال أبي زرع! على الجُمَم محبوس»، أي: أنه يبذل ماله للقوم الذين يَسْألون في دية.

وجاء من هذه المادة: الجَمام والاستجمام بمعنى الراحة والنشاط؛ لأن المستجمَّ يكون مجتمعاً غيرَ مضطربِ الأعضاء. وشواهد ذلك في الحديث كثيرة.

جاء في حديث طلحة رضي الله عنه: رمىٰ إليَّ رسول الله ﷺ بسفَرْجلةٍ وقال: «دُونكها، فإنها تُجمُّ الفؤاد». تجمُّ الفؤاد، أي: تُريحه، وقيل: تجمعُه وتُكْمل صلاحه ونشاطه. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في التلبينة ــ وهي حِساءٌ يُعملُ من دقيق، ورُبَّما جُعل فيها عَسَلٌ، قالت: فإنها تُجمُّ فؤادَ المريض. وحديثها الآخر: فإنّها مَجَمَّةٌ لها، أي: مَظِنَّةٌ للاستراحة. وفي حديث أبي قتادة رضي الله عنه: «فأتىٰ الناسُ الماءَ جامِّين رِواءً» أي: مستريحين قد رَوُوا من الماء. وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لأصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جَمامة» أي: راحة وشِبَعٌ وريّ.

وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها، وبلغها أن الأحنف بن قيس قال شعراً يلومها فيه، فقالت: سبحان الله! لقد استفرغ حلمَ الأحنف هجاؤُه إيّاي، ألِيَ كان يستجمُّ مثابة سفهه؟ وهذا كلامٌ من عائشة رضي الله عنها عالٍ شريفٌ، ينطق أنه خرج من بيت النبوة حقاً. وأرادت رضي الله عنها أن الأحنف كان حليماً عن الناس، فلما صار إليها سَفِه، فكأنه كان يُجمُّ سفَهَه لها، أي: يُريحه ويجمعه ويدَّخِرُه. ومن ذلك حديث معاوية رضي الله عنه: «من أحب أن يستجمَّ له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». أي: يجتمعون له في القيام عنده، ويحبسُون أنفسَهم عليه.

وتأتي هذه المادة (جمم) لمعنى العدم والسَّلْب، فيقال: الأجَمُّ، وهو الذي لا رمحَ معه، ومن هذا الاستعمال ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أُمِرْنا أن نبنيَ المدائنَ شُرَفاً والمساجدَ جُمّاً. الجُمُّ: التي لا شُرَفَ لها، والشُّرَفُ: التي لها شُرُفات. وأصل هذا في الغنم. يقال: شاةٌ جَمّاءُ: إذا لم تكن ذات قرن، ومنه الحديث في يوم القيامة: «إنه يُقتصُّ للجَمّاء من ذات القَرْن» ومن هذا قيل للرجل الذي لا رمح معه: أجمُّ، وكذلك البناء إذا لم يكن له شُرَفٌ، فهو أجَمُّ، وجمعه جُمٌّ.

[ج ن ب]

يقول ربُّنا عز وجل، آمراً بعبادته وحده لا شريك له، وموصياً بالإحسان إلىٰ الوالدين والقرابات وأصحاب الحاجات، فيقول عز من قائل: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]. قوله: ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، هو الغريب. وقيل

له: جُنُب؛ لأنه يُجانبُ من يُجاورُه في النَّسب والمنزل. يقال: رجلٌ جُنُبٌ وامرأةٌ جُنب، وقوم جُنُب. يستوي في ذلك المذكر والمؤنثُ والمفردُ والجمع.

وهذه المادة (جنب) تدلّ علىٰ معنيين في أصل اللغة، أحدهما: الناحية، والآخر: البُعْد. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل: هو الرفيق في السَّفر. وقيل: هو الزوجة، وقيل: هو الذي يصحَبُك ويلزمُك رجاء نفعك. قال الإمام الشوكاني: ولا يبعُدُ أن تتناول الآيةُ جميع ما في هذه الأقول، مع زيادة عليها، وهو كلُّ من صدق عليه أنه صاحبٌ بالجَنْب، أي بجَنْبك، كمن يقف بجنبك في تحصيل علم، أو تعلُّم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣] الجُنُب: هو الذي يُجامع أهلَه؛ وهذا الاشتقاق راجع إلىٰ أحد معنيي مادة (جنب) وهو البُعْد، قال أبو منصور الأزهري: إنما قيل له: جُنُب؛ لأنه نُهي أن يقربَ مواضع الصلاة ما لم يتطهَّر، فيتجنَّبُها. وأَجْنَبَ عنها، أي: تباعد عنها. وقال ابن قتيبة: سُمِّي بذلك لمجانبته الناسَ، وبُعْدِه عنهم حتىٰ يغتسل. والجنابةُ: البُعْد. قال علقمة بن عَبَدة، الفحل:

فلا تحرمنِّي نائلاً عن جنابةٍ   فإني امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غريبُ

ومن استعمال هذه المادة في معنىٰ البُعْد، قوله تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١] أي: عن بُعْد. ومن ذلك قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أي: باعدْني وباعد بنيَّ عن عبادة الأصنام. يقال: جَنَبْتُه ذلك الأمرَ، وأجنبْتُه، وجنَّبته إيّاه، أي: باعدته عنه، فتَجانبَه واجتَنَبه، وتجنَّبه، أي: تركه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ قال ابن عرفة نفطويه: أي: امتنع بقوّته ورجاله. وقال مجاهد: أي: بَعُدَ

عنّا. وهذا إخبارٌ من الله عزّ وجلّ عن نقص الإنسان من حيث هو، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وبأنه إذا مسَّه الشَّرُّ، وهو المصائبُ والحوادثُ والنوائب، كان يؤوساً. أي: قَنَط أن يعودَ يحصلُ له بعد ذلك خير. كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ - ١٠].

وقال تعالىٰ، مخبراً عن أحوال بعض الناس يوم القيامة: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]. قوله: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عرفة نفطويه: أي: تركت من أمر الله. يقال: ما فعلتَ في جنبِ حاجتي؟ قال كُثَيِّر:

ألا تتَّقينَّ الله في جَنْبِ عاشقٍ ... بـهِ كَبِـدٌ حَرَّىٰ عليـكَ تَقَطَّـعُ

وقال أبو زكريا الفراء فيما حكاه عنه أبو منصور الأزهري: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في قربه وجواره. وقال الحسن: أي علىٰ ما فرطت في طاعة الله وقال الضحّاك: علىٰ ما فرطت في ذكر الله، ويعني به القرآن والعملَ به. وقال أبو إسحاق الزجاج: أي: فرطت في الطريق الذي هو طريق الله، من توحيده والإقرار بنبوّة رسول الله ﷺ. وعلىٰ هذا فالجَنْبُ بمعنى الجانب، أي: قصَّرتُ في الجانب الذي يؤدِّي إلىٰ رضا الله، ومنه قول الشاعر:

النـاسُ جَنْـبٌ والأميـرُ جَنْـبُ

أي: الناس من جانب، والأمير من جانب. والجَنْبُ: الجارحة، وجَمْعه جُنُوب. قال تعالىٰ في صفة عباده المؤمنين الذين يقومون الليل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢] قوله: ﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ أي: دعانا مضطجعاً، ولذلك عطف عليه: ﴿ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا ﴾، وهذه اللام في ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ إما إن تكون للوقت، كقوله: جئتُه لشهر كذا، أو تكون بمعنىٰ علىٰ، فتكون في محل نصب على الحال، أي: دعانا مضطجعاً. والمراد: دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخصَّ المذكورة بالذكر، لأنها الغالبُ علىٰ الإنسان، وما عداها نادر، كالركوع والسجود.

جاء في الحديث: «لاتدخل الملائكة بيتاً فيه جُنُب». قال مجد الدين بن الأثير رحمه الله: الجُنُب: الذي يجب عليه الغُسل بالجماع وخروج المنيّ، ويقع على الواحد والاثنين، والجميع، والمؤنَّث، بلفظ واحد، وقد يجْمع علىٰ أجناب، وجُنُبين، وأجْنَبَ يُجْنبُ إجناباً. والاسم: الجنابة، وهي في الأصل: البُعْد، وسُمِّي الإنسانُ جُنُباً؛ لأنه نهي أن يقرب مواضع الصلاة ما لم يتطهَّر، وقيل: سُمِّي كذلك لمجانبته الناس حتى يغتسل. وقوله: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جُنُب». المراد بالجنُبُ في هذا الحديث: الذي يترك الاغتسال من الجنابة عادة، فيكونُ أكثَرَ أوقاته جُنُباً، وهذا الفعل منه يدل على قلة دينه وخُبْث باطنه. وقيل: أراد بالملائكة هاهنا غير الحَفَظة، وقيل: أراد لا تحضُرُهُ الملائكة بخير، وقد جاء في بعض الروايات كذلك. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «الإنسانُ لا يُجْنِب، وكذلك الثوبُ والماءُ والأرضُ»، يريد أن هذه الأشياء لا يصيرُ شيءٌ منها جُنُباً يحتاج إلىٰ الغُسْل، لملامسة الجُنُب إيّاها.

وفي حديث الزكاة والسِّباق: «لا جَلَب ولا جَنَبَ». الجَلَبُ في الزكاة: هو أن يَقْدَمَ المُصَدِّق ــ وهو جامع الزكاة ــ علىٰ أهل الزكاة، فينزلَ موضعاً ثم يرسل من يجلبُ إليه الأموال من أماكنها ليأخذ صدقتها. فنُهي عن ذلك؛ لأن في ذلك إعناتاً لهم، وأُمر أن تؤخذَ صدقاتُهم على مياههم وأماكنهم. والجَلَبُ في السِّباق: هو أن

يُتْبِـع الرجلُ فرسَه رجلاً آخر، فيركضَ خلفه ويزجرَه ويُجْلِبَ عليه، ففي ذلك معونة للفرس على الجري، فنهىٰ عن ذلك. والجَنَب يكون في الزكاة والسباق أيضاً. وهو في الزكـاة: أن ينـزل العامل بأقصىٰ مواضع أصحاب الصدقة، ثم يأمر بالأَموال أن تُجنَبَ إليه، أي: تُحضَـر، فنهُوا عن ذلك. وقيل: هو أن يَجْنُـبَ ربُّ المال بماله، أي: يُبْعدَه عن موضعه حتىٰ يحتاج العاملُ إلىٰ الإبعاد في اتِّباعـه وطلبـه. والجنَب المنهيُّ عنه في السِّباق: هو أن يَجنُبَ الرجلُ خلفَ فرسه الذي يسابقُ عليه فرساً آخر عُرْياً ليـس عليه أحد، فإذا فتر المركوبُ تَحوَّل إلىٰ المجنوب فسَبَق عليه، لأنه أقلُّ إعياءً وكلالاً من الفرس الأول الذي بدأ به السباق.

وجاء في الحديث: «وعلىٰ جَنَبَتَـي الصِّـراط داعٍ». قال شَمِـر: جَنَبَتا الوادي: ناحيتـاه، وكذلك جناباه وضِفَّتـاه. وجَنَبَة الوادي، بفتـح النون، أمّا الجَنْبَةُ بسكون النـون فهـي الناحية، يقال: نزل فلان جنبـة، أي: ناحيـة، ومنـه حديـث عمـر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما بالُ رجـالٍ لا يـزال أحدهـم كاسـراً وِسـادَه عنـد امرأة مُغْزِيَـةٍ، يتحـدث إليها وتتحدثُ إليه، عليكم بالجَنْبَة فإنها عفاف، إنما النِّساءُ لحمٌ علىٰ وَضَمٍ، إلاّ ما ذُبَّ عنه». قوله: «مُغْزِية» يعني المرأة التي قد غزا زوجُها. يقال: قد أغزت المرأةُ: إذا كان زوجُها غازياً، وهي مُغْزية، وكذلك أغابت فهي مُغيبة: إذا غاب زوجُهـا. وقوله: «عليكم بالجَنْبـة» فالجَنْبـة: هي الناحية، كما سبق. يقول: اجتنبـوا النساء والجلوس إليهنّ، ولا تَقَرَبُـوا ناحيتَهُنّ، وكلِّموهنّ من خارج الدار. وكذلك كلُّ من كان خارجاً قيل: جَنْبة، قال الراعي النميري:

أَخُلَيْـدُ إنَّ أبـاك ضـافَ وِسـادَهُ ... هَمَّـانِ بـاتـا جَنْبـةً ودخِيـلاً

يقـول: أحـدهما باطـنٌ والآخـر ظاهـر. وحـديـث عمـر هـذا في النهـي عن الجلـوس إلىٰ النسـاء مثـل حديثـه الآخر: «لا يدخُلـنَّ رجـلٌ علىٰ امـرأة وإن قيـل: حموها، ألا حموها الموت»، والحمو أبو الزوج. يقول: فليمتْ ولا يفعلْ ذلك، فإذا كان هذا من رأيه في أب الزوج ـ وهو مَحْرَم ـ فكيف بالغريب؟ ورحم الله عمر،

ما كان أشدَّ غيرته على الحُرَم! وقوله: «إنما النِّساء لحمٌ علىٰ وضم» فالوَضَم: هو الخشبةُ التي يُوضَع عليها اللحم. يقول: فهُنّ في الضَّعف مثل ذلك اللحم الذي لا يمتنع من أحد إلاَّ أن يُذَبَّ عنه.

وجاء في حديث ذكر الشهداء، قال: «والمجنوبُ في سبيل الله شهيد»، وفي حديث آخر: «ذو الجَنْبِ شهيدٌ»، وفي رواية: «ذاتُ الجَنْب شهادة»، ذات الجَنْب: هي الدُّبَيْلة والدُّمَّل الكبيرة التي تظهر في باطن الجَنْبِ وتنفجرُ إلىٰ داخل وقلَّما يسلَمُ صاحبها. وذو الجَنْب هو الذي يشتكي جَنْبه بسبب الدُّمل. والمَجنُوبُ: هو الذي أخذتْه ذات الجَنْب.

وجاء في الحديث: «الجانبُ المستَغْزِرُ يُثابُ من هِبَتِه» الجانب: الغريب. يقال: جَنَب فلانٌ في بني فلان يَجْنُبُ جنابةً، فهو جانب، أي: نزل فيهم غريباً. والمُسْتَغْزِر: منَ استغزر الرجل، أي: طلب أكثر مما أعطىٰ. ومعنىٰ الحديث: أن الغريب الطالب إذا أهدىٰ إليك شيئاً ليطلُب أكثر منه فأعطه في مقابَلة هديته.

وفي حديث مجاهد رحمه الله، قال في قوله تعالىٰ: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] قال: أجْنابُ الناس كلِّهم. والأجناب: هم الغرباء، جمع جُنُب، وهو الغريب. قالت الخنساء:

ابكي أخاكِ لأيتام وأرملةٍ   وابكي أخاكِ إذا جاورتِ أجنابا

[ج ن ح]

يقول ربُّنا عز وجل، مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. يقول: إن مالوا للسِّلْم، أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، فمِلْ إليها واقبل منهم ذلك.

وهذه المادة (جنح) تدلُّ علىٰ أصل واحد في اللغة، هو الميل والعُدْوان. لهذا قال أبو الحسين بن فارس في كتابه الفذّ «مقاييس اللغة»: ويمكن أن يكون معنىٰ هذه المادة هو الميل فقط، فإن العدوان في حقيقته هو ميلٌ عن الحق والإنصاف.

قال عز من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: ليس عليكم مأثمٌ وميلٌ عن الحقّ. يقال: جنح الرجلُ إلىٰ الرجل، أي: مال إليه، وجنَحت الإبلُ: إذا مالت أعناقها في السَّير، قال ذو الرُّمة:

إذا مات فوق الرّحلِ أحييتِ روحه بذكراكِ والعيسُ المراسيلُ جُنَّحُ

وقال النابغة ــ وَعنَىٰ الطيرَ:

جــوانــحُ قــد أيقــنَّ أن قبيلَــهُ إذا ما التقىٰ الجمعانِ أوّلُ غالبِ

والجوانـحُ: الأضلاع، سُمِّيـت كذلك لأنهـا مائلـة. والجناح: الجَنْب، قال تعالىٰ مخاطباً نبيَّه موسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] أي: إلىٰ جَنْبك، هكذا قال محمد بن المستنير المعروف بقُطْرُب، وعبَّر عن الجنب بالجناح، لأنه في محلّ الجنـاح، وقال أبو زكريا الفراء: الجناح في هذا الموضع: من أسفل العضُدِ إلىٰ الإبْط.

وقول الفراء: في هذا الموضـع ــ يريد آية سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ وذكـر في الموضـع الآخر من سورة القصص، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قال: معناه: واضمم إليك عصاك، والعرب تكني بالجناح عن القُوَّة والمُنَّة، ويقولون: قُصَّ جَناحُ فلان: إذا أُخذ مالُه، أو أوقعت به جائحةٌ تمنعه من التصـرّف. وقال أبو بكر بن الأنباري: والعرب تستعير الجناحَ فتسمِّي به ما بين الإبْط والعَضُـد من الإنسان، وتُسمّي عصا الإنسـان جَناحـاً، لأنه يُنتَفَع بها كما ينتفع بالجناح، وقيـل: إن المراد: اضمُمْ إليك يديك المبسوطتين لتتقي بهما الحيّة كالخائف الفزع ــ وذلك أن اليد يقال لها كلِّها:

جنـاح، وقـد عَبّر عن هذا المعنى بثلاث عبارات: الأولىٰ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢]، والثانية: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، والثالثة: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢] . ويجوز أن يراد بالضمِّ: التجلُّدُ والثباتُ عند انقلاب العصا ثعباناً، والله أعلم بمراده.

وقـال عز من قائل، مخاطبـاً نبيَّـه المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي: ليكُـنْ جانبُـك لهـم ليّناً. يقال: خفض جناحه: إذا ألانه، والمعنىٰ: ألنْ جناحك وتواضعْ لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة والكرامة، وتجاوز عنهم.

وقال تعالىٰ في الأمر ببرّ الوالدين ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. قـد أكثـر العلمـاء الكـلام في معنـىٰ خفض الجنـاح في هذه الآية الكريمـة، ومن أحسن ما قيل فيه ما حُكي عن الإمام القفّال، فإنه ذكر في معنىٰ خفض الجناح وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضمَّ فراخِهِ إليه للتربية خفض لها جناحه، فلهذا صار خفضُ الجناح كنايةً عن حسن التدبير، فكأنه قـال للـولد: اكفُلْ والديـك بأن تضمهمـا إلىٰ نفسـك، كما فعلا ذلك بك في حـال صغـرك. والوجه الثاني: أن الطائر إذا أراد الطيـران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد النـزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كنايـةً عن التواضع وترك الارتفاع. أما إضافة الجناح إلى الذلِّ، في قوله تعالىٰ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤] فللبلاغيين فيه كلامٌ عالٍ نفيس خلاصته وجهان: الأول: أن الإضافة هنا كإضافة حاتم إلىٰ الجود، في قولهـم: حاتم الجـود، فالأصـل فيـه: الجنـاح الذليـل. والثانـي سلوك سبيل الاستعارة، كأنه تخيّل للذلِّ جَناحاً، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً.

وقد جاء في بر الوالدين ــ في حياتهما وبعد مماتهما ــ أحاديث كثيرة، منها: ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أقبل رجلٌ إلىٰ نبي الله ﷺ فقـال: أبايعك علىٰ الهجـرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعـالىٰ. فقال:

«فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم قال: «فارجع إلىٰ والديك فأحسن صحبتهما». وفي رواية: جاء رجل فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد».

وروىٰ الإمام أحمد، عن أبي مالك القشيريّ، قال: قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه». وروي عن مالك ابن ربيعة الساعديّ، قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي عليَّ من بِرِّ أبويَّ شيءٌ بعد موتهما أبَرُّهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرامُ صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلاَّ من قِبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما». وروىٰ البزَّارُ في «مسنده»، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمَّه يطوف بها، فسأل رسول الله ﷺ: هل أدّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بزفرةٍ واحدة». اللهم ارزقنا حسن صحبة والِدينا والبرَّ بهما أحياءً وأمواتاً.

والآن نأتي إلى استعمالات مادة «جنح» في السنة النبوية المطهرة.

جاء في الحديث: أنه ﷺ أمر بالتجنّح في الصلاة: أن يرفع المصلي ساعديه في السُّجود عن الأرض، ولا يفرشهما، ويجافيهما عن جانبيه، ويعتمد على كفيه فيصيران له مثل جناحي الطائر، ويقال له: التجنُّح والاجتناح، ومنه قول عديٍّ ابن الرِّقاع، يصف ثور الوحش:

يبيت يحفِرُ وجه الأرضِ مُجْتَنِحاً ... إذا اطمأنَّ قليلاً قام فانتقلا

وفي الحديث: «إذا استَجْنحَ الليلُ فاكفِتُوا صبيانكم». جُنْحُ الليل وجِنْحُهُ: أوله، وقيل: قطعةٌ منه نحو النصف، كأنه شبِّه بالجناح، وهو طائفةٌ من جسم

الطائر. وقوله: «اكفِتوا صبيانكم»أي: ضُمُّوهم إليكم.

وفي حديث مرض رسول الله ﷺ: فوجد من نفسه خفّةً فاجتنح علىٰ أسامة حتى دخل المسجد. اجتنح، أي: خرج مائلاً متكئاً عليه. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في مال اليتيم: «إني لأَجْنَحُ أن آكل منه» أي: أرىٰ الأكل منه جُناحاً، والجناح: الإثم. وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها، الذي تصف فيه أباها الصديق رضي الله عنه: كان وقِيذَ الجوانح غزير الدمعة. الجوانح: الضلوع القصار التي تلي الفؤاد، واحدتها: جانحة، والوقيذ: العليل الشديد العلّة، تصفه بالخشوع والتخضُّع، وأنه عليل القلب، محزونُهُ، قد وقذه خوف الله تعالىٰ، فكَنَتْ عن القلب بالجوانح؛ لأنه يليها. وحديث عائشة هذا من أعلىٰ الكلام وأشرفه وأبلغه. ومن أراده كاملاً فليطلبه في كتب غريب الحديث وكتب الأدب والتراجم والأخبار، وقد أفرده بالشرح أبو بكر بن الأنباري رحمه الله.

وروىٰ أبو داود والترمذيُّ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في الماء، وفضْلُ العالِمِ علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

قوله ﷺ: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» معناه كما ذكر مجد الدين بن الأثير، أي: تضعها لتكون وطاءً له إذا مشىٰ. وقيل: هو بمعنىٰ التواضع له تعظيماً لحقه، وقيل: أراد بوضع الأجنحة، نزولهم عند مجالس العلم وترك الطيران. وقيل: أراد به إظلالهم بها. وهذا الحديث الشريف ناطق بفضل العلم والعلماء، وقد جاء بفضلهما وعلوِّ درجتهما كثيرٌ من الآيات القرآنية

والأحاديث النبوية، فمن ذلك قوله عز من قائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ورویٰ مسلمٌ، عن أبي هريرة: «كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً». ورویٰ مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلىٰ هدىً كان له من الأجر مثلُ أجورِ من تبعه، لا يُنقِص ذلك من أجورهم شيئاً». وروى مسلم، عن أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». ورویٰ الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلاّ ذكرَ الله تعالىٰ وما والاه، وعالماً أو متعلِّماً». ورویٰ الترمذي أيضاً، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع». وروي، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جُحرها، وحتىٰ الحوت، ليُصلُّون على معلمي الناس الخير». ورویٰ الخطيب عن أنس: «فضل العالم علىٰ غيره كفضل النبي علىٰ أمته»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه علىٰ هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمها». وروي أن رسول الله كان يقول في دعائه: اللهم انفعني بما علمتَني وعلِّمْني ما ينفَعُني، وزدني علماً» والحمد لله على كل حال.

[ج ن ف]

يقول ربنا عز وجل، في آيات الوصية: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢] قوله: ﴿جَنَفًا﴾ أي: جَوْراً، ويقال للمائل: أَجْنَفُ، وقد جنف الرجل على الرجل: إذا مال عليه بالظلم. وهذه المادة (جنف) تدلُّ على أصل واحد في اللغة هو الميل، ويقال: تجانَفَ عن كذا، أي: مال. قال الأعشىٰ الكبير ميمون بن قيس:

تجانَفُ عن جُلِّ اليمامةِ ناقتي ... وما قصَدَتْ من أهلها لسوائكا

وقال لبيد:

إنـي امـرؤٌ مُنِعَـت أُرومـةُ عـامـرٍ ... ضَيْمي وقد جَنِفَتْ عليَّ خُصومي

وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، في قوله تعالىٰ: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢] قال: خطأً أو عمداً. قال الحافظ ابن كثير: وهذا يشمل أنواع الخطأ كلّها، بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصىٰ لابن ابنته ليزيدَها، أو نحو ذلك من الوسائل إمّا مخطئاً غيرَ عامد، بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصيّ والحالة هذه أن يصلح القضية، ويُعَدِّل في الوصية علىٰ الوجه الشرعيّ، ويعدل عن الذي أوصىٰ به الميتُ إلىٰ ما هو أقربُ الأشياء إليه، وأشبهُ الأمور به، جَمْعاً بين مقصودِ الموصي والطريق الشرعيّ، وهذا الإصلاحُ والتوفيقُ ليس من التبديل في شيء، وفي الحديث: «الجَنَفُ في الوصية من الكبائر».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصىٰ حافَ في وصيته، فيُخْتَمُ له بشرِّ عمله

فيدخلُ النار، وإن الرجلَ ليعمل بعمل أهل الشرِّ سبعين سنة، فيعدلُ في وَصيته فيُخْتَمُ له بخير عمله فيدخل الجنة»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية.

وقوله تعالىٰ في آية تحريم الميتة وإباحتها في حال الضرورة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غيرَ مائلٍ إلى حرام. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ يعني: إلىٰ ما حُرِّم في صدر هذه السورة ﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾ يعني: في مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾، يقول: غير متعمِّد لإثم. وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أفطر في رمضان وهو يرىٰ أن الشمس قد غرَبَتْ، ثم نظر فإذا الشمس طالعةٌ، فقال عمر: لا نَقْضيه، ما تجانَفْنا فيه لإثم. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: «ما تجانَفْنا فيه لإثم» يقول: ما ملنا إليه ولا تَعمَّدْناه ونحن نعلمه. وهذا الحديث هكذا يرويه أصحاب الغريب مختصراً، وهو بتمامه في مسند عمر رضي الله عنه، عن زيد بن وهب، قال: بينما نحن جلوسٌ في مسجد المدينة في رمضان، والسماء متغيمة، رأينا إذ الشمس قد غابت وإنا قد أمسينا، فشرب عمر وشربْنا، فلم يلبث أن ذهب السحاب وبدت الشمسُ، فجعل يقول بعضنا لبعض: نقضي يومنا هذا، فسمع ذلك عمر، فقال: والله ما نقضيه، ولا تجانَفْنا لإثم.

وجاء في حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه: «يُرَدُّ مِن صدقةِ الجانف في مرضه ما يُرَدُّ من وصية المجْنِفِ عند موته» قال: مجد الدين بن الأثير: يقال: جنَفَ وأجْنف: إذا مال وجارَ، فجمع بين اللغتين، وقيل: الجانف: يختصُّ بالوصية، والمُجْنِفُ: المائل عن الحق.

[ج ن ن]

قال عز من قائل في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٧٦]. قوله تعالىٰ ﴿ جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي: واراه وستره، يقال: أَجَنَّهُ الليلُ، وجَنَّ عليه الليل.

وهذه المادة (جنن) ترجع إلىٰ أصل واحد في اللغة، هو السَّتْرُ والتستُّر والتغطية. ومن ذلك سميت الجنة، وهي دار النعيم في الدار الآخرة التي أعدَّها الله لعباده المتقين، وقد ذكرت في غير موضع من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وهي مشتقةٌ من الاجتنان، وهو السَّتْرُ، لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها، وسمِّيت بالجنَّة، وهي المرَّة الواحدة من مصدر جَنَّه جَنّاً: إذا ستره، فكأنها سترةٌ واحدة، لشدّة التفافها وإظلالها. هذا كلام ابن الأثير.

وذهب ابن فارس مذهباً آخر في تسمية الجنة، فقال: الجنةُ: ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستورٌ عنهمُ اليومَ. وهذا معنىً راجع أيضاً إلىٰ المعنىٰ الأصلي لمادة (جنن) وهو الستر. ثم قال ابن فارس: والجَنَّةُ: البستان، وهو ذاك لأن الشجر بورقه يسْتُر. وقد جاء التعبير عن البستان بالجنة في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧]، قال أبو منصور الأزهري، فيما حكاه أبو عبيد الهرويّ: كلُّ شجر متكاثف يستُرُ بعضه بعضاً فهو جَنّة، مشتقٌ من جننته، أي: سترته.

وقال تعالىٰ في شأن المنافقين: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [المجادلة: ١٦]. قال ابن عرفة نفطويه: أي: جعلوا ما أظهروا بألسنتهم من الإيمان ستراً لما يُضْمرون من نفاقهم خوفاً. وقرأ الجمهور: ﴿ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ بفتح

الهمـزة، وجمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم مسلمون توقياً من القتـل، كما يجعل المقاتـل الجُنَّـة وقايةً له من أن يصاب بسيف أو نحوه. وقرأ الحسن وأبو العالية: «إيمانهم» بكسر الهمـزة. أي: جعلوا تصديقهم الظاهري جُنّةً من القتل، فآمنت ألسنهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم.

إذن، فاستعمالات هذه المادة كلها ترجع إلىٰ معنىٰ السَّتْرِ والتغطية، ومن ذلك قولـه عز وجل منكراً على المشركين ما زعمـوه عن النبي ﷺ أنه تقوّل القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لايدري معه ما يقول، فيقول جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. الجِنـة: هي الجنون، وسُمِّي المجنون مجنوناً؛ لأنه مستور الفهم، مقلوب العقل. والجنة في قوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]: اسم للجنّ، وسمِّي الجنُّ جنّاً، لأنهم مُوارَوْن، ومُتستِّرون عن أعين الخَلْق، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقولـه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. قال الإمام الشـوكاني: قال أكثـر المفسريـن: إن المراد بالجنّة هنا الملائكة، وقيل لهم: جنَّة لأنهم لا يُرَوْن، وقال مجاهد: هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم: الجنّة، وقال أبو مالك: إنما قيل لهم الجنـة، لأنهم خُـزّان علـىٰ الجنان. والنسب: الصهر. قال قتادة والكلبي: قالوا لعنهم الله: إن الله صاهر الجنَّ فكانت الملائكة من أولادهم، قالا: والقائل بهذه المقالة اليهود، وقال مجاهـد والسدي ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة وخزاعة، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن، فزوجوه من سَرَوات بناتهم. تعالـىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهـو النسـب الذي جعلـوه. ثم رد الله سبحـانـه عليهـم بقـولـه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] أي: علمـوا أن هـؤلاء الكفـار الذيـن قـالوا هذا القول يَحضُـرُون النارَ، ويعذبـون فيها. وقيـل: علمـت الجنـة أنهم أنفسَهـم يحضـرون للحساب، والوجه الأول أولىٰ؛ لأنَّ الإحضار إذا أُطلق فالمراد لِعذاب. ثم نزَّه الله

سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩].

وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]. الجانُّ: الحية الصغيرة، وقد وصف سبحانه عصا موسىٰ في موضع آخر بقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ولا تعارُض، فإن المعنىٰ أن العصا صارت في خلق الثعبان العظيم، وخفّة الحيّة الصغيرة وتوقدها، وتلوِّيها. وجمع الجانِّ جِنّانٌ. ونظيره: غائطٌ وغيطان، وحائط وحيطان. وقال ابن فارس: «فأما الحَيَّةُ الذي يُسَمَّىٰ الجانَّ، فهو تشبيهٌ له بالواحد من الجانِّ. وفي حديث كَسْح زمزم: قال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله! إن فيها جِنّاناً كثيرة، يعني حيَّات. وفي الحديث: أنه نَهَىٰ عن قتل الجِنّان التي تكون في البيوت. وفي الحديث: أنه نهىٰ عن ذبائح الجن، هو أن يبني الرجل الدار فإذا فرغ من بنائها ذبح ذبيحة، وكانوا يعتقدون أنه إذا فُعِلَ ذلك لا يضرُّ أهلَها الجِنُّ، وهذا مما أبطله الإسلام، فإن النفعَ والضُّرَّ والخيرَ والشرَّ بيده سبحانه وتعالىٰ لا شريك له، ولا سلطان لغيره.

ويأتي من مادة (جنن) المِجَنُّ، وهو التُرْسُ، لأنه يواري حامله ويستره، ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه كتب إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: قلبتَ لابن عمِّك ظَهْرَ المِجَنّ. المجنّ: هو الترْس كما سبق، وقَلْبُ ظهره كنايةٌ عن المخالفة والعداوة، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لمن كان مع صاحبه على مودة ومحافظة، ثم حال عنها إلىٰ ضدها. ويُجْمَع المِجَنُّ علىٰ مَجَانَّ، ومنه حديث أشراط الساعة: «وجوههم كالمجان المطْرقة» يعني التُّرْك.

وفي الحديث: «الصوم جُنَّةٌ» أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات. والجُنَّة: الوقاية، وما يُسْتتر به مما يدفَع الأذىٰ، ومنه الحديث: «الإمام جُنّة» لأنه يقي المأموم الزلل والسَّهو. وفي حديث معاوية رضي الله عنه، قال: عبادَ الله، اتخذوا الله وليّاً، وخلفاءَه جُنّةً تحترزُوا بها.

وعن أبي هريـرة رضي الله عنه، أنه سمـع رسـول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ البخيل والمُنْفِق كمثل رَجُلين عليهما جُنَّتان مِن حديد، من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما، فأما المنفِقُ فلا يُنفِقُ إلاَّ سبغَتْ أو وفَرَتْ على جلده حتى تُخفِيَ بَنانَه، وتعفُوَ أثَرَه. وأما البخيلُ فلا يريد أن يُنفِقَ شيئاً إلاَّ لزِقتْ كلُّ حلقةٍ مكانَها، فهو يُوَسِّعُها فلا تتسع». قوله عليه الصلاة والسلام: «جُنَّتـان» هو مثنَّىٰ جُنَّـة، وهي الـدِّرْع. وروي: «جبَّتـان» بالباء الموحدة، تثنيةُ جُبَّةِ اللباس.

ومعنىٰ الحديث أن المنفـق كلما أنفق سبغت الجُنَّةُ - أو الجُبَّة- وطالت حتى تَجُرَّ وراءَه وتُخفِيَ رجليه وأثَرَ مشيه وخطواتِه.

وفي حديث الحسن: لو أصـاب ابن آدم في كـل شـيء جُنَّ أي: أُعجب بنفسه حتى يصير كالمجنون من شدة إعجابه. ومنه حديثـه الآخر: اللهم إني أعوذ بك من جنـون العمـل، أي: من الإعجـاب بـه، ويؤكد هذا حديثـه الآخـر: أنه رأىٰ قوماً مجتمعيـن علىٰ إنسان، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مجنونٌ. قال: هذا مصـاب، وإنما المجنـون الذي يضرِبُ بمَنْكِبيه، وينظر في عطفيه، ويتمطىٰ في مشيته. يريد المتكبرَ المختال.

[ج هـ د]

يقـول عز من قائـل في صفـة المنافقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، الجُهْـد، بضـم الجيم: الوُسْـع والطاقـة. والجَهْـد، بفتح الجيـم: المشقَّـة، وقيل: هما لغتان إذا استُعملا في الوُسْـع والطاقة، فأما إذا أُريد المشقةُ والغاية فهو الجَهْد، بفتح الجيم، ليس غير.

وهذه الآية الكريمة تكشف عن صفة ذميمة من صفات المنافقين، وأنه لا يسلم أحدٌ من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، إن جاء أحدٌ من المسلمين بمال جزيلٍ، قالوا: هذا مِراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا.

أخرج البخاريُّ في كتاب الزكاة والتفسير عن أبي مسعود رضي الله عنه ــ واسمه عُقْبَةُ بنُ عمرو البدريّ ــ قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامِلُ ــ أو نَتَحاملُ ــ أي: نؤاجر أنفُسَنا في الحِمْل، أو يَحْمل بعضُنا لبعض بالأجرة، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجلٌ فتصدّق بصاع، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صاع هذا، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩] الآية. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء عبدُ الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلىٰ رسول الله ﷺ، وجاءه رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام. فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلاَّ رياءً، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع.

ومن استعمال الجَهْد، بفتح الجيم، في معنىٰ المبالغة والغاية قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩] أي: أقسموا بالله أشدَّ أيمانهم التي بلغتْها قدرتُهم، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإلهُ الأعظم. فلهذا أقسموا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٨]. الجهاد: المبالغة واستفراغ ما في الوُسْع بحربٍ أو لسانٍ، أو ما أطاق من شيء. وقال الراغب الأصبهانيُّ: الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدوِّ الظاهر، ومجاهدةُ الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]. وقال ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم». والمجاهدة

تكون باليد واللسان، قال ﷺ: «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم».

والآن نأتي إلىٰ تصرّف مادة (جهد) في السُّنّة المطهرة وآثار الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين. جاء في الحديث: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّة». قال مجد الدين بن الأثير: الجهادُ: محاربة الكفار، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوُسْع والطاقة من قول أو فعل. يقال: جَهَد الرجل في الشيء: أي: جَدَّ فيه وبالغ، وجاهد في الحرب مجاهدة وجهاداً. والمراد بالنية في قوله عليه السلام: «ولكن جهاد ونية» إخلاص العمل لله تعالىٰ، ومعنىٰ الحديث: أنه لم يبقَ بعد فتح مكة هجرة، لأنها قد صارت دار إسلام، وإنما بقي الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار.

وجاء في الحديث الطويل المأثور، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أجتهدُ رأيي.

الاجتهاد: بذل الوسع في طلب الأمر. وهو افتعالٌ من الجُهْد: الطاقة، والمراد به ردُّ القضية التي تُعرَضُ للحاكم من طريق القياس، إلىٰ الكتاب والسُّنّة، ولم يُرِدْ معاذٌ رضي الله عنه ـ بقوله: أجتهد رأيي ـ الرأي الذي يراه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة.

وقد تكرر لفظ الجَهْد والجُهْد في الحديث كثيراً، وقد تقدَّم أن الجُهْدَ بالضم: الوسْع والطاقة، والجَهْدَ بالفتح: المشقّة، وقيل: المبالغة والغاية، وقيل: هما لغتان في الوسْع والطاقة، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير.

ومن المفتوح حديث أم معبد ـ وهو حديث مشهورٌ بين العلماء، مرويٌّ في كتبهم، وهو من أعلام النبوة، جاء في هذا الحديث: فنظر رسول الله ﷺ إلىٰ شاة في كِسْر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاةُ يا أم معبد؟» قالت: شاةٌ خَلَّفها الجَهْدُ عن الغنم. والمراد بالجهد هنا الهزال، و«خلفها عن الغنم»، أي: سَرَحَتْ الغنم إلىٰ المرعىٰ،

وبقيت هي لم تسرح معها لضعفها. ومن المفتوح أيضاً حديث الدعاء المرويُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «تعوذوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء». وجَهْدُ البلاء: هو الحالة الشاقة وكلُّ ما أصاب الإنسان من شدة مما لا طاقة له بحمله ولا يقدر على دفعه. وجاء في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: والناس في جيش العسرة مُجْهِدون مُعْسرون، يقال: جُهِد الرجلُ فهو مجهود: إذا وجد مشقَّة، وجُهِد الناس فهم مجهودون: إذا أجدبوا، فأما أجْهد فهو مُجْهِد، بالكسر، فمعناه: ذو جَهد ومشقة، وهو مأخوذٌ من أجهد دابَّته: إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وأجْهد فهو مُجْهَد، بفتح الهاء، أي: أُوقِع في الجهد، وهو المشقة. وجاء في حديث الحسن البصري رضي الله عنه، قال: «لا يُجْهِدُ الرجلُ مالَه ثم يقعد يسأل الناس». قال النضر بن شميل: قوله: «يُجْهِد» أي: يُعْطي هاهنا وهاهنا. وقد قال الحسن ذلك في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

[ج هـ ر]

يقول عز من قائل في قصة موسىٰ عليه السلام، وسؤالِهم ما ليس لهم من رؤية الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥]. قوله: ﴿ جَهْرَةً ﴾ أي: غير محتجب عنا. يقال: جهرتُ الشيء، أي: كشفته، ووجْهٌ جهير، أي: ظاهر الوضاءة، ويقال: جهرته واجتهرتُه، أي: نظرت إليه ولا حجاب بيني وبينه. وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧] جهرةً، أي: ظاهراً عِياناً، وهو أن يأتيهم العذاب وهم يرونه.

وهذه المادة (جهر) تدل على أصل واحد في اللغة، وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوُّه، يقال: جهرتُ بالكلام، أي: أعلنت به، ورجل جهير الصوت، أي: عاليه. قال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠] وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال الشاعر:

أخاطب جَهْراً إذ لهنَّ تخافُتٌ ... وشَتَّان بين الجَهْرِ والمنطقِ الخَفْتِ

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان رجلاً مُجْهِراً، أي: صاحب جَهْر ورفع لصوته. يقال: جَهَر بالقول: إذا رفع به صوته، فهو جهير، وأَجْهر فهو مُجْهِر: إذا عُرف بشدة الصوت. ويقال أيضاً: جَهْوَرَ بالقول، أي: رفع به صوته، وينسب إليه فيقال: جَهْوَرِيّ. ومنه حديث العباس رضي الله عنه: أنه نادىٰ بصوت له جَهْوَرِيّ، أي: شديدٍ عالٍ. ومثله ما جاء في حديث قُسّ بن ساعدة الإيادي: فقام إلىٰ رسول الله ﷺ شيخٌ من عبد القيس، طويل القامة، عظيم الهامة، ضخم الدَّسيعة، جَهْوَرِيُّ الصوت. وجاء في بعض الحديث: «فإذا امرأةٌ جهيرة» أي: عالية الصوت، ويجوز أن يكون من حسن المنظر، من قولهم: «وجهٌ جهيرٌ» أي: ظاهر الوضاءة كما سبق.

ومن ورود مادة (جهر) في الحديث ما جاء في صفته ﷺ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من رآه جَهَره، أي: عَظُم في عينه، يقال: جهرتُ الرجل، واجتهرته، أي: رأيته عظيم المنظر، ورجلٌ جهير، أي: ذو منظر، وهذا راجعٌ إلىٰ أصل مادة (جهر) وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوُّه. وهذا الحديث في وصفه ﷺ يشبه ما جاء في حديث علي بن أبي طالب أيضاً في وصفه عليه السلام، وذلك قوله: «من رآه بديهةً هابه». والبديهة: المفاجأة، والهيبة: الخوف والاحترام. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا رأيناكم جَهرناكم، أي: وجدناكم عِظاماً في الأعين معجبةً أجسامكم، وهذا كما قال تعالىٰ في صفة المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]،

يقال: جهرني فلان، أي: راعني بجسمه وهيئته، وجهرتُه، أي: رأيتُه كذلك، والجُهْرُ: الهيئة وحسن المنظر.

قال القُطامي:

شنِئتُكَ إذ أبصرتُ جُهْرَك سيّئاً وما غَيَّبَ الأقوامُ تابعَه الجُهْرُ

أي: إن ما يغيبه الرجل من خُبْرِه وحقيقة أمره يفضحه منظره وتكشفه هيئته.

وهذا في المعنىٰ راجعٌ إلىٰ قول زهير:

ومهما يكنْ عندَ امرىءٍ من خليقةٍ وإن خالَها تَخْفىٰ علىٰ الناسِ تُعْلَمِ

وجاء في حديث خيبر: وجد الناس بها بصلاً وثوماً فجَهرُوه أي: استخرجوه وأكلوه. يقال: جَهْرتُ البئرَ: إذا كانت مُندَفِنةً فأخرجت ما فيها.

ومنه حديث أم المؤمنين عائشة، تصف أباها رضي الله عنهما، قالت من كلمتها البليغة: «واجتهر دُفُنَ الرَّواء» الاجتهار: الكَنْسُ والكَسْح، يقال: جهرت البئر، إذا كانت مندفنة الماء، فأخرجت ما فيها من التراب والطين، والدُّفُن: جمع دفين، بمعنىٰ مدفون، أي: التي اندفن ماؤها تحت طبقات الأرض، والرَّواء: الماء الكثير.

وهذا مَثَلٌ ضربتْه السيدة عائشة لإحكام أبيها الأمرَ بعد انتشاره، شبّهته برجل أتىٰ علىٰ آبار قد اندفن ماؤها، فأخرج ما فيها من الدَّفَن حتى نبع الماء.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أُمّتي معافىً إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان! عمِلتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه، ويصبح يكشف سِتْرَ الله عليه». قال ابن الأثير ــ في قوله ﷺ: «إلا المجاهرين» ــ: هم الذين جاهروا بمعاصيهم وأظهروها، وكشفوا ما ستر الله عليهم منها فيتحدثون به. يقال: جهر، وأجهر، وجاهر. ومنه الحديث: «لا غيبة لفاسق ولا مجاهر».

[ج هـ ل]

يقول تعالىٰ في شأن فقراء المهاجرين، الذين انقطعوا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سببٌ يتعيّشون منه، ولا يستطيعون الضرب في الأرض للتجارة والتكسُّب: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. قوله تعالىٰ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ يعني الجاهل بحالهم، ولم يُرِدِ الجاهلَ الذي هو ضد العاقل ، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخِبرة. يقال: هو يجهل ذاك، أي: لا يعرفه.

وهذه المادة (**جهل**) تدل في أصل اللغة علىٰ معنيين: أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخفّة وخلاف الطمأنينة، وهو الحمق وضد العقل. ومن ذلك قوله تعالىٰ مخاطباً نبيه نوحاً عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وهو من قولهم: جهل فلانٌ رأيه. ومعنىٰ الآية: إني أُحذِّرك أن تكون من الجاهلين، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]. وقيل المعنىٰ: أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال أبو بكر بن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظةٌ يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلىٰ مقام العلماء العاملين.

وفي الحديث: «من استجهل مؤمناً فعليه إثمه» أي: من حمله علىٰ شيء ليس من خلقه فأغضبه فإنما إثمه علىٰ من أحوجه إلىٰ ذلك، وفي الحديث: «زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج وهو محتضنٌ أحد ابني ابنته، وهو يقول: إنكم لَتبخّلون وتُجبِّنون وتجهّلون» أي: تحملون علىٰ البخل

والجُبْن والجهـل، يعني الأولاد، فإن الأب يبخل بإنفاق مالِه ليُخلِّفَه لهم، ويجبُنُ عن القتال ليعيشَ لهم فيربِّيَهم، ويجهـلُ ما ينفعـه مما يضـرُّه لتقسُّـمِ قلبـه وشفقتهِ وحرصِـه عليهم. والعرب تقول: الولد مَجْهَلَـةٌ مَجْبَنَـةٌ مَبْخَلَـة، أي: مَظِنَّـة للجهل والجبـن والبخـل. وفي الحديـث: «إنَّ من العلـم جهـلاً». قيـل: هـو أن يتعلمَ ما لاحاجـة إليه كالنجـوم وعلوم الأوائل، ويدعَ ما يحتاج إليه في دينـه من علم القرآن والسُّنـة. وقيل: هو أن يتكلـفَ العالـمُ القـولَ فيمـا لا يعلمـه فيُجهِّلَـه ذلك. وفي الحديـث: «إنـك امرؤٌ فيك جاهلية». الجاهلية: هي الحـال التي كان عليها العربُ قبل الإسـلام، من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكِبْرِ والتجبُّر وغير ذلك.

[ج و ب]

يقـول عز من قائـل في صفة عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. قولـه: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي: اتبعوا رسله، وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنىً واحد. قال الراغـب الأصبهانـي: الاستجابـة: قيـل: هـي الإجابـة، وحقيقتهـا هـي التحـرِّي للجـواب، والتهيؤ له، لكن عُبِّـر بـه عن الإجابـة لقلـة انفكاكها منها. قال تعـالىٰ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقـولـه تعـالىٰ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ [الفجر: ٩]. أي: نقبـوا الصخر وخَرَقوه، وجعلوا منه بيوتاً دخلوها وسكنوها. وذلك قوله تعالىٰ في موضـع آخر: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] وقوله: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وهذه المادة (جوب) تدلّ علىٰ أصل واحد في اللغة هو: خرق الشيء وقطعه. ومنه: جاب البلاد، أي: قطعها سيراً، ومن ذلك أيضاً سُمِّي جيب القميص؛ لأنه جِيبَ، أي: قُطِع. وجَيْبُ القميص: طَوْقُه؛ وجَمْعُه جُيُوب.

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. قال المفسِّرون: إن نساء الجاهلية كُنَّ يَسْدِلْن خُمُرَهن من خلفهنّ وكانت جيوبهن من قدّامَ واسعة، فكانت تنكشف نحورُهنّ وقلائدُهنّ، فأُمر نساءُ المسلمين أن يضربْن مقانِعَهُنّ على الجيوب، ليُستَرَ بذلك ما كان يبدو ويظهر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء، الذي هو الإلصاق، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة ما ذكره مقاتل، قال: بلَغَنا ــ والله أعلم ــ أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخُلْنَ عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهنّ، يعني الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء رضي الله عنها: ما أقبح هذا! فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية.

وروىٰ البخاريُّ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لمّا أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شققن مُرُوطَهنّ فاختَمرْن بها. وروىٰ ابن أبي حاتم، عن صفية بنت شيبة، قالت: بينا نحن عند عائشة ذكرنا نساء قريش وفضْلَهنّ، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشدَّ تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لمّا أُنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] انقلب رجالهنّ إليهنّ يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل علىٰ امرأته وابنته وأخته، وعلىٰ كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلىٰ مِرْطِها المرحَّل فاعتجرتْ به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ

مُعْتجرات كأنّ علىٰ رؤوسهن الغِرْبان.

ومن غريب مادة (جوب) في الحديث ما روي أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الليل أجْوَبُ دعوةً؟ قال: «جوفُ الليل الغابر».

قوله: «أجْوَبُ دعوةً» أي: أسرع إجابةً، كما يقال: أطوع، من الطاعة، قال مجد الدين بن الأثير: وقياس هذا أن يكون من (جابَ) لا من (أجاب)؛ لأن ما زاد على الفعل الثلاثي لا يُبْنى منه (أفعل من كذا)، إلا في أحرف جاءت شاذَّة. وقال الزمخشريّ: أجْوَبُ كأنه في التقدير، من جابت الدعوةُ، بوزن فَعُلَتْ، كطالتْ، أي: صارت مستجابة، كقولهم في فقيرٍ وشديد: كأنهما مِن (فَقُر) و(شَدُدَ)، وليس ذلك بمستعمل، قال: ويجوز أن يكون من جُبْتُ الأرضَ: إذا قطعْتَها بالسَّير، علىٰ معنىٰ: أمضَىٰ دعوةً، وأنفذ إلىٰ مظانِّ التقبُّل والإجابة.

وجاء في حديث الاستسقاء: «حتى صارت المدينةُ مثل الجَوْبة» هي: الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء: جَوْبة، أي: حتىٰ صار الغيمُ والسَّحابُ محيطاً بآفاق المدينة. وفي حديث الاستسقاء الآخر، الذي رواه أنسٌ رضي الله عنه: فانجاب السَّحابُ عن المدينة حتى صار كالإكليل. انجاب السَّحابُ، أي: ذهب وانكشف. وقيل: تقبَّضَ واجتمع، وهو مطاوع (جابَ)، أي: قطع وخَرَق. وجاء في حديث خَيْفانَ بن عَرانة، حين سأله عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن أحياء العرب، قال: وأمّا هذا الحَيُّ من أنمار، من بَجليةَ وخَثْعَم، فجَوْبُ أبٍ وأولادُ عَلّة. الجَوْب: القطع، أي: أنهم بنو أب واحد، قد قُطِعُوا منه، لأنهم بعضُه، وهم مع هذا أولاد علة، وهم الذين أمهاتهم شتىٰ، وأبوهم واحد. وفي حديث السقيفة، قالت الأنصار لقريش: منا أمير ومنكم أمير، فجاء أبو بكر فقال: إنا معشر هذا الحيّ من قريش، أكرمُ الناس أحساباً، وأثقبُه أنْساباً، ثم نحن بعدُ عِترةُ رسول الله التي خرج منها، وبيضتهُ التي تفقأتْ عنه، وإنما جِيبت العرب عنا كما جيبت الرَّحى عن قُطبها. قوله: «جِيبت العربُ عنا» أي: خُرِقتِ العرب عنّا، فكنّا

وَسَطاً وكانت العرب حوالينا كالرَّحىٰ، وقُطْبِها الذي تدور عليه.

[ج و ر]

يقول عز وجل مقرّراً وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والمُلك: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨- ٨٩]. قوله: ﴿ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي: يُؤمِّنُ مَن أخافه غيرُه، ومن أخافه هو لم يُؤمِّنْه أحد، وكانت العرب إذا كان السيّد فيهم أجار أحداً لا يُخْفَرُ في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه؛ لئلاً يَفْتات عليه، ولهذا قال عز وجلّ: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨] أي: وهو السيِّدُ العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخَلْقُ والأمر، ولا معقب لحكمه، لا يُسأَلُ عمَّا يَفْعَل وهم يُسْألون.

والجار في اللغة هو: مجاورُك ومَن يقرُب مسكِنُه منك. هذا هو الأصل، وقد يستعمل بمعنىٰ المجير، الدافع عن صاحبه أنواع الضرر، وذلك قوله تعالىٰ، في قصة بدر: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] الآية. قال أبو عبيد الهروي: ﴿ جَارٌ لَّكُمْ ﴾ أي: مجير، والجار يكون المجير، ويكون المستجير.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء إبليس يوم بدر، في جند من الشياطين، معه رايتُه، في صورة رجل من بني مدلج، وهو سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾. فلما اصطف الناسُ أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمىٰ بها في وجوه المشركين فولَّوْا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلىٰ إبليس، فلما رآه،

وكانت يـده في يد رجـل من المشركيـن، انتـزع يده، ثم ولّىٰ مدبراً وشيعتُه، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قال الراغب الأصبهاني: وباعتبار القُرْب قيل: جارَ عن الطريق، ثم جُعل ذلك أصـلاً في العُـدُول عن كـلِّ حق، فبُني منه الجَوْر، قال عزّ من قائل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] أي: من السُّبُل ما هو مائلٌ عن الحـقّ والقَصْـد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وروي عنه أيضاً في تأويل قوله تعالـىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: يقول: علىٰ الله أن يُبيّن الهـدىٰ والضلالـة. وقال قتادة: علىٰ الله بيانُ حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

وجاء في الحديث: «لا يزال الإسلامُ يزيدُ وأهلُه، ويَنقصُ الشّركُ وأهله، حتى يسير الراكـبُ بين النُّطْفَتَيْن لا يخشىٰ جَـوْراً»، أراد بالنطفتيـن: بحـر المشرق وبحر المغـرب، وقيل: أراد ماء الفـرات وماء البحر الذي يلي جُـدّة. وقوله: «لا يخشىٰ جوراً» هكذا جاء في «الغريبين» للهروي و«الفائق» للزمخشـري، ومعناه: لا يخشىٰ في طريقـه أحداً يجور عليه ويظلمـه. وجـاء في كتـاب أبي منصـور الأزهري: «لا يخشـىٰ إلاّ جـوراً» بزيادة «إلاّ» أي: لا يخـاف في طريقـه غيرَ الضلال والجـور عن الطريق. وفي الحديـث: أنه ﷺ كان يجاور بحراء، ويُجاور في العشر الأواخر من رمضان. يُجـاور، أي: يعتكـف، وهي مفاعلـة من الجوار، ومنه حديـث عطـاء: وسُئـل عـن المجاور يذهـب للخـلاء، ويعنـي المعتكـف. فأمّـا المجـاورة بمكـة والمدينة، فيراد بها المُقامُ مطلقاً، غير ملتزَمٍ بشرائط الاعتكاف الشرعي.

وفي الحديـث: أنّ حَمَلَ بنَ مالكِ بن النابغةِ قال لرسول الله ﷺ: إني كنت بين جارتين لي، فضرَبَـتْ إحداهما الأخرىٰ بمِسْطح، فألقت جنيناً ميّتاً وماتت. فقضىٰ رسول الله ﷺ بدِيَةِ المقتولة علىٰ عاقلة القاتلة، وجعل في الجنين غُرّةً عبداً أو أمة.

قوله: كنتُ بين جارتيـن لي، يريد امرأتيه، قال الزمخشـري: كنَوْا عن الضَّرَّة بالجارة، تطيُّراً من الضَّرر. وعن ابن سيرين قال: كانوا يكرهون أن يقولوا: ضَرّة، ويقولون: إنها لا تذهب من رزقها بشيء، ويقولون: جارة، وفي حديـث أُم زرع: «ملْءُ كسائها وغَيْظُ جارتِها» الجارة: الضرَّة. هكذا قال ابن الأثير في «النهاية»، لكنه قال في «منـال الطالب»: الجارة تقـع علىٰ الضَّـرّة والمجـاوِرَةِ في المكان. ومعنىٰ الحديـث أنها ترىٰ حسنَها فيغيظُها ذلك. ومن ذلك أيضـاً حديـث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لحفصة: لا يغرَّك أنْ كانت جارتُك هي أوْسَمَ وأحبَّ إلىٰ رسول الله ﷺ منك، يعني عائشـة رضـي الله عنها. ومنه أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه كان ينام بين جارَتَيْه».

وفي الحديث: «المسلمـون تتكافأ دماؤهم، ويسعـىٰ بذمّتهـم أدنـاهم، ويرُدُّ عليهم أقصاهـم، وهم يدٌ علىٰ من سواهم» ويروىٰ: «ويُجيـرُ عليهـم أقصاهم. يرُدُّ مُشِدُّهم علىٰ مُضْعِفِهم، ومُتَسَرِّيهم علىٰ قاعدِهم، لا يُقْتلُ مسلم بكافر، ولا ذو عهدٍ في عهـده». قوله: « ويُجير عليهم أدناهم» أي: إذا أجار واحدٌ من المسلمين ــ حرٌّ أو عبدٌ أو أمةٌ: واحداً أو جماعةً من الكفار وخفَرَهم وأمَّنَهم، جاز ذلك علىٰ جميع المسلمين، لا يُنْقَضُ عليه جوارُه وأمانُه.

[ج و س]

يقول ربنا عز وجل، مخبراً عن بني إسرائيل: أنه سبحانه وتعالىٰ قضىٰ إليهم، أي: أخبرهـم في الكتاب الذي أنزلـه عليهم، بأنهم سيفسـدون في الأرض مرتين، ويعلو أمرُهم علواً كبيراً، فيتجبّرون ويفجُرون علىٰ الناس، وأنه سيسلط عليهم جنداً من خَلْقِه أُولي بأس شديد، فيتملكون بلادهم، ويستبيحون حماهم ويقتلونهم مَقتلةً

عظيمـة، فيقـول عز من قائل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

قوله عز من قائل: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي توسَّطوها وتردَّدُوا بينها، وقال ابن عرفة نفطويه: أي: عاثوا وأفسدوا. وقال الأصمعيّ: يقال: تركتُ فلاناً يجوس بني فلان، ويحوسهـم ويدوسهم، أي: يطؤهم. وقال أبو إسحاق الزجاج: معناه: طافوا خـلال الديـار، هل بقـي أحدٌ لم يقتلـوه، ثم قـال: والجَـوْسُ: طلب الشيء باستقصـاء. وقال ابن جريـر الطبـري: معنىٰ جاسـوا: طافـوا بين الديـار يطلبونهـم ويقتلونهـم، ذاهبين وجائين. وقال أبو زكريـا الفـراء: معناه: قتلوهم بين بيوتهم، وأنشد لحسان بن ثابت رضي الله عنه:

ومنـا الـذي لاقـىٰ بسيـفِ محمّـدٍ ... فجاسَ بهِ الأعداءَ عُرْضَ العساكرِ

وقـال محمـد بن المستنير، المعـروف بقطـرب: معناه: نزلـوا. وأنشـد قول الشاعر:

فجُسْنـــا ديـــارَهُـــمْ عَنْـــوةً ... وأُبْنـا بسـاداتِهـمْ مُـوْثَقينـا

وقـرأ ابن عباس رضي الله عنهمـا «فحاسـوا» ــ بالحـاء المهملـة. قـال أبـو عبيد القاسم بن سلام: الحَـوْس والجَوْسُ بمعنًى واحـد، وهو كـلُّ موضع خالطْتَه ووطئته، فقد حُسْتَه وجُسْته سواء. قال جرير:

نجـوس عَمـارةً ونكـفُّ أخـرىٰ ... لنـا حتـىٰ يُجـاوزَهـا دليـلُ

قوله: «نجوسُ عَمارة» أي: نخالطها ونطؤُها حتى نبلغ ما نريد منها. والعَمارةُ بفتح العين، وتكسر: فوق البطن وأصغرُ من القبيلة.

[ج و ع]

يقـول عز من قائـل مخبراً أنه يبتلي عبـاده ويختبـرهم ويمتحنهم: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥] . الجوع: ضدُّ الشِّبَع، وفسّره الراغب الأصبهانيّ بأنه الألم الذي ينال الحيوان من خلوّ المعدة من الطعام، وهو بليةٌ عظمىٰ ومصيبة كبرىٰ، ولذلك اقترن بالخوف في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز، الموضع الأول: في الآية السابقة، والموضع الثاني: في قوله عز وجل: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] والمـوضـع الثـالث: هو قوله عز وجل: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ قـال: هم أصحاب محمـدٍ ﷺ. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والبيهقيُّ، في «شعـب الإيمان» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ الآية، قـال: أخبر الله المؤمنيـن أن الدنيـا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشّرهم فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، وأخبر أن المؤمن إذا سلّم لأمر الله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب الله له ثلاث خصال من الخيـر: الصلاةَ من الله، والرحمـة، وتخفيـفَ سبيـل الهـدىٰ، وذلك قـوله تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقد عبّـر القرآن الكريم عن الجوع بالعذاب كما جاء في بعض التفسير، وذلك قولـه تعـالىٰ في شـأن مشركـي قـريـش: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، قيل عن العذاب في الآية الكريمة: إنه الجوع الذي أصابهم في سني القحط. وقيل: المرض، وقيل: القتل يوم بدر.

وحديث القحط معروف، حين دعا رسول الله ﷺ علىٰ كفار قريش، روىٰ البخاريّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: «اللهم أَنْج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أَنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين. اللهم اشدُدْ وطأتَك علىٰ مضر، اللهم اجعلها سنين كسِنِي يوسف»، وأن النبيَّ ﷺ قال: «غِفارٌ غفر الله لها، وأسلمُ سالمها الله»، وروىٰ البخاري في الباب أيضاً، عن مسروق، قال: كنا عند عبد الله ــ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ــ فقال: إن النبيَّ ﷺ لما رأىٰ من الناس إدباراً، قال: «اللهم سبعٌ كسبع يوسف». فأخذتهم سنةٌ حصَّتْ كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرىٰ الدُّخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادْع الله لهم، الحديث.

ومن غريب مادة (جوع) في السُّنة ما روي أن النبي ﷺ دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها رجل، فقالت: إنه أخي من الرضاعة. فقال: «انظرن ما إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة» أي: إن الذي يحرم من الرضاع إنما هو الذي يَرْضَعُ من جوعه، وهو الطفل، يعني أن الكبير إذا رضع امرأةً لا يحرم عليها بذلك الرَّضاع، لأنه لم يرضعها من الجوع. ومنه حديث أبي هريرة وأمِّ سلمة رضي الله عنهما: «إنما الرضاع ما كان في الثدي قبل الطعام»، ومثله حديث عمر رضي الله عنه: «إنما الرضاعة رضاعة الصغر».

[ج و ف]

يضرب الحـقُّ تبارك وتعالىٰ مثلاً للرجـل الذي يقول لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وللدَّعـيِّ الذي ينتسـب إلىٰ غير أبيـه وهو المُتَبنَّـىٰ، فيقول عزَّ من قائل: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].
الجـوف: هو البطـن. يريد سبحـانه ــ وهو أعلـم بالذي يريـد ــ أنه كمـا لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، كذلك لا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أمّاً له، وكذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه، فدعاه ابناً له.

وقد اختُلف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فقيل: كان الواحدُ من المنافقين يقـول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلبٌ يأمرني بكذا، فنزلت الآية الكريمـة لرد النفاق وإبطالـه، وبيـان أن النفاق لا يجتمـع مع الإسلام كما لا يجتمـعُ قلبـان في جـوف. وقيل: نزلت في رجل بعينه من قريش، كان يسمَّىٰ من دهائه ذا القلبين، وكان يزعم أن له قلبين، كلٌّ منهما بعقلٍ وافر.

وأخرج أحمد والترمذيّ ــ وحسَّنَه ــ وابنُ جرير وغيرهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قام النبيُّ ﷺ يوماً يصلـيّ، فخطر خَطْـرةً، فقـال المنافقـون الذين يصلـون معه: ألا ترىٰ أن له قلبين، قلباً معكم وقلباً معهم؟ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ ﴾. وأخـرج ابنُ مردَويـه، عن ابـن عباس أيضاً من طريق أخرىٰ بلفظ: صلَّىٰ النبي ﷺ صلاةً، فَسَها فيها، فخطرت منه كلمةٌ، فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين. فنزلت الآية.

وقال عبد الرزاق عن الزهري في قولـه تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٤]، قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضُرب له مَثَل،

يقول: ليس ابن رجلٍ آخرَ ابنَك، ثم قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]. وهو أمرٌ ناسخ لما كان في الجاهلية وابتداء الإسلام. من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالىٰ بردِّ نسبهم إلىٰ آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدلُ والقِسْط والبِرّ. وأخرج البخاري ومسلمٌ وغيرهما، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: إن زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ، ما كنّا ندعوه إلاّ زيدَ ابن محمد حتىٰ نزل القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾، الآية، فقال رسولُ الله ﷺ: «أنت زيدُ بن حارثة بن شراحيل».

ومن مجيء لفظِ «الجوف» في الحديث، ما رُوي عن النبي ﷺ، أنه قال: «استَحْيُوا من الله» ثم قال: «الاستحياءُ من الله؛ ألاَّ تَنْسَوُا المقابرَ والبلَىٰ، وألاَّ تَنْسَوُا الجوفَ وما وعَىٰ، وألاَّ تَنْسَوُا الرأسَ وما احتوىٰ». قوله ﷺ: «ألا تَنْسَوا الجوف وما وعىٰ» فيه قولان: الأول: أنه أراد البطن والفرج، كما قال في الحديث الآخر: «إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكمُ الأجوفان»، وكالحديث الذي يُرْوَىٰ عن جُنْدُب: «من استطاع منكم ألاّ يجعل في بطنه إلاّ حلالاً، فإنَّ أوّلَ ما يَنْتُنُ من الإنسان بطنُه»، والمرادُ استعمالُ هذه الجوارح فيما رضي الله استعمالها فيه، والحَثُّ علىٰ الحلال والطيب من الرزق. والقول الآخر في قوله عليه السلام: «الجوف وما وعىٰ» أنه يعني به القلب وما وعىٰ من معرفة الله تعالىٰ، والعلم بحلاله وحرامه، ولا يُضَيِّعُ ذلك. وقوله ﷺ: «وألاّ تنسَوُا الرأسَ وما احتوىٰ». فإنه يريد به ما فيه من السمع والبصر واللسان، وألاّ يستعملَ ذلك إلا في حِلِّه. وقوله: «وما احتوىٰ» يريد به الدماغ. وإنما خص عليه السلامُ القلبَ والدماغَ لأنهما مجمعُ العقل ومسكِنُه. ومن ذلك حديثه ﷺ: «إن في الجسد لمضغةً إذا صلَحَتْ صلَح بها سائرُ الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، وهي القلب». وجاء في حديث آخر: «أكثرُ ما يُدخل الناسَ النارَ الأجوفان، الفم والفرج». وكل ذلك راجع إلىٰ تنقية الجوارح واستعمالها فيما أحله الله.

وقد تصرفت مـادة (جوف) في الحديث وتقلّبـت في استعمـالات شتـىٰ. فمن ذلك ما جـاء في حديث الدِّيات: «في الجائفة ثلثُ الدية» الجائفة: هي الطعنـة التي تنفُذ إلىٰ الجـوف، يقـال: جُفْتُ الرجلَ، أي: أصبْتُ جوفَه، وأجفْتُه الطعنةَ وجُفتُه بها. ومن ذلك حديـث حذيفـة رضي الله عنه، قال: لقد تركنا رسول الله ﷺ ونحن متوافـرون، وما منّا أحدٌ لو فُتِّش إلاّ فُتِّش عن جائفـةٍ أو مُنَقِّلة، إلاّ عمرَ وابن عمر. الجائفة: هي الطعنةُ الواصلة إلىٰ الجوف كما سبق، والمُنقِّلة: هي الطعنة التي تَرُضُّ العظـام وتنقُلها من أماكنها. وضرب الجائفة والمنقِّلة مثلاً للمعايب التي سلم منها عمرُ وابنُه رضي الله عنهما. وفي معنىٰ ذلك قول جابر رضي الله عنه: «ما منا أحدٌ إلاّ وقد مالت به الدنيا إلاّ عمر وابن عمر». وفي حديث خبيب: «فجافَتْني» أي: وصلتْ إلىٰ جوفـي. وفي حديث مسروق في البعير المتـردِّي في البئر، قال: «جُوفُوه» أي: اطعُنُـوا في جوفـه. وفي حديث الحـج: أنه دخـل البيـت وأجاف البابَ، أي: ردَّه عليه. ومنـه الحديث: «وأجيفوا الأبوابَ» أي: ردُّوهـا عليكم. كأنهم بردِّ الأبواب وإغلاقها قد دخلوا في جوف البيوت.

[ج و و]

يقـول ربنا عز وجل، دالاً علىٰ كمـال قدرتـه وعظيـم سلطانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩]، الجَوُّ: هو الهواء البعيدُ من الأرض. ينبّه الحقُّ تبارك وتعالىٰ عباده إلىٰ النظر والتأمل في حال الطير، وكونها مسخَّرات، أي مُذَلَّلات للطيران، بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك، كرقَّة الهواء، وإلهامِها بَسْطَ الجناح وقَبْضَـه، كما يفعل السابـحُ في الماء، في جوِّ السمـاء، أي فـي الهواء المتباعد من الأرض، وما يمسك الطير في الجوّ إلا الله سبحانه بقدرته الباهرة، فإنّ ثِقَلَ أجسامها

ورقّة الهواء يقتضيان سقوطها؛ لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها، ولا اعتمدت علىٰ شيءٍ تحتها، كما قال تعالىٰ في موضع آخر من الكتاب العزيز: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

وجاء في حديث سلمان رضي الله عنه: «إنّ لكل امرىء جَوّانيّاً وبَرّانيّاً، فمن يُصلحْ جَوّانيّه يُصلح الله بَرّانيّه، ومن يُفْسِدْ جَوّانيّه يُفْسدِ الله بَرّانيّه». الجَوّانيّ: منسوبٌ إلىٰ جوِّ البيت، وهو داخلُه. وقال شمر بن حَمْدُويه: قال بعضهم: عَنَىٰ بجَوّانيّه سِرَّه، وبرّانيّه علانيته. قال: وجَوُّ كلِّ شيءٍ: بطنُه وداخلُه. ومعنىٰ الحديث أن لكلِّ امرىءٍ سرّاً وشأناً باطناً، وعَلَناً وشأناً ظاهراً.

وفي الحديث في ذكر يأجوج ومأجُوج، ودعاء عيسىٰ عليه السلام عليهم. قال: «فيموتون، فتَجْوىٰ الأرض من ريحهم». قوله: «تَجْوَىٰ» أي تُنْتِن. يقال: جَوِيَ يَجْوَىٰ، فهو جَوٍ، أي: مُنْتن. قال عديٌّ بن زيد:

ثم كان المِزاجُ ماءَ سحابٍ   لا جَوٍ آجِنٌ ولا مطروقُ

وفي حديث العُرَنِيِّين: «فاجْتَوَوُا المدينة». يقال: اجتويتُ البلاد، أي: كرهتها. قال زهير:

بشِمْتُ بِنيَّها وجَويتُ عنها   وعندي لو أردتُ لها دواءُ

ومن ذلك الجَوَىٰ، وهو داءُ القلب. وفي حديث عبد الرحمن بن القاسم، قال: كان القاسم لا يدخل منزلَه إلاّ تأوَّه، قلت: يا أبت، ما أخرج هذا منك إلاَّ جوىً، قال ابن الأثير: يريد داءَ الجوف، ويجوز أن يكون من الجَوَىٰ، وهو شدَّةُ الوَجد من عشق أو حزن، ومثله اللوعة. وفي حديث علي رضي الله عنه: «لأن أَطَّلي بجِواء قِدْرٍ أحبُّ إليَّ من أن أَطَّلي بزعفران». الجِواء: وعاءُ القِدْر، وهو أَسْوَد، أو شيءٌ توضع عليه من جلْد أو خَصَفة. وروي عن النبيّ ﷺ أنه نَهَىٰ أن يتزعفر الرجل، وهو التطلّي بالزعفران والتطيُّبُ به، ولبسُ المصبوغ به.

﴿ ح ﴾

[ح ب ب]

يقول ربنا عزَّ وجل، مبيِّناً حال المشركين به، حيث جعلوا له أنداداً، أي: أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبِّه، وأن المؤمنين به علىٰ غير هذه الصفة، فهم لشدّة حبِّهم له وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم له، يوحِّدونه ولا يشركون به شيئاً، فيقول عزّ من قائل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، قال ابن عرفة نفطويه: المحبّةُ عند العرب إرادةُ الشيء علىٰ قَصْدٍ له. وقال أبو منصور الأزهري: محبّةُ العبد لله ورسوله: طاعته لهما، واتباعه أمرَهما، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] ومحبّة الله للعباد: إنعامُه عليهم بالغفران، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] أي: لا يَغْفر لهم. وأخرج ابن جرير وغيرُه، عن الحسن، قال: قال أقوامٌ علىٰ عهد رسول الله ﷺ: والله يا محمد، إنا لنحبُّ ربَّنا، فأنزل الله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية»، والحاكم، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشركُ أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ الصَّفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن يُحَبَّ علىٰ شيءٍ من الجَوْر، ويُبغَضَ علىٰ شيءٍ من العدل، وهل الدِّينُ إلاَّ الحبُّ في الله، والبُغضُ في الله، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾» [آل عمران: ٣١]، وقال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: أي: يحصلُ لكم فوق ما طلبتم من محبّتكم إيّاه، وهو محبَّتُه إيّاكم، وهو أعظمُ من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأنُ أن تحبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ.

ويأتي الحبُّ بمعنىٰ الإيثار، ومنه قوله عزّ من قائل في شأن الكفار: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ [إبراهيم: ٣] أي: يقدِّمونها ويؤثرونها عليها، فهم يعملون للدنيا وينسَوْن الآخرة ويتركونها وراء ظهورهم.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بَصَّرْناهم وبيَّنا لهم ووضّحْنا لهم الحقَّ علىٰ لسان نبيّهم صالح عليه السلام، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالىٰ، التي جعلها آيةً وعلامةً علىٰ صدق نبيّهم، فبذلك اختاروا الكفر علىٰ الإيمان، والمعصية علىٰ الطاعة. ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ، في قصة سليمان عليه السلام حين شُغل بعرض الخيل حتى فاتته الصلاة: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، أي: آثرت حبَّ الخير ــ أي الخيل ــ عن ذكر ربيَّ. و«عن» في الآية الكريمة بمعنى «علىٰ»، كما جاءت بمعناها في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [محمد: ٣٨]، وفي قول ذي الإصبع العَدْواني:

لاه ابنُ عمِّك لا أفضَلْتَ في حسَبٍ … عنِّي ولا أنت ديّاني فتخْزُوني

أي: لا أفضلت عليَّ في حسَب. وقيل: إن «عن» في الآية الكريمة علىٰ أصل معناها: وهي متعلقةٌ بحال محذوفة، والتقدير: إني أحببت حبَّ الخير، منصرفاً عن ذكر ربِّي.

ومن غريب هذه المادة في حديث رسول الله ﷺ وآثار الصحابة رضي الله عنهم، ما جاء في صفته عليه السلام: «ويفترُّ عن مِثل حبِّ الغمام» يعني البرَد، شُبِّه به ثغرُه الشريف، في بياضه وصفائه.

وجاء في صفة أهل الجنـة: «يصيـر طعامهـم إلىٰ رشْحٍ مثل حَباب المسك». الحَبـاب، بفتح الحاء: هو الطلُّ الذي يُصْبح علىٰ النبـات، شبَّه به رَشْحَهم مجازاً. وأضافـه إلىٰ المسك ليُثبِـتَ له طيب الرائحة. ويجوز أن يكون شبَّهه بحَباب الماء، وهي نُفَّاخاتُه التي تطفو عليـه، ويقال لمعظم الماء: حَبابٌ أيضاً. ومنه حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنـه: أنه لما قبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسُجِّـي، جاء عليٌّ مسرعاً مسترجعاً وهو يقول: اليومَ انقطعت خلافة النبوّة، حتىٰ وقف علىٰ بـاب البيـت، فقال: رحمـك الله أبا بكر، كنـت إلـفَ رسول الله ﷺ، وذكر كلاماً طويلاً، يثني به عليه، وفيه يقول: فطِرْتَ والله بعُبابها، وفُزْتَ بحَبَابها. يريد: وردْتَ الماء أوّلَ النـاس، وسبقْتهـم إلىٰ مُعْظمه، فشربْت صفْـوَه قبل أن يتكدَّر، فأحرزْتَ سوابق الإسلام، وأدركْتَ أوائله وفضائله.

وفي الحديث: أنه ﷺ ذكر قوماً يخرجون من النار ضبائر ــ أي: جماعات ــ فيُطرَحـون على نهر من أنهار الجنـة، فيَنْبُتـون كما تنبـت الحِبَّـةُ في حَميـل السَّيل. الحِبَّةُ، بكسر الحاء: بُزور البقول وحبُّ الرياحين، وقيل: هي نبتٌ صغير ينبت في الحشيش، فأما الحَبَّة، بفتح الحاء، فهي الحنطة والشعيرُ ونحوهما.

وجـاء في حديث فاطمة الزهراء رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها عن عائشة: «إنها حِبَّةُ أبيك». الحِبُّ بكسر الحاء: المحبوب، والأنثىٰ: حِبَّةٌ، وهو فِعْل بمعنىٰ مفعول، نحو ذِبْح، بمعنىٰ مذبوح، وقِسْم بمعنىٰ مَقْسُوم، وفي حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاريُّ: أن قريشاً أهمّتْهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلّـم فيها رسول الله ﷺ ومن يجتـرىء عليـه إلاَّ إسامةُ حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلَّم رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفَعُ في حَدٍّ من حـدود الله؟» ثم قام فخطب، فقال: «يا أيها الناس، إنما ضَلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سـرق الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحـدّ، وأَيمُ الله، لو أن فاطمـة بنـت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها».

[ح ب ر]

يقول عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤]. واحد الأحبار: حَبْر، وحِبْر، وهو العالمُ، وكان يقال لابن عباس رضي الله عنهما: الحَبْر والبَحْر، لعلمه وسَعَتِه. والأحبارُ: العلماء، مأخوذ من التحبير، وهو التحسين، فهم يُحبِّرون العلم، أي: يحسِّنونه. وتسمَّىٰ سورةُ المائدة سورة الأحبار، لورود الآية السابقة فيها، قال جرير:

إن البُعَيْثَ وعبدَ آلِ مقاعِسٍ لا يقْرَآنِ بسورةِ الأحبارِ

أي: لا يفيان بالعهود، لقوله تعالىٰ في مُفْتتحها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وهذه المادة (حبر) تدلُّ علىٰ أصلٍ واحد في اللغة، هو: الأثرُ في حُسْن وبهاء، قال ابن فارس: ثم يتشعَّب هذا، فيقال للذي يُكتبُ به: حِبْرٌ، وللذي يكتُب بالحِبْر: حِبْرٌ وحَبْرٌ، وهو العالم، وجمعه: أحبار. والمحبَّر: الشيء المزيَّن. وكان يقال لطفيل الغنويّ: محبِّر، لأنه كان يُحبِّر الشِّعر ويزيِّنُه.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]. قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]: ينعَّمون. وقيل: يُسَرُّون بالسَّماع في الجنّة، والحَبْرةُ: النِّعمة، والحَبْرةُ: السُّرور، قال أبو عبيد الهروي: وإنما سُمِّي بذلك لأنه يتبيّن في وجه صاحبه، والحَبْر والحَبارُ: الأثر. ومن ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

وجاء في حديث ذكر أهل الجنة: «فرأىٰ ما فيها من الحَبْرة والسُّرور». وهي

النِّعمـة وسَعَةُ العيش، وكذلك الحبـور، وفي حديـث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في فضـل سورتي آل عمران والنساء: «آل عمـران غِنىً والنِّسـاءُ مَحْبَـرة» أي: مَظِنَّةٌ للحبور والسرور.

وفي ذكر أهل النـار: «يخرجُ من النار رجلٌ قد ذهب حِبْرُه وسِبْرُه» فالحِبْرُ: أثرُ الحسن والبهاء، والسِّبْر: ما عُرف من هيئته وشارته، مأخوذٌ من السَّبْر، وهو تعرُّفُ الشيء والوقوف علىٰ حقيقته.

وروي أن النبي ﷺ سمـع صوت أبي موسىٰ الأشعـري وهو يقرأ، فقال: «لقد أُوتي هذا مزماراً من مزامير آل دواد». قال بُرَيدة: فحدثْتُه بذلك، فقـال: لو علمتُ أن نبيّ الله استمع لقراءتي لحبَّرتُها. وفي رواية: أن أبا موسىٰ رضي الله عنه قال للنبيّ ﷺ: لـو علمـتُ أنك تسمعُ لقراءتي لحبرتُهـا لك تحبيـراً. يريـد تحسيـن الصـوت وتحزينَه. يقال: حبَّرتُ الشيء تحبيراً، أي: حسَّنْتُه. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قـال: إنْ كنتُ لأستقرىءُ الرجلَ السورةَ، لأَنا أقرأُ لها منه؛ رجاءَ أن يذهبَ بي إلىٰ بنيـه فيطعمَنـي، وذلك حيـن لا آكـل الخَبيـر، ولا ألبَسُ الحبير. الخبيـر: الإدامُ الطيّـب؛ لأنه يُصلـح الطعـام، ويُدَمِّثُـه للأكـل، مأخوذ من الخبـراء، وهـي الأرضُ السَّهلـة الدَّمثة، والحَبيـر من البُـرود: ما كـان مَوْشِيّاً مُخطَّـطاً، يقال: بُرْدٌ حبيـر، وبُـرْدُ حِبَـرَةٍ، بـوزن عِنَبَـة، علـىٰ الوصـف والإضـافـة، والجمـع: حِبَـرٌ، وحِبرَات.

ومن غريـب مادة (حبر): الحُبـارَىٰ، وهو طائـر، يطلـق علىٰ الذكر والأنثىٰ، وجـاء في حديـث أنس رضي الله عنه: «إن الحُبارىٰ لتمـوتُ هَزْلاً بذنب بني آدم»، يعني أن الله يحبس عنها القطر بعقوبة ذنوبهم، وإنما خصّ الحُبارىٰ بالذكر لأنها أبعد الطير نُجْعـةً، فربما تُذبَـح بالبصرة، ويوجَدُ في حوصلتهـا الحبّـةُ الخضـراء، وبين البصـرة وبين منابتها مسيرة أيام. والحُبارىٰ يُضْرَب بها المثـلُ في الحمق: جاء في

حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كل شيءٍ يحبّ ولدَه حتىٰ الحُبارىٰ»، وخصَّها بالذكر لأنه يضرب بها المثل في الحمق، فهي علىٰ حمقها تحبُّ ولدها، فتطعمه، وتعلمه الطيران، تطير عنه يَمْنةً ويَسْرة، ليتعلَّم، والعرب تقول: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولده حتىٰ الحُبارىٰ فتطير عَنَدَهُ. أي: معاندةً له يميناً وشمالاً ليمرَنَ علىٰ الطيران، فطرةً أودعها الله قلوب الأمهات ناطقات وغير ناطقات.

[ح ب س]

روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت آية الفرائض قال النبي ﷺ: «لا حَبْسَ بعد سورة النساء»، أراد أنه لا يوقَفُ مالٌ ولا يُزْوَىٰ عن وارثه، وكأنه إشارةٌ إلىٰ ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حَبْس مال الميِّت ونسائه، كانوا إذا كرهوا النساءَ لقُبحٍ أو قلة مال، حَبَسوهنَّ عن الأزواج؛ لأن أولياء الميِّت كانوا أولىٰ بهنّ عندهم. ومنه حديث شريح: جاء محمد ﷺ بإطلاق الحُبُس. الحُبُس، بضم الحاء والباء: جمع حبيس، وأراد به ما كان أهل الجاهلية يحبِّسونه ويحرِّمونه؛ من ظهور الحامي والسائبة والبحيرة وما أشبهها، فنزل القرآن بإحلال ما حرَّموا منها وإطلاق ما حبَّسُوه، والحُبْس: كلُّ شيءٍ وقَفَه صاحبُه وقْفاً مؤبَّداً، من نخل وكَرْم، يَحْبسُ أصلَه، ويُسبِّل غلَّته، ومنه حديث الزكاة: «إن خالداً جعل أموالَه ورقيقَهُ وأَعتُدَه حُبْساً في سبيل الله» أي: وقْفاً علىٰ المجاهدين وغيرهم. والأَعْتُدُ: جمع العَتاد، وهو ما أَعدَّه الإنسانُ من آلة الحرب. ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال له النبي ﷺ: «حبِّسِ الأصل وسَبِّلِ الثَّمرة» أي: اجعلْه وقفاً حبيساً.

[ح ب ط]

يقول ربُّنا عزّ وجلّ مخبراً ومنبِّها عباده المؤمنين أن الكفار لا يزالون مستمرين على قتالهم وعداوتهم حتىٰ يردُّوهم عن الإسلام إلىٰ الكفر، ويلفتوهم عن التوحيد إلىٰ الشرك، إن استطاعوا ذلك وتهيأ لهم، فيقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قوله تعالىٰ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: بطَلَتْ، وهو مأخوذ من قولهم: حَبِطت الدابّةُ تَحْبَطُ حَبَطاً: إذا أصابت مرعًى طيّباً، فأفرطت في الأكل حتى تنتفخَ فتموت. ويقال: حَبِطَ عملُه يَحْبَط، وأحبطه غيرُه، أي: أبطله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وقال في شأن المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩]. وقال الراغب الأصبهانيُّ في «مفرداته»: حَبْطُ العمل علىٰ أضرُب: أحدُها أن تكون الأعمالُ دُنيويّة، فلا تُغْني في القيامة غَناءً كما أشار إليه تعالىٰ بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، والثاني: أن تكون أعمالاً أخرويّة، لكن لم يَقْصد بها صاحبُها وجهَ الله تعالىٰ كما روي: «أنه يؤتىٰ يومَ القيامة برجلٍ فيُقال له: بِمَ كان اشتغالُك؟ قال: بقراءة القرآن، فيقال له: قد كنت تقرأ ليُقال: هو قارئٌ، وقد قيل ذلك، فيُؤمَرُ به إلىٰ النار»، والثالث: أن تكون أعمالاً صالحةً، ولكن بإزائها سيئاتٌ تُوفي عليها، وذلك هو المشارُ إليه بخفّة الميزان.

وقد جاء لفظ «الحَبَط» في حديثٍ بليغ فصيح من أحاديثه ﷺ، وذلك ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ أكثـر ما أخاف عليكم ما يُخرجُ الله لكم من بركات الأرض»، قيل: وما بركات الأرض؟ قـال: «زهرة الدنيا». فقال له رجل: هل يأتي الخيرُ بالشرّ؟ فصمت النبيُّ ﷺ، حتىٰ ظننـتُ أنه يُنزَلُ عليه، ثم جعل يمسـح عن جبينه، فقال: «أين السائل؟» قـال: أنا ــ قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلـع لذلك. قال: «لا يأتي الخيـر إلاّ بالخير. إن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة، وإن كلَّ ما أنبت الربيعُ يقتل حَبَطاً أو يُلـمّ؛ إلاّ آكلة الخَضِر، أكلتْ، حتىٰ إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشمسَ، فاجْتَرَّتْ وثَلَطتْ وبالتْ، ثم عادتْ فأكلـتْ، وإن هذا المالَ خَضِـر حلوٌ، من أخذه بحقِّه ووضعه في حقِّه فنعم المعونةُ هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع».

قـال أبو منصور الأزهريُّ: هذا الخبـرُ إذا بُتر لم يكد يُفْهَـم. وَضَرَب في هذا الحديث مثلَيْن: أحدهما للمُفْرط في جمع الدنيا والمنع من حقِّها، والآخرُ للمقتصد في أخذها والنفـع بها، فقوله: «إن مما يُنبت الربيـعُ ما يقتـلُ حبطاً أو يُلمّ» فإنه مَثَلٌ للمفرط الذي يأخذ الدنيا بغير حقِّها، وذلك أن الربيع يُنبت أحرار البقول، فتستكثر الماشيةُ منه لاستطابتها إياه، حتىٰ تنتفخ بطونها عند مجاوزتها حدَّ الاحتمال، فتنشقُّ أمعاؤهـا من ذلك فتهلِك، أو تقاربُ الهـلاك، وكذلك الـذي يجمـع الدنيا من غير حِلِّها، ويمنعهـا مُسْتَحِقَّها، قد تعرض للهلاك في الآخـرة بدخول النار. وفي الدنيا بأذىٰ النـاس له وحسدِهم إيّـاه وغير ذلك من أنـواع الأذىٰ. وأما قـوله: «إلاّ آكلـةَ الخَضِـر» فإنه مثل للمقتصد، وذلك أن الخَضِر ليس من أحرار البقول وجيِّدها التي يُنبتُها الربيـعُ بتوالي أمطاره، فتَحْسُن وتَنْعُم، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقـول ويُبْسها، حيث لا تجد سواها، وتسميها العـربُ الجَنْبة، فلا تـرىٰ الماشيـة تُكثر من أكلها، ولا تستمرئُها، فضَرب آكلة الخَضِر من المواشي مثلاً لمن يقتصـد في أخـذ الدنيا وجَمْعها، ولا يحملـه الحرص علـىٰ أخذها بغير حقّها، فهو بنَجْوة من وبالها كما نجتْ آكلة الخَضِر، ألا تراه ﷺ قـال: «أكلت حتىٰ إذا امتدّتْ خاصرتاهـا استقبلت عين الشمـس، فثلطت ــ أي: ألقـت رجيعهـا سهـلاً رقيقاً ــ

وبالت» أراد ﷺ أنها إذا شبعتْ منها بَرَكتْ مستقبلةً عين الشمس، تستمرىء بذلك ما أكلت، وتجترُّ وتَثْلِط، فإذا ثلطتْ فقد زال عنها الحَبَط، وإنما تحبَطُ الماشيةُ لأنها تمتلىء بطونها، ولا تَثْلِط ولا تبُول، فتنتفخُ أجوافها، فيعرض لها المرض فتهلِك. وأراد ﷺ بزهرة الدنيا حُسْنَها وبهجتها، وببركات الأرض نماءَها وما يخرُج من نباتها.

وهذا حديث عظيم تنادي فخامته وجلالته علىٰ أنه قد خرج من مشكاة النبوّة، وقد عدَّ ابن دريد قوله عليه الصلاة والسلام: «إن مما يُنبتُ الربيعُ ما يقتل حبطاً أو يلمّ» من الكلام المفرد الوجيز، الذي لم يُسبَق ﷺ إلىٰ معناه، وكلُّ من وقع شيءٌ منه في كلامه فإنما أخذه منه، ثم هو أصلٌ عظيم من أصول الزهد في الدنيا والتقلُّل منها، وأخذ المال من وجوه حِله، وإنفاقه في مصارف الخير والبرّ، اللهم انفعنا بهذا الهدي النبويّ الكريم، وارزقنا بعد الاستحسان له العمل به والسَّير في طريقه.

[ح ب ك]

يقول ربنا عز وجل، مخاطباً أهل مكة، ومخبراً، أنهم في قول مختلف متناقض في محمد ﷺ، فبعضهم يقول: إنه شاعر، وبعضهم يقول: إنه ساحر، وبعضهم يقول : إنه مجنون، فيقول عز من قائل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٧ ــ ٨]، قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، أي: ذاتِ الخَلْق الوثيق المحكم، يقال: حبكه: إذا أجاد صُنْعَه. وقال أبو منصور الأزهريّ: الحُبُك: الطرائق المحكمة، وكلُّ شيء أُجيد عملُه فهو محبوك.

وهذه المادة (حبك) تدلّ علىٰ أصل واحد، هو إحكام الشيء في امتداد واطِّراد، يقال: بعيرٌ محبوك القَرَىٰ، أي: قويُّ الظَّهر. وقيل: ذات الحبك، أي:

ذات الزينة، وقيل: ذات النجوم، وكلُّ هذه الأقوال ترجع إلىٰ شيءٍ واحد، هو الحسن والبهاء، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها من حُسْنها مرتفعةٌ شفافةٌ صفيقة، شديدة البناء، متَّسعةُ الأرجاء، أنيقة البهاء، مكلّلَةٌ بالنجوم الثوابت والسيَّارات، موشّحةٌ بالكواكب الزاهرات. قال المفسِّرون: ووجه تخصيص القسَم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيهُ أقوال كفار مكة في اختلافها باختلاف طرائق السماء، وقال الشوكاني: واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة، وجاء في حديث عمرو بن مرَّة، يمدح النبي ﷺ:

لأصبحتَ خيرَ الناسِ نفساً ووالداً رسولُ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ

فالحبائك هي الطرق، واحدُها حبيكة، ويعني بها السماوات كما سبق، ومنه الحديث في صفة الدجّال: «رأسُه حُبُك» أي: شعَر رأسه متكسِّرٌ من الجُعُود مثلَ الماء الساكن، أو الرمل، إذا هبَّت عليهما الريحُ، فيتجعَّدان ويصيران طرائق. ومنه حديث قتادة رحمه الله: «الدجالُ قَصْدٌ من الرجالِ ـ أي ليس بجسيم ولا قصير ـ أجْلى الجبين، بَرَّاقُ الثنايا، محبَّك الشعر». ومن أحاديث المادة حديث عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تحتبكُ تحت درْعها في الصلاة. تحتبك، أي: تشُدُّ الإزار وتُحْكمه، وقال شمر: الحُبْكة: الحُجْزة ـ وهي مَعْقِدُ الإزار ـ ومنه أُخذ الاحتباك، بالباء، وهو شدُّ الإزار.

يقول تعالىٰ وتقدَّسَ آمراً عباده المؤمنين بأن يجتمعوا علىٰ التمسُّك بدين الإسلام أو بالقرآن، وناهياً إيّاهم عن التفرق الناشيء عن الاختلاف في الدين، ثم يأمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم، إذ جمعهم علىٰ أخوّة الإسلام، بعد أن كانوا أعداءً مختلفين يقتل بعضهم بعضاً، وينهَبُ بعضهم بعضاً، فيقول عز من قائل: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قوله عز وجل: ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾. أي: بعَهْده. وأصلُ الحَبْل في اللغة: السببُ الذي يُتوصَّلُ به إلىٰ البُغْية، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: الاعتصام بحبل الله اتِّباعُ القرآن وتَرْكُ الفُرْقة، وإيَّاه أراد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: عليكم بحَبْل الله فإنه كتاب الله، قال أبو عبيد: وأصلُ الحبل في كلام العرب يتصرَّف علىٰ وجوه، فمنها العهدُ، وهو الأمان، وذلك أن العرب كان يخيفُ بعضها بعضاً في الجاهليّة، فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيّد القبيلة، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة حتىٰ ينتهي إلىٰ الأخرىٰ، ويفعلُ مثل ذلك أيضاً، يريد بذلك الأمان، قال الأعشىٰ يذكر مسيراً له، وأنه كان يأخذ الأمان من قبيلة إلىٰ قبيلة، فقال لرجل يمتدحه:

وإذا تُجَوِّزُها حِبالُ قبيلةٍ أخذتْ من الأخرىٰ إليك حِبالَها

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة روىٰ المفسِّرون وأصحاب السِّير، قالوا: مرَّ شأسُ بن قيس، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ـ أي كبر وأسنَّ ـ عظِيمَ الكفر، شديد الطعن علىٰ المسلمين، مرَّ علىٰ نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج، فغاظه ما رأىٰ من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم علىٰ الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتىً شابّاً معه من يهود، فقال: اعْمِدْ إليهم فاجلس معهم، ثم ذكِّرْهم يوم بُعاث، وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتىٰ تواثب رجلان من الحيَّيْن، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله ردَدْناها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السِّلاح، موعدُكم الظاهرة، والظاهرةُ: الحَرَّة، فخرجوا إليها، علىٰ دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه فقال: «يا معشر المسلمين. اللّهَ اللهَ! أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلىٰ الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم؟» فعرف القومُ أنها نزعةٌ من الشيطان، فألقوا السلاح وبكَوْا، وعانق الرجال

بعضهم بعضاً، وأنزل الله في شأن شأس بن قيس وما صنع: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٨]. . . . الآيات، وأنزل في شأن الأوس والخزرج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] الآيات.

وما أشبه الليلة بالبارحة! اللهم إنا نسألك أن تربط على قلوب المسلمين، وأن تُبصِّرَهم بكيد عدوّهم وأن تردَّهم إلىٰ دينك ردّاً جميلاً.

ذكر الأئمة فيما سبق أن الاعتصام بحبل الله هو اتباعُ القرآن، وتَرْكُ الفرقة، وأن أصل الحبل في اللغة: السببُ الذي يُتوصل به إلىٰ البغية. ويتصرف «الحبل» في كلام العرب علىٰ وجوه: منها العَهْدُ والأمان، ويقول عزّ من قائل في شأن الكفرة من أهل الكتاب: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، قال أبو زكريا الفراء: معناه: إلاّ أن يعتصموا بحَبْل من الله، فأضمر، وردَّ هذا أحمد بن يحيىٰ ثعلب، فقال: هذا بعيدٌ، أن تُحذَف «أنْ» وتبقىٰ صِلتُها، ولكنّ المعنىٰ: إلاّ بموضع حَبْل من الله، وهو استثناء متصل، كما تقول: ضُربت عليهم الذلّة في الأمكنة إلاّ في هذا المكان، وقال ابن عرفة نفطويه: أراد: إلاّ بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس، فتلك ذِلتُهم، تجري عليهم أحكامُ الإسلام وهم من غير أهله.

وهذا الذي ذكره نفطويه قد أُثر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[ح ب ل]

يقول تعالىٰ مخبراً عن قدرته علىٰ الإنسان، وأن علمهُ محيطٌ بجميع أموره: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]. حبل الوريد: هو حبل العاتق، وهو ممتدٌّ من ناحية حلقه إلىٰ عاتقه، وهما وريدان من عن

يمين وشمال، وقال الفراء: الحبل هو الوريد، فأضيف إلىٰ نفسه لاختلاف اللفظين. انتهىٰ كلامه. ويريد أنه من باب «مسجد الجامع»، فالمسجد هو الجامع. ولا يضاف الشيء إلىٰ نفسه، ولكنه أضيف هنا لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد: الوتين، وهو عِرْقٌ معلقٌ بالقلب.

وجاء في الحديث في صفة القرآن الكريم: «كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلىٰ الأرض» أي: نور ممدودٌ. يعني نورَ هداه. والعرب تشبّه النور الممتدَّ بالحبل والخيط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، يعني نورَ الصبح من ظلمة الليل، وفي حديثٍ آخر في صفة القرآن: «وهو حبلُ الله المتين»، أي: نورُه وهداه، وقيل: عهدُه وأمانُه الذي يؤمِّن من العذاب. والحبلُ: العهدُ والميثاق. ومنه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بحَبْل الله فإنه كتاب الله».

ويُجمع الحبلُ علىٰ حبال. ومنه الحديث: «بيننا وبين القوم حبال» أي: عهودٌ ومواثيق. ومنه حديثُ دعاء الجنازة: «اللهمّ إن فلان بن فلان في ذمَّتِك وحَبْل جوارك»، وجاء في حديث الدعاء: «يا ذا الحبل الشديد»، قال ابن الأثير: هكذا يرويه المحدِّثون: «الحبل» بالباء، والمراد به القرآنُ أو الدِّينُ أو السَّبَب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ووصفه بالشِّدة لأنها من صفات الحبال، والشِّدَّة في الدِّين: الثَّباتُ والاستقامة، وقال أبو منصور الأزهري: الصواب: «يا ذا الحَيْلِ الشديد» بالياء، وهو القوَّة، يقال: حَيْلٌ وحوْلٌ بمعنًى واحد. ومنه حديث الأقرع والأبرص والأعمىٰ: أنا رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبالُ في سفري، أي: الأسباب، من الحَبْل، وهو السَّبَبُ، وفي حديث عروة ابن مضرِّس: أتيتُك من جبلَيْ طيِّء، ما تركتُ من حَبْلٍ إلاَّ وقعتُ عليه. الحبل: هو المستطيلُ من الرمل، وقيل: الضَّخم منه، وجمعه حبال، وقيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل، ومنه حديثُ غزوة بدر: «صَعِدْنا علىٰ حَبْل» أي: قطعةٍ من

الرمل ضخمة ممتدّة.

ويُجمع الحَبلُ علىٰ حِبالة، علىٰ غير قياس، وتُجْمع الحبالة علىٰ حبائل، جمع الجمع، ومنه حديث ذي المشعار حين وفد علىٰ النبي ﷺ مع وفد همدان، قال: أتوْك علىٰ قُلُصٍ نواجٍ متَّصلةٌ بحبائل الإسلام» أي: علىٰ نُوقٍ مسرعة، ووصف همدان بأنها متصلةٌ بحبائل الإسلام، أي: بأحكام الإسلام ومواثيقه وعهوده التي يلتزم بها من دخل في الإسلام.

وفي الحديث: «الشبابُ شعبةٌ من الجنون، والنساءُ حِبالةُ الشيطان» وفي رواية: «حبائل الشيطان»، والحِبالة، بكسر الحاء: ما يُصاد بها من أي شيء كان.

وفي حديث عبد الله السعدي: سألتُ ابن المسيب عن أكل الضَّبع، فقال: أَوَ يأكلها أحدٌ؟ فقلت: إن ناساً من قومي يتحبَّلونها فيأكلونها» يتحبَّلونها، أي: يصطادونها بالحِبالة.

ومن غريب مادة (حبل) ما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعامٌ إلا الحُبْلة وورق السَّمُر. الحُبْلة: ثَمَرُ السَّمُر، وهو يشبه اللوبياء، وفي الحديث: «لا تقولوا للعِنَب: الكَرْم، ولكن قولوا: العِنَبَ والحَبَلَة» الحَبَلَة، بفتح الحاء والباء، وربَّما سُكنتْ: الأصلُ أو القضيبُ من شجر الأعناب.

ومثل ذلك الحديثِ في المعنىٰ قوله: «لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكرْمَ، فإنما الكرْمُ الرجل المسلم» وقيل: سُمِّي الكرْمُ كرماً، لأنهم كانوا يعتقدون أن الخمر المُتَّخَذَة منه تحثُّ علىٰ السخاء والكرم، فاشتقوا له منه اسماً، فكره أن يُسَمَّىٰ باسم مأخوذ من الكرم، وجَعلَ المؤمن أولىٰ به. قال الزمخشريُّ: أراد أن يقرِّر ويُسدِّدَ ما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] بطريقة أنيقة ومسلك لطيف، وليس الغرض حقيقة النهي عن تسمية العنب كرماً، ولكن الإشارة إلىٰ أن

المسلـم التقـيَّ جديرٌ بألاَّ يُشـارَك فيما سماه الله به. وقولـه: «فإنمـا الكـرمُ الرجـلُ المسلم» أي: إنما المستحقُّ للاسم المشتقِّ من الكرم الرجل المسلم.

[ح ج ر]

يقول عز من قائل في معرض ذكر أنواع الشرك والبدع التي ابتدعها المشركون: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨] قولـه تعالىٰ: ﴿ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي: محرَّم ممنوع. يعنون أنها لأصنامهم، لا يطعَمُها إلاَّ من يشـاءون بزعمهم وهم خدام الأصنام. وقد أنكر الحقُّ تبارك وتعالىٰ ذلك عليهم. كما قال في آية أخرىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

وهـذه المـادة (**حجر**) تدلُّ علىٰ أصـل واحـد في اللغـة، هـو المنـع والإحاطة علىٰ الشـيء، ومنه أُخذ الحَجْرُ علىٰ اليتيم حتى يتبين رُشْدُه، ويقال: حجر الحاكمُ علىٰ السفيـه حَجْراً، وذلك منعه إياه من التصرُّف، والعقل يسمىٰ حِجْراً، لأنه يمنع من إتيان ما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلاً تشبيهاً بالعقال الذي يمنع البعير من التفلُّت.

قال تعالىٰ: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥] والعـرب تقـول: إن فلاناً لذو حِجْر، إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها. ومن ذلك أيضاً سُمِّي الحَجَرُ، هذا الجوهر الصُّلب المعروف، لامتناعه بصلابته وشدَّته. وقال تعالىٰ في شأن الكفار: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: حراماً محرَّماً، وأصل هذا أن الرجـل كان يَلقىٰ الرجـلَ يخافـه في الأشهر الحُرُم. فيقول: حِجْراً، ومعناه: حرامٌ عليك أن تنالني بمكروه. فإذا كان يوم القيامة رأىٰ المشركون ملائكةَ

العذاب فيقولون: حِجْراً محجوراً، فظنُّوا أن ذلك ينفعهم في الآخرة كما كان ينفعهم في الدنيا، ومن ذلك قول القائل:

حتىٰ دَعْونا بأرحامٍ لهم سَلَفَتْ   وقال قائلُهم إني بحاجُورِ

وقيل: إن قوله تعالىٰ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حكايةُ قولِ الملائكة، أي: تقول الملائكة يومئذٍ للكفار: حراماً محرّماً أن يدخل أحدُكم الجنة. وهذا أولىٰ، لقوله تعالىٰ: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ومن استعمال مادة (حجر) في الحديث بمعنىٰ المنع من الشيء، ما ورد أنه كان له حصيرٌ يَبْسُطه بالنهار ويَحْجُرُه ــ أو يَحْتجرُه بالليل يُصَلِّي عليه. أي: يجعله لنفسه دون غيره. يقال: حجرتُ الأرض واحتجرتُها، أي: ضربتَ عليها مناراً تمنعها به عن غيرك. وجاء في حديث آخر: أنه احتجر حُجَيْرة بخَصَفةٍ أو حصير. الحُجَيرة: تصغير الحُجْرة، وهو الموضعُ المنفرد، الذي يمنع مَن بداخله أن يراه أحد، ويقال للناحية المنفردة: حَجْرة، بفتح الحاء وسكون الجيم. ومنه قوله ﷺ: «ليس للنساء من باحة الطريق شيء، ولكنْ لهنّ حَجْرتا الطريق». باحة الطريق: وسَطُها، ومثله: باحةُ الدار، وحَجْرتا الطريق: ناحيتاه وجانباه، ومنه المثل: يأكلُ خَضْرة، وينام حَجْرَة، أي: يأكل من الروضة، ويَرْبِضُ ناحية، يقال ذلك للجدْي أو للحَمَل، وفي هذا الحديث أمرٌ للنساء بلزوم جانب الطريق، وترْكِ مزاحمة الرِّجال والاختلاط بهم، صوناً لهن وحمايةً لضعفهنّ. ومثله ما رواه أبو أَسِيدٍ الساعديّ: أن رسول الله ﷺ قال للنساء: «ليس لكنّ أن تَحْقُقْنَ الطريق، عليكن بحافات الطريق»، أي: ليس لهنّ أن يركبْن حُقَّ الطريق، وهو وسطها. ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أنه ترك الغزو عاماً، فبعث مع رجل صُرَّة، فقال: إذا رأيت رجلاً يسير من القوم حَجْرةً، في هيئته بذاذةٌ، فادفعها إليه. والبذاذة: رثاثة الهيئة. وجَمْعُ الحَجْرة: حَجَرات، قال عروة بن زيد الخيل:

بجيشٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراته   ترىٰ الأُكْمَ فيهِ سُجَّداً للحوافرِ

وقال امرؤ القيس:

فـدَعْ عنـك نَهْبـاً صِيـحَ فـي حَجـراتِـهِ ولكنْ حديثاً، ما حديثُ الرواحلِ؟

أي: دع النهبَ الذي نُهب من نواحيك، وحدثني حديث الرواحل، وهي الإبلُ التي ذهبتَ بها ما فعلتْ.

وفي الحديث: «من نـام علىٰ ظهر بيتٍ ليـس عليه حِجارٌ فقد برئتْ منه الذِّمّةُ» الحِجار: جمع حِجْر بكسر الحاء، وهو الحائـط، أو هو من الحُجْرة، وهي حظيرةُ الإبل، أو حُجْرة الدار، أي: أنه يحجُر الإنسان النائم ويمنعه عن الوقوع والسُّقوط، ويُـروَىٰ: «حجـاب» بالباء. ومعنىٰ براءة الذمَّة منـه؛ لأنه عرَّض نفسه للهلاك، ولم يحترزْ لها. وجـاء في حديـث الأحنـف ابن قيـس: أنه قال لعلي بن أبي طالب حين ندب معاويـةُ عمـرَو بن العاص للحكومة: لقـد رُميتَ بحَجَـر الأرض، أي: بداهيـة عظيمة تثبُتُ ثبوت الحجر في الأرض.

وفي الحديث: «لقد تحجَّرتَ واسعاً» أي: ضيَّقت ما وسَّعهُ الله، وخصَصْتَ به نفسَـك دون غيـرك. وجاء في صفة الدجـال: «مطمـوسُ العيـن، ليسـت بناتئةٍ ولا حَجْراء» أي: أن عينه ليست بصُلْبة متحجّرة. وروي «ولا جَحْراء» بتقديم الجيم علىٰ الحـاء، أي: ليسـت غائـرة. وفي الحديث الذي رواه الشيخـان: «الـولد للفـراش وللعاهر الحَجَر» أي: أن الولدَ لصاحب الفراش من الزوج أو السيّد، وللزاني الخيبةُ والحرمـان، كقولك: ما لكَ عندي شيءٌ غير التراب، وما بيدك غيـر الحجـر. وفي هذا الحديث إبطال لما كان أهل الجاهلية يفعلونه من إلحاق الأولاد بالزُّنـاة. ونقل ابن الأعرابـي أن الفراش عند العـرب يُعبَّر به عن الزوج وعن المرأة والأكثـر إطلاقه علىٰ المرأة، ومما ورد في التعبير به عن الرجـل قول جرير، فيمن تزوجت بعد قتل زوجها أو سيدها:

باتت تُعانقُه وبات فِراشُها خلَقَ العباءةِ بالبلاءِ ثقيلا

وقد يعبَّر بالفراش عن حالة الافتراش.

[ح د ث]

يقـول عز من قائل، علىٰ لسان الخَضِر يخاطب موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]. قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتىٰ أكون أنا المبتدئ لك بذكره وبيان وجهه وما يؤول إليه.

وهذه المادة (حدث) تدلُّ علىٰ كـون الشـيء بعدَ أنْ لم يكن، عرَضاً كان ذلك الشيء أو جوهـراً. والمُحْدَث: ما أُوجد بعد أن لم يكن. قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] أي: من وَحْـيٍ مُحْـدَثٍ تنزيلُه. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] يعني القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] قيل: إن المراد: حـدِّثْ بالنبوَّة مُبلِّغاً الرسالة. روي عن مجاهد، قال: يعني النبـوة التي أعطاك ربك، وفي رواية عنه: القرآن.

وقال ابن إسحـاق: ما جـاءك من الله من نعمةٍ وكرامة من النبوّة، فحـدِّثْ بها واذكرْها وادْعُ إليها.

وقد جاء في شكر النعم، والتحدث بها أحاديثُ وآثار كثيرة، منها: ما روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ علىٰ المنبر: «من لم يشكر القليـل لم يشكـر الكثيـر، ومن لم يشكر النـاسَ لم يشكـر الله، والتحدُّثُ بنعمة الله شكر، وتركها كفـر، والجماعةُ رحمـة». وأخـرج أبو داود والترمذيُّ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قـال: «من أبْلَـىٰ بلاءً فذكَرَه فقـد شكَـرَه، وإن كتمه فقد كفَرَه». وأخرج البخاريُّ في «الأدب»، وأبو داود، عن جابر أيضاً، قال: قـال رسول الله ﷺ: «من أُعْطِيَ عطاءً فوَجَد فلْيَجْزِ به، فإن لم يجدْ فليُثْـنِ به، فمن أثنىٰ به فقـد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تَحَلَّىٰ بما لم يُعطَ فإنه كلابِسِ ثوبَيْ

زُور». وقال عنترةُ في معلَّقته:

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نعمتي والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لنَفْـسِ المُنْعِـمِ

وقـال تعالـىٰ: في شأن سبإٍ وما كانـوا فيه من النعمـة والغبطـة والعيـش الهنيِّ الرغيـد، وما حدث منهم من بطَـر بهـذه النعمـة: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قوله تعـالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتحـدَّثُ بهلاكهم وتبدُّل حالهم، فقد صـاروا حديثاً للناس، وسَمَراً، يتحـدثون به مِن خبرِهم، وكيف مكر الله بهم وفرَّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرَّقوا: تفرَّقُوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ.

ومن غريب المادَّة في الحديـث، ما رواه أبو هريـرة رضي الله عنـه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأُمم ناسٌ مُحَدَّثُون، فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه عمـر»، المُحدَّثُون بفتح الدال المشددة: جمع مُحدَّث، وهو المُلْهَم، وهو مَن أُلْقي في رُوعـه شيء من قِبَل الملإ الأعلىٰ، فيكـون كالذي حدَّثه غيره به. قال ابن حجـر في «فتح الباري»: وهذا ورد من حديث أبي سعيد الخُدْري مرفوعاً، ولفظه: قيل: يا رسـول الله، وكيف يُحَدَّث؟ قال: «تتكلم الملائكة علىٰ لسانه». ووقـع في «مسند» الحميديِّ عقب حديث عائشة: المحدَّثُ: الملهَمُ بالصواب الذي يُلْقَىٰ علىٰ فيه. ويؤيِّده حديث: «إن الله جعل الحقَّ علىٰ لسان عمرَ وقلبه».

وجـاء في حديـث النبـي ﷺ قـال: «يبعـث الله السحـاب، فيضحـك أحسـنَ الضحك، ويتحدث أحسن الحديث»، قوله: يضحـك: أراد أنه ينجلي عن البرق، كما يَفترُّ الضاحك عن الثَّغْر. قال الخطابي: وأما قولـه: «يتحدَّث أحسن الحديث» ففي الخَبَر أن حديثه الرعد، وذلك أنه شبَّهه بالحديث من المتكلم، لأنه يُنبىء عن

المطـر، ويُخبر عن وقوعه وقرب مجيئه، فصار كالمحدِّث به، وهذا كقولهم: نعم المحدِّثُ الدَّفتر، وفي نحوٍ من هذا قولُ نُصيب:

فعاجُوا فأثْنَوْا بالذي أنتَ أهلُهُ ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

وفي حديـث عائشة رضي الله عنها: «لولا حِدْثانُ قومِك بالكُفر لهدمْتُ الكعبة وبنيْتُها». حِدْثـان الشـيء بالكسـر: أوله، وهو مصـدر (حَـدَثَ يحـدُث حُـدُوثـاً وحِدْثاناً)، والحديث: ضـد القديم، والمراد به قُـربُ عهدهم بالكفر والخروج منه والدخول في الإسلام وأنه لم يتمكنِ الدِّينُ في قلوبهـم. فلو هدمتُ الكعبة وغيَّرتُها ربَما نفـروا من ذلك. وجاء في حديث المدينة، علىٰ ساكنهـا أفضلُ الصلاة وأزكىٰ السلام: «من أحدَث فيها حدَثـاً أو آوَىٰ مُحْدِثـاً». قـال ابـن الأثير: الحدَثُ: الأمر الحادث المنكر، الذي ليس بمعتادٍ ولا معروف في السُّنَّـة، والمُحْدَث، يروىٰ بكسر الدال وفتحها علىٰ الفاعل والمفعول، فمعنىٰ الكسر: من نصر جانياً أو آواه وأجاره من خصمـه، وحال بينه وبين أن يَقْتَـصَّ منـه، والفتـح: هو الأمـر المُبْتَـدَعُ نفسُه، ويكـون معنىٰ الإيـواء فيه الرِّضـا به والصبـر عليـه، فإنـه إذا رضـي بالبدعة، وأقرَّ فاعلَهـا ولـم ينكـرْ عليه، فقـد آواه، ومنه الحديـثُ: «إياكـم ومُحدَثـات الأمـور». المحدثـات: جمع مُحْدَثَة؛ بفتح الدال، وهي ما لـم يكن معروفاً في كتابٍ ولا سُنَّـة ولا إجماع.

[ح د د]

يقـول ربُّنا عزَّ وجلّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. حدُودُ اللّه، أي: ما حُدَّ منه، أي: مُنع، والحدودُ في الشرع: هي محارم الله وعُقوباتُه التي قرَنَها بالذنوب.

وأصـل الحدّ: المنعُ والفصلُ بين الشيئيـن، ومنه سُمِّيت الحدودُ التي تمسك الماء بين الأَرَضِينَ، فكأنَّ حدود الشرع فصَلَت بين الحلال والحرام، ومن الحدود ما لا يُقْـرَب كالفواحش المحرَّمـة من الزّنـا وما أشبهه، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧] ومنها ما لا يُتعدَّىٰ كالمواريث المعيَّنة، وتزويج الأربع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن ذلك في الحديث: «إني أَصَبْتُ حدًّا فأقِمْه عليّ» أي: أصبتُ ذنباً أوجبَ عليَّ حـداً، أي: عقوبـة، وهو من باب تسمية الشـيء باسـم ما يـؤولُ إليه، كقوله تعالـىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾ [يوسف:٣٦] أي: عنباً يؤول أمـرُه إلىٰ خمر. ومنـه حديـث أبي العالية: «إن اللّممَ ما بين الحدَّين: حدِّ الدنيا وحـدِّ الآخرة»، يريد بحد الدنيا: ما تجبُ فيه الحدودُ المكتوبة، كالسرِقة والزنا والقذف، ويريد بحد الآخرة: ما أوعـد اللّهُ تعالىٰ عليه العذاب، كالقتـل وعقـوقِ الوالديْن وأكـل الرِّبا، فأراد أنّ اللمم من الذنوب: ما كان بين هذين مما لم يُوجب عليه حدّاً في الدنيا ولا تعذيباً في الآخرة.

وهذه المـادة (حدَد) ترجِع إلىٰ معنييْـنِ في أصـل اللغـة، أحدهمـا: المنْـع، والثاني: طرَفُ الشيء ونهايتُه، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلـة: ٥]. قـولـه: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُشَاقُّونَهمـا ويُنـازعونَهما ويُخالفونَ عن أمرِهما. قـال أبو إسحـاقَ الزجاج: المُحادَّة: أن تكون في حدٍّ يُخالِفُ صاحبَك، وأصلُها الممانعة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٦٣].

ومنه حديثُ عبد الله بن سلاَم [بتخفيف اللام] رضي الله عنه: «إنَّ قومَنا حادُّونا لمّا صَدَقْنا اللّهَ ورسولَـه»، قال ابن الأثير: المُحادَّةُ: المعاداةُ والمخالفةُ والمنازعة،

وهي مُفاعَلةٌ: منَ الحَدِّ، كأنّ كلَّ واحد منهما تجاوزَ حدَّه إلىٰ الآخر. وجاء في صفة القرآن: «لكلِّ حرفٍ حَدٌّ» أي نهاية، ومنتهىٰ كلِّ شيء حَدُّه.

ومنَ استعمـال هذه المادة في المنْـع، ما جاء في حديث أبي جهلٍ لمّا قال في خَزَنـةِ النـار ــ وهم تسعـةَ عشـرَ ــ ما قال، قـال لـه الصّحابـة: «تقِيسُ المـلائكـة بالحَدَّادين؟» يعني: السَّجّانيـن؛ لأنهم يمنَعونَ المُحبَّسيـنَ من الخروج. ويجوزُ أن يكـونَ أراد به صُنّـاعَ الحديد، لأنهم مِن أوسـخ الصُّنّـاع ثوبـاً وبدنا. ويقـال أيضـاً للبوَّاب: حَدّاد، لمنْعِه الناسَ من الدخول.

قال الأعشىٰ:

فقُمْنـا ولمَّـا يصِـحْ ديكُنـا   إلـىٰ جَـوْنـةٍ عنـدَ حَـدَّادِهـا

وسُمِّـي الحديـدُ حديـداً لامتناعِه وصلابتِه وشدّته، أو لأنه يُصنَـعُ منه ما يمنَع الباغيَ مِن بغيه، والمعتـديَ مِن عُـدوانِه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ويُشْتقُّ من الحديـد: الاستحـداد، وهُو: حَلْقُ العانة بالحـديـد، وقد جـاء في الحـديـث: « عشـرٌ من السُّنـة»: كـذا وكـذا، وعَـدَّ فيهـا الاستحداد. ومنه الحديثُ الآخر: «أمْهِلوا كي تمتَشِطَ الشَّعْثةُ وتستَحِدَّ المُغِيبة» وهو «استفْعَـلَ»: من الحديـد. ومنـه حديثُ خُبَيْبٍ رضي الله عنه: أنّه استعـار مُـوسىٰ ليستحِدَّ بها؛ لأنه كان أسيـراً عندَ المشركينَ وأرادوا قتلَـه، فاستحَدَّ لئلاّ يظهَرَ شعَرُ عانتِه عندَ قتله.

قال الراغب: ويقال: حدَّدْتُ السِّكين، أي: رققْتُ حدَّه، وأحدَدْتُه: جعلْتَ له حدّاً، ثم يقال ــ لكلِّ ما دَقَّ في نفسه، من حيث الخِلْقةُ أو من حيث المعنىٰ كالبصر والبصيرة ــ: حديد، فيقال: هُو حديدُ النظر وحديد الفهم، قال عز من قائل: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] أي: نافذٌ تُبصـر بـه ما كان يخفىٰ عليك في الدنيا. ويقال: لسانٌ حديدٌ، أي: صارمٌ ماضٍ، وذلك إذا كان

يؤثِّرُ تأثيـرَ الحديد. قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

ومن ذلك اشتُقّت الحِدَّة. جاء في الحديث: «الحِدّة تعتري خيارَ أُمتي» قال ابن الأثير: الحِدَّة كالنشاط والسُّرعة في الأمور والمَضَاء فيها. مأخوذٌ من: حدِّ السيف، والمـرادُ بالحـدّة هاهنـا: المضـاءُ في الدِّين والصلابـة والقصـدُ فـي الخيـر، ومنـه الحديـث: «خيارُ أُمتي أحدّاؤها»: هُو جمْعُ حديد، كشديد وأشداء، ومنه حديـث عمرَ بن الخطـابِ رضي ﷺ عنه: «كنت أُداري من أبـي بكـر بعـضَ الحَـدِّ». الحَدُّ والحِـدَّةُ سواءٌ: من الغضب، يقال: حدَّ يحِـدُّ حَـدًّا وحِدَّةً، أي: غضِب. وبعضُهم يروي هذا الحديث بالجيم. من الجِدِّ ضدِّ الهزل.

ومن استعمـال هذه المـادة في المنع: الإحـداد، يقـال: أَحَـدَّت المـرأةُ علىٰ زوجها تُحِـدُّ فهي مُحِدٌّ، و: حَـدَّتْ تحُدُّ وتَحِدُّ فهي حـادٌّ، وذلك: إذا حزنـت عليه ولبسـتْ ثياب الحُزْن ومنعَتْ نفسها الزينةَ والخِضَـاب. جاء في الحديث: «لا يحِلُّ لامرأةٍ أن تُحِدَّ علىٰ ميّتٍ أكثرَ من ثلاث». وفي حديث صفيةَ بنتِ أبي عُبيدٍ رضي الله عنهما: اشتكَتْ عيناها وهي حـادٌّ علىٰ ابن عمرَ زوجهـا، فلم تكتحـل حتـى كادت عيناها تَرْمَصانِ»(١).

(١) يتنازع هذا الحديث شاهدان: «الحِدَادُ» و«الرَّمَصُ»، وهو: اجتماع وسخ أبيض في مُوقِها كما في «المعجـم الوسيط»، وقد ساقـه ابن الأثير في مـادة «رمـص» لا «حدّ»، لقـوة الشـاهـد ثَمّ. وقوله: «اشتكت عيناها»: كذا هي في الأصل بخط المؤلف رحمه الله. ويظهر لنا أنّ الصوابَ: «عينيها»: مفعول بـه، بدلالـة الروايـة الأخـرى في «النهاية» (٢: ٢٦٤) بتحقيقهما: «اشتكت عينَها حتى كادت ترمَص» ضُبطت «عينها» بالفتح. وأما الرفع ففي روايةِ: «فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترْمَصان». (الناشر). =

[ح ر ث]

يقـول ربُّنـا عز وجـل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أي: هُنَّ لكم بمنزلـة الأرض تُزْدَرَعُ فيُخرجُ اللّهُ منها ما يشاء. كذلك أنتم، تباشرون نساءكم، ويُصوِّرُ اللّهُ ما يشاء في أرحامِهنّ.

والحَرْثُ: إلقـاءُ البذْر في الأرض، وتهيّؤها للزّرع، ويُسَمَّىٰ المحروثُ حرْثاً. قال عزّ مِن قائل: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢] ويتصَرّفُ معنىٰ الحرث هذا إلىٰ الكَسْـب والجمع، فيقال: هو يَحرُث لعياله ويَحترِثُ، أي: يكتسب. ومنه سُمّي الرجلُ حارِثاً، وفي الحديث: «أصدَقُ الأسماءِ الحارث»؛ لأن الحارثَ هو: الكاسب.

والإنسـانُ لا يخلو من الكسبِ طبْعـاً واختيـاراً، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، أي: من كان يريد ـــ بأعمالِه وكسْبه ـــ ثوابَ الآخرة يُضاعفُ اللّهُ له ذلك: الحسَنـةُ بعَشْرِ أمثالها إلىٰ سبـع مئـةِ ضِعف، وقيـل: معنـاه: يزيد في توفيقـه وإعانتِـهِ وتسهيلِ سبُلِ الخيـر له. ومن كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيـا ـــ وهو متاعُها وما يرزقُ اللّهُ به عبادَه منها ـــ نُعطِهِ منها ما قَضَتْ به مشيئتُنا وقُسِـم له في قضائنـا، وقال قتادة: إن اللّهَ يعطي علىٰ نيّـة الآخـرةِ ما شـاء من أمر الدنيا، ولا يعطي علىٰ نيّة الدنيا إلاّ الدُّنيا، وهذا كقوله تعـالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩] وكقوله أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هـود: ١٥]. قـال قتادة: من كانت الدُّنيا همَّه ونيّتَه وطَلَبَه، جازاه اللّهُ بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي

إلىٰ الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطىٰ بها جزاء، وأما المؤمنُ فيُجازىٰ بحسناته في الدنيا، ويثابُ عليها في الآخرة.

وفي الحديث: «أُحرُثْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً»، قوله: «احرُثْ لدنياك» يريد: اعمَلْ لدنياك، فخالَفَ بين اللفظيْنِ في أعمال الدنيا وأعمال الآخرة. وقال مجدُ الدِّين بن الأثير: والظاهرُ ــ من مفهوم لفظ هذا الحديث ــ: أما في الدنيا فللحثِّ علىٰ عِمارتِها وبقاءِ الناس فيها، حتى يسكُنَ فيها وينتفع بها مَن يجيء بعدَك كما انتفعْتَ أنت بعمل مَن كان قبلَك وسكنْت فيما عمَرَه، فإنّ الإنسان إذا علم أنه يطولُ عُمرُه أحكَم ما يعمَلُه وحرَصَ علىٰ ما يكسِبُه، وأمّا في جانب الآخرة فإنه حثٌّ علىٰ إخلاص العمل وحضور النيَّة والقلب في العبادات والطاعات، والإكثارِ منها، فإنّ مَن يعلَم أنه يموتُ غداً يُكثرُ من عبادته ويخلص في طاعته، كقوله ﷺ في الحديث الآخر: «صَلِّ صلاةَ مُودِّع». وقال بعض أهل العلم: المرادُ من هذا الحديثِ غيرُ السابق إلىٰ الفهم من ظاهره؛ لأن النبيَّ ﷺ إنما ندَب إلىٰ الزهد في الدنيا والتقليل منها، ومنَ الانهماكِ فيها والاستمتاع بلذّاتها، وهو الغالبُ علىٰ أوامرِه ونواهيه فيما يتعلّقُ بالدنيا، فكيف يحُثُّ علىٰ عِمارتِها والاستكثار منها؟ وإنما أراد ــ واللهُ أعلم ــ أن الإنسانَ إذا علمَ أنه يعيشُ أبداً قلَّ حرصُه، وعلم أنّ ما يريده لن يفوتَه تحصيلُه بترْك الحرص عليه والمبادرة إليه، فإنه يقول: إن فاتني اليومَ أدركْتُه غداً، فإنّي أعيشُ أبداً، فقال ﷺ: اعمل عمَلَ من يظنُّ أنه يخلُدُ فلا يحرِصُ في العمل، فيكونُ حَثّاً له علىٰ الترك والتقليل بطريقةٍ أنيقة من الإشارة والتنبيه، ويكون أمرُه لعمل الآخرة علىٰ ظاهره، فيَجْمَعُ بالأمرينِ حالةً واحدة، وهي: الزُّهدُ والتقليل، لكن بلفظيْنِ مختلفين.

وقد اختصر أبو منصورٍ الأزهريُّ هذا المعنىٰ فقال: معناه: تقديمُ أمرِ الآخرة وأعمالِها حِذَارَ الموْتِ بالفوْتِ علىٰ أعمال الدنيا، وتأخيرُ أمرِ الدنيا كراهِيَةَ الاشتغال

بها عن عمل الآخرة.

وقال تعالىٰ في شأن المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥]. قال أبو عبيد الهرويّ: في «الحرث» قولان: أحَدُهما: الزرع، والثاني: النساء، وقد سُمِّيْنَ بالحرْثِ لأن الولدَ يُزْدَرَعُ فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] والنَّسلُ: الأولاد. ورُوي عن مجاهد أنه سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقال: يلِي في الأرض فيعمَلُ فيها بالعُدوان والظلم، فيحبسُ اللّٰهُ بذلك القطْرَ من السماء، فيهلِكُ ـ بحبْسِ القطر ـ الحرثُ والنسل، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾. ثم قرأ مجاهد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وروي أن سعيداً المَقْبُريَّ ذاكَرَ يوماً محمدَ بن كعبٍ القُرَظيَّ، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: «إن عباداً ألسنتُهم أحلىٰ من العسل، وقلوبُهم أمرُّ من الصَّبر، لبسوا للناس مُسُوكَ الضَّأن منَ اللِّين، يجترُّونَ الدنيا بالدِّين، قال اللّٰهُ تعالىٰ: «عليَّ تَجترِئون، وبي تَغترُّون؟ وعزَّتي، لأبعَثَنَّ عليهم فتنةً تترُكُ الحليمَ منهم حيران». قال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قولُ الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

اللهم إنا نسألك أن ترزقَنا الصّدقَ في القول والعمل، وطَهارةَ الظاهر والباطن.

[ح ر ج]

يقول ربُّنا عز وجلَّ مُخاطِباً نبيَّه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. الحَرَج: الضِّيق، أي: لا يكنْ في صدرك ضِيقٌ منه، مِن إبلاغِه إلىٰ الناس، مخافةَ أن يُكذِّبوك ويؤذوك، فإن اللّهَ حافِظُك وناصرك. وقيل: المراد: لا يضِقْ صدرُك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك، فإنما عليك البلاغ. وقال مجاهدٌ وقَتادة: الحَرَجُ هنا: الشَّكُّ؛ لأن الشاكَّ ضيِّقُ الصدر، أي: لا تشكَّ في أنه منزَّلٌ من عند الله، وعلىٰ هذا يكون النهيُ له ﷺ من باب التعريض، والمراد أُمَّته، أي: لا يشكَّ أحدٌ منهم في ذلك.

وهذه المادة (حرج) تدل علىٰ أصل واحد في اللغة، هو: تجمُّعُ الشيء وضِيقُه، ومن ذلك: الحَرَج: جمْعُ حَرَجة، وهي: مجتمَعُ الشجر الملتَفّ، قال مجنون بني عامر:

أيا حَرَجاتِ الحيِّ حينَ تحمَّلوا ... بذي سَلَمٍ، لا جادكُنَّ ربيعُ

وترجع استعمالاتُ المادة كلُّها إلىٰ هذا المعنىٰ. يقول عز من قائل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الحَرَجُ: موضعُ الشجر الملتفّ، فكأنّ قلبَ الكافر لا تصل إليه الحكمةُ كما لا تصلُ الراعيةُ إلىٰ الموضع الذي التفَّ شجره. وسألَ عمرُ ابن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب، من أهل البادية من مُدْلِجَ عن الحَرَجةِ، فقال: هي الشجرةُ تكون بين الأشجار، لا تصلُ إليها راعيةٌ ولا وَحْشيّةٌ ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلبُ المنافقين، لا يصل إليه شيءٌ من الخير. وقال ابن جرير: هذا مَثَلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر، في شدَّة ضيقه عن

وصول الإيمان إليه، يقول: فمَثَلُه في امتناعِه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مَثَلُ امتناعِه عن الصعود إلىٰ السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وُسْعه وطاقته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] أي: لم يضيِّقْ عليكم في أحكامه فيُكلِّفَكم ما تعجِزون عنه. ولذا قال ﷺ: «بُعِثت بالحنيفية السَّمحة». وقال لمعاذ بن جبلٍ وأبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنهما حين بعثَهما إلىٰ اليمن: «بشِّرا ولا تُنفِّرا، ويسِّرا ولا تُعَسِّرا».

وقال الإمام الشَّوكاني في تأويل الآية الكريمة: حَطَّ سُبحانَه ما فيه مشقّةٌ من التكاليف علىٰ عباده، إمّا بإسقاطها من الأصل وعدَم التكليفِ بها كما كلَّفَ بها غيرَهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلىٰ بدَلٍ لا مشقَّةَ فيه، أو بمشروعيةِ التخلُّص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله. وما أنفعَ هذه الآيةَ وأجلَّ موقعَها وأعظم فائدتَها، ومِثلها قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في الصّحيح عن النبيِّ ﷺ أنّ اللّهَ تعالىٰ قال عقِبَ كلِّ دعوةٍ من هذه الدعوات: قد فعَلْت. وقولُه تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، أي: ضيقٌ لتَرْكِ الجهاد، ومعناه الإثم، أي: لا إثمَ عليه في ذلك.

وجاء في الحديث: «حدِّثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَج»، قال ابن الأثير: الحرَجُ في الأصل: الضِّيق، ويقعُ علىٰ الإثم والحرام. وقيل: الحَرَج: أضيَقُ الضِّيق. ومعنىٰ قوله: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، أي: لا بأسَ ولا إثمَ عليكم أن تُحدِّثوا عنهم ما سمِعتُم وإنِ استحال أن يكون في هذه الأُمة، مثلَ ما روي أن ثيابَهم كانت تطول، وأن النار كانت تنزلُ من السماء فتأكلُ القُرْبان، وغيرَ ذلك، لا أن يُحدَّث عنهم بالكذب. ويشهَدُ لهذا التأويل ما جاء في بعض رواياته: «فإنّ فيهمُ العجائب»، وقيل: معناه أنّ الحديثَ عنهم إذا أدَّيْتَه علىٰ ما سمِعته، حقاً كان

أو باطلاً، لم يكـن عليك إثمٌ لطول العهد ووقوع الفتْرة، بخلاف الحديث عن النبيِّ ﷺ؛ لأنه إنما يكون بعد العلم بصحّة روايتِه وعدالة رُواتِه. وقيل: معناه أن الحديثَ عنهـم ليـس علىٰ الوجـوب؛ لأن قولَـه ﷺ في أول الحديـث: «بلِّغـوا عنـي» علىٰ الوجوب، ثم أتبَعَه بقوله: «وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حرج» أي: لا حرج عليكم إن لم تحدِّثوا عنهم.

ومن أحاديثِ الحرَج قولُـه في قتل الحيـات: «فلْيحرِّجْ عليها»، هو: أن يقول لها: أنتِ في حَـرَج، أي: ضيقٍ إن عُدتِ إلينـا، فلا تلومينا أن نُضيِّقَ عليك بالتتبُّع والطرد والقتـل. وجاء في حديث اليتامـىٰ: «تَحرَّجوا أن يأكلوا معَهم» أي: ضيَّقوا علىٰ أنفسهم. ويقال: تحرَّج فلان، أي: فعَل فِعْلاً يخرُجُ به من الحرج، أي: الإثم والضيـق. ومنه الحديـث: «اللهُمَّ إني أُحَرِّجُ حقَّ الضعيفَيْن: اليتيمِ والمرأة»، أي: أُضيِّقُـه وأُحرِّمُه علىٰ مَن ظلَمَهمـا. يقال: حَرِّجْ عليَّ ظُلمَك، أي: حَرِّمْه، ويقال: أحْرَجَها بتطليقِه، أي: حرَّمَها. ومنه حديث ابنِ عباس رضي الله عنهما، في صلاة الجمُعة: «كرِهَ أن يُحْرِجَهم» أي: يوقِعَهم في الحرَج، وفي الحديث: «الضيافةُ ثلاثةُ أيام، فما زاد فهُو صدقة، وجائزته يومُه وليلته، ولا يَثْوي عندَه حتىٰ يُحرجَه». قال الزمخشـري: المعنىٰ أنه يَحتفِلُ له في اليوم الأول، ويقدِّم إليه ما حضَرَه في الثاني والثـالـث، وهو ـ فيمـا وراء ذلك ـ متبـرِّع، إن فعَـلَ فحسـنٌ وإلاّ فـلا بـأسَ بـه كالمتصدِّق، وعلىٰ الضيف ألا يُطيلَ الإقامة عندَه حتىٰ يضيِّقَ عليه. اللهم انفعنا بهذا الهدْيِ النبوي الكريم وارزُقْنا اتّباعَه والاقتداءَ به.

[ح ر ر]

يقول عزّ وجلَّ في قصة أُمِّ مريمَ عليها السلام واشتهائها الولد: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

قولـه: ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: مُعتَقـاً من مهنة أبوَيْه لخدمـة بيـت الله. وقيل: مُعْتَقاً من عملِ الدنيا لعمل الآخرة. وروي أنّ امرأةَ عِمرانَ هذه كانـت امرأةً لا تحمِل، فرأت يوماً طائراً يزُقُّ فرخَه ــ أي: يطعمُه ــ فاشتهَتِ الولد، فدعَـتِ اللّهَ تعالىٰ أن يهَبَها ولداً، فاستجاب اللّهُ دعاءها، فواقَعَها زوجُها فحملت منه، فلمّا تحقَّقَتِ الحمْلَ نذَرَت أن يكـونَ محـرَّراً، أي: خالصاً مفرَّغاً للعبادة لخدمـة بيـت المَقـدِس. ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: في القوّة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصىٰ. فقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: في ذلك، وليس أن الذكرَ يفضُل الأنثىٰ كما يظنُّه جهَلةُ الناس.

وهذه المـادة (حرر) تـدل على معنييـن في أصـل اللغـة، أولهمـا: ما خـالف العبوديةِ وبرِيءَ من العيبِ والنقص، والثاني: خلافُ البرد. وتُردُّ جميعُ استعمالات المـادة إلىٰ هذين المعنيين، إمّا صراحـةً، وإمّا بشـيء من دقّـة النظـر وحُسْن التأتي للمعاني.

ويقـول عزّ مِن قائـل في ضرب المثـل للمؤمـن والكافـر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١]. الحَـرُور: استيقادُ الحَرِّ ووهَجُه بالليل والنهار، فأما السَّمومُ فلا يكـون إلاّ بالنهار. وهذا قول الفَرّاء، وصحّحَه النحّاس. وقال قُطرب: الحَرورُ: الحرّ، هكذا نقلوه عنه دون تقييد بليـل أو نهار. وسُمي الحَرُّ حَرُوراً مبالغـةً في شـدّة الحرّ. وفي حديث علي بن أبي طالب، أنه قال لفاطمةَ رضي الله عنهما: «لو أتيْتِ النبيَّ ﷺ فسألتيهِ خادماً يقيك حَرَّ ما أنتِ فيه من العمل». وفي رواية: «حَارَّ ما أنتِ فيه» يعني التعبَ والمشَقّة من خدمة البيت؛ لأن الحرارةَ مقرونةٌ بهما كما أن البردَ مقرونٌ بالراحة والسُّكون. وفي حديث عمر بن الخطاب أنه قال لأبي مسعود البدري الأنصاري رضي الله عنهما: بلَغَني أنك تُفتي، «ولِّ حارَّها من تولَّىٰ قارَّها»، جعل الحرَّ كنايةً عن الشرِّ والشدة، والبردَ كناية

عن الخير والهَيْن، وهذا مثل يُضرَبُ في الأمر بحُسن التدبير. وهذا المثَلُ قاله أيضاً الحسن بن علي لأبيه رضي الله عنهما حين أمرَه بجَلْد الوليد بن عُقْبة، أي: ولِّ الجَلْد مَن يلزَمُ الوليدَ أمرُه ويعنيه شأنه. قال الخطابي: معنىٰ «ولِّ حارَّها من تولَّىٰ قارَّها»: ولِّ العقوبةَ والضربَ من تولىٰ العمَل والنفْع. ومنه حديث عُيَيْنَةَ بن حُصين: «حتىٰ أُذيقَ نساءه من الحَرِّ مثلَ ما أذاق نسائي»، يريد حُرْقةَ القلب من الوجع والغيظ والمشَقَّة.

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «بينما رجلٌ بطريقٍ فاشتدَّ عليهِ العطش، فوجَدَ بئراً، فنزَلَ فيها، فشرِبَ ثم خرَج، فإذا كلبٌ يلهَثُ يأكُلُ الثَّرىٰ منَ العطَش، فقال الرجل: لقد بلَغَ هذا الكلبُ من العطش مثل الذي كان بلغ منّي، فنزلَ البئرَ فمَلأ خُفَّه ماءً فسقىٰ الكلب. فشكَرَ اللّهُ له فغَفَرَ له». قالوا: يا رسولَ الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «في كلِّ ذات كبدٍ رطْبة أجر». وروي: «في كل كبدٍ حَرَّىٰ أجر». قال ابن الأثير: الحرَّىٰ: فَعْلَىٰ من الحَرّ، وهي تأنيثُ حرّان، وهما للمبالغة. يريد أنها لشدةِ حرِّها قد عطِشَت ويبِستْ من العطش، والمعنىٰ أن في سقْيِ كلِّ ذي كبدٍ حَرَّىٰ أجراً. وفي حديث عمر رضي الله عنه وجَمْع القرآن: «إنَّ القتلَ قدِ استحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرّاءِ القرآن». استحَرّ، أي: اشتدَّ وكثُر. وهو: «استفعَلَ» من الحَرِّ: الشدة.

ومن أحاديث المادة في الحُرّية ما جاء في الحديث: «مَن فعَلَ كذا وكذا فله عِدْلُ مُحرَّر» أي: أجْرُ مُعْتَق. والمحرَّر: هو الذي جُعل من العبيد حرّاً فأُعتِق، يقال: حَرَّ العبدُ يحَرُّ حَراراً بفتح الحاء، أي: صار حُرّاً، والاسم: الحُرِّية. وفي حديث الحجّاج: أنه باع مُعْتَقاً في حَرارِه. وقال الشاعر:

فمـا رُدَّ تـزويـجٌ عليـهِ شهـادةٌ وما رُدَّ مِن بعدِ الحَرارِ عتيقُ

قال الأصمعي: وإنما استحَلَّتِ القرّاءُ قتالَ الحجّاج لذلك، فقالوا: غيَّرَ وبدَّل. قال أبو سليمانَ الخطابيّ: وزعم بعضُ الناس أن الحَجّاجَ لم يبعْ رقبة حُرٍّ قط، وإنما

باع ولاءه فقيل علىٰ هذا: قد باعه، وكانت العرب تفعل ذلك، ومن أجله نهىٰ رسول الله ﷺ عن بيع الولاء وعن هبته، وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لأنا أعلَمُ بشِرارِكم منَ البيطار بالخيل، هم الذين لا يأتونَ الصلاةَ إلاّ دَبْراً، ولا يستمعونَ القوْلَ إلا هُجْراً، ولا يُعتَقُ محرَّرُهم». لا يأتونَ الصلاة إلا دَبْراً، أي: آخراً حين كاد الإمامُ يفرُغ، الهُجْر: الفحش، ومُحرَّرُهم، أي: معتَقهم، والمعنىٰ أنهم يستخدمونه ولا يُخَلُّونـه وشأنَه، فإن أراد مفارقتَهـم ادَّعوْا رِقَّـهُ، فهو محـرَّرٌ في معنىٰ مُسْترَقّ، وقيل: إن العرب كانوا إذا أعتقوا عبداً باعوا ولاءه، ووهبوه وتناقلوه تناقلَ المُلك. قال الشاعر:

فباعوهُ عبداً ثم باعوهُ مُعْتَقاً فليس له حتىٰ المماتِ خَلاصُ

وفي حديث عائشةَ رضي الله عنها وقد سُئلت عن قضاء صلاة الحائض فقالت: أحَرُوريّةٌ أنتِ؟ الحَرُورية: طائفة من الخوارج نُسبوا إلى حَرُوراء، وهو موضعٌ قريب من الكوفـةِ كان اجتماعُهـم فيه، وهم أحَدُ الخـوارج الذين قاتَلَهـم علـيٌّ كـرّم اللهُ وجهـه، وكان عنـدَهم من التشـددِ في الدِّين ما هو معروف، فلمّا رأت عائشـةُ هذه المرأةَ تُشدِّدُ في أمر الحيض، شبّهتْها بالحَرُوريةِ وتشدُّدِهم في أمرِهم وكثرةِ مسائلِهم وتعنتِهـم بها. وقيل: أرادت أنها خالفـت السنّـةَ وخرجـت عن الجماعة كما خرَجَ الحروريةُ عن جماعةِ المسلمين.

[ح ر ض]

يقول ربُّنا عز وجل، في قصة يوسف عليه السلامُ وقولِ إخوته مخاطِبينَ أباهم يعقـوبَ عليـه السـلام: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥]. قوله: ﴿ حَرَضًا ﴾ [يوسف: ٨٥]. قـال قتـادة: حتـى

تهـرَمَ أو تمـوت، وقـال ابن عرفةَ نفطويـه: الحـرَض هو الفسـادُ يكـون في البـدن والمذهب والعقل، يقال: إنه حارِضةُ قومِه، أي: فاسِدُهم، وأحرَضَه المرض: إذا أفسد بدنَـه، وقال أبو منصـورٍ الأزهري: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: مضنىً مُدْنَفاً، يقـال: رجلٌ حرَضٌ وحارضٌ: إذا أشفـىٰ علىٰ الهـلاك. وقال مـؤرِّجٌ السَّـدُوسي: الحارِض: هو الذائبُ من الهمّ، ومنه قول العَرْجي:

إني امرُؤٌ لجَّ بي حُبٌّ فأحرَضَني حتـىٰ بُلِيـتُ وحتـىٰ شَفَّنـي السَّقَـمُ

والحَرَض مصدر، يستـوي فيه الواحـد والجمـع والمذكـر والمؤنت والصِّفـة المشبهة، ويقال بكسر الراء أيضاً: حَرِضٌ مثل دَنِفٍ.

وجاء في حديث النبيِّ ﷺ: «ما من مؤمنٍ يمـرض مرضاً حتىٰ يَحْرِضَه إلا حطَّ اللّهُ عنه خطاياه» يُحْرِضُه، أي: يُدْنِفُه ويُسْقِمُه. قال امرُؤ القيس:

أرىٰ المرءَ ذا الأذْوادِ يُصبِحُ مُحْرَضاً كـإِحْـراضِ بكْـرٍ فـي الـديـارِ مـريـضِ

أي: يصيـرُ المرءُ إلىٰ الكبَرِ والضَّعْـف، بعد أن كان قوياً ذا أذوادٍ ومال. وجاء في حديـث عوف بن مـالك الأشجعـيّ أنه قال: رأيت مُحلِّـمَ بنَ جَثَّامةَ في المنام، فقلت: كيف أنتم يا محلِّم؟ قال: بخير، وجدنا ربّاً رحيماً غفرَ لنا. فقلت: أكلُّكم؟ قال: كلنا غيرَ الأحراض. قلت: ومن الأحراض؟ قال: الذين يُشارُ إليهم بالأصابع. قال أبو سليمان الخطابي: الأحـراض: جمع الحَرَض، وهو الضاوي المهزولُ من المرض، ويقال: رجلٌ حرَضٌ، وقد أحرضَه المرضُ، ويقال: رأيت فلاناً حَرَضاً من الأحراض: إذا أشـرف علىٰ الهلاك. والحارض: الرجل الساقط. وقال الأصمعي: يقال: رجلٌ حارِضة، وهو الأحمق. وروىٰ الخطابيّ عن ابن عبد الحكم، قال: رآني الشافعـيُّ وأنا استمِـدُّ من دَواةٍ من ناحيـة اليسـار، فقـال: أشَعَرْتَ أنه يقال: إنه من الحُراضةِ أن يضعَ الرجلُ دَواتَه من ناحية اليسار؟ يريدُ: منَ الحُمق.

قال الخطابي: والأحراض همُ الذين أسرَفوا في الذنوب حتىٰ استوجَبوا عقوبةَ

الله، فأشرفوا علىٰ الهلاك، ومعنىٰ قوله: «يشارُ إليهم بالأَصابع» أي: اشتُهروا بالشرِّ وعُرفوا به. وقد يجوزُ أن يكونَ أراد بذلك أصحابَ الرِّياء وأهل النفاق، الذين شهَروا أنفسَهم حتى أشيرَ إليهم بالأصابع.

وقال عزَّ مِن قائل، مخاطِباً نبيَّه ﷺ: فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء: ٨٤] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥] قوله: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: حُضَّهم وحُثَّهم علىٰ القتال. يقال: حارَضَ علىٰ الأمرِ وأكبَّ وواظب وواصَبَ بمعنًى واحد. وقال الجوهري: التحريض علىٰ القتال: الحثُّ والإحماء عليه.

وصلة هذا المعنىٰ بأصل المادة ــ وهو الحرَضُ الدالُّ علىٰ الذهاب والتلَفِ والفساد والضعف ــ صلةٌ وثيقةٌ كشفها أبو الحسين بنُ فارس، فقال: ويقال: حرَّضْتُ فلاناً علىٰ كذا. زعَمَ ناسٌ أن هذا من الباب، يعني من باب الفساد والهلاك، قال أبو إسحاقَ البصريُّ الزجّاج: وذلك أنه إذا خالف فقد أفسد، وقوله تعالىٰ: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ لأنهم إذا خالفوه فقد أُهلكوا، وسائر الباب مقاربٌ هذا؛ لأنهم يقولون: هو حُرْضة، وهو الذي يُناوَل قِداحَ الميسر ليضرب بها. ويقال: إنه لا يأكلُ اللحمَ أبداً بثمن، إنما يأكلُ ما يعطىٰ فيسمىٰ حُرْضة؛ لأنه لا خيرَ عندَه، ومن هذا أيضاً قولهم للذي لا يُقاتِلُ ولا غَناءَ عندَه ولا سلاح معه: حَرَض، قال الطِّرِمّاح:

من يَرُمْ جَمْعَهُمْ يَجِدْهُم مراجيـ ـحَ حُماةً للعُزَّلِ الأحراضِ

يقال: حرَضَ الشيءُ وأحرضه غيرُه: إذا فسد وأفسده غيره، ويقال أيضاً: أحرض الرجلُ: إذا وُلد له ولدُ سَوْء. ويقول الراغب الأصبهاني في ربط التحريض بمعنىٰ الحرَض: «التحريض: الحثُّ علىٰ الشيء بكثرةِ التزيينِ وتسهيل الخَطْب فيه، كأنه في الأصل إزالةُ الحرَض، نحو مَرَّضْتُه وقذَّيْته، أي: أزلت عنه المرض

والقذىٰ، وأحرضْتُه: أفسدتَه، نحو: أقذيتُه: إذا جعَلْتَ فيه القذى».

ومن غريب أحاديث المادة ما جاء في حديث عطاءٍ رحمه الله، قال ابن جُرَيج: سألته عن صدَقه الحَبّ، فقـال: فيه كلّه الصدقة، وذكر «الذُّرةَ والدُّخْنَ والجُلْجُلان، والبُلْسُنَ والإحريض، والتِّقْـدة»[1]، الإحريض: هو العُصْفـر، وهو نبتٌ يُجعل في الطبيخ يُهـرِّىءُ اللحمَ الغليظ، وتُصبغ به الثيابُ أيضاً فيقال: ثوبٌ مُعَصفَر، وثوبٌ مُحرَّض، أي: مصبوغ بهذا الإحريض، وأنشد أبو زيد في «نوادره»:

أرَّق عينيْـكَ عـنِ الغمـوضِ برْقٌ سَرَىٰ في عارضٍ نَهُوضِ
ملتهـبٌ كلَهَـبِ الإحـريـضِ يجلـو خـراطيـمَ غمـامٍ بيـضِ

والجُلْجُـلان في حديث عطاء: هو السِّمْسِم، والبُلْسُن: العدسُ، والتِّقـدة: الكُزْبَرة. والدُّخْن: من الحبوب.

[ح ر ف]

يقـول ربُّنا عزّ وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. قوله: ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ قال مجاهد: علىٰ شكٍّ. وقال ابن عرفة نفطويه: أي: علىٰ غيرِ طُمأْنينـةٍ من أمـره، أي: لا يدخُل في الدِّين دخـولَ متمكِّـن. وقال بعضهم: علىٰ طرَف، ومنه حرْف الجبل، هو طرَفُه.

وهذه المـادة (حـرف) تـدل في أصل وضعها اللغـويّ علىٰ ثلاثـة معـان: حدُّ الشيء، والعُدُولُ عن الشـيء، وتقديـرُ الشيء. قال ابن فارس: فأمّا الحَدُّ: فحرْفُ

(١) تالياً يشرحها المؤلف رحمه الله.

كلِّ شـيءٍ حدُّه، كالسيفِ وغيـره. ومنه الحـرفُ، وهو الوجْهُ، تقول: هو مِن أمرِه علىٰ حرفٍ واحد، أي: طريقة واحدة. قـال اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي: علىٰ وجه واحد، وذلك أنّ العبـدَ يجـبُ عليـه طاعـةُ ربِّـه تعالىٰ عند السراء والضراء، فإذا أطاعه عند السراء، وعصاه عند الضّراء فقد عبَدَه علىٰ حرف، ألا تراه قال تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾؟

وأخـرج الإمام البخاريُّ في «صحيحه»، عن ابن عبـاسٍ رضي الله عنهما، في سبب نزول الآيةِ الكريمة، قال: كان الرجلُ يَقْدَمُ[1] المدينة، فإن ولَدَتِ امرأتُه غلاماً ونُتِجَتْ خيلُه قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلدِ امرأتُهُ ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دِينُ سُوء».

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْـه، عن ابن عبـاس أيضاً، قال: كان ناسٌ من الأعـراب يأتونَ النبيَّ ﷺ يُسلِمون، فإذا رجَعوا إلىٰ بلادِهم، فإن وجَدوا عامَ غيْـثٍ وعام خِصب وعام وِلادٍ حَسَن قالوا: إنّ ديننا هذا لصالح، فتمسَّكوا به، وإن وجَدوا عامَ جـدبٍ وعام وِلادٍ سُوءٍ وعـامَ قحـط قالوا: ما في دينِنـا هذا خيـر، فنزلت الآية الكريمة.

وأخـرج ابن مَرْدَوَيْهِ أيضاً عن أبي سعيد، قال: أسلم رجلٌ من اليهود، فذهَبَ بصرُه ومالُـه وولدُه، فتشاءَمَ بالإسـلام، فأتـىٰ النبيَّ ﷺ، فقال: أقِلْني أقِلْني، قال: «إنّ الإسـلامَ لا يُقال». فقال: لم أُصِبْ مِن دينـي هذا خيراً! ذهَبَ بصـري ومالي، ومات ولـدي، فقال: «يا يهـوديّ، الإسـلامُ يَسْبِـكُ الرجالَ كما تسبِكُ النـارُ خبَثَ الحديـدِ والذهبِ والفضة»، فنزلت الآيَة الكريمـة. وقـال عبد الرحمن بن زيد: هو المنافق: إن صلَحَتْ له دنياه أقام علىٰ العبادة، وإن فسَدَتْ عليه دنياه وتغيَّرت انقلب فلا يقيـمُ علىٰ العبادة إلاّ لما صلَـحَ من دنياه، فإن أصابتْـه فتنةٌ أو شِدّة أو اختبارٌ أو

(١) بفتح العين منه، وبابُه: علِم.

ضِيق، ترَكَ دينَه ورجَع إلىٰ الكفر.

ومن استعمال مادّة (حرف) في معنىٰ العدول عن الشيء، قولُه عزّ وجلَّ مُخاطِباً عبادَه المؤمنينَ في شأن اليهود: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. قوله: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي: يغيّرونَه ويُبدِّلونَه، يقال: تحرَّف عن الشيء: إذا مال عنه وعدَل. والمراد ــ من تحريف اليهود كلامَ الله ــ: أنهم عمَدوا إلىٰ ما سمِعوه من التوراة، فجعَلوا حلالَه حراماً، أو نحوَ ذلك مما فيه موافقةٌ لأهوائهم، كتحريفِهم صفةَ رسولِ الله ﷺ التي جاءت في التوراة، وإسقاطِ الحدود عن أشرافِهم، أو أنهم سمِعوا كلامَ اللّهِ لموسىٰ عليه السلام، فزادوا فيه ونقصوا. وقال عز من قائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ ــ ١٦]. قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ [الأنفال: ١٦] أي: فارّاً بين يديْ قرْنِه مكيدةً ليُريَه أنه خاف منه فيتبَعُه ثم يكُرُّ عليه فيقتله، فلا بأسَ علىٰ المؤمنِ المُجاهِدِ في ذلك؛ لأن ذلك مِن مكائدِ الحرب، و«الحربُ خُدْعة»، وروي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه، في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ [الأنفال: ١٦] قال: يعني مُستطرِداً، يريدُ الكرّةَ علىٰ المشركين.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «آمَنْتُ بمُحرِّفِ القلوب»، أي: مُزيغِها ومُميلِها، وهُو الله سبحانه وتعالىٰ، وروي: «بمحرِّكِ القلوب». وفي الحديث: «سُلِّط عليهم آخرَ الزمانِ موتُ طاعونٍ ذَفيفٌ(١) يُحرِّف القلوب» أي: يُميلُ القلوبَ ويجْعَلُها علىٰ حرف، أي: جانب وطرف. وقال الزمخشري: المعنىٰ: يغيِّرُها عن التوكل، ويُنكِّبُها إياه، ويدعوها إلىٰ الانتقال والهرب، ويروىٰ: «يحوِّفُ القلوب»،

(١) الطاعون الذفيف: السريع القاتل الذي يُجهز على صاحبه فوراً.

بالواو، وهو بمعنىٰ «يُحرِّف» أيضاً: مأخوذ من الحافَة[1]، وهي: ناحيةُ الموضع وجانبُه.

والمعنىٰ الثالث لمادة (حرف): تقدير الشيء، مأخوذٌ من المِحْراف وهُو المِيل، أو الحديدةِ التي تُقاسِ بها الجِراحةُ، وتُختَبَر. ومنه حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: أنه دخَل علىٰ رجل مريض، فرأىٰ جبينَه يَعْرَق، فقال: موتُ المؤمنِ عرَقُ الجبين، تبقىٰ عليه البقيةُ من الذنوب، فيحارَفُ بها عندَ الموت ــ ويروىٰ: فيُكافأُ بها. قال الزمخشري: «المُحارَفةُ: المُقايَسة» ومنه المِحْراف وهُو المِيل الذي يُقايسُ به الجراحة، فوُضعت مَوضِعَ المكافأة، والمعنىٰ أنّ الشِّدةَ التي تُرهِقُه حتىٰ يَعْرَقَ لها جبينُه تكونُ كَفاءً لمَا بقيَ عليه من الذنوب وجزاءً، فتكونُ كفارة له». وقال القَطَاميُّ في المِحراف، يصفُ طعنة:

إذا الطبيبُ بمِحْرافَيْهِ عالَجَها   زادَتْ علىٰ النَّقْرِ أو تحريكِها ضَجَما

يقول: إذا قاسَها بمِيلِه ازدادت فساداً عظيماً.

قلنا: إن «المُحارفَة» هي: المُقايَسةُ بالمِحراف، وهو المِيل الذي تُختبَرُ به الجراحة، وإن ذلك المعنىٰ الحسِّيَّ للمحارَفة يُستعمَلُ في معنىٰ المجازاة والمكافأة، ومن ذلك الحديث: «إنّ العبدَ لَيُحارَفُ علىٰ عمَلِه: الخيْرِ والشرِّ» أي: يُجازىٰ. يقال: لا تُحارِفْ أخاك بالسُّوء، أي: لا تُجازِه، وأحرَفَ الرجلُ: إذا جازىٰ علىٰ خيرٍ أو شر، قاله ابنُ الأعرابي. وجاء في حديث عائشةَ رضي الله عنها: لمّا استُخلِفَ أبو بكر رضي الله عنه قال: لقد عَلِمَ قومي أنّ حِرْفتي لم تكن تعجزُ عن مَؤونةِ أهلي، شُغِلْتُ بأمر المسلمين. فسيأكُلُ آلُ أبي بكر من هذا، ويحترِفُ للمسلمين فيه».

الحِرْفةُ: الصِناعةُ وجِهةُ الكَسْب، وحَرِيفُ الرجل: مُعامِلُه في حرْفته. وأراد أبو بكر رضي الله عنه باحترافِه للمسلمين: نظرَه في أمورهم وتَثميرَ مكاسبِهم وأرزاقِهم.

---

(١) الحافة: بوزن الفَعْلة، وحافَتا الوادي وغيره: جانباه.

يقال: فلانٌ يحتـرفُ لعيالِه، ويَحْرِف، أي: يكتسب، ورُبّما قالـوا: أحرَفَ فلانٌ إحرافاً: إذا نما مالُه وصلَحَ. ومنه حديثُ عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنـه: لَحِرْفةُ أحَدِكم أشـدُّ عليَّ من عَيْلتِه، أي: أن إغنـاءَ الفقيـر وكفايتَـه أيسَرُ علـيَّ من إصلاح الفاسـد، ومنه حديثُه الآخر: «إني لأرىٰ الرجلَ يُعجبُني فأقول: هل له حِرْفـة؟ فإن قالـوا: لا، سقَطَ من عينـي. وقيـل: معنىٰ حديـث عمـرَ الأول هـو: أن يكونَ من «الحُرْفة» بضم الحاء وكسرها، ومنه قولهم: أدركَتْه حُرْفةُ الأدب، وهو مأخوذ من: حُورِفَ كسْـبُ فلان، أي: شُـدِّدَ عليـه في معاشِـه وضُيِّق كأنه مِيلَ برزقِـه عنه، من الانحراف عن الشيء،وهو الميلُ عنه، والمحارَفُ: هو المحرومُ المجدودُ الذي إذا طلَبَ لا يُرْزَق، أو يكونُ: الذي لا يسعىٰ في الكسب.

وبقي من أحاديث المادَّة ما أخرجه البخاريُّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسولَ الله ﷺ قال: أقرَأَني جبريلُ علىٰ حرْفٍ فراجَعتُه، فلم أزَلْ أستَزيدُه ويزيدُني حتىٰ انتهىٰ إلىٰ سبعةِ أحرف»، وما أخرجه أيضاً، عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرَأُ سورةَ الفرقان، في حياةِ رسولِ الله ﷺ، فاستمَعْتُ لقراءتِه، فإذا هُو يقرَأُ علىٰ حروفٍ كثيـرة لم يُقرِئْنيها رسولُ اللّهِ ﷺ، فكِدتُ أُساوِرُه في الصّـلاة، فتصبَّـرْتُ حتىٰ سَلَّم، فلبَّبْتُـه بردائه فقلت: مَن أقرَأَك هذه السورةَ التي سمِعتُك تقرَأ؟ قال: أقرَأَنِيها رسولُ الله ﷺ، فقلت: كذَبْتَ، فإنّ رسولَ الله ﷺ قد أقرَأَنِيهـا علىٰ غيرِ ما قرَأْت، فانطلَقْـتُ به أقـودُه إلىٰ رسـولِ الله ﷺ، فقلـت: إنّـي سمِعـتُ هـذا يـقـرَأُ بسورةِ الفرقانِ علىٰ حروفٍ لم تُقْرِئْنيهـا، فقـال رسولُ الله ﷺ: «أرسِلْـه. اقرَأْ يا هشام». فقرَأ عليه القراءةَ التي سمِعْتُه يقرَأ، فقـال رسولُ الله ﷺ: «كذلك أُنْزلت»، ثم قال: «اقرَأْ يا عمر». فقرأتُ القراءةَ التي أقرَأَني، فقال رسولُ الله ﷺ: «كذلك أُنزلت. إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ علىٰ سبعةِ أحرُف، فاقرَأوا ما تيسَّرَ منه».

قد أكثر علمـاءُ العربية الكـلامَ على هذا الحديـث بما تـراه مبسوطـاً في كتب التفسير والقراءات وشروح الحديث، لكني أكتفي هنا بالتنبيهِ علىٰ أمرَيْن: الأول:

أنّ المـرادَ بالأَحرفِ في هذا الحديـث: اللغـات. قـال مجدُ الدِّين بنُ الأثير: «أراد بالحـرف اللغة، يعني: علىٰ سبـع لغـاتٍ من لغـات العـرب، أي: أنها مفَـرَّقـةٌ في القـرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضُه بلغة هُذَيل، وبعضه بلغة هَوازن، وبعضـه بلغة اليمن. وليـس معناه أن يكون الحرفُ في الواحـد سبعـةَ أوجه، علىٰ أنه قد جاء في القرآن ما قد قُرِىء بسبعة وعشَرة. ومما يبيِّن ذلك قولُ ابن مسعـود: إني قد سمعت القَـرَأَةَ فوجدتُهـم متَقاربيـن، فاقـرأوا كما عُلِّمتُـم، إنما هُو كقـولِ أحَدِكـم: هلُمَّ، وتعالَ، وأقبِلْ. وفيه أقوالٌ غيرُ ذلك، هذا أحسَنُها.

والحـرف في الأصـل: الطـرَفُ والجانـب، وبـه سُمِّـي الحـرفُ من حـروف الهجاء». وقال الحافظ ابنُ حجـر في «الفتـح»: «وقيل: ليس المرادُ بالسبعة حقيقةَ العـدد، بل المرادُ التسهيـلُ والتيسيـر، ولفـظ السبعـة يُطلَـقُ علىٰ إرادةِ الكثـرة في الآحـاد، كما يُطلق [لفظُ] السبعينَ في العشرات، والسبعُ مئةٍ في المِئين، ولا يرادُ العددُ المعيَّن».

والأمرُ الثاني: أنّ الأحرفَ السبعـة في هذا الحديـث غيرُ القراءات السبعة التي جمَعَهـا الإمامُ أبو بكر بن مجاهد. وقد نبّه علىٰ ذلك الأئمـة، ومنهم: مكيُّ بن أبي طالب في كتابـه «الإبانة». وقال شيخ الإسـلام ابنُ تيميـةَ في «الفتاوىٰ»، جواباً عن سؤال في ذلك: «لا نزاعَ بين العلماءِ المعتبَرينَ أنّ الأحرفَ السبعة التي ذكَرَ النبيُّ ﷺ أن القـرآنَ أُنـزِلَ عليهـا، ليست هي قراءاتِ السبعـةِ المشهـورة، بل أولُ مَن جمَـعَ قراءاتِ هؤلاء هُو الإمامُ أبو بكرِ بن مجاهدٍ وكان علىٰ رأس المئةِ الثالثة ببغداد، فإنه أحَبَّ أن يجمَـعَ المشهور من قراءات الحَرَميْـنِ والعراقَيْنِ والشام. إذ هذه الأمصارُ الخمسـةُ هي التي خرَجَ منها عِلم النبـوة من القـرآن وتفسيره، والحديثِ والفقة من الأعمال الباطنة والظاهرة، وسائرِ العلوم الدينية، فلمّا أراد ذلك جَمَعَ قراءاتِ سبعةٍ مشاهيـرَ من أئمة قُرّاء هذه الأمصـار، ليكون ذلك موافقاً لعدد الحـروف التي أُنـزِل

عليها القرآن، لا لاعتقادِه أو اعتقادِ غيرِه من العلماء أن القراءات السبعةَ هي الحروفُ السبعة، أو أنّ هؤلاءِ السبعـةَ المعيَّنِـينَ همُ الذين لا يجـوزُ أن يُقـرَأَ بغيـرِ قراءتهم. ولهذا، قال من قال من أئمة القراء: لولا أنّ ابنَ مجاهد سبَقَني إلىٰ حمـزة، لجعَلْتُ مكانَه يعقـوبَ الحضرميَّ إمامَ جامـعِ البصرة وإمامَ قُرّاءِ البصرةِ في زمانِـه في رأسِ المئتين.

[ح ر ق]

يقول عزّ وجلَّ في قصة أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] أي: لهم عذابٌ لكفرهم، وعذابٌ بإحراقِهِمُ المؤمنين. وذلك أنّ الجـزاءَ من جنس العمل، قال الحسَنُ البصريُّ رضي الله عنه: انظُـروا إلىٰ هذا الكرم والجُـود، قتَلـوا أوليـاءه وهو يدعـوهم إلىٰ التوبةِ والمغفرة.

والحَرَقُ والحريق: النارُ، أو هُو: لهبُها وحرارتُها. وجاء في الحديث أنّ رجُلاً قال: يا رسولَ الله، إنّا نُصِيبُ هَوامِيَ الإبلِ، أي: التي تَهْمي علىٰ وجوهِها لرعيٍ أو غيرِه، فقـال: «ضالَّةُ المؤمنِ حرَقُ النار»، أي: أنّ ضالـةَ المؤمن إذا أخَذَها إنسانٌ ليتملَّكهـا أدَّتْـه إلىٰ النار. ومنه الحديث: «الحَرَقُ والغَـرَقُ والشَّرَقُ شهادة»، ومنه الحديـثُ الآخر: «الحَرِقُ شهيـد» هُو ــ بكسـر الـراء ــ: الذي يقَـعُ في حَـرْقِ النار فيلتهب.

وقد أتـت مـادة (حرق) في الحديث لمعنىٰ الهـلاك علىٰ التشبيـهِ كمـا جاء في حديث المُظـاهِرِ من امرأتِـه، قال: «احترَقْتُ» أي: هلَكْت، وحديثِ المُجامِـعِ في نهار رمضان أيضاً: «احتَرقْـتُ»: شبَّهَا ما وقَعا فيه منَ الجِماع في المُظاهرةِ والصوم

بالهـلاك، ومنه الحديث: «أُوحيَ إليَّ أنْ أَحرِقْ قريشاً» أي: أهلِكْهم. وحديثُ قتالِ أهل الـرِّدة: فلم يزل يُحـرِّقُ أعضاءهـم حتىٰ أدخَلَهـم منَ البابِ الذي خرَجوا منه. وجـاء في الحديـث: شـربَ رسـولُ الله ﷺ الماءَ المُحْـرَقَ منَ الخـاصـرة. المـاءُ المُحْرَق: هو المغْليُّ بالحَرَقِ، وهو النارُ، والمرادُ أنه ﷺ شرب ذلك الماءَ المغليَّ من وجَع الخاصرة.

وتأتي هذه المادة (حرق) لمعنىٰ بَرْدِ الشيءِ وحَكِّ بعضِه ببعض. يقال: حرقْتُ الشـيءَ، أي: حكَكْـتَ بعضَه ببعـضٍ وبَرَدْتَـه، والعربُ تقـول: «هو يَحـرُقُ عليك الأُرَّمَ غيظاً»، وذلك إذا حـكَّ أسنانَـه بعضَهـا ببعـضٍ من شدةِ الغيظ، والأُرَّمُ: هي الأسنان.

قال الراجز:

نبِّئْـتُ أحْمـاءَ سُليمـىٰ إنَّمـا ... باتُوا غِضاباً يَحْرُقُونَ الأُرَّما

ومن ذلك: قراءةُ بعضِهم: ﴿لَنَحْرُقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً﴾ [طه: ٩٧] بفتح النـون وضم الراء المخفَّفة. من: حرقْـتُ الشيء أحرُقُه حَرْقاً: إذا بردْتَه وحكَكْتَ بعضَه ببعض، أي: لنَبْـرُدَنَّـه بالمَبارِد، ويقال للمِبْـرَد: المِحْرَق. وقـراءةُ الجماعة: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: من التحريق بالنار. ومن ذلك ما جاء في الحديث: أنه نَهَىٰ عن حَرْق النَّواة» أي: بَرْدِها بالمِبْرد، وقيل: هو إحراقها بالنار. قال الزمخشري: وإنما نُهيَ عن ذلك إكراماً للنخلـة. قيـل: لأنها مخلوقـةٌ من فَضْلـةِ طينـة آدمَ عليـه السلام. وفي الحديث: «أكرِموا النخلةَ فإنها عَمَّتُكُم».

وفي حديـث آخر: «نِعْمَـتِ العمَّـةُ لكمُ النَّخلـة». وقيـل: لأن النَّـوَىٰ قُـوتُ الدَّواجن.

[ح ر م]

تدلُّ مادة (حرم) في اللغة علىٰ أصل واحد، هو المنعُ والتشديد، وتعود جميعُ استعمالاتها إلىٰ هـذا المعنىٰ، إما صراحةً، وإمَّا بشيء من التلطُّفِ في فهْم المعنىٰ المستعملةِ فيه الكلمة والمعنىٰ الأصلي للمادة.

فالحـرامُ ضدُّ الحلال، والحَرَمان: مكة والمدينة، سُمِّيا بذلك لحُرمتِهما، وأنه حُرِّم أن يُحدَثَ فيهما، أو يُؤْوَىٰ مُحْدِث.

وقـولـه تعالـىٰ: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] قـال ابـن عرفـة نفطويـه: التحريـم: المنـع، ومنه قولـه تعالىٰ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢] أي: منعناه ذلك، فلم يشْتَهِـا، يقال: حرَمه عطاءَه: إذا منعه. وقوله تعالىٰ: ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] أي: الممنـوع الرِّزق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المُحارَفُ، يعني الذي انحرف عنه رزقُه.

وقولهم: له به حُرْمة، أي: حقٌّ يَمنَـعُ مِن ظُلمِه، ولهذا سُمِّيت النّساءُ الحُرَم، والرجل مَحْرَمٌ للمرأة، أي: ممنوعٌ عن نكاحِها.

وقولـه تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١] الواحـدُ حَـرام. يقـال: رجلٌ مُحرِمٌ وحَرام، وفي ضِدّه: مُحِلٌّ وحَلال، وأَحْرَمَ الرجلُ: إذا أهلَّ بالحـج؛ لأنه يَحرُمَ عليه ما كان حـلالاً له من الصَّيدِ والنِّسـاء وغير ذلك، وكذلك يقال: أحرَمَ: إذا دخَلَ في البلد الحرام، وأحرم: إذا دخَلَ في الأشهُرِ الحُرُم، وهي ثلاثةٌ متتابِعة: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، والمحرَّم، وواحد مفرد وهو رجب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]. قال ابن عرفة نفطويه: هذه الآية تحكُـم علىٰ كـلِّ من نـال من مسلـم شيئـاً حُرِّم عليـه بالقصـاص، وقولـه تعـالىٰ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] وقرىء: ﴿وَحِرْمٌ﴾ وهو

بمعنىٰ حـرام. والمعنىٰ وممتَنعٌ ألبتَّةَ عدَمُ رجوعِهم إلينا للجزاء، وقيل: إنَّ «لا» في ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة، أي: حـرامٌ علىٰ قريـةٍ أهلكْناهـا أن يرجعوا بعدَ الهلاك إلىٰ الدنيـا، وقيل: حـرامٌ، أي: ممتنعٌ رجوعُهم إلىٰ التوبـة، علىٰ أن «لا» زائدةٌ أيضاً. وقيـل: إن لفظ «حـرام» هنا بمعنىٰ الواجـب، أي: واجـبٌ علىٰ قرية، ومنـه قـولُ الخنساء:

وإنَّ حـرامـاً لا أرىٰ الـدهـرَ بـاكيـاً ... علىٰ شَجْوِه إلاَّ بكَيْتُ علىٰ صَخْر

قـد جـاء فـي بعض القـراءات: ﴿وَحَرُمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾. قـال النحّـاس: والآيـة مُشكلة، ومن أحسن ما قيل فيها وأجلِّه، ما رواه ابنُ عُيَيْنةَ وغيرُه بسند إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما، في معنىٰ الآية قال: واجبٌ أنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون، قال أبو إسحاقَ الزجـاجُ وأبو عليٍّ الفارسـي: إنّ في الكلام إضماراً، أي: وحرامٌ علىٰ قرية حكَمْنا باستئصالِها أو بالخَتْمِ علىٰ قلـوبِ أهلِها أن يُتَقَبَّلَ منهم عمَلٌ؛ لأنّهم لا يرجِعون، أي: لا يتوبون، واللهُ أعلمُ بمرادِه.

[فذلك] دورانها في القرآن الكريم. والآن نأتي إلى المادة في الحديث والأثر.

جاء في الحديـث أن معاوية بن حَيْدةَ القُشَيـريَّ قال: قلـت: يا رسولَ الله، ما آيـاتُ الإسلام؟ قال: «أن تقول: أسلَمتُ وجهي إلىٰ الله وتخلّيـتُ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة. كلُّ مسلمٍ عن مسلمٍ مُحْرِم، أخَوانِ نصيران»، فقلت: يا نبيَّ الله، هذا دينُنـا؟ قال: «هذا دينُكم، وأين ما تُحْسِنْ يكْفِك». قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مسلم عن مسلم مُحْرِم» يريد أن المسلمَ معتصمٌ بالإسلام، ممتنعٌ بحُرْمتِه ممّن أراد دمَه أو أراد مالَه.

ولفظُ «مُحـرِم» يُطلقُ علىٰ عدّةِ مَعـان، فيقـال: أحرَمَ الرّجل: إذا لم يُحِلَّ من نفسِـه شيئـاً يُوقِـعُ بـه، وأحرَمَ: إذا دخَلَ في الحَـرَم، وأحرَمَ: إذا دخَـلَ في الشهـرِ الحـرام، وأحـرَمَ: إذا اعتصَـمَ بحُرمةٍ. ويقال للصائـم: مُحـرِمٌ لامتناعِـه ممّا يَثْلِمُ

صومَـه، ومنـه حديثُ عمرَ بن الخطّابِ رضي الله عنه: «الصيامُ إحرام»، ومنه أيضاً قولُ الراعي النُّميريِّ يرثي عثمانَ بنَ عفانَ رضي الله عنه:

قتلـوا ابـنَ عفـانَ الخليفـةَ مُحـرِمـاً ودعـا فلـم أرَ مِثلَـهُ مخـذولا

قيل: «مُحرِمـاً» أي: صائماً. وقال أبو سليمـانَ الخطابيّ: يريد أنهم قتَلوه في الشهـرِ الحرام. وسبـق إلىٰ ذلك الأصمعـيُّ فقـال ــ في قول المُخبَّـلِ السَّعـدي في النعمـان وكان بعَثَ إلىٰ بني عـوف بن كعب جيشـاً في الشهـر الحـرام، فقتـل فيهم وسبىٰ ــ فقال المخبَّل:

وإذ فتَـكَ النعمـانُ بـالنـاسِ مُحـرِمـاً فمُلِّىءَ ــ مِن عوفِ بن كعبٍ ــ سلاسِلُهْ

قـال الأصمعي: قولُه: «مُحرِمـاً» ليس يعني مِن إحرام الحج، ولكنه: الداخلُ في الشهر الحرام. قال: ومنه قولُ الراعي:

قتلـوا ابـنَ عفـانَ الخليفـةَ مُحـرِمـاً ودعـا فلـم أرَ مِثلَـهُ مخـذولا

وإنّما جعَلَه مُحرِماً لأنه قُتل في آخر ذي الحجة، ولم يكن مُحرِماً بالحجّ.

وجاء في حديث الحَسن رضي الله عنـه: في الرجـل يُحْـرِمُ في الغضـبِ كذا. يُحْرم، أي: يحلِفُ، وإنما سُمِّيَ الحالفُ مُحرِماً لأنه يتَحرَّمُ بيمينِه، كالمُحرِمِ الذي يدخُلُ في حُرْمةِ الحج والحرَم، ومنه: إحرامُ المصلِّي بالتكبير. وفي حديث عمرَ بن الخطـاب رضي الله عنه: في الحـرام كفّـارةُ يمين. هُو أن يقول: حرامُ اللّهِ لا أفعَلُ كذا، كما يقـول: يمينُ الله. قال ابنُ الأثيـر: وهي لغة العُقيليِّين. ويُحتمَلُ أن يريدَ تحريمَ الزوجةِ والجاريةِ مِن غير نيّةِ الطلاق، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ١]. ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ [التحريم: ٢]، ومنه: حديـثُ عائشـةَ رضي الله عنها: آلىٰ رسولُ الله ﷺ من نسائـه وحرَّم، فجعَلَ الحرامَ حلالاً، تعني ما كـان قد حرَّمَه علىٰ نفسِه من نسائـه بالإيـلاء، عاد أحلَّه وجعَلَ في اليميـنِ كفـارة. ومنه حديثُ علـيّ رضي الله عنه: في الرّجـلِ يقولُ لامرأتِـه: أنتِ

عليَّ حرام. وحديثُ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما: مَن حرَّم امرأتَه فليس بشيء، وحديثُه الآخر: إذا حرَّمَ الرّجلُ امرأتَه فهيَ يمينٌ يُكفِّرها.

وجاء في حديث عائشةَ رضي الله عنها: كنتُ أُطيّبُ رسولَ الله ﷺ لِحِلِّه وحُرْمِه. الحُرْمُ، بضم الحاء وسكون الراء: الإحرامُ بالحج، والحِرْمُ، بالكسر: الرجلُ المحرِمُ نفسُه. يقال: أنتَ حلٌّ، وأنتَ حِرْم، والإحرام: مصدرُ أحرَمَ الرجلُ يُحرِمُ إحراماً: إذا أهلَّ بالحجِّ أو العمرة، وباشَرَ أسبابَهما وشروطَهما، مِن خَلْعِ المَخِيط، واجتنابِ الأشياء التي منَعَه الشرعُ منها، كالطِّيب والنِّكاح والصَّيدِ وغيرِ ذلك، والأصلُ فيه المنع، فكأنّ المُحرِمَ مُمتنِعٌ من هذه الأشياء. ومنه حديثُ الصّلاة: «تحريمُها التكبير» كأنّ المصلّيَ بالتكبيرِ والدخولِ في الصّلاةِ صار ممنوعاً من الكلام والأفعالِ الخارجة عن كلام الصّلاة وأفعالِها، فقيل للتكبير: تحريم، لمنْعِه المصلّيَ من ذلك، ولهذا سُمّيتْ تكبيرةَ الإحرام، أي: الإحرامِ بالصلاة.

وفي الحديث: «لا تسافرِ المرأةُ إلاَّ معَ ذي مَحْرَم منها»، وفي رواية: «معَ ذي حُرْمةٍ منها». ذو المَحْرَم: مَن لا يحِلُّ له نكاحُها من الأقارب، كالأبِ والابنِ والأخِ والعمِّ ومَن يجري مَجْراهم.

وفي الحديث: «إن عِياضَ بنَ حمارٍ المُجَاشِعيَّ كان حِرْميَّ رسولِ الله ﷺ، فكان إذا حجَّ طافَ في ثيابِه». كان أشرافُ العربِ الذين كانوا يتحمَّسونَ في دينِهم ـ أي يتشدّدون ـ إذا حجَّ أحدُهم لم يأكُلْ إلاَّ طعامَ رجُلٍ منَ الحرم، ولم يطُفْ إلاَّ في ثيابِه، فكان لكلِّ شريفٍ من أشرافِهم رجلٌ من قريش، فيكونُ كلُّ واحدٍ منهما حِرْميَّ صاحبِه. كما يقال: كرِيٌّ، للمُكْرِي والمُكتَري، والنَّسْبُ في الناسِ إلىٰ الحَرَم: حِرْمِيٌّ بكسر الحاء وسكون الراء، فيقال: رجلٌ حِرْميّ، فإذا كان في غيرِ الناس قالوا: ثوبٌ حَرَميٌّ. قال النابغةُ الذُّبياني، في نسْبِ الناس إلىٰ الحرَم:

لِصَوْتِ حِرْميّةٍ قالتْ وقد رحَلُوا   هل في مُخفِّكُمُ مَن يبتغي أدَما

والمخِفُّ: الخفيف المتاع.

وفي حديث عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يبدو إلىٰ هذه التِّلاع، وإنه أرادَ البَداوةَ مَرَّةً فأرسَلَ إليَّ ناقةً مُحرَّمَةً مِن إبلِ الصَّدَقة. الناقةُ المحرَّمةُ: هي التي لم تُرْكَبْ ولم تُذَلَّلْ. ومنه سَوْطٌ مُحرَّم، وهو الذي لم يَكمُلْ دِباغُه، ويقال أيضاً: أعرابيٌّ محرَّم، إذا لم يُخالِطْ أهلَ الحضَر.

[ح ر ى]

يقول عزَّ وجلّ، مُخبراً عن الجنّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]. قولُه تعالىٰ: ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: قصَدوا طريقَ الحقّ، واجتَهدوا في طلبه. التحري: القصْدُ والاجتهادُ في الطلب، والعزمُ علىٰ تخصيص الشيءِ بالفعل والقول. ومنه الحديث: «تحرَّوْا ليلةَ القدْر في العشرِ الأواخر»، أي: تعمَّدوا طلبَها فيها، ومنه أيضاً: «لا تتحَرَّوْا بالصّلاةِ طلوعَ الشمس وغروبَها». وإنما نُهيَ عن الصلاةِ في هذينِ الوقتيْن لترْكِ مُشابَهةِ الكفار، فإنهم كانوا يسجُدون للشمس فيهما، ومِن هذا النهيِ قولُه ﷺ: «إذا طلَعَ حاجبُ الشمس فدَعُوا الصّلاةَ حتىٰ تبرُز، وإذا غاب حاجبُ الشمس فدَعُوا الصّلاةَ حتى تغيب». وقوله: «لا تَحَيَّنُوا بصَلاتِكم طلوعَ الشمس ولا غُروبَها، فإنها تطلُعُ بينَ قَرْنَيْ شيطان، أو الشيطان».

وكأنّ التحرِّيَ مأخوذٌ من الحَرَا، بفتح الحاء والقصر، وهُو: جَنابُ الرجلِ وناحيتُه، يقال: اذهَبْ فلا أراكَ بِحَرايْ، ويقال: حَرَىٰ الشيءَ، أي: قصَدَ حَراه، أي: جانبَه، وفي حديث رجل مِن جُهَيْنة: لم يكنْ زيدُ بنُ خالد يُقرِّبُه بحَرَاه سُخْطاً لله عزّ وجَلّ».

وفي الحديـث: كان رسولُ الله ﷺ قبـلَ أن يُوحـىٰ إليه يأتي حِرَاءً فيتَحَنَّثُ فيه الليالـي. حِراءٌ: جبلٌ بمكـةَ معـروف، وهـو مذكَّرٌ مصروف، ومنهـم من يؤنِّثُه فلا يصرِفُه. قال الزمخشريُّ: وللناس فيه ثلاث لَحْنات: يفتَحون حاءَه وهي مكسورة، ويَقْصُـرون ألفَـه وهي ممدودةٌ، ويُميلُونَهـا ولا يَسُـوغُ فيها الإمالة؛ لأنَّ الراء سبَقَتِ الألفَ مفتوحةً، وهي حرفٌ مكرَّر، فقامـت مقامَ الحرفِ المستَعْلِي، ومِثلُ: رافعٍ، وراشدٍ لا يُمال. انتهىٰ كلامُ الزمخشري، وهو مسلوخٌ من كلام أبي عمرَ الزاهدِ كما ذكَرَ الخطابيُّ في «غريب الحديث» له.

وجاء في الحديث: «إنّ هذا لَحَرِيٌّ إن خطَبَ أن يُنكَح» يقال: فلانٌ حريٌّ بكذا وحَـرَىً بكذا، وبالحَرَىٰ أن يكونَ كـذا، أي: جديرٌ وخَلِيـق. وحَرِيٌّ يُثَـنَّىٰ ويُجمَع ويؤنَّـث، تقول: حَرِيَّان وحَرِيُّون وحَرِيّة وأَحْرِيَاءُ، وهنَّ حرِيَّاتٌ وحَرَايا، أمّا حَرَىً بالتخفيف، فيقَعُ ـ علىٰ الواحد والاثنينِ والجمعِ والمذكَّرِ والمؤنث ـ بلفظٍ واحدٍ وعلىٰ حالة واحدة؛ لأنه مصدر، ومنه الحديث: «إذا كان الرجلُ يدعو في شَبيبتِهِ ثم أصابَه أمرٌ بعدَما كبِرَ فبالحَرَىٰ أن يُستجابَ له».

وفي حديث وفاةِ النبيِّ ﷺ: فما زال جسمُه يَحْرىٰ» أي: ينقُص. يقال: حَرَىٰ الشيءُ يَحْرِي حَرْياً: إذا رجَعَ ونقَص، وأحراه الزَّمانُ، وفي حديث أبي بكرٍ رضي الله عنه: أنه لمّا مات رسـولُ الله ﷺ أصابَه حُزنٌ شديد، فما زال يَحْرِي بدنُه حتى لحِقَ بالله عزَّ وجل». يَحْرِي بدنُه، أي: يذوبُ ويَنْقُص، قال الأصمعيُّ: يقال: رَماه اللّهُ بأفعـىٰ حاريةٍ، وذلك أنها إذا طـال عمرُها نقَصَ جسمُهـا، وهي أخبَـثُ ما تكـون. ويقال: إنه ليَحْرِي كما يَحْرِي القمر: إذا نقَصَ شيئاً بعدَ شيء، قال الشاعر:

حتـىٰ كـأنـي خـاتـلٌ قَنَصـاً … والمـرءُ بعـدَ تمـامِـهِ يَحْـرِي

ومن ذلك: حديثُ عمرِو بن عَبَسَةَ وإسلامِه، قال: قدِمتُ مكةَ فإذا رسولُ الله ﷺ حِرَاءٌ عليـه قومُه. حِراءٌ، أي: غِضَـابٌ ذَوُو همٍّ وغمّ، قد انتقَصَهُم أمرُه، وعِيلَ صبرُهم به حتىٰ أثَّرَ في أجسامِهم وانتقَصَهم، ورُوي: جُرَآءُ عليه قومُه. قال النوويُّ

في «شرحه علىٰ مسلم»: بابِ الأوقات التي نُهي عن الصّلاةِ فيها: هكذا هو في جميع الأصول: «جُرآءُ» بالجيم المضمومة، جمْعُ جريءٍ، بالهمز، من الجُرأة، وهي: الإقدامُ والتسلُّط، وذكرهُ الحَميديُّ في «الجمع بين الصحيحين»: «حِرَاءٌ» بالحاءِ المهملةِ المكسورة، ومعناه: غِضابٌ ذوو غمّ، قد عِيل صبرُهم به حتىٰ أثَّر في أجسامِهم، مِن قولِهم: حَرَىٰ جِسمُه يَحْرِي، كضرب يضْرب[1]: إذا نقص من ألم وغيره، والصحيح أنه بالجيم. وذكره ابن الأثير في «النهاية» في مادّتي (جرأ) و(حَرَىٰ) وقال في الأولى: بوزن عُلماء، جمع جريء، أي متسلِّطينَ عليه، غيرَ هائبينَ له، هكذا رواه وشرَحَه بعضُ المتأخّرين، والمعروف: حِراء، بالحاء المهملة.

[ح ز ب]

تدل مادة (حزب) في اللغة علىٰ معنىً واحد، هو تَجمُّعُ الشيء، ومن ذلك الحزب: الجماعةُ من الناس، قال عزَّ مِن قائل: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. وحزْبُ الله: أنصارُه. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]. وحزبُ الشيطان: جندُه وجماعته. قال تقدّست أسماؤُه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقد تحزَّبَ القومُ، أي: صاروا أحزاباً. والأحزاب: الطوائفُ من الناس، جمْع حِزْب. ومنه يومُ الأحزاب، وهو غزوة الخندق. وفي الحديث: «اللهُمَّ اهزِمِ الأحزابَ وزَلْزِلْهم».

وقد تكرَّرَ ذكْرُه في القرآن الكريم. والطائفةُ من كل شيء: حزْبٌ. يقال: قرأ

(١) ورمى يرمي.

حِزْبَه من القرآن. وفي الحديث: «طرَأ عليَّ حِزْبي منَ القرآنِ فأحببْتُ ألاَّ أخرُجَ حتىٰ أقضيَه». قال أبو زكريا الفرّاءُ: الحزبُ: ما يجعَلُه الرجلُ علىٰ نفسه من قراءةٍ أو صلاة. والحِزْبُ: النَّوْبةُ في وُرودِ الماء. وفي حديثِ أوسِ بن حُذيفة: سألتُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ: كيف تُحزِّبونَ القرآن؟ وفي الحديث: كان إذا حزَبَه أمرٌ فَزِعَ إلىٰ الصّلاة، أي: إذا نزَل به مُهمّ، أو أصابَه غمّ، ومنه حديثُ الدعاء: «اللهُمَّ أنت عُدَّتي إن حُزِبْتُ». ويروىٰ: «إن حُرِبْت» بالراء، أي: سُلِبْت، من الحَرَب. وفي حديث عمرَ رضي الله عنه: «الرجالُ ثلاثة: رجلٌ ذو رأي وعقْل، ورجلٌ إذا حزَبَهُ أمرٌ أتىٰ ذا رأيٍ فاستشارَه، ورجُلٌ حائرٌ بائر، لا يأتمِرُ رشَداً، ولا يطيعُ مُرشِداً».

[ح س ب]

يقول ربُّنا عزَّ وجلّ مخاطِباً نبيَّه عليه السّلامُ ومُخبرَه أنه ناصرُه وكافيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. قولُه عز وجل: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك الله. يقال: أحسبني الشيء، أي: كفاني، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦] أي: كافياً. يقال: أعطيتُه فأحسبْتُه، أي: أعطيتُه الكفاية. وهذا قولُ أبي عبيدة، وقال ابنُ قتيبة: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كثيراً. يقال: أحسَبْتُ فلاناً، أي: أكثَرْتُ له العطاء، ومنه قول الشاعرة، وهي امرأةٌ من بني قُشَير:

ونُقْفي وليدَ الحيِّ إن كان جائعاً ... ونُحْسِبُه إن كان ليس بجائعِ

قال ابنُ قتيبة: أي: نُعطيهِ حتىٰ يقول: حَسْبي، وفي قوله تعالىٰ: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. قولان: أحدُهما: حسْبُك اللّهُ وحسْبُك المؤمنون، أي: كافيك اللّهُ وكافيك المؤمنون، والثاني: حسْبُك وحسْبُ مَن اتّبعك منَ المؤمنين اللّهُ، أي: يكفيكُمُ اللّهُ جميعاً.

وقـال تعـالىٰ: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤] أي: كفىٰ بنفسِـك لنفسِـك مُحاسِبـاً. فحسيبٌ هنا: فعيل بمعنىٰ مُفاعِـل، كشريـكٍ وجليس، بمعنىٰ: مشـارك ومجالـس. وقيل: ﴿حَسِيبٗا﴾ أي: حاسباً، فهو فعِيلٌ بمعنىٰ فاعل، مثلَ: صَريـم بمعنىٰ صارم، وقال سيبويه: ضَريبُ القِداح بمعنىٰ ضارِبها.

وقال عزَّ من قائل: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الانعام: ٩٦] أي: إن الشمـسَ والقمَرَ يجريانِ بحسابٍ معلومٍ وفي منازلَ لا يعدُوانِهـا ولا يَحِيـدانِ عنها، وهذا قولُ قَتادة، وقال ابنُ زيدٍ وابن كَيْسان: يعني أنّ بهما تُحسَبُ الأوقاتُ والآجالُ والأعمار، ولولا الليلُ والنهار، والشمسُ والقمر، لم يدْرِ أحَـدٌ كيف يَحْسُب؛ لأن الدهـرَ يكونُ كلُّه ليـلاً أو نهاراً. وقـال الأخفـش: الحُسْبان: جمـعُ الحساب، مثلُ شِهـاب وشُهبان. وقد اختلفت أقوالُ العلماءِ في الحُسْبـانِ من قوله تعالىٰ: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]، فقيـل: الحُسْبـانُ: مصدرٌ بمعنىٰ الحساب، كالغُفران، أي: مقداراً قدَّره اللّهُ عليها ووقَعَ في حسابِـه سُبحانَه، وهُو الحُكْـمُ بتخريـبِ هذه الجنّـةِ التـي افتَخَر بها الرجـلُ علىٰ صاحبه، وقال أبو إسحـاقَ الزجـاج: الحُسْبـان: منَ الحساب، أي: يُرسلَ عليها عذابَ الحساب، هو حِسابُ ما كسبتْ يداك. وقال الأخفش: حُسْباناً، أي: مَراميَ من السماء، واحدُها حُسْبانة، وكذا قال أبو عبيدةَ وابنُ قُتيبة، وقال ابنُ الأعـرابيّ: الحُسْبانة: السَّحابة، والحُسْبانة: الوِسادة، والحُسْبانة: الصاعقة. وقال النضْرُ بنُ شُميل: الحُسْبان: سِهامٌ يَرْمي بها الرجلُ في جوفِ قَصَبةٍ تَنْزِعُ في قوس، ثم يُرمىٰ بعشرين منها دَفْعـةً. والمعنىٰ: يُرسلُ عليها مَراميَ من عذابِه، إمّا بَرَدٌ وإما حجـارةٌ أو غيرُهما ممّا يشـاءُ من أنواعِ العذاب، ومن ذلك قـولُ أبي زياد: «أصاب الأرضَ حسبانٌ». أي: جراد.

وقولـه تعالـىٰ: ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٧] أي: بغير تقْتيـرٍ

وتضييـق، وهذا كقـول القائل: فلانٌ يُنفقُ بغيـر حسـاب، أي: يوسِّعُ النفقةَ ولا يَحْسُبُها، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] يجوز أن يكون من: حَسِبْتُ، أي: ظَنَنْتُ، أي: من حيثُ لا يُقَدِّرُه ولا يظنُّه، ويجوزُ أن يكونَ من حَسَبْتُ أحسُبُ، أي: من حيث لم يكنْ في حسابِه، يقالُ في الظنّ: حسِبَ يحْسَبُ ويحسِبُ، وفي العَدَّ والحساب: حسِبَ يَحْسُب.

وقد جاء في هاتينِ الآيتيْن أحاديثُ وآثارٌ، منها: ما أخرجَه ابنُ مَرْدَوَيْهِ من طريق الكلْبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال: جاء عوفُ بن مـالكٍ الأشجعـيُّ إلىٰ رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إنّ ابني أسرَهُ العـدوُّ وجزِعَتْ أمُّه، فما تأمرُني؟ قال: «آمُرُكَ وإياها أن تستكثِرا مِن قولِ: لا حوْلَ ولا قوّةَ إلا بالله»، فقالـت المـرأة: نِعْمَ ما أمَرَك. فجعَلا يُكثِرانِ منها، فتغفّلَ عنـه العدوّ، فاسْتاقَ غنَمَهم، فجاء به إلىٰ أبيه، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ، عن عائشةَ رضي الله عنها في الآية، قالت: يكفيه همَّ الدنيا وغمَّها. وأخـرج الإمامُ أحمدُ وغيرُه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: جعَلَ رسولُ الله ﷺ يتْلو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ فجعـل يردِّدُهـا حتىٰ نعَسْتُ، ثـم قال: «يا أبـا ذرّ، لو أنّ الناسَ كلَّهـم أخَـذوا بها لكفتْهم». وأخرج ابنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابن مسعود، في قولِه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾. قـال: مَخْرَجُه: أن يعلَمَ أنه مِن قِبَلِ الله، وأن اللّهَ هُو الذي يعطيـه، وهو يمنَعُه، وهُو يبتليه، وهُو يُعافيه، وهُو يدفعُ عنه. وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾. قال: من حيثُ لا يدري. وروىٰ الإمامُ أحمد، عن ثَوْبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ العبـدَ ليُحْرَمُ الرزقَ بالذنبِ يُصيبُه، ولا يرُدُّ القدَرَ إلا الدّعاء، ولا يزيدُ في العمُرِ إلا البرّ»، وعن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِن انقطَـعَ إلـىٰ اللّهِ كفاه اللّهُ كـلَّ مُؤْنة، ورزَقَه من حيثُ لا يحتسِب، ومن انقطَعَ إلىٰ الدنيا وكَلَه إليها». اللهم انفَعْنا بهذا الهَدْي النبويِّ الكريم وارزُقْنا

اتّباعَه والتأَسِّيَ به.

وجاء في أسماءِ الله تعالىٰ: «الحسيب»، وهُو الكافي: فعيلٌ بمعنىٰ مُفْعِل، مِن: أحْسَبَني الشيءُ: إذا كفاني. يقال: أحْسَبْتُه وحسَّبْتُه، أي: أعطيْتُه ما يُرضيهِ حتىٰ يقول: حَسْبي.

وفي حديث عبد الله بن عمرٍو بن العاص رضي الله عنهما: قال له النبي ﷺ: «يَحْسِبُك أن تصومَ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيام» أي: يكفيك، قال ابن الأثير: ولو رُوي: « بحَسْبِك أن تصومَ» أي: كفايتُك، أو كافيك، كقولهم: بحَسْبِك قولُ السُّوء، والباءُ زائدة، لكان وجْهاً.

وفي الحديث: «الحَسَبُ: المال، والكرمُ: التقوىٰ». الحسَبُ في الأصل: الشرفُ بالآباءِ وما يعُدُّه الناسُ من مَفاخرِهم. وقيل: الحسَبُ والكرمُ يكونانِ وإن لم يكنْ له آباءٌ لهم شرف، والشرفُ والمجدُ لا يكونانِ إلاّ بالآباء، فجعَلَ المالَ بمنزلةِ شرَفِ النفْسِ أو الآباء، والمعنىٰ: أن الفقيرَ ذا الحسَبِ لا يُوقَّرُ ولا يُحتفَلُ به، والغنيَّ الذي لا حسَبَ له يوقَّرُ ويَجِلُّ في العيون، وهذا كما جاء في الحديث: «أحسابُ أهلِ الدنيا المال»، ورُوي أنّ سفيانَ بنَ عُيَيْنةَ قال لوكيع بن الجراحِ وهُو يُذاكرُه: ما معنىٰ قولِ النبيِّ ﷺ: «الحَسَبُ المال»؟ فقال وكيعٌ: أراد أن الرجلَ إذا كان ذا مال عظَّمه الناس. فقال سفيان: ليس كذلك، إنما هو قولُ أهل المدينة: إذا لم يجدْ نفقةَ زوجتِه فُرِّقَ بينَهما. قال أبو سليمانَ الخطابيّ: ومما يُحتجُّ به في هذا الباب حديثُ أبي هريرة، أن رسولَ الله ﷺ قال: «اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ، ولْيبدَأْ أحَدُكم بمَن يَعُول. تقولُ امرأةُ الرجُل: أطعِمْني أو طَلِّقْني. يقولُ ولدُه: إلىٰ مَن تَكِلُني؟ يقولُ خادمُه: استعْمِلْني وأطعِمْني».

وفي الحديث: «حسَبُ المرءِ خُلُقُه، وكرَمُه دِينُه». ومن ذلك حديثُ عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه: «حسَبُ المرءِ دِينُه، ومروءتُه خلُقُه». وفي الحديث: «تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالِها وجمالِها وحسَبِها ودِينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ ترِبَتْ يداك».

قيل: الحسَبُ هاهنا: الفَعالُ الحسَن. ومنه حديثُ وفدِ هَوازن: قال لهم: «اختاروا إحدىٰ الطائفتيْن: إمّا المال، وإمّا السَّبْي»، فقالوا: أمّا إذْ خيَّرْتَنا بينَ المالِ والحسَب، فإننا نختارُ الحسَب، فاختاروا أبناءهم ونساءهم. أرادوا: أنّ فِكاكَ الأسرىٰ وإيثارَه علىٰ استرجاعِ المالِ حسَبٌ وفَعالٌ حسَن، فهو بالاختيارِ أجدر. وقيل: المرادُ بالحَسَب في هذا الحديث عددُ ذوي القَرابات، مأخوذٌ منَ الحساب، وذلك أنهم إذا افتَخروا عدَّ كلُّ واحدٍ منهم مَناقبَه ومآثرَ آبائه وحَسَبِها، فالحسَبُ: العَدُّ والمعدود.

وفي الحديث: «مَن صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذنْبِه». قولُه: «احتساباً» أي: طلباً لوجْهِ اللّهِ وثوابِه، فالاحتسابُ: منَ الحَسْب، كالاعتدادِ منَ العَدّ، وإنما قيلَ لمَن ينوي بعمَلِه وجْهَ الله: احْتَسَبه؛ لأنّ له حينَئذٍ أن يعتَدَّ عمَلَه، فجُعل في حالِ مباشرةِ الفعلِ كأنه معتَدٌّ به. والحِسْبةُ: اسمٌ من الاحتساب، كالعِدَّة من الاعتداد. والاحتسابُ ــ في الأعمالِ الصّالحةِ وعند المكروهات ــ هو: البِدَارُ إلىٰ طلبِ الأجرِ وتحصيلِه بالتسليم والصبر، أو باستعمال أنواع البرِّ والقيام بها علىٰ الوجْه المرسوم فيها، طلَباً للثواب المرجوِّ منها. ومن ذلك حديثُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه: أيها الناسُ، احتسِبُوا أعمالَكم، فإنّ منِ احتسَبَ عمَلَه كُتِبَ له أجرُ عمَلِه وأجرُ حِسْبتِه». وفي الحديث: «مَن دفَنَ ثلاثةً فصبَرَ عليهم واحتسَبَ وجَبَتْ له الجنة»، أي: احتسب الأجرَ بصبرِه علىٰ مصيبتِه. يقال: احتسَبَ فلانٌ ابناً له: إذا مات كبيراً. فإذا مات صغيراً قيل: افترَطَه. ومعنىٰ احتسب: اعتدَّ مصيبتَه به في جُملةِ بلايا اللّهِ التي يُثابُ علىٰ الصبرِ عليها.

وفي حديث طلحةَ بن عُبيدِ الله: أنه اشترىٰ غلاماً بخمسِ مئةِ درهمٍ وأعتَقَه، فكتب: هذا ما اشترىٰ طلحةُ بنُ عُبيدِ الله مِن فلانِ بن فلانٍ العبشَميِّ، اشترىٰ منه غلامَه بخمسِ مئة درهمٍ بالحسَبِ والطِّيب» أي: بالكرامةِ منَ المشتري والبائع، والرغبةِ وطِيبِ النفْسِ فيهما. يقال: حسَّبْتُ الرجل، أي: أكرمتُه. وحدَّثَ شُعبةُ بنُ

الحجّاج، قال: سمعتُ سِماكَ بنَ حرب يقول: ما حسَّبُوا ضيفَهم، يريد: ما أكرموه. قال الخطابيُّ في حديث طلحة: وقد يجوزُ أن يكونَ أراد بقولِه: «بالحسَبِ والطِّيب» إيفاءَ الثمن، وإعطاءه الكافيَ من القيمة، مِن غيرِ غَبْنٍ أو بَخْسٍ، من قولِك: أحسَبْتُ الرجل: إذا أتيْتَه بما يكفيهِ من طعامٍ أو نحوِه.

وجاء في حديث الأذانِ: أنهم يجتَمِعونَ فيتَحسَّبونَ الصّلاة، فيجيئونَ بلا داعٍ، أي: يتعرَّفونَ ويتطَّلبُونَ وقتَ الصّلاةِ ويتوقّعونَه، فيأتونَ المسجدَ قبلَ أن يسمَعوا الأذان. قال ابنُ الأثير: والمشهور في الرواية: «يَتحيَّنون» منَ الحِين، وهُو الوقت، أي: يطلُبونَ حِينَها.

وفي حديث يحيىٰ بن يعمُر: كان إذا هبَّتِ الريحُ يقول: «لا تجعَلْها حُسْباناً» أي: عذاباً، من قوله تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠].

وفي الحديث: «أفضَلُ العمَلِ مَنْحُ الرِّغاب. لا يعلَمُ حُسْبانَ أجرِها إلاّ اللّهُ عزَّ وجلّ». الحُسْبانُ بضمِّ الحاء: الحساب، يقال: حسَبَ يحسُبُ حُسْباناً وحساباً، والرِّغاب: الإبِلُ الواسعةُ الدَّرّ، الكثيرةُ النفْع، جمع رَغيب، وهو الواسع.

[ح س ر]

يقول ربُّنا عزَّ وجلّ مُخاطِباً نبيّه ﷺ، آمِراً بالاقتصادِ في العيْش، ذامّاً للبُخل، ناهياً عن السَّرَف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وهذا النهيُ يتناول كلَّ مكلَّف، سواءٌ كان الخطابُ للنبيِّ ﷺ تعريضاً لأُمته وتعليماً لهم، أوِ الخطابُ لكلِّ مَن يصلُحُ له منَ المكلَّفين، والمرادُ: النهيُ للإنسان بأن يُمسِكَ إمساكاً يصيرُ به مُضيّقاً علىٰ نفسِه وعلىٰ أهلِه، وألا يوسِّعَ

في الإنفاقِ توسيعاً لا حاجةَ إليه بحيثُ يكونُ به مُسرِفاً، فهو نَهْيٌ عن جانبَي: الإفراطِ والتفريط، ويتحصّلُ من ذلك مشروعيةُ التوسط، وهُو العَدْلُ الذي ندَبَ إليه الشارعُ الحكيم، وجرىٰ علىٰ ألسنةِ الحكماء والشعراء، ومِن شعر أبي سليمانَ الخطابيّ:

تسامَحْ ولا تستَوْفِ حقَّك كلَّه ... وأبْقِ، فلم يستَقْصِ قطُّ كريمُ
ولا تَغْلُ في شيءٍ منَ الأمرِ واقتصِدْ ... كلا طَرَفيْ قصْدِ الأمورِ ذَميمُ

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ أي: مُنقطِعاً عن النفَقةِ والتصرُّف، كما يكون البعيرُ الحَسِير، وهُو الذي ذهبَتْ قوّتُه، فلا انبعاثَ به، أي: لا قدرةَ له علىٰ الحركة والسير.

وهذه المادة (حسر) تدلُّ في أصل اللغة علىٰ معنىً واحدٍ هو: كشْفُ الشيء، يقال: حسَرْتُ عن الذِّراع، أي: كشَفتُه، والحاسر: الذي لا درعَ عليه، ويقال: حسَرْتُ البيت، أي: كنَسْتُه، والانحسار: الانكشاف، وفلانٌ كريمُ المحْسَر، أي: كريمُ المَخْبر، قال الشاعر:

أرِقَتْ فما أدري أسُقْمٌ طِبُّها ... أم مِن فِراقِ أخٍ كريمِ المَحْسَرِ

أي: إذا كشَفْتَ عن أخلاقِه وجَدتَ هناك رجلاً كريماً.

وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٤]، أي: كليلٌ مُنقطِع، أي: قد أعيا مِن قبْلُ أن يرىٰ في السماءِ خللاً، فكأنّ قُوىٰ بصرِه قد انكشفَتْ عنه وفارقَتْه، ويقال: حسَر[١] بصرُه يحسِرُ حسوراً، أي: كلَّ وانقطَعَ نظرُه من طول مدىً وما أشبه ذلك، فهو حسيرٌ، ومحسورٌ أيضاً. قال قيسُ بنُ خُويلدٍ الهُذَليُّ يصفُ ناقة:

---

(١) كضرب.

إنّ الحسيرَ بها داءٌ مُخامِرُها   فشَطْرَها نظَرُ العينيْنِ محسورُ

قال الجوهريُّ: نَصَبَ «شطرَها» على الظرف، أي: نحوَها. وقال آخر:

نظَرْتُ إليها بالمُحصَّبِ من مِنىً   فعاد إليَّ الطَّرْفُ وهْوَ حسيرُ

ويقال: استحْسَر الرجُل، أي: أعْيا وضَعُف، وهو أبلغُ من حَسِر[1]، ومنه قولُه تعالىٰ في صفة الملائكة: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، أي: لا يَعْيَونَ ولا يتعبون، قال أبو إسحاقَ الزجاج: معنىٰ الآية أنّ هؤلاءِ ــ الذين ذكَرْتُم أنهم أولادُ الله ــ عبادُ الله، لا يأنَفُونَ عن عبادتِه، ولا يتعظَّمُون عنها، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والحسْرةُ: الغمُّ الذي يركَبُ الرجُلَ علىٰ ما فاتَه، والنّدَمُ عليه، كأنه انحسَرَ عنه الجهلُ الذي حمَلَه علىٰ ما ارتكبَه، أوِ انحسَرَتْ قُواه من فَرْطِ الغمّ، أو أدركَه إعياءٌ عن تدارُكِ ما فرَّط فيه، قال تعالىٰ: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أي: يا ويْلَ العباد، وقال قتادة: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أي: يا حسرةَ العبادِ علىٰ أنفسِهم، علىٰ ما ضيَّعتْ من أمر الله، وفرَّطتْ في جنبِ الله، والمعنىٰ: يا حسرتَهم وندامتَهم يومَ القيامةِ إذا عايَنوا العذاب، كيف كذَّبوا رسُلَ الله، وخالفوا أمرَ الله؟ وقال أبو منصور الأزهري: قد عُلم أنّ الحسرةَ لا تُدعَىٰ أي: لا تُنادىٰ، ودعاؤها تنبيهٌ للمخاطَبين.

ومن غريب هذه المادة في الحديث: ما جاء في حديث عائشةَ رضي الله عنها: «وسُئلَتْ عن امرأةٍ طلَّقها زوجُها، فتزوّجَها رجلٌ، فتحسَّرتْ بينَ يديْه» أي: قعَدَتْ

---

(١) كفرح.

حاسرةً مكشوفةَ الوجه. وفي الحديث : «لا تقومُ الساعةُ حتىٰ يحسُرَ[١] الفراتُ عن جبلٍ من ذهب»، أي: يَكْشِف. يقال: حسَرْتُ العِمامةَ عن رأسي، والثوبَ عن بدني، أي: كشَفْتُهما. وفي حديث فتح مكةَ، أنّ النبيَّ ﷺ بعَثَ الزُّبيرَ بنَ العوام علىٰ إحدىٰ المُجَنِّبَتَيْنِ، وبعَثَ خالدَ بنَ الوليد علىٰ اليُسْرَىٰ، وبعَثَ أبا عُبيدةَ علىٰ الحُسَّر. الحُسَّرُ: جمعُ حاسر، وهُو: الذي لا درعَ عليه ولا مِغْفر. وهذا بوزن شاهدٍ وشُهَّد. وفي حديث عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «ابنُوا المساجدَ حُسَّراً، فإنّ ذلك سِيْماءُ المسلمين»، أي: مكشوفةَ الجُدُر، لا شُرَفَ لها. هذا شرحُ ابن الأثير، وتعقَّبه الحافظُ السيوطيُّ في «الدّرِّ النَّثير» فقال: إنّما الحديث: «أبنُوا المساجدَ حُسَّراً ومقنَّعين» أي: مُغَطاةً رءوسُكم بالقناع ومكشَّفةً منه، كذا في «كامل» ابن عَدِيّ و«تاريخ ابن عساكر».

وفي الحديث: «الحسيرُ لا يُعْقَر» أي: لا يجوز للغازي إذا حسَرَتْ دابّتُه وأعْيَتْ أن يَعقِرَها مخافةَ أن يأخُذَها العدوّ، ولكن يُسَيِّبُها.

وفي الحديث: «أُدعوا اللّهَ عزّ وجلّ ولا تسْتَحْسِروا» أي: لا تملُّوا، وهذا من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]. وقد شرحتُه آنفاً.

[ح س س]

يقول عزّ وجلّ في شأنِ ما حدَثَ للمسلمينَ يومَ أُحُد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ

(١) كنصر.

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

رويَ أنّ هذه الآيةَ الكريمة لمّا قال بعضُ المسلمين: مِن أينَ أصابَنا هذا وقد وعَدَنا اللّهُ النصر؟ وذلك أنه كان الظفَرُ لهم في الابتداء، حتىٰ قتَلوا صاحبَ لواءِ المشركين وتسعةَ نفَرٍ بعدَه، فلمّا اشتغلوا بالغنيمة، وترَكَ الرُّماةُ مركزَهم طلباً للغنيمة، كان ذلك سببَ الهزيمة. فقولُه تعالىٰ: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم وتستأصلونَهم. والحَسُّ: الاستئصالُ بالقتل، يقال: جرادٌ محسوسٌ: إذا قتَلَه البرد، وسَنَةٌ حَسوسٌ، أي: جَدْبةٌ تأكُلُ كلَّ شيء. ويقال: إن البردَ مَحَسَّةٌ للنَّبت، أي: إنه يَحْرقُه ويذهبُ به، قيل: وأصلُ ذلك من الحِسّ، الّذي هوالإدراكُ بالحاسّة، فمعنىٰ حَسَّه: أذهَبَ حِسَّهُ بالقتل. قال الشاعر:

حَسَسْناهمُ بالسَّيفِ حَسّاً فأصبحَتْ ... بقيَّتُهمْ قد شُرِّدوا وتبدَّدُوا

وقال جرير:

تحُسُّهمُ السيوفُ كما تسامَىٰ ... حريقُ النارِ في الأَجَمِ الحصيدِ

وجاء في الحديث: «حُسُّوهم بالسّيف حسّاً»، ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لقد شفىٰ وَحاوِحَ صدري حَسُّكُم إيّاهم بالنِّصال» وحديثه الآخر: «كما أزالوكم حسّاً بالنِّصال»، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أنها بعثت إلىٰ النبي ﷺ بجرادٍ محسوس، أي: قتله البرد، وقيل: هو المطبوخ الذي مسَّتْه النار.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، قوله: ﴿أَحَسَّ﴾ أي: استشعر منهم التصميم علىٰ الكفر والاستمرار علىٰ الضلال. وقال الزجاج: أحسَّ: علِمَ ووَجَد، وقال أبو عبيدة: معنىٰ أحسَّ: عرفَ، وأصلُ ذلك وجودُ الشيء بالحاسَّة، والإحساسُ: العلم بالشيء عن طريق حاسَّةٍ من الحواسِّ الخمس، وقصره أبو عبيد الهرويُّ في الآية الكريمة علىٰ الإدراك

بحاسّةِ البصر، فقال: في «شرحه»: أي: عَلِمه، وهو في اللغة: أبصره، ثم وُضع موضعَ العلم والوجود، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] أي: هل ترىٰ منهم من أحد؟ وروي هذا عن سعيد بن جبير رضي اللّه عنه، ويقال: هل أحسستَ فلاناً؟ أي: هل رأيتَه؟ وفي الحديث: أنه قال لرجل: «متى أحْسَسْتَ أمَّ مِلْدَم»؟ أي: متىٰ وجدْتَ مسَّ الحُمَّىٰ؟ قال ابن الأثير: والإحساسُ: العلمُ بالحواسّ، وهي مشاعرُ الإنسان، كالعين والأذن والأنف واللسان واليد.

وقال تعالىٰ في شأن السعداء من عباده الذين باعد بينهم وبين جهنم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ــ ١٠٢]، قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حِسَّها وحركة تلهُّبها، والحسيسُ والحسُّ: الحركة، ومنه الحديث: أنه كان في مسجد الخَيْف، فسمع حِسَّ حَيَّة، أي: حركتها وصوتَ مَشْيها. وقال الإمام الحربيّ: الحِسّ: الحسيسُ يمرُّ بك قريباً فتسمعه ولا تراه.

وقال تعالىٰ مخبراً عن نبيّه يعقوب عليه السلام حين ندَبَ بنيه للذهاب في الأرض، ليستعلموا أخبار يوسف وأخيه: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. قوله: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي: اطلبوا علم خبر يوسف. وقال بعضُ اللغويين: التحسسُ بالحاء في الخير، والتجسُّس بالجيم في الشرّ، وقيل: التجسّسُ: بالجيم أن يطلبه لغيره، والتحسّس بالحاء: أن يطلبه لنفسه، وقيل: معناهما واحدٌ في تطلّب معرفة الأخبار، ومنه الحديث: «لا تَحَسَّسُوا ولا تجسَّسوا»، والتفسير الأخير للحربي، وقال ابن الأنباري: إنما نَسَق ــ أي عطف ــ أحدهما علىٰ الآخر لاختلاف اللفظين، كما قالوا: بُعداً وسُحْقاً.

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه مرَّ بامرأةٍ قد ولدت، فدعا لها بشَرْبةٍ من سويق، وقال: اشربي هذا فإنه يقطع الحِسّ، قال الأصمعيُّ: هو وجعٌ

يأخذ المرأة عند الولادة، زاد ابنُ الأثير: وبعدها.

وفي حديث زيد بن صُوحان، حين ارتُثَّ جريحاً يوم الجمل، قال: ادْفِنوني في ثيابي ولا تحُسُّوا عني تُراباً. قال أبو عبيد: يقول: لا تنفُضُوه، ومن هذا قيل: حسَسْتُ الدابةَ أحسُّها، إنما هو نفضُك التراب عنها. ومنه حديثُ يحيىٰ بنِ عباد: «ما من ليلة أو قريةٍ إلاّ وفيها مَلَكٌ يَحُسُّ عن ظُهورِ دوابِّ الغُزاة الكلال» أي: يُذهبُ عنها التعبَ بحَسِّها وإسقاط التراب عنها.

وفي الحديث: أنه وضع يدَه في البُرْمة ليأكل فاحترقتْ أصابعُه، فقال: «حَسِّ». حَسِّ، بكسر السين والتشديد: كلمةٌ يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضَّه وأعرقه غفلةً، كالجمرة والضَّرْبة ونحوهما. ومنه حديث طلحة رضي الله عنه، حين قُطعتْ أصابعه يوم أحد، فقال: حَسِّ، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتَ: باسم الله لرفعَتْك الملائكة والناسُ ينظرون»، وكان بعض الصالحين يمُدُّ يده إلىٰ شعلة نارٍ، فإذا لذعتْها قال: حسِّ حسِّ، كيف صبرُكِ علىٰ نار جهنم؟ اللهمَّ أجرنا من النار وعذابِ النار، واكتبنا مع الشاهدين.

[ح س م]

يقول ربُّنا عزّ وجل في شأن عادٍ وإهلاكهم بالريح العاتية التي أخذَتْهم واستأصلتهم: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. قوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي: متتابعة، وقال أبومنصور الأزهري: أراد متتابعة لم ينقطع أولها عن آخرها كما يُتابَعُ الكيُّ علىٰ المقطوع ليحسِمَ دمَه، أي: يقْطعَه، ثم قيل لكلِّ شيء تُوبع: حاسِمٌ، وجمعه حُسُوم، مثل شاهدٍ وشهود. وقال أبو إسحاق الزجاج: الذي توجبه اللغة في معنىٰ قوله:

﴿حُسُومًا﴾ أي تَحسِمهم حسوماً، تُفْنيهم وتُذهبهم، وقال النضرُ بن شميل: حسمتهم: قطعتهم وأهلكتهم، وقال أبو زكريا الفراء: الحُسُوم: الاتباع. من حَسْم الداء، وهو الكيُّ، لأن صاحبهُ يكوىٰ بالمِكواة، ثم يُتابَعُ ذلك عليه، ومنه قول أبي دؤاد الإيادي:

يفـرِّق بينهـمْ زمـنٌ طـويـلٌ تتـابَـعُ فيـهِ أعـواماً حُسُـومـا

وقال المبرد: هو من قولك: حسمتُ الشيء: إذا قطعتَه وفصلتَه عن غيره. وقيل: الحسم: الاستئصال. وقيل للسيف: حُسام؛ لأنه يَحسِمُ العدوّ، أي: يقطعه عما يريده من بلوغ عداوته. والمعنىٰ أن هذه الريح التي أرسلها الله على قوم عاد حسمتهم، أي: قطعتهم وأذهبتهم، ومنه قول الشاعر:

فـأرسلْـتَ ريحـاً دبـوراً عقيمـا فدارتْ عليهم، فكانت حُسوما

وقال الليث: حسوماً، أي: شؤماً، أي تَحْسِمُ عنهم كل خير، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

وهذه المادة (حسم) تدلُّ علىٰ أصلٍ واحدٍ في اللغة، هو قطع الشيء عن آخره، والحَسْمُ كما سبق: أن تقطع عِرْقاً وتكويَـه بالنار كي لا يسيل دمُه، ولذلك يقال: احسِمْ عنك هذا الأمر، أي: اقطعه واكْفِه نفسـك، ويقـال للصبي السيىء الغذاء: محسوم. كأنه قُطع نماؤُه لمّا حُسِم غذاؤه.

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ كوىٰ سعدَ بن معاذ في أكحَلِه ثم حَسَمه، أي: قطع الدمَ عنه بالكيّ. والأكحل: عِرقٌ في وسط الذراع، ومنه الحديث: أنه أُتيَ بسارقٍ فقال: «اقطعوه ثم احسِموه» أي: اقطعـوا يدَه ثم اكووها لينقطع الدم، ومن ذلك أيضـاً الحديث: «عليكم بالصـوم فإنه مَحْسَمـةٌ للعِرْق» أي: مَقْطعةٌ للنكاح والشهوة، والمحسُومُ في الرضاع: هو الذي حسمتْه أمُّه رَضاعَه وغذاءَه، أي: قطعتْه عنه.

[ح س ن]

تدل مادةُ (حسن) في اللغة علىٰ معنًى واحد، هو ضِدُّ القُبْح، وقال الراغب في «مفرداتـه»: الحُسْنُ: عبارةٌ عن كلِّ مُبهِجٍ مرغـوبٍ فيه، وذلك ثـلاثـة أضـرب: مستحسنٌ من جهة العقل، ومستحسنٌ من جهة الهوىٰ، ومستحسنٌ من جهة الحسّ.

وقد تصرفت هذه المادة في القرآن الكريم والحديث إلىٰ استعمالات كثيرة تعود إلىٰ هذا المعنىٰ الكلّيّ. قال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١]، أي: نعْمـة، وقـولـه: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، أي: غنيمـةٌ وخِصب، ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، أي: جَدْبٌ ومحل.

وقوله تعالىٰ مخاطباً نبيَّه موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، أي بأحسن ما في الألواح، أو التوارة، بما أجْرُه أكثرُ من غيره، وهو مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر:٥٥]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ [الزمر: ١٨]، ومن الأحسن في هذه الآيات: الصبرُ علىٰ الغير، والعفوُ عنـه، والعمـل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفريضة دون النافلة، وفعلُ المأمور به، وتركُ المنهيّ عنه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، يعني الظفر أو الشهـادة. والحسنىٰ تأنيث الأحسن، وأنَّثهما ــ مع أن فيهما مذكراً وهو الظفر ــ لأنه أراد الخَصْلتين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحُسنىٰ: هي الجنـة، والزيادة: هي النظر إلىٰ وجـه الله تبارك وتعالىٰ. وأخرج أحمد ومسلمٌ والترمذيّ وابن ماجه وغيرهم من أصحاب «السُّنن»، عن صُهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾، وقال: «إذا دخل أهلُ

الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادىٰ منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزَكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّلْ موازيننا؟ ألم يبيّضْ وجوهنا، ويُدخِلْنا الجنة، ويزحْزِحنا عن النار؟» قال: «فيَكشِفُ لهم الحجابَ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إليه، ولا أقرَّ لأعينهم». وأخرج ابن جرير وغيره، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يبعث يومَ القيامة منادياً ينادي بصوتٍ يسمعه أوَّلُهم وآخرُهم: إن الله وعدكمُ الحسنىٰ وزيادة، فالحسنىٰ: الجنة، والزيادة النظرُ إلىٰ وجه الرحمن عزّ وجل».

ورُوي أن أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: «الذين أحسنوا: أهلُ التوحيد، والحسنىٰ: الجنة، والزيادة: النظر إلىٰ وجه الله». اللهم اجعلنا من عبادك المحسنين، أهلِ التوحيد، وارزقنا الجنة، ومتِّعْنا بالنظر إلىٰ وجهك الكريم.

يقول عز من قائل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، قيل: الحسنات هنا: الصلواتُ الخمس تكفِّر ما بينها، وقيل: المراد: الحسناتُ علىٰ العموم، ومن جُملتها بل عِمادُها الصلاة، يُذهبْن السيئات علىٰ العموم، وقيل: المراد بالسيئات: الصغائر. ومعنىٰ يُذْهبن السيئات: يكفِّرنْها حتىٰ كأنها لم تكن.

وقد جاءت آثارٌ كثيرة دالةٌ علىٰ أن المراد بالحسنات هنا الصلاة خاصةً، منها ما رواه الإمام أحمد وأهل «السنن»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحدٌ استحلفتُه، فإذا حلف لي صدقتُه، وحدثني أبو بكر ــ وصدق أبو بكر ــ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفِر له»، وفي «الصحيحين»، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضّأ وضوئي

هذا ثم صلَّىٰ ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسه، غُفر له ما تقدّم من ذنبه». وروىٰ أبو هريـرة رضي الله عنه، أن رسـول الله ﷺ قال: «الصلـواتُ الخمـس والجمعـةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان مكفِّراتٌ لما بينهن ما اجتُنبت الكبائر».

وروىٰ الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطـي الدنيا من يحبُّ ومن لا يُحبّ، ولا يعطي الدِّينَ إلاَّ من أحبّ، فمن أعطاه الله الدِّيـنَ فقد أحبه. والذي نفسي بيده، لا يُسلم عبدٌ حتىٰ يُسلمَ قلبُه ولسانُه، ولا يؤمنُ حتىٰ يأمنَ جارُه بوائقَه»، قال: قلنا: وما بوائقُهُ يا نبيّ الله؟ قال: «غِشُّه وظلمُه. ولا يكسـبُ عبـدٌ مالاً حراماً فينفقُ منه فيبارَكُ له فيه، ولا يتصدّقُ فيُقبلَ منه، ولا يتركُه خلـفَ ظهره إلا كان زادَه إلىٰ النار، إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء، ولكن يمحو السيىء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

وروىٰ ابن جرير، عن أبي اليُسْر كعب بن عمرو الأنصاريّ، قال: أتتني امرأةٌ تبتاع منّي بدرهم تمراً، فقلت: إن في البيت تمراً أجودَ من هذا، فدخلتْ فأهوَيْتُ إليها فقبّلتُهـا، فأتيت عمر ــ رضي الله عنه ــ فسألتـه فقـال: اتق اللّهَ واستر علىٰ نفسك، ولا تخبرنَّ أحداً، فلم أصبر حتىٰ أتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته، فقال: «أخَلَفْتَ رجلاً غازياً في سبيل الله بمثل هذا؟» حتىٰ ظننت أني من أهل النار، حتىٰ تمنيتُ أني أسلمتُ ساعتَئذ، فأطرق رسول الله ﷺ ساعةً، فنزل جبريل، فقال: أبا اليُسْر! فجئتُ، فقرأ عليَّ رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]. فقال إنسان: يا رسول الله، أله خاصّـةً أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامـة»، وهذا الحديث أخرجه الإمام البخاريُّ ببعض اختلاف، في موضعين من «صحيحه» في الصلاة وفي التفسير.

وقال تعالىٰ في صفة عباده الصالحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢].

قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سيِّيء غيرهم، أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال تعالىٰ في شأن العناية باليتامىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، قيل: هو أن يأخذ من ماله ما ستر عورةً، وسدَّ جَوْعةً، وقيل: إن المعنىٰ: لا تقربوا مال اليتيم، أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخَصلة التي هي أحسن من غيرها، وهي ما فيه صلاحُه وحِفْظُه وتنميتُه، فيشمَل كلَّ وجه من الوجوه التي فيها نفعٌ لليتيم، وزيادةٌ في ماله.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لمّـا أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[النساء: ١٠] الآية، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامَه من طعامِه، وشرابَه من شرابه، فجعل يُفْضِلُ الشيءَ فيُحبَسُ له حتىٰ يأكلَه أو يَفْسُد، فاشتدّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وجاء في حديث الإيمان: قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه».
قال ابن الأثير: أراد بالإحسان: الإخلاص، وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معاً، وذلك أن من تلفظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير نيّة إخلاصٍ لم يكن محسناً، ولا كان إيمانه صحيحاً، وقيل: أراد بالإحسان الإشارةَ إلىٰ المراقبة وحسنِ الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله، وقد أشار إليه في الحديث بقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال الراغب الأصبهانيّ: الإحسان يقال علىٰ وجهين: أحدُهما: الإنعامُ علىٰ الغير، يقال: أحسن إلىٰ فلان، والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا عَلِم علماً حسناً، أو عَمِل عملاً حسناً. وعلىٰ هذا قولُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي

الله عنه: الناس أبناءُ ما يُحسنون، أي: منسوبون إلىٰ ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة.

[ح ش ر]

يقول ربُّنا عزّ وجلَّ في قصةِ يهود بني النَّضير، وإجلائهم عن ديارهم بعدَ أن نقضُوا العهدَ الذي كان بينَهم وبينَ رسول الله ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

قوله تعالىٰ: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾ قال ابنُ قُتيبة: الحشر هو الجلاء، وذلك أنّ بني النَّضير أوّلُ من أُخْرِج عن ديارهم وأُجْلُوا. وقال أبو منصور الأزهري: هو أوّلُ حشرٍ إلىٰ الشام، ثم يُحشَرُ إليها يومَ القيامة، ولذلك قال: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾، قال الراغب الأصبهانيُّ في «مفرداته»: الحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلىٰ الحرب ونحوِها، يقال: حشَرَتِ السَّنةُ مالَ بني فلان، أي: أزالَتْه عنهم. والسَّنة هنا: معناها الجدبُ والقَحْط، والمالُ هنا: هو الإبلُ ونحوُها.

ولا يُستعمَلُ الحشرُ إلاّ في الجماعة، قال عز وجل: ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وهذا من قول ملإٍ فرعونَ له، أي: اجمَعْ لموسىٰ مِن مدائن مملكتِك وأقاليم دولتِك كلَّ سحَّار عليم يُقابلونَ سحْرَه، ويأتُونَ بنظيرِ ما جاء به. وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ص: ١٩] أي: أن الطيرَ مجموعةٌ محبوسةٌ في الهواء، تسبِّحُ اللّهَ معَ نبيِّه داودَ عليه السلام. وقال: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧].

وسُمِّي يـومُ القيامـة يومَ الحشر، كما سُمِّي يومَ البعث، ويومَ النشور. قال

تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].
قال ابنُ فارس: وأهل اللغة يقولون: الحشر: الجمعُ مع سَوْق. وجاء في أسماء النبيِّ ﷺ، قال: «إن لي أسماءً»، وعدَّ فيها: «وأنا الحاشر» أي: الذي يُحشَرُ الناسُ خلفَه وعلىٰ ملَّتِه دون ملّةِ غيرِه. وقولُه ﷺ: «إن لي أسماءً» أراد أن هذه الأسماءَ التي عدَّها مذكورةٌ في كتبِ اللّهِ تعالىٰ المنزَّلةِ علىٰ الأُمم التي كذَّبتْ بنبوّتِه، حجّةً عليهم.

وفي الحديث: «انقَطَعتِ الهجرةُ إلاَّ من ثلاث: جهادٍ أو نيةٍ أو حشرٍ»، أي: جهاد في سبيل الله، أو نيةٍ يُفارقُ بها الرجلُ الفِسْقَ والفجورَ إذا لم يقدِرْ علىٰ تغييرِه، أو جَلاءٍ ينالُ الناسَ فيخرُجونَ عن ديارِهم. والحشر: هُو الجَلاءُ عن الأوطان، وقيل: أراد بالحشر في هذا الحديث: الخروجَ في النَّفير إذا عمَّ، ودعا داعي الجهاد.

وفي الحديث: «نارٌ تَطرُدُ الناسَ إلىٰ مَحْشَرِهم» يريد به الشام؛ لأنَّ بها يُحشَرُ الناسُ ليوم القيامة.

وقال ﷺ في خُطبة حَجّة الوداع عن النساء: «لا يُعْشَرْنَ ولا يُحْشَرْن»، لا يُعْشَرْن، أي: لا يؤخَذُ عُشْرُ أموالِهنّ، وقوله: «ولا يُحْشَرن» فيه قولان: أحدُهما: لا يُحشَرْن إلىٰ المُصَدِّق ـ وهو جامعُ الزكاة ـ ولكنْ تؤخَذُ منهنّ الصدقةُ بمواضِعهنّ. والقول الثاني: لا يُحْشَرْن إلىٰ المغازي، ولا تُضرَبُ عليهن البُعُوثُ للجهاد والحروب. وهذا القولُ هو المختارُ في تأويل الحديث، وقد مال إليه أبو سليمانَ الخطابيُّ وقال: لأنَّ السُّنّةَ في المسلمينَ كلِّهم رجالِهم ونسائهم أن لا يُحشَرُوا إلىٰ المُصَدِّق، وإنما تُؤخَذُ صدقاتُهم عندَ مياهِهم وأفنيتِهم، فلم يكن لتخصيصِهنّ بهذا الحكم دونَ غيرِهنَّ معنىٰ.

قال: ومما يدلُّ علىٰ أن الحشرَ يرادُ به الجهادُ حديثُه الآخَر، ثم ذكَرَ بسندِه قولَه ﷺ: «لا هجرةَ بعدَ الفتح، إنّما هُو الحشْرُ والنيّةُ والجهاد»، قال: ويزيدُه بياناً حديثُ وفدِ ثقيف: أنهمُ اشترَطوا علىٰ رسولِ الله ﷺ، أن لا يُعْشَرُوا ولا يُحْشَروا ولا يجَبُّوا، فقال لهم النبيُّ ﷺ: « لكم أن لا تُعْشَروا ولا تُحْشَروا، ولا خيرَ في دينٍ ليس

فيه ركـوع». يريـد: لا تُؤخَـذُ منكـمُ الصدقـة، ولا تكلَّفُـون الجهاد. وقوله في الحديث: « ولا يُجَبُّوا»: من التَّجبية، وهي: أن يقومَ الإنسانُ قيامَ الراكع، والمراد: الصلاة. وسئل جابرٌ رضي الله عنه عن اشتراطِ ثقيفٍ أنْ لا صدَقةَ عليها ولا جهاد، فقـال: عَلِمَ أنهم سيَصَّدَّقُـونَ ويُجاهـدونَ إذا أسلَمـوا، ولم يُرَخِّصْ لهم في تـركِ الصلاة؛ لأن وقتَها حاضرٌ متكرِّر، بخلاف وقتِ الزكاةِ والجهاد.

وقد كشـف أبـو سليمانَ الخطابيُّ هذا المعنىٰ كشفاً جيداً، فقـال رحمه الله: ويُشبه أن يكونَ ــ واللّهُ أعلم ــ أنّما أرخَصَ لهم في ذلك لأن الجهادَ غيرُ محصورِ الوقت، وإنما يتعيَّنُ فرضُه عندَ حضورِ العدوّ، وكذلك الصدَقة، إنما يكونُ وجوبُها بكمـال الحوْل. وقـد عَلِمَ ﷺ أنهم يفعَلونَ ذلك إذا حان وقتُه ولزِم فرضُه، فأمّا الصّلاةُ فلم يُرخِّصْ لهم في ترْكِها؛ لأن وقتَها محصور، وهي تتكرّرُ في كلِّ يومٍ وليلة ولا سبيلَ إلىٰ ترْكِها بوَجْه، بل اللازمُ فعلُها لا محالةَ في حالتَيِ الرَّفاهةِ والضرورة، علىٰ حسَبِ الطاقة والإمكان.

قلت: وفي هذا الحديث دلالةٌ علىٰ عِظم أمرِ الصلاة، وأنها منَ الدِّين الأساسُ والعماد. وروي عن جابرٍ رضي الله عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ بينَ الرجُلِ وبينَ الشِّركِ والكفرِ تَرْكَ الصلاة»، وعن بُريدةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «العهدُ الذي بينَنا وبينَهمُ: الصلاة، فمَن ترَكَها فقد كفَر»، وروىٰ الترمذيُّ في كتاب الإيمان، بإسنادٍ صحيح، عن شقيقِ بنِ عبد الله التابعيّ، قال: كان أصحابُ محمّدٍ ﷺ لا يروْنَ شيئاً منَ الأعمالِ تَرْكُه كفرٌ غيرَ الصلاة.

[ح ش ىٰ]

يقولُ ربُّنا عزّ وجل في قصة يوسُفَ عليه السلام، ورؤيةِ النساء له: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

قوله: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهدٌ وغيرُه من أهل التفسير: معناه: مَعاذَ الله، وقال أبو بكرٍ بن الأنباري: معنىٰ (حاشا) من كلام العرب: أعزِلُ فلاناً من وسَطِ القوم بالحَشَا، أي: بناحية، ولا أُدخِلُه في جُملتِهم، وقال أبو إسحاق الزّجّاج: وأصلُ الكلمةِ منَ الحاشية، بمعنىٰ الناحية، تقول: كنتُ في حاشية فلان، أي: في ناحيتِه، فقولُك: حاشا لزيدٍ من هذا، أي: تباعَدَ منه، وقال أبو عليٍّ الفارسيّ: هو من المحاشاة، ومعناها هنا التنزيه، كما تقول: أساء القومُ حاشا زيداً. فمعنىٰ حاشا لله: براءةٌ وتنزيهٌ له. وقال أبو منصور الأزهريُّ: حاشا لله: حرفُ استثناء، واشتقاقُه من قولِك: كنتُ في حَشَا فلان، أي: في ناحيتِه. وأنشد الجوهريُّ علىٰ الحشا بمعنىٰ الناحية ــ وهو للمُعَطَّل الهذليّ ــ:

يقولُ الذي أمسىٰ إلىٰ الحَزْنِ أهلُه ... بأيِّ الحَشا أمسىٰ الخَليطُ المُبايِنُ

قال الأزهري: يقال: حاشَيْتُ فلاناً وحشَّيْتُه، أي: نحَّيتُه. قال النابغةُ الذُّبياني:

ولا أرىٰ فاعلاً في الناس يُشبِهُه ... وما أُحاشي منَ الأقوامِ من أحَدِ

المعنىٰ: ما أُنحِّي أحداً، ثم جُعِل «حاشا»، وإن كان فعلاً في الأصل كالاسم بمعنىٰ سِوَىٰ، وقال أبو بكرٍ بن الأنباري: يقال: حاشَ لفلان، وحاشىٰ فلاناً، وحشىٰ فلانٍ، وأنشد -وهو لحسان بن ثابت رضي الله عنه:

حشىٰ رهطِ النبيِّ فإنّ فيهِمْ ... بُحوراً لا تُكدِّرُها الدِّلاءُ

وقال ابنُ عرفةَ نفطويه: يقال: حاشىٰ لله، وحشَىٰ اللّهِ، وحاشَ لله، أي: بعيدٌ ذلك، قال: ومنه قولهم: تركتُهم بحِياش البلاد، أي: بالبُعدِ من أطرافِها. وجعلَه من بابِ الحاء والواو، ثم قال: وأمّا قولُهم: حُشَّ عليَّ الصَّيد، فإن معناه: هاتِهِ منَ الأطرافِ البعيدة، وفي الحديث: أنه ﷺ كان يُصلّي في حاشيةِ المقام، معناه: في جانب المقام، وهو شبيهٌ بحاشيةِ الثوب، ومنه حديث معاوية رضي الله عنه: لو كنتُ مِن أهلِ البادية لَنزلْتُ من الكلإِ الحاشية.

ومن ذلك حديثُ عائشةَ رضي الله عنها، قالت في خُطبتِها البليغةِ التي وصَفَت فيها أباها الصدِّيقَ رضي الله عنه، وموقفَه العظيمَ في جمع الشمل وردِّ الفتنةِ التي أعقبَتْ وفاةَ رسولِ الله ﷺ، قالت رضي الله عنها: فلمّا قبَضَ اللّهُ تعالىٰ نبيَّه ﷺ، ضربَ الشيطانُ رَوْقَه، ومَدَّ طُنُبَه، ونصَبَ حبائلَه، وأجْلَبَ بَخْيلِه ورَجْلِه، وظَنَّتْ رجالٌ أنْ قد أكثَبَتْ نُهَزُها، وتحقَّقتْ أطماعُها، ولات حينَ الذي يَرجُون، وأنّىٰ والصِّدّيقُ بينَ أظهُرِهم؟ فقام حاسراً، مُشمِّراً، قد جمَعَ حاشيتَيْه، وضَمَّ قُطْرَيْه، فردَّ نَشْرَ الإسلام علىٰ غَرِّه، وأقام أوَدَه بِثِقافِه... إلىٰ آخرِ ما قالت رضي الله عنها. وحاشيتَيْه، أي: جانبيْه وأرادت بالتثنيةِ إحاطةَ الجوانب. وجَمْعُ الحواشي، وضمُّ الأقطار: كنايةٌ عن الحزْم والتأهُّب لتلافي الأمرِ واستدراكه.

وفي حديث عائشةَ رضي الله عنها: أنّ النبيَّ ﷺ خرَج من بيتِها ليلاً، ومضىٰ إلىٰ البقيع فتبعَتْه، وظَنَّتْ أنه دخل بعضَ حُجَر نسائه، فلمّا أحسَّ بسَوادِها قصدَ قصْدَه، فعَدَتْ وعَدَا علىٰ أثرِها، فلم يدرِكْها إلاّ وهي في جوف حجرتِها، فدنا منها وقد وقَع عليها البُهْرُ والرَّبْو، فقال: «ما لي أراكِ حَشْيا رابية». الحَشْيا: هي التي وقع عليها الحشا، وهو والرَّبْـوُ والنَّهيجُ الذي يعـرِض للمُسـرِعِ في مشيِه والمُحتدِّ في كلامِه، منَ ارتفاع النَّفَس وتواترِه. يقال: رجلٌ حَشٍ وحَشْيانُ، وامرأة حَشِيَةٌ وحشَيْا، وقيل: أصلُه من إصابةِ الرَّبْو حَشاه، والحشا: هو ما انضمَّت عليه الضلوعُ والخواصر، والجمعُ أحشاء.

وفي حديث مَبعثِه ﷺ: «ثم شقّا بطني وأخرجا حُشْوتي». الحُشوة، بضم الحاء وكسرها: الأمعاء. وجاء في حديث مقتل عبد الله بن جُبيرٍ الأنصاريّ رضي الله عنه: أنَّ حُشْوَتَه خرَجَتْ، وهذا عبدُ الله بن جبير، وهو الذي جعلَه النبي ﷺ يومَ أحدٍ علىٰ الرُّماة، وهم خمسونَ رجلاً، فاستُشْهد يومئذٍ، ومُثّل به، قتَلَه عكرمةُ بن أبي جهل، ثم أسلَمَ عكرمةُ بعد فتح مكةَ وحسُن إسلامُه وشهد الوقائع، واستُشْهِد في اليرموك، أو يومَ مَرْج الصُّفَّر، رضي الله عنه، والأعمالُ بخواتيمها.

وجاء في حديث المستحاضة: أمرَهَا أن تغتسل، فإن رأَتْ شيئاً احتَشَتْ. أي: استدخَلَتْ شيئاً يمنَعُ الدَّمَ من القَطْر والسَّيلان، وبه سُمِّي الحَشْوُ للقُطْن؛ لأنه يُحشَىٰ به الفُرُشُ وغيرُها. وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَن يعذرُني من هؤلاء الضَّياطِرة؟ يتخلّفُ أحدُهم يتقلّبُ علىٰ حشاياه. أي: علىٰ فِراشِه، واحدها: حَشِيَّة، والضّياطرة: هم الضِّخامُ الذين لا فائدةَ فيهم، ولا غَناءَ عندَهم، الواحد: ضيطار. ومنه حديث عمرِو بن العاص رضي الله عنه: ليس أخو الحربِ مَن يضَعُ خُورَ الحشايا عن يمينِه وشماله. والخُور: الضعاف الليّنة.

[ح ص ب]

يقول ربُّنا عز وجلّ مُخبراً عن قوم لوط، وما حلّ بهم من العذاب وقلْب مدائنهم عليهم، لمُخالفتِهم له، وارتكابِهمُ الفاحشة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]. الحاصبُ: الرّيحُ الشديدة التي تقلَعُ الحصباء، وهي صِغار الحجارة وكبارُها، ويقال لها: الحَصِبةُ أيضاً، قال لبيد:

جرَّتْ عليها أن خَوَتْ مِن أهلِها　　　أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

وقد تحْصِبُ الريح أيضاً بالبَرْد، قال القُطاميُّ:

ويكتحلُ التَّالي بمُورٍ وحاصِبِ

والمُورُ، بضم الميم: الغُبار بالريح.

وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال للخوارج: «أصابَكم حاصِب» أي: عذابٌ من الله، وأصلُه: رُميتُم بالحَصْباء من السماء، وفي الحديث: أنه أمَرَ بتحصيب المسجد»، وهو: أن يُلْقىٰ فيه الحصىٰ الصغار، ليكونَ أوْثَرَ للمصلِّي، وأغْفَرَ للنُّخامة. ومثله حديثُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه لما

حَصَّب المسجدَ، قال له فلان: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: هو أغفَرُ للنُّخامة وألينُ في الموطِىء. وقوله: «أغفَرُ» أي: أسْتر للبُزاقة إذا سقطتْ فيه.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ في النهي عن البُصاق في المسجد، منها ما رواه مسلم، عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ رأىٰ نُخامةً في قِبلة المسجد، فحَكَّها بحصاة، ثم نهىٰ أن يَبزُقَ الرجل عن يمينِه أو أمامَه، ولكن يبزُقُ عن يساره، أو تحت قدمه اليُسْرىٰ. قال الإمام النووي: فيه نهيُ المصلي عن البُصاق بين يديه وعن يمينه، وهذا عامٌّ في المسجد وغيره، وقولُه ﷺ: «ولْيَبْزُقْ تحتَ قدمِه وعن يسارِه» هذا في غير المسجد، أما المصلي في المسجد، فلا يبزُقُ إلاَّ في ثوبه، لقوله ﷺ: «البُزاقُ في المسجدِ خطيئة»، فكيف يأذَنُ فيه ﷺ؟ وروىٰ مسلم أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رأىٰ نُخامةً في قِبلةِ المسجد، فأقبل علىٰ الناس فقال: «ما بالُ أحدِكم يقومُ مُستقبلَ ربِّه فيتنخَّعُ أمامَه؟ أيحبُّ أحدُكم أن يُستَقْبَلَ فيُتنخَّعَ في وجهِه؟ فإذا تنخَّعَ أحدُكم فلْيتنخَّعْ عن يسارِه تحتَ قدمِه، فإن لم يجدْ فلْيقُلْ هكذا»، ووصف القاسم ـ أحد رواة الحديث ـ فتفَلَ في ثوبه، ثم مسح بعضَه علىٰ بعض. ورَوىٰ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «البُزاقُ في المسجدِ خطيئة، وكفَّارَتُها دَفْنُها».

وفي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ عن مسّ الحصباء في الصلاة. قال مجدُ الدين بنُ الأثير: كانوا يصلّون علىٰ حَصْباءِ المسجدِ ولا حائلَ بين وجوههم وبينَها، فكانوا إذا سجدوا سوَّوْها بأيديهم، فنُهُوا عن ذلك؛ لأنه فعلٌ من غير أفعال الصلاة، والعبثُ فيها لا يجوز، وتبطُلُ به إذا تكرَّر. وروىٰ الإمام مسلمٌ بسنده، عن مُعَيقيبٍ رضي الله عنه، قال: ذكر النبيُّ ﷺ المسحَ في المسجد، يعني الحَصَىٰ، قال: «إن كنتَ لا بدَّ فاعلاً فواحدة». قال النووي: معناه: لا تفعَلْ، وإن فعَلْتَ فافعلْ واحدة، لا تزدْ، وهذا نهيُ كراهةِ تنزيه، فيه كراهتُه، واتفق العلماء علىٰ كراهة المسح؛ لأنه ينافي التواضع، ولأنه يشغَلُ المصلي».

والمُحَصَّب: موضع الجِمار بمنىً ،سُمِّي بذلك للحصىٰ الذي فيه. قال ذو الرُّمَّة:

أرىٰ ناقتي عند المُحَصَّبِ شاقَها ... رَواحُ اليماني والهديلُ المُرَجَّعُ

والمُحصَّبُ أيضاً هو: الشِّعْب الذي مَخْرَجُه إلىٰ الأبطَح بين مكة ومنى. وفي حديث عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: يا آل خُزَيمة، حَصِّبُوا. قال أبو عبيد القاسمُ بن سلاَّم: التحصيب ــ إذا نفَرَ الرجلُ من منىً إلىٰ مكة للتوديع ــ: أن يقيم بالشِّعب الذي مخرجه إلىٰ الأبطَح، حتىٰ يَهْجَعَ بها من الليل ساعةً، ثم يدخل مكة، وكان هذا شيئاً يُفْعَلُ ثم تُرِك، وهو الذي قالت فيه عائشة: ليس التحصيب بشيء، إنما كان منزِلاً نزَلَه رسولُ الله ﷺ؛ لأنه كان أسْمحَ للخروج. قال ابن مهدي: فكأن عمرَ إنما خصَّ بني خُزيمة أن يقيموا بالأبطَح حتىٰ يُصبحوا، قال: من شاء فلْينفِرْ في النَّفْرِ الأوّل، إلا بني أسدِ بنِ خزيمة، قال أبو عبيد: فوجْهُ هذا عندَنا أنه إنما أراد بني خزيمة، وهم قريشٌ وكِنانة، وليس فيهم أسد، وذلك أن منازل قريشٍ وكِنانةَ: الحرَمُ وما حولَه، فكرِهَ لهم أن يُعجِّلوا النَّفْرَ لقُربِ دارهم، ورخَّص لمن بعُدَت دارُه، وليست لبني أسدٍ هناك دار، إنما هم بنجد، فكيف خصَّهم بالكراهة؟ لا أعرف لهذا وجْهاً إلا ما ذكرنا. قال أبو عبيد: والمحفوظُ عندَنا هو الأول، الذي لا ذِكْرَ لبني أسدٍ فيه.

وفي حديث مسروق بن الأجدَع: أتيْنا عبدَ الله في مجدَّرين ومُحَصَّبين. هم الذين أصابهم الجُدَريُّ والحَصْبة، وهي: بَثْرةٌ تخرُج بالجسد، تُشَبَّه بالحصباء.

وقال تعالىٰ مُخاطباً أهل مكةَ من مشركي قريش، ومَن دانَ بدينهم من عَبَدة الأصنام والأوثان: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. حصبُ جهنم: قال ابن عباس: وَقودُها، يعني كقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وكلُّ ما أوقَدْتَ به النار أو هيَّجْتَها به فهو حَصَبٌ، ووَجهُ إلقاءِ الأصنام في النار ، معَ كونها جماداتٍ لا تعقِلُ ذلك ولا

تُحسُّ به: التبكيتُ[١] لمَن عَبدَها، وزيادةُ التوبيخ لهم، وتضاعُفُ الحسرة عليهم.

[ح ص د]

يقول ربُّنا عز وجلَّ منبِّهاً عبادَه بنعَمِه العظيمةِ عليهم: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] أي: أنبتنا بذلك الماءِ المبارَكِ بساتينَ كثيرة، وحبَّ الحصيد، أي: ما يُقْتاتُ ويُحْصَدُ من الحبوب. قال أبو منصور الأزهريّ: أي: وحبَّ الزرّع الحصيد، وقال ابنُ عرفةَ نفطويه: أي: ما يُحْصَدُ من أنواع النبات. والحَصْد: هو قطعُ الشيء، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في قطع النبات والزروع. يقال: حصَدتُ الزرعَ واحتصَدْتُه، والرجلُ مُحْتَصِد، قال الطِّرماحُ بن حكيم:

إنما نحن مثلُ خامةِ زرعٍ ... فمتىٰ يأْنِ يأْتِ مُحْتَصِدُهْ

ويومُ قطع الزرع هو يومُ الحَصاد، والحِصاد، بفتح الحاء وكسرها، قال عزَّ من قائل: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]. رُوي عن ابن عباس: يعني الزكاةَ المفروضة يومَ يُكالُ ويُعلَمُ كيلُه، وذلك أن الرجلَ كان إذا زرَعَ فكان يومُ حَصادِه لم يُخرجْ ممّا حصَدَ شيئاً، فقال الله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾. وذهب بعضُهم إلىٰ أن المرادَ الصّدَقةُ من الحَبِّ والثمار، وهُو حقٌّ آخرُ سوىٰ الزكاة. قال الحافظ ابنُ حجرٍ في «الفتح»: واختَلَفوا في المرادِ بالحقِّ فيها، فقال ابنُ عباس: هي الواجبة، وأخرجه ابن جرير عن أنس، وقال ابنُ عمر: هو

(١) التبكيت: التقريع والتعنيف والتثريب واللوم والتعيير.

شيءٌ سوىٰ الزكاة. أخرجه ابنُ مردَوَيْه، وبه قال عطاءٌ وغيرُه، وحديثُ الباب يُشعر بأنه غيرُ الزكاة، وكأنه المراد بما أخرَجَه أحمدُ وأبو داودَ من حديث جابر: أنّ النبيَّ ﷺ أمَرَ من كلِّ جادٍّ عشَرةَ أوسُقٍ من التمر، بقنْوٍ يُعلَّقُ في المسجدِ للمساكين.

وفي الحديث أنه ﷺ نهىٰ عن حصادِ الليل. وإنما نَهَىٰ عنه لمكان المساكين حتىٰ يحضروه ويأخذوا حظَّهم منه، وقيلَ: لأجل الهوامِّ كيلا تصيبَ الناس، والأولُ أولىٰ؛ لأن الله قد ابتلىٰ أصحابَ الجنةِ الذين قطَعوا ثمرَها ليلاً لكي يَحرِموا الفقيرَ والسائل من أخْذِ شيءٍ من حصادِها، وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ ــ ٢٠]، إلىٰ آخر الآيات من سورة القلم، وذلك أنهم حلَفوا فيما بينَهم لَيَجُذُّنَّ ثمرَها ليلاً، لئلا يعلمَ بهم فقيرٌ ولا سائل، ليتوفَّرَ ثمرُها عليهم ولا يتصدَّقوا منه بشيء.

ويُستعار الحَصْد، الذي هو قطعُ الزرع والنبات، للاستئصال والإماتة والإفناء، ومنه قوله عزّ وجل في قصةِ القريةِ الظالمة: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]، أي: حُصِدُوا بالسيف فماتوا كما يُحصَدُ الزرعُ بالمِنْجل. ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] أي: من هذه القرىٰ ما هو ظاهرٌ قائمٌ علىٰ عروشه، ومنها ما هو حصيدٌ، قد ذهَبَ وباد، ، فلم يبْقَ له أثر. والحصيد: المستأصَل المحصود، فعيلٌ بمعنىٰ مفعول، شبَّه القرىٰ بالزرع القائم علىٰ سُوقِه والمقطوعِ المستأصَل. قال الشاعر:

والناسُ في قَسْم المنيَّة بينَهُمْ كالزرعِ: منه قائمٌ وحصيدُ

ومن ذلك قوله تعالىٰ في تشبيه زهرة الحياة الدنيا وزينتها بالنبت المُزهِر المُورِق، الذي يُصَوِّح ويَفْنىٰ كأنه لم يكن، يقول تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ومنه حديث فتح مكة: «فإذا لقِيتُموهم غداً أن تحصُدوهم حصْداً» أي: تقتلوهم وتبالغوا في قتلهم واستئصالهم. ومن ذلك أيضاً قولُه ﷺ: «وهل يكُبُّ الناسَ علىٰ مناخِرِهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم؟» أي: ما يقتَطعونَه من الكلام الذي لا خير فيه، واحدتها: حصيدة، تشبيهاً بما يُحصَدُ من الزرع، وتشبيهاً للسان ــ وما يقتطعُه من القول ــ بحَدِّ المِنْجَل الذي يُحصَدُ به.

وهذا جزءٌ من حديثٍ من جوامعِ كلِمِه عليه السلام، مرويٌّ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسولَ الله، أخبِرْني بعملٍ يُدخلُني الجنةَ ويبُاعدُني من النار. قال: «لقد سألْتَ عن عظيم، وإنه لَيسيرٌ علىٰ من يسَّرَه اللّهُ عليه: تعبُدُ اللّهَ لا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت». ثم قال: «ألا أدلُّك علىٰ أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّة، والصَّدَقةُ تُطفِىءُ الخطيئةَ كما يُطفِىءُ الماءُ النار، وصلاةُ الرجل من جوفِ الليل»، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] حتىٰ بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. ثم قال: «ألا أُخبرُك برأس الأمر وعَموده وذِروةِ سَنامِه؟» قلت: بلىٰ يا رسولَ الله. قال: «رأسُ الأمرِ الإسلام. وعَمُودُه الصلاة، وذِروةُ سَنامِه الجهاد». ثم قال: «ألا أُخبرُك بمِلاكِ ذلك كلّه؟» قلت: بلىٰ يا رسولَ الله، فأخذ بلسانه فقال: «كُفَّ عليك هذا». قلت: يا رسولَ الله، وإنّا لَمؤاخَذُون بما نتكلّمُ به؟ فقال: «ثَكِلتْك أُمُّك! وهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ علىٰ وجوهِهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم؟». وصدَقَ رسولُ الله ﷺ. اللهمَّ انفَعْنا بهذا الهَدْيِ النبويّ الكريم، وارزُقْنا اتِّباعَه والتأسِّيَ به.

[ح ص ر]

يقول ربُّنا عزَّ وجلّ: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. قوله: ﴿ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي: مُنعتُم، والإحصار: المَنْعُ من الوجهِ الذي يقصِدُه بالعوائق. وذكر المفسِّرونَ أن هذه الآية نزلَت في سنة ستٍّ، أي: عامِ الحُدَيْبيةِ حينَ حال المشركونَ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ الوصول إلىٰ البيت الحرام. وأنزل اللّهُ في ذلك سورةَ الفتح بكمالِها، وأنزل لهم رُخصةً أن يذبَحوا ما معَهم من الهَدْي، وكان سبعينَ بدَنة، وأن يحلِقوا رؤوسَهم، وأن يتحلَّلوا من إحرامِهم.

وهذه المادة (حصر) تدلُّ في أصل وضعها اللغوي علىٰ معنىً واحد هو: الجَمْعُ والحَبْسُ والمنع. يقال: أُحْصِر الرجلُ بالمرض، وحُصرَ بالعدوّ، وقيل بالعكْس، أي: أُحْصِر بالعدوّ، وحُصِر بالمرض. وقال أبو زكريا الفراءُ: هما بمعنىً واحد، في المرض والعدوّ، ووافقه علىٰ ذلك أبو عمرٍو الشَّيباني، فقال فيما روىٰ عنه أبو عبيد: حصَرَني الشيءُ وأحْصَرني، أي: حبَسَني، وذكر قول ابن ميَّادة:

وما هَجْرُ ليلىٰ أن تكونَ تباعَدَتْ عليك، ولا أن أحْصَرَتْكَ شُغُولُ

قال ابنُ فارس: «والكلام في حصَرَهُ وأحصَرَه، مشتبهٌ عندي غايةَ الاشتباه؛ لأنّ ناساً يجمعون بينَهما وآخرين يَفْرِقون، وليس فَرْقُ من فَرَق بين ذلك، ولا جَمْعُ من جَمَع، ناقضاً القياسَ الذي ذكرناه، بل الأمرُ كلُّه دالٌّ علىٰ الحبس».

وقال تعالىٰ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: أحصَرَهمُ الجهادُ فمنعَهمُ التصرُّف، وقيل: أحصَرَهم عدوُّهم؛ لأنّ اللّهَ شغَلَهم بجهادِهم. وقيل: يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلىٰ الله وإلىٰ رسولِه. وسكنوا المدينة، وليس لهم سببٌ يرُدُّون به علىٰ أنفسهم ما يغنيهم. ويقال: حاصرتُ العدوَّ، أي: مانَعْتُه وحُلْتُ بينَه وبينَ

التصرُّف، وحصرْتُه: حبسْتُه.

قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]. قوله: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم وامنَعوهمُ التصرُّف. وقال ابن كثير: اقْصِدُوهم بالحِصار في معاقِلِهم وحصونِهم. ويقال للذي قد حُبس في السِّجن: قد حُصر. والحصير: السِّجْن. قال عزَّ من قائل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] أي: سِجْناً ومَحْبساً. قال الجوهريّ: يقال: حصَره يَحْصُره حَصْراً: ضَيَّق عليه وأحاط به.

وقيل: حصيراً هنا، أي: فراشاً ومِهاداً. وأراد علىٰ هذا بالحصير: الحصير الذي يفرِشُه الناسُ. وإنّما سُمّي الحصيرُ الذي يفرِشُه الناسُ كذلك لحَصْر طاقاتِه[١] وأجزائه، بعضِها علىٰ بعض، أي: ضمِّها وجمْعها. ومن ذلك ما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «أفضَلُ الجهاد وأجمَلُه حجٌّ مبرور، ثم لزومُ الحُصُر». وفي رواية، أنه قال لأزواجه: «هذه ثمَّ لُزومُ الحُصُر». قال ابنُ الأثير: أي: إنكنّ لا تَعُدْنَ تخرُجْنَ من بيوتِكنّ وتَلْزَمْنَ الحُصْر، هي: جمع الحصير الذي يُبْسَطُ في البيوت، وتُضمّ الصاد وتسكّن تخفيفاً.

ومن غريب هذه المادة: الحَصُور. قال تعالىٰ في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]. الحصور: هو الممنوعُ من النساء، فَعولٌ بمعنىٰ مفعول، كما يقال: طريقٌ ركوب، أي: مركوب، وناقةٌ حلوب، أي: محلوبة.

وقد كان يحيىٰ عليه السلام حَصُوراً عن إتيان النساء، أي: محصوراً لا يأتيهنَّ

---

(١) جمع طاقة، وهي الشُّعبة أو الحزمة من خيوط أو عيدان.

كغيرِه من الرجال، إمّا لعَدَم القدرة علىٰ ذلك، أو لكوْنِه يكُفُّ عنهنّ، منْعاً لنفسِه عن الشهوةِ معَ القدرة، وقد رجَّح العلماءُ هذا الرأيَ الثاني؛ لأنّ المقامَ مقامُ مدح، وهو لا يكون إلاَّ علىٰ أمر مكتسَب، يَقدِرُ فاعله علىٰ خلافه، لا علىٰ ما كان من أصل الخِلْقةِ وفي نفس الجِبِلّة.

والحَصُورُ أيضاً، والحَصِر: البخيل، ومنه حديثُ ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت أحداً أخلقَ للمُلكِ من معاوية، كان الناسُ يرِدُونَ منه أرجاءَ وادٍ رَحْب، ليس مِثلَ الحَصِر العَقِص. الحَصِر: البخيل، والعَقِص: المُلتوي الصّعبُ الأخلاق. ومن ذلك: الحَصِرُ بالسِّرّ، وهو الكَتُومُ له. قال جرير:

ولقد تَسقَّطَني الوُشاةُ فصادَفُوا حَصِراً بسرِّكَ يا أُمَيْمَ ضَنِينا

أي: بخيلاً بسرِّكِ كتُوماً له. وقال تعالىٰ في شأنِ فئةٍ من المنافقين، لا يريدونَ أن يُقاتِلوا المؤمنين، ولا يهونُ عليهم أن يقاتلوا قومَهم. فيقولُ تعالىٰ: ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠]. حصِرَت صدورُهم، أي: ضاقتْ بقتالِكم. والحَصَر: الضيقُ والانقباضُ. ومن ذلك: الحَصِرُ، وهو العَيِيُّ الذي لا يُبِين، كأنّ الكلامَ حُبِسَ عنه ومُنع منه. ومنه: حديثُ فاطمة رضي الله عنها، وزواجِها من عليٍّ رضي الله عنه: فلمّا رأت علياً جالساً إلىٰ النبيِّ ﷺ حَصِرتْ وبكَتْ. أي: استحْيَتْ وانقطعَتْ، كأنَّ الأمرَ ضاق بها، كما يضيقُ الحَبْسُ علىٰ المحبوس. وفي حديثٍ طويل لحذيفةَ رضي الله عنه، قال: «تُعْرَضُ الفتنُ علىٰ القلوب عرْضَ الحصير». أي: تُحيطُ بالقلوب. يقال: حَصَرَ القومُ، أي: أطافُوا. وقال الليثُ بن المظفَّر: حصيرُ الجَنْب: عِرْقٌ يمتدُّ معترِضاً علىٰ جنبِ الدابّة، أي: ناحيةِ بطنِها، فشبَّهَ الفتنَ بذلك.

يقول ربُّنا عزَّ وجلَّ في قصة يوسُفَ عليه السلام: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ [يوسف: ٥١]. قوله: ﴿ حَصْحَصَ ﴾ أي: تبيَّن وظهر. وأصل الفعل: حَصَّ، فضوعف، فقيل: حصْحَص. كما قيل: كفَّ وكفْكَف، وكبَّ وكبْكَب.

وأصل الحَصّ: استئصالُ الشيء. يقال: حَصّ الرجلُ شعَرَه، أي: استأصله، ومنه قولُ أبي قيسٍ بن الأسلت:

قد حصَّت البَيْضةُ رأسي فما أطعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ

والمعنىٰ: أنه انقطع الحقُّ عن الباطل بظُهورِه وبيانِه، ومنه قول الشاعر:

فمن مُبْلغٌ عني خِداشاً فإنه كذُوبٌ، إذا ما حصْحَص الحقُّ، ظالمُ

وقال ابنُ عرفة نفطويه: أي: ظهر وتبيَّن. ورجلٌ أحَصُّ: إذا سقَطَ شعَرُه فظهرتْ مواضعُه، وحصَّت الأرضَ حاصّةٌ، أي: أصابها ما يذهَبُ بنباتِها فانكشَفتْ. وقال أبو منصور الأزهري: أصلُه من: حصْحَصَةِ البعيرِ بثَفِناته في الأرض، وذلك إذا برَكَ حتى يستبينَ آثارُها فيها. قال حَميدُ بن ثور:

وحَصْحَصَ في صُمِّ الحصىٰ ثَفِناتِهِ ورام القيامَ ساعةً ثُمَّ صَمَّما

والحَصْحَصةُ أيضاً: تحريك الشيء حتىٰ يستمكِنَ ويستقرّ، وفي حديث عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: لأن أُحَصْحِصَ في يديَّ جَمْرتَينِ أحبُّ إليّ من أن أُحَصْحِصَ كَعْبتَيْن. والكَعْبة: واحدةُ الكِعاب، وهي: فُصوص النَّرْد التي يُلْعَبُ بها. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن امرأةً أتَتْه فقالت: إن ابنتي عُرَيِّس، وقد تمعَّطَ شعَرُها، فأمروني أنْ أُرَجِّلَها بالخمر، فقال: إن فعلتِ ذلك فألقىٰ اللّهُ في رأسِها الحاصَّة. قال أبو عبيد: قوله: «الحاصة» يعني ما تَحُصُّ شعَرَها: تحلِقُه كلَّه، فتذهَبُ به. ومنه يقال: بينَ بني فُلان رَحِمٌ حاصَّة، أي: قد قطعُوها، وحَصُّوها: لا يتواصلونَ عليها، وفي حديث معاويةَ رضي الله عنه: أنه أرسل رسولاً من غسَّانَ إلىٰ ملِكِ الروم، وجعل له ثلاثَ دِيَات علىٰ أن يُنادِيَ بالأذان إذا دخَلَ عليه. ففعل ذلك الغَسّانيُّ وعندَ ملك الرُّوم بَطَارِقتُه، فوثَبُوا إليه ليقتلوه، فنهاهم ملِكُهم وقال: كنت أظنُّ أنّ لكم عقولاً! إنما أراد معاويةُ أن أقتلَ هذا غدراً وهو رسول، فيفعلَ مثلَ ذلك بكلِّ مستأمَنٍ منّا، ويهدِمَ كلَّ كنيسة عندَه. فجَهَّزه وأكرَمَه وردَّه. فلما رآه معاويةُ قال

له : أفْلَتَ وانْحَصَّ الذَّنَب. فقال: كلاَّ، إنه لبِهُلْبه. ثم حدَّثه بالحديث، فقال معاوية: لقد أصاب. ما أردتُ إلاّ الذي قال. قوله: «انحصَّ الذَّنَب» أي: انقطع، وهو مَثَلٌ يُضْرَب لمَن أشْفىٰ علىٰ الهلاكِ ثم نجا. وقولُ الغَسّاني لمعاوية: «إنه لبهلبه» الهُلْب: شعَرُ الذَّنَب وحدَه. وقيل: ما غَلُظ من الشعر. وقيل: الشعر كلُّه. يقول: لم يتناثر شَعَرُ ذنبي، بل هو بحاله.

وروىٰ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا أذَّن المؤذِّنُ أدبَرَ الشيطانُ وله حُصَاص». وفي روايةٍ عن سُهيلٍ رضي الله عنه، قال: أرسلني أبي إلىٰ بني حارثة، قال: ومعي غلامٌ لنا، أو صاحبٌ لنا، فناداه مُنادٍ من حائطٍ باسمِه، قال: وأشرَفَ الذي معي علىٰ الحائط، فلم يرَ شيئاً، فذكَرْتُ ذلك لأبي، فقال: لو شَعَرْتُ أنك تَلقَىٰ هذا لم أُرسلْك، ولكن إذا سمِعتَ صوتاً فنادِ بالصلاة. فإني سمعتُ أبا هريرةَ يحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الشيطانَ إذا نُوديَ بالصّلاة ولّىٰ وله حُصَاص». الحصاصُ: شدّةُ العَدْوِ وسُرْعَتُهُ. والحُصاصُ أيضاً: الضُّراط. وقال حمّادُ بن سلمة: سألتُ عاصم بن أبي النَّجُود، راويَ هذا الحديث: ما الحُصاصُ؟ قال: أما رأيتَ الحِمارَ إذا صَرَّ بأذُنيه ومَصَعَ بذَنَبه وعدا؟ فذلك الحُصاص. ومال أبو عبيد إلىٰ هذا التفسير الثاني، ويؤيّد تفسير الحُصاص بالضراط ما جاء في الرواية الأخرىٰ، عن أبي هريرة، أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا نُوديَ للصّلاةِ أدبَرَ الشيطانُ له ضُراطٌ حتىٰ لا يَسمعَ التأذين. فإذا قُضيَ التأذينُ أقبَل، حتىٰ إذا ثُوِّبَ بالصلاة أدبَر، حتىٰ إذا قُضيَ التثويبُ أقبَلَ حتىٰ يخطِرَ بينَ المرءِ ونفسِه، يقولُ له: اذكُرْ كذا واذكُرْ كذا، لِمَا لم يكن يذكُرُ من قَبلُ، حتىٰ يظلَّ الرجلُ ما يدري كم صلّىٰ». وفي رواية ثالثة، عن أبي هريرة أيضاً، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الشيطانَ إذا سَمِعَ النداءَ بالصلاة، أحالَ له ضُراطٌ حتىٰ لا يَسمعَ صوتَه، فإذا سكَتَ رجَعَ فوسْوس، فإذا سمِعَ الإقامةَ ذهَبَ حتىٰ لا يَسمعَ صوتَه، فإذا سكَتَ رجَعَ فوَسْوَس». ومعنىٰ «أحال» في هذه الرواية، أي: ذهب هارباً.

قال العلماء: وإنما أدبَرَ الشيطان عند الأذان لئلاً يَسمَعَه فيُضْطَرَّ إلىٰ أن يَشهَدَ له بذلك يومَ القيامة، لقول النبيِّ ﷺ: «لا يَسمَعُ صوتَ المؤذِّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شَهِد له يومَ القيامة». وقيل: إنما يُدْبِرُ الشيطان لِعظَم أمر الأذان؛ لِمَا اشتمَلَ عليه من قواعدِ التوحيد، وإظهارِ شعائر الإسلام وإعلانِه، وقيل: ليأْسِه مِن وَسْوسةِ الإنسانِ عندَ الإعلان بالتوحيد.

وفي هذه الأحاديث بيانُ فضيلة الأذان، وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة، وكذلك جاء في فضيلة المؤذِّن أحاديث، منها: ما روي عن معاويةَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المُؤذِّنونَ أطوَلُ الناسِ أعناقاً يومَ القيامة».

[ح ص ن]

يقول رَبُّنا عزّ وجلَّ في سياق المحرَّمات من النساء: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. المراد بالمحصنات هنا: ذواتُ الأزواج. قال ابن عرفة نِفطويه: الإحصان في كلام العرب: المَنْعُ، فالمرأة تكون محصَنةً بالإسلام؛ لأن الإسلام يمنعُها إلاّ ممّا أباحَه الله، وتكون محصنةً بالعَفاف والحرّية، وتكون محصنةً بالتزويج. فمِن استعمال الإحصان بمعنىٰ الإسلام قولُه عزّ وجل: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، ومنَ استعمالِه بمعنىٰ الحريّة قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، ومنه: قوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾. ومن استعماله بمعنىٰ العِفَّة قوله عز وجل: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء:

٢٥]، وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، ومنه قوله تعالىٰ في شأن مريمَ عليها السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] ويقال: امرأةٌ حَصَان، وهيَ العفيفةُ المتعفِّفة. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أُمِّ المؤمنينَ التَّقيّةِ النَّقيّةِ عائشةَ رضي الله عنها:

حصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبحُ غَرْثَىٰ من لحومِ الغوافِلِ

و«ما تُزَنّ بريبة»، أي: ما تُتَّهم. و«غَرْثَىٰ»، أي: جائعة. يريد أنها رضي الله عنها لا تأكلُ لحوم الناس بالغيبة.

وهذه المادة (حصن) تدلُّ علىٰ أصلٍ واحد في اللغة هو: الحفظُ والحِياطةُ والحِرْز. ومن ذلك الحِصْن، وجمعُه الحصون، قال تعالىٰ في شأن يهود بني النَّضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ [الحشر: ١٤]، أي: مجعولةٍ بالإحكام كالحُصُون. وفي حديث الأشعث: «تحصَّن في مِحْصَن». المِحْصَن: القصر والحِصْن. ويقال: تحصَّن العدوّ: إذا دخل الحِصْنَ واحتمىٰ به.

وقال تعالىٰ في قصة يوسُفَ عليه السلام وتأويله للرؤيا: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. مما تُحصِنون: أي ممّا تَحبِسُون من الحبِّ لتزرَعُوا به؛ لأن في استبقاءِ البذر تحصينَ الأقوات. وقال أبو عبيدة: معنىٰ تُحصِنون، أي: تُحرِزُون، وقيل: تدَّخرون، والمعنىٰ واحد. وقال الراغب الأصبهاني: أي: تُحرِزون في المواضع الحصينة الجارية مَجْرَىٰ الحصن.

[ح ص ى]

يقول ربُّنا عزّ وجلّ مُبيِّناً أنّ عِلمَه سبحانَه وتعالىٰ بالأشياء ليس علىٰ وجه الإجمال، بل علىٰ وجه التفصيل. فيقول عز مِن قائل: ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴾ [الجن: ٢٨] أي: علِمَ عدد كلِّ شيء. فالإحصاءُ يكون عدّاً ويكون إطاقة. وذكَرَ الراغبُ الأصبهانيُّ أن الإحصاء الذي هو العَدُّ إنما جاء من لفظ الحَصَىٰ، من حيث إنهم كانوا يعتمِدونَه بالعَدّ كاعتمادنا فيه علىٰ الأصابع. ومنَ استعماله بمعنىٰ الإطاقة قولُه تعالىٰ في شأن قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: علِمَ أن لن تطيقوا قيامَ الليل. وقال الفراء: علم أنْ لن تُحْصُوا مواقَيتَ الليل، أي: لن تطيقوا علمَ مقادير الليل والنهار علىٰ الحقيقة. قال مقاتلٌ وغيره: لمّا نزل: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ❊ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ❊ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢ ـ ٤] شقَّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متىٰ نصفُ الليل من ثلُثِه، فيقومُ حتىٰ يُصبحَ، مخافةَ أن يُخطىء. فانتفَخَت أقدامُهم، وانتُقِعَت ألوانُهم، فرحِمَهم اللّهُ وخفَّف عنهم، فقال: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: علم أن لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقُلَ عليكم، واحتجتم إلىٰ تكلفِ ما ليس فرضاً. وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفو، ورخَّص لكم في ترْكِ القيام. وقيل: فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجَزْتم. وأصل التوبة الرجوع.

ويأتي الإحصاء بمعنىٰ الحفظ والضبط. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩] قوله: ﴿ إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ أي: حواها وحفِظَها وضبَطَها وأثبتَها. روىٰ الطبرانيُّ بإسناده إلىٰ سعد بن جُنادة

رضي الله عنه قـال: لمّا فرَغَ رسولُ الله ﷺ من غزوة حُنينٍ نزَلْنا قَفْراً من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبيُّ ﷺ: «اجْمَعُوا، مَن وجَدَ عوداً فلْيأتِ به، ومَن وجَدَ حطباً أو شيئاً فلْيأتِ به» قال: فما كان إلاّ ساعةً حتىٰ جعلناه رُكاماً، فقال النبيُّ ﷺ: «أترَوْن هذا؟ فكذلك تُجمَعُ الذنوبُ علىٰ الرجل منكم. كما جمَعتُم هذا، فلْيتقِ اللّهَ رجلٌ ولا يُذنبَ صغيرةً ولا كبيرة، فإنها مُحصَاةٌ عليه».

ويأتي الإحصاء بمعنىٰ الكتابة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، أي: كتبْناه في اللّوح المحفوظ، وكذلك قولُه عز من قائل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩]، قال المعرِبُون: انتصب «كتاباً» علىٰ المصدرية لأحصيناه؛ لأن «أحصيناه» في معنىٰ كتبْناه.

يقولُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨] أي: وإن تتعرَّضوا لتَعْداد نِعم الله التي أنعَمَ بها عليكم إجمالاً وفضلاً عن التفصيل، لا تطيقوا إحصاءَها بوجهٍ من الوجوه، ولا تقوموا بحصرها علىٰ حالٍ من الأحوال.

ولمّا كان إحصاءُ النِّعم ــ أي تَعدادُها ــ مما يبعَثُ علىٰ شكر المُنعِمِ عزَّ وجل، فقد ذهَبَ الدامغانيُّ إلىٰ أنّ الإحصاء في الآية الكريمة بمعنىٰ الشكر. ويشهد لهذا ما ذكره ابنُ كثير في تفسير سورة النحل: قال: أي: يتجاوزُ عنكم، ولو طالَبَكم بشكر جميع نِعمه لَعجَزْتم عن القيام بذلك. ولو أمَرَكم به لضعُفتُم وترَكْتم، ولو عذّبكم لَعذّبكـم وهو غير ظالمٍ لكـم، ولكنه غفور رحيـم، يغفر الكثير، ويجـازي علـىٰ اليسيـر. وقال ابن جرير: يقول: إن اللّهَ لَغفـورٌ لِمَا كـان منكم من تقصيرٍ في شكر بعـض ذلك إذا تُبتم وأنبتم إلىٰ طاعته واتباع مَرْضاته. رحيمٌ بكم لا يعذبُكم بعـد الإنابـة والتوبة، وقال في سـورة إبراهيم: يُخبر تعالىٰ عن عجز العباد عن تَعْداد النِّعم، فضلاً عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيبٍ رحمه الله: إن حقَّ الله أثقلُ من أن يقومَ به العباد، وإنّ نِعمَ الله أكثرُ من أن يُحصيَها العباد، ولكنْ أصبحوا تائبينَ

وأمسَوْا تائبين. وقال الإمام الشافعيُّ رحمه الله: الحمدُ لله الذي لا يؤدَّىٰ شكرُ نعمةٍ من نِعمِه إلا بنعمةٍ حادثة توجبُ علىٰ مؤدِّيها شكرَه بها. وقال الشوكاني: قال العقلاء: إن كلَّ جزءٍ من أجزاء الإنسان لو ظهَرَ فيه أدنىٰ خللٍ وأيسَرُ نقص، لنغَّصَ النِّعمَ علىٰ الإنسان، وتمنىٰ أن يُنفقَ الدنيا لو كانت في مِلكِه حتىٰ يزولَ عنه ذلك الخلل، فهو سُبحانَه يدبِّرُ بدَنَ هذا الإنسان علىٰ الوجهِ الملائم له، معَ أنّ الإنسان لا عِلمَ له بوجود ذلك، فكيف يُطيقُ حصْرَ بعض نِعم الله عليه أو يَقدِرُ علىٰ إحصائها أو يتمكنُ مِن شكرِ أدناها؟ وما أحسَنَ ما خَتَمَ به هذا الامتنان، الذي لا يلتبسُ به علىٰ إنسان، مُشيراً إلىٰ عظيم غُفرانِه، وسَعةِ رحمتِه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، أي: كثيرُ المغفرة والرحمة، لا يؤاخذُكم بالغفلة عن شكر نِعمِه، والقصور عن إحصائها، والعجزِ عن القيام بأدناها، ومِن رحمتِه: إدامتُها عليكم، وإدرارُها في كلِّ لحظة، وعند كلِّ نَفَس تتنفَّسُونَه، وحركةٍ تتحرّكونَ بها.

وفي حديث الدعاء الذي روَتْه عائشةُ رضي الله عنها: أنّ رسولَ الله ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهُمَّ إنّي أعوذُ برضاكَ مِن سخَطِك، وبمُعافاتِك من عقوبتِك، وأعوذُ بكَ مِنك. لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيْتَ علىٰ نفسِك»، أي: لا أحْصي نِعَمَك والثناءَ بها عليك، ولا أبلُغُ الواجبَ فيه.

وجاء في الحديث المرْويِّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مَن أحصاها دخَلَ الجنة». قال أبو سليمانَ الخطابيُّ رحمه الله: معنىٰ الإحصاء في اللغة علىٰ ثلاثة أوجه: أحدها: الإحصاء الذي هو بمعنىٰ العَدّ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨] والثاني: بمعنىٰ الإطاقة، كقوله سبحانه: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تطيقوه ـ قلت: وقد ذكرت شواهدَ هذيْنِ المعنييْنِ فيما سبق[١] ـ والثالث: بمعنىٰ العقل والمعرفة.

---

(١) انظر ص (٣٢٩) من هذا الكتاب.

ويروىٰ عن ابن عباسٍ أنه قال: أحصَيْتُ كُلَّ القرآن إلاَّ حرفيْن، يريد: أدرَكْتُ عِلمَه وعقَلْتُ معناه. ويقال: فلانٌ ذو حَصَاةٍ: إذا كان ذا عقلٍ وتحصيل. قال الشاعر:

وإنّ لسانَ المرءِ ـ ما لم تكنْ له حَصَاةٌ علىٰ عوْراتِه ـ لَدليلُ

قلت: وقد جعل ابنُ فارسٍ ذلك مأخوذاً من الحَصَىٰ المعروف، قال: ومما اشْتُقَّ منه: الحَصاة، يقال: ما له حَصَاةٌ، أي: ما له عقل، وهو من هذا؛ لأن في الحَصَىٰ قوّةً وشدة، والحصاة: العقل؛ لأن به تماسكَ الرجل وقوّةَ نفسِه، ثم أنشَدَ البيت السابق.

قال الخطابي: فمَن حمَلَ الخبرَ علىٰ معنىٰ الإحصاء الذي هو العَدّ، قال: إن معناه: أنّ مَن يعُدُّ هذه الأسماءَ ذاكراً اللّهَ عزّ وجلّ ومُثْنياً عليه بها. واستدلّ في ذلك بأن التسعةَ والتسعينَ لمّا كانت عدداً من الأعداد، ثم عطَفَ بالإحصاء عليها، عُلِمَ أن المرادَ به إحصاءُ العدد دونَ غيره. ومَن حمَلَه علىٰ الإطاقةِ قال: معناه: أن يطيقَ القيامَ بحقِّها في معاملةِ الله تعالىٰ بها، ومطالبةِ النفس بمواجبها، فيُخْطِرَ بقلبه معنىٰ العفو والمغفرة إذا سمَّاه عفوّاً وغفوراً، فيرجُوَ مغفرة الله وعفوَه، ويحذَرَ نِقمتَه إذا قال: المنتقم، ويثقَ بما وعد من الرزق، وتطمئنَّ به نفسُه إلىٰ ما ضمِنَه من الرزق إذا قال: الرزاق. وإذا قال: رقيب، راقب ربَّه، وعلم أنه مطّلعٌ علىٰ سرِّه، إلىٰ ما يشبه ذلك من الأمور التي تقتضيها معاني هذه الأسماء. وأمّا مَن تأوّلَه علىٰ الإحصاء، الذي هو العقلُ والمعرفة، قال: معناه مَن عرَفَها، وعَقَل معانيَها، وآمَنَ بها، استحَقَّ دخولَ الجنة. وهذه الأقاويل الثلاثة كلُّها متوجّهةٌ غيرُ بعيدة، واللهُ أعلم.

وجاء في الحديث: «استقيموا ولن تُحصُوا، واعلَموا أنّ خيرَ أعمالِكمُ الصّلاة، ولن يحافظَ علىٰ الوضوء إلاّ مؤمن» أي: استقيموا في كلِّ شيء حتىٰ لا تَميلوا، ولن تُطيقوا الاستقامة، مِن قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]. قال الزمخشري: ومعنىٰ التركيب: الضبط، فالعادُّ يضبِطُ ما يعُدُّه ويحصُره، وكذلك

المُطيقُ للشيء ضابطٌ له.

وفي الحديث: أنه نَهَىٰ عن بيع الحَصَاة. هو: أن يقولَ البائعُ أو المشتري: إذا نبذتُ إليك الحَصَاةَ فقد وجَبَ البيع. وقيل: هو أن يقول: بعتُك من السِّلَعِ ما تقَعُ عليه حصَاتُك إذا رمَيْتَ بها، أو بعتُك من الأرض إلىٰ حيث تنتهي حصَاتُك. وهذا كلُّه فاسد؛ لأنه من بيوعِ الجاهلية، وكلُّها غرَر، لِمَا فيها من الجهالة، وقد أبطلَها الله بالإسلام وأحكامِه.

[ح ض ر]

يقول ربُّنا عزّ وجل آمِراً نبيَّه ﷺ أن يسألَ اليهود الذين هم بحضْرتِه عن قصة أصحابِهم الذين خالفوا أمرَ الله ففاجأتْهم نِقمتُه، فيقولُ عزَّ من قائل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. حاضرة البحر، أي: مُجاورة البحر، وبقُرْبه، يقال: كنت بحضْرةِ الدار، أي: بقُربِها، وكنت بحضْرة فلان، أي: بجواره وقربِه بحيث يراني وأراه. واختُلِف في تعيين هذه القرية المذكورة، والأكثرُ علىٰ أنها قريةُ أيْلَـة، وهـيَ علىٰ شاطىء بحرِ القُلْزُم، وهو بحرُ السُّوَيْس من ديار مصر، قريبةٌ من الطُّور.

وهذه المادة (حضر) تدلّ علىٰ أصل واحد في اللغة، هو كما قال ابن فارس: إيرادُ الشيء وورِدُه ومشاهدتُه. وقال تعالىٰ في قصة ناقةِ ثَمود: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]. الشِّرْب، بكسر الشين: الحَظُّ من الماء. ومعنىٰ محتضَر: أنه يحضُرُه مَن هو له، فالناقةُ تحضُرُه يوماً، وهم يحضرونَه يوماً، كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وقال مجاهد: إن ثمودَ يحضُرونَ الماءَ يومَ نوبتِهم فيشربون، ويحضُرونَ يومَ نوبتِها فيحتَلِبون.

ويقول تعالىٰ آمِراً نبيَّه ﷺ أن يستعيذَ من الشياطين، من نزْغاتِهم ووساوسِهم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨] أي: أعوذ بك أن يكونوا معي في حال من الأحوال؛ فإنهم إذا حضروا الإنسانَ وخالطوه في أي شأن من شؤونه، لم يكن لهم عمَلٌ إلاّ الوَسْوسةُ والإغراءُ علىٰ الشرّ والصّرفُ عن الخير، قال ابن فارس: وتأوّل ناسٌ قولَه تعالىٰ: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أن يصيبوني بسوء. قال: والبابُ كلُّه واحد، وذلك أنهم يحضُرونه بسوء.

وأخرَجَ ابنُ أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والترمذي ـ وحسَّنه ـ والنّسائي؛ والبيهقي في «الأسماء والصِّفات»، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه، قال: كان رسـولُ الله ﷺ يعلِّمُنا كلماتٍ نقولُهـنّ عنـدَ النوم من الفزَع: «بسم الله، أعوذُ بكلمـاتِ الله التّامـةِ من غضَبه وعقابـه وشـرِّ عبـادِه، ومن همَزاتِ الشياطين وأن يحضُـرون». قال: فكان عبدُ الله بن عمـرٍو يعلّمُها مَن بلَغَ من ولـدِه أن يقولَها عندَ نومِه، ومَن كان منهم صغيراً لا يعقِلُ أن يحفظَها، كتبَها له فعلَّقها في عُنقِه.

ومن غريب هذه المادة: الحُضْر، بضم الحاء وسكون الضاد، وهو العَدْوُ، وهو معنـىً يرجعُ إلىٰ المعنىٰ الأصليّ للمـادة، وهو: إيرادُ الشيء ومشاهدته. قال ابن فارس: لأن الفرسَ وغيرَه يُحْضِرانِ ما عندَهما من ذلك. ومن ذلك ما رواه أبو عبيدٍ الهرَويُّ في كتابه «الغريبيْن» بسنـده إلىٰ كعب بن عُجْـرة رضي الله عنه، قال: ذكَرَ رسـولُ الله ﷺ فتنةً، فقرَّبها وعظَّمَها. قال: ثم مرّ رجـلٌ متقنِّعٌ في مِلْحفة، فقال: «هذا يومَئذٍ علىٰ الحقّ». فانطلَقْتُ مُسْرِعاً أو مُحْضِراً، فأخذتُ بضَبْعِه فقلت: هذا هو يا رسولَ الله، قال: «هذا». فإذا هو عثمان بن عفان. يقال: أحضَر الرجلُ: إذا عَدا، واستحضَرَ دابّتَه: إذا حمَلَها علىٰ الحُضْر، وهو العَدْو. ومنه حديثُ ورودِ النار: «ثم يَصْدُرونَ عنها بأعمالِهم كلمح البرْق ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفَرَس».

وجـاء في الحـديث: «لا يَبعْ حاضرٌ لبادٍ». الحاضر: هو المُقيمُ في المُدنِ

والقرىٰ، والبادي: المقيمُ بالبادية. قال ابن الأثير: والمنهيُّ عنه: أن يأتي البدويُّ البلدةَ ومعَه قوتٌ يبغي التسارُعَ إلىٰ بيعِه رخيصاً، فيقولَ له الحضَريُّ: أُترُكْه عندي لأُبالغَ في بيعِه. فهذا الصنيعُ محرّم، لمَا فيه من الإضرار بالغير، والبيعُ إذا جرىٰ بالمغالاة مُنعقِد. وهذا إذا كانت السلعةُ مما تعُمُّ الحاجةُ إليها كالأقوات، فإن كانت لا تعُمُّ، أو كثُرَ القوتُ واستُغني عنه، ففي التحريم تردُّد، يُعوَّلُ في أحَدِهما علىٰ عموم ظاهرِ النهي، وحسمِ باب الضرر، وفي الثاني علىٰ معنىٰ الضرر وزواله. وقد جاء عن ابن عباس أنه سئل عن معنىٰ: «لا يبع حاضرٌ لبادٍ» فقال: لا يكنْ له سمساراً. وجاء في حديث أسامةَ بن زيد رضي الله عنه: أنه كان في سَرِيّة، وأميرُها غالبُ بنُ عبد الله، وأنهم قد أحاطوا ليلاً بالحاضر، وفي الحاضر نَعَمٌ، وقد عطَّنُوا مواشيَهم، فخرَجَ إليهم الرجال، فقاتلوا ساعةً ثم وَلَّوْا. قال أسامة: فخرجتُ في إثْر رجلٍ منهم جعَلَ يتهكّمُ بي، حتىٰ إذا دنَوْتُ منه ولحَمْتُه بالسيف قال: لا إلهَ إلاّ الله. فلم أُغمِدْ عنه سيفي حتىٰ أوردَتُه شَعُوبَ[١]. قوله: «أحاطوا ليلاً بالحاضر» قال الخطابي: الحاضر: الحيُّ الحُضُورُ في المكان الذي اتخذوه داراً، اسمٌ جامعٌ لهم، كالحاج والسَّامر، ونحو ذلك، وربّما جعلوه اسماً للمكان المحضُور، فاعلاً بمعنىٰ مفعول. يقال: نزَلْنا حاضرَ بني فلان. قال الراجز:

لمّا نزَلْنا حاضرَ المدينهْ ... جاءوا بِعَنْزٍ غَثَّةٍ سَمِينهْ

وسأل ابنُ الأعرابي أبا المكارِم اللغويَّ: كيف تكونُ العَنْزُ غثّةً سمينة؟ قال: أراد أنها كانت غثّةً مهزولة، فرَوَّوْها بالسَّمن.

وجاء في حديث صلاة الصبح: «فإنها مشهودةٌ محضورة» أي: تحضُرُها ملائكةُ الليل والنهار. وفي الحديث: «قولوا ما بحضْرتِكم» أي: ماهو حاضرٌ عندَكم موجودٌ، ولا تتكلَّفوا غيرَه. وهذا كقوله عليه السلام لرهطٍ من بني عامرٍ حينَ قدِموا

---

(١) شَعوب: من أسماء المنيّة غير مصروف، وسميت شَعُوبَ لأنها تفرِّق وتشعِّب.

عليه وبالغوا في مدْحِه، فقال لهم: «قولوا بقولِكم ولا يَستجْرِيَنَّكُمُ الشيطان» أي: قولوا ما هو عادتُكم من القول المسترسَل فيه علىٰ السجيّة، دونَ المتكلَّفِ المتعمَّل، للتزيُّدِ في الثناء.

[ح ط م]

من الأمثال التي تكرَّر ضربُها في القرآنِ الكريم للعِظةِ والاعتبار وعدَمِ الاغترار، تمثيلُ حال الدنيا في نضارتِها وإزهارِها وإقبالِها، ثم تحوُّلِها إلىٰ اليُبْسِ والجفافِ والإدبار، بالماءِ الذي يُنزلُه الله من السماء فيختلطُ بالتربة المَوات لتَنْتَعِشَ بالحياة وتُثمرَ وتزهر أنواعاً من الزروع وضروباً من الثمار. ثم يصوِّحُ النَّبت[1]، ولا يبقى إلا الهَشِيمُ الذي تذروه الرِّياح. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١]. قوله عز وجل: ﴿ حُطَٰمًا ﴾ أي: يابساً متحطِّماً متكسِّراً.

وهذه المادة (حطم) تدل علىٰ معنىً واحد، هو الكَسْر. يقال: حطَمْتُ الشيءَ حطماً: كسرتُه، ويقالُ للمتكسِّر في نفسِه: حَطِمٌ.

وفي الكتاب العزيز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨]. وقال تعالىٰ في شأن المتكالب علىٰ جمع المال وعدِّه: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾ [الهمزة: ٤] أي: يُرْمَىٰ في النار؛ لأنها تحطِمُ كلَّ شيء، أي: تكسِرُه وتأتي عليه. ويقال: رجلٌ حُطَمة، أي:

---

(١) صوّح النبتُ وتصوّح: تشقق ويبِس.

يأتي علىٰ كلِّ شيء. وقال الفراء: حُطَمةُ: من أسماء النار.

ورویٰ الحسَنُ رضي الله عنه، قال: دخل عائذُ بن عمرٍو المزنيُّ، وكان من صالحي أصحاب محمد ﷺ، علىٰ عبيد الله بن زياد، فقال: أي بُنيّ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ مِن شرِّ الرِّعاءِ الحُطَمة» فإياك أن تكونَ منهم، فقال له عبيد الله: اجلسْ، فما أنت إلاّ من نُخالةِ أصحاب محمد. فقال: وهل كانت لهم نُخالة؟ إنما النُّخالةُ بعدَهم في غيرهم. قوله: «شرُّ الرِّعاءِ الحُطَمة» هو: العنيفُ برعاية الإبل في السَّوْق والإيراد والإصدار، ويُلقي بعضَها علىٰ بعضٍ ويَعْسِفُها. وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لوالي السُّوء، ويقال أيضاً: حُطَم، بلا هاء. ومنه حديثُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت قريشٌ إذا رأتْه في حرب قالت: احذَروا الحُطم، احذَوروا القُطَم. ومنه قول الحجاج في خُطبتِه:

قـد لفَّهـا الليـلُ بسَـوَّاقٍ حُطَـمْ

أي: عَسُوفٍ عَنيفٍ. والحُطَمُ من أبنية المبالغة، وهو الذي يكثُرُ منه الحَطْم.

وفي حديث سَوْدَةَ رضي الله عنها: أنها استأذَنَتْ أن تدفَعَ مِن منىً قبلَ حَطْمةِ الناس. أي: قبل أن يزدحموا ويَحطِم بعضُهم بعضاً.

وجاء في حديث توبةِ كعبِ بن مالك رضي الله عنه: «إذَنْ يحطِمُكم الناس» أي: يدوسونَكم ويزدَحمونَ عليكم. ومنه سُمِّي حَطيمُ مكة، وهو: ما بين الرُّكن والبـاب، وقيل: هو الحِجْـرُ المُخْرَجُ منهـا، سُمِّي به لأن البيـت رُفـع وتُـرك هو محطوماً. وقيل: إنما سُمِّي كذلك؛ لأن العربَ كانت تطرَحُ فيه ما طافت به من الثياب، فَتَبقىٰ حتىٰ تنحطمَ بطول الزمان، فيكونُ الحطيمُ فعيلاً بمعنىٰ فاعل. وفي حديث عائشةَ رضي الله عنها، أنها قالت: بعدَما حطَمْتُموه، تعني النبيَّ ﷺ. يقال: حطمَ فلاناً أهلُه: إذا كبِرَ فيهم، كأنهم بما حمَّلُوه من أثقالِهم صيَّروه شيخاً محطوماً، والحَطْمُ: كسْرُك الشيءَ اليابس.

وفي كلمةٍ بليغة لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أيها الناس، متاعُ الدنيا حطامٌ مُوبِىء. الحطام: النَّبْتُ المتكسِّر المتفتِّت، والموبىء: المُهْلك، من الوباء، وهو الطاعون والمرض العامّ.

وفي حديث هرِم بن حَيَّان: أنه غضِبَ علىٰ رجل، فجعَلَ يتحطَّمُ عليه غيظاً. قال أبو منصور الأزهري: أراد: يتلظّىٰ ويتوقَّد. مأخوذٌ من الحُطَمة، وهي النار التي تَحطِمُ كلَّ شيء. وفي حديث زواج فاطمةَ رضي الله عنها، قال علي رضي الله عنه: لمّا خطبتُ فاطمةَ قال رسولُ الله ﷺ: «أعندَكَ شيء؟» قلت: لا. قال: «فأينَ درْعُك الحُطَمِيَّةُ التي أعطيتُك؟» قلت: ها هي ذِه. قال: «أعْطِها». الدرعُ الحُطَمِيَّة: هي التي تحطِمُ السيوف، أي: تكسرها. وقيل: هي العريضةُ الثقيلة، وقيل: هي منسوبة إلىٰ بطنٍ من عبد القيس يقال لهم: حُطَمةُ بن مُحارب، كانوا يعمَلون الدروع، ويقال لهم: بنو حُطامة. قال ابنُ عيينة: وهي شرُّ الدروع.

وفي حديث فتح مكة، قال النبيّ ﷺ للعباس رضي الله عنه: «احبِسْ أبا سفيانَ عندَ حَطْم الجبل حتىٰ ينظُرَ إلىٰ المسلمين». قال ابن الأثير: هكذا جاءت في كتاب أبي موسىٰ، وقال: حَطْم الجبل: الموضع الذي حُطِمَ منه، أي: ثُلم فبقيَ منقطِعاً، قال: ويُحتمَلُ أن يريدَ عندَ مضيق الجبل، حيث يزحَمُ بعضُهم بعضاً. ورواه أبو نصر الحميديُّ في كتابه بالخاء المعجمة، وفسَّرها في غريبه فقال: الخَطم والخطمة: رَعْنُ الجبل، وهو الأنف النادرُ منه.

والذي جاء في كتاب البخاري ــ وهو أخرج الحديث ــ فيما قرأناه ورأيناه من نُسخ كتابه: «عند حَطْم الخيل» هكذا مضبوطاً، فإن صحَّت الروايةُ به، ولم يكن تحريفاً من الكَتَبة، فيكونُ معناه ــ واللهُ أعلم ــ أنه يحبسه في الموضع المتضايق الذي تتحطّم فيه الخيل، أي: يدوسُ بعضُها بعضاً، ويزحَمُ بعضُها بعضاً، فيراها جميعَها، وتكثُرُ في عينِه بمرورِها في ذلك الموضع الضيّق، وكذلك أراد بحبسِه عند خَطْم الجبل علىٰ ما شرحه الحميديُّ، فإن الأنفَ النادرَ من الجبل يُضيِّقُ الموضعَ

الذي يخرُج منه. قلت: وقد أشار الحافظ ابنُ حجر في «الفتح» إلىٰ الروايتين، ثم أشار إلىٰ أن رواية الأكثر: «عند حَطْم الخيل». قال: وإنما حبَسَه هناك لكونه مَضِيقاً ليرىٰ الجميعَ ولا يفوتَه رؤيةُ أحَدٍ منهم.

[ح ف د]

يقول ربُّنا عز وجلّ، ذَاكراً نِعمَه علىٰ عبيده: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢]. قال ابن عرفة نفطويه: الحَفَدَةُ عندَ العرب: الأعوان، فكلُّ من عَمِلَ عملاً أطاع فيه وسارعَ فهو حافد، والحَفَدانُ: السرعة، وقال أبو عبيد: أصلُ الحَفْد: الخدمةُ والعمَل، يقال: حَفَدَ يحفِدُ حَفْداً. قال الأخطل:

حفَدَ الولائدُ حولَهنَّ وأُسْلِمتْ ... بأكُفِّهنَّ أَزِمَّةُ الأجمالِ

أراد: خدمهنّ الولائد. وقال الأعشىٰ:

كلِّفْتُ مجهولَها نوقاً يمانيةً ... إذا الحُداةُ علىٰ أكسائها حَفَدُوا

وقال الشاعر:

فلو أنَّ نفسي طاوعتْني لأصبحَتْ ... لها حَفَدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ
ولكنّها نفسٌ علَيَّ أبيَّةٌ ... عَيُوفٌ، لأصهارِ اللِّئامِ قَذُورُ

واختلَف المفسّرونَ في معنىٰ ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ في الآية الكريمة، فقيل: المرادُ أولادُ الأولاد، وهو الظاهر؛ لأنه معطوف علىٰ البنين. وقيل: المرادُ الأَخْتان، وهمُ الأقاربُ مِن جهة المرأة كابنِها وأخيها وما أشبهَهما. وقيل: المراد: الخدَمُ مطلقاً. وفي حديث دعاءِ القنوت: «وإليك نسعىٰ ونَحْفِد» أي: نَخِفُّ في مرضاتِك ونُسْرِعُ

إلىٰ طاعتك. حكىٰ الخطابيُّ عن أبي عبيدة قال: الحَفَدةُ: الأعوان. يقال: حَفَدني بخير، وهو حافدي، وأنشد لطرَفة:

يحْفِـدُون الضّيـفَ فـي أبيـاتِهـمْ   كـرَمـاً ذلـك منهـم غيـرَ ذُلّْ

وفي حديث أمِّ مَعبد، الذي وصَفَتْ فيه النبيَّ ﷺ: محفودٌ محشود. فالمحفود: الذي يخدُمه أصحابُه ويعظِّمونَه ويُسْرِعونَ في طاعتِه، ويقال: حفَدْتُ وأحفَدْت، لغتان، أي: خدَمْت. ويقال: حافدٌ وحَفَد، مثل خادمٍ وخَدَم، وحافدٌ وحَفَدة، مثل كافرٍ وكفَرة، وكامل وكمَلة. وفي حديث عمر رضي الله عنه «أن المُغيرةَ بنَ شُعبةَ ذُكِرَ له عثمانُ رضي الله عنه للخلافة، فقال: أخشىٰ حَفْدَه، يريد إقبالَه علىٰ أقاربه، وخُفُوفَه وإسراعَه في مرضاتِهم.

[ح ف ر]

يقولُ عزّ وجلَّ علىٰ لسان مُشركي قريشٍ ومن قال بقولِهم في إنكار المَعادِ والبعث: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]. أي: أنُرَدُّ إلىٰ أولِ حالِنا وابتداء أمرِنا فنصيرَ أحياءً بعد موتِنا؟ يقال: رجَعَ فلانٌ علىٰ حافرتِه، أي: علىٰ الطريقِ الذي جاء منه. ويقال: اقتَتَل القومُ عند الحافرة، أي: عندَ أوّلِ ما التَقَوْا. وسُمِّيتِ الطريقُ التي جاء منها: حافرةً، لتأثيرِه فيها بمشيِه فيها، فهي حافرة بمعنىٰ محفورة. ومن هٰذا قول الشاعر:

أحـافـرةً علـىٰ صَلَـعٍ وشَيْـبٍ   مَعـاذَ الله مِـن سَفَـهٍ وعـارِ

أي: أأرجِعُ إلىٰ ما كنتُ عليه في شبابي منَ الغزَلِ بعد الشَّيب والصَّلَع؟ وقيل: الحافرة: العاجلة، والمعنىٰ: أئنا لَمردودونَ إلىٰ الدنيا؟ وقيل: الحافرة: الأرض التي تُحفَرُ فيها قبورُهم، ومنه قول الشاعر:

آلَيْـتُ لا أنسـاكـمُ فـاعلَمـوا   حتىٰ يُرَدَّ الناسُ في الحافرهْ

والمعنىٰ: أئنا لمردودونَ في قبورِنا أحياء؟

وفي حديث أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن التوبةِ النصوح، فقال: «هُو: النّدَمُ علىٰ الذنب حين يفرُطُ منك، وتستغفرُ الله بندامتِك عندَ الحافر، ثم لا تعودُ إليه أبداً». قيل: كانوا لكرامةِ الفَرَس عندَهم، ونفاستِهم بها، لا يبيعونَها إلاّ بالنقد، فقالوا: «النّقدُ عند الحافر»، أي: عندَ بيع ذات الحافر، وسيَّروه مثلاً. ومن قال: عندَ الحافرة، فإنه لمّا جعَلَ الحافرَ في معنىٰ الدابّة نفسِها، وكثُرَ استعمالُه من غيرِ ذكْرِ الذات أُلحِقت به علامةُ التأنيث، إشعاراً بتسميةِ الذات بها، أو هي فاعلة من الحَفْر؛ لأن الفرسَ بشدّةِ دوْسِها تحفِرُ الأرض، كما سُمِّيت فرساً لأنها تفرِسُ الأرض، أي: تدُقُّها. هذا أصلُ الكلمة، ثم كثُرَ حتىٰ استُعمِلَ في كل أوَّليّة، فقيل: رجَعَ إلىٰ حافرِه وحافرتِه، وفعل كذا عندَ الحافرِ والحافرة. ومعنىٰ الحديث: تَنْجيزُ الندامةِ والاستغفار عندَ مُواقَعةِ الذنبِ من غيرِ تأخير؛ لأن التأخيرَ من الإصرار. قال الزمخشري: الباء في «بندامتك» ـ يعني في قوله ﷺ: «وتستغفرُ الله بندامتك» ـ بمعنىٰ «مع» أو بمعنىٰ الاستعانة، أي: بطلب مغفرةِ الله بأن تندَم. والتوبةُ النصوح: هي التي يُناصحُ الإنسانُ فيها نفسَه مبالغاً، فجعَلَ الفعلَ لها، كأنها هي التي تُبالغُ في النصيحة.

وفي الحديث: «إنّ هذا الأمرَ لا يُترَكُ علىٰ حالتِه حتىٰ يُرَدَّ إلىٰ حافرتِه»، أي: أولِ تأسيسه. ومنه حديث سُراقةَ رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله، أرأيتَ أعمالَنا التي نعمَلُ، أمُؤاخَذُون بها عندَ الحافر، خيرٌ فخير، أو شرٌّ فشَرّ، أو شيءٌ سبَقَتْ به المقادير، وجفَّت به الأقلام؟

[ح ف ظ]

يقول ربُّنا عزّ وجلَّ مُخبراً أنه سبحانَه وتعالىٰ قد وكَّل بكل عبدٍ من عبادِه ملائكةً يتعاقَبونَ عليه، حرسٌ بالليل وحرس بالنهار، يحفَظونَه منَ الأَسْواء والحادثات، فيقول عزَّ من قائل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. قوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمر الله وإذنِه، أي: ذلك الحفظُ بأمرِ الله. وجاء في الحديث: «إنّ معَكم مَن لا يُفارِقُكم إلاّ عندَ الخَلاءِ وعندَ الجِماع، فاستَحْيُوهُم وأكرِموهم». ورُوي عن ابن عباسٍ في قولِه تعالىٰ: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: ملائكةٌ يحفَظونَه من بينِ يدَيْه ومن خلْفِه، فإذا جاء قدَرُ الله خلَّوْا عنه. وقال مجاهد: ما من عبدٍ إلاّ له ملَكٌ موكَّلٌ يحفَظُه في نومِه ويقَظتِه من الجنِّ والإنس والهوامّ، فما منها شيءٌ يأتيه يريدُه إلاّ قال له الملَك: وراءَك، إلاّ شيءٌ أذِنَ اللّهُ فيه فيصيبُه.

وقال أبو مِجْلَز[1]: جاء رجلٌ من مُرادٍ إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه، وهو يصلي، فقال: احترسْ، فإن ناساً من مُرادٍ يريدونَ قتْلَك. فقال: إنّ معَ كلِّ رجلٍ ملكَيْن يحفَظانِـه مما لم يُقَدَّر، فإذا جاء القـدَرُ خُلِّيـا بينَه وبينَه. وجاء في الحديث: أنهم قالوا: يا رسولَ الله، أرأيتَ رُقْيا نسترْقي بها، هل ترُدُّ مِن قدَرِ الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدَرِ الله».

وقال تعالىٰ علىٰ لسان يعقوبَ عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف: ٦٤]. وقـرىء: ﴿حِفْظاً﴾ فمَن قرأ: حافظـاً، نصبَـه علـىٰ الحال، وأراد: فالله خيرُ

---

(١) كمنبر، واسمه: لاحقُ بن حُميْد، تابعيّ. (الناشر).

الحافظين. ومن قرأ: حِفْظاً، نصبَه علىٰ التمييز، وأراد: حِفْظُ الله خيرُ حفْظ.

وهذه المادة (حفظ) تدلُّ علىٰ معنىً واحد هو: مراعاةُ الشيء وتعهُّدُه وضبطُه. فيقال: حفِظتُ الكتابَ وحفِظتُ الوُدّ. وهو بذلك يُستعمَلُ في ضدّ النسيان وضدِّ الإهمال، وقد استُعمِلَ الحفظُ كنايةً عن العفَّة، وذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]. فمعنىٰ حفظِهم لها أنهم مُمسكونَ لها بالعفافِ عمّا لا يحِلُّ لهم، وقولُه تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] أي: حافظاً. كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] فهو فعيل بمعنىٰ فاعل، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤] أي: حافظ لأعمالهم. فيكون حفيظٌ بمعنىٰ حافظ، نحوَ قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]. ويجوز أن يكونَ فعيلٌ بمعنىٰ مفعول، والمعنىٰ: عندَنا كتابٌ محفوظٌ لا يضيع، كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

ومن مادة (حفظ) تأتي الحفيظة. قال الراغب الأصبهانيُّ: والحفيظةُ: الغضب الذي تحمِلُ عليه المحافظة، ثم استُعمِل في الغضب المجرَّد، فقيل: أحفَظَني فلانٌ، أي: أغضَبَني. وقال ابن فارس: والغضب: الحفيظة، وذلك أن تلك الحالَ تدعو إلى مُراعاة الشيء، وهو المعنىٰ الأصلي لمادة حفظ. وفي قصة حُنين: ساق مالكُ ابنُ عوف معَ الناس الظُّعُنَ والأموال ــ أي: الإبل ــ فقال له دُريدُ بنُ الصِّمَّة: ما هذا يا مالك؟ قال: يا أبا قُرَّة، أرَدْتُ أن أُحْفِظَ الناسَ، وأن يقاتلوا عن أهليهم وأموالِهم. أُحْفظُ الناسَ، أي: أُغْضبُهم ليَنشُطوا للحربِ والقتال. وفي بعض الحديث: فبدَرَتْ مني كلمةٌ أحفَظَتْه» أي: أغضبَتْه، وهي الحفيظةُ، والحِفْظة. قال الراجز:

وحِفْظةٍ أَكنَّها ضميري

[ح ف ف]

يقول تعالىٰ في قصّةِ الرجُلينِ اللذيْن ضرَبَهما مثلاً لمَن يتعزَّزُ بالدنيا ويغترُّ بإقبالِها، ويستنكِفُ عن مُجالسةِ الفقراء. فيقول عزَّ من قائل: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ [الكهف: ٣٢]. قوله: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾: أي جعلْنا النخلَ مُطِيفاً بهما، والأحِفَّةُ: الجوانب. الواحدُ: حِفاف. ويقال: حَفَّ به القومُ، أي: صاروا في أحفّتِه، وهي جوانبُه، ومنه قولُه عزّ وجل: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، أي: مُحْدِقينَ به. وأخرج الأزرُقيُّ في «أخبار مكةَ» شرَّفها الله: أن إبراهيمَ عليه السلام حينَ أرادَ رفْع قواعد البيت ظلَّل اللّهُ مكانَ البيت بغَمامة، فكانت حِفافَ البيت، أي: مُحدِقةً به. وحِفَافا الجبل: جانباه.

وفي صفة عمرَ رضي الله عنه: أنه كان أصلعَ له حِفاف». قال الأصمعيّ: هو أن ينكشفَ الشَّعَرُ عن وسَطِ الرأس، ويبقىٰ حولَه كالطُّرَّة. يقال: ما بقي علىٰ رأسِه إلاّ حِفَافٌ من الشَّعر.

وفي حديث فضْلِ الذكْر الذي رواه أبو هريرة وأبو سعيدٍ رضي الله عنهما، قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يقعُدُ قومٌ يذكُرونَ اللّهَ إلاّ حفَّتْهم الملائكة، وغشِيَتهمُ الرحمةُ، ونـزَلَت عليهمُ السَّكينة، وذكَرَهمُ اللّهُ فيمَن عندَه». قوله: «حفّتْهمُ الملائكةُ» أي: طافَتْ بهم ودارت حولَهم. وفي الحديث: «مَن حَفَّنا أو رَفَّنا فلْيقتصِدْ»، أي: من مَدحَنا فلا يَغْلُوَنَّ فيه، والحَفَّةُ: الكرامةُ التامَّةُ كأنها تُحدِقُ بالإنسانِ من جميعِ جوانبِه.

وتأتي هذه المادة (حفف) بمعنىٰ الشدّة في العيش. ومنه الحديث: أنه عليه الصّلاة والسلامُ لم يشبَعْ من طعامٍ إلاّ علىٰ حَفَف. والحفف: الضيق وقلة المعيشة.

يقال: أصابه حَفَفٌ وحُفُوف. وحَفَّت الأرضُ: إذا يبِس نباتُها، أي: أنه ﷺ لم يشبَعْ إلاّ والحالُ عندَه خلافُ الرخاء والخِصب. ومنه حديث عمر رضي الله عنه، قال له وفدُ العراق: إنّ أميرَ المومنينَ بلَغَ سناً وهو حافُّ المطعم. أي: يابسُه، وفي حديث عمر أيضاً: أنه أرسَلَ إلىٰ أبي عبيدةَ رسولاً، فسأله حينَ رجَع: كيف رأيتَ أبا عبيدة؟ فقال: رأيتُ بلَلاً مِن عيش، أي: رخاء، فقصَّرَ عمرُ من رزقِه، ثم أرسَلَ إليه، وقال للرسول حينَ قدِمَ عليه: كيف رأيتَه؟ قال: رأيت حُفُوفاً ـ أي: ضيقاً وشدة ـ فقال عمر: رحِمَ الله أبا عبيدة، بسَطْنا له فبَسَط، وقبَضْنا له فقبَض.

[ح ف ي]

يقول ربُّنا عزّ وجل، مُخاطباً نبيَّه ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. قوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ قال مجاهد: أراد كأنك استَحْفَيْتَ عنها السؤالَ حتىٰ علِمْتَها، أي: أكثَرْتَ المسألةَ عنها، يقال: أحْفَىٰ في السؤال، وألحف، أي: بالغَ واستقصىٰ. قال الأعشىٰ:

فإن تسألي عنّي فيا رُبَّ سائلٍ ... حفِيٍّ عن الأعشىٰ به حيثُ أصعَدا

ومن ذلك قولُه عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]. قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُجْهِدْكم ويُلحِفْ عليكم بمسألةِ جميع الأموال. يقال: أحْفَىٰ بالمسألة وألحَفَ وألحَّ بمعنىً واحد. والمَحْفِيّ: المُستقصي في السؤال، والإحفاءُ: الاستقصاء في الكلام، ومنه إحفاء الشارب، أي: استئصالُه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾. معناه: لا يأمرْكم بإخراجِها جميعاً في الزكاة

وسائر وجوه الطاعات، بل أمرَكم بإخراج القليل منها، وهو الزكاة. وهذا أصحُّ ما قيل في الآية الكريمة.

وقال تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام، يخاطب أباه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] قال ابن الأعرابيّ: أي: كان بي بارًّا وَصُولاً. يقال: حَفِيتُ به، وتحفَّيتُ به حفاوة، أي: بالغتُ في إكرامه وإلطافه. وهذا القول من إبراهيم عليه السلام كان منه قبلَ أن يعلم أن أباه يموتُ علىٰ الكفر، ولهذا قال عز وجل في موضع آخر: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وفي الحديث: أن عجوزاً دخَلَت علىٰ النبيِّ ﷺ، فسأل بها فأحفىٰ، وقال: «إنها كانت تأتينا في زمن خديجة، وإن كرمَ العهدِ من الإيمان». يقال: أحفىٰ فلانٌ بصاحبه، وحَفِي به، وتحفَّىٰ، أي: بالغَ في برِّه والسؤالِ عن حاله. وفي حديث عمرَ ابن الخطاب رضي الله عنه: فأنْزَلَ أويساً القرَنيَّ فاحتفاه وأكرمه. وفي حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: أن الأشعثَ سلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلامَ بغير تحفٍّ»، أي: غيرَ مبالغ في الردّ والسؤال.

وفي حديث النبي ﷺ، أنه قال: «إنّ الله تعالىٰ يقولُ لآدم: أخرجْ نصيبَ جهنَّمَ من ذريّتِك، فيقول: ياربِّ كم؟ فيقول: من كلِّ مئةٍ تسعةً وتسعين». فقالوا: يا رسولَ الله، احتُفينا إذاً، فماذا يبقىٰ منا؟ قال: «إن أُمتي في الأمم كالشعَرةِ البيضاء في الثور الأسود». قال أبو سليمانَ الخطابيّ: الاحتفاء: الاستقصاءُ في الشيء وبلوغُ الغاية منه، ومنه قولُهم: أحفَيْتَ في المسألة.

وروي عن أبـي عمر الزاهدِ غـلام ثعلب، عن بعض السَّلف: أن رجلاً سلَّم عليه، فقال: وعليكم السلام ورحمةُ الله وبركاتُه الزاكيات، فقال له: أراكَ قد حفْوتَنا ثوابَهـا. أي: منعْتَنـا ثوابَ السلام حيـث استوفيْتَ علينا في الردّ. وقيل: أراد:

تقصَّيْتَ ثوابَها واستوفيْتَه علينا. قال الأصمعيّ: يقال: حفَوْتُ الرجلَ من كل خير: إذا منعتَه، أحفُوه حَفْواً. وفي الحديث: أن رجلاً عطَسَ عندَ النبيِّ ﷺ فوقَ ثلاث، فقال له عليه السلام: «حفَوْت» أي: منعْتَنا أن نُشمِّتَك بعدَ الثلاث. قال ابن الأعرابي: الحَفْو: المنع. وحفا فلانٌ فلاناً من كلِّ خير: إذا منَعَه، وأتاني فحفوْتُه، أي: فحرمتُه. يقول: منعْتَنا أن نُشمِّتَك بعدَ الثلاث. وروي: «حقَوْت» بالقاف، أي: شدَدْت. مأخوذٌ من الحَقْو، وهو: الإزار الذي يُشَدُّ علىٰ الخَصْر. قال الزمخشريّ: والمعنىٰ واحد؛ لأن الشدَّ من باب المنع.

وفي حديث السِّواك: «لزمتُ السِّواكَ حتىٰ كدتُ أُحْفي فمي» أي: أستقصي علىٰ أسناني فأُذهِبُها بالسِّواك.

وفي الحديث: أنه ﷺ أمَرَ أن تُحْفىٰ الشواربُ وتُعْفىٰ اللِّحىٰ»، أي: يُلْزَقَ حَزُّها ويُبالَغَ في قصِّها. يقال: أحفىٰ فلانٌ شاربَه ورأسَه: إذا استقصَىٰ قصَّهما. وكلُّ شيءٍ استؤصلَ فقد احتُفي. ومنه حديث الفتح: «أن تحصُدوهم حَصْداً» وأحْفَىٰ بيدِه، أي: أمالَها وصْفًا للحصْدِ والمبالغة في القتل.

وفي حديث خليفة: «كتبتُ إلىٰ ابن عباس أن يكتُب إليَّ ويُحفِيَ عنّي». أي: يمسك عنّي بعضَ ما عندَه مما لا أحتمِلُه. قال ابن الأثير: وإن حُمِلَ الإخفاءُ بمعنىٰ المبالغة فيكون «عني» بمعنىٰ «عليَّ». وقيل: هو بمعنىٰ المبالغة في البرّ به، والنصيحةِ له، وروي: «ويُخْفيَ عني» بالخاء المعجمة. وجاء في حديث الانتعال: «ليُحْفِهما جميعاً أو ليَنْعَلْهما جميعاً» أي: ليمشِ حافيَ الرِّجلين أو منتَعِلَهما؛ لأنه قد يشُقُّ عليه المشيُ بنعل واحدة، فإنَّ وضْعَ إحدىٰ القدميْن حافيةً إنما يكونُ معَ التوقي من أذىً يصيبُها، ويكون وضعُ القدم المنتعلة علىٰ خلاف ذلك، فيختلف حينئذٍ مشيُه الذي اعتاده فلا يأمَن العِثار، وقد يُتصوَّرُ فاعلُه عندَ الناس بصورة مَن إحدىٰ رجليه أقصرُ من الأخرىٰ. والحفاء: خلافُ الانتعال. يقال: حَفىٰ يحْفَىٰ،

وهو الذي لا خُفَّ في رجليه ولا نعل. ويقال: حَفيَ الفرسُ، أي: انسَحجَ حافرُه. وأحْفَىٰ الرجلُ: حَفِيَتْ دابّتُه.

[ح ق ب]

يقول ربُّنا عزّ وجلّ في قصة موسىٰ والخَضِر عليهما السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠]. الحُقُب، بضم الحاء والقاف، وبسكون القاف أيضاً: ثمانونَ سنة. وقال ابن عرفة نفطويه في تفسير: ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ قال: دهراً وزماناً طويلاً. وقال أبو جعفرٍ النحاس: الذي يعرفُـه أهلُ اللغة أن الحُقْبَ والحِقْبَةَ: زمـانٌ من الدهر مُبهَمٌ غيرُ محدود، كما أن رهطاً وقوماً منهم غيرُ محدود. وجَمْعُ الحُقُبِ: أحقاب، ومنه قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢١ ــ ٢٣] وقد اختلف أهل التفسير في مقدار هذه الأحقاب من السنين، والصحيح أنها لا انقضاءَ لها. رُوي أن الحسنَ رضي الله عنه سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ فقال: أمّا الاحقابُ فليس لها عدَّةٌ إلا الخلودُ في النار، ولكنْ ذكَروا أن الحُقُبَ سبعون سنة، كلُّ يومٍ منها كألف سنة مما تعُدّون. وقال سعيدٌ عن قَتادة، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ وهو: ما لا انقطاع له، وكلما مضىٰ حُقُبٌ جاء حُقُبٌ بعدَه. وقال الربيعُ بن أنس: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾: لا يعلَمُ عدَّةَ هذه الأحقابِ إلا اللّٰهُ عزّ وجل.

وهذه المادة [حقب] ترجع في أصل وضعها اللغويّ إلىٰ معنىً واحد، وهو الحبسُ والجمعُ، وقد سمِّي الزمانُ أحقاباً لِمَا يجتمعُ فيه من السنينَ والشهور. وجاء في الحديث: «حَقِبَ أمرُ الناس» أي: فسَدَ واحتبَس، مأخوذٌ من قولهم: حَقَب المطر، أي: تأخّر واحتبس. ويقال أيضاً للبعير الذي احتُبِس بولُه: حاقب.

وفي حديث عُبادةَ بنِ أحمرَ المازنيّ، قال: كنت في إبِلي أرعاها، فأغارت علينا خيلُ رسولِ الله ﷺ، أو خيلُ أصحابه، فجمَعتُ إبلي، وركِبتُ الفحل، فحَقِبَ فتَفَاجَّ يبُول، فنزَلتُ عنه وركبتُ ناقةً منها فنجوتُ عليها، وطرَدوا الإبل.

يقال: حَقِبَ البعيرُ: إذا احتُبِس بولُه. وقيل: هو أن يصيبَ قضيبَه الحَقَبُ ــ وهو الحبْلُ الذي يُشَدُّ علىٰ حَقْوِ البعير ــ فيورِثَه ذلك.

أما في الناس فالحاقبُ هو: الذي احتاج إلىٰ الخلاء، فلم يتبرَّزْ فانحصَرَ غائطُه. أمّا الذي احتُبِس عليه بولُه، فهو الحاقنُ، بالنون. وفي الحديث: «لا رأيَ لحاقبٍ ولا لحاقن». ومنه الحديث الآخَر: نهىٰ عن صلاةِ الحاقبِ والحاقن. وفي معناه حديثُ عائشة رضي الله عنها: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا صلاةَ بحضْرةِ الطعام، ولا وهُو يدافِعُه الأخبَثان». وفي الحديث أيضاً: «لا يصلِّي وهُو حاقنٌ أو حاقبٌ أو حازق»، فالحازق: هو الذي ضاق عليه خُفُّه، فحزَقَ رجلَه، أي: عصَرَها وضَغَطها، وهو فاعلٌ بمعنىٰ مفعول. وفي حديث غزوة حنين: قال سلمةُ بن الأكوع: غزَوْنا معَ رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن معَ رسولِ الله ﷺ نتضحَّىٰ. جاء رجلٌ علىٰ جمل أحمر، فأناخَه، ثم انتزَعَ طَلَقاً من حَقَبِه فقيَّد به الجمل. قوله: نتضحَّى، أي: نتغدَّىٰ، والطَّلَقُ: قيدٌ من جلود. قال رؤبة يصف حماراً:

محَمْلَجٌ أُدْرِجَ إدراجَ الطلَقْ

والحَقَبُ: هو الحبلُ المشدودُ علىٰ حقْو البعير، علىٰ الرِّفادة[1]، وهي الزِّيادةُ التي تكون في مؤخَّر القتَب[2]، والوعاءُ الذي يجمَعُ فيه الرجلُ زادَه. والحقيبة معروفة، وأصلها: ما يجعَلُه الراكبُ وراءَ رحْلِه يجمَعُ فيها زادَه ومتاعَه، ثم

---

(١) وهي قطعة محشوة تحت السرج أو الرحل تكون دِعامة له.

(٢) القتب: برذعة البعير، قالوا: القتب للجمل كالإكاف (البرذعة) لغيره.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: لا تمنع المرأة نفسها من زوجها وإن كانت على ظهر قتب. =

استُعمِلتْ في كلِّ ما جمَعَ شيئاً وإن لم تكنْ خلفَ الرحْل. ومنه حديثُ زيد بن أرقم، قال: كنت يتيماً لابن رواحة، فخرج بي إلىٰ غزوة مؤتة، مُرْدفي علىٰ حقيبة رحلِه. وفي حديث عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رضي الله عنها: فأحْقَبَها عبدُ الرحمن علىٰ ناقة، أي: أرْدَفَها خلْفَه علىٰ حقيبة الرحل. وفي حديث أبي أُمامةَ رضي الله عنه: أنه أحْقَبَ زادَه خلْفَه علىٰ راحلتِه، أي: جعله وراءَه حقيبةً. وفي حديث عروة بن الزبير، قال يصف أباه الزبير، رضي الله عنهما: كان الزبيرُ طويلاً أزرقَ أخضَعَ أشعَرَ. ربما أخذْتُ وأنا غلامٌ بشعر كتفَيْه حتىٰ أقوم. يخُطُّ رجلاه الأرضَ إذا ركب الدابة، نُفُجَ الحقيبة. قوله: «أخضع» أي: فيه انحناءٌ كأنه من طوله، والأشعر: الكثير الشَّعَر، والنُّفُج، بضم النون والفاء، صفةٌ بمعنىٰ المنتفج، وهو الرابي المرتفع. ونُفُجُ الحقيبة، أي: مرتفعُ العَجُز، على التشبيه.

وفي حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: «لا يكونَنَّ أحدُكم إمَّعة». قيل: وما الإمَّعة؟ قال: «الذي يقول: أنا معَ الناس». وعنه: «اغْدُ عالِماً أو متعلِّماً، ولا تَغْدُ إمَّعة»، وعنه أيضاً قال: «كنا نعُدُّ الإمَّعةَ في الجاهلية: الذي يتْبَعُ الناس إلىٰ الطعام من غير أن يُدْعَىٰ، وإنّ الإمَّعة فيكمُ اليومَ: المُحْقِبُ الناسَ دِينَه». وفي رواية: «الذي يُحقِبُ دِينَه الرجالَ» أراد: الذي يقلِّدُ دِينَه لكلِّ أحد، أي: يجعل دِينَه تابعاً لدِينِ غيره بلا حجَّةٍ ولا بُرْهان ولا رَويّة، وهو من الإرداف علىٰ الحقيبة. ومن لفظ الحقيبة التي تُستعمَلُ لجمع الزاد وغيره، قيل: احتَقَبَ فلانٌ الإثم. كأنه جمَعَه وادَّخَره. وفي حديث فاطمةَ الزهراءِ رضي اللّهُ عنها: فدونَكم فاحتَقِبوها مُدبِرةَ الظهْر. الاحتقاب: الادّخارُ والجمع والاقتناء، يقال: حَقَب الشيءَ واحتَقَبَه، والمُدبِرةُ الظَّهْر: هي الناقةُ التي دَبِرَ ظهرها، أي: جُرِح وانْعقَر.

[ح ق ق]

تدور مادة (حقق) في العربية علىٰ أصل واحد، هو: إحكام الشيء وصحَّتُه، فالحقُّ نقيض الباطل. ثم يرجع كلُّ فرعٍ إليه بجودة الاستخراج وحُسْن التلفيق، هكذا قال أبو الحسين بن فارس. وفي أسماء الله تعالىٰ: «الحقُّ» وهو: الموجود حقيقةً المتحقِّقُ وجودُه وإلهيّتُه. والحقُّ: ضدُّ الباطل. قال عز من قائل: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الانعام: ٦٢]. وقال: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠]، وقال: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. الحقُّ: القرآن، والباطلُ: الكفر. وقيل: أراد بالحقِّ الحجَّة، وبالباطل شُبَهَهم، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١]. فالحقُّ الأول هو الإسلام، والحق الثاني هو ذكْر محمد ﷺ. ومعنىٰ الآية: يا أهل الكتاب، لم تخلِطونَ اليهوديّةَ والنصرانيةَ بالإسلام، وقد علِمتم أنّ دينَ الله الذي لا يقبَلُ من أحَدٍ غيرَه هو الإسلام؟ ولِمَ تكتمونَ شأنَ محمّد وأنتم تجِدونَه مكتوباً عندَكم في التوراة والإنجيل؟

وقال تعالىٰ ردًّا لقول المشركينَ فيما طلَبوه من رسولِه عليه السلام: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٧] فيقول عز من قائل: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] أي: ما ننزّلُ الملائكة إلاّ بالأمر المقْضيِّ المفصول، على ما تقتضيه الحِكمةُ الإلهيّة، والمشيئةُ الربانيّة. ويبيّنُ ذلك قولُه تعالىٰ في موضع آخرَ من الكتاب العزيز: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الانعام: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] معنىٰ «بالحقِّ» هنا: أنه عند الموت يتّضحُ للإنسان عموماً، أو للكافر خاصَّةً، الحقُّ، ويظهَرُ له صِدقُ ما جاءت به الرسلُ، من الإخبار بالبعث والوعدِ والوعيد. وقيل: الحق: هو الموت، وقيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، أي: وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموت، وكذا قرأ أبو بكرٍ الصدِّيق وعبدُ الله بن مسعود رضي الله عنهما، وروي أنه لمّا ثقُلَ أبو بكر رضي الله عنه، جاءت عائشةُ رضي الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لَعمْـرُك مـا يُغْنـي الثـراءُ عـن الفتـىٰ ... إذا حَشْرجَتْ يوماً وضاقَ بها الصّدرُ

فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

والحاقة في قوله تعالىٰ: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢] . هي القيامة وسُمِّيت كذلك؛ لأن فيها حقائقَ الأمور كما قال أبو زكريا الفراء. وقال غيره: لأنها تُحِقُّ كل إنسان بعمله من خير أو شرّ. وقيل: لأنها تُحِقُّ الكفّار الذين حاقُّوا الأنبياء إنكاراً. يقال: حاقَقْتُه فحقَقْته، أي: غالبتُه فغلبْتُه.

وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام وفرعون: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥] أي: أنا حقيقٌ بالصدق. وتكون (علىٰ) بمعنىٰ الباء. والمعنىٰ حقيقٌ بألاّ أقول علىٰ الله إلا الحق. كقولك: جديرٌ وخليقٌ. ومجيء الباء بمعنىٰ (علىٰ) كقول العرب: فلانٌ علىٰ حالة حسنة، وبحالة حسنة. ذكره الفراء. وقرأ نافع المدني: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديد الياء، أي: واجبٌ عليَّ. ومن ذلك قولُه عز وجل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] أي: ثبت ووجَبَ عليهم الوعيدُ والعذابُ بعد ظهور فِسقِهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] أي: إيجاباً. يقال: حقَقْتُ عليه القضاء حقّاً، وأحقَقْتُه، أي: أوجبْتُه. وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا

فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ [المائدة: ١٠٧] قوله: ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: استوْجَبا. وقوله: ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ [المائدة: ١٠٧] قال أبو منصور الأزهري: أي: مُلِك عليهم حقٌّ من حقوقهم بتلك اليمين الكاذبة، وقيل: معنىٰ «عليهم»: منهم، قال: وإذا اشترىٰ رجلٌ من رجل داراً فادّعاها آخرُ، وأقام عليه البيّنة، فقدِ استحَقَّها علىٰ المشتري، أي: ملَكَها عليه. والاستحقاقُ والاستيجابُ قريبانِ من السَّواء.

وجاء في الحديث: «مَن رآني فقد رأىٰ الحقَّ، فإنّ الشيطانَ لا يتكوَّنُني» أي: رؤيا صادقةً ليست من أضغاثِ الأحلام. وقيل: معناه: فقد رآني حقيقةً غيرَ مُشَبَّه. وقوله: «فإنّ الشيطانَ لا يتكوَّنُني» أي: لا يتكوَّنُ كوني، فحذَفَ المضاف، ووصَلَ المضافَ إليه بالفعل. والمعنىٰ: أنّ الشيطان لا يتكوّنُ في صورتي. وفي معنىٰ هذا الحديث ما رواه أبو هريرةَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن رآني في المنام فسيَراني في اليقَظة، ولا يتمثَّلُ الشيطانُ بي»، وما رواه أنسٌ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَن رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشيطانَ لا يتمثّلُ بي. ورؤيا المؤمنِ جزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً من النبوة».

وفي الحديث: «أتدري ما حقُّ العباد علىٰ الله؟» أي: ثوابُهم الذي وعَدَهم به فهو واجبُ الإنجاز ثابتٌ بوعدِه الحقّ، واللهُ سبحانه وتعالىٰ لا يجبُ عليه شيء، وإنما هو مقتضىٰ فضله وعدله.

وفي الحديث: «إنّ اللّهَ أعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصيّة لوارث» أي: حظَّه ونصيبَه الذي فُرِض له.

وجاء في حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيلٍ رحمه الله تعالىٰ، قال: خرج ورَقةُ بن نوْفل وزيدُ بن عمرو يطلُبانِ الدِّين حتىٰ مرَّا بالشام، فأمّا ورقةُ فتنصَّر، وأما زيدٌ فقيل له: إن الذي تطلبُه أمامَك، وسيظهَرُ بأرضِك، فأقبَلَ وهو يقول: لبيَّك حقًّا حقّا. تعبُّداً ورِقّا. قال الزمخشري: حقًّا: مصدرٌ مؤكِّدٌ لغيره، أعني أنه أكَّدَ به معنىٰ

ألزَمُ طاعتَك، الذي دلَّ عليه لبيَّك، كما تقول: هذا عبدُ الله حقّاً، فتؤكّدُ به مضمونَ جملتِك، وتكريرُه لزيادة التأكيد. وقوله: «تعبُّداً»: مفعولٌ له، أي: ألبِّي تعبُّداً.
وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه لمّا طُعن أوقِظ للصلاة، فقيل: الصلاةَ يا أميرَ المؤمنين. فقال: الصلاةُ والله إذاً ولا حقَّ، أي: الصلاة مقضيَّةٌ إذاً ولا حقَّ مقضيٌّ غيرَها. كأنه أراد أن في عنُقِه حقوقاً جمَّةً، مفترَضاً عليه الخروجُ عن عُهْدتها وهو غيرُ قادر عليه، فهَبْ أنه قضىٰ حقَّ الصلاة، فما بالُ الحقوق الأخرىٰ؟ وقيل: معناه: ولاحظَّ في الإسلام لمن تركها. وقيل: معناه: ولاحظَّ لي فيها؛ لأنه وجَدَ نفسَه علىٰ حال سقَطَت عنه الصلاةُ فيها.

وفي الحديث: «ليلةُ الضيف حقّ، فمَن أصبح بفِنائه ضيفٌ فهو عليه دين». جعَلَها حقّاً من طريق المعروف والمروءة. ولم يزل قِرَىٰ الضيف والإحسانُ إليه من شيم الكرام، ومنْعُ القِرىٰ مذموم. ومنه الحديث: «أيُّما رجل ضاف قوماً فأصبح محروماً، فإنّ نصْرَه حقٌّ علىٰ كل مسلم، حتىٰ يأخُذَ قِرىٰ ليلتِه مِن زرعِه ومالِه». قال الخطابي: يُشبه أن يكونَ هذا في الذي يخافُ التلفَ علىٰ نفسِه ولا يجدُ ما يأكلُه، فله أن يتناولَ من مال الغير ما يقيمُ نفسَه. وقد اختلف الفقهاءُ في حكم ما يأكلُه: هل يلزَمُه في مقابلتِه شيءٌ أم لا؟

وفي الحديث: «ما حقُّ امرىءٍ مسلمٍ أن يبيتَ ليلتيْنِ إلاّ ووصيَّتُه عندَه» أي: ما الأحزَمُ له والأحوطُ إلاّ هذا. وقيل: ما المعروف في الأخلاق الحسنة إلاّ هذا من جهة الفرض، وقيل: معناه: أن اللهَ حكَمَ علىٰ عبادِه بوجوب الوصيّة مطلقاً، ثم نسَخَ الوصيّةَ للوارث، فبقي حقُّ الرجل في مالِه أن يوصيَ لغير الوارث، وهو: ما قدَّره الشارعُ بثلُث ماله.

وفي حديث الحضانة: فجاء رجلانِ يحتَقّانِ في ولد، أي: يختصمان، ويطلبُ كلٌّ واحدٍ منهما حقَّه. ومنه الحديث: «من يُحاقُّني في ولدي». ومنه كتابُه لحُصَينِ بن نضلةَ الأسديّ: «أنّ له كَذا وكذا منَ الأرَضِينَ لا يُحاقُّه فيها أحد». ومن

ذلك أيضاً: حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قرّاء القرآن، قال: «متى ما تَغْلُوا تحتَقُّوا». قال الزمخشريُّ: التَّحاقُّ والاحتقاقُ: التخاصُم، وأن يقولَ كلُّ واحد: الحقُّ معي. وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا بلغ النساءُ نَصَّ الحِقاقِ فالعَصَبةُ أَوْلىٰ. قال ابن الأثير: الحِقاق: المخاصمة، وهو: أن يقولَ كلُّ واحد من الخَصْمَيْن: أنا أحقُّ به. ونصُّ الشيء: غايتُه ومنتهاه. والمعنىٰ: أن الجاريةَ ما دامت صغيرةً فأمُّها أولىٰ بها، فإذا بلغتْ فالعَصَبةُ أَوْلىٰ بأمرها، فمعنىٰ بلَغَتْ نَصَّ الحِقَاق: غايةَ البلوغ، وقيل: أراد بنَصِّ الحقاقِ بلوغَ العقل والإدراك؛ لأنه إنّما أراد منتهىٰ الأمر الذي تجبُ فيه الحقوق. وقيل: المرادُ بلوغُ المرأة إلىٰ الحدِّ الذي يجوزُ فيه تزويجُها وتصرُّفُها في أمرها تشبيهاً بالحِقَاق من الإبل، جمْع: حِقٍّ وحِقَّة، وهُو: الذي دخَلَ في السنَةِ الرابعة، وعند ذلك يُتمكَّنُ من ركوبه والحمل عليه. ويروىٰ: «نصَّ الحَقائق»: جمْع الحقيقة، وهي: ما يصيرُ إليه حقُّ الأمر ووجوبُه. ومنه قولهم: فلانٌ حامي الحقيقة: إذا حَمَىٰ ما يجبُ عليه حمايته.

وفي الحديث: «لا يبلُغُ المؤمنُ حقيقةَ الإيمان حتىٰ لا يعِيبَ مسلماً بعيْبٍ هُو فيه» يعني خالصَ الإيمان ومَحْضَه وكُنْهَه.

وفي حديث أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه: أنه خرَجَ في الهاجرة إلىٰ المسجد، فقيل له: ما أخرَجَك في هذه الساعة؟ قال: ما أخرَجني إلاَّ ما أجدُ من حاقِّ الجوع» أي: صادق الجوع وشدَّته. تقول العربُ: فلانٌ ــ والله ــ حاقُّ الرجل، وحاقُّ الشجاع، وحاقَّة الرجل، وحاقَّة الشجاع. والمعنىٰ: صادقُ جنسِه في الرجوليةِ والشجاعة. وروي: «مِن حاقِ الجوع» بتخفيف القاف، مِن: حاقَ به البلاءُ يَحِيقُ حَيْقاً وحاقاً: إذا أحدق به، يريدُ منَ اشتمال الجوع عليه وإحاطته به، فهو مصدرٌ أقامه مُقامَ الاسم، وهُو مع التشديد: اسمُ فاعل، من حَقَّ يحِقُّ.

وفي حديث تأخير الصلاة: «وتحتقُّونها إلىٰ شَرَق الموتىٰ» أي: تضيّقون وقْتَها إلىٰ ذلك الوقت. يقال: هو في حاقٍّ من كذا، أي: في ضيق. والروايةُ المعروفة في

هذا الحديث بالخاء المعجمة والنون، وهي في حديث معاذ رضي الله عنه: «سيكونُ عليكم أمراء، يؤخِّرونَ الصلاةَ عن ميقاتِها ويخنُقُونَها إلىٰ شَرَق الموتىٰ» أي: يُضيِّقونَ وقتَها بتأخيرها. يقال: خنَقْتُ الوقتَ أخنُقُه، أي: أخَّرتُه وضيَّقْتُه. وشَرَقُ الموتىٰ: هو آخرُ النهار؛ لأن الشمسَ في ذلك الوقت إنما تلبث قليلاً ثم تغيب، ومنه حديث ابن مسعود، رضي الله عنه: «ستُدركونَ أقواماً يؤخِّرونَ الصلاةَ إلىٰ شَرَق الموتىٰ».

وفي حديث رسول الله ﷺ، أنه قال للنساء: «ليس لكُنّ أن تَحْقُقْنَ الطريق، عليكُنَّ بحافَاتِ الطرُق». قوله: «تَحقُقْن الطريق» هو: أن يَركبْنَ حُقَّها، وهو وسَطُها، يقال: سقَطَ علىٰ حاقِّ القفا وحُقِّه، أي: وسَطِه. وحافاتُ الطريق: نواحيه وجوانبُه.

[ح ك م]

يقول ربُّنا عز وجلَّ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. قال ابن عرفة نفطويه: الحكمةُ عند العرب: ما مَنَعَ من الجهل. وكذلك الحُكْم، هو: المنع من الظلم. قال ابن فارس: وسُمّيت حكمةُ الدابّة ــ وهي اللّجام ــ لأنها تمنعها. يقال: حكَمْتُ الدابةَ وأحكمتُها. ويقال: حكمتُ السفيهَ وأحكمتُه: إذا أخذتَ علىٰ يديه. وقال جرير:

أبنـي حنيفـةَ أحكِمـوا سُفهـاءكـمْ ... إنّـي أخـافُ عليكـمُ أن أغضَبـا

وقال ابن عرفة: ويقال: أحكمتُ الشيء: إذا جعلْتَه ممتنعاً من العيب. قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. قال: وبه سُمِّي الحاكم؛ لأنه يمنَعُ الظالم. وقال أبو منصور الأزهري: أُحكمت آياتُه بالأمر والنهي، والحلالِ والحرام.

وقولـه: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: فصّلـت بالوعـد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]. قوله: ﴿سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: غيرُ منسوخة. قال قَتادة: كلُّ سورة ذُكِرَ فيها الجهادُ فهي مُحكَمة، وهي أشدُّ القرآنِ على المنافقين.

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٧]. قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي: غير منسوخات، وقد قيل في المُحكم والمتَشابهِ أقوالٌ أخرىٰ، من أحسنها ــ علىٰ ما يرىٰ أبو جعفر النحاس ــ: أنّ المحكم: ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلىٰ أن يُرجع فيه إلىٰ غيره. والمتشابه: ما يُرجَعُ فيه إلىٰ غيره، وهذا هو الجاري علىٰ وضع اللسان كما ذكر القرطبيّ. قال: وذلك أنّ المُحكَمَ اسمُ مفعول: من «أحكم». والإحكام: الإتقان، ولا شكَّ في أن ما كان واضحَ المعنىٰ لا إشكالَ فيه ولا تردُّد، إنما يكون كذلك، لوضوح مفردات كلماته، وإتقان تركيبها. ومتىٰ اختل أحدُ الأمرين جاء التشابه والإشكال.

ومن ذلك: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: قرأتُ «المُحكَمَ» علىٰ عهد رسول الله ﷺ وأنا ابنُ اثنتي عشرةَ سنة. يعني المفصَّل. قال أبو سليمانَ الخطابيّ: إنما سُمّي المفصّلُ محكماً لأنه لم يُنسَخْ من المفصَّل شيء، سمعتُ بعض العلماء يذكُرُه. واختلف القراء في أول المفصَّـل. فقـال بعضهم: أولُ المفصَّل: سورة القتال، ويقال لها: سورة محمّد، وآخره: سورةُ الناس، وهي خاتمةُ القرآن. وإنما قيل لها: المفصَّلُ لكثرةِ الفصول بينها بآية التسمية، ويقال: إن أول المفصَّل سورة ﴿قٓ﴾ . وفيه قولٌ ثالث: وهو أن أول المفصَّل: سورةُ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؛ وذلك لأن القارىء يفصل بين هذه السُّور بالتكبير، وهو مذهب ابن عباس وقرّاءِ أهل مكة.

ثم روىٰ الخطابيّ، بسنده عن مجاهد، قال: قرأتُ علىٰ ابن عباس، فلما

بلغتُ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، قال: كبِّرْ إذا ختمْتَ كلَّ سورة حتىٰ تختِم. ويقال: إن الأصل في ذلك أن الوحي لمّا فتُرَ عن رسول الله ﷺ قال المشركون: قد هجَرَه شيطانُه وودَّعه. فاغتمَّ لذلك رسولُ الله ﷺ، فلما نزل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ كبَّر عندَ ذلك رسولُ الله ﷺ فرَحاً بنزول الوحي، فاتّخذه الناسُ سُنَّة.

قال الخطابيّ: وفي المحكم قولٌ آخر، وهو: أنه من القرآن ما أُحكم بيانُه بنفسه، ولم يفتقر إلىٰ غيره، علىٰ تأويل قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية. . فالمحكـم: ما لا يحتمِـلُ الوجـوه وعُرف بنفسه، والمتشابه: ما احتَمَل الوجوه فلم يُعرَف بنفسه. فالمُحكَمُ أمُّ المتشابه؛ لأنه يُعرف به. وفي أسماء الله تعالىٰ: «الحَكَم» و«الحكيم»، وهما بمعنىٰ الحاكم، وهو القاضي. والحكيم، في تصريف اللغة: فعيل بمعنىٰ فاعل. أو: هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها، فهو فعيلٌ بمعنىٰ مُفْعل. وقيل: الحكيم: ذو الحكمة. والحكمة عبارةٌ عن: معرفةِ أفضلِ الأشياء بأفضلِ العلوم. ويقالُ لمن يُحسن دقائق الصناعات ويُتقنها: حكيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] فالذكر الحكيم هو القرآن. فالحكيم: المشتمِلُ علىٰ الحِكَم، أو: المُحكمُ المُتقَن الذي لا خلَلَ فيه من حيثُ معانيه وتأليفُه ونَظْمُه.

وقال تعالىٰ في الإصلاح بين الزوجين: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥]. الحكم: هو القيِّمُ بما يُسنَدُ إليه. قال الراغبُ الأصبهاني: وإنما قال: ﴿ حَكَمًا﴾ ولم يقل: «حاكماً» تنبيهاً أن من شرط الحكمَيْن أن يتولّيا الحُكـمَ عليهم ولهم، حسَبَ ما يستصْوِبانِه، من غير مراجعة إليهم في تفصيل ذلك.

ويقال: حكَّمتُ فلاناً، أي: جعلتُه حكماً، قال عز من قائل مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. قوله: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: يجعَلوك حكماً بينَهم في جميع أمورهم، لا يُحكمون أحداً غيرك.

وقال تعالىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال أبو عبيد الهَرَوي: جاء في التفسير: الحِكمة: النبوّة، والموعظةُ الحسنة: القرآن. وقال ابن جرير: هو ما أنزَلَه عليه من الكتاب والسُّنّةِ والموعِظةِ الحسَنة، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، وقيل: بالحكمة، أي: بالمقالةِ المُحكَمةِ الصحيحة. والموعظةُ الحسنة هي: المقالة المشتمِلة علىٰ الموعظةِ الحسَنةِ التي يستحسِنُها السامع.

ويقول ربُّنا عز وجل آمراً زوجاتِ نبيِّه ﷺ، ورضيَ عنهنّ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. الحِكمةُ هنا هي: النبوةُ والسنّةُ المطهَّرة، قاله قَتادةُ والسُّدِّيّ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي علمُ القرآن، ناسخُه ومنسوخُه، محكَمُه ومتشابهُه.

وقال تعالىٰ عن نبيه يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] أي: الحكمة، مثلَ نُعْمٍ ونِعمة. ومنه قوله تعالىٰ علىٰ لسان كليمه موسىٰ عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. وقيل: الحكم هنا هو النبوّة، وقال أبو إسحاق الزجاج: المراد بالحكم تعليمُه التوراةَ التي فيها حُكْمُ الله.

ومن استعمال الحُكم في معنىٰ الحكمةِ ما جاء في حديث ابن عباس، أنّ أعرابيّاً جاء إلىٰ النبيِّ ﷺ، فجعل يتكلَّمُ بكلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ منَ البيان سحراً، وإنّ منَ الشِّعر حُكماً»، ورُوي: «إنّ منَ الشِّعر لَحِكمة» أي: إنّ منَ الشّعر كلاماً نافعاً، يمنعُ من الجهل والسَّفه، ويَنْهَىٰ عنهما، قال ابن الأثير: قيل: أراد بها المواعظ والأمثال التي يَنتفعُ بها الناس. والحُكم: العلمُ والفقه، والقضاءُ بالعدل،

وهو مصدر: حَكَم. وروي عن لقمانَ الحكيم: الصّمتُ حُكمٌ وقليلٌ فاعلُه.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ كان يقول: «اللهُمَّ لك أسلَمْت، وبكَ آمَنْت، وعليك توكّلت، وإليك أنبْت، وبك خاصَمْت، وإليك حاكَمْت، فاغفِر لي ما قدمتُ وما أخّرت، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْت، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّر، لا إلهَ إلا أنت». قوله ﷺ: «وإليك حاكمت» أي: رفعتُ الحُكمَ إليك فلا حكَمَ إلاّ لك. وقيل: بك خاصمتُ في طلب الحُكم وإبطال مَن نازعَني في الدِّين، وهي مفاعلةٌ من الحُكْم. وفي حديث إبراهيمَ النَّخَعيِّ رضي الله عنه، قال: «حَكِّم اليتيمَ كما تحكِّمُ ولَدَك» قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: حكِّمْه. يقول: امنَعْه من الفساد وأصلحْه كما تُصلحُ ولدَك وكما تمنَعُه من الفساد. وكلُّ مَن منعتَه من شيءٍ فقد حكَّمْتَه وأحكمْتَه. وقال جرير:

أبنـي حنيفـةَ أحكِمـوا سُفهـاءكـم ... إنـي أخـافُ عليكـمُ أن أغضَبـا

يقول: امنَعوهم من التعرُّض لي. قال: ونرىٰ أن حكَمةَ الدابة[1] سمّيت بهذا المعنىٰ؛ لأنها تمنَعُ الدابةَ من كثير من الجهل[2]. وقال أبو سعيد الضرير: أي: حَكِّمْه في ماله إذا صَلَح لذلك، كما تُحكِّم ولدَك، قال: ولا يكونُ حَكِّمَ بمعنىٰ أحكم؛ لأنهما ضِدّان، وقال أبو منصور الأزهري: القولُ ما قال أبو عبيد: والعرب تقول: حكَمْتُ وأحكمْتُ وحكَّمْت، بمعنى: ردَدْتُ ومنَعْت.

وفي حديث كعب رضي الله عنه: «إن في الجنّة كذا وكذا قصْراً، لا يسكنُها إلاّ نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو مُحَكِّمٌ في نفسه»، ويروىٰ: «مُحكَّم» بفتح الكاف أيضاً. فمَن رواه بالكسر فمعناه: المُنْصِفُ من نفسه. قال ذلك وكيعُ بن الجراح. ومَن رواه «محكَّم» بالفتح، فهو الرجلُ يقَعُ في يدِ العدوّ فيخيَّرُ بين أن يكفُرَ أو يُقتل، فيختارُ القتل،

---

(١) حكمة الدابة: حديدة اللجام التي تكون في فم الفرس ويتصل بها العِذاران، وهما: ما سال من اللجام على خد الفرس، ويأتي ذكرها عند المؤلف في الصفحة التالية.

(٢) هو هنا: الجموح والمخالفة.

فذلك المحكَّم، قال أبو عبيد الهروي: وهذا هو القول. ومنه الحديث: «إن الجنةَ للمحكَّمين». قال الجوهري: هم قومٌ من أصحاب الأخدود، حُكِّمُوا وخُيِّروا بينَ القتل والكفر فاختاروا الثباتَ علىٰ الإسلام معَ القتل.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «كان الرجل يرثُ امرأةً ذاتَ قرابة فيعضُلُها حتىٰ تموت، أو ترُدَّ إليه صَداقَها، فأحكَمَ اللّهُ عن ذلك ونهىٰ عنه». قوله: أحكَمَ اللّهُ عن ذلك، أي: منعَ منه ونَهَىٰ عنه. يقال: حكَمْتُ الرجلَ وأحكمْتُه وحكّمْتُه، كلُّ ذلك بمعنىٰ منعتُه، وبه سُمّي الحاكم؛ لأنه يمنَعُ الظالم ويردَعُه عن ظلمِه. وقد جاء حديث ابن عباس هذا تفسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]. قيل: كان الرجل في الجاهلية يرثُ امرأةَ ذي قَرابته، فيعضُلُها، أي: يمنَعُها من أن تتزوّجَ غيرَه، حتىٰ تموت، أو تَرُدَّ إليه صَداقَها. فإن كانت جميلةً تزوّجَها، وإن كانت دميمةً حبَسَها حتىٰ تموت. فيرثُها.

وفي الحديث: «ما مِن آدميٍّ إلاّ وفي رأسه حَكَمة»، وفي رواية: «في رأس كلِّ عبد حَكَمة، إذا همَّ بسيئةٍ، فإن شاء الله أن يَقْدَعَه بها قدَعَه»[1]. الحكَمَة: حديدة في اللِّجام تكون علىٰ أنف الفَرَس وحنَكِه، تمنعُه عن مخالفةِ راكبه، ولمَّا كانت الحَكَمةُ تأخذُ بفم الدابة، وكان الحَنَكُ متّصلاً بالرأس، جعلها تمنَعُ مَن هي في رأسِه كما تمنَعُ الحَكَمةُ الدابّة عن الجُموح والمخالفة. ومنه الحديث: «وأنا آخذٌ بحَكَمة فرَسِه» أي: بلجامِه. ومن ذلك: حديثُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه: «إن العبدَ إذا تواضَعَ رفَع اللّهُ حَكَمَته، وقال: انتعِشْ نَعَشَك الله، وإذا تكبّر وعدَا طوْرَه، وهَصَه اللّهُ إلىٰ الأرض». قوله: «رفَع اللهُ حَكَمَتَه» أي: قدْرَه ومنزلتَه، كما يقال: له عندَنا حَكَمة، أي: قَدْرٌ. يقال: لا يقدِرُ علىٰ هذا مَن هو أعظمُ حَكَمةً منك، وقيل:

---

(١) قدَعه: كبَحَه وكفَّه.

الحَكَمـةُ من الإنسان: أسفلُ وجهـه، مستعـارٌ من موضـع حَكَمَةِ اللِّجام، ورفْعُ الحكَمَة: كنايةٌ عن الإعزاز؛ لأنّ مِن صفةِ الذليل تنكيسَ رأسه، وقوله: «انتعِشْ» أي: ارتفعْ، وقوله: «وهَصَه الله إلىٰ الأرض» أي: كسَرَه ودقَّه.

[ح ل ل]

يقول ربُّنا عزّ وجل: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]. قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي﴾ أي: ومن يجبُ عليه غضبي. يقال: حَلَّ يَحِلُّ: إذا وجب. وحلَّ يَحُلُّ: إذا نزَل. ومنه قولُه عز وجل: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: تنزلُ هذه القارعةُ قريباً مِن ديار الكفار، فيفزَعون منها، ويشاهدون مِن آثارِها ما ترجُفُ له قلوبُهم، وقيل: إنّ الضميرَ في ﴿تَحُلُّ﴾ للنبي ﷺ. والمعنىٰ: أو تحُلُّ أنت يا محمـدُ قريبـاً مِن دارِهـم، مُحاصِـراً لهم، آخِذاً بمَخانقِهم، كما وقَعَ منه ﷺ لأهل الطائف.

وقال عز من قائل: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١ ـ ٢] يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، وضدُّه: حِرْمٌ وحرامٌ ومُحْـرِم. والمراد أن مكةَ أُحِلّتْ للنبيِّ ﷺ ساعةً من نهار. قال مجاهد: ما أصبْتَ فيه فهو حلالٌ لك. وقال قتادة: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قال: أنت به مِن غير حرجٍ ولا إثم . وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: أُحِلَّ له ﷺ يومَ دخَلَ مكةَ أن يقتُلَ مَن شاء، فقتَلَ ابنَ خَطَل ومِقْيَسَ بنَ صُبابة.

وهذا المعنىٰ الذي قالوه قد ورَدَ به الحديثُ المتَّفَقُ علىٰ صحته: «إنّ هذا البلدَ حرَّمَه اللّهُ يومَ خلَقَ السماواتِ والأرض، فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلىٰ يوم القيامة. لا

يُعْضَدُ شجرُه، ولا يُخْتلىٰ خَلاه. وإنما أُحِلّتْ لي ساعةً من نهار، وقد عادت حرمتُها اليومَ كحُرمتِها بالأمس. ألا فلْيُبلِغ الشاهدُ الغائب». وفي لفظ آخر: «فإنْ أحدٌ ترخَّصَ بقتالِ رسولِ الله، فقولوا: إنّ اللّهَ أذِنَ لرسولِه، ولم يأذَنْ لكم».

ومن مجيء الحِلِّ بمعنىٰ الحلال: حديثُ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في شأن زمزم: «لا أُحِلُّها لمغتسل، وهي لشاربٍ حِلٌّ وبِلّ». فالحِلُّ: الحلال. والبِلُّ: المباح بلغة حِمْيَر. وقيل: بِلّ: إتباعٌ لحِلّ. وعن الزبير بن بكار: معناه الشّفاء، مِن: بَلَّ المريضَ وأبلّ.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلىٰ خطإٍ شائع يقَعُ فيه كثيرٌ من الناسِ، عامّتِهم وخاصّتِهم، حين يدعُونَ لإنسانٍ خرَجَ في سفر فيقولون: «كتَبَ اللّهُ له السلامةَ في حِلِّه وتَرحالِه. هكذا يقولونَه: «حِلّه» بكسر الحاء، والصواب: «في حَلّه» بفتح الحاء. والحَلُّ: الحُلُول، نقيضُ الارتحال. قال سُحَيمُ بن وَثِيلٍ الرّياحي:

أكُـلَّ الـدهـر حَـلٌّ وارتحـالٌ … أمـا يُبْقـي علـيَّ ولا يقينـي

ومـاذا يبتغـي الشعـراءُ منـي … وقـد جـاوَزْتُ حـدَّ الأربعيـنِ

أمّا الحِلُّ بكسر الحاء، فقد ذكرتُ لك أنه الحلالُ، ضدُّ الحرام. وشواهدُه كثيرة، منها قوله عز وجل: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥] وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وجاء في حديث عائشةَ رضي الله عنها: طيَّبْتُ رسولَ الله ﷺ لحِلّه وحِرمه». وفي حديث آخر: «لإحلاله حينَ حلَّ» يقال: حلَّ المحرِمُ يحِلُّ حلالاً وحِلاًّ، وأحلَّ يُحِلُّ إحلالاً: إذا حَلَّ له ما يحرُمُ عليه من محظورات الحج، ورجلٌ حِلٌّ من الإحرام، أي: حلال. ورجلٌ حَلال، أي: غيرُ مُحرم ولا متلبِّسٍ بأسباب الحج. وأحلَّ الرجل: إذا خرج إلىٰ الحِلّ عن الحرم. وأحَلَّ: إذا دخل في شهور الحِلّ.

وروىٰ أبو عبيـد القاسم بن سلام بسنـده إلىٰ إبراهيم النخعي، أنـه قـال في

المُحرِم، يعدو عليه السَّبُعُ أو اللصُّ: «أحِلَّ بمَن أحَلَّ بك». قال أبو عبيد: يقول: مَن ترَكَ الإحرامَ وأحَلَّ بك فقاتَلَك، فأحْلِلْ أنت أيضاً به وقاتِلْه، ولا تجعَلْ نفسَك مُحْرِماً عنه، ويدخل في هذا: السَّبُعُ واللصُّ وكلُّ من عرَضَ لك. قال أبو عبيد الهروي: وفيه قولٌ آخر، وهو أن كلَّ مسلم مُحَرَّمٌ عن أخيه المسلم، محرَّمٌ عليه عرضُه وحُرمتُه ومالُه، يقول: فإذا أحلَّ رجلٌ بما حُرِّم عليه منك، فادفَعْه عن نفسِك بما قدَرْتَ عليه.

وفي قصة حُنين، حين ساقَ مالكُ بن عوف معَ الناس الظُّعُنَ والأموال، فقال له دُريدُ بنُ الصِّمَّة: ما هذا يا مالك؟ قال: يا أبا قُرّة، أردتُ أن أُحْفِظ الناس، وأن يُقاتلوا عن أهليهم وأموالهم. فزجَرَه دُريدٌ ثم قال: رُوَيْعي ضأنٍ والله! ما لَه وللحرب! وهل يرُدُّ المنهزمَ شيء؟ وقال: أنت مُحلٌّ بقومِك، وفاضحٌ من عورتك. لو ترکْتَ الظُّعُنَ في بلادها، والنَّعَمَ في مَراتِعِها، ثم لقِيتَ القومَ بالرجال على مُتون الخيل، والرَّجَّالةَ بين أضعاف الخيل، أو متقدّمةً دريئةً أمامَ الخيل، كان الرأي. قوله: «أنت مُحِلٌّ بقومك» أي: إنك قد أبحت حريمَهم، وعرَّضتَهم للهلاك، ومُخرجٌ لهم من الأمنِ كمَن يُخرِجُ من الحَرَم أو من الأشهر الحُرُم، فشبَّهَهم بالمُحرِم إذا أحلّ، كأنهم كانوا ممنوعين بالمُقام في بيوتهم، فحَلُّوا بالخروج منها.

وفي حديث العمرة: «حَلَّت العمرةُ لمن اعتمر» أي: صارت لكم حلالاً جائزة. وذلك أنهم كانوا لا يعتمرون في الأشهر الحرم، فذلك معنىٰ قولهم: إذا دخَلَ صفرٌ حلَّتِ العُمرةُ لمَن اعتمر.

وفي الحديث: «إنّ الصلاةَ تحريمُها التكبير، وتحليلها التسليم» أي: صار المصلي بالتسليم يحِلُّ له ما حرُمَ عليه فيها بالتكبير، من الكلام، والأفعال الخارجة عن كلام الصلاة وأفعالها، كما يَحِلُّ للمحرم بالحج عند الفراغ منه ما كان حراماً عليه.

أخرج البخاريُّ وغيره، بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ،

قـال: « لا يموتُ لمسلمٍ ثلاثةٌ من الولدِ فيلجَ النارَ إلاّ تحِلَّةَ القَسَم» وفي رواية: «لا يمـوتُ لمؤمنٍ ثلاثةٌ أولادٌ فتمسَّـه النارُ إلا تحلّةَ القسم». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: معنىٰ قوله: «تحلّةَ القسم» قـولُ الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فإذا مرَّ بها وجازها فقد أبرَّ اللّهُ قسَمَه. وقال غيرُه: لا قسم في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فيكون له تحلَّة. ومعنىٰ قوله: «إلاّ تحلّةَ القسم». إلاّ التعزيرَ الذي لا ينالُه مكروهٌ منه. وأصله من قول العرب: ضربه تحليلاً، وضربه تعزيراً: إذا لم يبالغْ في ضرْبه. وأصلُه في تحليل اليمين، وهُو: أن يحلفَ ثم يستثنيَ استثناءً متصلاً، ثم جُعل مثلاً لكلِّ شيء يقِلّ وقتُه.

وقال بعضهم: القولُ ما قال أبو عبيد، وذلك أن تفسيرَه جاء مرفوعاً في حديث آخر، قال: «مَن حرَسَ ليلةً من وراءِ المسلمينَ مُتطوِّعاً لم يأخُذْه السلطانُ، لم يرَ النارَ تمسُّه إلا تحلّةَ القسم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ . قال: وموضع القسم مردودٌ إلىٰ قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ [مريم: ٦٨]، والعرب تُقسم وتُضمر المقْسَمَ به، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء: ٧٢]، معناه: وإنَّ منكم واللّهِ لَمَن لَيُبطِّئنّ. وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ المعنىٰ: وإنْ منكم واللّهِ إلاّ واردها.

وفي حديث عائشةَ رضي الله عنها، أنها قالت لامرأة مرَّتْ بها: ما أطولَ ذيْلَها! فقال لها ﷺ: اغتَبتِها، قُومي إليها فتحَلَّليها». يقال: تحلَّلْتُه واستَحْلَلْتُه: إذا سألتَه أن يجعَـلَك في حِلٍّ من قِبَلِه. وفي حديث أبـي بكر رضي الله عنه: أنه قال لامرأةٍ حلَفَـت ألاّ تُعتِقَ مولاةً لها، فقال لهـا: « حِلاًّ أمَّ فلان». واشتراها وأعتقها. حِلاًّ، أي: تحلّلي مِن يمينِك، وهو منصوبٌ على المصدر.

وفي حديث أنس رضي الله عنه: قيل له: حدِّثْنا ببعض ما سمعتَه من رسول الله ﷺ. فقال: وأتحلل، أي: وأستثنـي. وفـي الحديث: أنه سئـل ﷺ: أيُّ الأعمـال أفضل؟ فقال: «الحالُّ المرتحِل». قيل: وما ذاك؟ قال: «الخاتِمُ المُفْتَتِح». أراد

الرجلَ المواصلَ لتلاوة القرآن، الذي يختِمُه ثم يفتتحُ التلاوةَ من أولِه. شبَّهه بالمسافر يبلُغُ المنزلَ فيحُلُّ فيه، ثم يفتتحُ سيرَه، أي: يبتدِئُه. وكذلك قُرَّاءُ أهل مكة: إذا ختَموا القرآنَ بالتلاوة، ابتدأوا قِراءة الفاتحة وخمسَ آيات من أول سورة البقرة، إلىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. ثم يقطَعونَ القراءة. ويسمُّونَ فاعلَ ذلك: الحالَّ المرتحل، أي: ختَمَ القرآن، وابتدَأَ بأوّله، ولم يفصِل بينَهما بزمان، وقيل: أراد بالحالِّ المرتحل، الغازيَ الذي لا يقفُل من غزوٍ إلاَّ عقَبَه بآخر.

وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ لعَنَ المُحلِّلَ والمحلَّلَ له، وفي رواية: المُحِلَّ والمُحَلَّ له. وفي حديث بعض الصحابة: لا أُوتَىٰ بحالٍّ ولا مُحَلَّلٍ إلاَّ رجمتُهما. والمعنىٰ في الجميع: هُو أن يطلِّق الرجلُ امرأتَه ثلاثاً فيتزوَّجَها رجلٌ آخر، على شريطةِ أن يطلِّقها بعد وَطْئها لتحِلَّ لزوجها الأول. وقيل: سُمِّيَ محلِّلاً، بقصْدِه إلىٰ التحليل، كما يسمَّىٰ مشترياً إذا قصَدَ الشراء.

وجاء في حديث الهدي: «لا يُنْحَرُ حتىٰ يبلُغَ مَحِلَّه» أي: الموضعَ والوقتَ الذي يحِلُّ فيهما نحرُه، وهُو يومُ النّحرِ بمنىٰ. والمَحِلّ، بكسر الحاء، يقعُ علىٰ الموضع والزمان، ومنه: حديث عائشةَ رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ، قال لها: «هل عندَكم شيء؟» قالت: لا، إلاَّ شيءٌ بعثَتْ به إلينا نُسَيْبَةُ من الشاة التي بعثْتَ إليها من الصدقة. فقال: «هاتِ، فقد بلغَتْ مَحِلَّها» أي: وصلتْ إلىٰ الموضع الذي يحِلُّ فيه، وقُضي الواجبُ فيها من التصدُّق بها، فصارت مُلكاً لمَن تُصُدِّق بها عليه، يصحُّ له التصُّرفُ فيها، ويصحُّ قبولُ ما أهدي منها وأكْلُه. وإنما قال ﷺ ذلك لأنه كان يَحرُم عليه أكلُ الصّدقة، وفي الحديث: أنه كرِهَ التبرُّجَ بالزينة لغير مَحِلِّها». قال ابنُ الأثير: يجوز أن تكون الحاء مكسورةً من الحِلّ، ومفتوحةً من الحُلُول. أو أراد به الذين ذكَرَهمُ اللّهُ في قوله: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية.

وفي الحديث: أنه ﷺ كتَبَ لأهل نَجْران، حينَ صالَحَهم: «إنّ عليهم ألفَيْ

حُلَّة، في كلِّ صَفرٍ ألفُ حُلَّة، وفي كل رَجَبٍ ألفُ حلّة». قال أبو سليمان الخطابيّ: الحُلَّةُ: ثوبان: إزارٌ ورداء، ولا تكون حُلَّةً إلاّ وهي جديدةٌ تُحَلُّ عن طيِّها فتُلْبَس. ومنه الحديث: «خيرُ الكفَنِ الحُلّة». وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه خطَبَ إلىٰ عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ ابنته أمَّ كلثوم. فقال علي: إنها صغيرة، وإني مُرسلُها إليك حتىٰ تنظرَ إلىٰ صغرها، فأرسَلَها إليه، فجاءته فقالت: إن أبي يقول لك: هـل رضِيْـتَ الحُلَّة؟ فقال: نعْم، قد رضيتُها. قولها: «الحُلَّة» تَكْنـي بذلك عنها. وقد يُكْنَىٰ عن النساء بالثياب واللباس. قال اللّهُ عز وجل: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وجاء في حديث عبد المطلب:

لا هُـــمَّ إن المـــرءَ يمـ ـنَعُ رَحْلَه فـامْنَـعْ حِـلالَـكْ

الحِلال، بكسر الحاء: القومُ المُقيمونَ المتَجاورون، ويريدُ بهم سُكّانَ الحرَم. وفي حديث ابن عباس: إنّ حَلْ لتُوطي الناسَ وتُؤذي وتَشغَلُ عن ذكْرِ الله تعالىٰ. حَلْ: زجرٌ للناقة إذا حثَثْتَها علىٰ السَّير، أي: إن زجْرَكَ إياها عندَ الإفاضة من عرفات يؤدِّي إلىٰ ذلك. من الإيذاء والشَّغْل عن ذكر الله تعالىٰ. فسِرْ علىٰ هِينتِك.

[ح ل م]

جاء في أسماء الله تعالى: «الحليم»، وهو: الذي لا يستخفُّه عِصيانُ العُصاة، ولا يستفزُّه الغضَبُ عليهم، ولكنه جعَلَ لكلِّ شيءٍ مقداراً فهو منتهٍ إليه. هكذا قال أبو عبيد الهروي، وقال الراغب الأصبهانيُّ: الحلْمُ: ضبطُ النفس والطبع عن هَيَجانِ الغضب. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. وهو إسماعيلُ عليه السلام، أي: وُجدَتْ فيه قوَّةُ الحلْم.

وقال تعالىٰ علىٰ لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قيل: إنهم قالوا ذلك علىٰ سبيل الاستهزاء به قبَّحهم الله، قال ابن عرفة نفطويه: وهذا من أشدِّ سِباب العرب، أن يقول الرجل لصاحبه إذا استَجْهله: يا حليم، أي: أنت حليمٌ عندَ نفسِك، وسفيهٌ عندَ الناس، ومنه قوله تعالىٰ آمراً ملائكتَه خزَنةَ النار، أن يقولوا للكافر وهم يعذبونه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً.

أخرج ابن كثير عن الأُمويّ في «مغازيه» بسنده عن عكرمة، قال: لقيَ رسولُ الله ﷺ أبا جهل لعَنَه الله، فقال: «إن الله تعالىٰ أمَرَني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۞ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤ ـ ٣٥]، قال: فنزَعَ ثوبَه من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبُك من شيء، ولقد علمتُ أني أمنَعُ أهلَ البطحاء، وأنا العزيزُ الكريم، قال: فقتَلَه اللّهُ تعالىٰ يومَ بدر، وأذلَّه وعيَّره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، أي: أنت العزيزُ الكريم بزعْمكَ، وأنت الهيِّنُ عندَنا.

والأحلام: العقول، قال عزّ من قائل: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ﴾ [الطور:٣٢]. قال الراغبُ الأصبهاني: وليس الحِلْمُ في الحقيقةِ هو العقل، لكن فسَّروه بذلك لكونِه من مُسَبَّبات العقل. وجاء في حديث صلاة الجماعة: «لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنُّهىٰ» قال ابنُ الأثير: أي ذوُو الألباب والعقول، واحِدُها حِلْمٌ، بالكسر، وكأنه من الحِلْم: الأناةِ والتثبُّت في الأمور، وذلك من شعار العقلاء. فهذا هو الحِلْم، بكسر الحاء، على ما فسرتُه من ضبط النفس والأناة في الأمور.

أما ما يراه النائم فهو الحُلْم بضم الحاء وسكون اللام، ويقال: الحُلُم، بضمهما. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور:٥٩] أي: زمان البلوغ، وسُمِّي الحُلُم لكون صاحبه جديراً بالحُلُم، وهو الاحتلامُ: الجِماعُ في

النوم. وفي حديث معاذ رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ أمَرَه أن يأخُذَ من كلِّ حالمٍ ديناراً، يعني الجزية. قال ابن الأثير: أراد بالحالم: من بلغ الحُلُمَ وجرىٰ عليه حكم الرجال، سواءٌ احتلم أو لم يحتلم. ومنه الحديث: «غُسلُ الجمُعةِ واجبٌ علىٰ كلِّ حالم»، وفي رواية: «علىٰ كلِّ محتلم» أي: بالغ مُدرِك. وروي عن علي رضي الله عنه: «لا يُتْمَ بعدَ احتلام». وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «الرؤيا الصادقةُ من الله، والحُلْمُ من الشيطان». قال ابن الأثير: الرؤيا والحُلْمُ عبارةٌ عما يراه النائمُ في نومه من الأشياء، لكنْ غلبَتِ الرؤيا علىٰ ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلَبَ الحُلْمُ علىٰ ما يـراه من الشـرِّ والقبيح. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف: ٤٤] ويُستعمل كلُّ واحد منهما موضع الآخر. وقال الحافظ ابنُ حجر في «الفتح»: وظاهرُ قولِه: «الرؤيا من الله والحُلْمُ من الشيطان» أن التي تضاف إلىٰ الله لا يقال لها: حُلْم، والتي تضاف للشيطان لا يقال لها: رؤيا، وهو تصرف شرعيٌّ، وإلاَّ فالكلُّ يسمَّىٰ رؤيا. وقد جاء في حديث آخر: «الرؤيا ثلاث» فأطلق على كلِّ رؤيا. قلت: وهذا الذي أشار إليه ابنُ حجر، ذكَرَه كاملاً في موضع آخرَ من «الفتح»، عن أبي هريرة قـال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث: فرؤيا حق، ورؤيا يحدِّثُ بها الرجلُ نفسَه، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «من تحلَّمَ بحُلْم لم يرَهُ كُلِّفَ أن يعقِدَ بينَ شعرتَيْن ولن يفعل». تحلَّم، أي: قال: إنه رأىٰ في النوم ما لم يرَه. يقال: حَلَم بفتح اللام: إذا رأىٰ، وتحَلَّم: إذا ادَّعىٰ الرؤيا كاذباً. ومعنىٰ العقـد بين الشَّعرتين أن يفتِلَ إحداهُمـا بالأخـرىٰ، وهو ممّـا لا يُمكـنُ عادةً. وفي رواية: « من تحَلَّم كاذباً دُفِع إليه شعيرةٌ وعُذِّب حتىٰ يعقِدَ بينَ طرفَيْها وليس بعاقد». والمراد بالتكليف نوعٌ من التعذيب.

قال ابن الأثير: إن قيل: إنّ كـذِبَ الكـاذب في منامِه لا يزيـدُ علـىٰ كذبه في يقَظته، فلِمَ زادَتْ عقوبتُه ووعيدُه وتكليفُه عقْدَ الشعرتَيْن؟ قيل: قد صَحَّ الخبرُ أنَّ

الرؤيا الصادقةَ جزءٌ من النبوة. والنبوَّةُ لا تكون إلاَّ وحياً، والكاذبُ في رؤياه يدَّعي أن اللّهَ تعالىٰ أراه ما لم يُره، وأعطاه جزءاً من النبوةِ لم يُعطِه إياه، والكاذبُ علىٰ الله تعالىٰ أعظمُ فِرْيةً ممّن كذَبَ علىٰ الخلق أو علىٰ نفسه. وحكىٰ الحافظُ ابنُ حجر، عن الطبريّ نحواً من هذا، قال: إنما اشتَدَّ الوعيدُ في الكذب في المنام، معَ أن الكذبَ في اليقظةِ قد يكونُ أشدَّ مفسدةً منه، إذ قد يكونُ شهادةً في قتلٍ أو حدٍّ أو أَخْذ مالٍ؛ لأن الكذبَ في المنام كذبٌ علىٰ الله أنه أراه ما لم يُره، والكذبُ علىٰ الله أشدُّ من الكذب علىٰ المخلوقين، لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٨١]. وإنما كان الكذبُ في المنام كذباً علىٰ الله لحديث: «الرؤيا جـزءٌ من النبوّة»، وما كان من أجـزاء النبوة فهو من قِبَـلِ الله تعـالىٰ. اللهم ارزُقْنا الصّدقَ في جميع أمورنا وأحوالنا: قولاً وفعلاً، ويقظةً ومناماً.

[ح ل ىٰ]

يقول ربُّنا عز وجل مُخبراً عن ضلال مَن ضلَّ من بني إسرائيل، في عبادتِهمُ العِجلَ الذي اتّخَذَه لهمُ السامريّ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨]. الحُلِيّ: جَمْعُ الحَلْي، مثل ثَدْي وثُدِيّ، وهو اسمٌ لكلِّ ما يُتَحَسَّنُ به ويُتَحلَّىٰ من الذهب، ويقال: حِليٌّ أيضاً بكسر الحاء. وقوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهاب موسىٰ عليه السلام للطُّور، لميقات ربه، وقال تعالىٰ: في نعيم أهل الجنة: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣].

وفي الحديث: أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ وعليه خاتمٌ من حديد، فقال: «ما لي أرىٰ عليك حِلْيَةَ أهل النار؟». قال ابن الأثير: الحَلْي: اسمٌ لكل ما يُتزيَّنُ به من مَصاغ الذهب والفضّة، والجمع حُلِيّ وحِلِيّ، بالضم والكسر، وجَمْعُ الحِلْية حِلىً،

مثلُ لحْية ولِحىً. وتُطْلَقُ الحِلْيةُ أيضاً علىٰ الصفة، فيقال: حديثُ حِلْية النبي ﷺ، أي: صفتِه الشريفة.

وإنما جعل ﷺ خاتم الحديد حِلْيَةَ أهل النار لأن الحديدَ زِيُّ بعض الكفار، وهم أهلُ النار. وقيل: إنما كرِهَه لأجل نَتْنِه وزُهُوكته.

وفي حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنه كان يتوضّأُ إلىٰ نصف الساق ويقول: إن الحِليةَ تبلُغُ مواضعَ الوضوء. أراد بالحِلْية: التحجيلَ يومَ القيامة من أثر الوضوء، والتحجيلُ هو البياض، من قوله ﷺ: «إنّ أُمتي يومَ القيامةِ غُرٌّ من السجود، مُحجَّلُونَ من أثَرِ الوضوء».

وفي حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكنهم حَلِيتِ الدنيا في أعينِهم»، يقال: حَلِيَ الشيءُ بعيني وقلبي، يَحْلَىٰ، إذا أعجَبَك واستحسنْتَه، وحَلا في فمي يَحْلُو.

وفي حديث أم المؤمنين عائشة، من كلمتها البليغةِ التي تصفُ فيها أباها الصدِّيقَ رضي الله عنهما، قالت: فتىٰ قريش ناشئاً، وكهفُها كهلاً، يفُكُّ عانيَها، ويَرِيشُ مُمْلِقَها، ويرْأبُ شَعْبَها، حتىٰ حَلِيَتْهُ قلوبُها، ثم استشرىٰ في دينِه، فما بَرِحَتْ شكيمتُه في ذات الله تعالىٰ، حتىٰ اتخَذَ بفِنائه مسجداً، يُحْيي فيه ما أمات المبطلون. فقولها: «حَلِيتْه قلوبها» أي: أعجبها واستحسنتْه، كما سبق.

وجاء في حديث قسِّ بن ساعدة، المرويِّ في الطِّوال[1]: «وحَلِيٍّ وأقاح». الحَلِيّ، بوزن فعيل: يَبيسُ النَّصِيِّ من الكلأ، وجمعُه: أَحْلِية، كرغيف وأرغفة. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ نَهىٰ عن حُلوانِ الكاهن» هو: ما يُعطاه من الأجر والرشوة علىٰ كهانتِه. يقال: حَلَوْتُه أحلُوه حُلْواناً. والحُلْوان: مصدر، كالغُفْران،

---

(١) يعني: «منال الطالب في شرح طوال الغرائب» لابن الأثير بتحقيقه أيضاً رحمه الله. (١ : ١٣٠)، ونص على الشاهد فيه ابن الأثير في كتابه «النهاية» أيضاً (١ : ٤٣٥).

ونونُه زائدة، وأصلُه من الحَلاوة. وأنشد الأصمعيُّ لأوس بن حجر، يذُمُّ رجلاً:

كأني حلَوْتُ الشِّعْرَ حينَ مدَحْتُه صَفَا صَخْرةٍ صَمَّاءَ يَبْسٍ بِلاَلُها

قال أبو عبيد: فجعَل الشِّعرَ حُلْواناً مثلَ العطاءِ، وقال: الحُلْوان: الرِّشوة، يقال منه: حلَوْتُ، أي: رشَوْتُ. قال علقمةُ بن عَبْدة:

فمَنْ راكبٌ أحلُوه رَحْلاً وناقةً يُبلِّغُ عنِّي الشِّعرَ إذ ماتَ قائلُهْ

والحُلْوانُ أيضاً: أن يأخُذَ الرجلُ مِن مهرِ ابنتِهِ لنفسِه، وهو عارٌ ومذمومٌ عندَ العرب. قالت امرأةٌ تمدَحُ زوجَها:

لا يأخذُ الحُلْوانَ من بناتِنا

وفي حديث مَبعثِه ﷺ، قال: «فإذا أنا بجبريلَ علىٰ الشمس...» وذكر كلاماً ثم قال: «أخَذَني فسلَقَني لِحلاوةِ القفا» أي: أضجَعَني علىٰ وسَطِ القفا، لم يمِلْ بي إلىٰ أحَدِ الجانبيْن. وتُضَمُّ حاء «الحُلاوة»، وتفتح وتكسر. ومنه: حديث موسىٰ والخضِر عليهما السلام: «وهو نائمٌ علىٰ حُلاوةِ قفاه».

[ح م أ]

يقول عزَّ مِن قائل، في صفةِ خلْقِ الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. الصَّلصال: هو الطينُ المخلوطُ بالرمل، الذي يتصَلصَلُ إذا حُرِّك، فإذا طُبخ في النار فهُو: الفخّار. والحَمَأ: هو المتغيِّرُ اللونِ من الطين، والمسنونُ هو المتغيِّر، وأصلُه مِن: سنَنْتُ الحجرَ علىٰ الحجر: إذا حككْتُه. والحَمْأةُ بسكون الميم، ويقال: الحَمَأة، بفتحها أيضاً. ويقال: حَمِئَتِ البئرُ فهي حَمِئة: إذا صارت ذاتَ حمَأة، فإذا نزَعْتَ منها الحَمْأةَ قلت: حَمأْتُ البئرَ، فإذا

ألقيْتَ فيها الحَمْأةَ قلت: أحمأْتُها، بالألف. كلُّ ذلك عن ابن السِّكِّيت.

وقال تعالىٰ، في قصة ذي القرنين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] أي: ذاتِ حَمْأة، وهو الطينُ الأسودُ المتغيرُ كما سبق. وقرأ بن عامر وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيّ: ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ بالألف، أي: حارَّة. يقال: حَميت الشمسُ تَحْمَىٰ. ورُويَ أنّ ابنَ عباس قال: كنتُ عندَ معاويةَ فقرأ: ﴿تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ فقلت: ما نقرأها إلاَّ: ﴿ حَمِئَةٍ ﴾، فقال لعبد الله بن عمرو بن العاص: كيف تقرؤها؟ فقال: كما قرأتها يا أميرَ المؤمنين. قال ابن عباس: فقلت: في بيتي نزَلَ القرآن. فأرسَلَ معاويةُ إلىٰ كعب: أينَ تجدُ الشمس تغرُب في التوراة؟ فقال له كعب: سلْ أهلَ العربيةِ فإنهم أعلمُ بها، وأما أنا فإني أجدُ الشمسَ تغرُبُ في التوراة في ماءٍ وطين. أراد أنها تغرب في عين ذات حمأة. فلما خرج ابن عباس إذا برجل من الأزد، قال له: بلَغَني ما بينَكما، ولو كنتُ عندَكَ أفدْتُك بأبياتٍ قالها تُبّعٌ في ذي القرنين:

فرأىٰ مَغارَ الشمسِ عندَ غروبِها   فـي عيـنِ ذي خُلُـبٍ وثـأطٍ حَـرْمَـدِ

والخُلُب: الطينُ اللَّزِج. والثأط: الحَمْأة. والحرمد: الأسود.

[ح م د]

جاء في أسماء الله تعالىٰ: «الحميد»، وهو: المحمودُ علىٰ كلِّ حال، في جميع أفعالِه وأقوالِه وشرْعِه وقدَرِه. وحميدٌ هنا: فعيل بمعنىٰ مفعول. والحمد والشكر متقاربان، والحمدُ أعمُّهما؛ لأنك تحمَدُ الإنسانَ علىٰ صفاته الذاتية، وعلىٰ عطائه، ولا تشكرُه علىٰ صفاته. وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة: ٢]. قال ابنُ عرَفَةَ نفطويـه: الحمدُ: الرضا. يقال: حمِدْتُ الشيء: إذا رضِيتَـه، وأحمَدْتُه: وجَدتَه محموداً. قال: وذهَبَ ناسٌ إلىٰ أنّ الحمْدَ هو الشكر؛ لأنهم رأَوُا المصدرَ بالشكر

صادراً عن الحمد، وذلك قولهم: الحمدُ لله شكراً. قال: والمصدرُ يخرج مِن غيرِه، مثلَ قولِهم: قتلْتُه صَبْراً، والصبرُ غير القتل. قال: والشكر: الثناء، وكلُّ شاكرٍ حامد، وليس كلُّ حامدٍ شاكراً.

وربما جُعل الحمدُ مكان الشكر، ولا يُجعَل الشكر مكان الحمد، وفي الحديث: «الحمدُ رأسُ الشكر، ما شكر اللّهَ عبدٌ لا يحمَدُه». قال أبو سليمانَ الخطابي في شرحه: الحمدُ نوع، والشكرُ جنس، فكلُّ حمدٍ شكر، وليس كلُّ شكر حمداً. وهو علىٰ ثلاث منازل: شكر القلب، وهو الاعتقاد بأنّ اللّهَ وليُّ النّعم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وشكرُ اللسان، وهو: إظهارُ النعمة بالذكر لها والثناءِ علىٰ مُسديها، قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وهو رأس الشكر المذكور في الحديث، وشكرُ العمل، وهو إدْآبُ النفْس بالطاعة، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. وقام رسولُ الله ﷺ حتىٰ تفطّرتْ قدماه، فقيل له: يا رسولَ الله، أليس قد غفرَ اللّهُ لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» قال الخطابي: وقد جمع الشاعرُ أنواعَه الثلاثَة، فقال:

أفادَتْكُمُ النَّعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

ويقال: إنّ الحمد: ما كان علىٰ غير مقابلة، والشكرُ عن مقابلة.

وفي حديث الدعاء بعد افتتاح الصلاة: «سُبحانَكَ اللهُمَّ وبحَمْدك» أي: وبحمْدك أبتدئ، وكذلك الباء في «بسم الله الرحمن الرحيم»، كأنك قلت: أبدَأُ باسم الله وأفتتح. وفي الحديث: «لواءُ الحمْد بيدي». يريدُ به انفرادَه بالحمْد يومَ القيامة، وشهرتَه به، علىٰ رءوس الخلق، والعربُ تضَعُ اللِّواء موضعَ الشهرة.

وفي حديث الدعاء عند النداء للصلاة، الذي رواه جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قال حينَ يسمَعُ النداء: اللهُمَّ ربَّ هذه الدعوة

[التامّة][1]، والصّلاة القائمة، آتِ محمّداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعَثْه مُقاماً محموداً الذي وعدْتَه، حَلَّتْ له شفاعتي يومَ القيامة». المقامُ المحمود، أي: الذي يحمَدُه فيه جميعُ الخلق، لتعجيل الحسابِ والإراحةِ من طول الوقوف. قال أبو الفرج ابنُ الجوزيّ: والأكثرُ علىٰ أنّ المرادَ بالمقام المحمود: الشفاعة، وقيل: إجلاسُه علىٰ العرش، وقيل: علىٰ الكرسي. قال ابنُ حجرٍ في« الفتح»: وعلىٰ تقدير الصحة لا يُنافي الأول، لاحتمال أن يكونَ الإجلاسُ علامةَ الإذْن في الشفاعة، ويُحتمَلُ أن يكونَ المرادُ بالمقام المحمود الشفاعةَ كما هُو المشهور، وأن يكونَ الإجلاسُ هي المنزلةَ المعبَّرَ عنها بالوسيلة أو الفضيلة. ووقَعَ في «صحيح ابن حِبّان»[2]، من حديث كعب بن مالك، مرفوعاً: «يبعَثُ اللّهُ الناس، فيَكْسُوني ربي حُلّةً خضراء، فأقولُ ما شاء اللّهُ أن أقول، فذلك المَقامُ المحمود».

ويظهر أنّ المرادَ بالقول المذكور، هو: الثناءُ الذي يقدّمُه بينَ يدَي الشفاعة، ويظهَرُ أن المقامَ المحمودَ هُو: مجموعُ ما يحصُلُ له في تلك الحالة، ويُشعر قولُه في آخر الحديث: «حَلَّتْ له شفاعتي» بأنّ الأمرَ المطلوبَ له الشفاعة[3]. والله أعلم. ثم قال ابن حجر: قوله: «حلَّت له» أي: استحقّت ووجَبَت، أو نزَلَت عليه. يقال: حلَّ يَحُلُّ، بالضم: إذا نزَل. واللامُ بمعنىٰ «علىٰ»، ويؤيّدُه روايةُ مسلم: «حلّتْ عليه»، ووقع في «الطحاوي»، من حديث ابن مسعود: «وجَبَت له». ولا يجوزُ أن يكون «حَلَّتْ» من الحِلِّ؛ لأنها لم تكن قبلَ ذلك محرَّمة، وقال الطِّيبي: المراد بقوله: «وابعَثْه مقاماً محموداً» قولُه تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

---

(١) سقطت من الأصل. والحديث رواه البخاري (٦١٤) وغيرُه.

(٢) هو في «ابن حبان» برقم (٦٤٧٩)، بلفظٍ فيه زيادة واختلاف، ثم يلتقي في الباقي مع الرواية التي ساقها المؤلف أعلاه: «يُبعَثُ الناسُ يومَ القيامة، فأكون أنا وأُمتي علىٰ تلٍّ، فيكسوني. . .».

(٣) كذا كتبها وضبطها المؤلف رحمه الله بخط يده، والله أعلم بصوابها.

وأطلَق عليه الوعدَ لأن «عسىٰ» منَ الله واقعٌ كما صحّ عن ابن عُيينةَ وغيره.

وقد استقصىٰ الحافظُ ابنُ كثير، في تفسير هذه الآية الكريمة، جملةً صالحة من الأحاديث والآثار الواردة في تفسير ذلك المقام المحمود.

وجاء في كتاب رسول الله ﷺ: «أمّا بعد، فإنّي أحمَدُ إليك اللّهَ الذي لا إلٰهَ إلاّ هو». قال الخليلُ بن أحمد: معناه: أحمَدُ معَك الله. فأقام «إلىٰ» مُقام «مع». وقال غيرُه: معناه: أحمَدُ إليك نِعمَ الله وأحدِّثُك بها. وفي حديث ابن عباس، رضي الله عنهما: «إني أحمَدُ إليكم غَسْلَ الإحليل» أي: أرضاه لكم، وأُفضي إليكم بأنه فعلٌ محمودٌ مرضيّ. فأقام «إلىٰ» مُقام اللام. كما قال عز وجل في عكسه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها: أنها أتت عائشةَ رضي الله عنها حين علِمتْ أنها أرادت الخروجَ إلىٰ البصرة، وكلَّمَتْها بكلام بليغ، تُزهِّدُها في الخروج والانبعاث في الفتنة، فكان مما قالتْ رضي الله عنها: إنّ عمودَ الإسلام لا يُثابُ بالنساء إن مال، ولا يُرْأَبُ بهنَّ إن صُدِع. حُمادَيَاتُ النساءِ غضُّ الأطراف، وخَفْرُ الأعراض». حُمَادَيَات: جَمعُ حُمادَىٰ، وهي في الأصل: فُعالىٰ من الحمْد، ثم اتُّسعَ فيها، فقيل: حُماداك أن تفعَلَ كذا، أي: غايةُ أمرِك، ومنتهىٰ جُهدِك الذي تُحْمَدُ عليه ولا تُذَمّ. كما يقال: قُصاراك أن تفعَلَ كذا.

[ح م ر]

جاء في الحديث: «بُعثت إلى الأحمر والأسود». قال شَمِر بنُ حَمْدَوَيْه: يعني العرب والعجم. والغالب علىٰ ألوان العرب الأُدْمةُ والسُّمرة، وعلىٰ ألوان العجم البياضُ والحُمْرة، وكان مجاهدٌ يقول: الأحمرُ والأسود: الجنُّ والإنس. وفي

بعض الروايات: «بُعثت إلىٰ الأحمر والأبيض». وروىٰ عمرٌو عن أبيه، أبي عمروٍ الشيباني: الأحمر: الأبيض، واحتجّ بالرواية الأولىٰ، قال: والعرب تقول: امرأةٌ حمراء أي: بيضاء. ومنه قوله ﷺ لعائشة: « يا حُمَيراء». وحديثه الآخر: «خذوا شطرَ دِينِكم عن الحميراء». وهو تصغير الحمراء، ويريد البيضاء.

وهذا الحديث أكثرُ ما يرويه أصحابُ الغريب، كابن الأثير في «النهاية»، وقد تكلم عليه علماء الحديث، فقال الحافظُ ابن حجر في تخريج أحاديث ابن الحاجب: لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته في شيءٍ من كتب الحديث إلاّ في «النهاية» لابن الأثير في مادة (حمر)، ولم يَذكر من خرَّجه، ورأيته في «الفردوس» بغير لفظه، ذكره عن أنس، بغير إسناد، بلفظ: «خذوا ثُلُثَ دينِكم من بيت الحميراء» وذكر ابن كثير أنه سأل الحافظَين المِزّيَّ والذهبيَّ عنه، فلم يعرفاه، وقال السيوطيُّ في «الدرر»: أقف عليه، ولكن في «الفردوس» عن أنس: «خذوا ثُلُثَ دينِكم من بيت عائشة». وقال الذهبيُّ: هو من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها إسنادٌ.

وذكر بدرُ الدين الزركشيُّ في كتابه «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»، ذكر حديث: «خذوا شطرَ دينِكم عن الحميراء» ثم قال: وسألت شيخنا عماد الدين بن كثير، رحمه الله، عن ذلك فقال: كان شيخنا حافظُ الدنيا أبو الحجاج المزّيُّ رحمه الله يقول: كلُّ حديث فيه ذكرُ الحميراء باطلٌ إلا حديثاً في الصوم في «سنن النسائيّ». قلت ــ أي الزركشيّ ــ: وحديثاً آخرَ في «النسائي» أيضاً، عن أبي سلمة، قال: قالت عائشة: دخل الحبَشَةُ المسجدَ يلعبون، فقال لي: «يا حميراءُ، أتحبِّين أن تنظري إليهم»؟ الحديث. وإسناده صحيح، وروىٰ الحاكم في «مستدركه» حديثَ ذكْرِ النبي ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة، فقال: «انظري يا حميراءُ، ألاّ تكوني أنت»؟ ثم التفت إلىٰ علي فقال: « إن وَلِيْتَ من أمرِها شيئاً فارفِقْ بها». وقال: صحيح الإسناد.

وبعد: فهذا استطراد دعت إليه شهرة هذا الحديث عند الناس، وجرَيانُه علىٰ

ألسنتهم، فأحببت أن يعرفوا ما قيل فيه؛ قبولاً وردًّا.

ومن أحاديث مادة (حمر) ما جاء في حديث علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: أن العرب قالت له: غلبتنا عليك هذه الحمراء، يعنون العجم والروم. قال أبو زكريا الفراء: والعرب تسمي الموالِيَ الحمراء.

وجاء في الحديث: «أُعطيتُ الكَنزيْن: الأحمرَ والأبيض»، هي ما أفاء الله علىٰ أُمّته من كنوز الملوك، فالأحمر: الذهب، والأبيض: الفضة. والذهب: كنوزُ الروم؛ لأنه الغالبُ علىٰ نقودهم، والفضّةُ كنوز الأكاسرة؛ لأنها الغالبُ علىٰ نقودهم. وقيل: أراد العرب والعجم. جمعهم الله علىٰ دينه ودعوته. وفي الحديث: «أهلكهُنَّ الأحمران» يعني الذهبَ والزعفران، والضمير للنساء، أي: أهلكهن حبُّ الحُليّ والطيب. ويقال للّحم والشراب أيضاً: الأحمران، فإذا قيل: الأحامرة، فهي اللحمُ والشراب والخَلُوق، أي: الطِّيْب. قال الأعشىٰ:

إن الأحامرةَ الثلاثةَ أهلكَتْ ... مالي وكنتُ بهنَّ قِدْماً مُولَعا

وفي حديث طَهْفة بن أبي زهيرٍ النهديّ، حين وفد علىٰ النبي ﷺ، قال: أصابتنا سنةٌ حمراء، أي: شديدة الجدب، والعرب تصف عام الجدب بالحمرة، وتقول: إن آفاق السماء تحمرُّ أعوامَ القحط. قال الشاعر:

لا يَبْرمُونَ إذا ما الأُفْقُ جلّلَهُ ... صِرُّ الشتاءِ منَ الإمحالِ كالأَدَمِ

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا إذا احْمرَّ البأسُ اتقَيْنا برسول الله ﷺ، فلم يكن أحدٌ منّا أقربَ إلىٰ العدوِّ منه، أي: إذا اشتدت الحرب استقبلْنا العدوَّ به، وجعلناه لنا وقاية. وقيل: أراد إذا اضطرمت نارُ الحرب وتسعَّرت. كما يقال في الشرِّ بين القوم: اضطرمت نارُهم، تشبيهاً بحُمرة النار، وكثيراً ما يطلقون الحُمْرةَ علىٰ الشدة.

وحكىٰ أبو عبيد عن الأصمعي، قال: يقال: هو الموتُ الأحمر، والموت الأسود، ومعناه الشديد. قال: وأرىٰ أصله مأخوذاً من ألوان السِّباع. يقول: كأنه

من شدّته سبُعٌ إذا أهوىٰ إلىٰ الإنسان. وأنشد لأبي زُبيدٍ الطائيِّ يصف الأسد، وكان وصّافاً له:

إذا عَلِقَتْ قِرْناً خطاطيفُ كفِّهِ   رأىٰ الموتَ بالعينينِ أسودَ أحمرا

قال أبو عبيد: فكأن علياً أراد بقوله: «احمرَّ البأسُ» أنه صار في الشدة والهولِ مثلَ ذلك، ومن هذا حديث عبد الله بن الصامت، قال: أسرع الأرضِ خراباً البصرةُ ومصر. قيل: وما يُخْرِبُهما؟ قال: القتلُ الأحمر والجوعُ الأغبر.

قال الأصمعيُّ: يقال: هذه وطأةٌ حمراء: إذا كانت جديدة، ووطأةٌ دهماء: إذا كانت دارِسة، أي: قديمة. قال ذو الرُّمّة:

سوىٰ وطأةٍ دهماءَ من غيرِ جعدةٍ   ثنَىٰ أُخْتَها في غَرْز كبداءَ ضامرِ

قال أبو عبيد: فكأن المعنىٰ في هذين الحديثين الموتُ الجديد، مع ما يُشبَّه به من ألوان السباع. ومن مجيء هذه المادة في الشدة ما جاء في حديث عليّ رضي الله عنه الذي رواه أبو العباس المبرِّد في كتاب «الكامل»: في حَمارَّةِ القيظ» أي: شدة الحرِّ، وقد تخفَّف الراء، فيقال: حمارَةُ القيظ.

[ح م ل]

يقول ربُّنا عز وجل مبيِّناً نِعَمَه علىٰ عباده بخلق الأنعام لهم، وتسخيرها لمنافعهم، يحملون عليها، ويأكلون منها، فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: ١٤٢]. فالحَمولَة التي يُحَمْلُ عليها الأحمال. والفَرْش: صِغارُ الإبل. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: أمّا الحَمُولةُ فالإبل والخيلُ والبغالُ والحميرُ، وكلُّ شيءٍ يحمل عليه، وأما الفَرْشُ فالغنم، واختاره ابن جرير. قال: وأحسَبُه إنما سُمِّي فَرْشاً لدُنوِّه من الأرض. وقال عبد الرحمن ابنُ زيد بن أسلم: الحَمُولةُ ما تركبون، والفَرْشُ ما تأكلون وتحلبُون.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله عبد الرحمن، في تفسير هذه الآية الكريمة، حسنٌ، يشهد له قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. إلىٰ أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]. وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

وقال تعالىٰ في شأن اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. قوله: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾. أي: أُعْطُوها وكُلِّفُوا القيام بها والعمل بما فيها، ثم لم يعملوا بمُوجبها، فهم كالحمار إذا حُمِّل كُتُباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حَمْلاً حِسِّيّاً ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حَمْلهم الكتاب الذي أوتُـوه، حفظوه لفظـاً، ولـم يتفهّموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أوَّلوه وحرفوه وبدَّلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم، لم يستعملوها، ولهذا قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأخرج الإمام أحمد بسنده، إلىٰ ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلَّم يوم الجمعة والإمامُ يخطب فهو كمَثَل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة».

وقال تعالىٰ في شأن رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، آتاه الله علماً لم ينتفع به حين استغواه الشيطان فأطاعه وامتثل أمره، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ

يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. قوله: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ أي: إن تحملْ عليه لتطرُدَه. كما يحملُ المقاتلُ علىٰ قرنه. والمعنىٰ: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله، سواءٌ وعظه الواعظ وَذكَّره المذكر، وزجره الزاجر، أو لم يقع شيءٌ من ذلك. قال ابن قتيبة: كل شيءٍ يلهث فإنما يلهث من إعياءٍ أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال المرض، وحال الصحة، وحال الرّيِّ وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظْتَه ضلّ، وإن تركْتَه ضلّ، فهو كالكلب، إن تركته لهَث، وإن طردته لهَث، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ٢]. يعني السَّحاب تحملُ الماء، كما قال زيدُ بنُ عمرو بن نفيل:

وأسلمتُ نفسي لمن أسلَمَتْ لـه المُزنُ تحملُ عَذباً زُلالا

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾[النور: ٥٤] أي: عليه ما حُمِّل من إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، وعليكم ما حُمِّلتم، أي: من قبول ذلك والإيمان به، والقيام بمقتضاه.

والأصل في الحَمْل أن يكون علىٰ الظهر، ثم يُستعار للحَبَل، فيقال: حملت المَرأة، أي: حَبلَت. قال تعالىٰ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ [فاطر: ١١]. وقال تعالىٰ: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قوله تعالىٰ: ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ وصفه بالخِفَّة لأنه عند إلقاء النطفة أخفُّ منه عند كونه عَلَقة، وعند كونه عَلَقَةً أخفُّ منه عند كونه مضغة، وعند كونه مضغةً أخفُّ مما بعده. وقوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾. أي: استمرّتْ بذلك الحمل تقوم وتقعد، وتمضي في حوائجها، لا تجد به ثقلاً. وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾. أي: فلما صارت

ذات ثقل، لكبر الولد في بطنها.

وفرّق بعض اللغويين بين الحَمْل والحِمْل. فقالوا: الحَمْلُ في البطن، والحِمْل علىٰ الظهر. قال ابن السِّكيت: الحَمْل: ما كان في بطنٍ، أو علىٰ رأس شجرة. والحِمْل، بالكسر: ما كان علىٰ ظَهْرٍ أو رأس، ويقال: امرأةٌ حاملٌ وحاملة: إذا كانت حُبْلىٰ. فمن قال: حامل، قال: هذا وصفٌ لا يكون إلاَّ للإناث. ومن قال حاملةٌ بناه علىٰ حقِّ التصريف: حملَتْ فهي حاملة. وأنشدوا لعمرو بن حسَّان:

تمخّضتِ المنونُ له بيومٍ أنَىٰ، ولكلِّ حاملةٍ تمامُ

فإذا حملت المرأةُ شيئاً علىٰ ظهرها أو علىٰ رأسها فهي حاملةٌ لاغير؛ لأن الهاء إنما تلحق للفرق بين ما يُحمل في البطن وما يُحمل علىٰ الظهر أو علىٰ الرأس.

جاء في الحديث الطويل المرويِّ في الصِّحاح، في قوم يُخرجهم الله من النار، يقول ﷺ: «حتىٰ إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخرجَ من النار من أراد أن يُخرجَ ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرَّم الله علىٰ النار أن تأكل من ابن آدم أثر السُّجود، فيخرجونهم قد امْتَحَشُوا، فيُصبُّ عليهم ماءٌ يقال له: ماءُ الحياة، فينبُتُون كما تنبُتُ الحِبَّةُ في حَميل السَّيل». قوله: «امْتَحَشوا»، أي: احترقوا. والمحْشُ: احتراق الجلد وظهور العظم. والحِبَّة، بكسر الحاء وتشديد الباء: بزُورُ البقول. وحَميل السيل: قال الأصمعي: الحميلُ: ما حمله السيلُ من كلّ شيء، وكلُّ محمول فهو حميل، كما يقال للمقتول: قتيل. وقال ابن الأثير: هو ما يجيء به السيلُ من طين أو غُثاء وغيره، فعيل بمعنىٰ مفعول، فإذا اتفقت في هذا السيل حِبَّة، واستقرّت علىٰ شط مجرىٰ السيَّل؛ فإنها تنبُت في يوم وليلة، فشُبّه بها سرعةُ عوْد أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها.

قال ابن أبي جمرة، فيما حكاه ابنُ حجر في «الفتح»: فيه إشارة إلىٰ سرعة

نباتهم؛ لأن الحِبَّةَ أسرع في النبات من غيرها، وفي السَّيل أسرع؛ لما يجتمع فيه من الطين الرِّخو الحادث مع الماء، مع ما خالطه من حرارة الزِّبل المجذوب معه. ثم قال: ويستفاد منه أنه ﷺ كان عارفاً بجميع أمور الدنيا، بتعليم الله تعالىٰ له، وإن لم يباشر ذلك.

وفي حديث عمر بن الخطاب، أنه كتب إلىٰ شريح رضي الله عنهما: «الحميل لا يُوَرَّثُ إلاَ ببيِّنة» قال أبو عبيد الهرويّ: فيه قولان: يقال: هو الذي يُحْمَلُ من بلادِه صغيراً إلىٰ بلاد الإسلام. ويقال: هو المحمولُ النَّسَب، وذلك أن يقول الرجلُ لإنسان: هذا أخي أو أبي أو ابني؛ ليزوي ميراثه عن مواليه، فلا يُصدَّق إلا ببيِّنة. وفي الحميل بمعنىٰ الدعيّ يقول الكميت، يعاتبُ قضاعة في تَحوُّلهم إلىٰ اليمن:

عـلامَ نـزلْتـمُ مـن غيـرِ فَقْـرٍ ولا ضـرّاءَ منـزلـةَ الحميـلِ

وفي الحديث: «لا تحلُّ المسألة إلاّ لثلاثة..» ومنهم: «رجلٌ تحمَّل حَمالة». الحَمالةُ، بفتح الحاء: ما يتحمّله الإنسان عن غيره، من دية أو غرامة، مثل أن يقع حربٌ بين فريقين، تُسْفك فيها الدماءُ، فيدخلُ بينهم رجلٌ يتحمَّل ديات القتلىٰ؛ ليصلح ذات البين. والتحمُّلُ: أن يحملها عنهم علىٰ نفسه.

وهذا الحديـث بتمامـه رواه مسلـمٌ، عن قبيصـة بن مخـارق الهلالي، قال: تحمّلتُ حَمَالةً. فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقِمْ حتىٰ تأتيَنا الصدقةُ فنأمُرَ لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصةُ، إن المسألة لا تحلُّ إلاّ لأحد ثلاثة: رجلٍ تحمَّـل حَمالةً فحلَّتْ له المسألـةُ حتى يصيبَها ثم يُمـسك، ورجـلٍ أصابته جائحةٌ اجتاحـت ماله، فحلَّتِ المسألة حتىٰ يصيب قواماً من عيش ــ أو قـال: سِداداً من عيش. ورجلٍ أصابته فاقةٌ حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا من قرابة قومِه فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلّتْ له المسألةُ حتىٰ يصيب قواماً من عيش ــ أو قال: سِداداً من عيش. فما سواهُنّ من المسألة سُحْتٌ يأكلُها صاحبُها سحتاً».

وجاء في بعض الحديث: كنّا إذا أُمرنا بالصدقة انطلق أحدُنا إلىٰ السُّوق فتحامل. تحامَل، أي: تكلَّف الحملَ بالأجرة. ليكتسب ما يتصدق به. تحاملتُ الشيء، أي: تكلّفْتُه علىٰ مشقّة. ومنه الحديث الآخر: كنَّا نُحامل علىٰ ظهورنا، أي: نحمل لمن يحملُ لنا، من المفاعلة، أو هو من التحامل. وفي حديث تبوك: قال أبو موسىٰ: أرسلني أصحابي إلىٰ النبي ﷺ أسأله الحُمْلان. الحُمْلان: مصدر حَمَل يَحْمل حُمْلاناً، وذلك أنهم أرسلوه يطلبُ منه شيئاً يركبون عليه. ومنه تمام الحديث: قال له النبي ﷺ: «ما أنا حملتكم ولكنّ الله حملكم» أراد إفراد الله تعالىٰ بالمَنِّ عليهم. وقيل: أراد لمّا ساق الله إليه هذه الإبلَ وقت حاجتهم كان هو الحامل لهم عليها، وقيل: كان ناسياً ليمينه أنه لا يحملهم، فلمّا أمر لهم بالإبل، قال: ما أنا حملتكم، ولكنّ الله حملكم، كما قال للصائم الذي أفطر ناسياً: «أطعمك الله وسقاك».

وفي حديث الطهارة: «إذا كان الماء قلّتين لم يحملْ خَبَثاً» أي: لم يُظهرْه، ولم يغلبْ عليه الخَبَث، من قولهم: فلانٌ يحمل غضبَه، أي: لا يُظهره. والمعنىٰ أن الماء لا يَنجُسُ بوقوع الخَبَث فيه إذا كان قلَّتين. وقيل: معنىٰ «لم يحمل خَبَثاً»: أنه يدفعه عن نفسه، كما يقال: فلانٌ لا يحمل الضّيم: إذا كان يأباه ويدفعه عن نفسه، وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في شأن الخوارج: لا تُناظروهم بالقرآن، فإنه حمَّالٌ ذو وجوه، أي: يُحمَلُ عليه كلُّ تأويل فيحتمِلُهُ، وقوله: ذو وجوه، أي: ذو معانٍ مختلفةٍ.

وجاء في حديث تحريم الحُمُرِ الأهلية: «لأنها كانت حَمُولةَ الناس» الحَمولة، بفتح الحاء: ما يحتمل عليه الناسُ من الدوابّ، سواءٌ كانت عليها الأحمالُ، أو لم تكن، كالرَّكوبة.

[ح م م]

يقول ربنا عز وجل آمراً عباده المسلمين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]. أي أن من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: ما عاقبْتَ من عصىٰ الله فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه.

قال ابن كثير: أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتْه تلك الحسنة إليه، إلىٰ مصافاتك ومَحبّتك، والحنوِّ عليك، حتىٰ يصير كأنه وليٌّ لك حميم أي: قريبٌ إليك، من الشفقة عليك، والإحسان إليك. والحَميم: القريب المشفق، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١]. وقوله: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠].

واشتقاقُ الحميم بهذا المعنىٰ، من الحميَّة، وهي الغضب، أو من الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة. قال عليُّ بن عيسىٰ: إنما سُمِّي القريبُ حميماً؛ لأنه يَحْمَىٰ لغضب صاحبه. وقال الراغب الأصبهاني: الحميم: القريبُ المشفق، فكأنه الذي يحتدُّ حماية لذويه. وقيل لخاصّة الرجل: حامَّتُه، فقيل: الحامَّةُ والعامَّة، وذلك لما قلنا، ويدلُّ علىٰ ذلك أنه قيل للمشفقين من أقارب الإنسان: حُزانتُه، أي: الذين يحزَنون له. ويقال: احتَمَّ فلانٌ لفلان، أي: احتدَّ، وذلك أبلغ من اهتمّ، لما فيه من معنىٰ الاحتمام. ومنه الحديث: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامَّتي، أذهب عنهم الرِّجْسَ وطهرهم تطهيراً» . وهذا الحديث رواه الحافظ ابنُ كثير، من طرق كثيرة، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وعنده: «أهل بيتي وخاصتي» مكان «وحامَّتي».

وفي الحديث: أن وفد ثقيف لما انصرف كلُّ رجل منهم إلىٰ حامَّته، قالوا: أتينا رجلاً فظّاً غليظاً، قد أظهر السيف وأداخَ العرب، ودان له الناس. الحديث. قال الخطابي: حامَّةُ الرجل: خاصَّةُ أهله، وهي السّامَّةُ أيضاً، يقال: كيف السامَّةُ والعامّة؟ قال العجاج:

هـو الـذي أنعَـمَ نُعْمَـىٰ عَمَّـتِ   علىٰ الـذيـن أسلمـوا وسَمَّـتِ

ومن استعمال مادة «حمم» في معنىٰ القُرْب، ما جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ودخل عليه أبو الأعور السُّلمي، فقال له: إنا جئناك في غير مُحِمَّة ولا عُدْم. المُحَمَّة: الحاجة المهمّةُ اللازمة للإنسان. يقال: أحمَّ الأمر: إذا قرُبَ ودنا، وكذلك أحمَّت الحاجة. قال الشاعر:

حيِّيـا ذاكُمـا الغـزالَ الأجَمّـا   إن يكـن ذاكُمـا الفـراقُ أحَمَّـا

وقال زهير:

وكنـتُ إذا مـا جئـتُ يـومـاً لحـاجـةٍ   مضَتْ وأحمَّتْ حاجةُ الغدِ ما تَخْلُو

والحميم: الماء الحارُّ الشديد الحرارة. قال تعالىٰ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥]. وقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤]. ومنه الحديث: أنه كـان يغتسـل بالحميـم وهو المـاء الحارّ. وفي الحديـث: «لا يبُولَـنَّ أحدكم في مُسْتَحَمِّه». قال ابن الأثير: المُسْتحَمّ: الموضع الذي يُغْتَسلُ فيه بالحميم. وهو في الأصل: الماءُ الحارّ، ثم قيل للاغتسال بأيّ ماء كان: استحمامٌ. وإنما نهىٰ عن ذلك إذا لم يكـن له مسلك يذهب فيه البول، أو كان المكان صُلْباً فيوهم المغتسـل أنه أصابه منه شيءٌ، فيحصُلُ منه الوسواس.

وفي الحديث: «مَثَلُ العالم مَثَلُ الحَمَّة، يأتيها البعداءُ، ويَزْهَدُ فيها القُرَباء» الحَمَّة، بفتح الحاء: عين ماء حارّ يَستشفي بها المرضىٰ. أما الحُمّة، بضم الحاء، فهي شدّةُ الأمر ومعظَمُه.

وجاء في حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: أنه كان إذا بعث الجيوش أوصاهم بتقوىٰ الله، وأمرهم ألا يقتلوا هِمّاً ولا امرأة ولا وليداً. وأن يتقوا قتلهم إذا التقىٰ الزحفان، وعند حُمّة النهضات» والهِمّ: الشيخ الفاني. وحُمَّةُ النهضات، أي: شدّتها ومعظمُها، وحمَّةُ كلِّ شيء: معظَمُهُ، وأصلها من الحَمِّ: الحرارة، أو من حُمّة السِّنان، وهي حدَّتُه.

وقال مسلمةُ بن عبد الملك، في خطبة له: إن أقلَّ الناس في الدُّنيا هَمّاً أقلُّهم حَمّاً. حَمّاً، أي: مالاً ومتاعاً، وهو من التحميم: المتعة، وهو في حديث عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: أنه طلَّق امرأته، فمتَّعها بخادمة سوداء حمَّمها إيّاها. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: حمَّمَها إيَّاها يعني متَّعها بها بعد الطلاق، وكانت العرب تسميها التحميم. قال الراجز:

أنت الذي وهبتَ زيداً بعدما ... هممتُ بالعجوزِ أن تُحمَّما

يعني: أنْ أُطَلِّقها وأُمتِّعَها. قال الأصمعي: التحميم في ثلاثة أشياء: هذا أحدها، والثاني: حَمَّمَ الفرخُ: إذا نبت ريشُه، وحمَّمتُ وجه الأرض: أي سوَّدْتُه بالحُمَم. وفي الحديث: أنه ﷺ مرَّ بيهوديٍّ مُحَمَّم مجلود، فقال: «أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟». محمَّم، أي: مُسْوَدُّ الوجه، من الحُمَمَة، وهي الفَحْمة، وجمعها حُمَمٌ، وفي الحديث: أن رجلاً أوصىٰ فقال: إذا متُّ فاحرقوني بالنار، حتىٰ إذا صرت حُمَماً فاسحقوني. وفي حديث أنس رضي الله عنه: كان إذا حَمَّم رأسه بمكة خرج واعتمر. يقال: حَمَّم رأسُ فلان بعد الحلق، أي: اسْوَدَّ بعد الحلق بنبات شعره وظهوره. ومعنىٰ الحديث أنه كان لا يؤخّر العُمرة إلىٰ المحرّم، وإنما كان يخرُج إلىٰ الميقات، ويعتمر في ذي الحجة.

[ح م و / ح م ىٰ]

يقول ربنا عز وجل في ردٍّ وإبطال ما ابتدعه أهل الجاهلية، في شأن الأنعام، فيقول عز من قائل: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. فممّا قيل في البَحيرة أنها الناقة إذا نُتِجت خمسةَ أبطُن، نحروا أذنها، أي: شقوها، وحرَّمُوا ركوبها ولبنها، والسائبة: الناقةُ تُسيَّب، أو البعير يُسيَّب، نذْرٌ علىٰ الرجل إن سلَّمه الله من مرض، أو بلَّغه منزله، فلا يُحْبَس عن رَعْي ولا ماء، ولا يركبه أحد. وقيل: هي الناقة التي تُسيَّب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها، ومنه قول الشاعر:

عقرْتُمْ ناقةً كانت لربّي   مسيَّبةً فقومُوا للعقابِ

والوصيلة: هي الشاة، كانت إذا ولَدَت أنثىٰ فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثىٰ قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكَرَ لآلهتهم. أما الحامي: فهو الفحل، إذا نُتِجَ من صُلبه عشرة، قالوا: قد حَمىٰ ظهره، فلا يُرْكَبُ، ولا يُحمَلُ عليه ولا يُمنع من ماء ولا مرعىٰ.

وفي الحديث الذي رواه الصعب بن جثامة، عن رسول الله ﷺ قال: «لا حِمَىٰ إلا لله ورسوله». قال الشافعيُّ رضي الله عنه: كان الشريف في الجاهلية إذا نزل بلداً في حيِّه استعْوَىٰ كلباً، فَحُمِي لصاحبه مدىٰ عُواء الكلب، لا يشركُه فيه غيره، وهو يشارك القوم في سائر ما يرعَوْن فيه، فنهىٰ النبي ﷺ عن ذلك. وأضاف الحمىٰ إلىٰ الله ورسوله، أي إلاَّ ما يُحْمَىٰ للخيل التي تُرْصَد للجهاد، والإبل التي يُحمَلُ عليها في سبيل الله، وإبل الزكاة وغيرها، كما حمىٰ عمر بن الخطاب النَّقيع لنَعم الصدقة والخيل المعدَّة في سبيل الله.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «الأموال»: وتأويل الحمىٰ المنهيّ عنه

فيما نرىٰ ــ والله أعلـم ــ أن تُحْمىٰ الأشيـاءُ التـي جعل رسول الله ﷺ الناس فيها شركـاء، وهـي: الماء، والكلأ، والنار، وقد جـاءت تسميتها في غير حديثٍ ولا اثنين، ثم قال في تفسير ذلك: وذلك أن ينزل القوم في أسفارهم وبواديهم بالأرض فيها النبـاتُ الذي أخرجه الله للأنعام مما لم ينصب فيه أحدٌ بحرث ولا غرس ولا سقْي. يقول: فهو لمن سبَق إليه، ليس لاحدٍ أن يحتظر منه شيئاً دون غيره، ولكن ترعاه أنعامُهم ومواشيهم ودوابُّهم معاً، وتردُ الماء الذي فيه كذلك أيضاً. فهذا معنىٰ الناس شركاء في الماء والكلأ، وكذلك قوله: «المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر». فنهىٰ ﷺ أن يُحْمَىٰ من ذلك شيءٌ إلاّ ما كان من حمًى لله ولرسوله، فإنه اشترط ذلك.

ومذهـب هذه الحمىٰ لله ولرسولـه، تكـون فـي وجهين: أحدهما أن تُحمىٰ الأرض للخيل الغازية في سبيل الله، وقد عمل بذلك رسول الله ﷺ، والوجه الآخر أن تُحمىٰ الأرض لنَعَم الصدقة، إلىٰ أن توضَعَ مواضعها، وتفرَّق في أهلها، وقد عمل بذلك عمر.

وفي الحديث: أن أبيض بن حمَّال سأل رسول الله ﷺ عن حمىٰ الأراك، فقال: «لا حمـىٰ في الأراك». فقال: أبيض: أراكةٌ في حِظاري، فقال عليه السلام: «لا حمىٰ في الأراك». قوله: «حِظاري» أراد الأرض التي فيها الزرعُ المحاط عليها كالحظيرة. وفي رواية، أنه سأله عمَّا يُحمَىٰ من الأراك، فقال: «ما لم تنله أخفافُ الإبل». قال ابن الأثير: معناه أن الإبل تأكل منتهىٰ ما تصل إليه أفواهُها؛ لأنها إنما تصل إليه بمشيها علىٰ أخفافها، فيُحْمَىٰ ما فوق ذلك. وقيل: أراد أنه يُحمَىٰ من الأراك ما بَعُد عن العمارة، ولم تبلغْه الإبلُ السارحةُ إذا أرسلت في المرعىٰ. ويشبه أن تكون هذه الأراكة التي سأل عنها يوم إحياء الأرض، وحظَر عليها، قائمةً فيها، فملك الأرض بالإحياء، ولم يملك الأراكة، فأما الأراك إذا نبت في مِلكِ رجلٍ فإنه يحميه، ويمنعُ غيره منه.

وفي حديث عائشة، وذكرت عثمان رضي الله عنهما، فقالت: عتبْنا عليه موضع الغمامة المُحْماة. تريد الحِمىٰ الذي حماه. يقال: أحميتُ المكانَ فهو مُحْمىً، أي: جعلتُه حِمىٰ، وهذا شيءٌ حِمىٰ، أي: محظورٌ لا يُقْرَب، وحميتُه حمايةً، أي: دفعتُ عنه، ومنعت منه من يقرُبه. وجعلتْه عائشةُ موضعاً للغمامة؛ لأنها تسقيه بالمطر، والناس شركاء فيما سقتْه السماء من الكلإ إذا لم يكن مملوكاً، فلذلك عتبوا عليه.

ومن أحاديث هذه المادة، ما جاء في حديث حنين، من قوله ﷺ: «الآن حَمي الوطيس» والوطيس: التنُّور، وحَمْيُه كنايةٌ عن شدّة الأمر واضطرام الحرب، ويقال: إن هذه الكلمةَ أولُ من قالها النبيُّ ﷺ، لما اشتدَّ البأسُ يومئذ، ولم تُسمع قبله، وهي من أحسن الاستعارات.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لا يخلُوَنّ رجل بامرأة، وإن قيل: حموها، ألا حموها الموت. الحَمُو: أبو الزوج، وأخو الزوج، وكلُّ من وَلِيَه من ذوي قرابته. قال الأصمعيُّ: الأحماءُ من قِبَل الزوج، والأَخْتان من قبل المرأة، والصهر يجمعهما. والمعنىٰ في هذا الحديث: أنه إذا كان هذا رأيه في أبي الزوج ــ وهو مَحْرَم ــ فكيف بالغريب؟ وقوله: ألا حَموها الموت، هذه كلمةٌ تقولها العرب مَثَلاً، كما تقول: الأسدُ الموت، أي: لقاؤه مثلُ الموت.

[ح ن ث]

يقول ربنا عز وجل معلِّلا لما يلقاه أصحابُ الشمال من العذاب المقيم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۞ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٥ ــ ٤٦]. قال مجاهد في الحنث العظيم: إنه الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه، وقيل: هو الشِّرك، وقال

الشعبي: هو اليمين الغَمُوس، واليمين الغموس: هي اليمين الكاذبة الفاجرة، التي يقتطع بها الحالفُ مالَ غيره، وسُمِّيت غموساً، لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وهذه المادة (حنث) تدلُّ علىٰ معنىً واحد في اللغة هو الإثم والحرج، يقال: حنث فلان في كذا، أي: أَثِم. ومن ذلك قولهم: بلغ الغلامُ الحنث، أي: بلغ مبلغاً جرىٰ عليه القلم بالطاعة والمعصية وأُثبتت عليه ذنوبُه، ومن ذلك الحنثُ في اليمين، وهو الخُلْفُ فيه. وفي الحديث: «من مات له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحنث دخل من أيِّ أبواب الجنة شاء». قال النضر بن شميل: معناه: قبل أن يبلغوا فيُكتب عليهم الإثم. وفي الحديث: «اليمينُ حِنْثٌ أو مندمة» أي: أن الحالف إمّا أن يندم علىٰ ما حلف عليه، أو يحنَثَ فتلزمه الكفارة، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمين قط، حتىٰ أنزل الله كفارة اليمين، وقال: لا أحلفُ علىٰ يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلاّ أتيتُ الذي هو خير، وكفرتُ عن يميني.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال هذه الأمة على شريعة ما لم تظهر فيهم ثلاث: ما لم يقبض منهم العلم، ويكثر فيهم أولاد الحِنْث، ويظهر فيهم السَّقّارون. قالوا: وما السقارون يا رسول الله؟ فقال: نشْءٌ يكونون في آخر الزمان، تحيَّتُهم إذا التقوا التلاعن». أولاد الحِنْث هم أولاد الزنا. وأصل الحِنْث: الذنب العظيم، كما سبق.

قال أبو سليمان الخطابي: وذكر ابن لنكك، عن بعض فصحاء الأعراب، قال: سألته عن الحِنْث، فقال: هو العِدْل الثقيل. قال: والأحناث عندنا: الأعدال الثقال، فشبه الذنبَ العظيمَ بالعدْل الثقيل، والزنا كبيرة، فسمِّي حِنْثاً. وروي: «ويكثر فيهم أولادُ الخُبْث».

وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يأتي حِراءَ قبل أن يُوحىٰ إليه فيتحنَّث فيه

الليالي ذواتِ العدد. يتحنَّث، أي: يتعبَّد. يقال: فلانٌ يتحنَّث، أي: يفعل فعلاً يخرج به من الحنث، الذي هو الذنبُ، كما يقال: فلان يتأثّم ويتحرّج، أي: يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج. ومنه حديث حكيم بن حزام القرشي، رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، أرأيت أموراً كنت أتحنَّث بها في الجاهلية، من صدقة وصلةِ رحمٍ، هل لي فيها أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمتَ علىٰ ما سلف من خير».

[ح ن ف]

يقول عز من قائل. آمراً عباده المسلمين ألا يتبعوا اليهود والنصارى، في دعوتهم لهم أن يتهوّدوا ويتنصّروا: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. روىٰ محمد بن إسحاق، بسنده إلىٰ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله: ما الهُدَىٰ إلاَّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتدِ، وقالت النصارىٰ مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ﴾ قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾ أي: لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، أي: مستقيماً. وقد تعدّدت أقوال المفسّرين في معنىٰ «حنيفاً»، وأولىٰ الأقوال بالقبول أنه بمعنىٰ مستقيم.

وهذه المادة (حنف) تدلّ في أصل وضعها اللغوي علىٰ الميَل، فيقال للذي يمشي علىٰ ظهور قدميه: أحنف، وقيل: الحَنَفُ: اعوجاج في الرِّجل إلىٰ داخل، وبه سُمّي الأحنفُ بن قيس السَّعدي التميمي، أحد الدهاة الفصحاء الشجعان، وكان يُضرب به المثلُ في الحِلْم، ويسمىٰ المستقيمُ المائلُ إلى الدين الصحيح حنيفاً. وقد وُصِفَ خليلُ الله إبراهيمُ عليه السلامُ في القرآن بأنه كان حنيفاً مسلماً، وسمّت

العرب كلَّ من كان علىٰ دين إبراهيم عليه السلام في القرآن بأنه كان: حنيفاً.

ويُجْمع الحنيف علىٰ حنفاء، قال تقدست أسماؤه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١] أي: مائلين إلىٰ الحق، مستقيمين عليه. وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٧] أي: مائلين عن الأديان كلها إلىٰ دين الإسلام. وفي الحديث القدسيّ: «خلقت عبادي حنفاء» قال ابن الأثير: أي طاهري الأعضاء من المعاصي، لا أنه خلقهم كلهم مسلمين، لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. وقيل: أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لمّا أخذ عليهم الميثاق في قوله عز وجل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فلا يوجد أحدٌ إلاَّ وهو مُقِرٌّ بأن له ربّاً وإن أشرك به.

ومنه الحديث: «بعثت بالحنيفية السَّمحة السهلة». ويقال: تحنَّف الرجل، أي: عمِل عمَل الحنيفية، ويقال: اختتن، ويقال: اعتزل الأصنام وتعبد.

قال جِران العَوْد النميري، وهو جاهليٌّ أدرك الإسلام وسمع القرآن، واقتبس منه كلمات وضعها في شعره، يقول:

ولمّـا رأيْـنَ الصبـحَ بـادرْنَ ضَـوْءَهُ ... رَسِيمَ قطا البطحاءِ أو هُنَّ أقطفُ

وأدركْـنَ أَعجـازاً مـنَ الليـلِ بعـدَمـا ... أقـامَ الصـلاةَ العـابـدُ المتحنِّـفُ

ومـا أُبْـنَ حتـىٰ قُلـنَ: يـا ليـتَ أننـا ... ترابٌ وليتَ الأرضَ بالناسِ تَخسِفُ

[ح ن ك]

يقول ربنا عز وجل في قصة إبليس عليه لعنة الله، حين رفض السجود لآدم عليه السلام، ورأىٰ لنفسه مقاماً خيراً من مقامه، وما كان من وعيده لإغواء بني آدم وإضلالهم، فيقول عز من قائل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ

ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] أي: أخبرني عن هذا الذي فضّلْته عليَّ ـ وهو آدمُ عليه السلام ـ لمَ فضّلْتَه وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأقتادَنَّهم إلىٰ طاعتي، ولأستولينّ عليهم بالإغواء والإضلال. قال الأزهريّ: يقول: لأحتنكنّ، أي: لأستأصلنّ بالإغواء، ويقال: احتنك البعيرُ الصِّلّيانة: إذا اقتلعها من أصلها، واحتنك الجرادُ الأرض: إذا أتت علىٰ نباتها، ومنه قول الراجز:

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفت   جَهْداً إلىٰ جهدٍ بنا وأضْعَفَتْ

واحتَنكت أموالَنا واختلفَتْ

أي: استأصلت أموالنا وذهبتْ بها، وهذا مأخوذٌ من حنَكِ الإنسان والدابّة، وهو ذلك العضو المعروف، قال الراغبُ الأصبهانيُّ في تأويل الآية الكريمة: يجوز أن يكون من قولهم: حنكْتُ الدابّة، أي: أصبتُ حنكَها باللجام والرسن، نحو قولك: لأُلْجمنَّ فلاناً ولأُرسننّه، ويجوز أن يكون من قولهم: احتنك الجرادُ الأرض، أي: استولىٰ بحنكه عليها فأكلها واستأصلها، فيكون معناه: لأستولين عليهم استيلاءه علىٰ ذلك.

وجاء في حديث النبي ﷺ: أنه كان يُحنِّك أولاد الأنصار. قال اليزيديُّ، فيما حكاه أبو عبيد: التحنيك: أن يمضُغُ التمرَ ثم يدلُكه بحنك الصبيِّ داخل فمه. يقال منه: حَنَكْتُه وحنّكْتُه ـ بتخفيف وتشديد، فهو محنُوك ومحنَّك. أما قولهم عن الرجل العاقل المجرِّب: محنَّك، وحنّكْته التجارِب، فللغويين فيه قولان: الأول: أنه مأخوذ من احتنك الجرادُ النبت، أي: استأصله، وذلك بلوغ نهايته، فقيل للرجل المجرِّب: حنّكته التجارب، وهو التناهي في الأمر، والبلوغُ إلىٰ غايته. ويقال منه: حنكْتُ الشيءَ، أي: فهمته، وهو من ذلك أيضاً؛ لأنك إذا فهمتَه فقد بلغْتَ أقصاه. وهذا قول ابن فارس، والقول الثاني: أنه مأخوذ من حنكْتُ الفرسَ أحنُكه، أي:

جعلت في حنكه الأسفل حبلاً أقودُه به، والرجل: حنيك ومحنَّك ومُحْنَك وحنكتْه الأمورُ والتجارِب، أي: أدَّبته وراضَتْه. وهذا قول الزمخشري، وبه فسَّر حديث طلحة بن عبيد الله، وقوله لعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، حين استشارهم في جموع الأعاجم: قد حنّكتْك الأمور، وحرَّستْك الدهور، وعجَمتْك البلايا، فأنت وليُّ ما وُلِّيت، لا ننبو في يديك. ولا نَخُول عليك.

[ح ن ن]

يقول عز وجل، في قصة يحيىٰ عليه السلام، وما أفاء عليه من النعم: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣] أي: وآتيناه رحمةً من عندنا، وقال ابن الأعرابيّ: الحنَّان، من صفات الله، مشدَّدٌ: الرحيم، والحنَانُ، مخفَّف، العطف والرحمة، والحنانُ: الرزق. وأخرج الإمام أحمدُ، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يبقىٰ رجلٌ في النار ينادي ألف سنة: يا حنَّان يا منَّان». والحَنَان، مأخوذٌ من حنين المرأة علىٰ ولدها، والناقة علىٰ فصيلها، والحنين: الميل المتضمِّن للإشفاق والرحمة، وقد يكون مع ذلك صوتٌ. ويقال: حنانَك يا ربّ وحنانَيْكَ، أي: رحمتك وعطفك. وتثنيته بمعنىٰ رحمةً بعدَ رحمة. قال طرفة:

أبا منذرٍ أفنيْتَ فاسْتَبْقِ بعضَنا ... حنانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهوَنُ من بعضِ

وفي حديث بلال بن رباح: أنه مرَّ عليه ورقة بن نوفل وهو يعذَّب، فقال: والله لئن قتلتموه لأتخذنَّه حناناً. قال الأزهري: معناه: لأتعطفَنَّ عليه، ولأترحمنَّ عليه، لأنه من أهل الجنة. ومنه قول الحطيئة:

تحنَّن عليَّ هداك المليكُ ... فإنّ لكلِّ مقامٍ مقالا

ومنه الحديث: أنه ﷺ دخل علىٰ أم سلمة وعندها غلامٌ يسمىٰ الوليد، فقال: «اتخذتم الوليد حناناً؟ غيِّروا اسمَه»! قال ابن الأثير: أي: تتعطفون علىٰ هذا الاسم وتحبونه، وفي رواية أنه من أسماء الفراعنة، فكرِهَ أن يسمَّىٰ به.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يصلي إلىٰ جذع في مسجده، فلما عُمل له المنبرُ صعِدَ عليه، فحنَّ الجذعُ إليه، أي: نزع واشتاق، وهو من حنين الناقة، وهو ترجيعُها صوتها إثر ولدها.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما قال الوليد بن أبي معيط: أَأُقْتَلُ من بين قريش؟ فقال عمر: حَنَّ قِدْحٌ ليس منها. وهو مثلٌ يضربُ للرجل ينتمي إلىٰ نسب ليس منه، أو يدَّعي أمراً ليس منه في شيء. وجعله أبو عبيد من باب تمدُّحِ الرجل بالشيء وهو من غير أهله. والقِدْح: أحد قداح الميسر، وإذا كان القدحُ من غير جوهر أخواته، ثم حرَّكها المُفيض، خرج لهذا القدح صوتٌ يخالف أصواتها، فيُعرف أنه ليس من جملة القداح.

[ح و ب]

يقول ربنا عز وجل، في الوصية باليتامىٰ وعدم أكل أموالهم، ودفعها إليهم إذا بلغوا الحُلُم: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] الحُوب: الإثم. ويقال: حُوبٌ وحَوْب، وحوبة. ويقال: حاب يحوبُ حوباً، أي: أثم. قال الشاعر:

وإنّ مهاجرَيْن تكنَّفاها ... غداتَئذٍ لقد ظلَما وحابا

وجاء في دعائه ﷺ: «ربِّ تقبلْ توبتي واغسلْ حوبتي» أي: إثمي، ومنه الحديث: «اغفر لنا حَوْبَنا». وروي أنه ﷺ كان إذا دخل إلىٰ أهله قال: «تَوْباً توباً،

لا تغـادرْ علينـا حَوْباً». أما الحديث الآخر، أنه كان إذا قدم من سفر قال: «آيبون تائبون. لرّبنا حامدون، حَوْباً حَوْباً». فقد فسَّروا الحوب هنا بأنه زَجْرٌ لذكور الإبل، مثلُ: حَلْ لإناثها. فقوله: «حَوْباً حوباً» بمنزلة قولك: سيراً سيراً. كأنه ﷺ لما فرغ من دعائه زجر جمَلَه.

وفي الحديث: أنّ أبا أيوب رضي الله عنه أراد أن يطلق أم أيوب، فقال له النبي ﷺ: «إن طـلاق أمِّ أيوب لَحُوب» أي: لَوَحْشـةٌ وإثـم، وإنما أَثَّمهُ بطلاقها، لأنها كانت مُصْلحةً له في دينه. وفي حديثه ﷺ أن رجلاً أتـاه، فقال: إني أتيتك لأجاهد معـك. فقال: «ألك حَوْبَةٌ؟» قال: نعم. قال: «ففيهـا فجاهدْ». الحوبة هنا: هي الحُرْمةُ التي يأثم إن ضيَّعها؛ من أمٍّ أو أخت أو بنت. التقدير: ألك ذات حوبة؟ قال الفرذدق:

فهَبْ لـي خُنَيْساً واتخـذْ فيـه مِنّـة لحَـوْبـةِ أمٍّ يسـوغُ شـرابُهـا

ومنـه الحديـث: «اتقوا الله في الحَوْباتِ» يريد النساء المحتاجـات اللاتي لا يستغنين عمن يقـوم عليهـن ويتعهدهن. والحوبة: الحاجة، ومنه حديث الدعاء «إليـك أرفع حَوْبتي» أي: حاجتـي. وجاء في الحديث: «ما زال صفوان يتحوَّبُ رحالنا منذ الليلة». التحوُّب هنا: صوتٌ مع توجّع. أراد به شدة صياحه بالدعاء. قال طفيل:

فـذوقـوا كمـا ذقْنـا غـداةَ مُحَجَّـرٍ من الغيظِ في أكبادِنا والتحوُّبِ

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد يكون التحوّبُ: التعبّد والتجنّبُ للمأثم، ومنـه الحديث الذي يروىٰ عن زيـد بن عمـرو بن نفيل: أنه كان يخرج إلىٰ هنالك للتحوُّب.

ومن غريب هذه المادة: الحوباء، وقد جاءت في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: فعرف أنه يريد حوباء نفسِه. والحوباء هي روح القلب، وقيل: هي

النفس. وصلتُها بمعاني المادة (حوب) التي ذكرتها ترجع إلىٰ أمرين: أن تكون من الحوبة بمعنىٰ الحاجة والمسكنة، وإلىٰ هذا ذهب ابن فارس، قال: لأن إشفاق الإنسان علىٰ نفسه أغلب وأكثر. وإما أن تكون من الحَوْبِ وهو الإثم، وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب الراغب الأصبهاني، قال: والحوباء: قيل هي النفس، وحقيقتها: هي النفسُ المرتكِبة للحوب، وهي الموصوفة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

[ح و ذ]

يقول عز وجل في شأن المنافقين الذين كانوا يتردّدون بين المسلمين والكفار: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: ألم نغلبْ علىٰ أمركم يا معشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتىٰ حصل لكم هذا الظفَرُ بالمسلمين؟

وأصل هذه المادة (حوذ) يرجع إلىٰ معنىٰ الخفة والسرعة. يقال: حاذ الراعي الإبل يحوذها، أي: ساقها سوقاً عنيفاً. ويقال أيضاً: حاذ الحمارُ أُتُنَه يحوذها: إذا ساقها بعنف. قال العجّاج:

يحـوذُهـنّ ولـه حُـوذِيُّ

ومن ذلك: استحوذ عليه الشيطان: وذلك إذا غلبه وساقه إلىٰ ما يريد من غيِّه وإضلاله. قال عز من قائل: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: ١٩].

وروي أنّ النبي ﷺ قال: عَلَمُ الإيمان والصلاة، فمن فرَّغ لها قلبه وحاذ عليها

بحدودها فهو مؤمن». قوله: «حاذ عليها» أي: حافظ عليها ــ وكذا جاء في رواية ــ مأخوذ مِن: حاذَ الإبلَ يحوذها حوذاً، إذا حازها وجمعها ليسوقها، وفي الحديث: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدوٍ لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان» أي: استولىٰ عليهم وحواهم إليه.

ومن هذه المادة جاء (الأحوذيّ)، وهو الرجل الجادُّ الحَسَن السياق للأمور، ومنه قول أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تصف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: كان والله أحوذياً نسيجَ وحدِه. ويروىٰ: «أحوزياً» بالزاي أخت الراء.

وجاء في الحديث: «أغْبَطُ الناس المؤمنُ الخفيف الحاذ»: الحاذُ والحالُ واحد. وأصل الحاذ: طريقة المتن، وهو ما يقع عليه اللِّبْدُ من ظهر الفرس، أي: خفيف الظهر من العيال، ومن ذلك الحديثُ الآخر: «ليأتين علىٰ الناس زمان يُغبط فيه الرجل بخفّة الحاذ، كما يُغبط اليومَ أبو العشرة» ضربه مثلاً لقلة المال والعيال. وقال الشاعر:

خفيف الحاذِ نَسَّالُ الفيافي ... وعبدٌ للصحابةِ غيرُ عَبْدِ

وقوله: وعبدٌ للصحابة غير عبد: هو كما قيل: سيد القوم خادمهم.

[ح و ر]

يقول ربُّنا عز وجل، في قصة عيسىٰ عليه السلام، مع مَن كذّبه ومن آمن به: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. الحواريون: هم أنصار عيسىٰ عليه السلام. قيل: إنهم إنما سُمُّوا حواريين؛ لأنهم كانوا يغسلون الثياب ويحوِّرونها، أي: يبيّضونها. والتحوير: التبييض. والحَوَرُ: البياض، عند أهل

اللغة. وقيل: إنما سُمّوا كذلك لخُلُوص نياتهم ونقائها، وهو معنىً راجعٌ إلىٰ البياض أيضاً، فلما كان الحواريون أنصار عيسىٰ عليه السلام دون الناس، قيل لكلِّ ناصرِ نبيِّه: حواريّ، تشبيهاً بأولئك. ويقال لنساء الحاضرة: الحواريّات؛ لبياض ألوانهنَّ وثيابهن، قال أبو جَلْدةَ اليشكريّ:

فقل للحواريّاتِ يبكِينَ غيرَنا ولا تبكِنا إلاّ الكلابُ النوابحُ

وقال الأزهري، عن الحواريين: هم خُلْصان الأنبياء، وتأويلُه: الذين أخلصوا ونُقُّوا من كل عيب، ومن ذلك: الدقيق الحُوَّارىٰ، وهو الذي نُخِلَ ونُقِّي، فصار أبيض خالصاً، كأنه رُوجع مرةً بعد مرة. وجاء في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لمّا ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: «لكلِّ نبيّ حواريٌّ، وحواريَّ الزبير».

وقال تعالىٰ في قصة الذي ظاهَرَ من زوجته: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. تحاوركما، أي: مراجعتكما الكلام. ومنه قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. يقال: تحاور الرجلان: إذا ردَّ كلُّ واحد منهما علىٰ صاحبه، والحِوارُ والمحاورة: المخاطبةُ بين اثنين فما فوقهما، والحَوْر: الرجوع، ومنه قوله عز وجل، عن الكافر يوم القيامة: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] أي: لن يرجع إلىٰ الله. قال لبيد:

ومـا المـرءُ إلاَّ كـالشهـابِ وضـوئِـهِ يحـورُ رمـاداً بعـدَ إذ هُـوَ سـاطـعُ

ومنه الحديث: «من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حارَ عليه» أي: رجع عليه ما نسب إليه. ومنه حديث بعض السَّلف: «لو عيّرت رجلاً بالرَّضْع ــ أي باللؤم ــ لخشيت أن يحُورَ بي داؤُه». وفي حديث عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، يوشك أن يُرىٰ الرجل من ثَبَج المسلمين ــ أي من وسطهم ــ قرأ القرآن علىٰ لسان محمد

ﷺ، فأعاده وأبداه، لا يحورُ فيكم إلاَّ كما يحورُ صاحبُ الحمار الميّت» أي: لا يرجع فيكم بخير، ولا ينتفع بما حفظه من القرآن، كما لا ينتفع بالحمار الميّت صاحبُه، وفي الحديث: أنه ﷺ كان إذا سافر سفراً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب، والحَوْر بعد الكَوْر، وسوء المنظر في الأهل والمال». قيل: معناه: نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة وهو الحُورُ أيضاً، بضم الحاء، وتقول العرب: الباطلُ في حُورٍ، أي: في رجعٍ ونقص.

قال سُبيع بن الخطيم:

واستعجلوا عن خفيف المضغ فازدردوا والذمُّ يبقىٰ وزادُ القوم في حُور

وقيل معناه: نعوذ بالله من الرجوع عن الجماعة بعد الكَوْر، أي: بعد أن كنا في الكور، أي: في الجماعة، يقال: كار عمامته: إذا لفّها، وحار عمامته: إذا نقضها. وروي: «والحور بعد الكون» بالنون.

قال أبو عبيد: سئل عاصمٌ عن هذا فقال: ألم تسمع إلىٰ قولهم: حار بعد ما كان؟ يقول: إنه كان علىٰ حالة جميلة، فحار عن ذلك، أي: رجع، قال أبو عبيد: وهو في غير هذا الحديث: «الكور» بالراء. وزعم الهيثم أن الحجاج بن يوسف بعث فلاناً ــ وقد سماه ــ علىٰ جيش، وأمَّره عليهم إلىٰ الخوارج. ثم وجهه بعد ذلك إليهم تحت لواء غيره. فقال الرجل: هذا الحور بعد الكور. فقال له الحجاج: وما قولُك: الحورُ بعد الكور؟ قال: النقصان بعد الزيادة.

قال أبو عبيد: ومن قال هذا أخذه من كور العمامة، يقول: قد تغيرت حالُه، وانتقضت كما ينتقض كورُ العمامة بعد الشدّ. وكلُّ هذا قريبٌ بعضه من بعض في المعنىٰ. ومن الحَوْر الذي هو الرجوع إلىٰ الحال المذمومة حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: أنشدتُ رسولَ الله ﷺ هذين البيتين:

ارفَعْ ضعيفَك، لا يَحُرْ بكَ ضعفُهُ يوماً فتدرِكَه العواقبُ قد نما

يجزيكَ أو يُثني عليك، وإنَّ مَن أثنىٰ عليك بما فعَلْتَ فقد جَزَىٰ

أي: لا يصرفْكَ ضعفُه عن اصطناعه، ولا يُؤيسْك عن أن تعود له حالٌ حسنة، فيجزيك عن معروفك قولاً أو فعلاً.

وفي الحديث: أنه ﷺ كوىٰ أسعد ابن زرارة على عاتقه حوراء. وفي رواية: أنه وجد وجعاً في رقبته، فحوَّره رسول الله ﷺ بحديدة. الحوراء كيَّةٌ مدوَّرة. مِن حارَ يحورُ، إذا رجع. وحوَّره: إذا كواه هذه الكَيَّة، كأنه رجعها فأدارها. ومنه الحديث: أنه ﷺ لمّا أُخْبر بقتل أبي جهل، قال: «إن عهدي به وفي ركبتيه حوراء، فانظروا ذلك». فنظروا فرأوْه. يعني أثر كيّة كُوي بها. وقيل: سُمِّيت الكيَّةُ حوراء؛ لأن موضعها يبيَضُّ من أثر الكيّ. وقد سبق أن الحَوَر: البياض.

[ح و ز]

يقول ربنا عز وجل، متوعداً علىٰ الفرار من الزّحْف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]. قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: يصير إلىٰ حيّز فئةٍ من المسلمين، يستنصر بهم، ويمنعونه من العدو. ويقال: تحوَّز وتحيَّز وانحاز. بمعنىً واحد. والحَيْزُ: الناحية.

وروىٰ الإمام أحمد بسنده، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنت في سَرِيّـةٍ من سرايـا رسـول الله ﷺ، فحاص الناس حَيْصَة، فكنت فيمن حاص. فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضْنا أنفُسنا علىٰ رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة، وإلاّ

ذهبْنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرّارُون. فقال: «لا، بل أنتم العَكّارون، أنا فِئتُكُم، وأنا فئةُ المسلمين». قال: فأتيناه حتىٰ قبّلنا يده. وقوله: «حاص الناسُ حيصة» أي: جالوا جَوْلةً يطلبون الفرار. والمحيص: المهْرَبُ والمحيد. وقوله ﷺ: «بل أنتم العكارون» أي: الكَرَّارون إلىٰ الحرب، العطَّافون نحوها، يصفهم بالشجاعة والإقدام؛ يمهِّد بذلك عُذرَهم.

ورُوي هذا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أبي عبيدة رضي الله عنه، لما قُتل علىٰ الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس. فقال عمر: لو تحيّز إليّ لكنت له فئة. قال الحافظ ابن كثير: هكذا رواه محمد ابن سيرين عن عمر، ورُوي عن عمر أيضاً، أنه قال: أيها الناس، لا تَغرَّنّكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئةُ كلِّ مسلم.

وقال الضحَّاك في قوله عز وجل: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]. المتحيِّز: الفارُّ إلىٰ النبيّ ﷺ وأصحابه. وكذلك من فرَّ اليوم إلىٰ أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرارُ لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرامٌ وكبيرةٌ من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: «الشركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحق، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذْف المحصَنات الغافلات المؤمنات».

وهذه المادة (حوز) تدلُّ علىٰ أصل واحد في اللغة، وهو الجَمْعُ والتجمُّع. يقال لكلِّ مَجْمَع وناحية: حَوْزٌ وحَوْزة. ويقال: حَمىٰ فُلانٌ الحوزةَ، أي: المجمعَ والناحية. قالت امرأةٌ حَصانٌ عفيفة:

فظلْتُ أحْثي التُّرْبَ في وَجْهِهِ   عنِّي وأَحْمي حَوْزَةَ الغائبِ

تريد صيانة عِرْضِ زوجها الغائب، ويقال: تحيَّزت الحيَّةُ وتحوَّزت، أي:

تلوَّت، قال القُطامي يصف امرأة عجوزاً استضافها، فجعلت تروغ منه:

تحيَّزُ منّي خشيةً أن أُضيفَها كما انحازتِ الأفعىٰ مخافةَ ضاربِ

يقول: تتنحَّىٰ عني هذه العجوز وتتأخر، خوْفاً أن أنزل عليها ضيفاً.

وكلُّ من ضمَّ شيئاً إلىٰ نفسه فقد حازه حوزاً. والحيِّز: ما انضمّ إلىٰ الدار من مرافقها، وكلُّ ناحية حيِّز.

وجاء في الحديث: أن المسلمين حاسوا العدوَّ ضرْباً يوم أحد حتىٰ أجهضوهم عن أثقالهم، وأن رجلاً من المشركين جميع اللأمة كان يحوز المسلمين ويقول: استوسِقُوا كما يستوسِقُ جُرْبُ الغنم، فضربه أبو دُجانة علىٰ حَبْل عاتقه ضَرْبةً بلغت وِركَه. يحوزُ المسلمين، أي: يجمعهم ويسوقهم، ويقال: حازه يحوزُه: إذا قبضه وملكه واستبد به. وقوله: «حاسوا العدوَّ» أي: داسُوهم ووطئوهم، واستوسِقُوا معناه: اجتمعوا وانضمُّوا، يسومهم الانقياد والاستسلام.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الإثم حَوَّازُ القلوب، أي: يجمع القلوب ويغلبُ عليها. وروي: «حَزَّاز» أي: أن الإثم من الأمور التي تحُزّ في القلوب، أي: تحُكُّ وتؤثر.

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: فتحوَّز كلٌّ منهم فصلَّىٰ صلاة خفيفة، أي: تنحّىٰ وانفرد. ويروىٰ: «تجوّز» من السُّرعة والتسهيل. وفي حديث النبي ﷺ حين أتىٰ عبدَ الله بن أبي رواحة ـ أو غيرَه من أصحابه يعوده ـ: فما تحوَّزَ له عن فراشه. ما تحوَّز، أي: ماتَنَحَّىٰ، وهو من قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ٦١]. الذي سبق في صدر الحديث.

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام: وإنما أراد من هذا الحديث أنه لم يقم ولم يتنحَّ له عن صدر فراشه، لأن السّنة أن الرجلَ أحقُّ بصدر فراشه وصدر دابَّته. وفي الحديث: «فحمىٰ حَوْزة الإسلام» أي: حدوده ونواحيَه، وفلانٌ مانع لحوزته، أي:

لما في حيِّزه، وفي حديث عمر، أنه قال لعائشة، رضي الله عنهما يوم الخندق: وما يؤمِنُك أن يكون بلاءٌ أو تحوُّز، وهو الانضمام والتجمُّع. وفي حديث أبي عبيدة رضي الله عنه: أنه كان أَهْتَمَ الثنايا، وكان قد انحاز علىٰ حَلَقة قد نشبتْ في جراحة رسول الله ﷺ يوم أحد، فأَزَم عليها فنزعها. انحاز عليها، أي: أكبَّ عليها وجمع نفسه وضم بعضها إلىٰ بعضٍ، وأزَمَ: عضَّ.

[ح و ط]

يقول ربُّنا عز وجل، مبيّناً أن الكفار في قبضته، وأنهم لا يُفلتونه: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. رُوي عن مجاهد قال: أي: جامعُهم يوم القيامة. يقال: حاطه يحوطه حَوْطاً وحياطة وحَيْطَةً.

وهَذه المادة (حوط) تدلُّ علىٰ الشيء يُطِيف بالشيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠]. يعني أنهم في قبضته وتحت قدرته، فلا سبيل لهم إلىٰ الخروج مما يريده بهم، لإحاطته لهم بعلمه وقدرته. وقيل: إن المراد بالناس في الآية الكريمة أهلُ مكة، وإحاطته بهم إهلاكُه إياهم، أي: إن الله سيُهلكهم. وعبَّر بالماضي تنبيهاً علىٰ تحقق وقوعه، وذلك كما وقع يوم بدر ويوم الفتح. وقيل: المراد أنه سبحانه عصم نبيه عليه السلام من الناس أن يقتلوه حتىٰ يبلغ رسالة ربه. وقال الراغب الأصبهاني: الإحاطة تقال علىٰ وجهين: أحدُهما في الأجسام، نحو: أحطتُ بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] أي: حافظٌ له من جميع جهاته، وتُستعمل في المنع، نحوُ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: إلاّ أن تُمْنَعُوا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] فذلك أبلغ

استعـارةٍ، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنبـاً واستمرَّ عليه، استجرَّه إلىٰ مُعاودةِ ما هو أعظـمُ منـه، فلا يزال يرتقـي حتىٰ يُطبَـعَ علىٰ قلبـه، فلا يُمكنـه أن يخرج عن تعاطيه.

والمعنىٰ الثاني للإحاطة يقال في العلم، نحوَ قوله تعالىٰ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقولِه عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل‌عمران: ١٢٠] وقولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢]. ومعنىٰ الإحاطة بالشيء عِلماً، أن تعلم وجودَه وجنسَه وكيفيته وغرضَه المقصودَ به، وبإيجاده، وما يكون به ومنه. وذلك ليس إلاّ لله تعالىٰ، وقال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]. فنفىٰ ذلك عنهم. وقال الخضر لموسىٰ عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨] تنبيهاً أن الصبر التامَّ إنما يكون بعد إحاطةِ العلم بالشيء، وذلك صعبٌ إلاَّ بتوفيقٍ إلهي.

والاحتيـاط: استعمالُ ما فيه الحِياطـة، أي: الحفـظ، وفـي حديث العباس رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، ما أَغْنَيتَ عن عمِّك -يعني أبا طالب- فإنه كان يحوطـك ويغضبُ لك. يقال: حاطه يحوطه حَوطاً وحياطةً: إذا حفظـه وصانه، وذبَّ عنه، وتوفَّرَ علىٰ مصالحه.

وفـي الحديـث: «وتحيط دعوتـه من ورائهـم» أي: تُحـدق بهـم من جميـع جوانبهـم. يقال: حاطه وأحاط به. ومنـه قولهم: «أحطتُ به علمـاً» أي: أحـدق علمـي به مـن جميـع جهاتـه، وعَرَفْتُـهُ. وجاء في حديث أبي طلحة: فإذا هو في الحائـط وعليـه خميصـة. الحائـط هاهنـا: البستـان مـن النخيـل إذا كـان عليـه حائط، وهـو الجدار. ومنه الحديث: «علىٰ أهل الحوائط حفظُها بالنهار» يعني البساتين.

[ح و ل]

تدل مادة (حول) في أصل وضعها اللغوي علىٰ معنىً واحد، هو التحرُّك وتغيُّرُ الشيء وانفصالُه عن غيره. ومن ذلك الحَوْلُ، وهو العام، لأنه يتحرّك ويدور. وقال عز من قائـل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: يملك عليه قلبه فيحوّله، ويُصَرِّفُه كيف يشاء. وقيل: إن هذه الآية نزلت يوم بدر، حين خاف المسلمون كثرة العدوّ، فأعلمهم الله عز وجلّ أنه يحولُ بين المرء وقلبه، بأن يُبَدِّلَهـم بعد الخـوف أمناً، ويبدِّل عدوَّهم من الأمن خوفـاً. وقيـل: هو من باب التمثيل لقُربه سبحانه من العبد، كما قال عز وجل: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]. ومعناه: أنه مطّلعٌ علىٰ ضمائر القلوب، لا تخفىٰ عليه منها خافية. قال الشوكاني: واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عزّ وجل بأنه أملَكُ لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينَهم وبينها إذا شاء حتىٰ لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجلّ. وقال السُّدِّيّ: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفرَ إلا بإذنه.

وقد وردت أحاديثُ في معنىٰ هذه الآية، منها ما أخرجه الإمام أحمد، بسنده، عن أنـس بن مالك رضي الله عنه، قـال: كان النبـي ﷺ يُكثر أن يقـول: «يا مُقلّبَ القلوب، ثبّت قلبي علىٰ دينك» قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلّبُها».

ورویٰ الإمام أحمد أيضاً بسنده إلىٰ النَّوّاس بن سِمعان الكلابي رضي الله عنه، يقـول: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلـب إلاّ وهـو بيـن إصبعين من أصابـع الرحمـن ربِّ العـالمين، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء إن يُزيغه أزاغه» وكـان يقول: «يا مقلِّـب القلوب، ثبّتْ قلبي علىٰ دينـك»، قـال: «والميزان بيد الرحمن،

يخفضُه ويرفعُه».

وأخرج أيضاً بسنده عن شَهْر بن حَوْشَب، قال: سمعت أمَّ سلمة تحدّث، أن رسول الله ﷺ كان يُكثر في دعائه، يقول: «اللهمَّ مقلّبَ القلوب، ثبّتْ قلبي علىٰ دينك» قالت: فقلت: يا رسول الله، أوَ إنّ القلوب لتُقلّب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلاّ أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله عز وجل. فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربّنا ألا يزيغَ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: فقلت: يارسول الله، ألا تعلّمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلىٰ. قولي: اللهمّ ربَّ النبي محمد. اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظَ قلبي، وأجرْني من مضلاّت الفتن ما أحييْتَني».

وقال عز من قائل، فيما أعده لعباده المؤمنين الصالحين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف:١٠٨]. أي: لا يريدون عنها تحوّلاً، يقال: حال من مكانه حِوَلاً. وجاء هذا المصدر علىٰ مثال: عادني حبُّها عِوَداً. وقال أبو عبيد الهرويّ: وقيل: الحِوَل: الحِيلة، فيكون المعنىٰ علىٰ هذا الوجه، أي: لا يحتالون منزلاً عنها. والمعنىٰ العام: أنهم لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبّون سواها كما قال الصحابي الجليل النابغة الجعديُّ رضي الله عنه:

وحلَّت سوادَ القلب لا أنا باغياً   سواها ولا عن حُبِّها أتحوَّلُ

وهكذا يستشهد المفسّرون. والرواية: ولا عن حبها متراخيا. قال الحافظ ابنُ كثير: وفي قوله: ﴿ لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٨] تنبيه علىٰ رغبتهم فيها، وحبِّهم لها، مع أنه قد يُتوهَّم فيمن هو مقيمٌ في المكان دائماً، أنه قد يسأمه أو يَمَلُّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السّرمديّ لا يختارون عن مُقامهم ذلك مُتحوَّلاً ولا انتقالاً، ولا ظعناً ولا رحلةً ولا بدلاً. وحَوْلُ الشيء: جانبه الذي يمكنه أن يُحَوَّل إليه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر: ٧]. والمراد بحمله العرش: الملائكة المقرَّبون. والمراد بمن حَوْل العرش: الملائكةُ الذين يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين.

وجاء في حديث الاستسقاء: «اللهم حواليْنا ولا علينا». يقال: رأيت الناس حولـه وحوالَيْه، أي: مطيفيـن به من جوانبه. يريد: اللهم أنزل الغيث في مواضع النّبات، لا في مواضع الأبنية، بدلالة قوله في تمام الحديث: «اللهم علىٰ رؤوس الجبـال، ومنابت الشجر، وبطون الأوديـة». ويُجمـع الحـولُ بهـذا المعنـىٰ علىٰ أحوال. قال امرؤ القيس:

ألست ترىٰ السُّمّار والناسَ أحوالي

وفي الحديث: «لا حول ولا قوّة إلا بالله كنزٌ من كنوز الجنّة» الحولُ هنا: الحركـة. قال أبو الهيثم: الحـولُ: الحركـة. يقال: حال الشخـصُ: إذا تحـرّك. ويقال: اسْتحِلْ هذا الشخصَ، أي: انظرْ، أيتحرّك أم لا، فكأن القائل: «لاحول ولا قوة إلا بالله» يقول: لاحركة ولا استطاعة إلاّ بمشيئة الله. وقال أبو بكر بن الأنباري: الحولُ: الحيلةُ. يقال: ما لَهُ حَوْلٌ وحيلة. والأول أشبه، كما ذكر ابن الأثير.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا لقِي العدوّ: «اللهم بك أحولُ وبكـل أصول، وبك أقاتـل». قـال أبو منصـور الأزهـري: بك أحول، أي: بك أتحرّك. وبك أصول، أي: بك أحمل علىٰ العدوّ، وقال ابن الأثير: وقيل: أحتال، وقيل: أدْفَعُ وأمنع، من قولهم: حال بين الشيئين: إذا منَعَ أحدَهما عن الآخر. وفي حديث آخر: «بك أصاول وبك أحاول» هو من المفاعلة، وقيل: المحاوَلة: طلب الشيء بحيلـة. وفي الحديث: «من أحال دخل الجنـة» أي: تحـوّل من الكفر إلىٰ الإسلام. قال الشاعر:

تجنَّـبَ روضـةً وأحـال يبـدو

أي: ترك الروضـة، وتحـوّل إلىٰ البادية. وفي حديـث خيبـر: «فحالُوا إلىٰ الحصن» أي: تحوَّلوا. ومنه الحديث: «إذا ثوّب بالصلاة أحال الشيطان له ضُراط» أي: تحـوَّل من موضعـه، وقيل: هو بمعنىٰ طفق وأخذ وتهيّأ لفعلـه. والتثويبُ: الإقامةُ، وقيل: إنه حين يسمع ذلك يشتد خوفه فيحدثُ له ذلك الصوت. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نُودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط، حتىٰ لا يسمع التأذين، فإذا قُضي النداءُ أقبل، حتىٰ إذا ثوِّب بالصلاة أدبر، حتىٰ إذا قُضي التثويـبُ أقبل حتىٰ يُخْطِرَ بين المرْء ونفسه، يقول: اذكر كذا واذكر كذا، لِمَا لم يذكر من قبل، حتىٰ يظلَّ الرجلُ ما يدري كم صلىٰ». وفي رواية أخرىٰ، عن أبي هريرة: «إذا سمع الشيطان الأذان ولّىٰ وله حُصاص»، والحُصاص: شدّةُ العَدْو وحِدَّتُه. وقيل: هو الضراط.

وفي الحديث: «نهىٰ أن يُستنجىٰ بعظم حائل» أي: متغيّر، قد غيّره البِلَىٰ. وكلُّ متغير حائل، فإذا أتت عليه السنةُ فهو مُحيل، كأنه مأخوذ من الحَوْل، وهو السَّنة، وفي أحاديث رُقْية العَيْن: «أعوذ بك من شر كلِّ مُلْقِـح ومُحيل» المحيل: الذي لا يُولدُ له، من قولهم: حالت الناقةُ، وأحالت: إذا حملتْ عاماً، ولم تحمل عاماً، وأحال الرجلُ إبله العام: إذا لم يُضْربْها الفحل، والمُلْقح: الذي يولد له.

وفي حديـث موسىٰ وفرعون: «إن جبريـل عليـه السلام أخـذ من حال البحر فأدخله فا فرعونَ». الحال: الطينُ الأسود، كالحمأة، سمي كـذلك لتغيّره، ومنه الحديث في صفة الكوثر: «حالُه المسك» أي طينُه، وفي حديث مجاهد: في التورُّك في الأرض المستحيلة. المستحيلـة، أي: المعوَجَّـة، لاستحالتهـا وتحـولها إلى العـوج، وفي حديث معاويـة رضي الله عنه: أنه لما احتُضر قال لابنتيه: قلِّبانـي، فإنكمـا لتُقلّبان حُوّلاً قُلَّبا إنْ وُقي كَبّـة النـار. الحُوَّل: ذو التصرُّف والاحتيال في الأمور. قال الشاعر:

الحُوّلُ القُلّبُ الأريبُ وهل تـدفَـعُ صـرفَ المنّيـةِ الحِيَـلُ

[ح و ى]

يقول ربنا عز وجل في شأن ما حرَّمه علىٰ اليهود: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] . الحوايا: معطوف علىٰ ظهورِهما، أي: إلاّ ما حملتْ ظَهورُهما أو حملت الحوايا. والحوايا: المَباعِر التي يجتمع البعرُ فيها، فما حملتْه من الشحم غيرُ حرامٍ عليهم.

وواحد الحوايا: حاوِيَة، مثل ضاربة وضوارب، وقيل: واحدها: حاوِياء، مثل قاصِعاء وقواصِع. وقيل: حَوِيَّة، كسفينة وسفائن. وقال أبو عبيدة: الحوايا: ما تَحَوَّىٰ من البطن، أي: استدار؛ وهي متحويَّة، أي: مستديرة.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلم: الحوايا: المرابض التي تكون فيها الأمعاء. وفي حديث النبي ﷺ: أنه أقبل من خيبر، وأقبل بصفية بنت حُيَيّ قد حازَها، وكان يحوِّي وراءه بعباءة أو بكساء، ثم يُردِفُها وراءَه. يحوِّي: من التّحوية، وهي أن يدير كِساءً حولَ سَنام البعير، ثم يركب. والاسم: الحَوِيَّة، والجمع: الحَوايا. ومنه ما جاء في قصة غزوة بدر: أن أبا جهل بعث عُمير بن وهب الجمحيّ، ليحزُرَ أصحابَ رسول الله ﷺ. فأطاف عميرٌ برسول الله ﷺ. فلما رجع إلىٰ أصحابه قال: رأيت الحوايا عليها المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. والنواضح: جمع ناضح، وهو البعير الذي يُستقى عليه. والناقع: الثابت المجتمع، من نقَعَ الماء في بطن الوادي واستنقع، ومنه السَّمُّ المنقع والنقيع.

وجاء في الحديث، أن رجلاً قال له: يارسول الله، هل عليَّ في مالي شيءٌ إذا أدَّيتُ زكاته؟ فقال له النبي ﷺ: «فأين ما تحاوت عليك الفُضُول؟» تحاوت: تفاعَلَتْ، من حويتُ الشيءَ، أي: جمعتُه. يريد ﷺ: إذا أديت الزكاة المفروضة فلا

تدَعِ المواساة بفضل مالك وإن لم يكن فرضاً عليك.

وفي حديث قيلة بنت مخرمة العنبرية الوافدة علىٰ رسول الله ﷺ: فوألْنا إلىٰ حواءٍ ضَخْم. وأَلْنا، أي: لجأنا. والحِواء: بيوتٌ مجتمعةٌ علىٰ ماء، وتُجمع علىٰ أحوية، قال ذو الرُّمّة:

إلىٰ لوائحَ من أطلال أحويةٍ كأنها خِلَلٌ مَوْشِيّةٌ قُشُبُ

وفي الخبر: أن امرأة قالت: إن ابني هذا كان بطني له حِواء. الحِواءُ هنا: اسمُ المكان الذي يَحْوِي الشيء، أي: يضمُّه ويجمعُه. وفي حديث النبي ﷺ، قال: «خيرُ الخيل الحُوُّ». الحُوُّ: جمع أحوىٰ، وهو الأسود، ليس بالشديد السَّواد. قال الطرماح يصف ثوراً:

أحَمُّ بأطرافِه حُوَّةٌ وسائرُ أجلادِهِ واضِحَهْ

[ح ي ر]

يقول عز من قائل، ردّاً علىٰ المشركين في دعوتهم المسلمين أن يتبعوهم ويتركوا دين محمد عليه السلام: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾. الحائر والحيران: هو الذي لا يهتدي لجهة أمره. ويقال: حار يحارُ حيرةً، فهو حائر وحيرانُ، وتحيَّر واستحار: إذا تبلّد في الأمر، وتردَّد فيه.

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال: الرجال ثلاثة: رجلٌ ذو

رأي وعقل، ورجلٌ إذا حزَبه أمرٌ أتىٰ ذا رأي فاستشاره، ورجلٌ حائرٌ بائر، لا يأتمرُ رشَداً، ولا يطيع مرشداً. فالحائر: هو المتحيِّرُ في أمره، لا يدري كيف يهتدي فيه، والبائر: الهالك، من البَوار.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ما أُعطيَ رجلٌ قطُّ أفضلَ من الطَّرْق، يُطـرِقُ الرجلُ الفحلَ فيُلقحُ مئةً فيذهب حَيْريَّ دهر. ويُرْوىٰ: «حَيْرِيَّ دهر» بيـاء ساكنة، و«حَيْرِيَ دهر» بياء مخففة. والكلُّ مأخوذٌ من تحيُّر الدهر وبقائه. ومعناه: مُدّة الدهر ودوامُه، أي: ما أقام الدهر. وقد جاء في تمام الحديث: فقال له رجلٌ: ما حَيْرِيُّ الدهر؟ قال: لا يُحسَب. أي: لا يُعرَف حسابُه لكثرته. يريد أن أجْرَ ذلك دائمٌ أبداً، لموضع دوام النَّسْل.

وفي حديـث ابن سيرين في غُسلِ الميّت: يؤخذ شيءٌ من سِدْر، فيُجعَل في مَحارَةٍ أو سُكُرُّجـة. السُّكُرُّجة: إناء صغير يؤكلُ فيه الشيء القليل من الأُدْم، وهي فارسيّـة. والمحَـارَةُ والحائر: الموضعُ الذي يجتمع فيه الماء. وأصل المحـارة: الصَّدَفة.

وشاهدُ الحائر، الذي هو الموضع يجتمع فيه الماء، قولُ قيس بن الخَطِيم:

تخطـو علىٰ بَـرْدِيَّتيـنِ غَـذاهُمـا غَـدِقٌ بسـاحـةِ حـائـرٍ يَعْبُـوبِ

ويقال لكلِّ ممتلىء: مستحير. قال ابن فارس: وهو قياسٌ صحيح؛ لأنه إذا امتلأ تردَّد بعضُه علىٰ بعض، كالحائر الذي يتردد فيه الماءُ إذا امتلأ. قال أبو ذؤيب الهذلي:

ثـلاثـةُ أعـوامٍ فلمـا تَجـرَّمَـتْ تَقَضَّىٰ شبابي واستحارَ شَبابُها

[ح ي ص]

يقول ربنا عز وجل في شأن أهل النار ومراجعتهم لسادتهم وكبرائهم الذين أضلُّوهم، ثم يأسِهم من الخلاص من العذاب الأبديّ الذي أعدّه الله لمن زاغ وكفر، فيقول عز من قائل: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]. أي: مُسْتوٍ علينا الجزعُ والصبر. قال عبد الرحمن بنُ زيد بنِ أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوْا، فإنما أدرك أهلُ الجنّة الجنّة ببكائهم وتضرّعهم إلىٰ الله عز وجل، تعالوْا نبكِ ونتضرّع إلىٰ الله. فبكوْا وتضرّعوا. فلما رؤوا أنه لا ينفعهم قالوا: إنما أدرك أهلُ الجنة الجنّة بالصبر، تعالوْا حتىٰ نصبر. فصبروا صَبْراً لم يُرَ مثلُه، فلم ينفعْهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾. وقولهم: ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ما لنا من مَعْدِلٍ ولا ملجأ. يقال: حاص يحيصُ حَيْصَةً وحِياصاً، أي: مال والتجأ. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١٢١] أي: مَهْرباً ومحيداً. وقال الشاعر:

وإن حاصَتْ عن الموت عامرُ

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: بعث رسول الله ﷺ سريَّةً فلَقُوا العدوَّ، فحاص المسلمون حيصة، فكنت فيمن حاص. فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسَنا علىٰ رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا. فأتيناه قبل صلاة الغداة. فخرج، فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرّارون. فقال: «لا، بل أنتم العكَّارون، أنا فئتكم وفئة المسلمين». قوله: فحاص المسلمون حيصة أي: مالوا وعدلوا

يطلبون الفرار. ويروىٰ: جاضوا، بالجيم، وهو بمعناه. وقوله: «بل أنتم العكارون» أي: الكَرَّارون. والعَكْر: الانصراف بعد المضيّ. يقال: عكرْتُ علىٰ الشيء بمعنىٰ عطفْتُ إليه.

ومن ذلك أيضاً: حديث أنسٍ رضي الله عنه: لما كان يومُ أحد حاص المسلمون حيصة. قالوا: قُتل محمد. وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: إن هذه الفتنةَ حَيْصةٌ من حَيَصات الفتن، أي: رَوْغةٌ منها عدلَتْ إلينا.

وفي حديث مطرِّف رضي الله عنه، أنه خرج في زمن الطاعون، فقيل له في ذلك، فقال: هو الموتُ نحايصه ولا بدَّ منه. المُحايَصة: مفاعلة من الحَيْص، وهو العُدولُ والهربُ من الشيء، وليس بين العبد وبين الموت مُحايَصَة، وإنما المعنىٰ أن الرجلَ في فَرْط حِرْصه علىٰ الفرار من الموت كأنه يُباريه ويُغالبه، فجاء به علىٰ صيغة المفاعَلة، لكونها موضوعة لإفادة المباراة والمغالبة في الفعل، وهذا هو الذي يسميه البلاغيون المشاكلة، كقوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢].

وفي حديث سعيد بن جبير رضي الله عنه: أنه سُئل عن مُكاتَب اشترط عليه أهلُه ألاّ يخرجَ من المِصْر، فقال: أثقلتُم ظَهْرَه، وجعلتم عليه الأرض حَيْصَ بَيْصَ. أي: ضيّقتم عليه الأرض حتىٰ لا يقدِرُ علىٰ التردُّد فيها. يقال: وقع في حَيْصَ بَيْصَ، أي: وقع في شدّة وأمرٍ لا يجد منه مَخْلَصاً ولا مَهْرَباً. قال أميّةُ بنُ أبي عائذ الهُذَلي:

قد كنتُ خَرَّاجاً وَلُوجاً صَيْرَفا   لم تلتحِصْني حَيْصَ بَيْصَ لحاصِ

وحَيْصَ: من حاص، إذا حاد، وبَيْصَ: من باصَ، إذا تقدّم، وأصلُها الواو، وإنما قُلبت ياءً للمزاوجة بحيْص. ولا تنفرد إحدىٰ اللفظتين في الاستعمال عن الأخرىٰ، وهما مبنيتانِ بناء خمسةَ عشرَ، ونحو جاري بَيْتَ بَيْتَ.

[ح ي ض]

يقول عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. قال ابن عرفة نفطويه: المحيضُ والحيضُ: اجتماعُ الدَّم إلىٰ ذلك المكان، وبه سُمِّي الحوضُ لاجتماع الماء فيه. يقال: حاضت المرأةُ وتحيّضَتْ ودَرَسَتْ، وعَرِكَتْ وطَمِثَتْ، تحيضُ حيضاً ومحاضاً ومحيضاً: إذا سال الدمُ منها في أوقات معلومة، فإذا سال في غير أيام معلومة، ومن غير عِرْق المحيض قلت: استُحيضتْ فهي مستحاضة. ومنه حديث حَمْنة بنتِ جحشٍ رضي الله عنها: أنها اسْتُحيضتْ، فسألت النبيَّ ﷺ فقال لها: «احتشي كُرْسُفاً». فقالت له: إنه أكثر من ذلك، إني أثُجُّه ثجّاً. قال: «تلجَّمي وتحيَّضي ستّاً أو سبعاً، ثم اغتسلي وصلِّي». والكُرْسُف والكُرسُوف: القِطعُ من القطن. وقوله: «تلجَّمي»: من التلجُّم، وهو شدُّ اللّجام. وقوله: «تحيَّضي ستاً أو سبعاً»، يقال: تحيّضت المرأةُ، أي: قعدت أيّام حيضها تنتظر انقطاعَه. وأراد ﷺ: عُدِّي نفسك حائضاً وافعلي ما تفعلُ الحائض. وإنما خصَّ السّتَّ والسَّبع؛ لأنهما الغالب علىٰ أيام الحيض.

وفي الحديث: «لا تُقبل صلاةُ حائضٍ إلاَّ بخمار» الحائض هنا: التي بلغت سِنَّ الحيض وجرىٰ عليها القلمُ والتكليف، ولم يُرِدْ في أيام حيضها؛ لأن الحائض لا صلاة عليها.

اللهم فقِّهْنا في ديننا، وبَصِّرْنا بلغة كتابك وسنة نبيك ﷺ وذكِّرْنا من ذلك ما نسينا، إنك علىٰ ما تشاء قدير.

[ح ي ق]

يقول ربنا عز وجل، تطميناً لنبيّه ﷺ وتسليةً له في تكذيب من كذَّبه من قومه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنبياء:٤١]. ورُوي في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الوليد بن المغيرة وأميّةَ بن خلَف وأبا جهل بن هشام همزوا النبي ﷺ واستهزؤوا به حين مرَّ عليهم، فغاظه ذلك، فنزلت الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: عاد سوءُ ذلك عليهم، وهو العذابُ الذي هو جزاءُ استهزائهم. قال ابن عرفة نفطويه: يقال: حاق به الأمرُ يحيق، أي: لزمه ووجب عليه. وقال ابن فارس: الحَيْقُ: نُزولُ الشيء بالشيء. وقال أبو منصور الأزهري: الحَيْقُ في اللغة: ما يشتمل علىٰ الإنسان من مكروه فعله. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣] أي: لا يرجع عاقبة مكروهه إلاّ عليهم. وقيل: لا تنزل عاقبةُ السُّوء إلاّ بمن أساء. وقال الكلبيُّ: يحيقُ بمعنىٰ يُحيط. والحَوْق: الإحاطة. يقال: حاق به كذا: إذا أحاط به. وفسَّر قطربٌ يحيق بمعنىٰ ينزل. وأنشد عليه قول الشاعر:

وقد رفعوا المنيّةَ فاستقلَّتْ ذراعاً بعدَما كانت تحيقُ

وجمع الجوهريُّ بين التفسيرين، فقال: حاق بهم العذاب، أي: أحاط بهم ونـزل. وفي حديث أبي بكر الصديـق رضي الله عنه: أنه خرج بالهاجرة ــ أي فـي اشتداد الحرّ، نصف النهار ــ فقيل له: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال: ما أخرجني إلاّ ما أجد مِن حاقِ الجوع. يروىٰ «مِن حاقِ الجوع» و «مِن حاقِّ الجوع» بتخفيف القاف وتشديدها. وهو بالتخفيف مصدر، من حاق به يحيقُ حَيْقاً وحاقاً، إذا أحدق به ونزل، فهو مصدرٌ أقامه مقام الاسم. وبالتشديد: اسم فاعل من حَقَّ يحقُّ. وبيان

ذلك ما ذكره أبو سليمان الخطّابي، قال رحمه الله : قوله: «حاق الجوع»: يُرْوَىٰ بالتخفيف والتثقيل، فمن ثقَّل فمعناه: كَلَبُ الجوع وشدَّتُه. قال عروة بن الورد:

أتَهْـزأُ منـي أَنْ سَمِنْـتَ وأن تَـرَىٰ بوجْهِيَ مَسَّ الحَقِّ والحَقُّ جاهدُ
أقَسِّـمُ جِسْمـي فـي جُسـومٍ كثيـرةٍ وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

يريد صدْق الجوع. والعرب تقول: فلانٌ والله الرجلُ حاقُّ الرجل، وحاقَّة الرجل، وحاقُّ الشجاع، وحاقَّة الشجاع، بإدخال الهاء وإسقاطها. تريد تحقيق نعته بالشجاعة والبأس. والأصل في هَذا كله: الحقُّ لا كذب فيه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢]. ومعناها ـ والله أعلم ـ الكائنة التي لا كذبَ فيها ولا مَدْفَع لها. ومن رواه بالتخفيف ـ من حاقِ الجوع ـ جعله مصدراً يقوم مقامَ الاسم، من قولك: حاق به البلاءُ يحيقُ حَيْقاً وحاقاً، كما قيل: عابه عَيْباً وعاباً، وفي مصدر يقول: قِيلاً وقالاً.

[ح ي ن]

يدلُّ لفظُ الحين علىٰ الزمان، قليله وكثيره، هكذا قال ابنُ فارس. وقال أبو منصـور الأزهري: الحينُ اسمٌ كالوقت يصلُـح لجميع الأزمـان كلِّهـا، طالـت أو قَصُـرت. ويأتي الحينُ في القرآن الكريم علىٰ أوجُه، فيأتي بمعنىٰ الزمان المطلـق المبهم، كما في قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] وهذا علىٰ أن المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام. و«هل» هنا معناها «قد» أي: إنه قد مضت أزمنةٌ لا يعلمها إلا الله، وما كان آدمُ شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة.

ويأتي الحين بمعنىٰ الموت ومنتهىٰ الآجال. ومنه قوله تعالىٰ لآدم وحواء، بعد

إغواء الشيطان لهما: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أي: حتىٰ تفنىٰ آجالُهم. وقيل في التفسير: حتىٰ يحضُر وقت عذابهم بالقتل، أو حتىٰ يموتوا علىٰ الكفر، فيُعذَّبوا في النار.

ويأتي بمعنىٰ ساعات الليل والنهار، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨]. يعني ساعة صلاة الليل وصلاة الصبح، وعند العشيّ، وهو شدة الظلام، وحين تظهرون، يعني صلاة الظهر.

واختُلف في الحين من قوله تعالىٰ عن النخلة: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]. فقيل: كلَّ حين، أي: كلَّ سنة، وقيل: كلَّ ستة أشهر، وقيل: غدوةً وعشياً.

وروي أن عكرمة رضي الله عنه كان يفتي في الرجل يحلف علىٰ الشيء لا يفعله حيناً: بأنّ الحين ستة أشهر، وبلغ ذلك سعيدَ بنَ المسيِّب رضي الله عنه، فقال: انتقرها عكرمة. ومعنىٰ انتقرها، أي: استخرجها واستنبط علمها من كتاب الله. يريد قوله تعالىٰ: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ هكذا ذكر الخطابي، وهذا يؤكد تفسير الحين في الآية بالستة الأشهر. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]. يعني نبأ محمد ﷺ؛ من عاش علمه لظهوره وتمام أمره، ومن مات علمه يقيناً. وقيل: نَبأه، أي: ما أنبأ عنه وأخبر به من الدعاء إلىٰ الله وتوحيده، والترغيب في الجنة، والتحذير من النار.

ومن الأفعال المشتقة من الحين ما جاء في حديث الأذان: كانوا يتحيَّنون وقت الصلاة، أي: يطلبون حينها. ومنه حديث رمي الجمار: كنا نتحيَّنُ زوال الشمس. ومنه الحديث: «تحيَّنوا نُوقَكُم» وهو أن يحلُبَها مرّةً واحدة في وقت معلوم. يقال: حيَّنْتُها وتحيَّنْتُها.

[ح ي و ى]

* يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. قال ابن عرفة نفطويه: إذا عَلِم القاتلُ أنه يُقتَصُّ منه كفَّ عن القتل، فذلك حياة. وقال الإمام الشوكاني: وهذا نوعٌ من البلاغة بليغ، وجنسٌ من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذي هو موتٌ حياةً باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاءً علىٰ أنفسهم واستدامةً لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجَّهاً إلىٰ أولي الألباب، لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، ويتحامَوْن ما فيه الضررُ الآجلُ. وأما من كان مصاباً بالحمق والطيش والخفَّة، فإنه لا ينظر عند سَوْرة غضبه وغليان مراجل طيشه إلىٰ عاقبة، ولا يفكِّر في أمرٍ مستقبل، كما قال بعضُ فُتّاكهم:

سأغسلُ عنّي العارَ بالسيفِ جالباً ... عليَّ قضاءَ الله ما كان جالباً

وقال أبو عبيد في تفسير الحياة في الآية الكريمة، أي: منفعة. قال: ويقال: ليس بفلان حياة، أي: ليس عنده خيرٌ ولا شر. وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. يعني للحق والهدىٰ، وذلك هو الحياة؛ لأن الكافر بمنزلة الميت؛ لأنه لا يفقه ولا يفهم. وقال جمهور المفسرين: المعنىٰ: استجيبوا للطاعة، وما تضمنه القرآن من أوامرَ ونواهٍ، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمديّة. وقيل: المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الجهاد، فإنه سبب الحياة في الظاهر؛ لأن العدوَّ إذا لم يُغْزَ غزا. قال الإمام الشوكاني: ويستدَلُّ بهذا الأمر بالاستجابة علىٰ أنه يجب علىٰ كلِّ مسلم إذا بلغه قول الله أو قولُ رسوله، في حكم من الأحكام الشرعية، أن يبادر إلىٰ العمل به كائناً ما كان، ويدعَ ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال.

وقـد تصرَّفت الحياة في القرآن الكريم علىٰ أوجُـه مختلفة، فجاءت بمعنىٰ الخلْـق الأول. وذلـك قـولـه تعـالـىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: كنتم معدومين فخلقكم الخلق الأول. وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥] أي: يخرج الحيوان من النُّطف. وتأتي بمعنىٰ الإيمان والهداية، كقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فالمراد بالميت هنا الكافر، أحياه الله بالإيمان والإسلام، وتستعار الحياة للهداية والعلم. قال الشاعر:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فـأجسـامُهـمْ قبـلَ القبـورِ قبـورُ

وإنّ امـرَأً لـم يحْـيَ بـالعلـمِ ميّـتٌ ... فليـسَ لـه حتـىٰ النشـورِ نشـورُ

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. مِثلُ قوله في عباده المؤمنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]. يعني مؤمناً مهتدياً في علم الله عز وجل. وقال قتادة: حيَّ القلب حيَّ البصر. وقال الضحَّاك: يعني عاقلاً. وقيل: لينذر هذا القرآنُ المبين كلَّ حيٍّ علىٰ وجه الأرض، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]. يعني المؤمنين والكافرين. كما قال عز وجل: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [هود: ٢٤].

وتأتي الحياة بمعنىٰ البقاء والإبقاء، كما في الآية السابقة: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي: بقاء. وكقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. يعني من أبقاها. ورُوي عن مجاهد في رواية، قال: ومن أحياها، أي: أنجاها

من غرق أو حرق أو هَلَكة. وقال تعالىٰ، مذكراً بني إسرئيل بنعمه عليهم: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩]. قوله: ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٤٩]. أي: يتركونهنّ أحياءً ليستخدموهنّ ويمتهنوهن.

وتأتي الحياة مراداً بها حياةُ الأرض ونماؤها بالنبات. كما قال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]. وقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣]. والحياةُ التي وُصِفَ بها البارئُ عز وجل في قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هي الحياة الأبدية التي لا موت معها. فهو الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً. والحياة باعتبار الدنيا والآخرة ضربان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، فالأولىٰ فانية والثانية باقية.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. قال أبو عبيدة وابن قتيبة: الحيوان: الحياة. قال الواحدي: وهو قول جميع المفسِّرين، ذهبوا إلىٰ أن معنىٰ الحيوان هاهنا الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنَّزَوان والغَلَيان، ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة لهي دار الحيوان، أو ذات الحيوان، أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا ينغّصها موتٌ ولا مرضٌ، ولا همٌّ ولا غمٌّ. والحيا: المطر، سُمِّي كذلك لأنه يحيي الأرض بعد موتها. وإلىٰ هذا أشار بقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

* يقول ربنا عز وجل رداً علىٰ أهل الضلالة حين أنكروا ما ذكره في الكتاب العزيز، من العنكبوت والذباب، وقالوا: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فقال عز من قائل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦]. يقال: اسْتَحْيا يَسْتَحْيي، واستحىٰ يستحي. والأول أعلىٰ وأكثر. وقرأ يعقوبُ وابن

محيصـن، وابـن كثير، فـي روايـة عنه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحِيْ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ بياء واحدة، وهي لغـة تميـم وبكـر بن وائل. والحياءُ: تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من تخـوّف ما يُعاب به ويُذم. كذا قال الزمخشري. وقال القرطبي: أصل الاستحياء الانقباضُ عن الشيء والامتناعُ منه، خوفاً من مواقعة القبيح. وهذا محالٌ علـىٰ الله. قال الشوكاني: وقد اختلفـوا في تأويـل ما فـي هَذه الآية من ذكر الحياء فقيـل: ساغ ذلك لكـونه واقعاً في الكلام المحكـيّ عن الكفـار. وقيـل: هو من باب المشاكلة ـ يريد من باب قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقـوله: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النسـاء: ١٤٢]. وقيـل: هو جـارٍ علىٰ سبيـل التمثيل. وقال ابنُ عرفة نفطويه: استحياء الله: كراهيتُـه للشيء وتـركُه إيّاه.

وجاء في الحديث: «إن مما بقي من كلام النبوّة الأولىٰ: إذا لم تستحي فاصنع ما شئـت». قال الخطابـي: يريد أن الحيـاء لـم يـزل مستحسنـاً في شرائع الأنبياء الأوّلين، وأنه لم يُرْفَع ولم يُنسَخ في جُملة ما نُسخ من شرائعهم.

وقـوله: «فاصنع ما شئت» قال ابن الأثير: له تأويـلان: أحدهما ظاهر، وهو المشهور، أي: إذا لم تستحي من العيب ولم تخش العار مما تفعله فافعل ما تحدثُك به نفسُك من أغراضها، حسناً كان أو قبيحاً. ولفظه أمر، ومعناه توبيخٌ وتهديد، وفيه إشعارٌ بأن الذي يَرْدَعُ الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كلِّ ضلالة وتعاطي كلِّ سيئة. والثاني: أن يُحمل الأمرُ علىٰ بابه. يقول: إذا كنتَ في فعلك آمناً أن تستحييَ منه لجريك فيه علىٰ سَنَن الصواب، وليس من الأفعال التي يُسْتحيا منها فاصنع منها ما شئت.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ قلنا: السلامُ علىٰ الله، السلام علىٰ فلان، السلام علىٰ فلان. فقال لنا: «قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله

وبركاته». . . إلىٰ آخر التشهد «فإنكم إذا قلتم ذلك فقد سلّمتم علىٰ كلِّ عبد صالح في السماوات والأرض». وفي تفسير «التحياتُ لله» قال أبو بكر بن الأنباري: فيه ثلاثة أوجه: أحدها السلامُ علىٰ الله. يقول الرجل للرجل: حيَّاك الله، أي: سلامُ الله عليك. والثاني: المُلْكُ لله، والتحيّةُ: المُلْك. يقال: حيَّاك الله، أي: ملَّكك الله. قال زُهير بن جناب الكلبي:

ولَكُـلُّ مـا نـالَ الفتـىٰ قـد نِلْتُـه إلاَّ التحيَّـهْ

يعني المُلْك. وقال عمرو بن معد يكرب:

أسَيِّرُها إلىٰ النعمانِ حتّىٰ أُنيخَ علىٰ تحيّتِهِ بجُنْدِ

يعني علىٰ مُلْكه. والثالث: البقاءُ لله. يقال: حيَّاك الله، أي: أبقاك الله. وقال بعض اللغويِّين: معنىٰ حيَّاك الله، أي: أحياك الله. فَعَّل بمعنىٰ أفْعَل كما يقال: وصَّى وأوصىٰ، ومَهَّل وأمهل. قال تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]. وقال ابن قتيبة: إنما قال: التحياتُ لله، علىٰ الجمع؛ لأنه كان في الأرض ملوكٌ يُحَيَّوْن بتحياتٍ مختلفة، فيقال لبعضهم: أبيتَ اللعن، ولبعضهم: اسلَمْ وانْعَم. ولبعضهم: عِشْ ألفَ سنة، فقيل لنا: «قولوا: التحياتُ لله»، أي: الألفاظ التي تدلُّ علىٰ المَلِك، ويُكنىٰ بها عن المَلِك هي لله عز وجل.

وفي الحديث: «من أحيا مواتاً فهو أحقُّ به» المواتُ: الأرض التي لم يَجْرِ عليها مِلكُ أحد. وإحياؤها: مباشرتُها بتأثير شيء فيها، من إحاطةٍ أو زرع، أو عمارة ونحو ذلك، تشبيهاً بإحياء الميت. ومنه حديث عمر بن الخطاب، وقيل: سلمان الفارسي: أحْيُوا ما بين العشاءين أي: اشغَلوه بالصلاة والعبادة والذكر، ولا تعطلوه فتجعلوه كالميت بعُطْلته. وقيل: أراد لا تناموا فيه خوفاً من فوات صلاة العشاء؛ لأن النومَ موتٌ، واليقظةَ حياةٌ. وإحياءُ الليل: السهرُ فيه بالعبادة؛ وتركُ النوم. ويريد بالعشاءين المغربَ والعشاء، فغَلَّب.

وفي الحديث: أنه ﷺ كان يصلي العصر والشمسُ حيَّةٌ، أي: صافيةُ اللون لم يدخلْها التغيُّر بدنوّ المغيب، كأنه جعل مغيبها لها موتاً. والمراد من الحديث تقديمُ وقت صلاة العصر. قال الشاعر:

يريك نُجومَ الليلِ والشمسُ حيَّةٌ زحامٌ ببابِ الحارثِ بنِ عُبَّادِ

وفي حديث الاستسقاء: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً وحَياً ربيعاً». الحيا بالقصر: المطر؛ لإحيائه الأرض، وقيل: الخِصْبُ وما يحيا به الناس. ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا آكلُ السَّمين حتىٰ يحيا الناسُ من أول ما يَحْيَوْن، أي: حتىٰ يُمْطَرُوا ويُخْصَبوا. فإن المطر سببُ الخصب. ويجوز أن يكون قوله: حتىٰ يحيا الناسُ، من الحياة؛ لأن الخصبَ سببُ الحياة.

❊ ❊ ❊

﴿خ﴾

[خ ب أ]

يقول ربنا عز وجل: في شأن بلقيسَ ملكةِ سبإٍ وقومها، الذين كانوا يسجدون للشمس من دون الله: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]. الخَبْءُ: كلّ شيء غائب، أي: أنه سبحانه وتعالىٰ يخرج السِّرَّ والغيب. يقال: خبَأْتُ الشيءَ أخبَؤُه خبْأ، أي: أخفيتُه وسترتُه، والخَبْء والخبيء والخبيئةُ: الشيءُ المخبوء. وقال أبو إسحاق الزجاج: جاء في التفسير أن الخبء هاهنا بمعنىٰ القطرِ من السماء والنباتِ من الأرض، ومنه الحديث: «ابتغوا الرزق في خبايا الأرض» الخبايا: جمع خبيئة، كخطيئة وخطايا. قال ابن الأثير: أراد بالخبايا الزرع؛ لأنه إذا ألقىٰ البَذرَ في الأرض فقد خبأه فيها. وقال الزهريُّ: قال لي عروةُ بن الزُّبير: ازرَعْ فإن العربَ كانت تتمثل بهذا البيت:

تتبّع خبايا الأرضِ وادْعُ مليكَها   لعلَّكَ يوماً أن تُجابَ وتُرْزَقا

وقال الخطابي في تفسير قوله ﷺ: «ابتغوا الرزق في خبايا الأرض» يُتأوَّلُ علىٰ وجهين: أحدُهما الحَرْثُ والزراعة. والآخر: استخراجُ ما في المعادن من جواهر الأرض.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، تصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما

كـان من تدبيره أمرَ الدولة الإسلامية بعد وفاة أبيها أبي بكر رضي الله عنه، قالت: وبعَج الأرض وبَخعها فقاءت أُكْلَها ولفَظَتْ خبيئها. أي: ما كان مخبوءاً فيها من النبات، هو فعيل بمعنىٰ مفعول.

وفي حديث أبي أمامة: لم أرَ كاليوم ولا جِلْدَ مُخبَّأَة، المخبَّأة: هي الجارية التي في خِدْرها لم تتزوَّجْ بعدُ؛ لأن صيانها أبلغُ ممَّن قد تزوَّجت. ومنه حديث الزِّبرقان: أبغضُ كنائني إليَّ الطُّلَعَةُ الخُبَأَة، هي التي تَطَّلِعُ مرَّةً ثم تختبىء أخرىٰ. والكنائن: جمع كَنَّة، وهي امرأةُ الابن أو الأخ.

وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: قد اختبأتُ عند الله خِصالاً: إني لَرابعُ الإسلام، وزوَّجني رسولُ الله ﷺ ابنتَه ثم ابنتَه، وبايعتُه بيدي هذه اليمنىٰ، فما مسَسْتُ بها ذكَري، وما تَغنّيت ولا تمنَّيت، ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام. قوله رضي الله عنه: «اختبأتُ» أي: ادّخَرْتُ هذه الخِصال وجعلتُها عند ربي خبيئةً لنفسي، وقوله: ولا تمنَّيتُ، أي: ولا كذْبتُ. وفي رواية: ما تمنَّيْتُ منذ أسلمت، والتمنّي هنا التكذُّب، وهو تَفَعُّلٌ مِن: مَنَى يَمْني: إذا قدَّر؛ لأن الكاذبَ يُقَدِّرُ الحديث في نفسه، ثم يقولُه. ومنه ما قاله رجلٌ لابن دَأب، وهو يُحدِّث: أهذا شيءٌ رَويْتَه أم شيءٌ تمنَّيتَه؟ أي: اختلقْتَه ولا أصل له، ويقال للأحاديث التي تُتمنَّىٰ: الأمانيُّ، واحدتها: أُمنيَّة.

[خ ب ت]

يقول عزّ من قائل في شأن عباده المؤمنين وما أعدَّه لهم من النعيم المقيم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]. قوله عز وجل: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنّوا وسكنت نفوسُهم إلىٰ

أمره، وخشَعوا. والإخبات: الطمأنينة. وأصل ذلك من الخَبْت، وهو المطمئنُّ من الأرض. ويقال: أخبَتَ الرجلُ، أي: قصد الخَبْت، أو نزله، نحو: أسْهَل وأنْجدَ، إذا نزل السهل والنَّجْد. ثم استعمل الإخبات بهذا المعنىٰ الحِسّيّ بمعنىٰ اللِّين والتواضع والخشوع.

قال تقدّست أسماؤه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]. فالمخبتون هنا، أي: المتواضعون. وقد جاء تفسير ذلك في الآية التالية، فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. قوله: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥٤]. أي: تلين وتخشع. قال الراغبُ الأصبهانيّ: والإخباتُ هاهنا قريبٌ من الهبوط في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

وجاء في حديث الدعاء: «واجعلني لك مُخْبتاً» أي: خاشعاً مطيعاً. وفي حديث عمرو بن يثربيّ الذي رواه عن النبي ﷺ: «إن رأيتَ نعجةً تحملُ شفرةً وزِناداً بخَبْت الجَمِيش فلا تَهجْها» قال ابن قتيبة: سألت الحجازيين فأخبروني أن بين المدينة والحجاز صحراءَ تُعرَفُ بالخَبْت. والجميش: الذي لا يُنْبت.

وفي الحديث: أن أبا عامر الذي يلقَّبُ بالراهب كان مقيماً علىٰ الحنيفية قبل مبعث النبيِّ ﷺ، وكان حسوداً، فساعةَ بلغه أن الأنصار بايعوه تغيَّر وخَبُت وعاب الحنيفية. قال الخطّابيّ قوله: «خَبُت» هكذا يروىٰ بالتاء التي هي أخت الطاء. يقال: رجلٌ خبيت، وهو الفاسدُ الرديء. كالخبيث سواء. وليس هذا من الإخبات في شيء، إنما الإخباتُ من الخشوع. يقال منه: رجلٌ مخبِت. وقال اللِّحيانيّ: رجلٌ خبيتٌ نبيت، أي: خسيسٌ حقير. وفي حديث مكحول رضي الله عنه: أنه مرَّ برجُل

نائم بعد العصر، فدفعه برجله وقال: لقد عُوفيت، إنها ساعةٌ تكون فيها الخبتة. قال ابن الأثير: يريد الخَبْطة، بالطاء، أي: يتَخبّطه الشيطانُ إذا مسَّه بخبل أو جنون، وكان في لسان مكحولٍ لُكنة. فجعل الطاء تاء.

[خ ب ث]

تدلُّ مادَّةُ (خبث) علىٰ معنىً واحد في اللغـة، هو خـلافُ الطيِّب كما قال ابن فـارس. وقال الراغبُ الأصبهانيُّ: المُخْبِثُ والخبيث: ما يُكـره رداءةً وخَساسةً، محسوساً كان أو معقولاً. وأصلُه الرديءُ الدِّخْلةِ، الجاري مَجْرىٰ خَبَثِ الحديد، كما قال الشاعر:

سبكنـاه ونحسَبُـه لُجَيْنـاً فأبدىٰ الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

وذلك يتناول الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال والقبيحَ في الفعال.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧]. يأمر المولـىٰ عـز وجل عباده المؤمنين أن تكون نفقتهم من أطيب المال وأجوده وأنفسه، وينهاهم عن التصدق برُذالة المال ودنيئه، وهو خبيثُه، فـإن الله طيبٌ لا يقبـل إلاّ طيبـاً. فقولـه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾. أي: لا تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه وقوله: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي: لو أُعْطيتموه ما أخذتموه إلاّ أن تتغاضوا فيه.

ورُوي في سبب نزول هذه الآية الكريمة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قـال: نزلـت في الأنصار، كانـت الأنصار إذا كانت أيامُ جَذاذِ النخل أخرجت من حيطانها ــ أي: من بساتينها ــ البُسْرَ، فعلّقوه علىٰ حبل بين الأُسطوانتين في مسجد

رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمِدُ الرجلُ منهم إلىٰ الحَشَف ــ وهو رديء التمر ــ فيُدخلُه مع أقناء البُسْر، يظنّ أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

وقيل في تفسير الآية الكريمة: إن المراد: لا تعدِلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلىٰ الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه، ويستدِلُّ من قال ذلك بالحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده إلىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبّ، ولا يعطي الدينَ إلاّ لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبَّه. والذي نفسي بيده لا يُسلمُ عبدٌ حتىٰ يُسلم قلبُه ولسانُه، ولا يؤمنُ حتىٰ يأمنَ جارُه بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبيَّ الله؟ قال: «غِشُّه وظُلمُه. ولا يكسَبُ عبدٌ مالاً من حرام فينفقُ منه فيبارَكَ له فيه، ولا يتصدَّقُ به فيُقبَلَ منه، ولا يتركه خلفَ ظهره إلا كان زاده إلىٰ النار، إن الله لا يمحو السيّئ بالسيئ، ولكن يمحو السيّئ بالحسن، وإن الخبيث لا يمحو الخبيث».

وقال عز من قائل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠] قيل: المراد بالخبيث والطيّب: الحرام والحلال. وقيل: المؤمن والكافر. وقيل: العاصي والمطيع. وقيل: الرديء والجيّد. قال الشوكاني: والأولىٰ أن الاعتبار بعموم اللفظ، فيشمل هذه المذكورات وغيرَها، مما يتصف بوصف الخبيث والطيب، من الأشخاص والأعمال والأقوال، فالخبيث لا يساوي الطيّب بحال من الأحوال.

وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ــ ٢٦]. فالكلمة الطيبة هي كلمة الإسلام: لا إله إلاّ الله. أو ما

هو أعمُّ من ذلك من كلمات الخير والبرّ. والشجرة الطيبة: هي النخلة. والكلمة الخبيثة: هي كلمة الشرك، وما هو أعمُّ منها من كلِّ كلمة قبيحة، من كفر وكذب ونميمة وغير ذلك، والشجرة الخبيثة: هي شجرة الحنظل، وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: استؤصلت واقتلعت من أصلها، ومنه قول الشاعر:

هـو الجَـلاءُ الـذي يجتـثُّ أصلَكُـمُ

والجُثّـة: شخص الإنسان. ومعنـىٰ: ﴿ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ ﴾. أنه ليس لها أصلٌ راسخٌ وعروقٌ متمكنةٌ من الأرض.

وقال عزّ من قائل: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [النور: ٢٦]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثـون من الرجـال للخبيثـات مـن القـول، والطيبـات من القول للطيبين من الرجـال، والطيبون من الرجال للطيبات من القـول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك. واختار ذلك ابنُ جرير الطبريّ، ووجَّهه بأن الكلامَ القبيحَ أولىٰ بأهل القُبح من النـاس، والكلامَ الطيبَ أولىٰ بالطيبيـن مـن الناس، فما نسبه أهل النفاق إلىٰ عائشة من كلام مفترىٰ، هم أولىٰ به، وهي أولىٰ بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ ﴾ [النور: ٢٦].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثـون من الرجال للخبيثات من النسـاء، والطيبـات مـن النسـاء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا أيضاً يرجع إلىٰ ما قاله ابن عبـاس ومن فسَّر تفسيرَه. أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسـول الله ﷺ إلاَّ وهي طيبـة، لأنه ــ صلاةُ الله وسلامه عليه ــ أطيب من كل طيِّب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صَلُحتْ له، لا شرعاً ولا قدْراً قال ذلك الحافظ ابن كثير.

تحدثتُ عن مادة (خبث) وقلت: إنها ترجع إلىٰ معنـىً واحد في أصل اللغة، وهو خلاف الطيِّب، محسوساً كان أو معقولاً. ثم تتبعت استعمال الكلمة في القرآن الكريم. والآن أتحدث عن دورانها في الحديث الشريف وآثار الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين.

جاء في الحديث: أن النبي ﷺ كان يقول عند دخول الخلاء: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبُثِ والخبائث». قال أبو سليمان الخطابي: أصحاب الحديث يروونه «الخُبْـث» ساكنـة الباء، وكـذلك رواه أبو عبيد وفسَّره فقال: أما الخُبْث فإنه يعني الشرَّ، وأما الخبائث فإنها الشياطين. قال الخطابي: وإنما هو الخُبُث، مضمومة الباء، جمـع خبيث. فأما الخبائث: فإنه جمع خبيثة. استعاذ ﷺ، بالله من مَرَدةِ الجنّ ذكورهم وإناثهم. فأما الخُبْثُ، ساكنة الباء فهو مصدر خَبُث الشيءُ يَخْبُثُ خُبْثاً وقد يُجعَلُ اسماً. وقال ابن الأعرابي: أصل الخُبْث في كلام العرب: المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشَّتم، وإن كان من المِلَل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام. وإن كان من الشراب فهو الضارّ. فأما الخَبَثُ، مفتوحة الخاء والباء، فهو ما تنفيه النار من رديء الفضة والحديد ونحوهما. وفي الحديث: «إذا بلغ الماءُ قُلَّتين لم يحملْ خَبَثاً». الخَبَث: النَّجَس.

وفي الحديث: «أعوذ بك من الرِّجْس النَّجِس الخبيث المُخْبِث». الخبيث: ذو الخُبْث في نفسه. والمخبث: الذي أعوانه خُبثاء، كما يقال للذي فرسُه ضعيف: مُضْعِف. وقيل: المُخْبث: الذي يُعلِّم الناس الخُبْث ويوقعهم فيه. ومن ذلك حديثُ قَتْلَىٰ بدر: فأُلْقوا في قليبٍ خبيثٍ مُخْبِث، أي: فاسد مفسد لما يقع فيه. والقليب: البئر التي لم تُطْوَ.

وفـي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ عن كـلِّ دواءٍ خبيـث. قـال ابـن الأثيـر: هو من جهتين: إحداهما النجاسة، وهو الحرام، كالخمر والأرواث والأبوال، كلُّها نجسةٌ خبيثة، وتناولها حرامٌ إلاّ ما خصَّتْه السُّنّة من أبوال الإبل عند بعضهم، ورَوْثِ ما

يؤكل لحمُه عند آخرين. والجهة الأخرىٰ: من طريق الطعم والمذاق، ولا يُنكَر أن يكون كره ذلك لما فيه من المشقَّة علىٰ الطِّباع وكراهية النفوس لها. وقال الحافظ السيوطي في «الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير»: فُسِّر في رواية الترمذي بالسُّمّ. وفي الحديث: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربَنَّ مسجدَنا». يريد الثُّومَ والبصل والكرَّاث. قال ابن الأثير: خُبثُها من جهة كراهة طعمها وريحها؛ لأنها طاهرة، وليس أكلُها من الأعذار المذكورة في الانقطاع عن المساجد. وإنما أمرهم بالاعتزال عقوبةً ونكالاً؛ لأنه كان يتأذَّىٰ بريحها. وقد جاء التصريح بهذه الأشياء المكروهة في الحديث الذي رواه جابرٌ رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «من أكل ثوماً أو بَصَلاً فليعتزلنا» أو «فليعتزل مسجدنا» وفي رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكُرّاث فلا يَقرَبنَّ مسجدنا، فإن الملائكة تتأذَّىٰ مما يتأذَّىٰ منه بنو آدم». وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه خطب يوم جمعة، فقال في خُطبته: ثم إنكم أيها الناسُ تأكلون شجرتين ما أُراهما إلاّ خبيثتين: البصل والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد، أمر به فأخرج إلىٰ البقيع، فمن أكلهما فليُمتْهما طبخاً.

وفي الحديث: «مهر البغيّ خبيث، وثمن الكلب خبيث، وكسْبُ الحجّام خبيث». حكىٰ ابن الأثير عن الخطابي، قال: قد يجمعُ الكلامُ بين القرائن في اللفظ، ويُفْرَقُ بينها في المعنىٰ، ويُعرَفُ ذلك من الأغراض والمقاصد. فأمّا مهر البغيّ وثمنُ الكلب فيريد بالخبيث فيهما الحرام. لأن الكلب نجس، والزِّنا حرام، وبذلُ العوض عليه وأخذُه حرام. وأمّا كسْبُ الحجام فيُريد بالخبيث فيه الكراهة؛ لأن الحجامة مباحة. وقد يكون الكلامُ في الفصل الواحد؛ بعضُه علىٰ الوجوب، وبعضه علىٰ النَّدْب، وبعضُه علىٰ الحقيقة، وبعضه علىٰ المجاز، ويُفْرَق بينها بدلائل الأصول واعتبار معانيها.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «لا يقولنَّ أحدكم

خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقُلْ: لقِسَتْ نفسي». خَبُثت، أي: ثَقُلَتْ وغثَتْ، وهو معنىٰ قوله: «لقِسَتْ» ولكنه ﷺ كره لفظ الخُبْث.

وفي الحديث: «لا يصلينَّ الرجلُ وهو يدافعُ الأخبثين». هما الغائطُ والبول. وفي الحديث: أن النبيّ ﷺ كتب للعـدّاء بن خالد بن هَوْذة كتاباً: «هذا ما اشترىٰ العَـدَّاء بن خالد من محمد رسول الله، اشترىٰ منه عبداً أو أمةً، لا داء ولا خِبْثة ولا غائلة، بِيعَ المسلمِ المسلم». قوله: «لا داء» يريد أن المبيع بريءٌ من داء في بدنه، أو عيبٍ يُرَدُّ به. وقوله: «لا غائلـة» فإنهـا كلُّ شيء يُقْصَـدُ بـه الخِداعُ والتدليس، وأصلُ ذلك من قولهم: غالته غُولٌ، أي: أذهبَتْه، فهي غائلتُه. ولذلك قيل: الغضَبُ غولُ العقل. وأراد بالخِبْثة الحرام كما عبَّر عن الحلال بالطيّب. أراد أن ما باعه عبدٌ رقيق، لا أنه من قوم لا يحلُّ سبيُهم، كمن أُعْطي عهداً أو أماناً، أو من هو حرٌّ في الأصل. وتقول العرب: بِـعْ وقل: لا خِبْثة، أي: لا تهمة فيه من غصب أو سرقة ونحوهما.

[خ ب ط]

يقول ربُّنا عز وجل، في شأن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل، وحالِهم يومَ خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلىٰ بعثهم ونشورهم، فيقول عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي: كما يقوم المجنون في حال جنونه إذا صُرع فسقط، وكلُّ من ضربه البعير فصرعه فقد خبطه وتخبَّطـه، والخَبْطُ باليدين، والرَّمْحُ بالرِّجلين، والزَّبْنُ بالركبتين.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آكِلُ الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً

يُخْنَق. وقيل: إن المراد من الآية الكريمة تشبيه من يحرص في تجارته فيجمع ماله من الربا، بقيام المجنون؛ لأن الحرص والطمع والرغبة في الجمع قد استفزّتْه حتىٰ صار شبيهاً في حركته بالمجنون، كما يقال لمن يُسرع في مشيه ويضطرب في حركاته: إنه قد جُن، ومنه قول الأعشىٰ يصف ناقته:

وتُصبحُ من غِبّ السُّرىٰ وكأنها   ألمَّ بها من طائفِ الجنِّ أَوْلَقُ

وجاء في حديث الدعاء: «وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان» أي: يصرعَني ويلعب بي. وفي حديث فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، قال عليه السلام: «اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة فجعلها حَرَماً، وإني حرَّمتُ المدينة، حراماً ما بين مأزِقَيْها، أن لا يُهَراقَ فيها دمٌ، ولا يُحمَلَ فيها سلاحٌ لقتال، ولا تخبط فيها شجرة إلا لِعَلْف». الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط: خَبَط، بالتحريك. ومنه حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أنه خرج في سريَّة إلىٰ أرض جُهينة، فأصابهم جوعٌ فأكلوا الخَبَط، فسُمُّوا جيش الخَبَط.

وفي الحديث: أن امرأتين من هُذيل كانت إحداهما حبلىٰ، فضربَتْها ضَرَّتُها بمِخْبَطٍ فأسْقَطتْ، فحكم النبي ﷺ فيه بغُرَّة، قال الخطابي: المِخْبَط: عصاً يُخْبطُ بها ورَق العِضاه، وهو أن يضرب أغصان الشجر فيتَحَاتَّ الورقُ فيُعلَفَ الماشية. يقال: خبطت الورق خَبْطاً، فالخَبْطُ الفعل ــ أي المصدر ــ والخَبَطُ مفتوح الباء: الاسمُ. وقوله: فحكَم فيه بغُرّة، فالغُرَّة: العبدُ أو الأمة. ومن الخَبْط الذي هو ضرب الشجر ليتناثر ورقه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد مرَّ بضجنان، وهو جبل، فقال: لقد رأيتني بهذا الجبل أحتطبُ مرّةً وأختبط أخرىٰ علىٰ حمار للخطاب.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ سُئل: هل يضرُّ الغبْط؟ فقال: «لا، إلاَّ كما يضرُّ العِضاه الخبط». قال ابن الأثير: الغَبْطُ: حَسَدٌ خاصٌّ. يقال: غَبَطْتُ الرجلَ أغبطُه غَبْطاً: إذا أشتهيتَ أن يكون لك مثلُ ماله، وأن يدومَ عليه ما هو فيه، وحسدتُه

أحسُده حَسَداً: إذا اشتهيتَ أن يكون لك مالُه، وأن يزولَ عنه ما هو فيه، فأراد عليه الصلاة والسلام أن الغَبْطَ لا يضـرُّ ضررَ الحسد، وأن ما يلحـق الغابطَ من الضرر الراجع إلىٰ نُقصان الثواب دون الإحباط، بقدْر ما يلحق العِضاه من خَبْط ورقها الذي هو دون قطعها واستئصالهـا، ولأنه يعود بعد الخَبْط، وهو وإن كان فيه طرَفٌ من الحسد فهو دونه في الإثم.

وفي حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي وصف فيه مدَّعي العلم. يقول: لا يعلمُ إذا أخطـأ؛ لأنه لا يعلمِ أأخطـأ أم أصاب، خَبّاطُ عَشَوات، ركّاب جهـالات، لا يعتـذر ممّا لا يعلَمُ فيسلم. قولـه: «خَبّاط عشوات» أي: يَخْبِط في الظلام، وهو الذي يمشي في الليل بلا مصباح فيتحيَّر ويَضلّ، وربَّما تردَّىٰ في بئر أو سقط علىٰ سَبُع، وهو كقولهم: يَخْبِط في عمياء: إذا ركب أمراً بجهالة. وفي حديث عبد الله بن عامر، حين مرض مرضه الذي مات فيه: دخل عليه أصحاب النبي ﷺ، وفيهم ابنُ عمر، فقال: ما تروْن في حالي؟ قالوا: ما نشكُّ لك في النجاة، قد كنت تَقْري الضيف، وتعطي المختبط. قال أبو عبيد: يعني بالمختبط: الرجلَ الذي يسأله من غير معرفة كانت بينهما، ولا يدٍ سلَفَتْ منه إليه ولا قرابة.

[خ ب ل]

يقول عز وجل ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانةً، يُطلعونهم علىٰ سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون يسعَوْن في مخالفتهم والإضرار بهم بكلِّ ممكن. فيقول تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. قوله: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصِّرون في

إفساد أُموركم، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] . والخبـالُ، والخَبْـل، والخَبَل: الفساد، يكون ذلك في الأفعال والأبدان والعقول. ويقال: خَبَله الجنُّ، وبه سُمِّيَ الجنُّ: الخُبَّل. قال أوسُ بن حجر:

تبدَّلَ حالاً بعدَ حالٍ عهدتُهُ تنـاوُحَ جِنّـانٍ بهـنَّ وخُبَّـلِ

وفي الحديث: «من أصيب بدمٍ أو خَبْلٍ فهو بين إحدىٰ ثلاث: بين أن يعفوَ، أو يقتصَّ، أو يأخذ الدية. فإن فعل شيئاً من ذلك ثم عدا بعدُ، فإن له النارَ خالداً فيها مخلَّداً». أي: من أصيب بقتل نفسٍ أو قطع عضو. يقال: بنو فلان يُطالبون بدماءٍ وخَبْل، أي: بقطع يدٍ أو رجل، وفي الحديث: «بين يدي الساعة الخَبَلُ» أي: الفتن المفسدة. وفي الحديث: «من شرب الخمر سقاه الله من طينة الخَبال يوم القيامة». جاء تفسيره في الحديث أن الخبال عصارةُ أهل النار. والخبال في الأصل: الفساد، كما سبق.

[خ د ع]

يقول ربنا عز وجل في شأن المنافقين، مظهراً فضائحهم وقُبْح أخلاقهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

تدلُّ مادة (خدع) في أصل اللغة علىٰ معنىً واحد، هو إخفاء الشيء. قال ابن فارس: وبذلك سُمِّيت الخِزانةُ المُخْدَع؛ لأنه يُحْرزَ فيه الشيء. وخدعتُ الرجل، أي: ختلتُه. ويقال: خدع الريقُ في الفم. وذلك أنه يَخْفَىٰ في الحلق ويغيب. قال سويد بنُ أبي كاهل، يصف ثغراً:

أبيـضَ اللـونِ لـذيـذاً طعمُـهُ   طيِّبَ الريقِ إذا الريقُ خدَعْ

وقال الجوهري: خدع الريق، أي: يبس، وأنشد بيت سويد. ثم قال: لأنه يغلُـظ وقـت السحر فييبَسُ وينتِن. ويقال: ما خدَعت بعينيَّ نَعْسة، أي: لم يدخـل المنامُ في عينيّ. قال الممزَّق العبدي:

أرِقْـتُ فلـم تَخـدَعْ بعينـيَّ نعسـةٌ   ومن يَلْقَ ما لاقيتُ لا بُدَّ يأْرَقِ

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. معناه: أنهـم يفعلون فعـل المخادع من إظهار الإيمـان وإبطـان الكفـر. ومعنىٰ كون الله خادِعَهُم: أنه صنع بهم صُنْعَ من يخادع من خادعه، وذلك أنه سبحانه وتعالىٰ تركهم علىٰ ما هم عليه، من التظاهر بالإسلام في الدنيا، فعصم به أموالهم ودماءهم، ثم أخَّر عقوبتهم إلىٰ الدار الآخرة، فجازاهم علىٰ خداعهم بالدرك الأسفل من النار، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والمنافقون حين خادعوا من لا يُخدع كانوا مخادعين لأنفسهم؛ لأن الخداع إنمـا يكون مع من لا يعرِف البواطـن، وأمـا من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسـه، وما يشعر بذلك، ومن هذا قول من قال: من خادعْته فانخدع لك فقد خدعك.

قال تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]. ويقـول البلاغيـون: إن هـذا من باب المشاكلة، أي: مشاكلة ما وقع منهم بما وقع منه، كقوله عز من قائل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وكقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: إذا سمعتموني أحدّث عن رسول الله ﷺ فلأنْ أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من

أن أكذب عليه، وإذا حدّثتكم عن غيره فإنما أنا رجلٌ مُحارَب، والحَرْبُ خَدْعَة، يـروىٰ: خَدْعة، بفتح الخاء وسكون الدال، وخُدْعة، بضم الخاء وسكـون الدال، وخُدَعة، بضم الخاء وفتح الدال، ولكلٍّ معنىً وتوجيه، فالخَدْعة المَرَّة الواحدة من الخـداع، والمعنىٰ أن الحرب ينقضـي أمـرُها بخَدْعة واحدة من الخداع، أي: أن المقاتل إذا خُدع مرّةً واحدة سقط ولم تكـن له إقالة. والخُدْعة الاسمُ من الخِداع. والخُدَعَة معناها: أن الحرب تَخدَعُ الرجال وتمنِّيهم ولا تفي لهم، كما يقال: رجلٌ لُعَبـة وضُحَكـة، أي: كثيرُ اللعب والضحـك، قال أبو سليمان الخطابي: يريد أن الخداع في الحرب جائز، ومعناه: أن يُظهرَ الرجل من أمره خلاف ما يُضمره، يريد بذلك أن يُلبِسَ أمرَه علىٰ عدوِّه؛ لئلا يفطن لعوراته.

وأصل الخَـدْع: السَّتْرُ والإخفـاء، ومنـه سُمِّـي البيـتُ الذي يخبأُ فيه المتاعُ مُخْدَعاً. وقد رُوي عن النبي ﷺ، أنه قال: «الحَرْبُ خَدْعَ»، وذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: كـان نعيم رجلاً نمُوماً ــ أي نمّاماً ــ فدعاه رسول الله ﷺ فقـال: «إن يهـودَ بعثـتْ إلـيَّ: إن كان يُرضيـك أن نأخـذ رجالاً رَهْنـاً من قريـش وغطفان، فندفَعَهم إليك فتقتُلَهم». فخرج من عند رسول الله ﷺ فأخبرهم ذلك. فقال ﷺ: «الحربُ خَدْعَة».

ومن هذا الباب حديـثُ النَّوَّاس بن سِمْعـان، أن النبـي ﷺ قال: «كلُّ الكذب يُكتَـبُ علىٰ ابن آدم إلاَّ ثلاثـاً: الرجـلُ يكـذبُ أهلَه يُرْضيهـا. والرجلُ يكذبُ بين الرجُلين ليُصلح بينهما. والرجل يكذب في الحرب». فأمّا ما أبيح من كذب الرجل لأهله، فهو مثل أن يقول لها: إني لأحبُّك وإنك لمنْ أعزّ أهلي، ونحو هذا من كلام الاستمالة، ومثل أن يُمنِّيها ويعدها، يطيّبُ نفْسَها بذلك. وأما الكذبُ في الإصلاح بين الناس فهو أن يرقِّق القول لَهما، وينْمي الجميل إلىٰ كلِّ واحد منهما عن صاحبه، وإن لم يكن سمعه منه، يستعطف بذلك قلوبَهُمـا، وهـو معنـىٰ قوله ﷺ: «ليس بالكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمىٰ خيراً». وأمّا الكذب في الحرب فقد

أبيح؛ لأنه من باب المكيدة في الحرب للإبقاء علىٰ النفس. وقد أرخص الله للمسلم إذا أُكره علىٰ الكفر أن يُعطي الفتنة بلسانه، ويتكلم بها علىٰ التقيّة، ذبّاً عن مُهْجة نفسه، ومحاماة علىٰ روحه.

وفي الحديث: «إن بين يدي الساعة سنين غدَّارة، يكثر فيها المطر، ويقل فيها النبات»، وروي: «تكون قبل الدجال سِنون خَدَّاعة» أي: تكثر فيها الأمطار، ويقلُّ الرَّيْع، فذلك خداعُها؛ لأنها تُطمِعُهُم في الخصب بالمطر، ثم تُخْلف. وقيل: الخَدَّاعة: القليلة المطر. من قولهم: خَدَع الريق: إذا جَفَّ.

[خ ر ج]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤١ ــ ٤٢]. يعني الخروج من القبور للبعث. وقال أبو عبيدة: هو من أسماء يوم القيامة وأنشد للعجاج:

أليس يومٌ سُمِّي الخُرُوجا أعْظَمَ يومٍ رجَّةً رُجُوجا

وقال عز من قائل في قصة ذي القرنين: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف: ٩٤]. قوله: ﴿ خَرْجًا ﴾ أي: جُعْلاً. وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا ﴾ [المؤمنون: ٧٢]. أي أجراً. ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾. أي: فرِزْقُ ربِّك خير.

وقال أبو منصور الأزهري: الخراجُ يقع علىٰ الضريبة، ويقع علىٰ مال الفيء، ويقع علىٰ الجزية، وعلىٰ الغَلَّة. والخراج: اسمٌ لما يُخْرَج من الفرائض في الأموال. والخَرْج: المصدر. وفي حديث سُويد بن غَفَلة، قال: «دخلت علىٰ عليٍّ في يوم الخُرُوج فإذا بين يديه فاثُورٌ عليه خُبْزُ السَّمراء، وصَحْفةٌ فيها خطيفةٌ ومِلْبَنَة». يومُ الخُروج: هو يوم العيد، ويقال له أيضاً: يومُ الزِّينة، ويومُ الصَّفّ، ويوم

المُشَرَّق. والفاثُور: الخِوان، وخُبْز السمراء: هو الخُشْكار لحُمْرته، كما قيل للخبز الأبيض الذي نُخِلَ مرَّةً بعد أُخرىٰ: الحُوَّارَىٰ. والخطيفة: لبنٌ يُطبخ بدقيق ويُختطف بالملاعق بسُرعة. والمِلْبنة: المِلْعقة.

وفي الحديث: «الخراجُ بالضمان». قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام، فيما حكاه أبو عبيد الهرويُّ صاحب «الغريبين»: معنىٰ الخراج في هذا الحديث: العبد يشتريه الرجلُ فيستغلُّه زماناً، ثم يعثُر منه علىٰ عيب دَلَّسَهُ البائع ولم يُطلع المشتريَ عليه، فله ردُّه علىٰ البائع، والرجوعُ عليه بجميع الثمن، والغَلَّةُ التي استغلَّها المشتري منه، طيّبـةٌ خالصةٌ له؛ لأنه كان في ضمانه، ولو هلك هلك من ماله، ولم يكن له علىٰ البائع شيء. والباء في قوله «الخراجُ بالضمان» متعلقة بمحذوف، تقديره: الخراج مستحقٌّ بالضمان، أي بسببه. ومنه حديث شُريح: قال لرجلين احتكما إليه في مثل هذا، فقال: للمشتري: رُدَّ الداء بدائه، ولك الغَلَّةُ بالضمان.

وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، قال: مثل الذي يقرأ القرآن ويعملُ به كمَثَل الأُتْرُجة، طيّبٌ ريحُها طيّبٌ خَراجُها. ومثل الذي يعمل به ولا يقرؤه كمثل النخلـة، طيّبٌ خراجها ولا ريحَ لها، قولـه رضي الله عنه: «طيّبٌ خراجُها» يريـد طعم ثمرها. وكلُّ ما خـرج من شيء وحصـل من نفعه فهو خَراجه، فخراج الشجرة ثمرُها، وخراج الحيوان: نَسْلُه ودَرُّه. ويقال: خارَج فلانٌ غلامه: إذا اتفقا علىٰ ضريبة يردُّها علىٰ سيِّده عند انقضاء كلِّ شهر. فيقال: عبدٌ مخارَج. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: يتخارج الشريكان وأهل الميراث، أي: إذا كان المتاع بين ورثةٍ لم يقتسموه، أو بين شركاءَ وهو في يد بعضهم دون بعض، فلا بأس أن يتبايعوه بينهم، وإن لم يعرف كلُّ واحد منهم نصيبه بعينه، ولم يقبضْه. ولو أراد أجنبـيٌّ أن يشتري نصيب أحدهم لم يجُزْ حتىٰ يقبضـه صاحبه قبل البيع. وقد رواه عطاء عن ابن عباس مفسَّراً، قال: لا بأس أن يتخارج القومُ في الشركة تكونُ بينهم، فيأخـذ هذا عَشَرة دنانير نقداً، وهذا عشـرة دنانير دَيْنـاً. والتخـارج: تفـاعُلٌ من

الخروج، كأن كلَّ واحدٍ منهم يَخْرُجُ عن ملكه إلىٰ صاحبه بالبيع.

وفي حديث صالح عليه السلام: أن قومه سألوه أن يُخرج لهم من الصخرة ناقةً مُخْتَرَجةً جَوْفاء وَبْراء. الناقة المُخْتَرَجة: هي التي خرجت علىٰ خلقة الجمل البُخْتيّ. والبُخْت والبُخْتيّ: الإبلُ الخراسانية. يقال: اخترجه بمعنىٰ استخرجه. والناقة الجوفاء: الواسعة الجوف. والوَبْراء: ذات الوَبَر. وجاء في تمام الحديث أن صالحاً عليه السلام قام إلىٰ صلاته ودعا الله عزّ وجل، فتحرّكت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقةٍ جوفاءَ وَبْراء، يتحرك جنينُها بين جنبيها كما سألوا، فآمن من قومه من آمن، وجحد من جَحَد، ثم أقامت الناقة وفصيلُها بعدما وضعتْه بين أظهرهم مدةً، تشرب من بئرها يوماً وتدَعُه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شُربها يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، وكانت تسرحُ في بعض تلك الأودية، تردُ من فجٍّ وتصدُرُ مِن غيرِه، وكانت علىٰ ما ذكر المفسِّرون، خَلْقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرتْ بأنعامهم نَفَرتْ منها، فلما طال عليهم ذلك، واشتدّ تكذيبُهم لصالحٍ عليه السلام، عزموا علىٰ قتلها ليستأثروا بالماء كلَّ يوم، علىٰ ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤ ــ ١٥].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ لمّا توجّه نحو المدينة خرج بريدة الأسلميُّ رضي الله عنه في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهم. فتلقىٰ نبيَّ الله ليلاً، فقال له: «من أنت؟» فقال: بُريدة. فالتفت إلىٰ أبي بكر وقال: «يا أبا بكر، برد أمرُنا وصلح». ثم قال: «ممَّن؟» قال: من أسلم. قال لأبي بكر: «سَلِمنا». ثم قال: «ممّن؟» قال: من بني سهم، قال: «خرج سهمُك». قوله: برَد أمرُنا، أي: سَهُل، من العيش البارد، وهو الناعم السَّهل. ومنه قوله ﷺ: «الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة». وقيل: معناه: ثبت أمرُنا واستقام. من قولهم: بَرَد لي علىٰ فلان حق، أي: ثبت ووجب. وقوله: «خرج سهمُك» أي: ظفرت. وأصله في الشيء يتداعاه

الجماعة فيستهمون عليه، أي: يُجيلون السِّهام ، فمن خرج سهمه منهم حازه دون أصحابه، قال تعالىٰ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]. قال الخطابي: وفي الحديث من الفقه استحبابُ الفألِ والتيمنُ بالاسمِ الحسن، وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل ويكره التطير.

[خ ر ر]

يقول ربُّنا عز وجل في ضرب المثل للمشرك في ضلاله وبعده عن الهدىٰ وهلاكه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. قوله: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط. ويقال للحجر إذا تدهْدَىٰ من الجبل: خرّ يَخُـرّ خُرُوراً بضم الخاء من يَخُرُّ، وخَرَّ الماء يخِرُّ خريراً، بكسر الخـاء. وكـذلك خَرّ الميِّت يخِرُّ خريراً. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وفي حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ علىٰ أن لا أخِرَّ إلاَّ قائماً. قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: قد أكثر الناسُ في معنىٰ هذا الحديث، وما له عنـدي وجه، إلاّ أنـه أراد بقوله: لا أخِـرّ: لا أموت؛ لأنه إذا مات فقد خرَّ وسقط. وقوله: «إلاَّ قائماً» أي: إلاَّ ثابتاً علىٰ الإسلام. وكلُّ من ثبت علىٰ شيء وتمسَّك به فهو قائمٌ عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وإنما هذا من المواظبة علىٰ الدين والقيام به. وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾ [آل عمران: ٧٥] أي:

مداومـاً. وجاء في تمام الحديـث أن النبـي ﷺ قال له: «أمّا مِن قِبَلِنا فلن يخرَّ إلاَّ قائماً»، قال الزمخشري: ومعنىٰ جوابـه ﷺ: أنك لن تَعْدَم من جهتنا الاجتهاد في إرشادك، وفي ألاَّ تموت إلاَّ بهذه الصفة. وقال الفراء: لا أَغْبِنُ ولا أُغْبن، ألا ترىٰ أن النبـيَّ ﷺ قال: «لستَ تُغْبَنُ في دينٍ ولا شيءٍ مما قِبَلَنا ولا بيع»؟ وقـال الإمـام الحربيُّ: معناه: لا أقع في شيءٍ من تجارتي وأموري إلاَّ قمت به منتصباً له.

وفـي حديث عمر بن الخطـاب رضـي الله عنه: أنه قال للحارث بن عبدالله: خَـررْتَ من يديك، أي: سقطت من أجل مكـروه يصيب يديك من قطع أو وجع. وقيـل: هو كناية عن الخجل. يقـال: خرَرْتُ عن يـدي، أي: خجلـت. قال ابن الأثيـر: وسياق الحديث يـدلُّ عليـه. وقيـل: معناه سقطت إلىٰ الأرض مـن سبب يديك، أي: من جنايتهما كما يقال لمن وقـع في مكروه: إنما أصابه ذلك من يده، أي: من أمرٍ عمِله، وحيث كان العمل باليد أُضيف إليها.

[خ ر ص]

يقول ربنا عز وجل مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. قوله: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعـام:١١٦] أي: يكـذبـون. والخَرْصُ: الكـذب. يقـال: خَـرَص واختـرص وتخرَّص: إذا افترىٰ الكذب، ومنه قوله عز وجل: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]. قال مجاهد: الكذَّابون، قال: وهي مثلُ التي في عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]. والخراصـون: الذيـن يقولون: لا نُبعَـث، ولا يوقنـون، وقـال علي بن أبي طلحـة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، أي: لُعـن المرتابون، وهكذا كان معاذ رضي الله عنه، يقول في خُطبته: هلك المرتابون. وقال قتادة:

الخراصون: أهل الغرّة والظنون. وقال أبو عبيد الهروي: يعني الكذّابين الذين يقولون علىٰ الله سبحانه ظناً وحَدْساً ما لا يعلمون، وكلُّ من قال بالظنّ فهو خارص. وهذا من الخَرْص الذي هو حَزْرُ الشيء. يقال: خرَصْتُ النخلة، أي: حزرتُ ثمرها؛ لأن الحَزْرَ إنما هو تقديرٌ بظنٍّ وحَدْس، لا بإحاطةٍ ويقين.

وفي الحديث: أنه ﷺ أمر بخَرْص النخل والكرم، قال ابن الأثير: خَرَص النخلة والكرمة يخرُصها خَرْصاً: إذا حزر ما عليها من الرطب تمراً ومن العنب زبيباً، فهو من الخَرْص، أي: الظنّ؛ لأن الحزر إنما هو تقديرٌ بظنّ. والاسم: الخِرْص، بكسر الخاء، يقال: كم خِرْصُ أرضكَ؟ وفاعلُ ذلك: الخارص. وفي الحديث: أنه ﷺ كان يأكل العنب خَرْصاً، هو أن يضعه في فيه ويُخرجَ عرجُونَه عارياً منه. قال ابن الأثير: هكذا جاء في بعض الروايات، والمرويّ: كان يأكل العنب خرطاً، بالطاء، يقال: خَرط العنقود واخترطه: إذا وضعه في فيه، ثم يأخذ حبَّه ويُخرجُ عرجونه عارياً منه.

وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كنت خَرِصاً، أي: بي جوعٌ وبَرْد. يقال: خَرِص بالكسر خَرَصاً فهو خَرِصٌ وخارص، أي: جائعٌ مقرور.

وفي الحديث: أنه ﷺ وعظ النساء وحثهنّ علىٰ الصدقة، فجعلت المرأة تُلْقي الخُرْصَ والخاتم. قال شمر: الخُرْص: الحَلْقة الصغيرة من الحُليّ. ويقال: خُرْص وخِرْص، بضم الخاء وكسرها. وفي الحديث: «أيُّما امرأةٍ جعلت في أُذنها خُرْصاً من ذهب جُعِلَ في أُذنها خُرْصاً من النار»، قال ابن الأثير: كان هذا قبل النسخ، فإنه قد ثبت إباحةُ الذهب للنساء. وقيل: هو خاصٌّ بمن لم تؤدِّ زكاة حُليِّها.

وفي حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها ذكرت جراحة سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقالت: وقد كان رقأ كلُّه وبرأ، فلم يبق منه إلاّ مثلُ الخُرْص. شبَّهت ما بقي من الجراحة في قلّته بالخُرص الذي هو الحلقة الصغيرة من الحليّ.

[خ ر ق]

يقول ربنا عزّ وجل في شأن طوائف المشركين الذين عبدوا معه غيره، وجعلوا له البنين والبنات، كَذباً وافتراء، فيقول عز من قائل: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. قوله تعالىٰ: ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ أي: افتعلوا ذلك كذباً وكفراً. يقال: خَرَقَ وخَرَّق، وخلق واختلق، وبَشَك وابتشك، وخَرَص واخترص، كل ذلك بمعنىٰ كذَب وافترىٰ، وقرأ نافع: ﴿وخَرَّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنٰتٍ﴾ بتشديد الراء، علىٰ إرادة التكثير؛ لأن المشركين ادَّعَوْا أن الملائكة بناتُ الله، والنصارىٰ أن المسيح ابن الله، واليهودَ ادَّعَوْا أن عُزَيراً ابنُ الله، فكثُر ذلك من كفرهم، فشُدِّد الفعلُ لمطابقة المعنىٰ.

واستعمالُ الخَرْق بمعنىٰ الكذب والافتراء، مأخوذٌ من الخَرْق الذي هو نقيض الرفق، كأن الذي يفعله متخرِّق. وهذا قول ابن فارس. وقال الراغبُ الأصبهانيّ: الخَرقُ قطعُ الشيء علىٰ سبيل الفساد من غير تدبُّر ولا تفكُّر، قال تعالىٰ: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾[الكهف: ٧١]. وهو ضدُّ الخَلْق، وإن الخلق هو فعل الشيء بتقدير ورفْق، والخَرقُ بغير تقدير، قال تعالىٰ: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أي: حكموا بذلك علىٰ سبيل الخرق.

ويقول تعالىٰ ناهياً عباده عن التجبُّر والتبختُر في المشية: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] أي: لن تبلغ أطراف الأرض. وقال أبو منصور الأزهري: معناه: لن تقطعها. وقيل: لن تثقب الأرض. قال المفسِّرون: وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلاَّ عليها، أو علىٰ ما هو معتمِدٌ عليها، تأكيداً وتقريراً.

وقال شاعر:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلاَّ تواضُعاً ... فكم تَحْتَها قومٌ همُ منكَ أرفعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ ... فكم ماتَ مِن قومٍ همُ منك أمنعُ

وفي حديث مكحول رضي الله عنه أنه قال: كنا مرابطين، فتأجَّل متأجِّل، وذلك في رمضان وقد أصاب الناس طاعون. فلما صلّينا المغرب وضعت الجَفْنة وقعد الرجلُ وهم يأكلون فخَرِق. قوله: «فتأجَّل متأجِّل» أي: أستأذن في الرجوع إلىٰ أهله، وطلب أن يُضرب له في ذلك أجل. وقوله: «فخرق» أي: وقع ميتاً. قال الخطابي: والأصل في ذلك أن يصيب الإنسان فزعٌ، أو يبدهه أمرٌ فيبقىٰ مبهوتاً. قال أبو دؤاد الإيادي:

والجُونُ في ألجائها خُرُقٌ ... والطيرُ في الأوكارِ قد خَرِقَتْ

أي: تحيَّرت من الفزع فبقيت في أماكنها لا تتحرك. ويعني بالجون هنا: الحُمُر. والألجاء: مواضعها، قد تحيّرت فيها، لا تدري أين تذهب.

وفي حديث النبي ﷺ: أنه زوّج فاطمةَ من عليّ، فلما أصبح دعاها فجاءت خَرِقةً من الحياء، فقال: لها: «اسكُني، فقد زوّجْتُك أحبَّ أهل بيتي»، ودعا لهما. قوله: «خَرِقة» معناه خجلةً من فرط الحياء. وروي عن أبي العباس ثعلب، قال: يقال: خَرِق الرجلُ وبَعِل، وبحِر، وبقِر: إذا نزل به أمرٌ فبقي متحيّراً. وفي حديث آخر: أنها أَتَتْه تعثُر في مِرْطها من الخجل. ويقال: خَرِق الغزال يَخْرَقُ خَرَقاً. وهو أن يتحيَّرَ من الفَرَق فلا يقدِرَ علىٰ النهوض.

وفي الحديث: أنه ﷺ نَهىٰ أن يُضحَّىٰ بشَرْقاءَ أو خَرْقاءَ مُقابَلةً أو مُدابَرةً أو جَدْعاء. الشرقاء في الغنم: المشقوقة الأذن باثنين. والخَرْقاء التي في أذنها ثقْبٌ مستدير. والخرقُ: الشَّقّ. والمُقابَلَة: أن يُقْطع من مُقَدَّم أُذُنها شيءٌ ثم يُتركَ معلَّقاً لا يُقطع كأنه زَنَمةٌ. والمُدابرة: أن يُفعلَ ذلك بمؤخر الأذن من الشاة. والجَدْعاء:

المقطوعة الأذن.

وفي حديـث فضل سورة البقـرة وآل عمـران، الذي رواه النَّوّاس بنُ سِمْعان الكلابي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهلهِ الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ، قال: «كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سوداوان بينهما شَرْقٌ، أو كأنهمـا فِرقـان مـن طير صوافَّ يُحاجّـان عن صاحبهما». هكذا رواه ابن كثير في «تفسيره» بطرقه. وفِرقان، أي: طائفتان. لكن ابن الأثير ذكره في «النهاية» برواية: «كأنهما خَرقان» بفتح الخاء وكسرها، ثم قال: هكذا جاء في حديث النواس، فإن كان محفوظاً بالفتح فهو من الخَرْق، أي: ما انخرق من الشيء وبان منه، وإن كان بالكسر فهو من الخِرقَة: وهي القطعةُ من الجراد. وقيل: الصواب: «حِزْقان» بالحاء المهملة والزاي، من الحِزْقة، وهي الجماعة من الناس والطير وغيرهما.

وفي الحديث: «الرفقُ يُمنٌ والخُرْق شؤمٌ، وإذا أراد الله بأهل بيتٍ خيراً أدخل عليهم بابَ الرفق، فإن الرفقَ لم يكن في شيء قط إلا زانَه، وإن الخُرق لم يكن في شيء إلا شانه». الخُرْق، بضم الخاء: الجهل والحُمْق، وقد خَرِقَ يَخْرَق خَرَقاً. وريحٌ خَرْقاء: لا تدومُ في الهبوب علىٰ جهة. والخرقاء: المرأة لا تحسن عملاً. قال الشاعر:

خَـرْقـاءُ بـالخيـرِ لا تَهْـدي لـوِجْهتِـه ... وهْيَ صَناعُ الأذىٰ في الأهلِ والجارِ

والصناع: الحاذقة الخبيرة. ومنه حديث جابر رضي الله عنه: فكرهت أن أجيئَهنّ بخرقاء مثلِهن، أي: حمقاء جاهلة، وهي تأنيث الأخرق. ومنه الحديث: «تُعين صانعاً أو تصنع لأخْرق» أي: جاهلٍ لما يجب أن يعمله، ولم يكن في يديه صنعةٌ يكتسب بها.

[خ ز ي]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤] الخزي: الهوان والذلُّ. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤] أي: نَهوُن. ومنه قوله عز وجل علىٰ لسان عباده المؤمنين في دعائهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٩٢] أي: أهنْتَه وأظهرت خزية لأهل الجمع، وقوله في السياق نفسه: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] يقال: أخزيتُ فلاناً، أي: ألزمتُه حُجَّة أذللْته بها. ويقال: خزيَ يخزىٰ خزياً، أي: افتُضح، ومنه قوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه هودٍ عليه السلام يخاطب قومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨]. ويفسّرُه قوله عز وجل: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر: ٦٨ ـ ٦٩].

ويقال: خزي يخْزىٰ خِزاية، أي: استحيا، فهو خَزْيان، وامرأةٌ خَزيا، ومنه ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم وفدُ عبد القيس علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بالقوم غيرَ خَزايا ولا نَدامىٰ». وقوله: «ندامىٰ» أي: نادمين، وجاء علىٰ وزن فَعالىٰ إتباعاً لخزايا؛ لأن الندامىٰ: جمع ندمان، وهو النديم الذي يرافقك ويشاربك. وقد جاء علىٰ أصله في الدعاء المأثور «غيرَ خزايا ولا نادمين».

ومن استعمال الخزي في معنىٰ الاستحياء ما جاء في حديث يزيد بن شجرة، وكان عمر رضي الله عنه يبعثه علىٰ الجيوش، فخطب الناس فقال: اذكروا نعمة الله عليكم، ما أحسن أثرَ نعمته عليكم! إن كنتم ترون ما أرىٰ من بين أحمر وأصفر،

وأخضر وأبيض، وفي الرحال ما فيها، إلاّ أنه إذا التقىٰ الصفّان في سبيل الله فتحت أبواب السماء وأبواب الجنة وأبواب النار، وتزيَّن الحورُ العين، فإذا أقبل الرجل بوجهه إلىٰ القتال قلن: اللهم ثبّتْه، اللهم انصُرْه، وإذا أدبر احتجبْن منه وقلن: اللهم اغفرْ له، فانهَكُوا وجوهَ القوم فدًى لكم أبي وأمي، ولا تُخْزُوا الحورَ العيْن». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله «لاتخزوا الحور العين» ليس من الخزي؛ لأنه لا موضع للخزي هاهنا، ولكنه من الخَزاية، وهي الاستحياء، يقال: من الهلاك: خزي الرجل يخزَىٰ خِزياً. ويقال: من الحياء: خَزِي يَخْزَى خَزاية. ويقال: خَزيتُ فلاناً: إذا استحييتَ منه. قال ذو الرُّمّة في الخَزاية، يذكر ثوراً فَرَّ من الكلاب ثم كرَّ عليها:

خــزايــةً أدركتْــهُ بعــدَ جــولتِــهِ　　　من جانبِ الحبْلِ مخلوطاً بها الغضبُ

وقال القُطامي:

حرِجاً وكَرَّ كُرُورَ صاحبِ نَجْدةٍ　　　خــزِيَ الحــرائــرَ أن يكــونَ جبــانــا

أراد: خَزِيَ الرجلُ الحرائرَ، أي: استحيا منهن أن يفرَّ. فالذي أراد ابن شجرة بقوله: «لا تُخْزوا الحورَ العين» أي: لا تجعلوهن يَسْتحيينَ منكم ولا تَعَرَّضُوا لذلك منهن، وقال ابن الأثير: أي: لا تجعلوهن يستحيين من تقصيركم في الجهاد.

وقوله في الحديث: من بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض. قال أبو عبيد: بعض الناس يحمله علىٰ زينة الحور العين. ولا أراه أراد ذلك؛ لأنه إنما ذكر الحور العين بعد ذا، ولكنه أراد عندي زهرة الأرض وحسن نباتها وهيئة القوم في لباسهم، ومما يبين ذلك قوله: وفي الرحال وما فيها. قال: فذكَّرهم نعمة الله عليهم في أنفسهم وفي أهاليهم.

وفي الحديث: «إن الحَرَمَ لا يُعيذ عاصياً ولا فارًّا بخَزْية» أي: بجريمة يُسْتحيا منها، هكذا جاء في رواية. ومنه حديث الشعبيّ رضي الله عنه: أتىٰ به الحّجاج، فقال: أخَرجْتَ عليَّ يا شعبيّ؟ فقال: أصلح الله الأمير، أجدب بنا الجَناب، وأحزن

بنا المنزل، واستحلسْنا الخوف، واكتحلنا السَّهرَ، فأصابتنا خَزْية لم نكن فيها بَرَرةً أتقيـاء، ولا فَجَـرةً أقوياء. قال: لله أبوك! ثم أرسله. قوله: اجدب بنا الجنـاب، فالجناب: الناحية. وأحزن المنزل: أي صار ذا حُزونة، كأخصب وأجدب، ويجوز أن يكون من قولهم: أحزن الرجل وأسهل، إذَا ركب الحزْنَ والسهل، كأن المنزل أركبهم الحزونة حيث نزلوا فيه. والحزونة: الخُشونة، والحزن: المكان الغليظ الخشن. وقوله: «استحلسْنا الخوف» أي: لازمناه ولم نفارقه، مأخوذٌ من الحِلْس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب؛ للزومه ودوامه. وقوله: «أصابتنا خزية» قال ابن الأثير: أي خَصْلةٌ استحيينا منها. فجعلها من: خَزِي يخْزَىٰ خزاية، أي: استحيا كما سبق، وقال الزمخشري، أي: خصلة خزينا فيها، أي: ذللنا، فجعله من خزي يَخْزي خِزْياً، أي: ذلَّ وهان. وأنشد عليه قول الشاعر:

فـإنـي بحمـدِ اللّـهِ لا ثـوبَ عـاجـزٍ لبسـتُ، ولا مـن خَـزْيـةٍ أَتَقنَّـعُ

ويروىٰ: «ولا من غدرة». ويقال: خزاه يخزوه خَزْواً، أي: ساسه وقهره، قال ذو الإصبع العَدْواني:

لاهِ ابنُ عمِّك لا أفضَلْتَ في حسَبٍ عنِّـي ولا أنـتَ دَّيـانـي فتخـزوَنـي

أي: ولا أنت مالك أمري فتسُوسَني وتقهرني. ومنه قول زياد: « قد خَزَوْنا وخزانا الخازون»، أي: ولينا الناس ووُلِيَ علينا، فعلمْنا ما يُصلح الراعي والمَرْعىٰ.

[خ س ف]

يقـول ربنـا عز وجل منبهاً الكفرة الملحدين علىٰ قدرته في خلق السماوات والأرض، وأن مَن خلق السماوات والأرض علىٰ هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما، قادرٌ علىٰ تعجيل العذاب لهم، فيقول عز من قائل: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩]. قوله تعالىٰ: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الخَسْف: غُؤورُ الأرضِ وسؤوخُها بما عليها، ومن ذلك انخسفت العين، أي: عميت، والمهزولُ يسمىٰ خاسفاً، كأن لحمه غار ودخل. ويقال: خَسف الله به الأرض، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١]. وإنما وقع ذلك بقارون لما كان من اختياله في زينته وفخره علىٰ قومه وبغْيه عليهم، وذكر الحافظ ابن كثير في «تفسيره» حديث البخاري، بسنده عن سالم أن أباه حدَّثه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجرُّ إزارَه، إذ خُسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلىٰ يوم القيامة». وروىٰ حديثَ الإمام أحمد بسنده إلىٰ أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة:٨] أي: ذهب ضوؤه ولا يعود كما يعود إذا خَسَف في الدنيا. وقرىء ﴿وَخَسَفَ﴾ بفتحتين مبنياً للفاعل، و﴿خُسِفَ﴾ بضم فكسر مبنياً للمفعول. وفي الحديث: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ولا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته». قال ابن الأثير: يقال: خَسَف القمرُ، بوزن ضرب، إذا كان الفعلُ له، وخُسف القمرُ علىٰ ما لم يسمَّ فاعلُه.

وقد ورد الخسوفُ في الحديث كثيراً للشمس، والمعروف لها في اللغة الكسوفُ لا الخسوف، فأما إطلاقه في مثل هذا الحديث فتغليباً للقمر لتذكيره، علىٰ تأنيث الشمس، فجمع بينهما فيما يخص القمر، وللمُعاوَضة أيضاً. فإنه قد جاء في رواية أخرىٰ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان». وأمّا إطلاق الخسوف علىٰ الشمس منفردة؛ فلاشتراك الخسوف والكسوف في معنىٰ ذهاب نورهما وإظلامهما. والانخساف: مطاوع خسفْتُه فانخسَف.

قال الراغب الأصبهاني: وتُصُوِّرَ مِن: خَسَفَ القمرُ مهانةٌ تلحقه، فاستعير

الخَسْفُ للذّلّ، فقيل: تحمل فلانٌ خسفاً. انتهىٰ كلامه.

وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من ترك الجهاد ألبسه الله الذلّة وَسِيمَ الخَسْف. قال الأصمعي: الخَسْفُ: النقصان. وقال ابن قتيبة: الخَسْفُ: أن تُحبسَ الدابّةُ علىٰ غير عَلَف، ثم يستعار فيُوضع موضع التذلُّل، ومنه حديث معاوية الذي ردَّ به علىٰ عبد الله بن الزبير. وكان هذا قد نازع مروان بن الحكم في مجلس معاوية، فقال معاوية: يا معشر قريش، ما أراكم منتهين حتىٰ يبعث الله عليكم من لا تعطِفُه قرابة، ولا يذكر رَحماً، يسومكم خَسْفاً، ويوردُكم تلفاً. وقوله: «يسومكم خسفاً» أي: يُلزمكم ذُلاًّ وهواناً، يقال: سامه يسومُه سوماً: إذا كلّفه شيئاً وألزمه إيّاه، وأصله مِن: سام ناقته: إذا أكرهها علىٰ الشُّرب، وداوم عليه لتشرب. والتلف: الهلاك.

وفي حديث الحجاج: أنه بعث رجلاً ليحفر بئراً في مجتمع كلأ، فلما رجع إليه قال: أخَسَفْتَ أم أوْشَلْت؟ قوله: «أخسَفْتَ» من الخَسْف، وهي البئر تُحفرُ في حجارة فيخرج منها ماءٌ كثيرٌ عِدٌّ لا ينقطع. وأوْشَلْت: من الوَشَل، وهو الماء القليل. يقال: وشَل يَشِلُ وشَلاَناً. ويروىٰ مكان «أوْشَلْت»: «أعْلَمْتَ» من العَيْلم، وهي البئر دون الخسيف.

ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه سأله عن الشعراء، فقال: امرؤُ القيس سابِقُهم، خَسَف لهم عينَ الشعر، فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصَحَّ بَصَراً. قال ابنُ الأثير، ولخَّص كلام الزمخشري، أي: أنبطها وأغزرها لهم، من قولهم: خسَف البئر: إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير، يريد أنه ذلّل لهم الطريق إليه، وبصَّرهم بمعانيه، وفنَّن أنواعَه وقصَّده، فاحتذىٰ الشعراءُ علىٰ مثاله، فاستعار العين لذلك. وقول عمر رضي الله عنه: «افتقر عن معان عور» افتقر: افتعل من الفقير، وهو فم القناة، والمعنىٰ: شقَّ وفتح. وقوله: «عن معان عُور» فسّره ابن قتيبة، فقال: «يريد أن امرَأ القيس من اليمن،

وليست لهم فصاحة» وردَّ هذا التفسيرَ أبو سليمان الخطابيّ، فقال: هذا لا وجهَ له، ولا موضعَ لاستعماله فيمن لا فصاحة له، وإنما أراد بالعَوَر هاهنا غموض المعاني ودقَّتَها، من قولك: عوَّرْتُ الركيّة: إذا دفنتها، وركيَّةٌ عوراء. قال الشاعر:

ومنهــلٍ أعــورَ إحــدىٰ العينيــنْ   بصيرةِ الأخرىٰ أصمِّ الأذنينْ

جعل العين التي تنبع بالماء بصيرة، وجعل المندفنة عوراء. فالمعاني العُور علىٰ هذه هي الباطنةُ الخفيّة، كقولك: هذا كلامٌ معمّىٰ، أي: غامضٌ غير واضح. أراد عمر أنه قد غاص علىٰ معانٍ خفيةٍ علىٰ الناس فكشفها لهم، وضَرَب العَوَر مثلاً لغموضها وخفائها، وصحّةَ البصر مثلاً في ظهورها وبيانها، وذلك كما أجمعت عليه الرواة مِن سبْقِه إلىٰ معانٍ كثيرة لم يَحْتذِ فيها علىٰ مثال متقدّم، كابتدائه في القصيدة بالتشبيب والبكاء في الأطلال والتشبيهات المصيبة والمعاني المقتضبة التي تفرّد بها، فتبعه الشعراءُ عليها، وامتثلُوا رسمَه فيها.

[خ ش ب]

يقول ربُّنا عز وجل في صفة المنافقين: ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤]. الخُشُب: جمع خشبـة، مثـل ثَمَرَة وثُمُر. قال الحافظ ابنُ كثير: كانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلىٰ قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخوَر والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: كلما وقع أمرٌ أو كائنةٌ أو خوف يعتقدون لجُبنهم أنه نازلٌ بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

وأخرج الإمام أحمد، بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علاماتٍ يُعرَفُون بها: تحيّتهم لعنة، وطعامهم نُهْبة، وغنيمتُهم غُلول، ولا يقربون المساجد إلاَّ هَجْراً، ولا يأتون الصلاة إلاَّ دُبُرا، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤْلَفُون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ بالنهار». قال أبو عبيد الهروي: أراد أنهم ينامون بالليل لا يُصَلّون، كأن جُثَثَهم خُشُبٌ مُطَرَّحة، والعرب تقول للقتيل: كأنه خشبة، وكأنه جِذْع. وقوله: «صُخُبٌ بالنهار» أي: صيَّاحون فيه ومتجادلون.

والسَّخَبُ والصَّخب: اختلاط الأصوات. قال الزمخشري: والأصل السين. والمراد رفعُ أصواتهم وضجيجُهم في المجادلات والخصومات وغيرِ ذلك. ثم قال: شبّههم في تمدّدهم نياماً بالخشب المُطَرَّحة، ويقال للقتيل: خَرَّ كأنه خشبة، وكأنه جِذْع. قال جميل بنُ معمر:

قعدتُ لهُ والقومُ صَرْعَىٰ كأنهمْ لدىٰ العِيسِ والأكوارِ خُشْبٌ مُطَرَّحُ

وفي الحديث: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: يا محمد، إن شئتَ جمعتُ عليهم الأخشبين، فعلا رسولَ الله ﷺ ـ والأَفْكَل: الرِّعدة[1] ـ وقال: «دعني أُنذرْ قومي». والأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة، وهما أبو قبيس والأحمر، وهو جبلٌ مُشرفٌ وجهُه علىٰ قُعَيْقِعان. قال شمر: الأخشَبُ من الجِبال: الخَشِن الغليظ. قال: والخَشِب: الغليظ من كلِّ شيء، الخَشِن. ومنه الحديث الآخر: «لا تزول مكة حتىٰ يزولَ أخْشباها».

(١) أفكل، كأحمد: الرعدة من بردٍ أو خوف، وهو مفكول. ولا يُبنىٰ منه فعل، وهمزته زائدة، ووزنه أفعل، ممنوع من الصرف، ولهذا إذا سميتَ به لم تصرفه. وفي حديث عائشة: «فأخذني أفكل، فارتعدت من شدة الغَيْرة». يُنظر «اللسان» و«القاموس». (الناشر).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: اخْشَوْشِبُوا وتَمعْدَدوا. اخشوشب الرجلُ: إذا كان صُلْباً خشناً في دينه وملبسه ومطعمه وجميع أحواله. ويروىٰ: «اخشَوْشِنُوا». وروي بالجيم أيضاً: «اجْشَوْشبُوا» وقوله: «وتمعددوا» أي: تشبّهوا بمعدّ بن عدنان، في قَشَفِهم وخشونة عيشهم، واطراح زِيّ العجم، وتَنَعُّمِهم وإيثارهم لِلَيان العيش. هكذا شرح الزمخشري. وقال أبو عبيد الهروي: وأراد بذلك كله الخُشونة في الملبس والمطعم. يقول: عيشوا عيش العرب الأولىٰ ولا تُعوِّدوا أنفُسَكم التُّرْفَةَ وعيشة العجم فتقعُدَ بكم عن المغازي. وقال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: كلُّ شيء غليظٍ فهو أخشَبُ وخَشِبٌ، وهو من الغِلَظ وابتذالِ النفس في العمل والاحتفاءِ في المشي ليَغْلُظَ الجسد ويجسُو.

وقوله: «تمعددوا» فيه قولان. يقال: هو من الغِلظِ أيضاً، ومنه قيل للغلام إذا شَبَّ وغَلُظ: قد تَمَعْدَدَ، قال الراجز، يصف عقوق ابنِه:

ربَّيْتُـــهُ حتـــىٰ إذا تمَعـــددا
وآضَ صُلْباً كالحصانِ أجردا
كان ثوابي بالعَصا أن أُجْلَدا

ويقال: تمعددوا: تشبهوا بعيش مَعَدّ، وكانوا أهل قَشَفٍ وغلظ في المعاش. يقول: فكونوا مثلهم ودَعْوا التنعُّم وزِيَّ العجم.

وفي حديث سلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه: قيل: كان لا يكاد يُفْقَهُ كلامُه من شدَّةِ عُجْمته، وكان يُسمِّي الخَشَبَ الخُشْبان». قال الزمخشري: قد أُنكِر هذا الحديث؛ لأن كلامه يضارع كلام الفصحاء. والخشْبان في جمع الخَشَب صحيحٌ مرويّ، ونظيره سَلَقٌ وسُلْقان ــ وهو القاع المطمئن المستوي لا شجر فيه ــ وحَمَلٌ وحُمْلان، وقال:

كأنهمْ بجنوبِ القاعِ خُشْبانُ

ولا مزيدَ علىٰ ما يتعاونُ علىٰ ثبوته القياسُ والرواية.

[خ ش ع]

تدل مادة (خشع) علىٰ أصلٍ واحد في اللغة هو التطامُنُ. قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] أي: انخفضت. وقوله: ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] أي: مطمئنةً ساكنة. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] أي: خاضعون، وقيل: خائفون. والخشوع: السكونُ والتذلُّل. يقال: خشع له وتخشَّع. وقال الليث: الخشوعُ قريب المعنىٰ من الخضوع، إلا أن الخضوعَ في البدن والخشُوعَ في القلب والبصر والصوت. وذكر مثلَ هذا ابنُ فارس، واستشهد له بقوله تعالىٰ: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣].

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: ثم أقبل علينا فقال: «أيُّكم يحبُّ أن يُعرِضَ اللّهُ عنه؟» قال: فخشَعْنا. قال ابن الأثير، أي: خشينا وخضَعْنا، والخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن. هكذا جاء في كتاب أبي موسىٰ ــ يعني المدينيَّ. والذي جاء في كتاب مسلم «فجشِعْنا» بالجيم، وشرحه الحميديُّ في «غريبه» فقال: الجَشَع: الفزعُ والخوف. وفي الحديث: «كانت الكعبةُ خُشْعَةً علىٰ الماء فدُحيتْ منها الأرض» الخُشْعة: أكمةٌ لاطئةٌ بالأرض، والجمع: خُشَع. وقيل: هو ما غلبت عليه السهولة، أي: ليس بحجر ولا طين. ويروىٰ: «خَشَفة» وهي واحدة الخَشَف، وهي حجارة تنبت في الأرض نباتاً.

[خ ص ص]

يقول ربنا عز وجلَّ مادحاً الأنصارَ ومبيّناً فضلَهم وشرفَهم وكرمَهم وتوسعتَهم لإخوانهم المهاجرين وإيثارَهم مع الحاجة، فيقول عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. قوله تعالىٰ: ﴿خَصَاصَةٌ ۚ﴾ أي: حاجةٌ وفقر.

يقال: فلانٌ ذو خَصاصة. والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت. وهي الفُرَج التي تكون فيه، قال الراغب الأصبهاني: وخَصاصُ البيت فُرَجُه، وعُبِّر عن الفَقْر الذي لم يُسَدَّ بالخصاصة، كما عُبِّر عنه بالخَلَّة. وقيل: إن الخَصاصة مأخوذةٌ من الاختصاص، وهو الانفراد بالحاجة، ومنه قول الشاعر:

إن الـربيـعَ إذا يكـون خَصـاصـةً   عاش السقيمُ بهِ، وأثْرَىٰ المُقْتِرُ

وفي حديث فَضالة: كان يَخِرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة من الخَصاصة. قال ابن الأثير: أي: الجوعِ والضعف، وأصلها الفقر والحاجة إلىٰ الشيء.

وفي الحديـث: أنه ﷺ مرَّ بعبـد الله بن عمـرو وهو يُصلـح خُصّـاً لـه وَهَىٰ. الخُصُّ: بيتٌ يُعمَل من الخشب والقَصَب، وجمْعُه خِصاص وأخصاص وخُصوص، سُمِّي به لما فيه من الخِصاص، وهي الفُرَج والأنقاب. ومنه الحديث: أن أعرابياً أتىٰ بـاب النبيِّ ﷺ فألقم عينه خَصاصةَ البـاب، أي: فُرْجتَـه. ويقـال للقَمر: بدا مـن خَصاصة السحاب. قال ذو الرُّمّة:

أصاب خصاصَةً فبدا كليلاً   كَلاَ وانغَلَّ سائرُه انغلالا

وقوله: «كلا» أي: كسرعة قولك: «لا». وانغَلَّ: دخل.

وهذه المادة (**خصص**) ترجع إلىٰ أصلٍ واحد، هو الفُرْجة والثُّلْمة كما قال ابن فارس. ثم قال: ومن الباب: خصَصْتُ فلاناً بشيء خَصُوصية، بفتح الخاء ــ ويقال بالضم أيضاً ــ وهو القياس، لأنه إذا أُفرِدَ واحدٌ فقد أَوْقَعَ فُرْجةً بينه وبين غيره، والعمومُ بخلاف ذلك. انتهىٰ كلامه.

والخاصُّ: ضدّ العام. وجاء في الحديث: «بادروا بالأعمال سِتّاً: طلوعَ الشمس من مغربها، والدجالَ والدُّخانَ ودابّةَ الأرض، وخُوَيْصَّةَ أحدِكم، وأمرَ العامة» قوله: «خُوَيْصَّة» تصغير خاصَّة[١]. ويريد حادثة الموت التي تخُصُّ كلَّ إنسان، وصُغِّرت لاحتقارها في جنب ما بعدها من البعث والعَرْض والحساب وغيرِ ذلك، ومعنىٰ مبادرتها بالأعمال: الإسراعُ في الأعمال الصالحة والاهتمامُ بها قبل وقوعها. ونظير هذا الاستعمال ما جاء في الحديث الآخر: «بادروا بالأعمال فِتَناً كقِطَع الليل المظلم، يصبح الرجلُ مؤمناً ويُمْسِي كافراً، ويُمْسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، يبيع أحدُهم دينَه بعَرَض قليل من الدنيا». وقوله: «وأمرَ العامَّة» أراد القيامة، لأنها تعمُّ الخلائق.

وفي حديث أُم سُلَيْم بنتِ مِلْحان تخاطب رسول الله ﷺ في شأن ابنها أنس بن مالك رضي الله عنه، قالت: يارسول الله، إن لي خُوَيْصَّةً، قال: «وما هي؟» قالت:

---

(١) نعم، هي تصغير «خاصة» كما نصّ رحمه الله، من باب تصغير ما كان على وزن فاعل على «فويعل».
قلت: وقد يثقل علىٰ اللسان هنا النطق بحرفٍ مشدّد بعد حرفٍ ساكن، وذلك لأنه لا يلتقي ساكنان في كلامنا. لكن قد جاء في «النحو الوافي» (٤ : ٦٥٢) في مبحث التصغير:
إذا وقع بعد ياء التصغير حرفٌ مشدّد فقد يصحّ عند بعض النحاة قلبها ألفاً (للتخفيف)، كما في دُوَيْبّة، وشُوَيْبّة، تصغير: دابّة وشابّة، فيقال: دُوَابّة وشُوَابّة.
قلت: ولا يخفىٰ ما في كلامه من فائدة حسنة لتدريب اللسان علىٰ تقبل هكذا لفظ يلتقي فيه ساكنان، وذلك بأن نتصوَّر ياء التصغير ألفاً. (الناشر).

خادمُك أنس. فما ترك خيرَ آخرةٍ ولا دُنيا إلاَّ دعا لي به، ثم قال: «اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له فيه».

[خ ص ف]

يقول عز من قائل في قصة آدم وحواءَ عليهما السلام وإغواءِ الشيطان لهما: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. قوله تعالىٰ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: يُطبقان علىٰ أبدانهما ورقةً ورقة، ليسترا عورتَهما، ومنه يقال: خَصَفَ نَعْلَه، وهو إطباق طاقٍ على طاق. والمِخْصَف: الإشْفَىٰ والمِخْرَز، قال أبو كبير الهذلي:

حتىٰ انتهيتُ إلىٰ فراشِ عزيزةٍ سوداءَ رَوْثَةُ، أنفِها كالمِخْصَفِ

ويعني بفراش العزيزة عُشَّ العُقاب.

ومن قوله تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أخذ [منه] العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قوله في مدح رسول الله ﷺ:

من قبلها طِبْتَ في الظِّلالِ وفي مُسْتَوْدَعٍ حيث يُخْصَفُ الورَقُ

وقوله: طبت في الظلال: يريد ظلالَ الجنة تحت أشجارها حين كان في صلب آدم عليه السلام، لمّا كان في الجنة. والمُسْتودَعُ: المكان الذي جُعل فيه آدمُ وحواء من الجنة واستُودِعاه، وقيل: أراد بالمستودع الرَّحِم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] فالمستقرُّ: الصُّلب. والمُسْتودَع: الرحم، وقيل بالعكس.

وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ كان يصلي، فأقبل رجلٌ في بصره سوءٌ، فمرَّ ببئر

عليهـا خَصَفةٌ فوقع فيها، فضحك بعضُ من كـان خلفَ النبيِّ ﷺ، فأمرهم بإعادة الوضوء والصلاة. الخَصَفة، واحدة الخَصَف، وهي الجُلَّة التي يُكْنَزُ فيها التمر، قال الزمخشري: وكأنه فَعَلٌ بمعنىٰ مفعول، من الخَصْف، وهو ضمُّ الشيء إلىٰ الشيء؛ لأنه شيء مَرْمولٌ، أي: منسوجٌ من خُوص. ومنه الحديث: كان له خَصَفةٌ يَحْجُرها ويُصلِّي عليها، ويُجمْع علىٰ الخِصافِ أيضاً. قال الأخطل:

فطـاروا شِقـاقـاً لاثنتيـنِ فعـامِـرٌ   تبيعُ بنيها بالخِصافِ وبالتمرِ

وجاء في الحديث: «إذا دخل أحدُكم الحمَّام فعليه بالنَّشير ولا يَخْصِف» يريد بالنشير: المئزر. لأنه ثوبٌ يُنْشر فيُؤتَزَرُ به. وقوله: «لا يخصِفْ» أي: لا يضعْ يَده علىٰ فرجه. من: خَصَفْتُ النعل، أي: أطبقْتُ عليها قطعة.

[خ ص م]

يقول ربنا عز وجل في شأن من أضمر كفراً أو نفاقاً أو كذباً، وأظهر بلسانه خلافه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

روىٰ الإمامُ محمد بن جرير الطبري بسنده إلىٰ نَوْف البكاليَّ ـ وكان ممن يقرأ الكتب ـ قال: إني لأجدُ صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزَّل: قومٌ يحتالون علىٰ الدنيا بالدين. ألسنتُهم أحلىٰ من العسلِ، وقلوبُهم أمرُّ من الصبر، يلبسون للناس مُسُوك الضأن، وقلوبُهم قلوبُ الذئاب.

يقول الله تعالىٰ: فعليَّ يجترئون وبي يَغترّون؟ حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنة

تترك الحليم فيها حيران، قال محمد بن كعب القُرَظي: تدبّرْتُها في القرآن، فإذا هم المنافقون فوجدتها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ وقوله: ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٠٤] معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام وحلف وأشهد اللّهَ لهم أن الذي في قلبه موافقٌ للسانه. وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] فالألَدُّ: الأعوج الشديد التأبّي. قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧] أي: قوماً عُوجاً.

وأصل الألدِّ: الشَّديد اللَّدَد. وهو صفحة العُنُق، وذلك إذا لم يُمكن صَرْفُه عما يُريدُه وإثناؤُه عن الأمر الذي يعتزمه. والخِصام المنازعة، ويكون مصدراً لخاصَمَ. يقال: خاصمتُه خصاماً ومُخاصمة، نحو قاتلتُه قتالاً ومُقاتَلة. ويكون جمعاً لخَصْم، نحو كلب وكلاب، وصَعْبٍ وصِعابٍ، وضَخْم وضِخام، ويُجْمع الخَصْم علىٰ خُصُوم أيضاً. قال لبيد:

إنـي امـرؤٌ منعَـتْ أُرومـةُ عـامـرٍ ضَيْمي وقد جَنَفَتْ عليَّ خُصُومي

ومعنـىٰ ﴿أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أنه أشدُّ المخاصميـن خصومـة لكثـرة جـداله وقوَّة مراجعته، وإضافة الألدِّ إلى الخِصام بمعنىٰ في، أي: ألدُّ في الخصام، أو جعَل الخِصامَ ألدَّ، علىٰ سبيل المبالغة. ويقال: رجلٌ خَصْمٌ وخَصِم ــ بوزن فَرِح ــ أي: مُجادل. وفي الحديث، عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «إن أبغضَ الرجال إلىٰ الله الألدُّ الخَصِم».

وقال تعالىٰ منكراً علىٰ المشركين الذين جعلوا لله البنات: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ [الزخرف: ١٦ ــ ١٨] أي: إذا بُشِّـر أحد هؤلاء بما جعلـوه لله من البنـات يأنـف من ذلك غاية الأَنَفـة وتغشاه كآبةٌ ويعلـوه حـزن، يقول تبارك وتعالىٰ: فكيف تأنفـون من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟ ثم ذكر سبحانه أن المرأةَ من صغرها كلِفَةٌ بالحلْيّ والزِّينة، وأنها عاجزة عن

إقامة حُجَّة، أو دفع ما يجادلها به خَصْم، ولذلك قال قتادة: قلما تتكلَّم امرأةٌ بحُجَّتها إلا تكلَّمتْ بالحُجَّة عليها.

وقال تعالىٰ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: لا تكن مخاصماً عن الخائنين مجادِلاً ودافعاً عنهم. وقوله تعالىٰ: ﴿ لِّلْخَآئِنِينَ ﴾ أي: لأجل الخائنين. قال الإمام الشوكاني: وفيه دليل علىٰ أنه لا يجوز لأحدٍ أن يخاصِمَ عن أحد إلاّ بعد أن يعلم أنه مُحِقّ. وفي سبب نزول هذه الآية أقوال ذكرها المفسِّرون.

وقال تعالىٰ مخبراً عن النفخة الأولىٰ لقيام الساعة: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩] أي: يختصمون في أمر الدُّنيا وفي متصرَّفاتهم فيها. قال ابن كثير: أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة. وهذه ـ واللّهُ أعلم ـ نفخةُ الفَزَع، يُنفَخ في الصور نفخةُ الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون علىٰ عادتهم.

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٢] أي: نحن خَصْمان. والخَصْم يصلحُ للواحد والجمع والذكر والأنثىٰ. تقول: هذا خصمي، وهي خَصْمي، وهذان خَصْمي، وهؤلاء خَصْمي، وإنما صلح أن يكون كذلك لأنه مصدر خَصَمْتُه خَصْماً، ومن مجيء الخصم للجمع قولُ الشاعر:

وخَصْمٍ غضابٍ قد نفضتُ لِحاهُمُ كنفضِ البراذينَ العِرابَ المخاليا

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾ [الحج: ١٩]. فقال سبحانه: ﴿ ٱخْتَصَمُوا۟ ﴾. ولم يقل: اختصما، وذلك لأن الخصمين مجموعُ أفراد، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟

ٱلَّتِى تَبۡغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. ومثلُ استعمال «خصم» للمفرد والجمع: عَدُوٌّ. يقال: رجلٌ عدوٌّ، وقومٌ عَدُوٌّ. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨] . وقال: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ﴾ [النساء: ٩٢] وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧].

ومن غريب هـذه المادة (**خصم**) في الحديث ما جاء عن أُم سلمة رضي الله عنها، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وهو ساهِمُ الوجه، فحسِبْتُ ذلك من وجع، فقلت: يا رسول الله، ما لك ساهِمَ الوجه؟ قال: «من أجل الدنانير السبعة التي أمسَيْنا ولم نُقَسِّمْها، وهي في خُصْمِ الفراش». خُصْمُ كلِّ شيءٍ: طرَفُه وجانبُه. ومنه قولُ سهل بن حُنَيف رضي الله عنه يوم صِفِّين لمَّا حُكِّم الحكمان: هذا أمرٌ لا يُسَدُّ منه خُصْمٌ إلاَّ انفتح علينا منه خُصْمٌ آخر. قال ابن الأثير: أراد الإخبار عن انتشار الأمر وشدّتِه، وأنه لا يتهيأُ إصلاحُه وتلافيه؛ لأنه بخلافِ ما كانوا عليه من الاتفاق. ويرىٰ بعض اللغويين أن الخُصومة والتخاصم مأخوذان من هذا المعنىٰ للخُصْم، الذي هو الطرف والجانب. لأن كلا المتخاصميْن يأخذ في النزاع جانباً غير جانب صاحبه.

[خ ض د]

يقول ربنا عز وجل في شأن عباده الأبرار، وما أعدَّه لهم في جنَّته: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ * فِى سِدۡرٍ مَّخۡضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ ــ ٢٨]. السِّدْر: نوعٌ من الشجر. ومخضود: لا شوكَ فيه، كأنه خُضِد شوكُه، أي: قُطع، فَخِلْقَتُه خِلقةُ المخضود. قال أمية بن أبي الصلت، يصف الجنة:

إن الحدائقَ في الجنانِ ظليلةٌ ... فيها الكواعبُ سِدْرُها مخضودُ

وذكر الحافظ ابنُ كثير عن الحافظ أبي بكر أحمد بن سلمان النجار، بسنده إلىٰ سُليم بن عامر، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلِهم، قال: أقبل أعرابيٌ يوماً فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرةً تؤذي صاحبَها. فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السِّدر، فإن له شوكاً مؤذياً. فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالىٰ يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾. خضَد الله شوكه، فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرة، فإنها لَتُنبتُ ثمراً تَفَتَّقُ الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر».

ويقال: انخضدت الثمارُ الرطبة: إذا حُمِلت من موضع إلىٰ موضع، فتكسَّرت وتشدَّخت. ومنه حديث الأحنف بن قيس حين قدم علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في وفدٍ من أهل البصرة، فقضىٰ حوائجهم، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن أهل هذه الأمصار نزلوا في مثل حدقة البعير من العيون العِذاب تأتيهم فواكِهُهم لم تُخضَد، وإنا نزلنا سَبَخةً نشَّاشة، طرَفٌ لها بالفلاة، وطرفٌ لها بالبحر الأُجاج، يأتينا ما يأتينـا في مثـل مريء النعامة، فإن لم ترفـع خَسيستنـا بعطاءٍ تُفضِّلنا به علىٰ سائر الأمصار نَهلِكْ. قال أبو عبيد: قوله: مثل حدقة البعيـر من العيون العذاب: يعني كثرة مياههم وخِصْبَهم، وأن ذلك عندهم كثيرٌ دائم، وإنما شبهه بَحَدَقة البعير لأنه يقال: إن المخَّ ليس يبقى في جسد البعير بقاءه في السُّلامىٰ والعين، وهو في العين أبقىٰ منه في السُّلامىٰ أيضاً. والسُّلامى: كلُّ عظم مجوَّف مما صَغُر من العظام.

وأما قوله: تأتيهم فواكههم لم تُخضَد. يعني لقُرْبها منهم، فهي تأتيهم غَضَّةً لم تذهب طراءَتُها. يقال للعود إذا تثنَّىٰ وهو رطبٌ من غير أن ينكسر: قد انخضد، وقد خضدتُه أنا. وقوله: سَبَخة نشَّاشة: يعني ما يظهـر من ماء السِّباخ فينشُّ فيها حتىٰ يعـودَ ملحاً. وقال ابن الأثير: السَّبَخـة هي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تُنْبـت إلا بعض الشجـر. وقولـه: في مثـل مريء النعامـة: يعنـي مجـرىٰ الطعام والشـراب، وليس بالحُلْقوم، هو غيرُه، أدقُّ منه وأضيق، وإنما هذا مَثَـلٌ ضربه،

يقول: ليس يأتينا شيءٌ إلاَّ ضيِّقاً نَزْراً، علىٰ نحو ما يدخل في مريء النعامة.

وفي قصّة عروة بن مسعود رضي الله عنه، أنه لمّا أسلم وانصرف إلىٰ قومه قدم عشاءً فدخل منزله، فأنكر قومُه دخولَه منزله قبل أن يأتي الرَّبَّة ــ يعنون الصنم. ثم قالوا: السَّفَرُ وخَضْدُه، فجاؤوا منزله فحيَّوْه تحيَّة الشِّرك، فقال: عليكم بتحيَّة أهل الجنة السَّلام، قال أبو سليمان الخطابي في تفسير «السفَر وخَضْدُه» يريد تَعَبَ السَّفَر. وأصل الخَضْد كسرُ الشيء الليّن من غير إبانةٍ له. يقال: خضَدْتُ العودَ: إذا ثنيتَه، فهو خَضيدٌ ومخضود، وانخضد العُود انخضاداً. والخَضَدُ: كلُّ ما قُطِع من العيدان رطباً. قال النابغة الذُّبياني:

يمُــدُّه كــلُّ وادٍ مُتْــرَعٍ لَجِــبٍ فيهِ رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ

واليَنْبُـوت: شجر. ويقال: خضد البعيرُ عُنقَ البعير: إذا تقاتلا فثنىٰ أحدُهما عُنُقَ الآخـر. وقد يكـون الخَضْدُ بمعنىٰ القطـع، ومنـه حديـث الدعـاء: «تقطعُ به دابِرَهـم، وتَخضِـدُ به شوكتهم». ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حَرامُها عند أقوام بمنزلة السِّدْر المخضود، أي: الذي قُطع شوكُه. وفي حديث ظَبْيان: يأكلون حصيدَها ويُرَشِّحون خضِيدَها. الخضيد: المقطوع من شجر الثمر، فعيل بمعنىٰ مفعول، وترشيحهم له: قيامُهم عليه وإصلاحُهم له إلىٰ أن تعود ثمرتُه تَطْلُع، كما يُفعل بشجر الأعناب والنخيل. وفي حديث أمية بن أبي الصلت: بالنِّعَم محفـود، وبالذَّنْب مخضود. يريد به هاهنا أنه منقطع الحُجّة كأنه منكسر. وقوله: «محفود». فالمحفود: هو الذي يَخْدُمه أصحابُه ويعظّمونه ويسرعون في طاعته.

وفي حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، أنه رأىٰ رجلاً يُجيد الأكل، فقال: إنه لَمِخْضَد. المِخْضَدُ: هو الشديد الأكل. يقال: الفرسُ يَخْضِدُ خَضْداً. قال امرؤ القيس:

ويَخْضِدُ في الآريِّ حتّىٰ كأنّما به عُرَّةٌ أو طائفٌ غيرُ مُعْقِبِ

والآريّ: الحبل. والعُرّة، بضم العين، ما يعتريه من الجُنون. ويقال: مسَّه طائفٌ من الشيطـان وطَيفٌ أيضاً، وهو كقولهـم: لَمَـمٌ من الشيطان. وفي حديث مسلمةَ بن مُخَلَّد: أنه قال لعمرو بن العاص: إن ابن عمِّك هذا لمِخْضَد. وكلُّ هذا من الخَضْد، وهو قطع الشيء الرَّطْب، وقيل لأعرابي كان معجباً بالقثاء: ما يُعْجِبُك منه؟ فقال: خَضْدُه.

فائدة: مسلمـة بن مُخَلَّـد. بعضهم يقول: مَخْلَد، بفتح الميم وسكون الخاء وفتح اللام. وليس بشيء، وقد نص علماء الضبط أنه مُخَلَّد، بوزن مُحَمَّد. وقال المجدُ في «القاموس»: كمُعَظَّم.

[خ ض ر]

يقول ربُّنا عزَّ وجل، ذاكراً بعضَ نعمه علىٰ عباده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩] قولـه تعالـىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾. قال الأخفش: أي: أخضر. وقال أبو عبيد الهـرويّ: أي: رزقاً أخضر. يقال: أخضَرُ خَضِرٌ، كما يقال: أعورُ عَوِرٌ. وقوله: ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾، أي: مركَّباً بعضه علىٰ بعض كالسنابل ونحوها.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] أي: ذات خضـرة، كما تقـول: أرضٌ مُبْقلـة ومُسْبعة، أي: ذاتُ بقل وسباع، وهو عبارةٌ عن استعجال الأرض بالنبات إثر نزول الماء، وصيغة الاستقبال في قوله تعالىٰ: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدّد إنزال الماء واستمراره. قال ابن عطية: هذا لا يكون ــ يعني الاخضرارَ ــ في صباح ليلة المطر إلاَّ بمكة وتِهامة. والظاهر أن المرادَ بالاخضرار اخضرارُ الأرض في نفسها،

لا باعتبار النبات فيها، كما في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

قال الراغب الأصبهاني: والخُضرة: أحد الألوان بين البياض والسَّواد، وهو إلىٰ السَّواد أقرب، ولهذا سُمِّي الأسودُ أخضرَ، والأخضرُ أسودَ. وقال ابن فارس: الخُضْـرة من الألوان معروفة. والخضـراء: السمـاء للونهـا، كما سُمِّيت الأرض الغبـراء. وكتيبةٌ خضراء: إذا غلب عليها لُبْسُ الحديـد، وذلك أن كـلَّ ما خالف البياض فهو في حيِّز السَّواد، فلذلك تداخلت هذه الصفات، فيُسمَّىٰ الأسود أخضر، قال الله تعالىٰ في صفة الجنتين ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أي: سوداوان، وهذا من الخضرة، وذلك أن النبات الناعم الريّان يُرىٰ لشدة خُضرته من بُعْدٍ أسود، ولذلك سُمِّي سوادُ العراق لكثرة شجره.

والخُضْر: قومٌ سُمُّوا بذلك لسوادِ ألوانهم، والخُضْرة في شِيات الخيل: الغُبْرة تُخالطها دُهْمة. فأما قوله:

وأنـا الأخضـرُ مـن يعـرفُنـي أخضرُ الجِلدةِ في بيتِ العَرَبْ

فإنه يقول: أنا خالصٌ؛ لأن ألوانَ العرب السُّمْرة. وقال أبو سليمان الخطابيّ: افتَخَر بسواد لونه، لأنه يدلُّ علىٰ صراحة النَّسب وأن لم تَعْرقْ فيه الإماء. ويقال: إنه أراد بخُضرة الجِلْدِ ما هو فيه من الخِصْب وسَعةِ العيش، ومنه قول النابغة:

يصـونـونَ أبـدانـاً قـديمـاً نعيمُهـا بخالصةِ الأردان خُضْرِ المناكبِ

قال الأصمعي: يعني بذلك ما هم فيه من الخِصْب. قال: ومن هذا قولهم: أبادَ الله خضراءهم، أي: خِصْبَهم وسَعَتَهم. فأما قولُ حسان رضي الله عنه:

أو في[1] الذُّؤابةِ من تيْمٍ وإخوتِها أو من بني عامرِ الخُضْرِ الجَلاعيدِ

---

(١) كتبها المؤلف بخط يده رحمه الله: «أوْفَى» كلمةً واحدة، مع فتحة فوق الفاء! ولا تصحّ، =

فيقال: إنه شبَّههم في جُودهم بالبُحور، والبَحْرُ أخضر.

وقال ابن الأنباري: للخُضْرة في كلام العرب معنيان: أحدهما أن يكون مدحاً، والآخر: أن يكون ذمّاً، فإذا كان مدحاً فمعناه كثرةُ الخِصْب وسَعةُ العطاء، من قولهم: أباد الله خضراءهم، أي: خِصْبَهم، وإذا ذُمَّ فقيل: هو أخضر، فمعناه: هو لئيم. والخُضْرة عندهم اللؤم. قال الشاعر:

كسا اللؤمُ تيْماً خُضْرةً في جُلودِها　　فويلٌ لتَيْمٍ من سرابيلِها الخُضْرِ

ويقال: فلانٌ أخضَرُ القفا: يريدون أنه ولدتْه أَمَةٌ سوداء. فإذا قيل: أخضرُ البطن، فإنما يريدون أنه حائلٌ لطول التزاقِه بالخشبة التي يُطوىٰ عليها الثوبُ. فإذا قيل: أخضرُ النواجذ: فإنما يُراد به أنه من أهل القُرىٰ ممّن يُكثر أكلَ البصل والكُرّاث. قال جرير:

كم عمَّةٍ لكَ يا خُلَيْدُ وخالةٍ　　خُضْرٍ نواجذُها من الكُرّاثِ

قلت: وتفسير الأصمعيّ وابن الأنباري لقولهم: «أباد الله خضراءهم» بأن المراد به خِصْبُهم وسَعَةُ عيشهم، خالفهما فيه علماءُ غريب الحديث، كالزمخشري وابن الأثير، فذكرا أن المراد به سوادُهم وجَمْعُهم، وفسَّروا به ما جاء في حديث فتح

= فهي كلمتان لا كلمة واحدة كما هو في الديوان (١: ٣٤٩) وباقتضاءِ العطف لزوماً علىٰ البيت السابق، قال قبلُ:

لو كنتَ من هاشمٍ، أو من بني أسدٍ　　أو عبد شمسٍ، أو أصحابِ اللِّوا الصِّيدِ
أو من بني نوْفَلٍ، أو وُلْدِ مطَّلِبٍ　　للّهِ درُّكَ! لم تَهْمُمْ بتهديدي

وكذلك يمتنع أن تكون الكلمة الأولى منه «أوْفَى» بالرفع على الابتداء؛ لأن البيت الذي بعده لا يصلح خبراً، قال بعده:

يا آلَ تَيْمٍ، ألا يُنْهَىٰ سفيهُكُمُ　　قبْلَ القِذافِ بأمثالِ الجلاميدِ

وأما كون «أوْفَى» مبتدأً خبرُه: «من تيم»، فهو غير جائز أبداً لمن تأمل؛ لأن المقام مقام تَعدادٍ وبالله التوفيق. (الناشر).

مكة: أن أبا سفيان رضي الله عنه قال في ذلك اليوم: يارسولَ الله، قد أبيدت خضراءُ قُريش، لا قريش بعد اليوم. قال الزمخشريُّ: هي جماعتهم وكثرتُهم، سمّيت بذلك من الخُضرة التي بمعنىٰ السَّواد، كما قيل لها: سوادٌ ودهماء، ومثلُها تسميتُهم اللبنَ المخلوطَ بالماء خَضاراً. شبَّهوها في تكاثُفِها وترادُفِها بالليل المظلم، وقد صرَّحوا بذلك فقالوا: أقبلوا كالليل المظلم. وقال:

ونحنُ كالليلِ جاشَ في قَتَمِهْ

ووجدت رواية أخرىٰ عن الأصمعي، وذلك ما ذكره الجوهريُّ في مادة (خضر) من «الصحاح». قال: وقولهم: أباد الله خضراءَهم، أي: سوادَهم ومعظمَهم، وأنكره الأصمعيُّ، وقال: إنما يقال: أبادَ الله غَضْراءهم، أي: خيرهم وغضارتهم. هكذا حكاه عنه بالغين المعجمة «غضراءهم». ثم أعاد ذكره في مادة (غضر).

وجاء في حديث فتح مكة أيضاً: أن النبي ﷺ أمر العباسَ بن عبد المطلب أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي، حيث تمرُّ به الكتائب، فحبسه حتىٰ مرَّ به المسلمون، ومرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء. يقال: كتيبةٌ خضراءُ: إذا غلب عليها لبسُ الحديد. شُبِّه سواد الحديد بالخضرة. والعربُ تُطلق الخُضْرة علىٰ السواد كما تقدم.

وتستعمل الخُضرةُ في معنىٰ النِّعَم الغَضَّة الحسنة الطرّية.

جاء في حديث النبي ﷺ: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، فمن أخذها بحقِّها بورك له فيها». قال الإمام الجليل أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله خَضِرة: يعني غَضَّةً حسنة، وكلُّ شيء غضٍّ طرِيّ فهو خَضِر، وأصله من خُضْرة الشجر، ومنه قيل للرجل إذا مات شاباً غَضّاً: قد اخْتُضِر. قال أبو عبيد: وحدثني بعضُ أهل العلم أن شيخاً كبيراً من العرب كان قد أُولع به شابٌّ من شبّانهم، فكلّما رآه قال: أجْزَزْتَ يا أبا فلان،

يريد: قد آن لك أن تُجزّ ـ يعني الموت ـ فقال له الشيخ: أيْ بُنَيّ، وتُخْتَضَرون! أي: تموتون شُبَّاناً. ومنه قيل: خذ هذا الشيء خَضِراً مَضِراً، فالخَضِر: الغَضُّ الحَسَن، والمَضِرُ: إتباعٌ له.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي أخرجه البخاريُّ وغيرُه من أصحاب السُّنن، قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرجُ الله من نبات الأرض وزهرة الدنيا». فقام رجلٌ فقال: يارسول الله، وهل يأتي الخيرُ بالشرّ؟ فقال رسول الله: «إن الخيرَ لا يأتي إلاّ بالخير، ولكنّ الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإن مما يُنبتُ الربيعُ ما يقتل حَبَطاً أو يُلمّ، إلاّ آكلة الخَضِر، تأكلُ حتىٰ إذا امتدّتْ خاصرتاها استقبلت الشمسَ فَثَلَطت وبالَتْ ثم عادت فأكلت، ثم أفاضت فاجترَّتْ. من أخذ مالاً بحقِّه بُورِك له فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقّه لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع».

هذا الحديثُ الشريف من جوامع كلمه ﷺ، وآيةٌ من آيات فصاحته وبلاغته، ثم هو من قبل ذلك ومن بعده أصلٌ من أصول الزُّهد والعفاف والتقلُّل من الدنيا، وقد تعاقب علىٰ شرحه علماء اللغة والغريب والبيان، كأبي عبيد والأزهري والخطّابي وابن الأثير. وقوله: «حَبَطاً» الحَبَط بالتحريك: الهلاك. يقال: حَبِطت الدابّةُ تَحْبَط حَبَطاً، أي: هَلَكت، وهو أن تأكلَ الدابةُ فتكثِرَ حتىٰ ينتفخَ لذلك بطنُها فتمرضَ. وقوله: «يُلمّ» أي: يقرُب ويدنو من الهلاك. ويقال: ثَلَط البعيرُ يَثْلِط: إذا ألقى رجيعَه سَهلاً رقيقاً. وأراد بزهرة الدنيا حُسنَها وبهجتها.

وقد شرح الإمام أبو سليمان الخطابيُّ هذا الحديث شرحاً وافياً، أتىٰ فيه علىٰ أمثالِه ومعانيه، وتفسيرِ المشكِلِ من ألفاظه. قال رحمه الله: قوله ﷺ: «إن الخيرَ لا يأتي إلا بالخير، ولكن الدنيا حلوةٌ خَضِرة» مَثَل. يريد أن جمعَ المال واكتسابَه غيرُ محرَّم، ولكن الاستكثار منه والخروجَ من حدّ الاقتصادِ فيه ضارّ، كما أن الاستكثار من المأكل مُسْقِمٌ، والاقتصادَ فيه محمود. ونظيرُ هذا من الكلام قولُ الأحنف بن

قيس، وقيل له: الحياءُ خيرٌ كلُّه. فقال: إن منه ضَعْفاً. يريد أن ما خرج من حدِّ الاعتدال لم يكن خيراً، لكنَّ ذلك يستحيل ضعفاً وخَوَراً، كالجُود إذا أفرط صار سَرَفاً، وكالشجاعة إذا أفرطت صارت تهوُّراً، وكالحزم إذا أفرط صار جُبْناً، إلىٰ ما أشبه هذا.

وقوله: «الدنيا حلوةٌ خَضِرة» فإن العرب تسمِّي الشيء المُشرِق خَضِيراً، تشبيهاً له بالنبات الأخضر، ويُقال: إنما سُمِّي الخَضِرُ عليه السلام خَضِراً لحسنِه وإشراق وجهه. ويقال: بل سُمِّي خَضِراً؛ لأنه كان إذا جلس في مكان اخضَرَّ ما حولَه. قلت: يؤكد هذا ما جاء في حديث النبي ﷺ الذي أخرجه البخاريُّ وغيره: «إن الخَضِرَ جلس علىٰ فروةٍ بيضاء، فاهتزت تحته خضراء».

قال الخطابي: يقول عليه السلام: إن الدنيا حسنةُ المنظر مُونقِه، تُعجب الناظرين وتَحْلَىٰ في أعينهم، فيدعوهم حُسنُها إلىٰ الاستكثار منها، فإذا فعلوا ذلك تضرَّروا به، كالماشية إذا استكثرت من المَرْعىٰ حَبِطت ، أي: هلكت. وسمعت الأزهريَّ في هذا الحديث يقول: هما مثَلان. أما قولُه: «وإن ممّا يُنبت الربيعُ ما يقتل حبطاً أو يُلمّ» فهو مَثل المفرط الحريص علىٰ جمع المال، ومنعِه من حقِّه، وذلك أن الربيع يُنبتُ أحرارَ العُشب التي تَحْلَوْليها الماشيةُ فتستكثر منها حتىٰ تنتفخَ بطونُها فتهلِك، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرصُ عليها، ويمنع ذا الحقِّ حقَّه منها، يهلِكُ في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب.

وأما مثلُ المقتصد المحمود فقوله ﷺ: «إلاَّ آكلة الخَضِر، فإنها أكلت، حتىٰ إذا امتلأت خواصرها استقبلت عينَ الشمس فثلطت وبالت، ثم ارْتعَتْ» وذلك أن الخَضِرَ ليس من أحرار البقول التي تستكثِر منها الماشيةُ فتنتهكُه أكلاً، ولكنه من الجَنْبة التي ترعاها بعد هَيْج العُشْب ويُبْسها، وأكثر ما رأيت العرب يقولون: الخَضِرُ لما كان أخضرَ من الحَلِيّ الذي لم يصْفَرّ، والماشيةُ من الإبل ترْتَعُ منه سِنّاً سِنّاً، ولا تستكثر منه، ولا تَحْبَطُ بطونُها عنه، وقد ذكره طَرَفةُ فبيَّن أنه ينبُت في الصيف فقال:

كبنـــاتِ المَخْـــرِ يَمْـــأَدْنَ إذا أنبتَ الصيفُ عساليجَ الخَضِرْ

فالخَضرُ من كلأ الصيف في القيظ، وليس من أحرار بُقولِ الربيع، والنَّعَمُ لا تَسْتوبِلُـه ولا تَحْبَطُ بطونُها عنه. اللهم انفعنـا بهذا الهدي النبويِّ الكريم، وارزقنـا القناعـة والرِّضـا، وَنجِّنا من شهوة الحرص علىٰ الدنيـا والاستكثار منها، واجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً لوجهك وابتغاءَ مرضاتك، بيدك الخير وأنت علىٰ كلِّ شيء قدير.

ومن استعمال مادة (خضر) في معنىٰ النِّعَم الغَضَّة الحسنة الطريّة، ما جاء في الحديث: «من بُورِكَ له في شيء فليلزَمْه» أي: من بورك له في صناعةٍ أو حرفة أو تجارة فليُقبل عليها. حقيقته أن تُجعل حالتُه فيها خضراء، ورُوِي هذا الحديث «من بُورِكَ له في شيءٍ فيلزَمْه». ورُوِي: «من أصاب من رزق فليلزمْه». وتفسير ذلك ما ذكره الحافظ شمسُ الدين السخاوي في «المقاصد الحسنة»، قال: ولابن ماجه، عن نافـع، قال: كنت أُجهِّز إلىٰ الشـام وإلىٰ مصـر، فجهّـزْتُ إلىٰ العراق، فأتيـت أمَّ المؤمنين عائشة، فقلت لها: يا أم المؤمنين، كنت أجهِّزُ إلىٰ الشام وإلىٰ مصر، فجهزتُ إلىٰ العراق، فقالت: لا تفعل، مالك ولمتجرِك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سبَّب اللّهُ لأحدكم رزقاً من وجهٍ فلا يدَعْه حتىٰ يتغيَّر أو يتنكَّر»، ثم ذكر له رواياتٍ أخرىٰ بمعناه. وقد ذكر القاضي العجلوني في «كشف الخفا» أن شيخ الإسـلام ابن تيمية نسب هذا الحديث: «من بورك له في شيء فليلزَمْه» إلىٰ بعض السلف.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: اغزُوا والغزوُ حلوٌ خَضِرٌ قبل أن يكون ثُماماً ثم رُماماً ثم يكون حطاماً. قوله: «والغزو حلوٌ خَضر» أي: طرِيٌّ محبوب. والثُّمام: شجرٌ ضعيف. والرُّمام: الهشيمُ من النَّبت. وحُطام كلِّ شيء: كُسارته. قال الزمخشري: والمعنىٰ: عليكم بالغزو، وهو لعَدلِ وُلاةِ الأمر في قسمةِ الفيء، ولِمَا يُنزلُ الله من النصرِ ويُيسِّرُ من الفتح، كالثمرة في وقت طراوتها

وحلاوتهـا وخُلوِّها من الآفات قبل أن يتدرّج في الوهن إلىٰ أن يُشبهَ حُطام اليبيس ودُقاقهَ.

وفي الحديـث: «تجنبوا من خضرائكم ذواتِ الريـح» يعنـي الثُـومَ والبصلَ والكُرَّاثَ وما أشبهها، وفي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ عن المُخاضرة، وهي بيعُ الثمار خُضْراً لم يَبْدُ صلاحُها. وفي الحديث: أنه ﷺ أُتي بِبَدْرٍ فيه خَضِرات، البَدْر هنا هو الطبق، وسُمِّي بدراً لاستدارته كما يسمىٰ القمرُ حين يستدير بدراً. والخَضِرات: البُقول الغَضَّة. وفي حديث مجاهد: ليس في الخَضْراوات صدقة، يعني الفاكهة والبُقول. والعرب تقول لهذه البقول: الخضراء، ولا تريد لونَها.

وفي الحديث: «إياكم وخضراء الدِّمَن» قيل: وما ذاك يا رسـول الله؟ قال: «المرأةُ الحسناءُ في مَنْبت السُّوء». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: أراه أراد فساد النَّسب إذا خِيف أن تكون لغير رِشْدَة، وهذا مِثل حديثه الآخر: «تخيَّروا لنُطفكم» وإنما جعلها خضراء الدِّمن، تشبيهاً بالشجرة النَّاضرة في دِمْنة البَعْر، وأصل الدِّمَن ما تُدَمِّنُه الإبلُ والغنم من أبعارها وأبوالها ــ أي تُلبِّدُه في مرابضها ــ فربّما نبت فيها النباتُ الحسن وأصله في دِمْنة. يقول: فمنظرُها حسنٌ أنيق ومَنْبَتُها فاسد. قال زُفر بن الحارث الكلابي:

فقد يُنْبِتُ المَرْعَىٰ علىٰ دِمَن الثَّرىٰ   وتبقىٰ حزازاتُ النفوسِ كما هيا

ضربه مثلاً للرجل يُظهر مودَّته وقلبُه يَغُلُّ بالعداوة. وهذا الحديث ذكره الحافظُ السخاويّ في «المقاصد الحسنة»، وذكر عن ابن عَديّ أنه مما تفرَّد به الواقديُّ، ثم حكىٰ عن الدارقطنيّ قوله: لا يصحُّ من وجه.

وقد وردت أحاديثُ في الحثّ علىٰ اختيار الزوجة الصالحة ذات الدِّين، منها حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تُنكحُ المرأةُ لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفَرْ بذات الدين تربت يداك» قال الحافظُ ابن حجر في

«الفتـح»: والمعنىٰ أن اللائقَ بذي الدين والمروءة أن يكون الدينُ مطْمَحَ نظرِه في كلِّ شـيء، لا سيّمـا فيما تطولُ صُحبتُه، فأمره النبي ﷺ بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غايـةُ البُغيـة، وقد وقـع في حديـث عبد الله بن عمـرو، عنـد ابن ماجه، رفعه: «لا تزوَّجوا النساءَ لحسنهنّ، فعسىٰ حسنُهُنَّ أن يُرْديَهنّ، أي: يُهْلِكَهن، ولا تزوَّجـوهنَّ لأموالهنَّ ، فعسىٰ أموالهنّ أن تُطغيَهُـنّ ولكن تزوَّجُوهنّ علىٰ الدين، ولأمةٌ سوداءُ ذات دين أفضل». قال القرطبي: معنىٰ الحديث أن هذه الخصال الأربع هي التـي يُرغَبُ في نكاح المرأة لأجلها، فهو خبرٌ عما في الوجود من ذلك، لا أنه وقع الأمـرُ بذلك، بل ظاهرُه إباحـة النكـاح لقصد كلٍّ من ذلك، لكن قصدُ الدين أولىٰ.

ومن رُباعيّ مادة (خضر) الخَضْرَمة. جاء في الحديث: أن النبي ﷺ خطب الناس يوم النحر بمنًى وهو علىٰ ناقة مُخَضْرمة. الناقة المخضْرَمة: هي التي قُطع شيء يسيـرٌ من طرف أذنهـا، وكان أهـل الجاهليّـة يُخضرمون نَعَمَهـم، فلمـا جاء الإسـلام أمرهم النبيُّ ﷺ أن يُخضرِمـوا في غيـر الموضـع الـذي يُخضرِم فيه أهـل الجاهلية. وأصـل الخضرمة أن يُجعلَ الشيءُ بينَ بين، فإذَا قُطع بعضُ الأذن فهي بين الوافـرة والناقصـة. وقيـل: هي المنتوجة بين النجائب والعكاظيـات، ويُقال للحم الذي لا يُدْرىٰ أمِن ذكرٍ هو أم من أنثىٰ: مُخَضْرَم، ومنه قيل لكلِّ من أدرك الجاهلية والإسلام من الشعراء: مُخَضْرم، كلَبيد وغيره. وفي الحديث: «أن قوماً بُيِّتُوا ليلاً وسيقَـتْ نعَمُهـم، فادَّعَوا أنهم مسلمون وأنهم خَضْرَمُوا خَضرمة الإسلام» أي: قطعوا آذان نَعَمهم في غيـر الموضـع الـذي كان يقطع منه أهل الجاهلية كما سبق.

[خ ض ع]

يقول ربُّنا عز وجل، مسليّاً نبيه عليه السلام عما لقيه من تكذيب الكافرين وعدم إيمانهم، وأنه عز وجل قادرٌ علىٰ أن يُنزِل عليهم ما يَحملُهم علىٰ الإيمان، فيقول عز من قائل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣ ـ ٤] باخعٌ نفسك، أي: مهلكٌ نفسَك حُزناً علىٰ عدم إيمانهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] أي: لو نشاء لأنزلنا آيةً تضطرهم إلىٰ الإيمان قهراً. ولكنا لا نفعل ذلك، لأنا لا نريد من أحدٍ إلاّ الإيمان الاختياري، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ [هود: ١١٨] وقوله: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]. أي: منقادين.

وهذه المادة (خضع) تدل علىٰ معنىٰ التطامن والانقياد، ويقال: خضع خضوعاً، وهو الذلُّ والاستخذاء، واختضع فلانٌ، أي: تذلَّل وتقاصر، ورجلٌ أخضَعُ وامرأةٌ خَضعاء وهما الراضيان بالذلّ.

قال العجاج:

وصرتُ عبداً للبَعوضِ أخضَعا ... يَمَصُّني مصَّ الصبيِّ المُرْضِعا

وقال أبو عمرٍو الشيباني: الخَضَعُ: انكبابٌ في العُنُق إلىٰ الصدر. يقال: رجلٌ أخضَعُ وعُنُقٌ خضعاء، قال زهير:

وركاءُ مدبرةً كبداءُ مقبلةً ... قَوْداءُ فيها إذا استعرضْتَها خَضَعُ

ويقال: خضع النجمُ: إذا مال للمغيب. قال امرؤ القيس:

بعثتُ إليها والنجومُ خَواضعٌ ... بليلٍ حذاراً أن تَهُبَّ وتُسْمَعا

وقال ابن دريد: خضع الرجلُ وأخضع: إذا ألان كلامه.

ويقول سبحانه وتعالىٰ مخاطباً أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، يأمُرهن بالتصوُّن والبُعد عن مواطن الرِّيبة، ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. قال الحافظ ابن كثير: هذه آدابٌ أَمَرَ اللّهُ تعالىٰ بها نساءَ النبي ﷺ، ونساءُ الأمةِ تَبَعٌ لهنّ في ذلك. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ أي: لا تَلِنَّ في القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المُريباتُ من النساء، فإنه يتسبَّب عن ذلك مفسدةٌ عظيمة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ أي: فجورٌ وشكٌّ ونفاق. وسوءُ الظن سريعٌ إلىٰ النفوس المريضة التي اعتادت فعلَ السوء ومَرَدَتْ عليه.

قال أبو الطيب المتنبي:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ ... وصدَّق ما يعتادُهُ من توهُّمِ

وقال ابنُ الأعرابي: النساءُ الخُضَّع: اللواتي خَضَعْن بالقول. وفي الحديث: أنه ﷺ نَهىٰ أن يَخْضَعَ الرجلُ لغير امرأته. قال ابن الأثير: أي: يلين لها في القول بما يُطمِعُها منه. والخضوع: الانقياد والمطاوعة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾.

وهذا الفعل «خضع» يكون لازماً ومتعدياً، يقال: خضعتُ فلاناً فخَضَع هو. وقوله في الحديث السابق: نهىٰ أن يخضع الرجلُ، هو الفعل اللازم. ومثال استعماله متعدياً ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً مرَّ في زمانه برجلٍ وامرأةٍ وقد خضعا بينهما حديثاً، فضربه حتىٰ شجَّه، فرُفع ذلك إلىٰ عمر رضي الله عنه فأهدره. خضعا بينهما حديثاً، أي: ليَّنا بينهما الحديثَ وتكلَّما بما يُطمِع كلاًّ منهما في الآخر. ومن استعمال الفعل: «خضع» متعدّياً قولُ جرير:

أعدَّ اللهُ للشعراءِ منِّي ... صواعقَ يَخْضَعون لها الرِّقابا

ويقال: خاضع الرجل المرأةَ وهي تُخاضعُه: إذا خَضَع لها بكلامه وخَضَعتْ له، فيطمعُ فيها. وقال ابنُ الأعرابي: العرب تقول: اللهم إني أعوذُ بك من الخنُوع والخضوع. فالخانعُ: الذي يدعو إلىٰ السوأة، والخاضعُ نحوه.

وجاء في حديث استراق السمع: «خُضْعاناً لقوله». قال ابن الأثير: الخُضعان: مصدر خَضَع يخضَعُ خُضوعاً وخُضعاناً كالغُفْران والكُفْران. ويروىٰ «خِضْعاناً» بالكسر، كالوجدان، ويجوز أن يكون «خُضْعاناً» جمع خاضع. وجاء في رواية «خُضّعاً لقوله» جمع خاضع.

وفي صفة الزبير بن العوام، عن عروة ابنه رضي الله عنهما، قال: كان الزبيرُ طويلاً أزرق، أخْضَعَ أشعر، ربّما أخذتُ وأنا غلامٌ بشَعر كتفيه حتىٰ أقوم، تَخُطُّ رجلاه إذا ركب الدابّة، نُفُجَ الحقيبة. قوله: «كان أخضع» أي: فيه انحناء، وبعضُ الطُّول يُرىٰ في صاحبه انحناء. والأشعر: كثيرُ الشَّعَر، وقيل: طويلُه. وقوله: «تخُطّ رجلاه إذا ركب الدابة» هذا كناية عن فرط طوله. وقوله: «نُفُجَ الحقيبة» النُّفُجُ بمعنىٰ المنتفج، وهو الرابي المرتفع. والحقيبة: العجُز، وهي كلُّ ما يجعله الراكبُ وراء رحله، فاستُعيرت للعَجُز. والنُّفُج بضم النون والفاء من الصفات التي جاءت علىٰ وزن فُعُل، ومثلها: السُّرُح، وهو السَّريع، والسُّجُحُ، وهو الليّنُ السَّهْل. يقال: فَرَسٌ سُرُح، وسيرٌ سُجُح.

[خ ط أ]

يقول ربنا عز وجل، في قصة يوسف عليه السلام وإخوته، حين علموا جريمتهم التي اقترفوها في حقه وحق أخيه، فيقول عز من قائلٍ علىٰ لسانهم: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]. قال ابن

عرفة نفطويه: يقال: خَطِىء في دينه خِطْأً: إذا أثِمَ فيه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. يقال منـه: خَطِـىءَ يَخْطَـأ خِطْأً وخَطْأَة، والاسم منه: الخطيئة. وهذا هو الخطأ التامُّ الذي يؤاخَذُ به الإنسان ويُعاقب عليه كما قال الراغـب الأصبهـاني. وقال أبو عبيد الهـرويّ: سمعتُ الأزهـريّ يقول: الخطيئةُ والخِطْء: الإثم، يقال: خَطِىءَ إذا تعمَّد، وأخطأ إذا لم يتعمَّد. ويقال لمن أراد شيئاً ففعل غيره: أخطأ، ولمن فعل غير الصواب: أخطأ. قال الراغب الأصبهاني: وهذا المَعْنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «رُفع عن أمتي الخطأُ والنسيان» وبقوله: «من اجتهد فأخطأ فله أجر» قلت: وهذا أيضاً هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩] الخاطئة، أي: الخطـأ العظيم، وهو مصدرُ جاءَ علىٰ فاعلِـه، وقيـل: بالخاطئـة، أي: بالفعْلـة الخاطئة، والمراد أنها جاءت بالشِّرْك والمعاصي. وروي عن أبي عبيدة: أنَّ خَطِىء وأخطأ لغتان بمعنًى واحد، وأنشد لامرىء القيس:

يا لَهْفَ هندٍ إذ خَطِئْنَ كاهلاً

قال: أي: أخطـأن. وفي حديـث الدجَّـال: أنـه تلِـدُه أُمُّـه فيحمِلْـنَ النِّساءُ بالخَطّائين. يقال: رجلٌ خطاء: إذا كان ملازماً للخطايا غير تارك لها، وهو من أبنية المبالغة. ومعنىٰ: «يحملْن بالخطّائين» أي: بالكفرة والعُصاة الذين يكونـون تبعاً للدجـال. وقوله: «فيحملن النسـاءُ» ألحَـق بالفعـل علامة الجمع مع إسنـاده إلىٰ الظاهر، علىٰ لغة بني الحارث بن كعب، يقولون: قاما الزيدان وقاموا الزيدون، وقُمْن الهندات.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سُئل عن رجلٍ جعل أمرَ امرأته بيدها. فقالـت: أنتَ طالقٌ ثلاثاً. فقال ابن عبـاس: خطّـأ الله نَوْءَها، ألا طلَّقتْ

نَفَسها! والنَّوْء: سقوطُ النجم في المغرب مع الفجر، وطلوعُ آخرَ يقابله من ساعته في المشرق. وكانت العرب تزعُم أن مع هذا السقوط والطلوع يكون المطر، وقد أبطل الإسلام ذلك، فقد جاء في الحديث: «ثلاثٌ من أمر الجاهلية: الطعنُ في الأنساب، والنياحة، والأنواء» وأن المطر إنما ينزل بأمر الله ومشيئته. ويقال لمن طلب حاجة فلم ينجح: أخطأ نوؤك، وأراد ابن عباس بقوله: «خطَّأ الله نوءَها» أي: جعل الله نوءَها مخطئاً لها لا يصيبُها مطرُه. ومعنىٰ قول ابن عباس أن هذه المرأة لو طلَّقَتْ نفسَها لوقَعَ الطلاق، فحيث طلّقَتْ زوجَها لم يقع الطلاق، فكانت كمن يخطئه النوءُ فلا يُمْطر. ويروىٰ: «خَطَّ الله نوءَها» من الخَطيطة، وهي الأرضُ التي لا تمطر بين أرضين ممطورتين. قال ابن الأثير: ويجوز أن يكون من خطَّىٰ الله عنك السوء، أي: جعله يتخطّاك، يريد: يتعدَّاها فلا يُمطرها، ويكون من باب المعتلّ باللام.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنهم نصبوا دجاجةً يترامَوْنَها، وقد جعلوا لصاحبها كلَّ خاطئةٍ من نَبْلهم، أي: كلَّ واحدة لا تصيبُها. والخاطئةُ هنا: بمعنىٰ المخطئة.

[خ ط ب]

يقول عز من قائل، في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] ما خَطْبُكُنّ، أي: ما أمرُكُنّ؟ يقال: جلَّ الخَطْبُ، أي: الأمرُ الذي تقعُ فيه المخاطَبَة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ [طه: ٩٥] أي: ما أمرُكَ الذي تُخاطِب به؟ ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل، علىٰ لسان

موسىٰ عليه السلام يخاطب ابنتيْ شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣] أي: ما أمرُكما وما تَخْطُبان، أي: ما تُريدان بذَوْدِكما غنمَكما عن الماء. قال ابن فارس: والخَطْبُ: الأمرُ يقع؛ وإنما سُمِّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة.

ويقول تعالىٰ في شأن عبده ونبيّه داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]. المرادُ بالحكمة النبوةُ والمعرفة بكلِّ ما يُحْكم به. والمراد بفصل الخطاب: الفصلُ في القضاء وهو ما ينفصلُ به الأمرُ من الخطاب، وقيل: هو الإيجاز، يجعل المعنىٰ الكثير في اللفظ القليل.

وقال تعالىٰ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. الخِطْبة بكسر الخاء: طلب الرجلِ المرأةَ، وهذا في النكاح. والخُطبة بضم الخاء: خُطبةُ المِنْبَر. وأصل الخِطبة: الهيئة والحال التي عليها الإنسان إذا خطب، نحو الجِلسة والقِعدة. وفي الحديث: نَهَىٰ أن يَخْطُبَ الرجلُ علىٰ خِطبة أخيه: هو أن يخطُبَ الرجلُ المرأة فتركنَ إليه، ويتفقا علىٰ صَداق معلوم ويتراضيا، ولم يبقَ إلاَّ العقد، فأما إذا لم يتفقا ويتراضيا، ولم يركَنْ أحدهما إلىٰ الآخر، فلا يُمنعُ من خِطبتها، وهو خارجٌ عن النهي.

تقول منه: خطَب يخطُبُ خِطبة، بالكسر، فهو خاطب. فأما الخُطْبة بالضمّ فهي من القول والكلام. ويقال منها: خاطبٌ وخطيب. وفي حديث الحجاج: أنه سأل النعمان بن زُرعة ــ فيما سأله ــ: «أمن أهل المحاشِد والمَخاطب»؟ المَحاشد: مواضع الحشد. والمَخاطب: الخُطب، جمعٌ علىٰ غير قياس كالمَشابه والمَلامح. وقيل: المخاطب: جمع مَخْطبة، وهي بمعنىٰ الخُطبة. وأراد الحجاج: أأنت من الذين يحشدون الجموع للخروج، ومن الذين يخطبون الناس ويحثُّونهم علىٰ الخروج والاجتماع للفتن؟

[خ ط ف]

يقول ربنا عزّ وجل في شأن المنافقين، وما ضربه من مَثَل لشكِّهم وتردُّدهم وحيرتهم: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠] أي: يلتمعُها يذهبُ بها. والخطفُ: أخذ الشيء بسرعةٍ واستِلابٍ. يقال: خَطِفَ الشيءَ يَخْطَفه، وخَطَفه يَخْطِفه، وهذا قليل. وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ١٠] أي: إلاَّ من اختطف من الشياطين الخَطْفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلىٰ الذي تحته، ويلقيها الآخر إلىٰ الذي تحته، فربّما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالىٰ قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقَه فيذهبُ بها الآخر إلىٰ الكاهن.

وأخرج ابن جرير بسنده إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان للشياطين مقاعدُ في السماء. قال: فكانوا يستمعون الوحي. قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرْمَىٰ. قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلىٰ الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً. قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مَقْعَدَه جاءه شهابٌ فلم يُخطِئْه حتىٰ يحرقه. قال: فشكَوْا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلاَّ من أمرٍ حدثَ، قال: فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلِّي بين جَبَلَيْ نخلة. قال وكيعٌ أحدُ رواة الحديث: يعني بطن نخلة. قال: فرجعوا إلىٰ إبليس فأخبروه فقال: هذا الذي حدث. وهذا ما حكاه عنهم عز وجل في قوله: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠] فمعنىٰ: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ [الصافات: ١٠] أي: استرق السمع بسرعة.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ تخطفه الطير، أي: تستلبه استلاباً سريعاً فتقطعه في الهواء.

وقوله: ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مُهلك لمن هوىٰ فيه. وقوله: ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ سقط إلىٰ الأرض، أي: انحط من رفيع الإيمان إلىٰ حضيض الكفر. وهذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للمشرك في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧] أي: قال مشركو قريش ومن تابعهم: إن ندخلْ في دينك يا محمد يتخطَّفْنا الأعداء من أرضنا ــ يعنون مكة ــ ولا طاقة لنا بهم. وقد ردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]. وهذا كقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ومن الخطف الذي هو استلابُ الشيء وأخذُه بسرعة فُسِّر قوله ﷺ: «لينْتَهينَّ أقوام عن رفع أبصارهم إلىٰ السماء في الصلاة أو لتُخْطَفَنَّ أبصارُهم»، قال القاضي عياض: رفع البصر إلىٰ السماء في الصلاة فيه نوعُ إعراض عن القبلة وخروجٌ عن هيئة الصلاة. وروي عن محمد بن سيرين قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ــ ٢] خفضوا أبصارهم إلىٰ موضع سجودهم. وقال ابن سيرين أيضاً: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصرَه مُصَلاَّه فإن كان قد اعتاد النظر فليُغْمض.

وجاء في حديث أُحُد: «إن رأيتمونا تَختطِفُنا الطير فلا تبرحوا» أي: تستلبنا وتطيرُ بنا، وهو مبالغة في الهلاك، وفي حديث الذبائح: نهىٰ ﷺ عن المُجثَّمة والخَطْفة. المجثَّمة: هي كلُّ حيوان يُنصب ويُرمىٰ ليقْتل، إلاّ أنها تكثر في الطير والأرانب وأشباه ذلك مما يَجْثِم في الأرض، وجُثُوم الطير بمنزلة بُروك الإبل. والمراد بالخَطْفة: ما اختطف الذئبُ من أعضاء الشاة وهي حية، وكذلك ما يقتطعه الإنسانُ من أعضاء البهيمة الحيّة؛ لأن كلَّ ما أُبين من حيٍّ فهو ميِّت، ولا يحلُّ أكلُ الميتة. وأصل هذا النهي أن النبيَّ ﷺ لمّا قدم المدينة رأىٰ الناس يَجُبُّون أسنمةَ الإبل

وأَلَيَـاتِ الغنمِ حيّة ويأكلونها. والخطْفةُ: المرّةُ الواحدة من الخَطْف، فسُمِّي بها العضو المختطَف.

وفي حديث الرضاعة: «لا تُحرِّمُ الخطفةُ والخَطْفتان» أي: الرضعة القليلة، يأخذها الصبيّ من الثدي بسُرعة، ورُوي «لا تحرِّم الرضعةُ والرضْعتانِ، والمَصَّةُ والمَصَّتـان» و « لا تحرّمُ الإملاجةُ ولا الإملاجتـان». وكلهـا ألفاظ تدلُّ علىٰ قلّة الرضاع التي لا يثبت بها تحريم.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نَفَقَتُكَ رياءً وسُمْعةً، للخطّاف. الخَطّاف، بالفتح والتشديد: الشيطان؛ لأنه يَخْطَفُ السمع، وقيل: هو بضم الخاء «الخُطّافُ» علىٰ أنه جمع خاطف، أو تشبيهاً بالخُطّاف، وهو الحديدة المُعْوجَّة مثل الكَلُّوب، يُخْتطف بها الشيء، ويُجمع علىٰ خطاطيف، ومنه حديث القيامة: «فيها خَطاطيفُ وكلاليب» والخُطَّافُ أيضاً: طائر معروف. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: لأَنْ أكونَ نفَضْتُ يديَّ من قبور بنيَّ أحبُّ إليَّ من أن يقع مني بَيْضُ الخُطّاف فينكسر، قال ذلك رضي الله عنه شفقة ورحمة.

وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه، قال سُؤيدُ بن غَفَلة: دخلت عليه يوم الخُروج ــ وهو يوم العيد ــ فإذا بين يديه كذا وكذا، وصَحْفَةٌ فيها خَطيفةٌ ومِلْبَنة. الخطيفة: لبنٌ يُطْبخُ بدقيق ويُختطفُ بالملاعق بسُرْعة. وفي حديث أنس رضي الله عنه، قال: كان عند أمِّ سُليم شعيرٌ، فجشَّتْه وجعلتْه خطيفة للنبي ﷺ، وأرسلتْني أدْعوه.

[خ ف ت]

يقول ربنا عز وجل مخبراً عن أهل الكفر عند قيامهم من قبورهم إلىٰ الحشر والحساب: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۞ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه: ١٠٢ ــ ١٠٣] قوله: ﴿ زُرْقًا ﴾ أي: زُرقَ العيون من شدّة ما هم فيه من

الأهـوال، والعرب تتشاءم بزُرقة العيـن، وقوله: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي: يُسرُّ بعضهم إلىٰ بعض: ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ أي: ما لبثم في الدنيا إلاَّ عشر ليال، وقيل: في القبور، وقيل: بين النفختين، والمعنىٰ أنهم يستقصرون مدة مُقامهم في الدنيا أو في القبـور، أو بين النفختين لشـدة ما يـرون من أهوال يوم القيـامة. والمخـافتـة والتخافت: الإسرار والكتمان، وأصل الخُفُوت: السُّكون، ومنه يقال للميت: قد خفـت، أي: سكن، ومنه قوله تعالىٰ في قصـة أصحـاب البستان الذين أرادوا أن يقطعـوا الثمر ليلاً حتىٰ يحرموا المساكين من خيره، فيقـول تعالىٰ: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ [القلم:٢٣]. أي: ذهبوا إلىٰ بستانهم وهم يُسرّون الكلام بينهم لئلاَّ يعلم أحـدٌ بهم فيطلب منهم أن يعطوه من ثمار هذا البستان ما كان يعطيه أبوهم، فكان عاقبة هذا الفعل أن أرسل الله علىٰ هذه الجنَّة ناراً أحرقتها وأتت علىٰ ثمارها فصارت كالليل الأسود، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [القلم:١٩-٢٠] وهو الليل المظلم.

وقال عز وجل مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ١١٠]. يقال: خفت صوتُه خفوتاً: إذا انقطع كلامه وضعف وسكن، والمعنـىٰ: لا تخافتْ مخافتَـةً لا يسمَعُهـا من يصلـي خلفك، وتقدير: ولا تجهر بصلاتك، أي: لا تجهر بقراءة صلاتك، علىٰ حـذف المضاف، للعلم بأن الجهر والمخافتة من صفات الصوت، لا من صفات أفعال الصلاة. فهو من إطلاق الكلِّ وإرادة الجزء.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متـوارٍ بمكـة: ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ قال: كان إذا صلَّىٰ بأصحابه رفع صوتـه بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبُّـوا القـرآن وسبُّوا من أنزله ومن جاء به، قـال: فقال الله تعالىٰ لنبيـه ﷺ : ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي: بقراءتـك فيسمـعَ المشركـون فيسبُّوا القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعَهم القرآن حتىٰ

يأخذوه عنك.

وأخرج ابن جرير بسنده إلىٰ محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلىٰ فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنَعُ هذا؟ قال: أُناجي ربي عزّ وجلّ وقد علم حاجتي. فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لِمَ تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وروي عن عائشة رضي الله عنها أن هذا الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ نزلت في الدعاء. وروي عنها أيضاً قالت: ربما خَفَت النبي ﷺ بقراءته وربما جهر.

ومن غريب مادة (**خفت**) ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: مَثَلُ المؤمن كمَثَل خافت الزرع، يميل مرةً ويعتدل أخرىٰ. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: «الخافت» يعني الذي قد لان ومات، ولهذا قيل للميّت: قد خَفَت، إذا انقطع كلامه وسكت. وقال الشاعر:

حتىٰ إذا خَفَت الدعاء وصُرِّعَتْ   قتلىٰ لمُنْجَدِعٍ من الغُلاّنِ

وهذا مِثْل حديثه ﷺ: «مَثَل المؤمن مَثَل الخامة من الزرع تُميِّلُها الريح مرَّةً هكذا ومرَّةً هكذا». والخامة من الزرع: الغَضَّةُ الرَّطبةُ. قال الطرماح:

إنما نحنُ مثلُ خامةِ زرعٍ   فمتىٰ يأْنِ يأتِ مُحْتصِدُهْ

قال أبو عبيد: والمراد من الحديث أن المؤمن مُرَزَّءٌ تصيبُه المصائب في نفسه وماله وأهله، وليس كما جاء الحديث في الكافر: «مَثَلُه كالأَرْزَةِ المجذية علىٰ الأرض حتىٰ يكون انجعافُها مرَّة» والأرزة شجرة الصَّنَوْبر، وهي ثابتة في الأرض ثباتاً، وهو معنىٰ «المجذية»، فمثل الكافر في عدم إصابته بالبلايا والرزايا في الدنيا مَثَلُ هذه الشجرة الثابتة التي لا تُميِّلُها الرياح، والكافر لا يُرْزَأُ في حياته شيئاً حتىٰ

يموت، فإن رُزِىءَ بشيء لا يُؤْجَرُ عليه، فشبَّه موته بانجعاف تلك الشجرة حتىٰ يلقى الله بذنوبه جَمَّة.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أنها نظرت إلىٰ رجل كاد يموت تخافُتًا، فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القراء. والتخافت: هو تكلُّف الخفوت، وهو الضعف والسكون، وإظهارُه من غير صحة. ومنه حديث صلاة الجنازة: أنه ﷺ كان يقرأ في الركعة الأولىٰ بفاتحة الكتاب مخافتةً المخافتة: مفاعلة من الخفوت، وفي حديث معاوية رضي الله عنه: أن عمرو بن مسعود دخل عليه وقد أسنَّ وطال عمرُه، قال له معاوية: كيف أنت وكيف حالك؟ فقال: ما تسأل يا أمير المؤمنين عمَّن ذبَلَتْ بشَرَتُه وقُطعت ثمرتُه... ثم وصف ضعفه وعجزه إلىٰ أن قال: فنومُه سبات وليلُه هُبات، وسمْعُه خُفاتٌ، وفهمُه تارات. نومه سبات: أي: سريع الانقطاع، من السَّبْت وهو القطع. وليله هُبات: من الهَبْت، وهو اللين والاسترخاء. يريد أن نومه بالليل إنما هو بقدر أن تسترخي أعضاؤه من غير أن يستغرق نوماً. وسمعه خُفات: يريد أنه لا يُدرك الصوت إلاَّ كهيئة السِّرار، والخفوت: خفض الصوت. كما سبق.

[خ ف ض]

تدل مادة (خفض) في اللغة علىٰ معنيين: الأول ضدُّ الرفع، والثاني: الدَّعَةُ والسَّيرُ الليّن. قال تعالىٰ في صفة القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣] أي: ترفع أقواماً إلىٰ الجنة، وتخفض آخرين إلىٰ النار. وقيل: خفضَتِ الصوتَ فأسمعَتْ من دنا، ورفَعتِ الصوت فأسمعَتْ من نأىٰ، أي: أسمعت القريب والبعيد. وقيل: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفضَ والرفع في المكان والمكانة والعزّ والإهانة.

وقال تعالىٰ مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أي: ليكن جانبك لهم ليّناً. والجناح: الجَنْب. يقال: خفض جناحه: إذا ألانه، والمعنىٰ: أَلِنْ جناحك وتواضعْ لمن اتَّبعك من المؤمنين، وأظهرْ لهم المحبة والكرامة، وتجاوزْ عنهم.

وقال تعالىٰ في الأمر ببرّ الوالدين: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤]. قد أكثر أهلُ التفسير والبيان الكلامَ في معنىٰ خفض الجناح في هذه الآية الكريمة، ومن أحسن ما قيل فيه ما حُكي عن الإمام القفَّال، فإنه ذكر في معنىٰ خفض الجناح وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضمَّ فراخِه إليه للتربية خفض لهم جناحَه، فلهذا صار خفضُ الجناح كنايةً عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد: اكفُلْ والديك، بأن تضمهما إلىٰ نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك، والوجه الثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحَه، وإذا أراد النزول خفض جناحه، فصار خفض الجناح كنايةً عن التواضع وترك الارتفاع. أما إضافة الجناح إلىٰ الذلّ في قوله تعالىٰ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فللبلاغيين فيه كلامٌ عالٍ نفيس، خلاصتُه وجهان: الأول: أن الإضافة هنا كإضافة حاتم إلىٰ الجُود، في قولهم: حاتم الجُود، فالأصلُ فيه: الجناحُ الذليل. والوجه الثاني: سلوك سبيل الاستعارة، كأنه تخيّل للذُلّ جناحاً، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً.

وقد جاء في برِّ الوالدين، والإحسان إليهما في حياتهما وبعد مماتهما أحاديث كثيرة، منها ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أقبل رجلٌ إلىٰ نبيّ الله ﷺ، فقال: أبايعُك علىٰ الهجرة والجهاد، أبتغي الأجرَ من الله تعالىٰ. فقال: «فهل من والديك أحدٌ حيّ؟» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالىٰ؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلىٰ والديك فأحسن صحبتهما». وفي رواية: «جاء رجلٌ فاستأذنه في الجهاد. فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم قال: «ففيهما فجاهِدْ». وروىٰ الإمام أحمد بسنده إلىٰ أبي مالك القُشيريّ، قال: قال النبيّ

ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه». ورُوي عن مالك بن ربيعة الساعديّ، قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من الأنصار، فقال: يا رسول الله، هل بقي عليّ من برّ أبويَّ شيءٌ بعد موتهما أبَرُّهما به؟ قال: «نعم، خصالٌ أربع: الصلاة عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما، وإكرامُ صديقهما وصلة الرَّحم التي لا رَحِمَ لك إلاَّ من قِبَلهما. فهو الذي بقي عليك من برِّهما بعد موتهما». وروىٰ البزَّارُ في «مسنده»، عن سليمان بن بُرَيْدة، عن أبيه: أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمَّه يطوف بها، فسأل النبيَّ ﷺ: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بزَفْرةٍ واحدة».

جاء في أسماء الله تعالىٰ: «الخافض» وهو الذي يخفض الجَبّارين والفراعنة، أي: يضَعُهم ويُهينُهم، ويخفضُ كلَّ شيءٍ يريد خفْضَه. ومنه الحديث: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفضُ القسط ويرفَعُه» قال الإمام الخطابيّ: قوله: «يخفض القسط ويرفعه». يريد بالقسط ــ والله أعلم ــ الرزق الذي هو قسْطُ كلِّ أحد، وقَسْمُه من قوته ومعاشِه. فالخفضُ: تقتيرُه وتضييقه، والرَّفعُ بسطه وتوسعتُه، يريد أنه مقدِّرُ الرزق وقاسمُه، علىٰ الحكمة فيه والمصلحة في مقداره. وفيه وجهٌ آخر، وهو أن يكون أراد بالقسط الميزان. قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وسُمِّي الميزان قسطاً، لأن القسطَ العدلُ، وبالميزان يقع العدل في القسمة، فلذلك سمّي الميزان قسطاً، وإنما هذا مَثَلٌ فيما يدبِّرُه من أمر الخلق ويُنشئُه من حُكمه، ويُمضيه من مشيئته فيهم، يرفع قوماً ويضع آخرين، وهو الخافضُ الرافع العدلُ الحكيم، تبارك الله ربُّ العالمين.

وجاء في حديث الدجَّال: «فرفَّع فيه وخَفَّض» أي: عظَّم فتنته ورفَع قدْرَها، ثم وهَّن أمرَه وقدْرَه وهوَّنه. وقيل: أراد أنه رفع صوته وخفضه في اقتصاص أمره. وفي حديث وفد تميم: فلما دخلوا المدينة بهشَ إليهمُ النساءُ والصبيان يبكون في وجوههم فأخفَضَهم ذلك. أي: وضع منهم وكسر نفوسهم. قال أبو موسىٰ

المدينـي: أظنُّ الصواب بالحاء المهملـة والظـاء المعجمـة ــ أي أحفَظَهُم، يعني أغضَبَهم. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه، قال لعائشة رضي الله عنها، في شأن الإفك: خفِّضي عليك، أي: هوِّني الأمرَ عليك ولا تحزني له، من الخفض، الذي هو الدَّعَـةُ والسكون. وفي الحديـث: أن النبي ﷺ قال لأم عطيّـة: «إذا خفضـت فأشمِّي ولا تنهكي فإنه أسْرَىٰ للوجه وأحظىٰ عند الزوج» الخفضُ للنساء كالختان للرجال. وقوله: «أشمِّي» أي: اقطعي قطْعاً يسيراً، شبهه بإشمام الرائحة. والنهك: المبالغةُ فيه.

[خ ف ف]

يقـول ربنا عز وجل، آمراً رسولـه الكريـم بالصبر والثبات، لأن الله قد وعده بالنصر علىٰ الكفار، وإظهار دعوته وإعلاء كلمته؛ فيقول عز من قائل: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]. قوله: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أي: لا يحملنَّك علىٰ الخفَّة، ويستفِزَّنَّك عن دينك وما أنت عليه من الحق.

وهذه المادة (خفف) تدلُّ علىٰ ما يخالف الثِّقَلَ والرزانة. يقال: خفَّ الشيءُ يخِفُّ خِفَّةً. وهو خفيفٌ وخُفاف. ويقال: استخفَّه: إذا حمله علىٰ الخفَّة والجهل. ومنه قوله عز وجل في شأن فرعون واستغوائه لقومه: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] أي: حملهم علىٰ خفَّة الجهل والسَّفَه بقوله وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله وكذبوا نبيَّ الله موسىٰ عليه السلام. وقال ابن الأعرابي: المعنىٰ: فاستجهل قومه فأطاعوه بخفَّة أحلامهم وقلة عقولهم، ويقال: استخفَّه الفرح، أي: أزعجه وأزاله عن الحِلْم والاعتدال إلىٰ الطيش والخِفَّة. وقيل: استخفَّ قومه، أي: وجدهم خفافاً. ويقال: استخفَّه الطرب،

وأخفَّه: إذا أزال حِلْمه وحملَه علىٰ الخفَّة.

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: إن بين أيدينا عَقَبة كؤوداً لا يجوزُها إلاَّ المُخفّ. العقبة الكؤود، أي: الصعبة، يقال: تكاءده الأمر وتصعَّده، أي: شقَّ عليه وصعب. والمُخفّ: من أخفّ الرجلُ: إذا خَفَّت حالُه ورقَّتْ، وكان قليل الثِّقَل في سفره أو حضره. ويريد به المخفَّ من الذنوب وأسباب الدنيا وعُلَقِها.

وفي حديث مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ: أنه وقع حريقٌ في دارٍ كان فيها، فاشتغل الناسُ بالأمتعة، وأخذ مالكٌ عصاه وجراباً كان له ووثب، فجاوز الحريق، وقال: فاز المُخفُّون. وهكذا ينجو من لم يتعلّق بشواغل الدنيا وطموحاتها. وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما استخلفه النبيُّ ﷺ في غزوة تبوك، قال: يا رسول الله، يزعم المنافقون أنك استثقلتني وتخففت مني، أي: طلبت الخِفَّةَ بترك استصحابي معك.

وجاء في الحديث: «من سِعادة المرءِ خِفَّةُ عارضَيْه». قال الإمام الخطابيّ: يُتأوَّلُ علىٰ وجهين: أحدُهما أن يَخِفَّ عارضاه عن الشَّعَر. والوجهُ الآخر: أن تكون خفّةُ العارضين كناية عن كثرة الذِّكر، لا يزال يحرّكهما بذكر الله. والعارضان: صفحتا الخدّ.

وقال ابنُ السكِّيت: يقال: فلانٌ خفيفُ الشَّفة: إذا كان قليل السؤال للناس.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه كان خفيف ذات اليد. أي: كان فقيراً قليل المال والحظِّ من الدنيا. وجاء في الحديث: «أغبَطُ الناسِ المؤمنُ الخفيفُ الحاذِ» الحاذُ والحالُ واحد، وأصل الحاذ: طريقةُ المتن، وهو ما يقع عليه اللِّبْدُ من ظهر الفرس، فمعنىٰ الخفيف الحاذ، الخفيفُ الظهر من العيال، ومنه الحديث الآخر: «ليأتينَّ علىٰ الناس زمانٌ يُغبَطُ فيه الرجل بِخفّة الحاذ كما يُغْبط اليوم أبو العشرة». ضربه مثلاً لقلة المال والعيال. ويُجمعُ الخفيفُ علىٰ أخفاف، ومنه

الحديـث: «خـرج شُبّـانُ أصحابِه وأخفافُهم حُسَّراً» وهم الذين لا متاع معهم ولا سلاح، ويرویٰ «خفافهم وأخِفّاؤهم»، وهما جمع خفيفٍ أيضاً.

وفي حديث خطبتـه في مرضه ﷺ، قال: «أيها الناس، إنه قد دنا مني خفوفٌ من بين أظهُركم» أي: حركةٌ وقربُ ارتحال، يريد الإنذار بموته ﷺ. ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهمـا: قد كان مني خفـوفٌ، أي: عجلـةٌ وسرعـةُ سير، وفي الحديث: لمّا ذُكر له قتْلُ أبي جهل استخفَّه الفرح، أي: تحرّك لذلك وخَفَّ، وأصله السُّرعة. ويقال: استخفَّه وأخفَّه. ومنه قول عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه: لا تَغتابَنَّ عندي الرعيَّةَ، فإنه لا يُخِفُّني، أي: لا يحملني علىٰ الخفّة، فأغضبَ لذلك.

وفي الحديث، أنه ﷺ كان إذا بعث الخُرّاص قال: «خَفّفوا الخَرْصَ، فإن في المـال العريّـةَ والوصيّةَ» الخُرّاص: هم الذي يُقَدِّرون ما علىٰ النخلـة والكرمة من الرُّطَب والعنب. وقوله ﷺ: «خفّفوا الخرص»، أي: لا تستقصوا علىٰ الناس فيه؛ فإنهم يُطعمون منها ويُوصُون.

وفي حديث عطاء رضي الله عنه: خَفّفوا علىٰ الأرض وفي رواية: «خِفُّوا»، أي: لا تُرْسلُوا أنفسَكم في السُّجود إرسالاً ثقيلاً فيوثِّرَ في جباهكم، ومنه حديث مجاهد رضي الله عنه ــ وسأله حبيبُ بن أبي ثابت، فقال: إني أخاف أن يوثر السجود في جبهتـي ــ فقال: إذا سجدت فتخافَّ» أي: ضع جبهتـك علىٰ الأرض وَضْعـاً خفيفاً. ورُوي «فتجافَ» وهو من الجفاء: البُعد عن الشيء.

وفي الحديث: «لا سَبَق إلاَّ في خُفٍّ أو نصْلٍ أو حافـر». أراد بالخُفِّ الإبلَ، وهو علىٰ حذف مضاف، أي: في ذي خُفٍّ وذي نصل وذي حافر، والخُفُّ للبعير كالحافر للفرس. والخُفُّ الذي يُلْبَسُ سُمّي كذلك؛ لأن الماشيَ يخِفُّ وهو لابسُه، فهو مأخـوذ من الخِفَّـة التي هي ضدّ الثقل. وفي حديـث أبيض ابن حمَّال، قال: سألـتُ رسول الله ﷺ: ماذا يُحْمَـىٰ من الأراك؟ قال: «ما لم تنلْـه أخفـاف الإبـل» الأخفاف: جمع خُفّ، وإنما نَهىٰ أن يُحمىٰ ما نالته أخفاف الإبل من الأراك، لأنه

مَرْعـىً لها، فرآه مباحاً لابن السبيـل، وذلك لأنه كـلأٌ، والنـاس شـركاءُ في الماء والكلأ. وما لم تنلْه أخفاف الإبل كان لمن شاء أن يحميه حماه.

[خ ل ص]

تدلُّ مادة (خلَص) في اللغـة علىٰ معنًـى واحـد، هو تنقيـة الشـيء وتهذيبُه، يقولـون: خلَّصتُه من كذا وخَلَصَ هو، وخُلاصةُ السَّمن: ما أُلقي فيـه من تمر أو سويق ليخلُصَ به، لأنهم كانوا إذا طبخوا الزُّبدَ ليتخذوه سمناً طرحوا فيه شيئاً من سويق أو تمر أو أبعار غزلان، فإذا جاد وخلَص من الثُّفْل فذلك السمن هو الخُلاصةُ والخِلاصُ أيضاً بكسرِ الخاء.

وقال تعالىٰ في قصة يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: انفردوا وتميَّزوا عن الناس متناجين فيما يعملون به في ذهابهم إلىٰ أبيهم من غير أخيهم. وقال تعالىٰ في قصة يوسف أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] أي: أجعلْه خالصاً لي دون غيري، لا يشركُني فيه أحد.

والاستخلاصُ: طلبُ خُلوص الشيء من شوائب الشَّركة.

وقال تعالىٰ في شأن نبيِّه موسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] مخلَصاً، أي: مختاراً. وقُرىء: ﴿مُخْلِصاً﴾ بكسر اللام، أي: إنه أخلص العبادة والتوحيد لله غيرَ مراءٍ للعباد.

وقال تعالىٰ في شأن إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ عليهم السلام: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦] أخلصناهم، أي: أصفيناهم. وقوله: ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ أي: بخَلَّةٍ خلَّصناها لهم، ومعنىٰ الآية فيما ذكر مجاهد، أي: جعلناهم يعملون

للآخرة ليس لهم همٌّ غيرَها. وقال مالك بنُ دينار: نزع الله تعالىٰ من قلوبهم حبَّ الدنيا وذكْرَها، وأخلصهم بحبِّ الآخرة وذكرِها.

وسميت سورةُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورةَ الإخلاص؛ لأنها خالصةٌ في صفة الله تعالىٰ خاصَّة، أو لأنّ اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله تعالىٰ. وقد روي في سبب نزول هذه السورة وفي فضلها أحاديثُ كثيرة، منها ما رواه جابر رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: انسُبْ لنا ربَّك. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخرها. ورُوي عن أنس رضي الله عنه، قال: كان رجلٌ من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قُباء، وكان كلما افتتح سورةً يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتىٰ يَفرُغَ منها. ثم يقرأ سورة أخرىٰ معها، وكان يصنع ذلك في كلِّ ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترىٰ أنها تُجزئك حتىٰ تقرأ بأخرىٰ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرىٰ. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أَؤمَّكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرَوْن أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمَّهم غيرُه. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر. فقال: «يا فلان، ما يمنعُك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك علىٰ لزوم هذه السورة في كلِّ ركعة؟» فقال: إني أُحبُّها. فقال: «حبُّك إيَّاها أدخلك الجنة». أخرجه البخاري، وأخرج أيضاً بسنده، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردِّدُها، فلما أصبح جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ــ وكأن الرجل يتقالُّها، أي: يعدُّها قليلة ــ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثُلُث القرآن».

وحكىٰ الحافظ ابن حجر في «الفتح» أن سورة الإخلاص تضمَّنت توجيه الاعتقاد وصدق المعرفة وما يجب إثباتُه لله من الأحديّة المنافية لمطلق الشركة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد المقرِّر لكمال المعنىٰ، ونفي الكفء المتضمن لنفي الشبيه والنظير، وهذه مجامع

التوحيد الاعتقاديِّ، ولذلك عادلتْ ثلث القرآن؛ لأن القرآن خبرٌ وإنشاء، والإنشاء أمرٌ ونهيٌ وإباحة، والخبر خبرٌ عن الخالقِ، وخبرٌ عن خلقه، فأخلصت سورةُ الإخلاص الخبر عن الله، وخلَّصتْ قارئها من الشرك الاعتقادي.

ومن غريب مادة **(خلص)** في الحديث: ما رُوي أنه ﷺ ذكَرَ يومَ الخلاص. قالوا: يا رسول الله، ما يومُ الخلاص؟ قال: «يوم يَخرُجُ إلى الدجّال من المدينة كلُّ منافق ومنافقة، فيتميزُ المؤمنون منهم ويخلُص بعضهم من بعض». ومن ذلك ما جاء في حديث استسقاء عبد المطلب: ألا فليَخْلُص هو وولدُه، أي: فليتميَّزوا ولينفردوا عن الناس، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] كما سبق.

وفي حديث الإسراء: «فلما خلَصْتُ فإذا أنا بموسىٰ عليه السلام»، أي: وصلتُ وبلغْتُ، يقال: خلص فلانٌ إلىٰ فلانٍ، أي: وصل إليه. وخلص أيضاً إذا سلِمَ ونجا. وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه قضى في حُكومةٍ بالخلاص، أي: بالرجوع بالثمن علىٰ البائع إذا كانت العين مستحقَّةً وقد قبض ثمنها، أي قضىٰ بما يُتخَلَّصُ به من الخصومة. ومنه حديث شُريح رضي الله عنه: أنه قَضَىٰ في قوس كسرها رجلٌ بالخلاص. وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه: أنه كاتب أهله علىٰ ثلاث مئةٍ وستين عَذْقاً، وعلى أربعين أوقيَةَ خِلاصٍ، فأعانه سعدُ بن عبادة بستين عذقاً». العَذْق: بفتح العين: النخلة، والعِذْق بكسرها: الكِباسة. والخِلاص والخُلاصة: ما أخلصتْه النار من الذهب.

وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أَلَيَاتُ نساء دَوْسٍ علىٰ ذي الخَلَصة» ذو الخَلَصَة: بيتٌ كان فيه صنمٌ لدوسٍ وخَثْعَم وبجيلة وغيرهم. وقيل: ذو الخَلَصةِ: الكعبةُ اليمانية التي كانت باليمن، فأنفذ إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجليَّ فخرَّبها. وقيل: ذو الخَلَصة: اسمُ الصنم نفسه. قال الزمخشري: وفيه نظر. لأن «ذا» لا يُضاف إلاّ إلىٰ أسماء الأجناس. ومعنىٰ الحديث أنهم يرتدّون

ويعودون إلىٰ جاهليّتهم في عبادة الأوثان، فيسعىٰ نساءُ بني دَوْس طائفاتٍ حول ذي الخلصة فترتَجُّ أعجازُهُن.

[خ ل ط]

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. الخلطاء: جمع خليط، وهو مَن خالطكَ في مَتْجَر أو دَيْن أو معاملة أو جوار. وقد يقال: خليط، للواحد والجمع. قال الشاعر في استعماله للجمع:

إن الخليطَ أجدُّوا البينَ وانجرَدوا ... وأخلفوكَ عِدَ الأمرِ الذي وعَدوا

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يتعدَّىٰ بعضهم علىٰ بعض ويظلمُه غيرَ مراعٍ لحقِّة. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. يريد أنهم يتحامَوْن ذلك، ولا يظلمون خليطاً ولا غيره. ويقال: هو خليطي وشريكي بمعنًى واحد.

وقال تعالىٰ في شأن اليتامىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق مَن كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيءُ من طعامه فيُحبَسُ له حتىٰ يأكله أو يفسُد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

وقال نِفطويه فيما حكاه أبو عبيد الهرويُّ في «الغريبين» أي: خالطوهم علىٰ الأخوَّة في الإسلام، فإنها توجب النصح.

وجـاء في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لوائل بن حُجْر الحضرمي وقومِه: «لا خِلاطَ ولا وِراط». قـال ابن الأثير: الخِـلاط مصـدر: خالَطَه يُخالِطُـه مخالطـةً وخلاطـاً. والمراد به أن يخلط الرجلُ ماله بمال غيره ليمنع حقَّ الله منه، أو يبخَس الساعـيَ ـ وهو جامع الزكاة ـ فيما يجـب لـه، وهو معنـىٰ قـوله ﷺ في الحديث الآخر: «لا يُجمع بين متفرِّق، ولا يفرَّق بين مجتمع خشية الصدقة». أما الجمع بين المتفرق ـ وهو الخِلاط: فمثل أن يكون ثلاثةُ نفر، لكل واحد منهم أربعون شاة، وقد وجب علىٰ كل واحد منهم شاةٌ، فإذا أظلَّهم الساعي جمعوها، لئلا يكون عليهم فيها إلا شاةٌ واحدة. وأما تفريق المجتمع: فأن يكون شريكان ولكل واحد منهما مئة شاة وشاة، فيكونَ عليهما فيها ثلاثُ شياه، فإذا أظلَّهم الساعي فرَّقا غنمهما، فلم يكن علىٰ كلِّ واحدٍ منهما إلا شاةٌ واحدة. فنُهُوا عن ذلك.

قال الشافعيُّ: الخطاب في هذا للمصَدِّق ـ وهو الساعي الذي يجمع الزكاة ـ ولربِّ المال. قال: والخشيةُ خشيتان: خشيةُ الساعي أن تقلَّ الصدقة، وخشيةُ ربِّ المـال أن يقلَّ مالُـه، فأمر كلَّ واحدٍ منهمـا ألاَّ يُحـدِثَ في المـال شيئـاً من الجمع والتفريق. قال ابن الأثير: هذا علىٰ مذهب الشافعيّ، إذ الخُلطةُ مؤثِّرةٌ عنده. أما أبو حنيفـة فلا أثر لها عنده ويكـون معنىٰ الحديث عنده نفي الخـلاط لنفي الأثر، كأنه يقول: لا أثر للخُلْطة في تقليل الزكاة وتكثيرها.

وفـي حديـث الزكـاة أيضـاً: «وما كان من خليطين فإنهمـا يتراجعان بينهمـا بالسَّوّية» الخليط: هو المخالط، ويريد به الشريك الذي يخلط مالـه بمال شريكه، والتراجعُ بينهما: هو أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة، وللآخر ثلاثون بقرة، ومالُهمـا مختلِط. فيأخذ الساعي عن الأربعين مُسنَّةً، وعن الثلاثين تبيعاً، فيرجعُ باذلُ المُسنّة بثلاثة أسباعها علىٰ شريكه، وباذلُ التبيع بأربعة أسباعه علىٰ شريكه.

لأن كلَّ واحد من السِّنِّيْن واجبٌ علىٰ الشُّيوع، كأن المال ملكُ واحد.

قال ابن الأثير: وفي قوله: «بالسّوّية» دليـلٌ علىٰ أن الساعيَ إذا ظلم أحدَهما فأخـذ منـه زيادةً علىٰ فرضه، فإنه لا يرجع بها علـىٰ شريكه، وإنما يَغْرَم له قيمة ما يخصُّه من الواجب دون الزيادة. قال: وفي التراجع دليلٌ علىٰ أن الخُلطة تصحُّ مع تمييز أعيانِ الأموال عند من يقول به.

وقوله ﷺ في حديث وائل بن حُجْر: «ولا وِراط» فالوراط: أن يجعل الرجل غنمه أو إبله في وهْدَةٍ من الأرض لتخفىٰ على المصَدِّق، مأخوذ من الورطة، وهي الهوَّة العميقة في الأرض. يقال: تورَّطت الغنم: إذا وقعتْ في الوَرْطة، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بليّة يعسُر المخرج منها. هذا قول أبي بكر بن الأنباري. وقال شمر بن حَمْدَوْيه: الوراط: أن يغيب إبله أو غنمه في إبل غيره أو غنمه. لئلاً يراها المصدِّق. وقال أبو سعيد الضرير: هو أن يُقال للمصدِّق ـــ وهو جامع الزكاة ـــ: عند فلان صدقة، وليست عنده، فيورِّطَه في ذلك.

وفي الحديـث: «ما خالطت الصدقـةُ مـالاً إلاً هلكته». قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: يعني أن خيانة الصدقة تُتْلف المال المخلوط بها. وقيل: هو تحذيرٌ للعمَّـال عن الخيانة في شيء منها. وقيل: هـو حثٌّ علىٰ تعجيل أداء الزكاة قبل أن تختلط بماله. وجاء في حديث الشُّفعة: «الشريك أولىٰ من الخليط، والخليطُ أولىٰ من الجار». الشريك: هو المشارك في الشُّيوع، والخليطُ: هو المشارك في حقوق المِلْك كالشِّرب والطريق ونحو ذلك. وجاء في حديث الوسوسة: «رجع الشيطانُ يلتمسُ الخِلاط» أي: يخالط قلب المصلِّي، ليفسد عليه صلاته بالوسوسة.

وفـي حديث عَبيدةَ السَّلماني رضي الله عنه: أنه سُئـل عن مـوجب الغُسْل، فقال: «الخَفقُ والخلاط» يريد الجماع، وهو من المخالطة. ومنه ما جاء في خطبة الحجاج بن يوسف الثقفيّ: ليس أوانَ يَكثُر الخلاط، يعني السِّفاد.

في حديث معاوية رضي الله عنه: أن رجلين تقدَّما إليه، فادَّعىٰ أحدُهما علىٰ صاحبه مالاً، وكان المدَّعَىٰ عليه حُوَّلاً قُلَّباً مِخْلَطاً مِزْيَلاً، فأنشأ معاوية يقول متمثلاً ببيت أبي دؤاد الإيادي:

أنَّىٰ أُتيحَ له حِرْباءُ تَنْضُبَةٍ لا يُرْسلُ الساقَ إلاَّ مُمْسكاً ساقا

ثم دعا بمال فأعطىٰ المدَّعي، وفرَّق بينَهما. يقال: رجلٌ حُوَّلٌ قُلَّب، وحُوَّلٌ قُلَّبيّ. فالمُقَلِّب: الذي يُقَلِّبُ الأمور ظهراً لبطن. والحوَّلُ: ذو التصرُّف والاحتيال. قال الشاعر:

الحُوَّلُ القُلَّبُ الأريبُ وهل تدفَعُ صرفَ المنِّية الحِيَلُ؟

والمِزْيَلُ: هو الجَدِلُ في الخُصومات الذي يزول من حُجَّةٍ إلىٰ حُجَّةٍ. والمِخْلَط: الذي يخْلِط الأشياء فيلبِّسُها علىٰ السامعين والناظرين. قال أوس بن حجر:

وإن قال لي: ماذا ترىٰ يستشيرُني يجدْني ابنُ عمي مِخْلَطَ الأمرِ مِزْيَلا

وقول أبي دؤاد: لا يُرسلُ الساق إلاَّ ممسكاً ساقا. أراد بالساق هاهنا الغُصْنَ من أغصان الشجرة. والمعنىٰ أنه لا تنقضي له حُجَّةٌ حتىٰ يتعلَّق بأخرىٰ، تشبيهاً بالحرباء، وانتقالها من غُصْنٍ إلىٰ غُصنٍ تدور مع الشمس.

وفي حديث سعد رضي الله عنه: وإن كان أحدُنا ليَضَعُ كما تضع الشاةُ، ما لَهُ خِلْط، أي: لا يختلط نَجْوُهم بعضُه ببعض؛ لجفافه ويُبْسه، فإنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وورق الشجر لفقرهم وحاجتهم.

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: كنَّا نُرْزَقُ تَمْرَ الجَمْع علىٰ عهد رسول الله ﷺ وهو الخِلْطُ من التمر، أي: المُخْتلِطُ من أنواع شتَّىٰ. وفي حديث شُريح القاضي: جاءه رجلٌ فقال: إني طلَّقْتُ امرأتي ثلاثاً وهي حائض. فقال: أمَّا أنا فلا أخلِطُ حلالاً بحرام. يريد: لا أحتسب بالحَيْضة التي وقع فيها الطلاق من العِدَّة؛

لأنها كانت له حلالاً في بعض أيام الحيضة، وحراماً في بعضها. وجاء في حديث الحسن البصريّ رضي الله عنه، يصف الأبرار: وظَّن الناسُ أن قد خُولِطُوا وما خُولِطُوا، ولكنْ خالطَ قَلْبَهم همٌّ عظيم. يقال: خُولط فلانٌ في عقله مخالطةً: إذا اختلَّ عقلُه.

[خ ل ع]

تدل مادة (خلع) علىٰ أصل واحد في اللغة وهو ــ كما قال ابن فارس ــ مزايلةُ الشيء الذي كان يُشتَمَلُ به أو عليه. تقول: خلعتُ الثوب أخلَعُه خَلْعاً، وخُلع الوالي يُخْلَعُ خَلْعاً، وهذا لا يكادُ يُقال إلاَّ في الدُّون يُنْـزِلُ من هو أعلىٰ منه، وإلاَّ فليس يُقال: خَلَع الأميرُ واليَه عن بلد كذا، ألا ترىٰ أنه إنما يقال: عزله؟ وفي الحديث: «من خَلَعَ يداً من طاعة لقي الله تعالىٰ لا حُجَّةَ له» أي: خرج من طاعة سلطانه، وعدا عليه بالشرّ، وهو من خلعتُ الثوب، إذا ألقيتَه عنك، شبَّه الطاعة واشتمالها علىٰ الإنسان به، وخَصَّ اليد بالذكْر؛ لأن المعاهدة والمعاقدة تكون بها.

وفي الحديث: «وقد كانت هذيلٌ خَلَعوا خليعاً لهم في الجاهلية». تفسير ذلك أن العرب كانوا يتعاهدون ويتعاقدون علىٰ النُّصرة والإعانة، وأن يؤخذ كل منهم بالآخر، فإذا أرادوا أن يتبرؤوا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلىٰ الناس، وسَمَّوْا ذلك الفعل خَلْعاً، والمتبرَّأ منه خليعاً ــ أي: مخلوعاً ــ فلا يؤخَذُون بجنايته، ولا يؤخَذُ بجنايتهم، فكأنهم قد خلعوا اليمين التي كانوا قد لبسوها معه، وسَمَّوه خَلْعاً وخليعاً، مجازاً واتساعاً، وبه يُسَمَّىٰ الإمامُ والأمير إذا عُزِلَ خليعاً، كأنه قد لبس الخلافة والإمارة ثم خلعها.

ومنـه حديث عثمان رضي الله عنه، قال له: «إن الله سيُقَمِّصُك قميصاً وإنك تُلاصُ علىٰ خَلْعِه». أراد الخلافة وتركها والخُروج منها. ومن ذلك حديث كعب رضي الله عنـه: «إن من توبتي أن أنخلـع من مالـي صدقـةً» أي: اخرج منه جميعِه وأتصدَّقَ به، وأعرىٰ منه كما يَعْرَىٰ الإنسانُ إذا خلع ثوبَه. وفي حديث عثمان رضي الله عنـه: كان إذا أُتي بالرجـل الذي قـد تخلَّـعَ في الشَّراب المسكـر جلده ثمانين. المتخلّع: هو الذي انهمك في الشُّرب ولازمه، كأنه خلع رسَنَه فيها، وأعطى نفسَه هواها، فبلغ به الثَّمَلُ إلىٰ أن استرخَتْ مفاصلُه استرخاءً يُشبه التخلُّع والتفكّك، كما قال الأخطل:

صـريـعُ مُـدامٍ يَـرْفَـعُ الشَّـرْبُ رأسَـهُ ... ليَحيْا وقد ماتَتْ عِظامٌ ومَفْصِلُ
إذا رفَعُـوا عظمـاً تحـامَـلَ صـدرُهُ ... وآخـرُ ممـا نـال منهـا مُخَبَّـلُ

أعاذنا الله وإياكم من الخُبث والخبائث. وفي حديث ابن الصَّبغاء: فكان رجلٌ منهـم خليع، أي: مستَهْتَرٌ مولَـعٌ بالشُّرب واللهو. أو هو الخليع: الخبيثُ الـذي خلعَتْه عشيرتُه وتبرؤوا منه.

وفي الحديث: «المختلعـاتُ هنَّ المنافقـات». يعنـي اللاتـي يطلُبْن الخُلْعَ والطـلاق من أزواجهن بغيـر عـذرٍ. يقال: خَلَعَ امرأته خُلْعاً، وخالعهـا مخالعةً، واختلعـت هي منه فهي خالع، وأصلـه مِن خلْع الثوب. والخُلْعُ: أن يطلّق زوجته علىٰ عوض تبذلُه له، وفائدته إبطال الرجعة إلاَّ بعقد جديد. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: أن امرأةً نشَزَتْ علىٰ زوجها، فقال له عمر: اخلَعْها. أي: طلقْها واترُكْها. وفي الحديث: «من شرِّ ما أُعطِيَ الرجلُ شحٌّ هالع وجبنٌ خالع» أي: شديدٌ كأنه يخلَعُ فؤاده من شدّة خوفه، وهو مَجاز في الخلع، والمراد به ما يعرضُ من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف.

[خ ل ف]

تدور مادة (خلف) في العربية علىٰ ثلاثة أصول: أحدها: أن يجيء شيءٌ بعد شيءٍ يقوم مَقامَه. والثاني: خلاف قُدَّام. والثالث: التغيُّر. هكذا قال ابن فارس. وقد وردت هـذه المعاني الثلاثـة في القـرآن العزيـز، وكلامِ المصطفـىٰ ﷺ وآثار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] قال ابن عرفـة نفطويه: أي: كلُّ واحدٍ يخلُـف صاحبـه. وقـال غيرُه: الخليفةُ يُستبدَل ممن كان قبل. وكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ من هاهنا.

وقال أهل التفسيـر في قولـه تعالىٰ: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي: قوماً يخلُف بعضُهم بعضاً قَرْناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. قيل: وليس المراد هاهنا بالخليفة آدمَ عليه السـلام فقط كما يقولـه طائفـة من المفسِّرين. قال ابن كثير: وفي ذلك نظر. بل الخلاف في ذلك كثير، والظاهر أنه لم يُرِدْ آدم عيناً، إذ لو كان ذلك لما حسُن قولُ الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك.

وقـال تعـالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ ﴾ [الأعراف: ٦٩] قال الهـرويُّ: الخلفاءُ: جمعُ خليفة، على التذكير لاعلى اللفظ، مثلَ ظريف وظرفاء، وجائز أن تجمعَ به خلائف على اللفظ، مثلُ ظريفة وظرائف، وكريمة وكرائم.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٩]. وقـال

أيضاً: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]. الخَلَف بفتح اللام، والخَلْف بسُكونها: كلُّ من يجيءُ بعد مَن مضىٰ. إلاّ أن الخَلَف ــ بفتح اللام ــ أكثر ما يُستعمـلُ في الخيـر، والخَلْـف بالسكـون أكثرُ ما يستعملُ في الشرّ، وبذلك جاء في الآيتين السابقتين. يقال: خَلَفُ صدْقٍ من أبيه، وخَلْفُ سُوءٍ من أبيه. وقال ابنُ الأعرابيّ: الخَلَف بالفتح: الصالح. وبالسكون: الطالح. قال لبيد:

ذهـبَ الـذيـن يُعـاشُ فـي أكنـافِهـمْ   وبقِيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجربِ

وهذا البيت مما كانت تتمثل به عائشة رضي الله عنها. ومنه قيل للرديء من الكلام: خَلْف، يقال: «سكت ألْفاً ونطق خَلْفاً» أي: سكت عن ألف كلمة ثم تكلّم بخطأ. وقيل: الخَلَف والخَلْف سواء، وقد يُستعمل كلُّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر. قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لنا القدَمُ الأولىٰ إليكَ وخَلْفُنا   لأوّلنـا فـي طـاعـةِ الله تـابـعُ

قلت: ولعلّ هذا من ضرورات الوزن، فيظلُّ للفتح والسكون دلالتُهما علىٰ الخير والشرّ. ومن استعمال المفتوح في الخير ما جاء في الحديث: «يحمِـلُ هذا العِلْـمَ من كـلِّ خَلَف عُدولُهُ، يَنْفُون عنه تحريف الغالين وانتحـال المبطلين وتأوُّل الجاهلين». يعنـي من كلِّ قَرْن. ومن الساكـن الحديـث: «سيكـون بعد ستين سنة خَلْـفٌ أضاعـوا الصلاة». وحديث ابن مسعود، رضي الله عنه: ثم إنهـا تخلُفُ من بعدهم خُلُوف. هي جمع خَلْف. وتقول: قعدتُ خلاف فلان، أي: بعده.

قال تعالىٰ في شأن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١]. قوله تعالىٰ: ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بعده. والخلاف بمعنىٰ الخَلْف. قال ذلك الأخفشُ ويونُس. ويؤيّده قراءةُ أبي

حَيْوة: ﴿خَلْفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فخلاف علىٰ هذا منصوبٌ علىٰ الظرفية. وقال قُطْرُب والزَّجّاج: معنىٰ ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: مخالفة الرسول حين سار وأقاموا، فانتصابه علىٰ أنه مفعولٌ له، أي: قعدوا لأجل المخالفة، أو علىٰ الحال، أي: مخالفين له، مثل: «فأرسلها العراكَ» أي: معتركةً. وإلىٰ أنه مفعولٌ له ذهب أبو منصور الأزهري، قال الهرويُّ في «الغريبين»: وسمعت الأزهريَّ يقول في قوله: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: مخالفةَ رسول الله ﷺ. المعنىٰ قعدوا عن الغَزْو لخلافه.

ومن مجيء «خلاف» بمعنىٰ «خَلْف» أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿خَلْفَكَ﴾ ومعناه: بعدك. ومما يدلّ علىٰ أن «خِلاف» بمعنىٰ بعد، قول الشاعر:

عفَتِ الديارُ خلافَها فكأنما بَسَطَ الشَّواطبُ بينَهُنّ حصيراً

والشواطب: من شطبت المرأة الجريد: إذا شقَّتْه لتعمل منه الحصير. وقال تعالىٰ في شأن المنافقين أيضاً وقعودهم عن الغزو والجهاد: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]. الخوالفُ: النساءُ اللاتي يخلُفْن الرجالَ في القعود في البيوت، جمع خالِفة. وجوّز بعضُهم أن يكون جمعَ خالف، وهو مَن لا خير فيه. وردَّه أبو عبيد، قال: ولا يكون جمعَ خالِف، ولم يأت فاعلٌ صفةً مجموعاً علىٰ فواعلَ إلاّ حرفان: فارسٌ وفوارس، وهالكُ وهوالك. ويقال: الحيُّ خُلُوف، أي: خرج الرجالُ في رَعْي أو سَقْي أو جهادٍ، أو نحو ذلك، وبقي النساءُ. ومنه الحديث: أن النبي ﷺ لمّا خرج إلىٰ أُحُد جعل نساءَه في أُطم ــ أي: حصن مبني بالحجارة ــ قالت صفية بنت عبد المطلب: فأطل علينا يهوديٌّ، فقمت إليه فضربت رأسه بالسيف، ثم رميتُ به عليهم فتقضقضوا وقالوا: لقد علمنا أن محمداً لم يترك أهلَه خُلُوفاً، أي: لم يتركْهنّ لا راعي لهنّ ولا حامي. وقال الأزهري: يقال: الحيُّ خُلُوفٌ فيكون بمعنيين، يكون بمعنىٰ المتخلّفين المقيمين

في الدار، ويكون بمعنىٰ الغُيَّبِ الظاعنين. رواه أبو عبيد في باب الأضداد.

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]. قال أبو عبيدة: الخِلْفةُ: كلُّ شيءٍ بعد شيء، الليلُ خِلْفةٌ للنهار، والنهارُ خلفةٌ لليل؛ لأن أحدهما يخلُف الآخرَ ويأتي بعده، ومنه خِلفةُ النبات، وهو ورقٌ يخرج بعد الورق الأول في الصيف. قال أبو دَهْبل الجمحي ـ وقيل: يزيدُ بن معاوية ـ:

ولها بالماطِرونَ[1] إذا ... أكل النملُ الذي جمَعا
خلْفةٌ حتىٰ إذا ارتَبَعَتْ ... سكنَتْ من جِلَّقٍ بِيَعا

وقال زهير في معلقته:

بها العينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفةً ... وأطلاؤُها يَنْهَضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ

يقول: إذا مرَّتْ هذه خلَفَتْها هذه.

أما الخَلِفَة بفتح الخاء وكسر اللام، التي وردت في حديث الدِّية، فهي: الحاملُ من النُّوق، وتُجْمَع علىٰ خَلِفاتٍ وخلائف، وقد خَلِفتِ الناقةُ، إذا حَمَلتْ، وأخلَفَتْ: إذا حالت. ومنه الحديث: «ثلاثُ آيات يقرؤهنّ أحدُكم خيرٌ له من ثلاث خَلِفاتٍ سِمانٍ عِظام» ومنه حديثُ الكعبة: لمّا هدموها ظهر فيها مثلُ خلائف الإبل.

---

(١) الماطرون: قال في «معجم البلدان»: هو اسم عجمي، ومخرجه في العربية أن يكون جمع ماطر، من المطر، وهو موضعٌ بالشام قرب دمشق.
قلت: ومع كلامه في نونه، وأنها مفتوحة باعتباره جمعَ ماطر جمعَ مذكر سالماً، إلاّ أنّ ياقوتاً قال في نونه في الموضع نفسه: «من شروط هذا الاسم أن يلزم الواوَ وتُعرب نونه ومثله: جيرون وبيرون». وقد جرى على هذا ناشر «معجم البلدان» إذ ضبط النون بالكسر، وضبطها مؤلف كتابنا هذا رحمه الله تعالىٰ بالفتح، على ما جاء في «لسان العرب»، والله أعلم بالصواب. (الناشر).
=

أراد بها صخوراً عِظاماً في أساسها بقَدْر النُّوق الحوامل.

وقال تعالىٰ علىٰ لسان نبيِّه شعيب عليه السلام يخاطب قومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] أي: لست أنهاكم عن شيءٍ وأدخلُ فيه. أي: وما أريد بنهيي لكم عن تطفيف الكيل والبَخْس أن أُخالفكم إلىٰ ما نهيتُكم عنه فأفعلَه دونكم. يقال: خالفه إلىٰ كذا، أي: قصَدَه وهو مُوَلٍّ عنه، وخالفْتُه عن كَذا في عكس ذلك. قال أبو عبيد الهرويُّ في «الغريبين»: وسمعت الأزهريَّ يقول: سمعتُ أعرابيّاً وهو صادرٌ عن ماء ونحن نريده، فسألْتُه عن صاحبٍ لنا فرَطَنا ــ أي تقدَّمنا ــ: هل أحْسَسْتَه؟ فقال: خالَفَني. أراد أنه ورَدَ وأنا صادر.

وقال تعالىٰ علىٰ لسان نبيِّه موسىٰ عليه السلام يخاطب السامريّ: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه:٩٧] أي: هو حقٌّ؛ لأن الموعدَ يومُ القيامة. قال الزجاج، أي: يكافئُك الله علىٰ ما فعلت في القيامة، والله لا يُخلف الميعاد.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وجماعة: ﴿لَنْ تُخْلِفَهُ﴾ بكسر اللام. وله علىٰ هذه القراءة معنيان: أحدُهما: ستأتيه، ولن تجده مُخْلِفاً، يقال: أخلفْتُ موعِدَ فلان، أي: وجدتُه مُخْلِفاً كما تقول: أحمدْتُه، أي: وجدتُه محموداً. والثاني على التهديد، أي: لابدَّ لك من أن تصير إليه.

وجاء في حديث الدعاء: «اللهم أعطِ كلَّ منفقٍ خَلَفاً» أي: عوضاً. يقال: خلَف الله لك خَلَفاً، وأخلَفَ عليك خيراً، أي: أبدلك بما ذهَب منك وعوَّضَك عنه. وقيل: إذا ذهب للرجل ما يَخْلُفُه مثلَ المال والولد، قيل: أخلَفَ الله لك وعليك. وإذا ذهب له ما لا يخلُفه غالباً كالأب والأم، قيل: خلَفَ الله عليك. وقد يقال: خلَفَ الله عليك، إذا مات لك ميّت، أي: كان الله خليفةً عليك، وأخْلَفَ اللّهُ عليك، أي: أبدَلَك. ومنه الحديث: «تكفَّل الله للغازي أن يُخلِفَ نفقتَه». وحديثُ أبي الدرداء في الدعاء للميّت: «اخلُفْه في عَقِبه» أي: كُنْ لهم بعده.

وفي الحديث: «سَوُّوا صفوفكم ولا تختلفوا فتختلفَ قَلوبُكم» أي: إذا تقدّم بعضُكم علىٰ بعض في الصفوف تأثرت قُلوبُكم، ونشأ بينكمُ الخُلْف. ومنه الحديث الآخر: «لتُسَوُّنَّ صُفوفَكم او ليُخالِفَنَّ الله بينَ وجوهِكم». يريد أن كلاًّ منهم يُصْرَفُ وجْهُه عن الآخر، ويُوقَعُ بينَهمُ التباغض، فإن إقبال الوجه علىٰ الوجه من أثر المودَّة والأُلْفة. وقيل: أراد بها تحويلها إلىٰ الأدبار، وقيل: تغيير صُورِها إلىٰ صُورٍ أخرىٰ.

وفي حديث الصوم: «خِلْفةُ فمِ الصائم أطيبُ عندَ اللّهِ من ريحِ المِسك». الخِلْفة، بكسر الخاء: تغيُّر ريح الفم، وأصلُها في النبات: أن ينبُت الشيءُ بعد الشيء؛ لأنها رائحةٌ حدثت بعد الرائحة الأولىٰ. يقال: خلَفَ فمُه يخلُفُ خِلْفةً وخُلُوفاً. ومنه الحديث: «لَخُلُوفُ فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك». ومنه حديث علي رضي الله عنه، وسئل عن قُبلة الصائم، فقال: وما أَرَبُك إلىٰ خُلُوفٍ فيها؟ ويقال: نَومَةُ الضُّحىٰ مَخْلَفَةٌ للفم، أي: مُغيِّرةٌ لرائحته. وبعضهم يروي الحديث: «خَلُوفُ فم الصائم» بفتح الخاء. قال أبو سليمان الخطابي: وإنما هو: خُلُوف، مضمومة الخاء، مصدرُ: خلف فمُه يخلُف خُلوفاً: إذا تغيَّر، فأما الخَلُوف: فهو الذي يَعِدُ ثم يُخْلِف. قال النمر بن تولب:

جزىٰ الله عني جمرةَ ابنةَ وائلٍ　　　جزاءَ خَلُوفٍ بالخِلالةِ كاذِبِ

والخِلالة، مثلَّثة الخاء: الصداقة والمودة. وفي حديث عائشةَ وبناءِ الكعبة، قال لها ﷺ: «لولا حِدْثانُ قومِك بالكفر لهدمتُ الكعبة وبنيتُها علىٰ أساس إبراهيم، وجعلتُ لها خَلْفَيْن، فإنّ قريشاً استقصرَتْ من بنائها». الخَلْف: الظهر، كأنه أراد أن يَجعل لها بابين، والجهةُ التي تُقابل الباب من البيت: ظهرُه، فإذا كان لها بابان فقد صار لها ظهران، ويروىٰ بكسر الخاء: «لجعلت لها خِلْفَيْن» أي: زيادتين كالثديين. قال ابن الأثير: والأول الوجه.

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: جاءه أعرابي فقال له: أنت خليفةُ رسول

الله ﷺ؟ فقال: لا. قال: فما أنت؟ قال: أنا الخالفةُ بعدَه. الخليفة: من يقوم مقام الذاهب ويسُدُّ مسدَّه. وقوله: «أنا الخالفةُ بعده». أراد القاعدَ بعده. قاله ثعلب. ثم قال: والخالفـةُ: الذي يستخلفه الرئيسُ علىٰ أهله ومالِه ثقةً به. وإنما قال أبو بكر ذلك تواضُعاً وهَضْماً من نفسه، حين قال له الأعرابي: أنت خليفةُ رسول الله؟

وفي حديـث عمر رضي الله عنه: لو أطقـتُ الأذان مـع **الخِلِّيفَـىٰ** لأذَّنْـت. الخِلِّيفـي، بالكسـر والتشديـد والقصـر: الخِلافة. وهو وأمثاله من الأبنية كالرِّقِّيـا والدِّلِّيلا: مصدرٌ يدلُّ علىٰ معنىٰ الكثرة. وإنما أراد عمر به كثرة اجتهاده في ضبط أمور الخلافة وتصريف أعِنَّتها.

[خ ل ق]

تدلُّ مادة (**خلق**) علىٰ معنىٰ تقدير الشيء. يقال: خلقتُ الأديم للسِّقاء، أي: قدَّرْتُه. قال زهير:

ولأنـتَ تفـري مـا خلقْـتَ وبَعْـ ـضُ القوم يخلُقُ ثم لا يفري

ويقال: فريتُ الشيءَ أَفْريه، أي: قطعتُه لأصلحه. وقال الحجاج: ما خلَقْتُ إلاّ فريْت، ولا وعدتُ إلاّ وَفَّيْت.

وفي أسماء الله تعالىٰ: الخالق، وهو الذي أوجد الأشياء جميعَها بعد أن لم تكن موجودة. وقال الراغبُ الأصفهاني: الخَلْقُ أصله التقديرُ المستقيم. ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١] أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧].

ويُستعمل الخلْقُ في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١]، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤]، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ

كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

وليس الخلق ـ الذي هو الإبداع ـ إلا لله تعالىٰ، ولهذا قال في الفصل بينه وبين غيره: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. والخَلْق لا يُستعمل في كافّة الناس إلاّ علىٰ وجهين، أحدهما في معنىٰ التقدير، كقول زهير السابق: ولأنت تفري ما خلقْت. والثاني: في الكذب، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٧] قرىء ﴿ خُلُقُ ﴾ بضمتين، أي: ما هذا الذي جئتنا به ودعَوْتنا إليه من الدِّين إلاّ خُلُقُ الأوّلين، أي: عادتُهم التي كانوا عليها. وقرىء في السبعة: ﴿إنْ هٰذآ إلاّ خَلْقُ الأَوَّلِيْنَ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، أي: اختلاقُهم وكذبُهم. والعرب تقول: حدَّثنا فُلان بأحاديث الخَلْق، أي: الخُرافاتِ والأحاديثِ المفتعلة.

وقوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه عيسىٰ عليه السلام، يخاطب بني إسرائيل: ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. قال أبو عبيد الهروي: خلْقُه: تقديرُه، ولم يُردْ أنه يُحدث معدوماً. وقال أهل التفسير: قوله: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فيه دليلٌ علىٰ أنه لولا الإذنُ من الله عز وجل لم يقدِرْ علىٰ ذلك، وأنّ خلْقَ ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه علىٰ يد عيسىٰ عليه السلام. قيل: كانت تسويةُ الطين والنفخُ من عيسىٰ، والخلقُ من الله عز وجل.

قال الهرويّ: وأما قولُه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] أي: في إحداثه. وقال أبو بكر بنُ الأنباري: الخلق في كلامهم بمعنيين: أحدُهما الإنشاء والآخر التقدير، ويسمُّون صانع الأديم ونحوَه: الخالق، لأنه يُقدِّر.

وقال عز من قائل، علىٰ لسان إبليس لعنه الله: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩]. يعني دين الله عزَّ وجل، وهذا كقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

ﵟٱللَّهِۚﵞ [الروم:٣٠]. وذكر الحافظُ ابن كثير أن هذا علىٰ قول من جعل ذلك أمراً، أي: لا تبدّلوا فطرة الله ودَعُوا الناس علىٰ فطرتهم كما ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريـرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانِـهِ أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاءَ، هل تجدون بها من جدعاء؟» وفي «صحيح مسلم»، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم».

ونقل أبو عبيد الهروي عن الحسن ومجاهد أنهما قالا في تفسير: ﵟفَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚﵞ أي: دينَ الله. وقال ابن عرفة نفطويه: ذهب قومٌ إلىٰ أنّ قولَهما حجَّةٌ لمن قال: الإيمانُ مخلوق، ولا حجّةَ له؛ لأن قولهما: دينُ الله، أرادا حُكْمَ الله. والدينُ: الحكم، أي: فليغيرُنّ أحكام الله.

وقـال الإمام الشوكانـي: واختلف العلمـاء في هـذا التغييـر، ما هو؟ فقالت طائفة: هو الخِصَاءُ وفَقْءُ الأعين وقطْعُ الآذان. وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر، والأحجار والنار، ونحوَها من المخلوقات لِمَا خلقهـا له، فغيَّرها الكفّـارُ بأن جعلوها آلهةً معبودة، وبه قال الزجّـاج. وقيل: المراد بهذا التغيير تغييرُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا مانع من حمل الآية علىٰ جميع هذه الأمور.

وقوله تعالىٰ: ﵟوَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖﵞ [الأنعام: ٩٤] أي: قُدْرتُنا علـىٰ حشركم كقدرتنا علىٰ خلقكم، أي: كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقـوله تعالـىٰ: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِﵞ [آل عمران:٧٧]. الخَـلاَق: النصيـبُ الوافرُ من الخير، ومنه قوله عز وجل: ﵟفَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡﵞ [التوبة:٦٩] أي: انتفعتم وانتفعوا بالنصيب الذي قَدَّره

الله من مَلاَذِّ الدنيا.

وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [الحج: ٥] مخلّقة، أي: مستبينة الخلق ظاهرة التصوير، وغير مخلّقة، أي: لم يستبنْ خَلْقُها ولا ظهَرَ تصويرُها. قال ابن الأعرابي: مخلَّقة: قد بدا خَلْقُه، وغير مخلَّقة: لم يُصوَّر. وقال الفراء: مخلَّقة: تامّ الخَلْق، وغير مخلَّقة: السَّقْط، ومنه قول الشاعر:

أفـي غيـرِ المخلَّقـةِ البكـاءُ   فأينَ الحزمُ ويْحَكَ والحياءُ

جـاء في الحديث: «ليس شيءٌ في الميزان أثقلَ من حُسْن الخُلُق». قـال ابن الأثير: الخُلُـق بضـم اللام والخُلْق بسكونها: الدِّينُ والطبعُ والسجيَّة، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصةُ بها، بمنزلة الخَلْق لصورتـه الظاهرة وأوصافهـا ومعانيهـا، ولهمـا أوصافٌ حسنـة وقبيحة، والثوابُ والعقـابُ مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثرَ مما يتعلّقـان بأوصاف الصورة الظاهـرة، ولهذا تكررت الأحاديثُ في مدح حُسـن الخلُـق في غير موضع، كقوله ﷺ: «أكثرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجنةَ تقوىٰ الله وحسنُ الخلق». وقوله: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً». وقوله: «إن العبد لَيُدركُ بحسن خلقه درجة الصائم القائم». وقوله: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وأحاديثَ من هذا النوع كثيرة. وكذلك جاء في ذمِّ سوء الخلق أحاديث كثيرة. وفي حديث عائشة رضي الله عنها ــ وسئلت عن خلق النبيّ ﷺ ــ فقالت: كان خُلُقُه القرآن، أي: كان متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

وحقيقةُ الخُلُق في اللغة: ما يأخذُ الإنسـانُ نفسَه به من الأدب. وقال عزّ من قائـل في صفـة نبيّه محمد ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. رُوي عن ابن عبـاس: وإنـك لعلىٰ دينٍ عظيـم، وهو الإسلام، وقال عطية: لعلىٰ أدبٍ عظيم. ورُوي عن قتادة قال: ذُكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ،

فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلىٰ. قالت: فإنّ خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن. وفي حديث عمر رضي الله عنه: من تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانَهُ الله. تخلَّق، أي: تكلَّف أن يُظهِرَ من خُلُقه خلافَ ما ينطوي عليه، مثل تصنَّع وتجمَّل: إذا أظهر الصنيع والجميل. قال سالم بن وابصة:

يا أيها المتحلِّي غيرَ شيمتِهِ ... ومَن خلائقُهُ الإقصادُ والمَلَقُ

ارجعْ إلىٰ خِيمِك المعروفِ ديدَنُهُ ... إن التخلُّقَ يأتي دونَهُ الخُلُقُ

والخِيْم: الطبيعة والسجية. والخَلاق، بفتح الخاء: الحظُّ والنصيب. قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِـرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وجاء في حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه: أنه أقرأ الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسيَّ القرآن، فأهدىٰ له قوساً، فقال له النبيُّ ﷺ: «من سلَّحك هذه القوس؟» فقال: طُفيل. قال: «ولم؟» قال: إني أقرأته القرآن. فقال: «تقلَّدْها شِلْوةً من جهنم». قال: يا رسول الله، فإنا نأكلُ من طعامهم. قال: «أمّا طعامٌ صُنع لغيرك فكُلْ منه، وأما طعامٌ لم يُصنَعْ إلاَّ لك فإنك إن أكلته فإنما تأكل بخَلاَقك». قوله: «شِلْوةً من جهنم». الشِّلْوة: القطعة، وهي من الشِّلوِ بمعنىٰ العضو. وقوله: «بخلاقك» أي: بحظك ونصيبك من الدين.

وفي حديث فاطمة بنت قيس أنها استأذنت النبيَّ ﷺ وقد خطبها أبو جَهْم ومعاوية، فقال: «أما أبو جهم فأخاف عليك قَسْقاستَه العصا، وأما معاوية فرجلٌ أَخْلَقُ من المال». القَسْقاسة: العصا بعيْنها، وأراد أن أبا جهم سيِّءُ الخلق، سريعٌ إلىٰ التأديب والضرب، وقيل: أراد كثرة أسفاره ودَوام غَيْبته عن أهله، فكنىٰ بالعصا عن السفر، كما قال معقِّرُ بن حمار:

فألقَتْ عصاها واستقرَّتْ بها النّوىٰ ... كما قَرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

وقوله عن معاوية: «أَخْلَقُ من المال». معناه: خِلوٌ عارٍ منه. وهو من الحجر

الأَخْلَـق وهو الأملَسُ المُصْمَـتُ الذي لا يُمسـك شيئـاً ولا يؤثّر فيه شيء. وقال الأعشىٰ:

قـد يتـرُكُ الـدهـرُ فـي خَلْقـاءَ راسيـةٍ وَهْياً، ويُنزلُ منها الأعصَمَ الصَّدَعا

فالخلقاء: هي الصخرة الملساء. وفي حديث عمر رضي الله عنه، قال: ليس الفقيرُ الذي لامال له، إنما الفقيرُ الأخْلقُ الكَسْب. أراد أن الفقر الأكبر إنما هو فقر الآخرة، وأن فقر الدنيا أهونُ الفقرين، ومعنىٰ وصف الكسْب بذلك أنه وافرٌ منتظم لا يقـع فيـه وكسٌ ولا يتحيَّفه نقص. وهو مثَلٌ ضربه رضي الله عنه للرجل الذي لا يصاب في ماله ولا يُنكب فيُثابَ علىٰ صبره، فإذا لم يُصَبْ فيه ولم يُنكَبْ كان فقيراً من الثواب، وهذا مِثلُ حديث النبي ﷺ: «ليس الرَّقُوبُ الذي لا يبقىٰ له ولد، إنما الرقوبُ الذي لم يقدمْ من ولده شيئاً».

وفي حديث عمر بن عبد العزيـز رضي الله عنه: أنه كُتـب إليه في امرأة خلقاء تزوجهـا رجلٌ فكتَب إليه: إن كانوا علموا بذلك فأغْرِمْهُم صـداقها لزوجها ـ يعني الذين زَوَّجوها ـ وإن كانوا لم يعلموا فليس عليهم إلاَّ أن يحلفوا ما علِموا بذلك. المرأة الخَلْقاء. هي: الرَّتْقاء، مأخوذ أيضاً من الصخرة الملساء المصمتة التي لا يؤثر فيها شيء.

وقد تكرَّر في الحديث ذكرُ «الخَلُوق»، وهو طيبٌ معروف مركَّب، يُتّخذ من الزعفـران وغيره من أنواع الطيب، وتغلِب عليه الحُمرةُ والصُّفرة، قال ابن الأثير: وقـد ورد تـارةً بإباحتـه وتارةً بالنهي عنه، والنهيُ أكثرُ وأثبت، وإنما نَهَىٰ عنه لأنه من طيـب النساء، وكـنَّ أكثـر استعمالاً له من الرجل. والظاهر أن أحاديث النهي ناسخة.

[خ ل ل]

يقول ربنا عز وجل عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] أي: جعله صفوة له وخصه بكراماته. يقال: دعا فلانٌ فخَلَّل، أي: خَصَّ. قال ثعلب: إنما سُمّي الخليل خليلاً؛ لأن محبَّته تتخلَّل القلبَ فلا تدعُ فيه خليلاً إلاّ ملأَتْه، وأنشد قول بشار:

قد تخلَّلتَ مَسْلَكَ الروحِ مني وبـهِ سُمِّـيَ الخليـلُ خليـلاً

وخليـل: فعيل بمعنـىٰ فاعـل، كالعليـم بمعنـىٰ العالم، وقيل: هو بمعنـىٰ المفعـول، كالحبيب بمعنىٰ المحبوب، وقد كان إبراهيـم عليه السلام محبوباً لله ومحبّـاً له. وقال الزجـاج: معنىٰ الخليـل: الـذي ليس فـي محبتـه خَلَل. وقيل: الخليل: الفقير. كأنه لم يجعل حاجته وفقره إلاّ إليه. قال زهير:

وإن أتـاه خليـلٌ يـومَ مَسْغَبـةٍ يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

والخَلَّةُ، بفتح الخاء: الحاجة والفقر، وفي الحديث: «اللهم سادَّ الخَلَّة»أي: جابرَها، ومنه حديث الدعاء للميت: «اللهمّ اسدُدْ خلَّته». وأصلها من التخلُّل بين الشيئين، وهي الفُرجة والثُّلمة التي تركها بعده، من الخلل الذي أبقاه في أموره.

ومـن الخَلّة التي هي الحاجة حديث عامر بن ربيعة رحمه الله، قـال: إن كان رسول الله يبعثنا وما لنا طعامٌ إلاَّ السَّلْفُ من التمر، فنقسمُه قبضةً قبضةً حتىٰ ينتهي إلىٰ تمـرةٍ تمرة، فقال له عبد الله بن عامر: ما عسـىٰ أن تنفعكـم تمرةٌ تمرة. قال: لاتقـل ذاك، فوالله ما عـدا أن فقدْنـاها اختلَلْنـاها. أي: احتَجْنـا إليها فطلبناها. والسَّلْفُ: الجِراب، ويُجمع علىٰ السُّلوف. ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متىٰ يُخْتَلُّ إليه. أي: يُحتاج إليه.

والخُلَّة، بضم الخاء: الصداقة والمحبة التي تخلَّلت القلب فصارت خلاله، أي: في باطنه. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومنه أيضاً قوله عز وجل: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١]. الخِلال: المُخالَّة، وهو مصدر. قال الواحديُّ: هذا قولُ جميع أهل اللغة، وقال أبو عليّ الفارسي: يجوز أن يكون جمع خُلّة، مثل بُرْمة وبِرام، وعُلْبة وعِلاب.

ومن مجيء الخلال بمعنى المخالة والصداقة في الشعر قول امرىء القيس:

صرفْتُ الهوىٰ عنهنَّ من خَشيةِ الرَّدَىٰ ولستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا القالي

وفي الحديث: «إنما المرءُ بخليله ـ أو قال: علىٰ دين خليله ـ فلينظُرِ امرؤٌ من يُخالّ، أو يُخالل». قال أبو عبيد: وكذلك القعيد، من المُقاعدة، والشَّريبُ والأكيلُ، من المشارَبة والمُؤاكلة.

وفي الحديث: «إني أبرأ إلىٰ كلّ ذي خُلَّة من خُلَّته». قال ابن الأثير: وإنما قال ذلك لأن خُلَّتَهُ كانت مقصورة علىٰ حبّ الله تعالىٰ، فليس فيها لغيره متَّسَعٌ ولا شركةٌ من مَحابِّ الدُّنيا والآخرة، وهذه حالٌ شريفة لا ينالها أحدٌ بكسبٍ واجتهاد، فإن الطباع غالبة، وإنما يخُصُّ الله بها من يشاء من عباده، مثل سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

ومن جعل الخليل مشتقًّا من الخَلَّة، وهي الحاجة والفقر، أراد: إني أبرأ من الاعتماد والافتقار إلىٰ أحدٍ غير الله تعالىٰ. وفي الحديث: أن النبي ﷺ بعث رجلاً علىٰ الصدقة، فجاءه بفصيل مخلول أو محلول. قال أبو سليمان الخطابي: قوله: فصيلٌ مخلول: هو المضرور المنهوك. يقال: رجلٌ خَلّ، إذا كان بادي الضُرِّ والهزال. قال الشنفرىٰ:

فـاسقيـانـي يـاسـوادَ بـنَ عمـروٍ　　إن جِسْمـي بعـد خـالـي لَخَـلُّ

وثـوبٌ خَلٌّ، وهو الذي أخَذَ منه البلَىٰ، ومنه سُمّي الفقيرُ خليلاً. وفيه وجـهٌ آخر: وهـو أن يكون المخلول هو الذي فُطم حديثاً، وذلك أنهم إذا أرادوا فطامه عمدوا إلىٰ خـلال فشدُّوه فوق أنفـه وتركـوه ناتئاً منه، حتىٰ إذا أراد الرَّضاع نَخَس الخِـلالُ ضَرْعَ الناقة فزبَنَتْه ــ أي دفعتْه ــ فيُهْـزَلُ عند ذلك الفصيل. وأما المحلولُ فهـو الذي حُلَّ عن أوصاله اللحمُ فعَرِي منه. وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: كان له كساءٌ فَدَكيٌّ، فإذا ركب خَلَّهُ عليه» أي: جمع بين طرفيه بخلال من عُود أو حديد.

وفي الحديـث: «التخلُّلُ من السُّنّـة». هـو استعمال الخـلال لإخراج ما بين الأسنان من الطعام. والتخَلُّل أيضاً والتخليل: تفريقُ شَعَر اللحيـة وأصابع اليدين والرجلين في الوضوء. وأصلُه من إدخال الشيء في خلال الشيء، وهو وسْطُه، ومنه الحديث: «رحم الله المتخلِّلين من أمتي في الوضوء والطعام»، ومنه الحديث: «خلِّلوا بين الأصابع لا يُخلِّلُ الله بينَها بالنار». وفي الحديث: «إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلَّلُ الكلام بلسانه كما تتخلَّل الباقرة الكَلأَ بلسانها»، وهو الذي يتشدَّق في الكلام ويُفخّم به لسانه ويلفُّه كما تلُفُّ البقرةُ الكلأ بلسانها لفّاً. وهذا كما جاء في حديثه الآخر: «ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون». فالثرثارون: هم الكثيرو الكلام، من قولهم: عينٌ ثرَّة، أي: كثيرة الماء. والمتفيهق: من الفَهَق، وهو الامتلاء. والمتفيهق: هو الذي يتوسَّع في كلامه ويملأ بها فاه، كِبراً ورُعونه. اللهم ارزقنا القصد في القول، وامنحنا الهُدَىٰ والرشاد.

[خ ل و]

يقول ربنا عز وجل في شأن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]. يقال: خلوتُ به وخلوتُ إليه، وخلوتُ معه، كلُّ ذلك بمعنًى واحد، أي: انفردت به. وقال بعضهم: إن الأصل في هذا الفعل أن يتعدىٰ بالباء، فيقال: خلوت به. وإنما قال هنا: ﴿ خَلَوْا۟ إِلَىٰ ﴾ لتضمنه معنىٰ ذهبوا وانصرفوا ومضَوْا إلىٰ شياطينهم.

ومن مجيء هذا الحرف متعدياً بالباء علىٰ الأصل ما ورد في حديث الرؤيا: «أليس كلُّكم يرىٰ القمر مُخْلياً به»؟ أي: كلُّكم يراه منفرداً لنفسه، كقوله: «لا تُضارُّون في رؤيته». وفي حديث أم حبيبة رضي الله عنها، قالت له: لستُ لك بمُخْلِية. أي: لم أجدْك خالياً من الزوجات غيري، وليس من قولهم: امرأةٌ مُخْلية: إذا خلَتْ من الزوج. وفي حديث جابر رضي الله عنه: تزوجْتُ امرأةً قد خَلا منها. أي: كَبِرَتْ ومضىٰ مُعْظمُ عمرها، ومنه حديث المرأة التي اشتكت زوجها: فلما خلا سِنِّي ونثرتُ له ذا بطني، تريد أنها كبرت وأولدتْ له.

وفي حديث معاوية بن حيدة القُشيري، قال: قلت: يارسول الله، ما آياتُ الإسلام؟ قال: «أن تقول: أسلمت وجهي إلىٰ الله وتخلّيتُ، وتقيمَ الصلاةَ وتؤتيَ الزكاة، كلُّ مسلم عن مسلم مُحْرِم، أخوان نصيران». فقلت: يا نبيَّ الله، هذا دينُنا؟ قال: «هذا دينكم. وأين ما تُحسِنْ يكْفِك». قوله: «تخليت» من التخلّي، وهو التفرّغ، يقال: تخلّىٰ للعبادة، وهو تَفعَّل، من الخُلُوّ. والمراد: التبرُّؤُ من الشرك، وعَقْدُ القلب علىٰ الإيمان. قال أبو سليمان الخطابي: وفي هذا حجّة لمن ذهب إلىٰ أن المشرك لا يكون مسلماً حتىٰ يتكلم بالشهادة ويتبرّأ من دينه؛ لأن بعض أهل الشرك يؤمن بالله وهو يُنِدُّ معه، أي يتخذ معه أنداداً، ويؤمن برسوله وهو لا يراه

خاتم الأنبياء!

وفي حديث أنس رضي الله عنه: أنت خِلوٌ من مصيبتي. الخِلْو، بكسر الخاء: الفارغ البال من الهموم. والخِلْو أيضاً: المنفرد، ومنه الحديث: «إذا كنتَ إماماً أو خِلْواً». وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: إذا أدركت من الجمعة ركعة، فإذا سلّم الإمامُ فأخلِ وجهك وضُمَّ إليها ركعة. يقال: أَخْلِ أمرك، واخْلُ بأمرك، أي: تفرَّغْ له وتفَرَّدْ به. وورد في تفسير هذا الحديث: استتر بإنسان أو بشيء وصلِّ ركعة أخرىٰ، ويُحمل الاستتارُ علىٰ ألاَّ يراه النـاسُ مصليّـاً ما فاته فيعرفوا تقصيره في الصلاة، أو لأن الناس إذا فرغوا من الصلاة انتشروا راجعين، فأمره أن يستتر بشيء لئلاَّ يمرُّوا بين يديه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. قال: فخلَّىٰ عنهم أربعين عاماً، ثم قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. قوله: «فخلَّىٰ عنهم» أي: تركهم وأعرض عنهم. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان أُناسٌ يستحيُون أن يتخلَّوْا فيُفْضُوا إلىٰ السماء. يتخلَّوْا: من الخلاء، وهو قضاء الحاجة، يعني يستحيُون أن ينكشفوا عند قضاء الحاجة تحت السماء. وفي حديث تحريم مكة: «لا يُخْتلىٰ خَلاَها». الخَلاَ بالقصر: النبات الرطبُ الرقيق ما دام رطباً، واختلاؤه: قطعه . وأخلت الأرض: كثُر خَلاها، فإذا يبس فهو حشيش. ومنه حديث ابن عمر: كان يختلي لفرسه، أي: يقطع له الخلا. والمِخْلَىٰ: الحديدة التي يُحتشُّ بها، وبه سُمّيت المِخْلاة. وفي حديث معتمر: سُئل مالكٌ عن عجينٍ يُعْجَن بدُرْديّ، فقال: إن كان يُسكرُ فلا، فحدَّث الأصمعيُّ به معتمراً فقال: أو كان كما قال:

رأىٰ في كفِّ صاحِبهِ خَلاةً ... فتُعجِبُـه ويُفْـزِعُـه الجـريـرُ

الدُّرْدِيُّ: هو الخميرة التي تُترك علىٰ العصير والنبيذ ليتخمَّر، وأصلُه ما يركُد في أسفل كلِّ مائع كالأشربة والأدهان. والخلاة: الطائفة من الخلا. والجرير: الحبل.

ومعنىٰ البيت أن الرجل يَنِدُّ بعيرُه فيأخذُ بإحدىٰ يديه عُشباً وبالأخرىٰ حبلاً، فينظُرُ البعيـرُ إليهمـا فلا يـدري ما يصنع. ووجه الاستشهاد بالبيت أن معتمراً أعجبتـه فتـوىٰ مالك، لكنه خـاف التحريم لاختلاف النـاس في المسكـر، فتوقَّف وتمثّل بالبيت.

وفي حديث ابن عمر: الخليّةُ ثلاث. كان الرجلُ في الجاهلية يقول لزوجته: أنت خليّة، فكانت تُطلَّق منه، وهي في الإسلام من كنايات الطلاق، فإذا نوىٰ بها الطلاق وقع. يقال: رجلٌ خليٌّ: لا زوجة له، وامرأةٌ خليّةٌ لا زوج لها. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: أنه رُفع إليه رجلٌ قالت له امرأته: شبِّهْني، فقال: كأنك ظبية، كأنك حمامة، فقالت: لا أرضىٰ حتىٰ تقول: خليّةٌ طالق. فقال ذلك، فقال عمر: خذ بيدها فإنها امرأتُك. أراد الرجل بالخليّة هاهنا: الناقة تُخَلَّىٰ من عقالها. وطلَقَتْ من العقال تطلُق طَلْقاً فهي طالق. وقيل: أراد بالخليّة: الغزيرة يؤخَذُ ولدُها فيُعطِفُ عليه غيرُها وتُخَلَّىٰ للحيِّ يشربون لبنها، والطالق: الناقةُ التي لا خِطامَ عليها. وأرادت هي مُخادَعَتَه بهذا القول ليلفظ به فيقع عليها الطلاق، فقال له عمر: خذ بيدها فإنها امرأتك، ولم يوقع عليها الطلاق، لأنه لم ينوِ بهِ الطلاق، وكان ذلك خداعاً منها.

وفي حديث أم زرع: كنت لكِ كأبي زرع لأم زرع في الأُلفة والرفاء، لا في الفُرقة والخلاء. يعني أنه طلقها وأنا لا أطلِّقُكِ. وفي حديث عمر رضي الله عنه أن عاملاً له علىٰ الطائف كتب إليه: إن رجالاً مِن فَهْمٍ كلَّموني في خلايا لهم أسلمُوا عليها، وسألوني أن أحميها لهم. الخلايا: جمع خلية، وهو الموضع الذي تُعَسِّل فيه النحل، وكأنها الموضع التي تُخْلِي فيه أجوافها، ومنه حديثه الآخر: في خلايا العَسَل العُشْر.

[خ م ر]

تدل مادة (خمر) في اللغة علىٰ أصل واحد، وهو التغطيةُ والمخالطة في سَتْر. ومنه قيل لكلِّ مُسْكر: خمر، قال المفسِّرون: الخمر: ما خمَرَ العقل، أي: خالطه، وخمرَ العَقلَ، أي: ستَره. قال الخليل بن أحمد: الخمر معروفة، واختمارُها: إدراكُها وغليانُها، ومخمِّرُها: مُتّخِذُها. وخُمرتُها: ما غشيَ المخمورَ من الخُمار والسُّكر في قلبه. قال الشاعر:

لَـذٌّ أصـابـتْ حُمَيّـاهـا مَقـاتلَـهُ   فلم تكدْ تنجلي عن قلبِهِ الخُمَرُ

ويقال: به خُمارٌ شديد.

وقال تعالىٰ علىٰ لسان الفتىٰ الذي استعبر يوسفَ عليه السلام الرؤيا: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦]. قال ابن عرفة نفطويه: قوله: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: أستخرجُ الخمر، فإذا عُصِر العِنبُ فإنما يُستخرَجُ به الخمر، فلذلك قال: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ وقال أهل اللغة: الخمرُ في لغة أهل عُمان: اسمٌ للعنب، فكأنه قال: إني أراني أعصر عنباً، وحكىٰ الأصمعيّ عن معتمر بن سليمان، قال: لقيت أعرابيّاً معه عنب، فقلت: ما معك؟ قال: خمر. وفي الحديث: «خَمِّرُوا آنيتكم».

التخمير: التغطيةُ. ومنه الحديث: أنه أُتي بإناء من لبن، فقال: «هلاَّ خمَّرْتَه ولو بعُودٍ تعرضُه عليه؟». ومنه الحديث: «لا تجد المؤمن إلاَّ في إحدىٰ ثلاث: في مسجـدٍ يعْمُرُه، أو بيتٍ يخمِّـرُه، أو معيشـة يدبِّرُها». قوله: «يخمِّرُه» أي: يسترُه ويُصلح من شأنه.

وفي حديث سهل بن حُنَيف: قال عامر بن ربيعة: انطلقت أنا وسهلٌ نلتمس الخَمَر، فوجدْنا خَمَراً وغدير ماء. الخَمَر بالتحريك: كلُّ ما سَتَرك من شجرٍ أو بناء أو غيره، وأكثر ما يطلق الخَمَرُ علىٰ ما يواريك من شجر. ومنه حديث أبي قتادة: أنه

كان في سفر مع رسول الله ﷺ، فبينا هما في الطريق نَعَس رسول الله ﷺ. قال أبو قتادة: فقلت: يا رسول الله، لو عدلْت فنزلت حتىٰ يذهبَ كَراك. قال: «فابْغنا مكاناً خَمِراً» أي: مكاناً ساتراً يتكاثف شجره.

وفي حديث أبي الدرداء: أنه كتب إلىٰ سلمان رضي الله عنهما يدعوه إلىٰ الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان يقول: يا أخي، إن بعُدت الدار من الدار فإنَّ الروح من الروح قريب، وطير السماء علىٰ أرْفَهِ خَمَرِ الأرضِ تقَع. الأرْفه: الأخصب. يريد أن وطنه أرفق به وارْفَهُ له فلا يُفارقه.

وفي حديث معاذ: أن عائذ الله بن عمرو قال: دخلت المسجد يوماً مع أصحاب رسول الله ﷺ أخمرَ ما كانوا ــ أو أجمَرَ ما كانوا، ثم ذكر حديثاً حدَّثهم به معاذ. قال الخطابي: قوله: أخمرَ وأجمر كلاهما متقاربان، والمعنىٰ: أوفر ما كانوا وأكثرهم عدداً، إلاَّ أن أخمر بالخاء أحسنُهما، وهو مأخوذٌ من قول الرجل: دخلت في خُمار الناس، أي: في دهمائهم وجماعتهم. قال الكسائي: يقال: دخلتُ في خُمار الناس وخَمار الناس، وخَمَر الناس، أي: جماعتهم وكثرتهم. ومنه حديث أويس القرني: أكون في خَمار الناس، أي: في زحمتهم حيث أَخَفْىٰ ولا أُعْرَف.

وفي حديث أم سلمة، قال لها وهي حائض: «ناوليني الخُمرة». قال ابن الأثير: هي مقدارُ ما يضع الرجلُ عليه وجْهَه في سجوده من حصير أو نسيجة خُوص ونحوه من النبات، ولا تكون خُمرةً إلا في هذا المقدار، وسمّيت خُمرة لأن خيوطها مستورةٌ بسَعفها، وقد تكررت في الحديث، هكذا فُسِّرت، وقد جاء في «سنن أبي داود»، عن ابن عباس، قال: جاءت فأرةٌ فأخذت تجُرّ الفتيلة، فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله ﷺ علىٰ الخُمْرة التي كان قاعداً عليها، فأحرقتْ منها مثل موضع درهم. وهذا صريحٌ في إطلاق الخُمْرة علىٰ الكبير من نوعها.

والخِمار، بكسر الخاء: ما تغطي به المرأة رأسها. يقال: اختمرت المرأة

وتخمَّـرت، ويجمـع على خُمُـر، قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وقد يُستعمـل الخمار في معنىٰ العمامة للرجل، ومنه الحديث: أنه ﷺ كان يمسح علىٰ الخُفِّ والخمار. قال ابن الأثير: أراد به العمامة؛ لأن الرجل يغطِّي بها رأسه كما أن المرأة تغطّيه بخمارها، وذلك إذا كان قد اعتمّ عِمة العرب فأدارها تحت الحنك فلا يستطيع نزعها في كلِّ وقت فتصير كالخفَّين، غير أنه يحتاج إلىٰ مسح القليل من الرأس، ثم يمسح علىٰ العمامة بدل الاستيعاب.

ويقال: امرأةٌ حسَنةُ الخِمْرة، وهي هيئة الاختمار، ومنه حديث عمرو بن العاص، قال لمعاوية رضي الله عنهما: ما أشبهَ عينَك بخِمْرة هند! وفي المثل: إن العَوان لا تُعَلَّم الخِمْرة. يضرب للمجرِّب العارف، أي: إن المرأة المجرِّبة لا تُعَلَّم كيف تفعل. والمرأة العَوان: الثيّب.

وفي حديث معاذ: من استخمر قوماً أوّلُهُم أحرارٌ وجيرانٌ مستضعفون فإن له ما قصَرَ في بيته حتىٰ إذا دخل الإسلام. قوله: «من استخمر قوماً» كان عبد الله بن المبارك يقول: استخمر: استعبد. وقال محمد بن كثير: هذا كلامٌ عندنا معروف باليمن، لا يكاد يُتكلَّم بغيره. يقول الرجل: أخْمِرْني كَذا وكذا، أي: أعطنيه وهَبْه لي، مَلِّكْني إياه، ونحو هذا المعنىٰ: من أخذ قوماً قَهْراً وتملّكاً، فإنّ من قصَرَه، أي: احتبسه واحتازه في بيته واستجراه في خدمته إلىٰ أن جاء الإسلام فهو عبدٌ له. قال أبو منصور الأزهري: المخامرة: أن يبيع الرجلُ غلاماً حرّاً علىٰ أنه عبد، وقولُ معاذ من هذا، أراد: من استعبد قوماً في الجاهلية، ثم جاء الإسلام، فله ما حازه في بيته، لا يُخْرَج من يده. وقوله: «وجيرانٌ مستضعفون» أراد ربّما استجار به قومٌ أو جاوروه فاستضعفهم واستعبدهم، فكذلك لا يُخرجُون من يده. وهذا مبنيٌّ علىٰ إقرار الناس علىٰ ما في أيديهم.

[خ م ص]

يقول ربنا عز وجل في شأن الضرورة التي تُبيح أكلَ ما حرَّمه من الميتة ونحوها: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. مخمصة أي: مجاعة، وهو مصدر، مثل المَغْضَبة والمَعْتبة، وقد خَمَصه الجوعُ خَمْصاً ومَخْمَصة. والخَمْصة: الجوعة. يقال: ليس للبِطْنة خيرٌ من خَمْصةٍ تتَبُعها.

وهذه المادة (خمص) تدلّ علىٰ الضُّمْر والتطامن، وتستعمل كثيراً في الجوع؛ لأن الجائعَ ضامرُ البطن. قال الأعشىٰ:

تبيتونَ في المَشْتَىٰ مِلاءً بطونُكم وجاراتُكم غَرْثَىٰ يَبِتْنَ خمائصا

وفي الحديث: «لو أنكم توكَّلون علىٰ الله حقَّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً» أي: تغدُو بكرةً في أول النهار وهي جياع، ثم تروح عِشاءً وهي ممتلئةُ الأجواف. ومنه الحديث الآخر: «خماصُ البطون خِفافُ الظهور» أي: أنهم أعِفَّةٌ عن أموال الناس، فهم ضامرو البطون من أكلها، خفاف الظهور من ثقل وِزرها.

وفي حديث صفة النبيّ ﷺ: «خُمصانُ الأخمَصَيْن». الأخمَصُ من القدم: الموضعُ الذي لا يصل إلىٰ الأرض منها عند الوطء. والخُمْصان: المبالغُ منه، أي: أن ذلك الموضع من رجله شديدُ التجافي عن الأرض. وسُئل ابنُ الأعرابي عنه، فقال: إذا كان خَمَصُ الأخمَص بَقْدرٍ لم يرتفع جدّاً، ولم يستوِ أسفلُ القدم جدّاً، فهو أحسن ما يكون، وإذا استوىٰ أو ارتفع جدّاً فهو ذم، فيكون المعنىٰ حينئذٍ: معتدل الخَمَص، بخلاف الأول.

قال ابن الأثير: وكلا القولين متّجه يحتمله اللفظ، فإن الخَمَصَ الجوعُ وخلوُّ البطن. يقال: رجلٌ خُمْصانٌ وخميصٌ: إذا كان ضامرَ البطن. ومنه حديث جابر

رضي الله عنه: رأيت بالنبي ﷺ خَمْصاً شديداً.

وفي الحديث: قيل للنبيّ ﷺ: هذا عليٌّ وفاطمةُ قائمين بالسُّدَّة فأْذنْ لهما، فدخلا فأغدفَ عليهما خميصة سوداء. السُّدة: الباب. وأغدف: أرْخىٰ. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه رمىٰ الجمرة بسبع حصَيات ثم مضىٰ، فلما خرج من فضَضِ الحصىٰ وعليه خميصةٌ سوداءُ أقبل علىٰ سلمان بن ربيعة فكلَّمه بكلام. قد تكرر ذكرُ «الخميصة» في الحديث. قال الأصمعي: هي مُلاءةٌ من صوف أو خَزٍّ مُعْلَمة، فإن لم تكن مُعْلَمة فليست بخميصة، سُمّيت بذلك لرقتها ولينها وصغر حجمها إذا طويت، وهذا راجع إلىٰ معنىٰ الخَمَص الذي هو الضُّمْر والتطامن. وقال بعض الأعراب في وصفها: الخميصةُ: الملاءةُ الليّنةُ الرقيقةُ الواسعة التي تتّسع منشورةً وتصغر مطويّة، تكفي من القُرّ، وتجمّل الملبس، ليست بقرَدَةٍ ــ أي متلبّدة ــ ولا ثخينة. وجمع الخميصة: الخمائص.

[خ ن س]

تدلُّ مادة (خَنَس) في العربية علىٰ معنًى واحد هو الاستخفاء والتستُّر. قال عز من قائل: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]. الخُنَّس: هي الكواكب الخمسة: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والزُّهَرَة، وعُطارد. سُمِّيت بذلك لأنها تخْنُس في المغيب، أو لأنها تخفىٰ نهاراً. وقيل: سمّيت خُنَّساً؛ لأنها الكواكب المتحيّرة التي ترجع وتستقيم. يقال: خَنَس عنه يخنِسُ خنوساً: إذا تأخر، وأخنسه غيرُه: إذا خَلَّفه ومضىٰ عنه. والخَنَسُ: تأخُّر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة. وجاء في الحديث: «الشيطان يُوسوسُ إلىٰ العبد، فإذا ذكر الله خَنَس» أي: انقبض وتأخر، وهو في قوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]. قال قتادة: إن الشيطان

له خُرطومٌ كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل ابنُ آدم عن ذكر الله وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربّه خنس. ويقال: خنستُه فخَنَس، أي: أخّرتُه فتأخّر، وأخنسْتُه أيضاً، ومنه قولُ العلاء بن الحضرميّ، يخاطب رسول الله ﷺ:

فإن دَحَسُوا بالشرِّ فاعفُ تكرُّماً   وإن خَنَسُوا عنك الحديثَ فلا تَسَلْ

ودحسواً، أي: دسُّوا. ويروىٰ: «دخَسُوا» بالخاء المعجمة، وهو بمعناه: يريد إن فعلوا الشرَّ خُفيةً من حيث لا تعلم. وفي الحديث: «يخرُج عُنُقٌ من النار فتخنِسُ بالجبارين في النار» أي: تدخلُهم وتغيِّبُهم فيها. والعُنُق: الطائفة. وفي حديث كعب رضي الله عنه: تُمسَكُ النارُ يوم القيامة حتىٰ تبصَّ كأنها متنُ إهالة، فإذا استوت عليها أقدام الخلائق نادىٰ منادٍ: أمسكي أصحابك ودعي أصحابي فتخنِسُ بهم ــوروي فتَخسِفُ بهم، فيخرُج منها المؤمنون نديّة ثيابُهم». قوله: «تبصّ» أي: تَبرُق ويتلألأ ضوءُها. والإهالة: ما يؤتدَمُ به من الأدهان.

وفي حديث ابن عباس: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يصلِّي، فأقامني حِذاءَه، فلما أقبل علىٰ صلاته ٱنخنست» أي: تأخّرت. ومنه حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرُق المدينة. قال: فٱنخنست منه. وفي رواية «ٱختنسْتُ» علىٰ المطاوعة بالنون والتاء. وروي: «فانتجشْتُ منه» بالجيم والشين، أي: أسرعتُ، وإنما فعل أبو هريرة ذلك لأنه كان جُنُباً. وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يتأدبون مع النبي ﷺ.

وفي حديث صوم رمضان: وخَنَس إبهامَه في الثالثة، أي: قَبَضها. وفي حديث جابر: أنه كان له نخلٌ فخنَسَتِ النخلُ، أي: تأخرتْ عن قبول التلقيح فلم يؤثّرْ فيها ولم تحمل تلك السنة.

وفي الحديث: «تقاتلون قوماً خُنْسَ الآنُف». الخَنَس بالتحريك: انقباض قصبة الأنف وعِرَضُ الأرنبة. والرجل أخنسُ والجمع: خُنْس. قال ابن الأثير:

والمـراد بهـم التُّرك؛ لأنه الغالبُ علىٰ آنافهم، وهو شبيهٌ بالفَطَس. ومنـه حديثُ عبد الملك بن عُمير: «لفُطْسٌ خُنْس» أراد بالفُطس نوعاً من تمر المدينة. وشبَّهه في اكتنازه وانحنائه بالأنوف الخُنْس؛ لأنها صِغارُ الحَبّ لاطئةُ الأقماع.

[خ و ف]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: ادعوه خائفين عذابه وطامعين في ثوابه. قال الإمام الشوكاني: وفيه أنه يُشرَع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وَجِلاً، طامعاً في إجابة الله لدعائه. فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفِرَ بمطلوبه.

والخـوفُ: الانزعاج من المضارّ التي لا يؤمَـنُ من وقوعها. والطمع: توقعُ حصـول الأمور المحبوبة. وقـال عز من قائل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢]. قال قتادة: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقّته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمعُ في رزق الله. وقيل: المراد بالخوف: الحاصلُ من الصواعق، وبالطمع: الحاصلُ من المطر. وقيل: خوفاً لمن يخاف ضُرَّه؛ لأنه ليس كلَّ بلدٍ وكلَّ وقت ينفعُ المطر، وطمعاً لمن ينتفع به.

قال الراغب الأصبهاني: الخوفُ من الله لا يرادُ به ما يخطُر بالبال من الرّعب كاستشعار الخوف من الأسد، وإنما يرادُ به الكفُّ عن المعاصي واختيارُ الطاعات، ولذلك قيل: لايُعدُّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً. والتخويفُ من الله تعالىٰ: هو الحثُّ علىٰ التحرُّز، وعلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر: ١٦].

ونهى الله تعالىٰ عن مخافة الشيطان والمبالاة بتخويفه، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] قيل: المعنىٰ أن الشيطان يخوِّف المؤمنين أولياءه، وهم الكافرون، فيكون المفعولُ الأولُ محذوفاً والثاني مذكوراً. وقيل: إن قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض، أي يخوِّفكم بأوليائه، أو من أوليائه. قاله الفراء والزجاج وأبو علي الفارسي، وردَّه ابن الأنباري بأن التخويف قد يتعدىٰ بنفسه إلىٰ مفعولين، فلا ضرورة إلىٰ إضمار حرف الجر. وعلىٰ كلا القولين يكون في الآية حذف. قال بعض المفسرين: ويجوز أن يكون المراد أن الشيطان يخوِّفُ أولياءه، وهم القاعدون عن القتال من المنافقين. وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي: لا تخافوا أولياءه الذين يخوِّفكم بهم الشيطان. نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبُنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج، وأمَرَهم أن يخافوه سبحانه فقال: ﴿وَخَافُونِ﴾ فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه لأني الحقيقُ بالخوف مني والمراقبة لأمري ونهيي، لكون الخير والشرِّ بيدي، وقيَّده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي ذلك.

وقال تعالىٰ مخبراً عن حِلمه وإمهاله العصاةَ من عباده: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ ــ ٤٧]. قوله: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي: يأخذَهم حالَ تخوُّف وتوقعٍ للبلايا، بأن يكونوا متوقِّعين للعذاب حذرين منه، غيرَ غافلين عنه، فهو خلاف ما تقدم من قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥]. والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ قادرٌ علىٰ أخذهم وإهلاكهم في حالتيهم، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، حذرين أو غافلين. وقيل: معنىٰ ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ علىٰ تنقّص. قال ابنُ الأعرابي، أي: علىٰ تنقُّص من الأموال والأنفس والثمرات حتىٰ يهلكَهم. وقال الواحديُّ: قال عامة المفسِّرين: ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، قال: تنقُّص، إما بقتل أو بموت، يعني بنقص من أطرافهم ونواحيهم، يأخذُهم الأولَ فالأولَ حتىٰ يأتي الأخذُ علىٰ جميعهم. قال: والتخوف:

التنقُّص. يقال: هو يتخوّف المال، أي: يتنقَّصُه، ويأخذ من أطرافه. ويستشهد اللغويون علىٰ التخوُّف بمعنىٰ التنقص، بقول ذي الرُّمّة:

تخوَّفَ السَّيرُ منها تامكاً قَرِداً   كما تخوَّفَ عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ

يصف ناقة أجهدها السير ــ ويروىٰ: تخوَّف الرحلُ ــ والتامك: المرتفع السَّنام. والقرِدُ: المتلبّدُ بعضُه فوق بعض، والنَّبعةُ: واحدة النبع، وهو شجرٌ تتَّخَذُ منه القِسِيّ. والسَّفَن: المبْرد، وكلُّ ما يُنحتُ به الشيء. وقال لبيدٌ يصف ناقته أيضاً:

تخَوَّفَها نزولي وارتحالي

أي: تَنَقَّص لحمَها وشحمَها. قال الهيثم بن عدي: التخوّف بالفاء: التنقُّص، لغةٌ لأزد شنوءة، وأنشد:

تخوَّف عَدْوُهم مالي وأهدىٰ   سلاسلَ في الحلوقِ لها صَلِيلُ

وقيل: علىٰ تخوُّف: علىٰ عجل. ويرىٰ ابن فارس أن الفاء في تخوّف مبدَلةٌ من النون. قال في ترجمة (**خوف**): فأما قولهم: تخوّفتُ الشيء أي: تنقَّصته فهو الصحيح الفصيح، إلا أنه من الإبدال، والأصل: النون. يريد تخوَّن.

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نِعم العبدُ صُهيب، لو لم يخف الله لم يعصه. أراد أنه إنما يطيع الله حبّاً له لا خوفَ عقابِه، فلو لم يكن عقابٌ يخافه ما عصىٰ الله، ففي الكلام محذوف، تقديره: لو لم يخف الله لم يعصه فكيف وقد خافه؟

وفي الحديث: «أخيفوا الهوامَّ قبل أن تخيفكم» أي: احترسوا منها، فإذا ظهر منها شيءٌ فاقْتلوه. والمعنىٰ اجعلوها تخافكم، واحملوها علىٰ الخوف منكم؛ لأنها إذا رأتكم تقتلونها فرَّت منكم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مثلُ المؤمن الضعيف كمثل خافة الزرع،

يميلُ مرّة ويعتدل أخرىٰ. خافَةُ الزرع: هي وعاءُ الحَبّ، سُمّيت بذلك لأنها وقايةٌ له، ويقال للعَيْبَة والخريطة التي يُشتار فيها العسل: خافةٌ، من هذا، والخوف هو الاتقاء. ومعنىٰ الحديث أن المؤمن مُرزَّءٌ بأحداث الزمان، تُصيبه المصائب في نفسه وماله وأهله. ويروىٰ «مَثَلُ خافتة الزرع»، وهو: ما لان وضَعُف. ويروىٰ أيضاً بالميم: «مَثَلُ الخامة من الزرع». والخامة: هي الطاقة الغَضّة الليّنة من الزرع.

[خ و ل]

يقول ربنا عز وجل في شأن من يدعوه عند العُسْر وينساه عند اليُسر: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. يقال: خوَّله، أي: أعطاه وملَّكه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩] يقال: هم خَوَلُ فلان، أي: أتباعه، الواحد: خائلٌ، والخَوَلُ: الرُّعاة، يقال: هو يخول عليهم، أي: يرعىٰ عليهم، وكلُّ من أعْطىٰ عطاءً علىٰ غير جزاء فقد خَوَّل، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾. ويقال: الخَوَل: كلُّ ما أعطىٰ اللّٰهُ العبدَ من العبيد والنَّعَم.

وهذه المادة (خول) ترجع إلىٰ معنىٰ التعهّد والحفظ. فالخائل: الحافظُ للشيء. يقال: فلانٌ يخول علىٰ أهله، أي: يرعىٰ عليهم. وقد خُلتُ المال أخولُه، أي: أحسنتُ القيام عليه. يقال: هو خالُ مالٍ، وخائلُ مالٍ، وخَوْليُّ مال، أي: حسَنُ القيام عليه. ومن فَصيح كلامهم: تخوَّلتِ الريحُ الأرض، إذا تعهَّدتْها

وتصرَّفت فيها مرَّة بعد مرة.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. حكىٰ أبو عبيد القاسم بن سلام قال: قال أبو عمرو: يتخوَّلهم، أي: يتعهّدُهم بها، والخائل: المتعهِّد للشيء والحافظُ له والقائم به. وقال الفراء: والخائل: الراعي للشيء والحافظُ له. وقد خال يخول خَوْلاً. قال أبو عبيد: وأهل الشام يسمُّون القائم بأمر الغنم والمتعهد لها: الخَوْليّ، ولم يعرِفْها الأصمعيّ، وقال: أظنُّها بالنون: يتخوَّنُهم، قال: وهو التعهُّد أيضاً، قال: ومنه قولُ ذي الرُّمّة:

لا يَنعَشُ الطرفَ إلاَّ ما تَخوَّنَهُ داعٍ يُناديهِ باسمِ الماءِ مبغومُ

قولـه: تخوَّنـه، يعنـي تَعهَّـدَه. قال أبو عبيـد: وأخبـرني يحيـى بـنُ سعيـد القطان، عن أبي عمرو بن العلاء، أنه كان يقول: إنما هو «يتخوَّلُهم بالموعظة» أي: ينظـر حالاتهم التي ينشَطون فيها للموعظة والذّكر، فيعِظُهم فيها ولا يُكثر عليهم فيملُّوا.

وفي حديـث العبيـد: «هم إخوانُكـم وخَوَلُكـم، جعلهم الله تحت أيديكـم» الخول: حشمُ الرجل وأتباعُه، واحدهم خائل. وقد يكون الخَوَلُ للواحد، ويقع علىٰ العبد والأمة، وهو مأخوذ من التخويل: التمليك، وقيل: من الرعاية والحفظ، ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان دِينُ الله دَخَلاً. ومالُ الله نُحْلاً. وعبادُ الله خَوَلاً. الدَّخَل: الغِشُّ والفساد، ومثله الدَّغَل. والنُّحْل: ما كان من العطاء ابتداءً علىٰ غير عوض. قال الخطابي: الخَوَلُ: من كان استخدامُـه علىٰ سبيل قهر وذل، جمع خائـل. يقـال: خائـلٌ وخَـوَل، كما قالوا: حارسٌ وحَرَسٌ، وطالبٌ وطَلَب.

[خ و ن]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

تدل مادة (**خون**) علىٰ التنقص. وأصل الخيانة: أن تَنْقُصَ المؤتمِنَ لك. قال زهير:

بـآرِزةِ الفَقـارةِ لـم يَخُنْهـا قِطافٌ في الرِّكابِ ولا خِلاءُ

أي: لم يَنْقُصْ فراهَتَها ونشاطها، يصف ناقة.

وخيانة العبد ربَّه: ألاّ يؤدِّي الأمانات التي ائتمنَه عليها. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]. الخائنة بمعنىٰ الخيانة [بوزن فاعلةٍ] وفاعلة في المصادر معروفة، يقال: عافاه الله عافية، وسمعت راغية الإبل وثاغية الشاء، أي: رُغاءَها وثُغاءَها. ويقال: رجلٌ خائنة: إذا بُولغ في وصفه بالخيانة، وإلحاق التاء لذلك، كعلاّمة ونسَّابة. وفي الحديث: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعيُن» أي: يُضمرُ في نفسه غيرَ ما يُظهره، فإذا كفَّ لسانه وأومأ بعينه فقد خان، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قِبَلِ العينِ سميت خائنةَ الأعين، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] أي: ما يخونون فيه من مسارقة النظر إلىٰ ما لا يحلّ.

وروي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: الرجل يكون في القوم فتمرُّ بهم المرأةُ فيُريهم أنه يغُضُّ بصره عنها، وإذا غفَلوا لحَظَ إليها، وإذا نظروا غضَّ بصرَه عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ أن ينظر إلىٰ عورتها. وقال في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ يعلم إذا أنت قدرْتَ عليها هل تزني بها أم لا؟

وتمام حديث رسول الله ﷺ السابق ما أخرجه أبو داود والنسائي، عن سعد قال: لمّا كان يومُ فتح مكة أمَّن النبيُّ ﷺ الناس إلاَّ أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ البيعة جاء به، فقال: يا رسول الله، بايعْ عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كلُّ ذلك يأبىٰ بيعتَه، ثم بايعه، ثم أقبل علىٰ أصحابه، فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيد يقوم إلىٰ هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتُلَه؟» فقالوا: ما يُدرينا يا رسول الله ما في نفسك. هلاَّ أومأت إلينا بعينك؟ فقال: «إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة الأعين».

وفي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ أن يطرُقَ الرجلُ أهله ليلاً لئلاَّ يتخوَّنهم. أي: يطلب خيانتهم وعثراتهم ويتهمهم. وهذا من أدب النبوة العالي، وقد جاء النهي عن طروق الأهل ليلاً في قوله ﷺ أيضاً: «أمهلوا حتىٰ تمتشط الشَّعِثَةُ وتستحد المُغيبة»، والمُغيبة: هي التي غاب عنها زوجها، وذلك أنه ﷺ كان قدِم من سفر، فأراد الناسُ أن يطرُقُوا النساء ليلاً. فقال لهم ما قال. اللهم انفعنا بهذا الهدي النبوي الكريم وارزقنا اتباعه والاقتداء به.

[خ و ى]

تدل مادة (خوىٰ) علىٰ معنًى واحد في العربية هو الخُلُوُّ والسُّقوط. يقال: خَوَتِ الدارُ تَخْوِي خَواءً، أي: خلت من أهلها. ويقال: خوت النجومُ تَخْوي خيّاً، أي: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سقطت ولم يكن عند سقوطها مطر.

وقال تعالىٰ في شأن الريح التي أرسلها علىٰ عادٍ قوم هود: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] أي:

كأنهم أصولُ نخل ساقطة، أو بالية. وقيل: خاليةٌ لا جوف فيها. وقال الحافظ ابن كثير: أي: جعلَتِ الريحُ تضرب بأحدهم الأرض فيخرُّ ميتاً علىٰ أمِّ رأسه، فينشدخ رأسُه، وتبقىٰ جثّتُه هامدة كأنها قائمةُ النخلة إذا خرَّتْ بلا أغصان. وقال أبو عبيد الهرويُ في قوله تعالىٰ: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾: هي التي انقلعت من أصولها، فخوىٰ منها مكانُها، أي: خَلاَ. والخواءُ: المكانُ الخالي. وقال في قوله تعالىٰ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الحج: ٤٥] قال: أي: لا أنيس فيها. ومثل ذلك قوله ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: ساقطة علىٰ عروشها، أي: سقط السقفُ ثم سقطت الحيطان عليه. قاله السُّدّي واختاره ابن جرير. وقيل: معناه خاليةٌ من الناس والبيوتُ قائمة.

وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ كان إذا سجد خَوَّىٰ، أي: جافىٰ بطنَه عن الأرض ورفعها، وجافىٰ عضُدَيه عن جنبيه حتىٰ يَخْوَىٰ ما بين ذلك، أي: يخلو. وجاء في الحديث: أن البراء بن عازب رضي الله عنه، وصف السجود، فبسط يديه، ورفع عجيزته وخَوَّىٰ، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يسجد. قال الزمخشريُّ: التخوية أن تجعل بينك وبين الأرض خَواءً، أي: هواءً وفجوة. وخواء الفرس: ما بين يديه ورجليه من الهواء. قال أبو النجم العجليُّ يصف الظَّليم ــ وهو الذكَرُ من النعام ــ:

هاوٍ تضِلُّ الريحُ في خَوائِهِ

ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا سجد الرجلُ فليُخَوِّ، وإذا سجدت المرأة فَلْتحتَفِزْ. قال أبو عبيد: قوله: «فليخَوِّ» يعني فَلْيَتَفَتَّح ولْيتجافَ حتىٰ يُخَوِّي ما بين عضُدَيْه وجنْبيه. وقوله: «فلتحتفزْ» يعني أن المرأة إذا سجدت تتضامُّ.

وفي الحديث: أن أبا جهل لم يشعُرْ بعسكر رسول الله ﷺ يوم بدر حتىٰ تصايح الفريقان. ففزع أبو الحكم فقال: ما الخبر؟ فقيل: محمدٌ في الدَّهْم بهذا القَوْز. قال: فأخذته خَوَّةٌ فلا ينطق. الخَوَّة: الفَتْرة. وأصله من الخَوَى. قال ابن الأعرابي: الخَوَّةُ: الجوع، كانت في الأصل: خَوْية. يقال: خَوِي فلانٌ يَخْوىٰ خَوَىٰ: إذا

جاع، فشُدّدت الواو وتركت الياء. والدَّهْم: الخلقُ الكثير. والقَوْز[1]: الكثيبُ من الرمل. والخُوَّة، بضم الخاء: لغةٌ في الأُخوّة، وعليها قوله ﷺ في أبي بكر رضي الله عنه: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر، ولكن خُوَّةُ الإسلام» أي: أُخُوة الإسلام.

[خ ي ر]

تدل مادة (خير) علىٰ معنىٰ العطف والميل، ثم يُحمل علىٰ هذا المعنىٰ ما يتصرف من المادّة في الاستعمال. فالخير: خلاف الشر، لأن كلَّ أحدٍ يميل إليه ويعطفُ علىٰ صاحبه، هكذا قال ابن فارس. وقال الراغب الأصفهانيُّ: الخيرُ ما يرغب فيه الكلُّ، كالعقل مثلاً والعدل والفضل، والشيء النافع. وضدُّه الشرُّ. والعرب تُسمِّي المال الخير، ومنه قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

روي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال: مالاً. وقال بعض المفسرين: لا يقال للمال: خير حتىٰ يكون كثيراً، واستدل بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، وبما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه دخل علىٰ مولًى لهم في الموت وله سبعُ مئة

---

(١) ويجوز بالراء، والمعنىٰ واحد، قال في «اللسان»: والقُور ـ[بضم القاف وسكون الواو ثم راء بعدهما]ـ: التراب المجتمع. ولم يسق الحديث.
وقد ساق المؤلف رحمه الله تعالىٰ كلمة «القور» ـ بضمٍّ وراء ـ في آخر مادة (د ك ك) من هذا الكتاب مع الشرح. كما أن هذا الخبر نفسه تكرر في مادة (د هـ م) من الكتاب، وفسّر «الخوّة» بأوضح من هنا وأقطع. (الناشر).

درهـم، أو ستُّ مئة درهم، فقال: ألا أُوصي؟ قال: لا، إنما قـال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وليس لك كثيرُ مال، فدَعْ مالك لورثتك. وروي أيضاً أن رجلاً قال لعائشة رضي الله عنها: أريد أن أوصي، قالت: كم مالُك؟ قال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالُك؟ قال: أربعة. قالت: قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]. وإنّ هذا شيءٌ يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل.

ومن استعمال الخير في المال أيضاً قوله عز من قائل: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩] أي: لا يملُّ ولا يفترُ من طلب المال وما يُصلح دنياه. وقرأ عبد الله بنُ مسعود رضي الله عنه: لا يسأم الإنسانُ من دعاء المال. قيل: الخير هنا: المال والصحة والسلطان والرفعة. قال السُّدّي: والإنسان هنا يراد به الكافر. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبةُ وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. قال الشوكانيّ: والأولىٰ حملُ الآية علىٰ العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خُروجُ خُلّص العباد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] أي: في الجنان حُورٌ خَيْراتُ الأخلاقِ حِسانُ الوجوه. وقرأ الجمهور: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾. بالتخفيف. وقرأ قتادةُ وابن السميفع وأبو رجاء العُطاردي وجماعة: (خَيِّرَاتٍ) بالتشديد، فعلىٰ القراءة الأولىٰ: هي جمع خَيْرَة بوزن فَعْلَة، بسكون العين، يقال: امرأة خَيْرة، وأُخرىٰ شَرَّة، وعلىٰ الثانية: جمع خيِّرة بالتشديد. وقيل: إنّ خَيْرةً مخفَّفُ خيِّرة، مثل: ميِّت ومَيْت، وهيِّنْ وهَيْن. قال الجوهري: ورجلٌ خيِّرٌ وخَيْر، مشدّد ومخفّف، وكذلك امرأةٌ خيِّـرة وخيْـرة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [التوبة: ٨٨] جمع خَيْرة، وهـي الفـاضلةُ من كل شيء، وقال تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]. قال الأخفش: إنه لِمَا وُصف به. وقيل: فلانٌ خَيرٌ، أشبَهَ الصفات، فأدخلوا فيه الهاء للمؤنّث ولم يريدوا به أفعل، وأنشد أبو عبيدة لرجل من بني عديّ ــ جاهلي:

ولقد طعنتُ مجامعَ الرَّبَلاتِ رَبَـلاتِ هنـدٍ خَيْـرةِ الملكـاتِ

فإن أردت معنىٰ التفضيل قلت: فلانةُ خيرُ الناس ولم تقل: خَيْرة، وفلانٌ خيرُ الناس، ولم تقل: أخْير، ولا يُثنىٰ ولا يُجمع؛ لأنه في معنىٰ أفعل.

قال تعالىٰ في قصة نبيّه سليمان عليه السلام: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]. الخير هنا معناه: الخيل. قال الفراء: الخيرُ والخيلُ في كلام العرب واحد. وفي الحديث: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخير». فكأنها سُمّيت خيراً لهذا. وقيل: إنها سُمّيتْ خيراً لما فيها من المنافع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]. قال ابن عرفة نفطويه: لم يكن علىٰ عهد رسول الله ﷺ خيرٌ من نسائه، ولكنْ إذا عصَيْنَه فطلقَهُنَّ علىٰ المعصية ففي سواهُنّ خيرٌ منهن.

وقال عز من قائل: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]. قوله تعالىٰ: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: بخير لكم، فإن يكن تخفيفاً كان خيراً في الدنيا والآخرة، وإن يكن تشديداً كان خيراً في الآخرة؛ لأنهم أطاعوا الله تعالىٰ فيه. وقال الشوكاني: ومعنىٰ: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ نأت بما هو أنفع للناس منها في العاجل والآجل، أو في أحدهما، أو بما هو مماثلٌ لها من غير زيادة. ومرجع ذلك إلىٰ إعمال النظر في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخفَّ فيكونُ أنفعَ لهم في العاجل، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم في الآجل، وقد يستويان فتحصل المماثلة.

وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] الخِيَـرةُ، أي: الاختيار، وهو طلبُ خير الأمرين. وفي «الصحاح»: الخِيَرة مثال عِنَبةٍ: الاسمُ من قولك: اختاره الله. يقال: محمدٌ ﷺ خِيَرةُ الله من خَلْقِه، وخِيْرةُ الله أيضاً بالتسكين.

والاستخـارةُ: طلَبُ الخِيَـرة في الشـيء، وهـو استفعـالٌ مـن الخير، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ يعلّمُنا الاستخارة في كلِّ شيء. وفي دعاء الاستخارة: «اللهمَّ خِرْ لي» أي: اختر لي أصلح الأمرين، واجعل لي الخيرة فيه. وتقول: خِرْتَ يا رجل فأنت خائرٌ وخيِّر، وخار الله لك، أي: أعطاك ما هو خيرٌ لك.

وفي الحديـث: أن النبي ﷺ بعث مُصَدِّقاً ــ وهو جامعُ الزكـاة ــ فانتهىٰ إلىٰ رجـل من العـرب له إبـلٌ، فجعل يطلب في إبله، فقال له: ما تنظر؟ فقال: بنت مخاضٍ أو بنت لبون. فقال: إني لأكرهُ أن أُعطي الله من مالي ما لا ظَهْرٌ فيُركب، ولا لبنٌ فيُحلـب، فاخترها ناقـةً. قال الزمخشري: الاختيـار: أخْـذُ ما هو خير، وهو يتعدّىٰ إلىٰ أحد مفعوليه بوساطة (مِن)، ثم يُحذف ويوصل الفعل، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. ومثله في حذف (مِن) وإيصال الفعل قول الراعي:

اختَرْتُكَ الناسَ إذ رَثَّتَ خلائقُهمْ وَاعْتَلَّ مَن كان يُرْجَىٰ عندَهُ السُّولُ

يريد: اخترتك من الناس. وأراد الرجل: فاختر منها ناقة، أي: من الإبل، قال الزمخشري: ويجوز أن يرجعَ الضمير إلى المطلوبة، وتُنصَبَ «ناقةً» على الحال، ويكون المختارُ منه محذوفاً.

وفي الحديث: «خيرُ الناس خيرُهم لنفسه» معناه: إذا جامل الناسَ جاملوه، وإذا أحسـن إليهـم كافؤوه بمثلـه. وفي حديث آخر: «خيركم خيرُكم لأهله». هو إشارة إلىٰ صلة الرحم والحثِّ عليها.

وفي الحديث: «رأيت الجنة والنار، فلم أر مثلَ الخير والشرّ». قال شَمِر بنُ حَمْدَوَيْـه: معنـاه لم أرَ مثل الخيـر والشرِّ لا يُمَيَّزُ بينهمـا، فيُبالـغ في طلب الجنـة والهرب من النار. وفي الحديث المرويِّ عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «تخيَّروا لنُطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» أي: اطلبوا ما هو خير المناكح وأزكاها

وأبعدُها من الخُبْث والفجور. وفي هذا الحديث رواياتٌ أخرىٰ تكلَّم عليها رجالُ الحديث.

وفي الحديث: «أعطه جمَلاً خِياراً رَباعياً». يقال: جمالٌ خِيارٌ وناقةٌ خِيار، أي: مختارٌ ومختارة. وفي حديث أبي ذر: أن أخاه أُنيساً نافَرَ رجلاً عن صِرْمةٍ له وعن مثلهـا، فخُيِّر أُنَيْسٌ فأخذ الصِّرْمـة. خُيِّـر، أي: فُضِّـل وغُلِّب. ويقال: تنافر الرجلان، إذا تفاخَرَا ثم حكَّما بينَهما واحداً، أراد أنهما تفاخرا أيُّهما أجودُ شعراً. يقـال: نافرتـه فنفَرْتُه وخايَرْتُه فخِرْتُه وفاخَرْتُه ففخَرْتُـه. والصِّرمة، بكسر الصاد: القطعةُ الخفيفةُ من النخل، وقيل: من الإبل. وفي حديث عامر بن الطفيل: أنه خَيَّرَ في ثلاث، أي: جعَـل له أن يختار منها واحداً. قال ابن الأثير: وهو بفتح الخاء. وفي حديـث بريرة: أنهـا خُيِّرت في زوجها. بالضم. فأما قولُـه: خيَّـر بيـن دُور الأنصـار، فيُريد: فضَّل بعضها علىٰ بعض. وفي الحديث: أن صبيّـيْن تخايرا في الخَطِّ إلىٰ الحسن بن علي. فقال له أبوه: احذَرْ يا بُنَيّ، فإن الله سائلُك عن هذا. أراد بقوله: «تخايرا» أي: أيُّهما خَيْرٌ.

وفي الحديث: «البيّعان بالخِيار ما لم يتفرَّقا» قال ابن الأثير: الخِيار: الاسمُ من الاختيـار، وهو طلـبُ خير الأمرين. إما إمضـاءُ البيـع أو فسخُـه، وهو علىٰ ثلاثة أضـرُب: خيـارُ المجلس، وخيارُ الشـرط، وخيـارُ النقيصة. فأما خيـار المجلس فالأصل فيه قوله: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا إلاَّ بيعَ الخِيار» أي: إلاَّ بيعاً شُرط فيه الخيارُ فلا يلزم بالتفرُّق. وقيل: معناه إلاَّ بيعاً شرط فيه نفيُ خيار المجلس، فيلزم بنفسه عند قوم. وأما خيارُ الشرط فلا تزيدُ مُدَّتُه علىٰ ثلاثة أيام عند الشافعيّ، أولُها من حـال العقـد، أو من حـال التفرُّق. وأما خيـارُ النقيصة فأن يظهر بالمبيع عيبٌ يوجبُ الردَّ أو يلتزمَ البائع فيه شرطاً لم يكن فيه ونحوَ ذلك.

[خ ي ط]

يقول ربنا عز وجل مبيّناً حدَّ الإمساك للصائم: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة:١٨٧] الخيطُ الأبيض: هو بياض النهار، والخيطُ الأسودُ: هو سَوادُ الليل. وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، فكان رجالٌ إذا أرادوا الصوم ربط أحدُهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتىٰ يتبين له رؤيتُهما. فأنزل الله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنه يعني الليل والنهار. وقيل: الخيطُ الأسود: الفجر المستطيل. والخيط الأبيض: الفجرُ المعترض. قال أبو دؤاد الإيادي:

فلمّا أضاءَتْ لنا سُدْفةٌ ولاح منَ الصُبحِ خيطٌ أنارا

ويقول تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠]. الخياط هنا: المِخيطُ، وهو الإبرة، كالإزار والمِئْزر، والحِلاَب والمِحْلَب. والسَّمُّ: كلُّ ثُقْب لطيف، والمراد به هنا ثقبُ الإبرة، أي: إن هؤلاء الكفار المكذِّبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، ولهذا علَّقه بالمستحيل، فقال: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ وهو لا يلجُ أبداً. وخَصَّ الجمل بالذْكر لكونه يُضرَبُ به المثل في كِبَر الذات، وخصَّ سَمَّ الخياط ــ وهو ثُقْب الإبرة ــ بالذكْر، لكونه غاية في الضِّيق.

وفي الحديث: «لا أعرفَنّ أحدَهم يجيء يوم القيامة ومعه شاةٌ قد غَلَّها لها ثُغاء». ثم قال: «أدُّوا الخِياطَ والمِخْيط» الخياط هنا: الخَيْط، والمِخْيط: الإبرة. والغُلُول: هو الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. والثُّغاء: صياحُ

الغنم. وقوله: «لا أعرفَنَّ» نَهْيُ النفس عن العرفان، ومعناه نَهْيُ الناس عن الغُلول، لأنهم إذا لم يَغُلُّوا لم يعرفْهم غالِّين. ونظيره قولُ العرب: لا أرينَّك هاهنا.

[خ ي ل]

يقول عز من قائل في إمهاله لإبليس اللعين: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال أبو عبيد الهروي: جاء في التفسير أن خيلَهُ: كلُّ خيلٍ تسعىٰ في معصية الله تبارك وتعالىٰ، ورَجِلَهُ: كلُّ ماش في معصية الله تبارك وتعالىٰ. والخيلُ تقع علىٰ الفُرْسان، وتقع علىٰ الأفراس. قيل: والمراد بها في الآية الكريمة الفُرسان، بدليل عَطْف ﴿وَرَجِلِكَ﴾ عليها، أي: بفُرْسانك ورجَّالتك. وقيل: الخيلُ والرَّجِلُ هنا كناية عن جميع مكايد الشيطان. والخيل أيضاً: الخيولُ، ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ [النحل: ٨].

قال ابن فارس: وسمعت من يحكي عن بشر الأسديّ عن الأصمعيّ قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء وعنده غلامٌ أعرابي، فسُئل أبو عمرو: لم سُمِّيت الخيل خيلاً؟ فقال: لا أدري. فقال الأعرابي: لاختيالها. فقال: أبوعمرو: اكتبوا. قال ابن فارس: وهذا صحيح. لأن المختال في مشيته يتلوَّن في حركته ألواناً. وكان قد ردَّ معاني (خيل) إلىٰ أصل واحد يدلُّ علىٰ حركة في تلوُّن.

وجاء في الحديث: «يا خيلَ الله اركبي» قال أبو عبيد الهروي: هذا من مختصر الكلام، أراد: يا ركَّاب خيل الله، فحذف اختصاراً واقتصاراً علىٰ علم المخاطب، كما قال: « لا يَفْضُض الله فاك». وإنما أراد أسنانك التي في فيك. فأقام الفَمَ مُقامَ الأسنان. وفي حديث طِهفة بن أبي زهير النَّهدي يصف حالهم في بلادهم:

«ونستخيل الجَهَام» الجَهام: الغيمُ الذي لا ماء فيه. ونستخيل: من خِلْتُه إخالُه، إذا ظننته، وخال واستخال: إذا ظنَّ ظناً بالشيء لحرصه عليه وحاجته إليه. وتخيّلَتِ السحابةُ: إذا تهيّأت كأنها تمطر، وأخْيلَتْ: إذا رأيْتَها فحسبْتَها ماطرةً. والخالُ: السحابُ الذي يُخِيلك المطر.

قال الشاعر:

أتينــاكَ رُوّاداً ووَفْــداً وشــامــةً   لِخالِكَ خالِ الصِّدقِ يا ابنَ الأكارمِ

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان نبيُّ الله ﷺ إذا رأىٰ ريحاً سأل الله خيرها وخير ما فيها، وإذا رأىٰ في السماء اختيالاً تغيَّر لونه ودخل وخرج وأقبل وأدبر. الاختيالُ من المَخِيلة، وهي السحابة التي يُخال بها المطر. وفي حديث آخر: أنه ﷺ كان إذا رأىٰ مَخِيلةً أقبل وأدْبَرَ وتغيَّر. قالت عائشة رضي الله عنها: فذكرت ذلك له فقال: «ما يُدْرينا؟ لعلَّه كقومٍ ذكرهم الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وأخـرج ابن كثير عن الإمام أحمـد بسنـده إلىٰ عائشـة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتىٰ أرىٰ منه لَهَواته، إنما كان يتبسَّم، وقالـت: كان رسول الله ﷺ إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عُرف ذلك فـي وجهه. قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفتُ في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، ما يُؤمِنُني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّبَ قومٌ بالريح. وقد رأىٰ قومٌ العذاب وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا». ورُوي عن عائشة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشرِّ ما أُرسلت به.

بقي علينا من مادة (خيل) أشياء، منها: الخالُ، وهو الشامة في الجسد، ويُجمع علىٰ خِيلان، وفي صفة خاتم النبّوة: عليه خيلان، ومنه الحديث: «كان المسيح عليه السلام كثير خيلان الوجه». ويقال: رجلٌ أخْيل، أي: كثير الخيلان. والخال: أخو الأم، ويُجمع علىٰ أخوال. والخال: الكِبْر، قال العجاج:

والخالُ ثوبٌ من ثيابِ الجُهّالْ ... والدهرُ فيهِ غَفْلَةٌ للغُفَّالْ

وفي حديث زيد بن عمرو بن نُفيل: البِرَّ أبْغي لا الخالَ، ومثله: الخُيلاء والخِيَلاء، بضم الخاء وكسرها. تقول منه: اختال فهو مُختال، وذو خُيلاء وذو خالٍ، وذو مَخِيلة. وفي الحديث: «مَن جَرَّ ثوبه خُيَلاءَ لم ينظُر الله إليه». وفي حديث النبي ﷺ: «من الاختيال ما يُحبُّ الله تبارك وتعالىٰ، ومنه ما يُبغضُ الله تبارك وتعالىٰ. فأمّا الاختيال الذي يُبغض الله فالاختيال في الفخر والرياء، والاختيالُ الذي يحب الله في قتال العدوِّ، والصدقة».

قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: أما قوله: الاختيالُ، فإن أصله التجبُّر والتكبُّر والاحتقارُ للناس. يقول: فالله يُبغِضُ ذلك في الفخر والرياء، ويحبُّه في الحرب والصدقة. والخُيلاءُ في الحرب أن تكون هذه الحالُ من التجبُّر والكِبْر علىٰ العدوّ، فيستهينُ بقتالهم، وتقلُّ هيبتُه لهم، فيكونُ أجرأ له عليهم، ومما يبيّن ذلك حديثُ أبي دُجانة: أن النبي ﷺ رآه في بعض المغازي وهو يختال في مشيته، فقال: «إن هذه لَمِشيةٌ يُبْغضُها الله تعالىٰ إلاَّ في هذا الموضع». وأما الخيلاءُ في الصدقة: فأن تعلُوَ نفسُه وتُشْرِف فلا يستكثر كثيرها ولا يعطي منها شيئاً إلاَّ وهو مستقلٌّ له. وهو مثلُ الحديث المرفوع: «إن الله يحب معالي الأمور ــ أو قال: معالي الأخلاق ــ شكَّ أبو عبيد، ويُبغضُ سفسافَها». فهذا تأويل الخيلاء في الصدقة والحرب. وإنما هو فيما يُراد اللّهُ به من العمل، دون الرياء والسُّمعة.

وفي الحديث: «بئس العبدُ عبدٌ تخيَّل واختال»، هو تفعَّلَ وافتَعل، من الخيلاء. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كُلْ ما شئت، والبَسْ ما شئتَ ما

أخطأتـك خَلَّتـان، سَرَفٌ ومَخِيلة. يعني الإسراف والخُيلاء. وفي حديث عثمان رضي الله عنه: كان الحمىٰ حمىً ضَرِيَّةً علىٰ عهده، سَرْحَ الغنم ستَّةَ أميال، ثم زاد الناس فيه فصار خَيـالٌ بإمَّـرَة، وخيالٌ بأسود العيـن». سـرح الغنـم، أي: موضعُ سرحها. وإمَّرَةُ وأسودُ العين: جبلان. والخيال فيما شرحه الأصمعي، قال: كانوا يَنْصِبون خشباً عليها ثيابٌ سودٌ تكون علامات لمن يراها ويعلمُ أن ما في داخلها من الأرض حمىٰ. وأصلها أنها كانت تُنْصَبُ للطير والبهائم علىٰ المُزْدَرعات، فتظنُّه إنساناً فلا تسقط فيه.

* * *

﴿ د ﴾

[د أ ب]

تدلُّ مادة (دأب) علىٰ أصل واحد في اللغة، هو الملازمة والدَّوام. يقال: دأب فلانٌ في عمله، أي: جَدَّ وتَعِب، يدْأَبُ دَأْباً ودُءوباً. والدَّأْبُ: العادةُ والشأنُ. قال الفراء: الدَّأْبُ: أصله من دأبْتُ، إلا أنَّ العرب حوَّلتْ معناه إلىٰ الشأن. وقال عز من قائل: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١] قال الزجاج: أي: كشأن آل فرعون، وكأمر آل فرعون. وقال ابن عرفة نفطويه: أي: كعادة آل فرعون. يقول: اعتاد هؤلاء الكفرَ والإلحادَ والإعناتَ للنبي ﷺ، كما اعتاد آلُ فرعون من إعنات الأنبياء. وقال أبو منصور الأزهريّ: كدأب آل فرعون، أي: كاجتهادهم. المعنىٰ أن اجتهادَ الكفارِ في كفرهم وتظاهرَهم على النبيِّ ﷺ، كتظاهر آل فرعون علىٰ موسىٰ عليه السلام. يقال: دأب يدأب دأباً ودُءوباً: إذا اجتهد في السير، وأدأب بعيره: جَهِده بالسَّير.

وقال عز من قائل في سورة الأنفال: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢] أي: جُوزيَ هؤلاء بالقتل والإسار، كما جُوزِيَ آلُ فرعون بالغَرَق والهلاك.

وقال تعالىٰ في قصة الرؤيا التي عَبَرها يوسفُ عليه السلام: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧]. قرىء: ﴿ دَأَبًا ﴾

و﴿دَأْباً﴾ بتحريك الهمزة وسكونها، وهما لغتان، قال الفرّاء: حُرِّك لأن فيه حرفاً من حروف الحلقِ، وكذلك كلُّ حرف فُتح أوله وسكّن ثانيه فتحريكه جائز، مثل نَهْر ونَهَـر. وقوله: ﴿دَأَبًا﴾ قـال ابن عرفـة: أي: متتابعاً، وقال الأزهري: أي: تدأبون دأَباً، ودلَّ علىٰ تدأبون قولُه: ﴿تَزْرَعُونَ﴾. والدأبُ: الملازمة للشيء المعتاد. وهو في الآية منصوب علىٰ المصدر، وقيل: هو حال، أي: دائبِين. وقيل: صفة لسَبْع، أي: دائبةً.

ومن الدَّأْبِ الذي هو العادة والشأن ما جاء في الحديث: «عليكم بقيام الليل، فإنـه دأبُ الصالحين قبلكم». ومنه الحديـث: «فكـان دأبـي ودأبُهم». وقد تكرر استعمالُ الدأب في الحديث، ومنه حديث البعير الذي سجد له، فقال لصاحبه: «إنه يشكـو إليَّ أنك تُجيعُه وتُدْئبُـه» أي: تكُدّه وتُتْعبُه. يقال: دأَبَ هو، وأَدْأَبْتُه أنا. والدائبان: الليل والنهار.

وقال تعالىٰ ممتناً علىٰ عباده بنعمه التي لا تُحْصىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: يسيران لا يفتُران ليلاً ولا نهاراً: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فالشمس والقمرُ يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارةً يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخرُ من هذا فيقصر.

[د ب ب]

تدل مادة (دبب) علىٰ أصل واحد في اللغة، هو كما قال ابن فارس: حركةٌ علـىٰ الأرض أخـفُّ من المشي. تقول: دَبَّ يدِبُّ دبيباً، وكلُّ ماشٍ علىٰ الأرض دابّةٌ. ويكاد العُرفُ اللغوي يقصِرُ الدابّةَ علىٰ التي تُركَبُ. وقولهم: أكذَبُ مَن دَبَّ

ودَرَج، أي: أكـذب الأحيـاء والأموات. ودَبَّ الشيخُ، أي: مشىٰ مَشْياً رُوَيداً. وتقول: فعلتُ كذا مِن شُبَّ إلىٰ دُبَّ، ومن شُبٍّ إلىٰ دُبٍّ، أي: من الشباب إلىٰ أن دببتُ علىٰ العصا.

وقال عزّ من قائل في عموم لفظ الدابّة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥] فالذي يمشي علىٰ بطنه: الحياتُ والحوتُ والدُّودُ ونحوُ ذلك. والذي يمشي علىٰ رجلين: الإنسانُ والطيرُ، وإنما دخلت الطيورُ في هذا النوع لأنها تَدِبُّ علىٰ رجليها في بعض حالاتها. والذي يمشىٰ علىٰ أربع سائرُ الحيوانات.

وقال تعالىٰ أيضاً في عموم اللفظ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. وقوله: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، و ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ موضعها الذي تموت فيه. وقيل: مستقرَّها في الرَّحِم، ومستودَعها في الصُّلْب. وقال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠] أي: وكم من دابة لا تطيق حملَ رزقِها لضعفها ولا تدَّخِرُه وإنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم، فكيف لا يتوكّلون علىٰ الله مع قوّتهم وقدرتهم علىٰ أسباب العيش كتوكُّلِها علىٰ الله مع ضعفها وعجزها، كما جاء في الحديث: «لو أنكم توكَّلون علىٰ الله حقَّ توكُّلِه لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وقال الحسن في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ قال: تأكل لوقتها، لا تدّخر شيئاً. وقال مجاهد: يعني الطيرَ والبهائمَ، تأكلُ بأفواهها ولا تحمل شيئاً. وهذا تخصيصٌ للدابّة بأنها ما سوىٰ الإنسان.

وأخرج الحافظ ابن كثيـر، عـن ابن أبـي حاتـم، بسنده إلىٰ ابن عمر، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتىٰ دخل بعض حيطان المدينة ــ أي بساتينها ــ فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، ما لكَ لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهيه يارسول الله. قال: «لكني أشتهيه، وهذا صُبْحُ رابعةٍ منذ لم أذُقْ طعاماً ولم

أجدْه، ولو شئتُ لدعوتُ ربِّي فأعطاني مثلَ مُلكِ كسرىٰ وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يَخْبَأُون رزقَ سنتِهم بضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برِحْنا ولا رِمْنا حتىٰ نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدينار ولا باتباع الشهوات، فمن كنَزَ دنياه يريد بها حياةً باقيةً فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنِزُ ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد».

قال ابن كثير: وقد ذكروا أن الغراب إذا فقَسَ عن فراخه البَيْضَ خرجوا وهم بيضٌ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نَفَرا عنهم أياماً حتىٰ يسْوَدَّ الريش، فيظلُّ الفرخُ فاتحاً فاه يتفقَّد أبويه، فيقيِّضُ الله تعالىٰ طيراً صغاراً كالبَرْغَش ــ وهو البعُوض ــ فيَغْشاه فيتقوَّت بـه تلك الأيام حتىٰ يسودَّ ريشُه والأبَوان يتفقدانـه كلَّ وقت، فكلَّما رأَوْه أبيضَ الريش نفرا عنه، فإذا رأَوْه قد اسودَّ ريشُه عَطَفا عليه بالحضانة والزَّقّ، ولهذا قال الشاعر:

يـا رازقَ النَّعَّـابِ فـي عُشِّـهِ وجابرَ العَظْمِ الكسيرِ المَهيضْ

والنَّعّاب: الغُراب.

وقال تعالىٰ في قصة نبيِّه سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤] دابَّةُ الأرض هنا: هي الأَرَضَةُ، وهي المعروفة بالعُثَّة، تأكل الخشب وتلحَسُ الصوف. والمِنسأة: العصا، وبعض العرب يُبدل من همزتها ألفاً، قال الشاعر:

إذا دَبَبْتَ علىٰ المِنْساةِ من كِبرٍ فقد تباعدَ عنك اللهوُ والغَزَلُ

وقال تعالىٰ في ذكر بعض أشراط الساعة: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. قال الحافظ ابن كثير: هذه الدابَّةُ تخرجُ في آخر الزمان عند فساد الناس وتركِهم أوامرَ الله وتبديلهم الدينَ

الحق. يُخرج الله لهم دابةً من الأرض، قيل: من مكة، وقيل: من غيرِها. وقال مجد الدين بن الأثير: قيل: إنها دابةٌ طولها ستُّون ذراعاً، ذاتُ قوائم ووَبَر، وقيل: هي مختلفة الخِلقة، تشبه عدَّةً من الحيوانات، ينصدعُ جبلُ الصفا فتخرجُ منه ليلةَ جَمْع والناسُ سائرون إلىٰ مِنىٰ. وقيل: من أرض الطائف، ومعها عصا موسىٰ وخاتم سليمان عليهما السلام، لا يدركُها طالب، ولا يُعجِزُها هارب، تضرب المؤمن بالعصا، وتكتب في وجهه: مؤمن، وتطبَعُ الكافر بالخاتم وتكتب في وجهه: كافر.

وأخرج ابن كثير عن الإمام أحمد، قال: حدثنا سفيان، عن فُرات، عن أبي الطفيل، عن حُذيفة بن أسيد الغِفاريّ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غُرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعةُ حتىٰ ترَوْا عشر آيات: طلوعُ الشمس من مغربها، والدُّخانُ، والدابّةُ، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجُ عيسىٰ ابن مريم عليه السلام والدجّال، وثلاثةُ خُسوف: خسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بالمشرق وخَسفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قعر عدن، تسوق الناسَ أو تحشُر الناس، تبيتُ معهم حيث باتوا، وتقيلُ معهم حيث قالوا». نسأل الله حسن الخاتمة، وأن يقبضنا علىٰ دينه الذي ارتضىٰ لعباده المؤمنين.

وجاء في حديث النبي ﷺ، في الأوعية التي نُهي عنها: «الدُّبّاء». والدُّبّاء: القَرْع. قال النوويّ: هو اليابسُ منه، وكانوا ينتبذون فيها فتُسرع الشدَّةُ في الشَّراب. ورُوي عن الصحابي الجليل أبي بكرةَ نُفَيع بن الحارث، قال: أما الدُّبّاء فإنّا معاشرَ ثقيف كنا بالطائف نأخذ الدُّبّاء فنَخرُطُ فيها عناقيدَ العنب، ثم ندفِنُها حتىٰ تَهْدِرَ ــ أي تَغْلِي ــ ثم تمُوت، أي: تسكن. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»، بعد أن أورد تفسير أبي بكرة هذا: «وتفسير الصحابيّ أولىٰ أن يُعتمد عليه من غيره، لأنه أعلم بالمراد». ثم قال: ومعنىٰ النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها؛ لأنه يُسرع فيها الإسكار، فربما شَرِب منها من لا يشعر بذلك.

قال مجد الدين ابن الأثيـر: وتحريـمُ الانتباذ في هذه الظروف كان في صدر الإسلام، ثم نسِخ، وهو المذهب، وذهب مالكٌ وأحمد إلىٰ بقاء التحريم. وقال الإمام أبو عبيد القاسمُ بن سلام: فهذه الأوعية التي جاء فيها النهي عن النبي عليه السـلام، وهي عند العرب علىٰ ما فسَّرهـا أبو بكـرة، وإنمـا نهىٰ عنها كلِّها لمعنًى واحدٍ: أن النبيذ يشتدُّ فيها حتىٰ يصير مسكراً ثم رَخَّص فيهـا، فقال: «اجتنبوا كلَّ مسكر»، فاستوت الظروفُ كلها، ويرجعُ المعنىٰ إلىٰ المسكر، فكلُّ ما كان فيها وفي غيرهـا من الأوعية بلغ ذلك فهو المنهيُّ عنه، وما لم يكـن فيه منها ولا في غيرها مسكرٌ فلا بأس به، وممّا يبين ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: كلُّ حلالٍ في كلِّ ظرف حلال، وكلُّ حرام في كلِّ ظرفٍ حرام، وقولُ غيره: ما أحلَّ ظرفٌ شيئاً ولا حرَّمـه، ومن ذلك قولُ أبي بكرة: إن أخذت عسلاً فجعلته في وعاء خمر أإنَّ ذلك لَيحرِّمُه؟ أو أخذت خمراً فجعلتها في سقاءٍ أإنّ ذلك ليُحِلُّها؟

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال لنسائه: «ليت شعري! أيتكنّ صاحبةُ الجمل الأدبب، تنبَحُها كلابُ الحَوْأب؟». الأدَبُّ كالأزَبّ، وهو الكثيرُ وبَرِ الوجه، وإنما قال الأدْبَب ليزاوِجَ الحَوْأب. والمزاوجة معروفة في كلام العرب، وهو: أن يُعدَلَ بالصيغة إلىٰ صيغة أخرىٰ من نفس البناء بفك إدغام، أو إبدال حرف بحرف لمناسبة وزن كلمة أخرىٰ في الجملة، كما قالوا: هَنَأني الطعامُ ومَرَأَني، وإنما هو أمرأني. وقولهم: إني لآتية بالغدايا والعشايا. والغدايا جمع غُدوَة، فأصله الواو، ولا يقال: غدايا إلا مع عشايا ويجمع غَدَوات. ومن الازدواج أيضاً قوله ﷺ للنسوة اللائي أردْن أن يَتْبَعْنَ الجنازة: «ارجعن مأزورات غيرَ مأجورات». وقياسه: موزورات، لأنه من الوزر، يقال: وُزر فهو مَوْزُور. وقوله: «اللهم ربَّ السموات وما أظْلَلْن وربَّ الأرضينَ وما أقْلَلْن، وربَّ الشياطين وما أضْلَلْنَ». أصله: وما أضَلُّوا ولكنه قال: «أضْلَلْنَ» مزاوجةً لأظْلَلْنَ وأقْلَلْن.

ومن أحاديث مادة (دبب) ما جاء: «وحمَلَها علىٰ حمارٍ من هذه الدَّبّابة» أي:

الحُمُر الضِّعاف التي تَدِبُّ في المشي ولا تُسرع، ومنه الحديث: «عنده غُلَيِّمٌ يُدَبِّب» أي: يـدرُج في المشـي رُوَيْداً. ويقـال: أَدْبَبْتُ الصبيَّ، أي: حملتُه علىٰ الدبيب. ويقال: ناقةٌ دَبُوبٌ، أي: لا تكاد تمشي من كثرة لحمها، إنما تدِبُّ. وكل ذلك من المشي الضعيف.

وفي حديث عمر رضي الله عنه، أنه قال: كيف تصنعون بالحصون؟ قال: نتّخذُ دبَّاباتٍ يدخلُ فيها الرجال». الدَّبابةُ: آلةٌ تتخذُ من جلودٍ وخشَب يدخل فيها الرجالُ ويقرِّبونَها من الحصن المحاصر لينقُبُوه، وتقيهم ما يُرْمَوْن به من فوقهم.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «اتّبعوا دُبَّةَ قُريشٍ ولا تفارقوا الجماعة. الدُّبَّـةُ، بالضم: الطريقة والمذهب. يقال: دعْني ودُبَّـتي، أي: دعني وطريقتي وسجيَّتي. ويقال: سلَكَ فلانٌ دُبَّةَ فلان، أي: طريقته ومذهبه. والدُّبَّةُ أيضاً: أنثىٰ الدُّبِّ من السِّباع. وأما الدَّبَّةُ بفتح الدال: فالموضعُ الكثيرُ الرمل، وأما الدِّبَّة بكسر الدال: فمصدر دَبَّ يدِبُّ دِبَّةً حسنة.

وفي الحديث: «لا يدخلُ الجنَّةَ دَيْبُوبٌ ولا قَلاَّع». الدَّيْبوب: هو الذي يدِبُّ بين الرجـال والنِّساء. ويسعىٰ للجمع بينهم، وقيـل: هـو النمّام، لقولهم فيه: إنه لَتَـدِبُّ عقاربُـه، والياء في الدَّيبُوب زائدة. أما القلاَّع: فهـو الساعي إلىٰ السلطان بالباطل في حق الناس، سمي قلاَّعاً لأنه يقلَعُ المتمكّنَ من قلب الأمير، فيزيلُه عن رُتبتـه، كما يُقلـع النباتُ من الأرض ونحـوه، والقـلاّعُ أيضـاً: القَـوَّاد والكذَّاب والنَّبّاش.

وقد جـاءت أحاديثُ ذواتُ عدد في تحريم النميمة والإفساد بين الناس بنقل الكلام. روىٰ الإمام أحمدُ بسنده، أن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتّات». والقتّات: هو النمام. يقال: قتَّ الحديث يقُتُّه: إذا زوَّره وهيَّأه وسوَّاه.

وأخرج الإمام أحمدُ، بسنده عن عبد الرزاق إلىٰ أسماء بنت يزيد بن السكنِ أن النبيَّ ﷺ قال: «ألا أُخبركم بخياركم؟» قالوا: بلىٰ يارسول الله، قال: «الذين إذا رؤُوا ذُكِرَ الله عزّ وجل» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المَشّاءونَ بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، الباغون للبُرَآءِ العَنَت». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أُنبّئكم ما العَضْهُ؟ هي النَّميمةُ القاتلةُ بين الناس». والعَضْهُ: الكذبُ والبُهتان. نسأل الله العصمة من الخطأ والزلل وكواذب الأخلاق.

[د ب ر]

يقول ربنا عز وجل آمراً عباده بتدبّر القرآن، والإقبال علىٰ إدراك معانيه المحكمة وبيانه المعجز، ومخبراً أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، لأنه تنزيل من حكيم حميد. فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] والمعنىٰ: أفلا يتفكَّرون فيعتبرُوا؟ يقال: تدبرْتُ الأمرَ، أي: نظرتُ في أدباره وعواقبه. ودُبُرُ الشيء: عَقِبُه ومؤخَّره. وقوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] قال ابن عرفة نفطويه: أي: يُمضيه. وقال غيره: يُحكِم الأمرَ بقضائه وقدره من السماء إلىٰ الأرض، والمعنىٰ: يُنزِّلُ أمرَه من أعلىٰ السموات إلىٰ أقصىٰ تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال عز وجل مُقسِماً بملائكته ــ وله سبحانه وتعالىٰ أن يُقسم بما يشاء من خَلْقه. وليس لخَلْقه أن يقسموا إلاَّ به، فيقول تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. قال أبو عبيد الهروي: يعني الملائكةَ تأتي بالتدبير من عند الله تعالىٰ. وقال

الماوَرْدي: فيه قولان: أحدهما: الملائكة، وهو قول الجمهور، والثاني: أنها الكواكب السبع، حكاه خالدُ بن معدان عن معاذ بن جبل، وفي تدبيرها الأمرَ وجهان: أحدُهما تُدبِّرُ طلوعَها وأفولها. والثاني تُدبِّر ما قضاه الله فيها من الأحوال، ومعنىٰ تدبير الملائكة للأمر نزولُها بالحلال والحرام، وتفصيلُهما، والفاعلُ للتدبير في الحقيقة وإن كان هو الله عز وجل، لكن لمّا نزلت الملائكةُ به وُصِفَتْ به. وقيل: إن الملائكة لمّا أُمِرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك، قيل لها: مُدَبِّرات.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. القول هو القرآن. والمعنىٰ أفلم يتفهَّموا ما خُوطبُوا به في القرآن؟ وقال تعالىٰ مبيِّناً ما حلَّ بالأمم السابقة الذين طَغَوْا وبغَوْا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] أي: استأصل الله شأفتهم. ودابرُهم: أصلُهم. والدابر: التابع، يقال: قطع الله دابرهم، أي: آخِرَ من بقي منهم. ومنه قوله عز وجل: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] أي: لا يُبقي منهم باقية، ومثله قوله عز من قائل: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. قيل: دابرُهم أصلُهم. وقيل: آخِرُهم، ودابرُ الأمر: آخرُه، ودابرُ الرجل عَقِبُه. وقال الراغب الأصبهاني: والدابرُ يقال للمتأخِّر وللتابع إما باعتبار المكان أو باعتبار الزمان، أو باعتبار المرتبة. ودُبُر الشيء: خلاف القُبُل، ويكنىٰ بهما عن العضوين المخصوصين، ويراد بهما الخلفُ والأمام، قال تعالىٰ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ❁ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦ ــ ٢٧]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] أي: قدّامهم وخلفهم.

ويكنىٰ بالدُبُر والأدبار عن الفرار والتولّي يوم الزحف. قال عز من قائل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥ ــ ١٦]. فالدُبر والأدبار هنا معناهما: الظَّهْر والظُّهور. والمراد النهي عن الانهزام والفرار أمام أعداء الله. قال ابن عطية: والأدبار جمع دُبُر، والعبارة بالدُّبُر في هذه الآية متمكِّنةٌ في الفصاحة، لِمَا في ذلك من الشناعة علىٰ الفارِّ والذمِّ له.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠] أي: وسبحه أعقاب الصلوت وأواخرها، وهو منصوب علىٰ الظرفية، وبه قرأ الجمهور، علىٰ أنه جمع دُبُر الشيء، أي: آخره. وقرأ نافعٌ وابن كثير وحمزة ﴿وَإِدْبَارَ﴾. بكسر الهمزة، علىٰ أنه مصدر من: أدبَرَ الشيءُ إدباراً: إذا ولّىٰ. وهذا المصدر جُعل ظرفاً، ومثله من المصادر التي نصبت علىٰ الظرفية: آتيك مقدَمَ الحاجّ وخُفوقَ النجمِ. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩]. قرأ الجمهور بكسر الهمزة علىٰ المصدرية، وقرأ يعقوبُ وابن السميفع: ﴿وَأَدْبَارَ﴾ بالفتح علىٰ الجمع. وإدبارَ النجوم، أي: وقتَ إدبارها من آخر الليل، وقيل: صلاة الفجر. وأدبارَ النجوم، أي: أعقابَ النجوم، وأدبارَها: إذا غربَت.

ويقال: أدبَر، أي: أعرَضَ وولّىٰ دُبُرَه. قال عز وجل، في قصة الوليد بن المغيرة وما كان من ضلاله وعدم انقياده للقرآن: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [المدثر: ٢٣]، أي: أعرض عن الحق وذهب إلىٰ أهله وتعظَّم عن أن يؤمن. وقال تعالىٰ في شأن النار التي أعدَّها للمكذبين: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۞ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۞ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [المعارج: ١٥ ــ ١٧] أي: تدعو لظىٰ من أدبر عن الحق في الدنيا وتولّىٰ، أي: أعرض عنه.

وقال عز من قائل ردّاً علىٰ من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۞ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۞ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ [المدثر: ٣٢ ــ ٣٥]. قرأ نافع وحفصٌ وحمزةُ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ بوزن أكرم علىٰ أنه ظرفٌ لما مضىٰ من الزمان، وقرأ ابنُ

كثيـر وأبو عمرو وابنُ عامر والكسائي وأبو بكر شعبةُ بن عياش عن عاصـم: ﴿إِذا دَبَرَ﴾ بـوزن ضَرَب علىٰ أنه ظرفٌ لمـا يُستقبَـل من الزمان، ودَبَر وأدْبَرَ لغتان، كما يقال: أقبل الزمان وقَبَل الزمان. ويقال: دَبَـر الليل وأدْبَرَ: إذا تولَّىٰ ذاهباً. وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أي: أضاء وتبيَّن.

وأمـا دوران مادة (دبر) واستعمالاتهـا فـي الحديـث الشريـف وآثار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين فقد جاء في الحديث: «لا تباغَضُوا ولا تقاطعوا ولا تنابذوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً». قوله: «ولا تدابروا» أي: لا يُعطي كلٌّ واحد منكم أخاه دُبُرَه وقفاه فيُعرضَ عنه ويهجُرَه. وقال أبو عبيد القاسمُ بن سـلام: أمّا التدابُرُ فالمُصارَمـةُ والهجـران، مأخـوذ من أن يولّي الرجل صاحبَـه دُبُره ويُعرضَ عنه بوجهـه. وهـو القاطع. وقال حمـزة بن مالك الصدائيُّ يعاتب قومه:

أأوصـىٰ أبـو قيـس بـأن تَتَـواصَلُـوا وأوصىٰ أبوكمْ ـ ويْحَكُمْ ـ أن تدَابرُوا

وفي الحديث: «ثلاثةٌ لا تُقبلُ لهم صلاة: رجلٌ أتىٰ الصلاة دِباراً، ورجلٌ اعتبد محرَّراً. ورجلٌ أمَّ قوماً وهم له كارهون». قوله: «أتىٰ الصلاة دِباراً» أي: بعدما يفـوت وقتُها، وقال ابن الأعرابـي: دِبـار: جمع دُبُر، كالأدبار، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]. ويقـال: فـلانٌ ما يـدري قِبالَ الأمر من دِبـاره، أي: ما أولُه من آخـره. والمـراد أنه يأتـي الصلاة حين أدبَر وقتُهـا. ومنـه الحديث: «لا يأتي الجمعة إلا دَبْراً» يروىٰ بفتح الدال وضمّها وهو منصـوب علىٰ الظرف.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علاماتٍ يُعرَفُون بها: تحيَّتُهم لعنة، وطعامهم نُهبْة، وغنيمتُهم غلولٌ، ولا يقرَبُون المساجدَ إلا هَجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دَبْراً، مستكبِرين لا يألَفون ولا يُؤلَفُون، خُشُبٌ بالليل صُخُبٌ بالنهار».

ووَصْفُ المنافقين بأنهم يأتون الصلاة في آخر وقتها جاء به حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقُبُ الشمس حتىٰ إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان قام فنَقَر أربعاً لا يذكرُ الله فيها إلاَّ قليلاً». وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وجاء في رواية: «لايأتي الصلاةَ إلاَّ دَبْرِيّاً». يروىٰ بسكون الباء وفتحها، منسوبٌ إلىٰ الدَّبْر، وهو آخر الشيء، وفتحُ الباء من تغييرات النَّسَب، ويقال: شَرُّ الرأي الدَّبَرِيُّ، أي: الذي يأتي بعدما فات الأمر وانقضىٰ. وفي حديث الدعاء: «وابعثْ عليهم بأساً تقطَعُ به دابرهم» أي: جميعَهم حتىٰ لا يبقىٰ منهم أحدٌ. ودابرُ القوم: آخرُ من يبقىٰ منهم ويجيء في آخرهم. قال جرير:

الَ المهلَّبِ جَدَّ اللّهُ دابِرَهُمْ ... أَضْحَوا رماداً، فلا أصلٌ ولا طَرَفُ

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال بعد أن أنكر موتَ النبيِّ ﷺ وتوعد من يقول ذلك وزعم أنه لا يموتُ حتىٰ يتقدَّمَه أصحابه. فلما قرأ عليه أبو بكر رضي الله عنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال: والله، لقد كنت أقرأ هذه السورة فما فهمتُها حتىٰ الآن. ثم قال بعد أن بُويع لأبي بكر: أما بعدُ، فإني قد قلت لكم مقالةً لم تكن كما قلت، ولكنني أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتىٰ يَدْبُرَنا. قوله: «يدْبُرَنا». معناه: يخلُفَنا بعد موتنا ويبقىٰ خلافنا، أي: بعدنا، قال أبو العباس ثعلب: يقال للرجل إذا مشىٰ خلفَ الرجلِ: هو يخلُفُه ويَذْنُبُهُ ويَدْبُرُهُ. وقال الأصمعيُّ: دَبَر السهمُ الهدفَ، وهو يَدْبُره دَبْراً، إذا صار من وراء الهدف ووقع خلْفَه. وفي الحديث: «أن فلاناً أعتق غلاماً له عن دُبُر» أي: بعد موته. يقال: دبّرت العبدَ: إذا عَلَّقتَ عتقه بموتك، وهو المُدَبَّر. والمصدر: التدبير، أي: أنه يَعتِقُ

بعدما يُدَبِّرُه سيّدُه ويموت. وفي الحديث: أما سمِعتَه من معاذ يَدْبُرُه عن رسول الله ﷺ؟ يقال: دَبَرْتُ الحديث، أي: حدَّثْت به عن غيري. قال الزمخشري: حقيقةُ قولهم: دبَرْتُ الحديثَ، أنه جعل له دُبُراً، أي: آخِراً ومُسْنَداً، كقولك: روىٰ فلانٌ عن فلان، عن النبي ﷺ. وقال ثعلب: إنما هو: «يَذْبرُه». بالذال المعجمة، أي: يُتْقِنُه. وعن الزجاج: الذَّبْرُ: القراءة، وعن بعضهم: ذَبَر، إذا نظر فأحسن النظر. وقيل: الذَّبْرُ: الكتابة، مثل الزَّبْر، بالزاي. قال أبو ذؤيب:

عرفتُ الديارَ كرَقْمِ الدَّواةِ يُذَبِّرُها الكاتبُ الحِمْيري

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن أبا جهل قال له يوم بدر وهو صريعٌ: لمن الدَّبَرَة؟ أي: الدَّولةُ والظفَرُ والنُّصْرة، وتُفتح الباء وتسكن. ويقال: علىٰ من الدَّبَرةُ؟ أيضاً، أي: الهزيمة.

والدَّبْرُ والدَّبْـرَة، بسكون الباء: النَّحلـة والنَّحـل. وفـي حديـث سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما: أنها جاءت إلىٰ أمها الرَّباب وهي صغيرةٌ تبكي، فقالت: ما بك؟ فقالت: مرَّتْ بي دُبَيْرة، فلسعتْني بأُبيرة. دُبَيْرة: تصغير دَبْرة، وهي النحلة. وأُبيْرة: تصغير إبرة. وفي الحديث: أرسل الله عليهم مثلَ الظُّلَّة من الدَّبْر. فالدَّبْر هو النحل، وقيل: الزَّنابير، والظُّلَّة: السحاب، هكذا أورد أبو عبيد الهرويُّ الحديث: «أرسل الله عليهم». وتبعه ابن الأثير. لكن الزمخشري أورده في حديث عاصم بن ثابت: أن رسول الله ﷺ بعث عشَرةً عَيْناً وأمَّره عليهم، فلقيه المشركون فرمَوْه بالنبل حتىٰ قتلوه في سبعة، وبعثت قريش إلىٰ عاصم ليأتوا برأسه وشيء من جسده، فبعث الله مثلَ الظُّلَّة من الدَّبر فحَمَتْه. وبهذا سُمِّيَ: «حَمِيَّ الدَّبْر».

وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكت عادٌ بالدَّبُور». والدَّبُور بفتح الدال: هي الريح التي تُقابل الصَّبا والقَبُول.

[د ث ر]

رویٰ الإمام مسلم، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا الملَكُ الذي جاءني بحراءَ قاعدٌ علىٰ كرسيّ بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ منه ـ أي: فزعت وخفت ـ حتىٰ هَوِيتُ إلىٰ الأرض، فجئت إلىٰ أهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فزمَّلوني. ـ وروي: دثِّرُوني دثِّروني ـ فأُنْزِل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾» [المدثر: ١-٢] أي: يا أيها الذي قد تدثَّر بثيابه، أي: تغشَّىٰ بها وتغطَّىٰ، طلباً للدفء، وأصله: المتدثِّر، فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما وقرب مخرجهما. ومن ذلك الدِّثار، وهو ما فوق الشِّعار ممَّا يستدفأ به، والشعار: هو ما وَلِيَ جلدَ الإنسان من اللباس، وأما اللحاف فكلُّ ما تغطيت به فقد التحفت به. ومن ذلك حديث الأنصار رضي الله عنهم: «أنتم الشعارُ والناسُ الدثار» أي: أنتم الخاصّةُ والناسُ العامَّة.

وهذه المادة (دثر) تدلّ علىٰ أصلٍ واحد في اللغة، وهو كما قال ابن فارس: تضاعُفُ شيءٍ وتناضُدُه بعضِه علىٰ بعض، ومن ذلك: الدَّثْر، وهو المال الكثير، ويستوي فيه الواحد والاثنان والجميع، يقال: مالٌ دَثْرٌ ومالان دثْرٌ وأموالٌ دَثْرٌ. ويجمع الدَّثْر علىٰ دُثُور. ومنه الحديث: ذهب أهل الدُّثُور بالأجور. وهو في رواية البخاري ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء الفقراءُ إلىٰ النبي ﷺ، فقالوا: ذهب أهلُ الدُّثُور من الأموال بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموال يحجُّون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدَّقون. قال: «ألا أحدِّثكم بأمرٍ إن أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحدٌ بعدكم، وكنتم خيرَ مَن أنتم بين ظهرانَيْه، إلاّ من عمل مثلَه:

تُسبِّحون وتَحْمَدونَ وتكبِّرون خلفَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين». فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نُسَبِّحُ ثلاثاً وثلاثين، ونحمَدُ ثلاثاً وثلاثين، ونكبِّر أربعاً وثلاثين. فرجعتُ إليه فقال: «تقول: سبحان الله والحمدُ لله والله أكبر، حتىٰ يكون منهنّ كلِّهن ثلاثٌ وثلاثون».

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: إن القلبَ يَدْثُرُ كما يَدْثُر السيفُ، فجلاؤُه ذِكرُ الله. أي: يصدأ كما يصدأ السيف. قال الزمخشري: شبَّه ما يَغْشَىٰ القلبَ من الرَّيْنِ والقسوة بما يركب السيفَ من الصدأ فيُغطِّي وجهه، وهو من دُثور المنزل، وهو أن تَهُبَّ عليه الرياح فتُغَشِّي رسومَه بالرمل، وتغطِّيها بالتُّراب، أصله من الدثار، والجِلاء: الصِّقال. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: دثَر مكانُ البيت فلم يحُجَّه هودٌ عليه السلام. وفي حديث الحسن البصريّ رضي الله عنه: حادثوا هذه القلوب بذكر الله فإنها سريعةُ الدُّثور. يعني دروس ذكر الله. يقال: دَثَر المنزل، أي: درس وعفا. وقال شمر: دُروسُ القلوب: امِّحاءُ الذِّكْر منها ودُروسُها. يقول: اجْلُوها واغسِلُوا الرَّيْن والطبع عنها بذكر الله. قال: ودُثورُ النُّفوس: سُرْعةُ نسيانها. وقوله: حادثوا هذه القلوب بذكر الله، أي: اجلُوها به واغسلوا الدَّرَنَ عنها، وتعاهدوها بذلك كما يحادَثُ السيفُ بالصِّقال.

قال لبيد:

كمِثْلِ السيفِ حُودِثَ بالصقالِ

وقال زيد الخيل:

أحـادِثُـه بصَقْـلٍ كـلَّ يـومٍ   وأعْجِمُه بهاماتِ الرجالِ

ويقال: عجم فلانٌ السيف، أي: هزَّه تجرِبةً واختباراً.

[د ح ر]

يقول عز من قائل، لعناً وطرداً لإبليس بعدما كان من تكبره وإبائه أن يسجد لآدم كما سجد الملائكةُ الأطهار: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

قوله تعالىٰ: ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي: مطروداً مُبعَداً من رحمة الله. يقال: اللهم ادْحَرْ عنا الشيطان، أي: أبعِدْه. ومنه قوله عز وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩]. وقوله في شأن حِفظه تعالىٰ للسماء من استراق الشياطين السمع: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات:٦- ٩] ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، أي: يُرْمَوْن. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: من كلِّ جهةٍ يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾، أي: رَجْماً يُبْعَدُون به ويُزْجَرون ويُمنعون من الوصول إلىٰ ذلك ويرجمون.

وفي حديث النبي ﷺ، قال: «ما من يوم إبليسُ فيه أدْحَرُ ولا أدْحَقُ من يوم عرفة، إلاَّ ما رأىٰ يوم بدر». قيل: وما رأىٰ يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأىٰ جبريل يَزَعُ الملائكة». قال أبو سليمان الخطابيّ: قوله أدحر: معناه أذلُّ وأبْعَد. يقال: دَحَرْتُ الرجلَ: إذا طردْتَه ونحيَّتَه عن المكان، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩] يريد ــ والله أعلم ــ مهجوراً مُقْصىٰ. والدحق: قريبٌ من الدحر. يقال: أدحقه الله، أي: أبْعَدَه. ورجلٌ دحيقٌ سحيق، أي: مُبْعَدٌ مطرود، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

رجمتُك في الشعرِ حتىٰ خضعْتَ ... وصِـرْتَ لِحَيْنِـكَ فـذّاً دحيقـاً

وقوله: «يزع الملائكة» يريد أنه جاء يتقدَّمهم. وقال الزمخشري: وقوله «إلا ما رأىٰ يوم بدر»: استثناء من معنىٰ الدُّحور، كأنه قال: إلاَّ الدُّحورَ الذي أصيبَ به يومئذٍ عند وَزْعِ جبريل الملائكة.

[د ح ض]

تدلّ مادة (دحض) علىٰ معنىٰ الزوال والزَّلَق. يقال: دحَضَت رِجلُه، أي: زَلِقَتْ، ودحضت الشمسُ، أي: زالت، ودحضت حجةُ فلان، إذا لم تثبُت. قال عز من قائل في قصة نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] أي: فصار من المغلوبين. قال أبو العباس المبرد: يقال: دحَضَتْ حُجَّتُه وأدحضها الله، وأصله من الزلق عن مقام الظفر، ومنه قول الشاعر:

قتَلْنا المُدْحَضِينَ بكلِّ فجٍّ ... فقد قرَّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أي: المغلوبين. ومن ذلك قوله عز وجل متوعِّداً الذين يصدُّون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦] أي: يخاصمون في دين الله مِن بعدِ ما استجاب الناسُ له ودخلوا فيه. قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس، قال: وهؤلاء قومٌ توهموا أن الجاهلية تعود. وقال قتادة: هم اليهود والنصارىٰ، ومحاجَّتُهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم. وكتابنا قبل كتابكم. وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء، وكان المشركون يقولون: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيّاً؟ فنزلت هذه الآية. وقوله تعالىٰ: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثبات لها، كالشيء الذي يزول عن موضعه. يقال: دحَضَتْ حجتُه دحوضاً، أي: بطلت، والإدْحاض: الإزلاق. ومكانٌ دَحْضٌ، أي: زَلَقٌ، ومن ذلك قول طرفة:

أبـا منـذرٍ رُمْـتَ الـوفـاءَ فهِبْتَـه   وحِدْت كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ [الكهف:٥٦] أي: أن هؤلاء الكفار يجادلون ليزيلوا بالجدال بالباطل الحقَّ ويبطلوه؛ ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل: ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥] أي: خاصموا رسولهم بالباطل من القول ليُدحضوا به الحقَّ، أي: يزيلوه. وقال ابن كثير: أي: ماحَلُوا بالشبهة ليردُّوا الحقَّ الواضحَ الجليّ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبـي ﷺ، قال: «من أعان باطلاً ليُدحِضَ به حقاً فقد برئت منه ذمّةُ الله تعالىٰ وذمةُ رسوله ﷺ».

ومـن غريـب مادة (دحض) في الحديث والأثـر، ما جاء في حديث مواقيت الصلاة: «حين تَدْحَـضُ الشمسُ» أي: تزول عن وسط السماء إلىٰ جهة المغرب، كأنها دحَضَتْ، أي: زَلِقتْ. ومنه حديث الجمعة: «كرهت أن أخرجكم فتمشون في الطين والدَّحْـض» أي: الزَّلَق. وفي حديث جُهَيْش بن أوس النخعيّ الوافد علـىٰ رسـول الله ﷺ، قال يصف قومـه من مذحـج: «نُجباءُ، غيـرُ دُحَّـضِ الأقـدام». الدُّحَّض، بالتشديد: جمع داحض، من الدَّحْض: الزَّلَق والزَّلَل، أي: ليسوا ممن لا ثبات لهم ولا عزيمة. وليسوا ساقطي المراتب، زالِّين عن علوّ المنازل.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: إن خليلي ﷺ قال: «إن دون جسر جهنَّم طريقاً ذا دَحْضٍ ومَزَلَّة». الدحض والمَزَلّة: الزَّلَق. ويقال: مَزَلَّة ومَزِلَّة. ومنه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يوضع الصراط على سواءِ جهنّمَ مثل حدِّ السيف المرهف، مَدْحَضةٌ مزَلّةٌ. قال: فيمرُّ أولُهم كالبرق، ثم كالرِّيح، ثم كشدِّ الفَرَس التَّئِقِ الجواد». وقوله: «سواءِ جهنم» أي: مَتْن جهنم، وسواءُ كلِّ شيء:

وسَطُه، والفرس التَّئِق: هو النَّشيطُ الشديدُ الجري. يقال: فرسٌ تَئِقٌ وتائقٌ.

قال امرؤ القيس:

فإمّا تَرَيْني اليومَ في رأسِ شاهقٍ　　　فقد أغتَدي أقُودُ أجْرَدَ تائقا

والحديث بالرواية المذكورة أورده أبو سليمان الخطابيُّ في «غريب الحديث»، وذكره الحافظ ابن كثير في سياق تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. قال: وقد رواه أسباطٌ عن السُّدِّيِّ عن مُرَّة، عن عبد الله ابن مسعود، قال: يردُ الناسُ جميعاً الصِّراط، ورُودُهم قيامُهم حولَ النار، ثم يَصدُرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمُرُّ مثل البَرْق، ومنهم من يمُرّ مثل الريح، ومنهم من يمرُّ مثل الطير، ومنهم من يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبل، ومنهم من يمرُّ كعَدْوِ الرجُل، حتىٰ إنّ آخرَهم مَرّاً رجلٌ نورُه علىٰ موضعِ إبهامَيْ قدميه، يَمرُّ فيتكفَّأ به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلّةٌ عليه حَسَكٌ كحسك القتاد، حافتاه ملائكةٌ معهم كلاليبُ من نار يختطفون بها الناس. والحَسَك: جمع حَسَكة، وهي شوكةٌ صُلْبة. والقتاد: شجرٌ له شوك.

وفي حديث سَيابَةَ بن عاصم السُّلَميّ، ووصَفَ للحجاج ما فعلته الأمطار ببلاده، فقال: ودَحَّضَت التِّلاع. والتِّلاع: ما غَلُظ وارتفع من الأرض، واحدتُها تَلْعَة، أي: صيَّرت هَذه الأمطارُ التلاعَ زَلَقاً لا تستمسكُ عليها الأرجُل.

وفي حديث معاوية قال لابن عمرو: لا تزال تأتينا بهَنَةٍ تدْحَضُ بها في بولك». الهَنَة: خَصْلَةٌ من الشرّ. وقوله: «تدحضُ» أي: تزلق. وروي بالصاد «تَدْحَصُ» أي: تبحثُ فيها برجلك، ومنه ما جاء في حديث إسماعيل عليه السلام: «فلما ظمىء إسماعيل جعل يَدْحَصُ الأرضَ بعقبيه، وذهبت هاجَرُ حتىٰ علَتِ الصَّفا إلىٰ الوادي، والوادي يومئذٍ لاحٌّ». فالدَّحْصُ، بالصاد المهملة: الفحص، يقال: دحَصَ المذبوحُ برجليه. و«لاحٌّ» أي: ضيِّقٌ بكثرة الشجر والحجارة، ومنه: لَحِحَتْ عينُه،

أي: التصقت. ورُوِي: «لاخٌّ» أي: ملتفٌّ مختلط.

[د ح و]

يقـول ربُّنا عز وجل محتجّـاً علىٰ منكري البعث ومبيِّناً أن من قدَرَ علىٰ خلْق السماء التي لها هَذا الجِرمُ العظيم، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بيِّنٌ للناظريـن، وأن من بسـط الأرض، وأخرج منها الماء والمرعىٰ، قادرٌ علىٰ إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أولَ مرّة، فيقول عزّ من قائل: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٢٧ ــ ٣٠]. قوله تعالىٰ: ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ أي: بسطها ووسَّعَها. قال أمية بن أبي الصلت:

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها ... فهمْ قُطَّانُها حتىٰ التَّنادي

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمـتُ وجهـي لمـن أسلمَـتْ ... لهُ الأرضُ تحمِلُ صَخْراً ثِقَالاً
دحـاهـا فلمّـا استـوتْ شَـدَّهـا ... بـأيـدٍ وأرْسـىٰ عليهـا الجِبـالا

وكلُّ شيء بسطته ووسَّعْتَه فقد دحَوْتَه، ومنه يقال لبيض النعام: أُدْحِيّ؛ لأنها تدْحُوه بصدرها، أي: تُوسِّعُه وتَبْسُطه، ويقال: نام فتدَحَّىٰ، إذا انبسط وامتدَّ علىٰ وجه الأرض، ودحا الخباز الرُّقاقة، أي: وسَّعَها. وجاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ، قال: اللهمُ داحيَ المَدْحُوَّات، فالدَّحْـوُ: البسط، وقـد دحا يدحـو دَحـواً، أي: بسَـطَ ووسَّع، والمَدْحـوّات: الأرَضُون، وكان الله خلقها أوّلاً رَبْوةً ــ أي مرتفعة ــ ثم بسطها. ومن ذلك حديثُه الآخر: «لا تكونوا كقيض بيضٍ في أداحِيّ». قَيْضُ البيض: هو قشْرُه. والأَداحيّ:

جمع الأُدْحيّ، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعامة وتفرِّخ، وهو أُفعولٌ من دَحَوْتُ؛ لأنها تدحوه برجلها، أي: تبسطه ثم تبيض فيه.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: فدحا السيلُ فيه بالبطحاء، أي: رمىٰ وألقىٰ. وفي حديث أبي رافع: كنت ألاعب الحسنَ والحُسين بالمداحي. المداحي: أحجارٌ أمثالُ القِرَصَة، كانوا يحفِرُون حفيرة ويَدْحُون فيها بتلك الأحجار ــ أي يرمون ــ فإن وقع الحجرُ فيها فقد غلَب صاحبُها، وإن لم يقع غُلِب، والدَّحْوُ: رميُ اللاعب بالحجر والجوز وغيره. وفي حديث سعيد بن المسيّب: أنه سُئل عن الدَّحْوِ بالحجارة، فقال: لا بأسَ به. أي: المراماة بها والمسابقة.

وفي الحديث: «يدخل البيت المعمور سبعون ألفَ دِحْية، مع كلِّ دِحْية سبعون ألفَ ملَك». الدِّحْية: رئيس الجند ومُقدَّمهم. وكأنه مِن: دحاه يدحوه، إذا بسطه ومهّدَه؛ لأن الرئيس له البسطُ والتمهيد. ومنه الحديث: كان جبريل عليه السلام يأتي النبيَّ ﷺ في صورة دِحية الكلبيّ. وهو دحية بن خليفة، أحدُ الصحابة. كان جميلاً حسن الصورة. ويرویٰ بكسر الدال وفتحها، وأنكر الأصمعيُّ فيه الكسر.

[د خ ل]

يقول عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ٩٤]. قوله تعالىٰ: ﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: خديعة وغِشّاً. وقال الجوهري: مكراً وخديعة. يقال: هذا الأمرُ فيه دَخَلٌ ودَغَلٌ بمعنًى واحد. وقال أبو عبيدة: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دَخَلٌ. وقيل: الدَّخَلُ: ما أُدخِلَ في الشيء علىٰ فساده.

قال الواحديُّ: قال المفسِّرون: وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن

نقض العهد علىٰ الإسلام ونُصرة الدين، واستدلُّوا علىٰ هذا التخصيص بما في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ من المبالغة. وبما في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم إذا نقضوا العهدَ مع رسول الله ﷺ صدُّوا غيرهم عن الدخول في الإسلام. قال: وعلىٰ تسليم أن هذه الأيْمان مع رسول الله ﷺ هي سببُ نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنىٰ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزلَّ قدمُ مَن اتخذ يمينَه دخَلاً عن محجَّة الحقِّ بعد ثُبوتها عليها ورسوخها فيها. قيل: وأفرد القدم للإيذان بأن زلَلَ قدم واحدة، أيَّ قدم كانت عزَّتْ أو هانت، محذورٌ عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارةٌ للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدمَ إذا زلَّتْ نقلت الإنسان من حال خير إلىٰ حال شرّ، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلَّتْ به قدمه، ومنه قول الشاعر:

تداركتُما عبْساً وقد ثُلَّ عرشُها وذُبْيانُ قد زَلَّتْ بأقدامِها النعلُ

ويقول عز من قائل، مُخبراً نبيَّه ﷺ عن شيم المنافقين من الهَلَع والجزع: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَـٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلࣰا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧]. فالملجأ: هو الحصن، والمغارات: التي في الجبال، أو المواضع التي يُستتَر فيها. والمُدَّخَل: ما دُخل فيه، وهو السَّرَبُ في الأرض والنفق. والأصل فيه: مُتْدخل، قُلبت التاء دالاً، وأدغمت فيها، وقوله: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ أي: يسرعون إسرعاً لا يردُّهم شيء، مِن جمَحَ الفرس: إذا لم يرُدَّه اللجام. قال امرؤ القيس:

سَبوحٌ جَموحٌ وإحضارُها كمَعْمعةِ السَّعَفِ المُوقَدِ

وقال عز من قائل، في قصة سليمان عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةࣱ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]. قال أبو عبيد الهروي في «الغريبين»: سبيلُك إذا أخبرتَ عمّا لا يعقل أن تؤنّث فتقول: دخلَتْ أو دخَلْنَ، ولكن لمّا جرىٰ في النطق مجرىٰ الآدميين جاء بلفظ من يعقل. انتهىٰ كلامه. ومعرفة نُطق الطير مما علّمه الله نبيَّه سليمان كما أخبر علىٰ

لسانه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦] ولذلك أخبر سبحانه وتعالىٰ عنه بعد سماع أمرها لجماعة النمل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩].

يقول ربنا عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ــ ٣٠]. قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ قال ابن عرفة نفطويه: تدخُلُ كلُّ نفس في البدن الذي خرجت منه. والذي يفسِّر الدخولَ بهذا التفسير يفسِّر قوله تعالىٰ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي: صاحبك. فهذا وجهٌ في التفسير. والوجه الآخر، وهو الذي يبدأ به المفسرون ذكره ابن كثير، فقال: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلىٰ جواره وثوابه وما أعدَّ لعباده في جنّته... ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾، أي: في جملتهم. وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً كما أن الملائكة يبشِّرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك هاهنا. قال ابن كثير: وقال العوفي عن ابن عباس: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ يعني صاحبك، وهو بَدَنُها الذي كانت تعمُرُه في الدنيا، وروي عنه أنه كان يقرؤها: فادخلي في عبدي وادخلي جنتي. وكذا قال عكرمة والكلبي واختاره ابن جرير، وهو غريب والظاهر الأول، لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٣] أي: إلىٰ حكمه والوقوف بين يديه.

وجاء في الحديث: «إذا أوىٰ أحدُكم إلىٰ فراشه فلينفُضْه بداخلةِ إزاره، فإنه لا يدري ما خلَفَه عليه». داخلة الإزار: طرَفُه وحاشيتُه من داخل، وإنما أمره بداخلته دون خارجته؛ لأن المؤتزِرَ يأخُذُ إزاره بيمينه وشماله، فيُلزق ما بشماله على جسده، وهي داخلة إزاره، ثم يضع ما بيمينه فوق داخلته، فمتىٰ عاجَلَه أمرٌ وخشي سقوط إزاره أمسكه بشماله. ودفع عن نفسه بيمينه، فإذا صار إلىٰ فراشه فحلَّ إزاره فإنما يحُلُّ بيمينه خارجةَ الإزار، وتبقىٰ الداخلةُ معلَّقةً. وبها يقع النفض؛ لأنها غير مشغولة باليد. وقوله: «فإنه لا يدري ما خلَفَه عليه» أي: صار بعده فيه، من هامّةٍ أو

غيرها مما يؤذي المضطجع، وخلافُ الشيء: بعدَه.

وقد ورد هذا اللفظ: «داخلة الإزار» في حديث غَسْل العائن، وهو الحاسد. وذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده إلىٰ أبي أمامةَ بن سهل بن حنيف، أن أباه حدَّثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة، حتىٰ إذا كانوا بشعب الخَرَّار من الجحفة اغتسل سهلُ بن حنيف، وكان رجلاً أبيض حسَنَ الجسم والجلد، فنظر إليه عامرُ بن ربيعة أخو بني عديّ بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جِلدَ مُخَبَّأة، فلُبِطَ سَهلٌ ــ أي: صُرِع وسقط علىٰ الأرض ــ فأُتي رسول الله ﷺ، فقيل له: يارسول الله، هل لك في سهل؟ والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق. قال: «هل تتهمون فيه من أحد؟» قالوا: نظر إليه عامرُ ابن ربيعة. فدعا رسول الله ﷺ عامراً، فتغيَّظ عليه، وقال: «علامَ يقتُلُ أحدُكم أخاه؟ هلاَّ إذا رأيتَ ما يعجبك برَّكْت؟» ثم قال: «اغتسلْ له» فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلةَ إزاره في قدح، ثم صبّ ذلك الماءَ عليه، فصبَّه رجلٌ على رأسه وظهرُه مِن خلفِه. ثم يُكْفِيءُ القدحَ وراءه، ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس.

قوله: «داخلة إزاره» قال ابن الأثير: قيل: أراد يغسل العائنُ ــ أي الحاسدُ الذي أصاب المحسود بعينه ــ يغسل موضع داخلةَ إزاره، من جسده، لا إزارَه. وقيل: داخلة الإزار: الوَرِكُ. وقيل: أراد به مذاكيرَه، فكنىٰ بالداخلة عنها، كما كُني عن الفرج بالسراويل.

ومن غريب مادة (دخل) ما جاء في حديث قتادة بن النعمان: كنت أرىٰ إسلامَه مدخولاً. الدَّخَل بالتحريك: العيبُ والغِشُّ والفساد. يعني أن إيمانه كان متزلزِلاً، فيه نفاق. ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان دِينُ الله دَخَلاً، ومالُ الله نُحْلاً، وعبادُ الله خَوَلاً. قال أبو سليمان الخطابي: الدخـلُ: الغِـشُّ والفسـاد، وأصله أن يَدْخُل في الأمر ما ليس منه، ومثله الدَّغَل. يُقال: أدخل الرجلُ في أمره وأدغل بمعنًى واحد. يريد أنهم يُدْخِلون في الدين أموراً

ويُحدِثون أحكاماً لم تجرِ بها السُّنَّة، والنُّحل: ما كان من العطاء ابتداءً علىٰ غير عـوض. يريد أنهم يُعطُون المـال علـىٰ الأثَـرَة وحُسن الرأي لا علىٰ الاستحقاق. والخَوَل: من كان استخدامه علىٰ سبيل قهر وذُلٍّ. جمع خائل.

وفي الحديث: «دخَلَتِ العمرةُ في الحج» معناه أنه سقط فرضُها بوجوب الحج ودخلتْ فيه، وهذا تأويل من لم يرَها واجبة، فأمَّا من أوجبها فقال: معناه أن عملَ العمرة قد دخل في عمل الحج، فلا يرىٰ علىٰ القارن أكثرَ من إحرامٍ واحد وطواف وسعي. وقيل: معناه أن العمرة قد دخلـت في وقت الحج وشهوره؛ لأنهم كانوا لا يعتمرون في أشهر الحج. فأبطل الإسلامُ ذلك وأجازه.

وجاء في حديث عمر رضي الله عنه: مِن دُخْلةِ الرَّحِم، يريد الخاصَّة والقرابة. والدِّخْلُ أيضاً: البطانة. قال ابن الأعـرابي: إنّني لأعرف دُخَّالَ أمرِك، ودُخَّيْلَىٰ أمرِك. وقال الفراء: دِخْلَةُ أمره، ودَخْلَةُ أمرِه: حِجازيّة، ودُخْلَةُ أمره. وقال أبو زيد: دخيلُ أمره وداخِلةُ أمره. وفي حديث معاذ رضي الله عنه: لا تؤذيه، فإنه دخيلٌ عندك. الدخيلُ: الضيف والنزيل، ومنه حديث عديّ: وكان لنا جاراً أو دَخيلاً. وفي حديـث الحسن البصـريّ رضي الله عنه: إن مـنَ النفـاق اختـلافَ المَـدْخَـل والمَخْرَج» أي: سوءَ الطريقة والسِّيرة، ويقال: فلان حَسَنُ المدخل والمخرج، أي: حســن الطريقة محمودُها. اللهمَّ ارزقنا حُسْنَ الظاهرِ والباطن، وجنِّبْنا سوء المدخل والمخرج.

[د ر أ]

يقول ربُّنا عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢]. قوله: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي: يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، كما في قوله

تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: ٣٤] أو يدفعون بالعمل الصالح العمل السيِّىء، أو يدفعون الشرَّ بالخير، أو المنكر بالمعروف. أو الظلمَ بالعفو أو الذنب بالتوبة، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور.

وهذه المادة (درأ) تدلُّ على معنىٰ الدَّفْع. ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل، في آيات الملاعنة: ﴿ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٨] أي: يدفع عنها الحدّ. وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨]. قيل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين. أي إن كان القعود يَسْلَمُ به الشخصُ من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون. والموت لا بدَّ آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

وقال تعالىٰ في قصة قتيل بني إسرائيل الذي قتله ابن أخيه وارثُه ووضعه علىٰ باب رجل منهم، ثم أصبح يدَّعيه عليهم. فيقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢]. قوله: ﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ ﴾ أي: تدارأتم وتدافعتم. يعني اختلافهم في القتيل، وذلك أن كل فريق كان يدفع القتل عن نفسه. وأصل ادَّارأتُم: تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال، وجيء بالألف ليصحَّ الابتداءُ بها. ويقال: دارأْتُه: إذا دافعتَه عن نفسك، مهموز، وداريتَه بالياء: إذا لاينتَه. ودريتَه: إذا خَتلْتَه وخدعتَه. وفي الحديث: «ادرأوا الحدود بالشبهات» أي: ادفعوا. يقال: درأ يدرأ درءاً، أي: دفَع. ومنه الحديث: «اللهم إني أدرأ بك في نحُورهم» أي: أدفع بك في نحورهم لتكفيني أمرَهم. وإنما خص النحور؛ لأنه أسرع وأقوىٰ في الدفع والتمكن من المدفوع. ومنه الحديث: « إذا تدارأتم في الطريق» أي: تدافعتم واختلفتم.

وجاء في الحديث: «كان لا يداري ولا يماري» أي: لا يشاغب ولا يخالف،

وأصله: «يداريءُ» مهموز، ولكنه جاء «يداري» بغير همز ليزاوج «يماري». قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: وأما قوله: «لا يداريء ولا يماري» فإن المدارأة هاهنا مهموز، من دارأت، وهي المشاغبة والمخالفة على صاحبك. ومنها قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] يعني اختلافهم في القتيل. ومن ذلك حديث إبراهيم النخعي، أو الشعبي ــ شك أبو عبيد ــ في المختلعة: إذا كان الدرءُ من قبلها فلا بأس أن يأخذ منها، والمحدِّثون يقولون: هو الدرو، بغير همزة، وإنما هو الدرءُ، من درأتُ، فإذا كان الدرءُ من قِبَلها فلا بأس أن يأخذ منها، وإن كان من قِبَله فلا يأخذ. يعني بالدرء: النشوز والاعوجاج والاختلاف. وكلُّ من دفعْتَه عنك فقد درأته. وقال أبو زبيد يرثي ابن أخيه:

كان عني يردُّ درْأك بعدَ اللّهِ شغبَ المستَضْعِفِ المِرِّيدِ

والمِرِّيد: الخبيث. فهذا معنىٰ الدرء والمدارأة، فأما المداراة في حُسن الخلق والمعاشرة مع الناس فغير مهموز. وقال بعضهم: يُهمَز. قال أبو عبيد: والوجه عندنا تركُ الهمز. وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يصلي، فجاءت بَهْمةٌ تمرُّ بين يديه، فما زال يدارئُها حتىٰ ألصق بطنه بالجدار. قال أبو سليمان الخطابي: قوله: «يدارئها» أراد يدافعها، من الدرء، مهموزاً، وليس من المداراة التي تجري مجرىٰ الرفق والمساهلة في الأمور. والبهمة: السَّخلة، وهي أولاد الغنم ساعةَ توضع. وفي حديث دغفل بن حنظلة الشيباني النسابة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وما كان بينهما من حوار حول أنساب العرب وبيوتها، قال دغفل في آخر هذا الحديث:

صادَفَ درْءَ السَّيلِ سيلٌ يردَعُهْ ... يَهِيضُه حِيناً وحِيناً يَصدَعُهْ

درْءُ السَّيل، بفتح الدال وضمّها: هجومُه وإقباله. يقال: سال الوادي دَرْءاً ودُرْءاً: إذا سال من مطرِ غيرِ أرضه، وسال الوادي ظَهْراً وظُهْراً، إذا سال من مطرِ أرضه. وقال أبو موسىٰ المديني الأصبهاني: درْءُ السيلِ: بناءٌ يبنىٰ حوالَيْ مجرىٰ

السيل، يُدْفَعُ به عن مواضعَ يريدونها. والردع: الزجر والكف. وهو مثَلٌ يُضَرب لمن ظلَم ظالماً، أو غلَب مُغالِباً. ويقال للسَّيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه: سيلٌ دَرْءٌ، أي يَدفع هذا ذاك، وذاك هذا. ودرأ علينا فلانٌ يدرأ: إذا طلع مفاجأة. وفي الحديث: «السلطانُ ذو تُدْرأ» أي ذو هجوم لا يتوقَّىٰ ولا يهاب، ففيه قوّةٌ علىٰ دفع أعدائه. والتاء في أول «تُدرأ» زائدة. ومنه قول العباس بن مرداس رضي الله عنه:

وقـد كنـتُ فـي القـوم ذا تـدرأ فلـم أُعـطَ شيئـاً ولـم أُمْنَـعِ

وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه صلىٰ المغرب، فلما انصرف درأ جمعةً من حصىٰ المسجد، وألقىٰ عليها رداءه واستلقىٰ. قوله: «درأ جمعةً» أي: بسطها وسوَّاها، ومنه قولهم: يا جاريةُ ادرَئي لي الوسادة، أي: ابسُطي. قال المثقِّبُ العبدي، ويعني ناقته:

تقـول إذا دَرأْتُ لهـا وَضِينـي أهـذا دِينُـه أبـداً ودِينـي

وقال عز من قائل: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ [النور: ٣٥]. قرىء ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ و﴿دِرِّيءٌ﴾ بالكسر والهمز. فمن قرأ ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ فهو منسوبٌ إلىٰ الدُّرِّ. أراد: « كوكبٌ مضيء». ومن قرأ ﴿دِرِّيءٌ﴾ فهو فِعِّيل، مِن: درَأَ النجمُ يدرأ: إذا طلع.

[د ر ج]

يقـول ربنا عز وجل، مبيِّناً أن للنساء علىٰ الرجال من الحقِّ مثلَ ما للـرجال عليهن وفيما وراء ذلك فإن للرجال فضلاً علىٰ النساء، فيقول عز من قائل: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. قـال الإمام الشوكاني ــ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ ﴾ ــ أي: منزلةٌ ليست لهن،

وهو قيامه عليها في الإنفاق، وكونُه من أهل الجهاد والعقل والقوّة، وله من الميراث أكثرُ مما لها، وكونه يجب عليها امتثالُ أمره والوقوف عند رضاه، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾ [النساء: ٣٤] والدَّرَجة: المِرْقاة، نحو دَرَجةِ السُّلَّم والسَّطح، ويُعبَّر بها عن المنزلة والطبقات من المراتب.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [الحديد: ١٠]. قال عطاء: درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها. وقال أبو إسحاق الزجاج: لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثرُ مما نال مَن بعدَهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ. وقال عز من قائل: ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] أي: ذَوُو درجات، أي: طبقات. فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجاتِ مَن باءَ بسَخطٍ من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات، والآخِرين في أسفلها. وقال الحسن البصريُّ ومحمد بن إسحاق: يعني أهلُ الخير وأهل الشرّ درجات. وقال أبو عبيدة والكسائيّ: منازل، أي: متفاوتون في منازلهم. درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار. كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. الاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلةً بعد منزلة، من الدرجة، فالاستدراج: أن يخطوَ درجةً بعد درجةٍ إلىٰ المقصود، ومنه: درَجَ الصبيّ، إذا قارب بين خطاه. فمعنىٰ سنستدرجهم: نأخذهم درجةً فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً. كالمراقي والمنازل، في ارتقائها ونزولها. ويتحقق هذا الاستدراج بإدرار النِّعم عليهم وفتح أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتىٰ يغترُّوا بما هم فيه ويتنكّبوا طرق الهداية لاعتقادهم أنهم علىٰ شيء، وأن ما حصل

لهم من الرزق الواسع والخير الوفير إنما كان لِمَا لهم عند الله من المنزلة والزلفىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ ﴾ أي: وسأملي لهم، أي: أطوِّل لهم ما فيه ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣] أي: قويٌّ شديد.

وقيل: إن قوله تعالىٰ: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ [الأعراف: ١٨٢] معناه: سنطويهم طيَّ الكتاب، مأخوذٌ من الدَّرْج، وهو طيُّ الكتاب والثوب ونحوهما، ويقال للشيء المطويِّ: دَرْجٌ، واستُعير الدَّرْجُ للموت، فقيل: درَجَ القوم، أي: انقرضوا ومات بعضُهم في إثر بعض، كما استعير الطيُّ للموت أيضاً، فقيل: طوته المنيَّة. وفي المثل: «أكذبُ مَن دَبَّ ودَرَج» أي: أكذبُ الأحياء والأموات.

وقال الأصمعي: درج الرجلُ: إذا لم يخلِّفْ نَسْلاً. وقال أبو عبيد الهروي: قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي: نُمهلهم ثم نأخذُهم، كما يرقىٰ الراقي الدرجة فيتدرّجُ شيئاً بعد شيء حتىٰ يصل إلىٰ العُلْو. والاستدراج: الأخذُ علىٰ غِرَّة. ومن كلامه: رجَعَ أدراجَه. وعاد على أدراجه، أي: عاد إلىٰ المكان الذي جاء منه. ويقال: درَج قرنٌ بعد قرن، أي: فَنُوا.

وفي حديث كعب، قال له عمر: «لأيِّ ابنيْ آدم كان النسلُ؟ فقال: ليس لواحدٍ منهما نَسل: أما المقتول فدَرَج، وأما القاتلُ فهلك نسلُه في الطوفان، والناسُ من بني نوح، ونوح من بني شيث بن آدمَ عليهم السلام. قوله: «درج» أي: مات وذهب.

وفي الحديث أن النبي ﷺ أمر بإخراج المنافقين من المسجد، فقام أبو أيوبَ الأنصاري رضي الله عنه إلىٰ رافع بن وديعة، فلبَّبه بردائه، ثم نتَرَه نتْراً شديداً، وقال له: أدراجَك يا منافقُ من مسجد رسول الله ﷺ! الأدراج: جمع دَرَج، وهو الطريق، ومنه المثل: خَلِّهِ دَرَجَ الضَّبِّ، وإنما خُصَّ الضبُّ؛ لأنه إذا ذهب في طريق لم يهتد

إلىٰ الرجوع فيه. ومعنىٰ قول أبي أيوب: «أدراجَك يا منافق» أي: خذ أدراجَك، أي: اذهب في طريقك التي جئت منها، ولا يقال ذلك إذا أخذ في غير وجه مجيئه. قال الراعي يصف نساءً بات عندهن ثم رجع:

لمّا دعا الدعوةَ الأُولىٰ فأسمَعَني أَخَذْتُ بُرْدَيَّ فاستمرَرْتُ أدْراجي

وفي حديث عبد الله ذي البجادين، يخاطب ناقة النبي ﷺ:

تعـرَّضـي مَـدارجـاً وسُـومـي تعـرُّضَ الجـوزاءِ للنجـومِ

هـذا أبـو القـاسـم فـاستقيمـي

المدارج: الثنايا الغِلاَظ، واحدتها مَدْرجة، وهي المواضعُ التي يُدرَجُ فيها، أي: يُمْشَـىٰ، وقوله: «تعرَّضي مدارجاً» أي: خُذي يمنـةً ويَسْـرة، وتنكَّبي الثنايا الغـلاظ، وشبهها بالجوزاء؛ لأنهـا تمـرُّ معترضة في السماء؛ لأنهـا غير مستقيمةِ الكواكب في الصورة.

وجاء في حديث الحجاج بن يوسف: ليس هذا بعُشِّكِ فادرجي، أي: اذهبي. وهو مَثَلٌ يُضرَب لمن يتعرض إلىٰ شيء ليس منه، وللمطمئنّ في غير وقته، فيؤمَرُ بالجدّ والحركة. وقال أبو هلال العسكري في شرحه: أي: ليس مما ينبغي لكَ فزُلْ عنه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كُنَّ يبعثن بالدِّرَجَة فيها الكُرْسُف. قال ابن الأثير: هكذا يروىٰ بكسر الدال وفتح الراء: جمع دُرْج، وهو كالسَّفَط الصغير تضع فيه المرأة خِفَّ متاعها وطيبَها. وقيل: إنما هو: بالدُّرْجَة تأنيث دُرْج. وقيل: إنما هي الدُّرْجة بالضم، وجمعها الدُّرَج، وأصله شيءٌ يُدْرَج، أي: يُلَفُّ فيُدْخَلُ في حياء الناقة، ثم يُخرج ويُتْرك علىٰ حُوار فتشَمُّه فتظنُّه ولدَها فترأمه.

[د ر ر]

يقول ربنا عز وجل محذّراً المشركين أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حلَّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ منهم قوّةً وأكثر جمعاً وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً في الأرض وعمارةً لها، فيقول عز من قائل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]. قوله: ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي: كثيرةَ المطر، يقال: دِيمةٌ مدرارٌ، إذا كان [مطرُها] غزيراً دارًّا، ومِفْعال للمبالغة، ولا يؤنَّث. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ يريد المطر، وعبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء، ومنه قول الشاعر:

إذا نـزلَ السمـاءُ بـأرضِ قـومٍ ... رعَيْنـاهُ وإن كـانـوا غِضـاباً

وفي حديث دعاء استسقاء النبيّ ﷺ: «دائماً دِرَرًا» الدِّرَرُ: جمع الدِّرَّة، وهي المطرُ، ودِرَّةُ السَّحاب: صَيِّبُه. ويقال للسَّحاب دِرَّة، أي: صَبٌّ واندفاق. وقيل: الـدِّرَر في هذا الحديث معنـاه الدارّ، كقوله تعالىٰ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١] أي: قائماً.

وفـي حديـث صفـة النبي ﷺ المرويّ عن هنـد بـن أبي هـالـة، قـال: أزجّ الحواجب، سَوابغ في غير قَرَن، بينهما عِرْقٌ يُدرُّه الغضَبُ» الزَّجَج: دقّةُ الحاجبين وسبوغُهما إلىٰ محاذاة آخِرِ العين مع تقوُّسٍ خِلْقةً. والقَرَنُ: أن يلتقي طرفاهما مما يلي أعلى الأنف، وهو غير محمود عند العرب، ويستحبّون البَلَج، وهو بياضُ ما بين رأسيهما وخلوُّه من الشعر، والمراد أن حاجبيه ﷺ قد سبغا وامتدّا حتىٰ كادا يلتقيان ولم يلتقيا. وقوله: بينهما عِرقٌ يدرُّه الغضب. قال ابن الأثير: ردَّ الضميرَ في «بينهما» إلىٰ التثنية علىٰ المعنىٰ دون اللفظ. ويُدِرُّه الغَضَبُ أي: يحرِّكه ويُظهرُه.

كـان ﷺ إذا غضب امتلأ ذلك العِـرْقُ دمـاً كما يمتلـىء الضَّرعُ لبناً إذا درَّ، فيظهر ويرتفع. وقيل: هو مِن: أدرَّت المرأةُ المِغزل: إذا فتلتْه فَتْلاً شديداً.

وفي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ عن ذبح ذوات الدَّرّ، أي: ذوات اللبن، ويجوز أن يكون مصدر درَّ اللبنُ، إذا جرىٰ.

وفي كتاب النبي ﷺ إلىٰ بني نهد مع وافدهم طِهفة بن أبي زهير النهدي: «ولا يُحْبَسُ دَرُّكم». الدَّرُّ: اللبن، وأراد ذواتِ الدَّرّ، أراد أنها لا تُحشَر إلىٰ المصدِّق ــ وهو جامع الزكاة ــ وتُحبَسُ عن المرعىٰ، لما في ذلك من الإضرار بها. وفي حديث خزيمة بن ثابت، ووصَفَ لرسول الله ﷺ الشدائدَ التي توالت علىٰ قومه: غاضَتْ لها الدِّرَّة. أراد بالدِّرَّة اللبنَ والمطر.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه أوصىٰ عمالَه إذ بعثهم، فقال: وأدِرُّوا لِقْحةَ المسلمين اللِّقحة واللَّقوح: ذات اللبن من النُّوق، والجمع لِقاح. وأراد عمر رضي الله عنـه بإدرار اللِّقْحة: أن يجعلوا ما يجيء منه عطاءُ المسلمين، كالفيْءِ والخراج، غزيـراً كثيراً. وفي حديث أبي قلابة: «صليتُ الظهر ثم ركبت حِماراً دَريراً» الدريرُ: السريعُ العَدْو من الدَّوابّ، المكتنزُ الخَلْق. وفرسٌ دَريرٌ أيضاً. قال امرؤ القيس:

دريرٍ كخُذروفِ الوليدِ أمرَّهُ   تَتابُعُ كفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ

وفي حديث عمرو بن العاص، أنه قال لمعاوية رضي الله عنهما، في حديث عتاب: أما والله، لقد تلافيْتُ أمرك وهو أشدُّ انفضاجاً من حُقِّ الكَهْوَل، فما زِلتُ أَرُمُّه بوَذائله، وأصِلُه بوصائله حتىٰ تركتُه علىٰ مِثل فَلْكة المُدِرّ. حُقّ الكَهْوَل: بيت العنكبـوت. والانفضـاج: الاسترخاء. والوذائل: سبائكُ الفضة، جَمْعُ وذيلـة. والوصائل: ثيابٌ حمْرٌ مخطَّطة يُجاء بها من اليمن، الواحدة وصيلة يريد أنه زيَّنَه وحسَّنَه. قال الزمخشري: وعندي أنه أراد بالوذائل جمع وذيلة، وهي المرآة بلغة

هذيل، مَثَّل بها آراءه التي كانت لمعاوية أشباه المرائي، يرىٰ فيها وجوه صلاح أمرِه واستقامة ملكه. وقوله: «فلكةِ المُدِرِّ» المُدِرُّ: الغزّال، والدرَّارة المِغْزَل. يقال: أدرَّ فلانٌ مغزلَه، إذا أداره بشدة الفتل. وضرب فَلْكَةَ الغزّال مثلاً لاستحكام أمرِه بعد استرخائه؛ لأن الغزَّال لا يألو إحكاماً وتثبيتاً لفلْكته؛ لأنها إذا قلِقَتْ لم تدِرَّ الدرَّارة، وثباتُها أن تنتهي إلىٰ مستَغْلَظ المِغْزل. وقال ابن قتيبة: أراد بالمُدِرِّ الجاريةَ إذا فلَّكَ ثدياها ودَرَّ فيهما الماء. يقول: كان أمرُكَ مسترخياً فأقمتُه حتىٰ صار كأنه حلمةُ ثدي قد ادرّ. قال ابن الأثير: والأولُ الوجه، أي: تفسيرُ المُدِرِّ بالغَزَّال.

وفي حديث الرؤية: «كما ترون الكوكبَ الدُّرّيَّ في أفق السماءِ» الكوكب الدُّرِّيُّ: هو الشديدُ الإنارة، كأنه نُسب إلى الدُّرِّ، تشبيهاً بصفائه. وقال المفسرون: الكوكب الدريُّ: الواحدُ من الكواكب الخمسة العظام. وقال أبو زكريا الفراء: العرب تسمي الكواكب العظام التي لا تُعرفُ أسماؤُها: الدراريّ، بلا همز. ومنه حديث الدجّال: «إحدىٰ عينيه كأنها كوكب دُرّيّ». وفي حديث صفة الخوارج: «آيتهم رجلٌ أسودُ في إحدىٰ يديه مثلُ ثدي المرأة، ومثل البضعة تَدَرْدَرُ». الرجل الأسود هو: ذو الثُّدَيَّة. وقوله: «تَـدَرْدَرُ» أي: تَمَرْمَرُ وتَرَجْرَجُ، أي: تذهب وتجيء، ومنه دُرْدُور البحر، وهو الماء الذي يدورُ ويُخاف فيه الغرق. وأصل تَدَرْدَرُ: تتدَرْدَرُ، فحذِفت إحدىٰ التاءين تخفيفاً، مثل: تلظَّىٰ، وتذبذَبُ، وتَقَلْقَلُ، وتَدَلْدَلُ.

[د ر ك]

يقول ربنا عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. قرىء ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، بسكون الراء، وقرىء: ﴿الدَّرَكِ﴾، بتحريكها وهما لغتان، وقال أبو جعفر النحاس: والتحريك أفصح. والدَّرَك كالدَّرَج، لكنِ الدَّرَجُ

يقال باعتبار الصعود، والدَّرَكُ يقال باعتبار الانحدار. ولذلك قيل: درجاتُ الجنة، ودركاتُ النار، والنار دركاتٌ سبع، فالمنافق في الدرْك الأسفل منها، وهي الهاوية؛ لغِلَظ كفره وكثرة غوائله. وأعلىٰ الدركات: جهنم، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وقد تسمَّىٰ جميعُها باسم الطبقة العليا، أعاذنا الله من عذابها. وقال أبو عبيدة: جهنمُ أدراكٌ، أي: منازل، يقال: لكلّ منزلةٍ منها: دَرَكٌ ودَرْك، والدَّرَكُ إلىٰ أسفل، والدرَجُ إلىٰ أعلىٰ.

وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] أي: لا تخافُ أن يدركك من يطلبُك. يعني فرعون. والدَّرَك: الاسمُ من الإدراك. كاللَّحَق من الإلحاق.

وهذه المادة (درك) تدلّ في اللغة علىٰ أصل واحد، هو كما قال ابن فارس: لُحوقُ الشيء بالشيء ووصولُه إليه. يقال: أدركت الشيء أُدركه إدراكاً. ويقال: فرسٌ دركُ الطريدة: إذا كانت لا تفوته طريدة. ويقال: أدرك الغلامُ والجارية: إذا بلغا، وكذلك أدرك الثمرُ، أي: بلغ. وتدارك القوم: لحق آخرُهم أولَهم. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] قوله تعالىٰ: ﴿ٱدَّارَكُوا۟﴾ أي: تداركوا وتتابعوا واجتمعوا. وقرأ الأعمش: «تَدَارَكُوا» علىٰ الأصل. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] أي: تواطأ وتدارك علمُهم في الآخرة حين لا ينفعهم؛ لأنهم آمنوا وأيقنوا بعد الموت. وقرىء: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ ومعناه: كمُل علمُهم في الآخرة مع المعاينة، وذلك حين لا ينفعهم العلم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. وقال الزجاج: إنه علىٰ معنىٰ الإنكار، واستدلّ علىٰ ذلك بقوله فيما بعد: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمُهم علمَ الآخرة.

وفي الحديث: «أعوذ بك من دَرْكِ الشقاء» الدَّرْك: اللِّحاقُ والوصولُ إلىٰ الشيء. يقال: أدركته إدراكاً ودَرْكاً، ومنه الحديث: «لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دَرَكاً لحاجته».

ومن رباعيّ هذه المادة (درك) ما جاء في الحديث: أنه ﷺ مرَّ علىٰ أصحاب الدِّرْكِلَةِ. قال شمر: قرىء هذا الحرفُ علىٰ أبي عبيد وأنا شاهد: الدِّرْكِلَة. قال: وروىٰ محمد بن إسحاق: قدم فتيةٌ علىٰ رسول الله ﷺ يُدَرْقِلُون. قال: والدَّرْقَلَةُ: الرقص. وقال ابن دريد: الدِّرْكِلَةُ: لعبةٌ للصبيان، أحسَبُها حبشيّة.

[د س ر]

يقول ربنا عز وجل في قصة إنجاء نبيه نوح عليه السلام: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣] ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾: هي السفينة. والدُّسُر فيما قال مجاهد: أضلاعُ السفينة، وقال الزجاج: هي المسامير التي تُشَدُّ بها الألواح، واحدها: دِسار، وكلُّ شيءٍ أُدخِل في شيء يشدُّه فهو الدَّسْر. وقد دسَرْتُ المسمارَ أدسُرُه دَسْراً، وهو أن تدخله في الشيء بقوّة. وقيل: الدُّسُر: خُرَزُ السفينة، وقيل: هي السُّفُن بعينها تَدْسِرُ الماءَ بصُدورِها، أي: تدفعه. والدَّسْر: الدفع. يقال: دسرتُ الشيء دسْراً، إذا دفعتَه دفْعاً شديداً. ودسره بالرمح، أي: طعنه، ورمحٌ مِدْسَر. قال عمرو بن أحمر:

ضرْباً هذا ذَيْكَ وطعناً مِدْسَرَا

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه خطب فقال: إن أخوَفَ ما أخافُ عليكم أن يؤخَذَ الرجلُ المسلم البريء فيُدسَرَ كما تُدْسَرُ الجزور، ويُشاطَ لحمُه كما يُشاطُ الجزور، يقال: عاصٍ وليس بعاص. قوله: «يُدسَر» أي: يُدفع ويُكَبُّ للقتل كما يُفعل بالجزور عند النحر. ويقال: أشاط الجزَّارُ الجزور: إذا

قطعها وقسَّم لحومَها. ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسُئل عن زكاة العنبر، فقال: إنما هو شيءٌ دسَره البحر، أي: دفعه وألقاه إلىٰ الشط. يعني ليس فيه زكاة.

وفي حديث الحجاج بن يوسف: دخل عليه سنانُ بنُ يزيدَ النخعيّ، قاتلُ الحسين بن علي رضي الله عنهما، فقال له الحجاج: كيف صنعت بحسين؟ فقال: دسرتُه بالرمح دَسْراً، وهبرْتُه بالسيف هَبْراً، ووكلتُه إلىٰ امرىءٍ غيرِ وَكِل. فقال الحجاج: أما والله لا تجتمعان في الجنة أبداً، وأمر له بخمسة آلاف درهم. فلما ولّىٰ قال: لا تُعطوه إياها. قوله: دسرتُه: معناه دفعته حتىٰ سقط. يقال: دسرتُ الرجُلَ دَسْراً: إذا فعلت ذلك به. والهَبْرُ: القطع الواغلُ في اللحم. يقال: ضرْبٌ هَبْرٌ، وطَعْنٌ نَتْرٌ، وهو الخَلْس، ورَمْيٌ سَعْرٌ، أي: كأنه نار! والوَكِل: الجبان الذي يكلُ أمرَه إلىٰ غيره.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من خطبته عن بديع صنع الله عز وجل في خلق السماوات والأرض. قال: رفعها بغير عَمَدٍ يَدْعَمُها، ولا دِسارٍ ينتظمُها. الدِّسارُ هنا: المِسمار، وجمعه دُسُر. وقد قيل هذا في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ كما سبق.

[د ع و]

يقول ربنا عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥] قال أبو منصور الأزهري: الدَّعوىٰ: اسمٌ يقوم مقام الادعاء. يقال: ادَّعىٰ يدَّعي ادِّعاءً ودعوىٰ، أي: فما كان ما يدَّعُونه لدينهم وينتحلونه إلاَّ اعترافُهم ببُطلانه وفساده. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا

بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ــ ١٥] أي: فما زالت تلك المقالةُ، وهي الاعترافُ بالظُّلم، ادعاءهم وهِجِّيراهم حتىٰ حصدناهم حَصْداً وخمدت حركاتُهم وأصواتُهم خموداً.

وتكون الدَّعْوىٰ بمعنىٰ الدعاء. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي: دعاؤهم ونداؤهم. وقيل: الدعوىٰ: العبادة، كقوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]. وقيل: معنىٰ دعواهم هنا الادّعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنىٰ أن أهل الجنة يدَّعُون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب، والإقرار له بالألُوهية. قال القفّال: أصلُه من الدعاء؛ لأن الخصم يدعو خصمَه إلىٰ من يحكم بينهما. وقيل: معناه طريقتهم وسيرتُهم؛ وذلك أن المدَّعيَ للشيء مواظبٌ عليه، فيمكن أن تُجعل الدعوىٰ كناية عن الملازمة، وإن لم يكن في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠]. دعوىٰ ولا دعاء. وقيل: معناه: تمنِّيهم، كقوله عز وجل: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧]. وكأنّ تمنّيهم في الجنة ليس إلاّ تسبيح الله وتقديسه.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] قال: كلما اشتهىٰ أهلُ الجنة شيئاً، قالوا: سبحانك اللهم. فيجيئهم كما يشتهون، فإذا طعموا ممّا آتاهم الله قالوا: الحمد لله رب العالمين، فذلك آخر دعواهم. وقال الحافظ ابن كثير: جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يُلهَمُون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهَمُون النَّفَس. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نِعَم الله عليهم، فتُكرَّر وتُعاد وتُزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا

إله إلاَّ هو ولا ربَّ سواه.

وقال تعالىٰ في صفة نعيم أهل الجنة: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧]. قال أبو عبيدة: ﴿يَدَّعُونَ﴾: يتمَنَّوْن. والعرب تقول: ادَّع عليَّ ما شئت، أي: تمنَّهْ واقترح. وفلانٌ في خيرِ ما يدَّعي، أي: ما يتمنّىٰ. وقال أبو إسحاق الزجاج: هو من الدعاء، أي: ما يدعونه أهلُ الجنة يأتيهم، مِن: دعوت غلامي؛ فيكون الافتعال بمعنىٰ الفَعْل، كالاحتمال بمعنىٰ الحَمْل، والارتحال بمعنىٰ الرحل. وقيل: المعنىٰ: إن من ادَّعَىٰ منهم شيئاً فهو له؛ لأن الله قد طبعهم علىٰ ألاَّ يدّعيَ أحدٌ منهم شيئاً إلاَّ وهو يَحْسُنُ ويجمُلُ به أن يدّعيَه. وقرىء: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ بالتخفيف، من الدعاء، وهو الطلب.

وقال تعالىٰ في شأن العذاب الذي يلقاه الكفار يوم الحساب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧] أي: قيل لهم توبيخاً وتقريعاً: هذا المشاهَدُ الحاضرُ من العذاب، هو العذاب الذي كنتم به تدَّعُون في الدنيا، أي: تطلبونه وتستعجلون به استهزاءً. وهذا التفسير مبنيٌّ علىٰ أن معنىٰ تدَّعُون: الدُّعاء. قال الفراء: تدَّعُون: تفتعلون من الدعاء، أي: تتمنَّوْن وتسألُون. وبهذا قال أكثر المفسِّرين. وجعله الزجاج من الدعوىٰ، قال: هذا الذي كنتم به تدَّعُون الأباطيلَ والأحاديث. والمعنىٰ أنهم كانوا يدَّعُون أنه لا بعثَ ولا حشرَ ولا جنَّةَ ولا نار.

وقرأ قتادة وابنُ أبي إسحاق ويعقوبُ والضحاك: (تَدْعُوْنَ). بالتخفيف. قال قتادة: هو قولهم: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] والقِطُّ: هو الحظُّ والنصيب، والمراد أنهم سألوا تعجيل العذاب، علىٰ سبيل الاستهزاء. وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. قال أبو جعفر النحاس: تدَّعُون وتَدْعُون بمعنًى واحد، كما تقول: قَدَر واقتدر، وغدا واغتدىٰ، إلا أنّ افتعل

معناه: مضىٰ شيئاً بعد شيء، وفعَلَ يقع علىٰ القليل والكثير.

وقال عز من قائل: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضلال﴾ [الرعد: ١٤]. روىٰ ابن جرير، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. وقال ابن عباس وقتادةُ ومالك: لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد. والمعنىٰ: لله من خلقه أن يوحِّدوه ويخلصُوا له. وقيل: دعوة الحقّ: دعاؤه سبحانه وتعالىٰ عند الخوف، فإنه لا يُدْعَىٰ فيه سواه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقيل: الدعوة العبادة. فإن عبادة الله هي الحقُّ والصدق. وإضافة الدعوةِ إلىٰ الحقّ للملابَسة، أي: الدعوة المُلابِسةُ للحق المختصّةُ به التي لا مدخَلَ للباطل فيها بوجهٍ من الوجوه، كما يقال: كلمة الحق. والمعنىٰ: أن لله سبحانه دعوةَ المدعوّ الحق، وهو الذي يسمع فيجيب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤] أي: والآلهة الذين يدعونهم ــ يعني الكفار ــ من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان، إلاّ استجابةً كاستجابة الماء لمن بسط كفَّيْه إليه من بعيد، فإنه لا يجيبه؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه. وقد ضرَبَتِ العرب لمن سعىٰ فيما لا يدركه مثلاً بالقبض علىٰ الماء، كما قال الشاعر:

ومَن يأمَنِ الدنيا يكنْ مثْلَ قابضٍ علىٰ الماءِ خانَتْهُ فروجُ الأصابعِ

يقول ربنا عز وجل، متحدِّياً الكفار أن يأتوا بمثل هذا الكتاب الذي أنزله علىٰ خاتم أنبيائه محمد ﷺ. فيقول عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. قوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم واستعينوا بهم. وقال ابن عباس:

﴿شُهَدَآءَكُم﴾: أعوانكم. وقال مجاهد: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾. قال: ناسٌ يشهدون به. يعني حكَّامَ الفصحاء. وقال أبو الهيثم: الدعاءُ: الغوث، وقد دعا، أي: استغاث، ومنه قوله عز وجل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] قال أبو عبيد الهروي: يقول: استغيثوا بي إذا نزلَتْ بكم ضرَّاءُ، أَستجبْ لكم دعاءكم، أي: غَوْثَكم. وقال الإمام الشوكاني: قال أكثر المفسّرين: المعنىٰ: وحِّدوني واعبدوني أَتقبّلْ عبادتكم وأَغفِرْ لكم. وقيل: المراد بالدعاء السؤالُ بجلْب النفع ودفع الضُّرّ. قيل: الأول أولىٰ؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة. قلت، أي الشوكاني: بل الثاني أولىٰ؛ لأن معنىٰ الدعاء حقيقةً وشرعاً هو الطلب، فإن استُعمل في غير ذلك فهو مجاز، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقيّ هو عبادة، بل مُخُّ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح. فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ووعْدهم بالإجابة، ووعدُه الحق، وما يُبدَّل القولُ لديه، ولا يُخلف الميعاد. ثم صرَّح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقيِّ، وهو الطلبُ، هو من عبادته، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: ذليلين صاغرين، وهذا وعيدٌ شديد لمن استكبر عن دعاء الله.

وأخرج الإمام أحمد، بسنده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لم يَدْعُ الله عز وجل غضِبَ عليه» وفي رواية: «مَن لا يسألْهُ يغضَبْ عليه». وكان سفيان الثوريّ يقول: «يا من أحبُّ عبادِه إليه: من سأله فأكثرَ سؤاله، ويا من أبغَضُ عبادِه إليه من لم يسألْه، وليس أحدٌ كذلك غيرُك يارب. وقال الشاعر:

الله يغضبُ إن تركْتَ سؤالَهُ ... وبُنَيُّ آدمَ حيثُ يُسألُ يغضَبُ

وحكىٰ الحافظ ابن كثير، عن الحافظ أبي يعلىٰ الموصلي في «مسنده»، بسنده إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربّه عز وجل، قال: «أربع خصال، واحدةٌ منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينَك، وواحدة فيما بينَك وبين عبادي. فأما التي لي فتعبدني لا تشركُ بي شيئاً، وأما التي

لك عليَّ، فما عمِلتَ من خير جزَيْتُك به. وأما التي بيني وبينَك، فمنك الدعاءُ وعليَّ الإجابة، وأما التي بينَك وبين عبادي فأرْضَ لهم ما ترضىٰ لنفسك».

ومن الدعاء بمعنىٰ الاستغاثة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨] أي: وإن تستغِثْ نفسٌ قد أثقلتْها ذنوبُها إلىٰ أن يُحمَلَ عنها شيء من ذلك لم يُحكَمْ لها به.

وقال عز وجل في صفة النار: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج:١٧]. ذكر أبو عبيد الهرويُّ في كتابه «الغريبين» الذي فسَّر فيه غريب القرآن الكريم والحديث الشريف، قال: قال المبرِّد: أي: تُعذِّبُ، وقال ثعلب: تُنادي، وقال أهلُ التفسير: إنها تدعو الكافر باسمه. أخبرنا ابن عمار، عن أبي عمر، قال: سُئل المبرِّدُ وأنا أسمع عن قوله «تدعو» فقال: تعذِّب، رواه عن النضر، عن الخليل، وأنكر قول ثعلبٍ: تُنادي؛ لأن هذا كان يعتقد أن جهنم لا تتكلّم. قال: وقال الخليل: قال أعرابيٌّ لآخر: دعاك الله، أي: عذَّبك الله، وقال أبو العباس: معنىٰ قوله: دعاك الله، أي: أَماتَك الله، واحتجَّ أبو العباس بقول ابن عباس: نارُ جهنم تنادي يوم القيامة ـ بلسانٍ فصيح ـ الكفار، فتلتقطهم كما يلتقط الطائرُ الحبَّ. وقال غيرُهم: دعْوتُها إياهم: ما تفعل بهم من الأفاعيل، والعرب تقول: دعانا غيثٌ وقع بناحية كذا، أي: كان ذلك سبباً لانتجاعنا إياه، ومنه قول ذي الرُّمة:

أمسىٰ بِوَهْبِينَ مختاراً لِمَرتعِهِ ... من ذي الفَوراسِ تدْعو أنفَه الرِّيَبُ

ومنه قوله أيضاً:

دعَتْ مَيَّةَ الأعدادُ واستبدَلَتْ بها ... خناطيلَ آجالٍ منَ العِينِ خُذَّلِ

والخناطيل: جمع الخُنْطُولة، وهي الطائفة من الإبل والدوابِّ وغيرها، أي: ارتحلت ميَّةُ إلىٰ حيثُ الأعداد، وهي المياه التي لا تنقطع، واحدُها: عِدّ. واستبدَلتْ بها، أي: استبدَلتِ الدارُ بميَّةَ تلك الوحوشَ. ويقال: دعا فلاناً مكانُ

كذا: إذا قصَدَ ذلك المكان، كأنَّ المكان دعاه. ويقال: ما الذي دعاك إلىٰ هذا؟ أي: جرَّك إليه، وحملَك عليه.

وقال تعالىٰ منبِّهاً إلى تبجيل نبيِّه ﷺ وتعظيمه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]. قال مجاهد: أُمِروا أن يدْعُوه في لينٍ وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، بتجهُّم وغِلظة. وقال ابن عرفة نفطويه: إن تكن الرواية كما حكاه، فالتسليم للخبر، وإلاَّ فإنه يحتمل ما قال مجاهد، ويحتمل أن يكون معناه: لا تجعلوا دعاء الرسول إذا دعاكم لأمرٍ أو نَهْيٍ، كدُعاء بعضكم بعضاً، تُجيبون إذا شئتم، وتمتنعون إذا شئتم، ألا تراه يقول بعده: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور:٦٣]. وهؤلاء الذين كانوا يتسللون هم المنافقون، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، والمراد بالحديث: الخُطبة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتىٰ يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ. وقيل: إن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه علىٰ غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلِكُوا.

تأتي «دعا» بمعنىٰ جَعَل وسَمَّىٰ، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٢] قوله: ﴿دَعَوْا۟﴾ أي: جعلوا. ومنه قول عمرو بن أحمرَ الباهلي:

وكنت أدعو قَذاها الإثمِدَ القَرِدا

أي: أُسَمِّي وأجعل. وأخرج الشيخان من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أصبرُ علىٰ أذىً سمعه من الله، يُشْرَكُ به ويُجعَلُ له ولد وهو يعافيهم ويدفعُ عنهم ويرزُقُهم». وفي رواية: «إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم». ويأتي الدعاء بمعنىٰ العبادة، ومن ذلك قوله عز وجل علىٰ لسان

أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]. قوله: ﴿لَن نَّدْعُوَا﴾ أي: لن نعبُدَ. والمعنىٰ: لن نعبُدَ معبوداً آخر غيرَ الله، لا اشتراكاً ولا استقلالاً. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدعاءُ: العبادة».

وقال تعالىٰ في شأن تبنّي النبيِّ ﷺ زيد بن حارثة قبل النبوّة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. الأدعياء: جمع الدعيّ، وهو الذي يتبنّاه الرجل فيدعوه ابنَه. وفي الحديث: «ليس من رجل ادَّعىٰ إلىٰ غير أبيه وهو يعلمه إلاَّ كفر». وفي حديث آخر: «فالجنةُ عليه حرام». وفي حديث آخر: «فعليه لعنةُ الله». قال ابن الأثير: الادّعاءُ إلىٰ غير الأب مع العلم به حرام، فمن اعتقد إباحة ذلك كفَر، لمخالفة الإجماع، ومن لم يعتقد إباحته ففي معنىٰ كفره وجهان، أحدهما: أنه أشبَهَ فعلُه فِعلَ الكفار، والثاني: أنه كافرٌ نعمةَ الله والإسلام عليه، وكذلك الحديثُ الآخر: «فليس منا»، أي إن اعتقد جوازه خرج من الإسلام، وإن لم يعتقده، فالمعنىٰ أنه لم يتخلقْ بأخلاقنا.

وفي الحديث: أن ضرار بن الأزور حلب ناقةً عند النبي ﷺ، فقال له: «دَعْ داعي اللبن، لا تجْهَدْه» أي: أبْقِ في الضَّرع قليلاً من اللبن، ولا تستوعبْه كلَّه، فإن الذي تبقيه فيه يدعو ما وراءه من اللبن فيُنزلُه، وإذا اسْتُقْصِي كلُّ ما في الضرع أبطأ دَرُّه علىٰ حالبه. وقوله: «لا تَجْهَدْه» من الجَهْد، وهو الاستقصاء. قال الشمّاخ يصف إبلاً بالغزارة:

تضْحي وقد ضمِنَتْ ضَرَّاتُها عَرَقاً ... من ناصعِ اللونِ حلوٍ غيرِ مجهودِ

وفي الحديث: «ما بالُ دعوىٰ الجاهلية؟». دعوىٰ الجاهلية: هي قولهم: يا لَ فُلان، وكانوا يَدْعُون بعضَهم بعضاً عند الأمر الحادث الشديد. ومنه حديث زيد بن أرقم: فقال قوم: يا ل الأنصار. وقال قومٌ: يا ل المهاجرين، فقال ﷺ: «دَعُوها فإنها مُنْتِنة». وفي الحديث: «تداعت عليكم الأمم» أي: اجتمعوا ودعا بعضُهم

بعضاً. ومنه حديثُ ثوبان: «يوشِكُ أن تداعَى عليكم الأممُ كما تداعىٰ الأكَلَةُ علىٰ قَصْعتها». ومنه الحديث: «كمَثَل الجَسدِ إذا اشتكىٰ بعضُه تداعىٰ سائرُه بالسَّهرِ والحمَّىٰ» كأنّ بعضَه دعا بعضاً. ومنه قولهم: «تداعت الحيطان» أي: تساقطت أو كادت.

وجاء في حديث عمر رضي الله عنه: أنه كان يقدِّم الناسَ علىٰ سابقتهم في أُعطِياتهم، فإذا انتهت الدعوةُ إليه كبَّر. الدعوةُ هنا: النداءُ والتسمية، وأن يقالَ: دونكَ يا أميرَ المؤمنين. يقال: دعوتُ زيداً، أي: ناديته، ودعوتُه زيداً، أي: سمَّيتُه. ويقال: لبني فلان الدعوةُ علىٰ قومهم: إذا قُدِّمُوا في العطاء عليهم، وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: «الخلافةُ في قريش، والحكم في الأنصار، والدَّعوةُ في الحبشة». قال أبو سليمان الخطابي: الدَّعوةُ: الأذان، وجعله في الحبشة تفضيلاً لبلال مؤذِّنه، وجعل الحكم في الأنصار لأن أكثر فقهاء الصحابة فيهم؛ منهم معاذٌ، وأبيٌّ بن كعب، وزيدُ بن ثابت، وغيرهم.

وفي الحديث: «لا دِعْوةَ في الإسلام» الدِّعوةُ في النَّسَب بالكسر، وهو أن ينتسب الإنسانُ إلىٰ غير أبيه وعشيرته، وقد كانوا يفعلونه، فنهىٰ عنه، وجُعل الولدُ للفراش، وهو التبنّي وسبَقَ الكلام عليه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. ومنه حديث عليِّ بن الحسين: المُستلاط لا يرثُ ويُدْعَىٰ له ويُدْعىٰ به. المُسْتلاط: المُسْتلحَقُ في النَّسَب. ويُدْعَىٰ له أي: يُنْسَبُ إليه، فيقال: فلانُ بن فلان، ويُدْعَىٰ به، أي: يُكنىٰ، فيقال: هو أبو فلان، ومع ذلك لا يرث؛ لأنه ليس بولدٍ حقيقيّ.

وفي كتاب النبي ﷺ إلىٰ هرقل: «أدعوك بدعاية الإسلام» أي: بدَعوته، وهي كلمةُ الشهادة التي يُدْعَىٰ إليها أهل المِلل الكافرة. وفي رواية: «بداعية الإسلام»، وهي مصدر، بمعنىٰ الدعوة، كالعافية والعاقبة. ومنه حديثُ عُمير بن أفصىٰ: ليس في الخيل داعيةٌ لعامل، أي: لا دَعْوَىٰ لعامل الزكاة فيها، ولاحقَّ يدعو إلىٰ قضائه؛

لأنها لا تجب فيها الزكاة.

وفي الحديث: «سأخبركم بأول أمري: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسىٰ». دعوةُ إبراهيم عليه السلام هي قوله تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وبشارةُ عيسىٰ عليه السلام هي قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «إنما كان أكثرُ دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير». قال الخطابي: يريد أكثرُ ما أفتتح به دعائي، وذلك أن الداعيَ يفتتح دعاءَه بالثناء علىٰ الله، يقدمه أمام مسألته، فسُمِّي الثناءُ دعاءً إذا كان مقدمةً له وذريعة إليه، علىٰ مذهبهم في تسمية الشيء باسم سببه، وقد جاء في الحديث القدسي: «إذا شغَلَ عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي، أعطَيتُه أفضل ما أُعطي السائلين»، وقال أمية بن أبي الصلت في ابن جُدعان:

أأطلبُ حاجتي أم قد كفاني ... حَياؤُكَ؟ إن شيمتَكَ الحياءُ
إذا أثنىٰ عليك المرءُ يوماً ... كفاهُ من تعرُّضِهِ الثناءُ

قال سفيان بن عيينة: هذا مخلوق يُكتفى بالثناء عليه دون مسألته، فكيف بالخالق جلَّ وعزَّ؟

[د ف أ]

يقول عز وجل معدِّداً نعمَه علىٰ عباده: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الدِّفء: نسلُ كلِّ دابَّة. وقال الأمويُّ: الدِّفءُ عند العرب: نِتاجُ الإبل وألبانُها

والانتفاعُ بها. وقيل: الدفءُ هنا: السُّخونة، ضدّ البرد، قال الفراء: الدفءُ: ما يُسْتَدفَأُ به من أشعارها وأوبارِها وأصوافها، وقد تدفأ الرجل بالمكان. ودَفُؤَ الزمان، فهو دفِيءٌ. ودَفِيء الرجل فهو دَفْآن. وجاء في كتاب النبي ﷺ إلىٰ هَمْدان مع وافدهم ذي المِشعار مالك بن نَمَط الهَمْداني. قال: «لنا من دِفئهم وصِرامهم ما سلَّموا بالميثاق والأمانة».

قال ابنُ الأثير: الدفْءُ: اسمُ ما يُدْفِيءُ ويُسخِّن، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] أي: ما يُتخذ من أصوافها وأوبارها ممّا يستدْفأُ به. والمراد بالدفء هاهنا: الإبلُ والغنم؛ لأنها ذواتُ الدفء، فحذَف المضافَ وأقام المضافَ إليه مُقامَه. والصِّرام في الأصل: قطعُ الثمرة واجتناؤها من الشجر. يقال: هذا زمن الصِّرام والجداد، والمرادُ به هاهنا النخلُ نفسُه، أو الثمرُ بعينه، علىٰ حذف المضاف أيضاً.

وفي الحديث، أن النبيَّ ﷺ أُتِيَ بأسير يُرْعَد، فقال لقوم: «اذهبوا به فأدْفُوه»، فذهبوا به فقتلوه! فوداه[1] رسول الله ﷺ. أراد النبي ﷺ: أدفئوه، فترك الهمزة، لأنه لم يكن من لغته الهمزُ، ولو أراد معنىٰ القتل لقال: دافُّوه، أو دافُوه، يقال: دافَفتُ الأسير ودافيتُه، أي: أجهزت عليه. وقال الزمخشري: أراد الإدفاء، من الدِّفء، فحسبوه الإدفاء بمعنىٰ القتل في لغة أهل اليمن. يقال: أدفأتُ الجريح ودافأتُه، ودافَفتُه ودَفَوْتُه ودافيته: كلّ ذلك بمعنىٰ أجهزتُ عليه، والأصل: ادْفِئوه، مخفَّفة بحذف الهمزة، وهو تخفيفٌ شاذ، ونظيره: لا هَنَاكِ المَرتَع، وتخفيفه القياسي أن تجعل الهمز بين بين.

وفي حديث صفة الدجال: «فيه دَفَأٌ» أي: انحناء، ورجلٌ أدْفَأُ، وامرأةٌ دَفآء. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه دافَّ أبا جهل يوم بدر، أي: أجْهزَ عليه

(١) وداه، أي: أعطىٰ ديتَه. (الناشر).

وحرَّر قتلَه. ويقال: دافَفتُ علىٰ الأسير، ودافيتُه، ودفّفْتُ عليه، وفي رواية: أقعص ابنا عفراء أبا جهل. ودَفَّف عليه ابن مسعود. ويروىٰ «ذَفَّف» والإقعاص: سرعةُ القتل وإعجالُه. قال النابغة:

لمّا رأىٰ واشقٌ إقعاصَ صاحبِهِ ولا سبيلَ إلىٰ عقلٍ ولا قَوَدِ

ومنه حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنه أَسَرَ من بني جذيمة يوم فتح مكة قوماً، فلما كان الليل نادىٰ مناديه: من كان معه أسيرٌ فلْيدافِّه، أي: يقتُلْه. ورُوي بالتخفيف: «فلْيُدافِه» وهو بمعناه. وفي حديث خُبَيب بن عديّ رضي الله عنه، قال وهو أسيرٌ بمكة: أبغُوني حديدةً أستطيبُ بها. فأُعْطي مُوسىً فاستدفَّ بها، أي: حلَق عانته واستأصل حَلْقها. وهو من: دَفَفْت علىٰ الأسير. وقوله: «أستطيبُ بها» يريد الاحتلاق، وسمّاه استطابة لما فيه من إزالة الأذىٰ وطهارة البدن، كالاستنجاء يسمّيه أهلُ الحجاز استطابة لهذا المعنىٰ.

وفي حديث لحوم الأضاحي: «إنما نهيتُكم عنها من أجل الدافَّة التي دَفَّت». قال ابن الأثير: الدافَّةُ: القومُ يسيرون جماعة سيراً ليس بالشديد. يقال: هم يدِفُّون دفيفاً. والدافَّةُ: قومٌ من الأعراب يريدون المِصر، يريد أنهم قومٌ قدِموا المدينة عند الأضحىٰ، فنهاهم عن ادِّخار لحوم الأضاحي ليفرِّقوها ويتصدقوا بها، فينتفعَ أولئك القادمون بها. ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قال لمالك بن أوس بن الحَدِثان: يا مالك، إنه قد دفَّتْ علينا من قومك دافَّةٌ، وقد أمرْنا لهم برَضْخ فاقسمه فيهم. والرَّضْخ: العطاء. قال الزمخشري: وعَدَّىٰ: «دفَّتْ» بعَلَىٰ، علىٰ تأويل: قَدِم وورَد.

ومنه الحديث: أن أعرابياً قال: يارسول الله، هل في الجنة إبل؟ فقال: «نعم، إن فيها لَنجائبَ تدِفُّ برُكبانها في الجنة». قال الزمخشري: أصل الدَّفيف: مِن دَفَّ الطائر: إذا ضرب بجناحيه دَفَّيه ــ وهما صفحتا جنبه ــ في طيرانه علىٰ الأرض، ثم قيل: دفَّت الإبلُ: إذا سارت سيراً لَيِّناً.

وفي حديث سالم رضي الله عنه: أنه كان يلي صدقة عمر رضي الله عنه، فإذا دَفَّتْ دافَّةٌ من الأعراب، وجهَّهَا أو عامَّتها فيهم وهي مُسَبَّلَة. ومنه حديث الأحنف: قال لمعاوية رضي الله عنه: لولا عزمَةُ أمير المؤمنين لأخبرتُه أن دافَّةً دفَّت. وفي حديث استسقاء عبد المطلب الذي روَته رُقَيْقةُ بنتُ أبي صيفيّ، وما كان من اجتماع رجالات قريش حولَه، قالت في حديثها الطويل: ثم ارتقَوْا أبا قُبيس، وطفِق القوم يدِفُّون حوله، ما إن يُدْرِكُ سعيُهم مَهْلَهُ. الدفيف: المَرُّ السريعُ، وقد دَفَّ يَدِفُّ دفيفاً. وجاء في الحديث: «يؤكلُ ما دَفَّ، ولا يؤكَلُ ما صَفَّ» معناه: إن ما حَرَّك جناحيه في طيرانه كالحمام ونحوه يؤكل. وما صَفَّ جناحيه ولم يحركهما كالصقر والنُّسور ونحوها لا يؤكل. ومنه قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩].

وجاء في حديث النبي ﷺ: «فصلُ ما بين الحلال والحرام الصوتُ والدُّفُّ في النكاح». الدُّف، بضم الدال وفتحها: هو الذي تضربُ به النساءُ. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقوله: «الصوتُ»، فإن الناس يختلفون فيه، فبعضُ الناس يذهب به إلىٰ السماع، وهذا خطأ في التأويل علىٰ رسول الله ﷺ، وإنما معناه عندنا إعلانُ النكاح واضطراب الصوت به والذكْرُ في الناس، كما يقال: فلان قد ذهب صوتُه في الناس، وكذلك قال عمر رضي الله عنه: أعلنوا هذا النكاح وحصِّنوا هذه الفروج.

[د ك ك]

يقول ربنا عز وجل، ذاكراً بعضَ ما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١]. الدكُّ: الكسرُ والدقُّ. قال ابن عرفة نفطويه: أي: جُعلت مستويةً لا أكمَةَ فيها. وقال المبرد: أي: بُسطت وذهب

ارتفاعها، قال: والدَّكُّ: حَطُّ المرتفع بالبَسْط. وقال ابن قتيبة: دُكتْ جبالُها حتىٰ استوت. والمعنىٰ أنها زُلزلت وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك، وانتصاب «دكّاً» الأول علىٰ أنه مصدر مؤكِّدٌ للفعل، و«دكّاً» الثاني تأكيدٌ للأول، كذا قال ابن عصفور، ويجوز أن يكون النصب علىٰ الحال، أي: حال كونها مدكوكةً مرةً بعد مرَّة كما تقول: علّمتُه الحسابَ باباً باباً، وعلّمته الخط حَرْفاً حرفاً. والمعنىٰ أنه كُرِّر الدَّكُّ عليها حتىٰ صارت هباءً منبثّاً.

ومن ذلك قوله عز وجل في قصة نبيِّه موسىٰ عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال ابن اليزيدي: أي: مستوياً. يقال: ناقةٌ دكَّاء: إذا ذهب سنامُها. وقال ابن قتيبة: أي: جعله مَدْكوكاً مُلصقاً بالأرض. وعلىٰ قول ابن قتيبة يكون الدَّكُّ مصدراً بمعنىٰ المفعول، أي: جعله مدكوكاً مدقوقاً فصار تراباً. وقال أبو منصور الأزهري: يقال: دككتُه، أي: دققته، وهذا علىٰ قراءة أهل المدينة وأهل البصرة. وأمّا علىٰ قراءة أهل الكوفة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ علىٰ التأنيث. فالمراد أنه سبحانه وتعالىٰ بعظيم قُدْرته جعل الجبل أرضاً دكَّاءَ، وهي الرابية الناشزة من الأرض التي لا تبلغ أن تكون جبلاً، وقيل: هي الأرض المستوية، والجمع دكَّاوات، كحمراء وحمراوات. والمعنىٰ أن الجبل صار صغيراً كالرابية، أو أرضاً مستوية. وقال الكسائي: الدَّكُّ: الجبال العِرَاض، واحِدُها أَدَكُّ، والدَّكَّاوات: جمع دكاء، وهي رَوابٍ من طين ليست بالغِلاظ.

وقال عز من قائل في وصف أهوال يوم القيامة أيضاً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ ــ ١٥] قوله: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فَدُقَّتا دقَّةً واحدةً لا زيادة عليها، أو ضُرِبتا ضربةً

واحدةً بعضُهما ببعض حتىٰ صارتا كثيباً مهيلاً وهباءً منبثاً. قال الفراء: ولم يقل: «فدُكِكْن» لأنه جعل الجبال كلَّها كالجُملة الواحدة، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقيل: معنىٰ «دُكَّتا» أي: بُسِطتا بسطةً واحدةً، ومنه: اندكَّ سنامُ البعير: إذا انفرش علىٰ ظهره.

وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أنه كتب إلىٰ عمر رضي الله عنه: إنا وجدنا بالعراق خيلاً عِراضاً دُكّاً، فما يَرىٰ أميرُ المؤمنين في أسهامها؟ فكتب إليه عمر: تلك البَراذِين، فما قارَفَ العِتاقَ منها فاجعل له سهماً واحداً، وألْغِ ما سوىٰ ذلك. يقال: فرسٌ أدَكُّ، وخيلٌ دُكٌّ: إذا كان عريض الظهر قصيراً. مِن دكَكْتُ الشيء: إذا ألصقته بالأرض، وناقةٌ دكاءُ: لا سنام لها. والبراذين: الدوابّ. وقارف، أي: قارَبَ الخيلَ العتاقَ في السُّرعة.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أنا أعلمُ الناس بشفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. فتَدَاكَّ الناسُ عليه. قال أبو سليمان الخطابي: قوله: «تداكَّ الناس عليه» أي: ازدحموا حتىٰ وقع بعضُهم علىٰ بعض. وأصل الدَّكِّ: الكسرُ، ويقال: الدقُّ، ومنه قولُ الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] أي: دُقَّت جبالُها وأَنشازُها حتىٰ استوتْ، ومثله: تَبَاكَّ الناسُ عليه، أي: ازدحموا وتدافعوا. ويقال: إنما سميت مكَّةُ بكَّة؛ لأن الناس يَبُكُّ بعضُهم بعضاً في الطواف، أي: يزحم ويدفع. ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخاطب أصحابه: ثم تَدَاككْتُم عليَّ تداكُكَ الإبلِ الهِيْمِ علىٰ حِياضِها، أي: ازدحمتم.

وفي حديث جرير بن عبد الله البجليِّ رضي الله عنه: أنه وفد علىٰ النبي ﷺ في أحد عشر راكباً من قومه، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ثم سأله: «أين تنزلون يا جرير؟» قال: ننزل في أكناف بِيشة، بين سَلَمٍ وأراكٍ، وسَهْلٍ ودَكْداك. . . إلىٰ آخر ما قال. الدَّكْداك: الرملُ المتلبِّدُ بالأرض غيرُ الشديد الارتفاع. والسَّلَم: شجرةٌ من شَجَر الشوك، واحدتها سَلمة. والأراك: شجرٌ معروف يُتَّخذ منه السِّواك،

وهو من خير علف الإبل. والسَّهْل: ضِدُّ الحَزْن. وفي شعر عمرو بن مرّة، يمدح النبيَّ ﷺ:

إليـكَ أجُـوبُ القُـورَ بعـدَ الـدَّكـادِكِ

والقُور: جمع قارة، وهي الجبل، وقيل: هو الصغير منه كالأكمة. ومن ذلك الحديث: أن أبا الحارث بن عبد الله بن السائب لقي نافعَ بن جبير بن مطعِم، فقال له: من أين؟ قال: خرجتُ أتمخَّر الريحَ. قال: إنما يتمخَّر الكلبُ. قال: فأستَنْشي. قال: إنما يستَنْشِي الحمار. قال: فما أقول؟ قال: قل: أتنسَّم. قال: إنها والله حَسَكٌ في قلبـك علينـا لقتْلِنا ابنَ الزبير. قال أبو الحارث: ألزقَتْك ــ واللّهِ ــ عبدُ مناف بالدَّكادِك. يقال: تمخَّر الريحَ واستمخرها: إذا استقبلها بأنفه وتنَسَّمها. وقوله: أستنشي من: نشِيتُ الرائحة، أي: شمَمْتُها.

[د ل ك]

يقول ربنا عز وجل آمراً رسوله ﷺ بإقامة الصلوات المفروضة في أوقاتها: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. اختلف العلماء في معنىٰ الدلوك المذكور في هذه الآية علىٰ قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء، وهو قول عمرَ وابنِه وأبي هريرة وابنِ عباس، واختاره ابن جرير. والقول الثاني: أنه غروبُ الشمس. قاله علي وابن مسعود، وهو ما حكاه عنه أبو عبيد الهرويُّ، قال: قال ابن مسعود: دُلوكُ الشمس: زوالُها وقتَ الأولىٰ في هذه الآية. قال ابن عرفة نفطويه: سمعت أحمد بن يحيىٰ ــ يعني ثعلباً ــ يقول: دلكت الشمسُ: إذا مالت، قال: ويقال: أتيتُك عند الدَّلَك، أي: بالعشيّ، وأنشد:

تعرُّضَ الزهراءِ في جِنْحِ الدَّلَكْ

وقال أبو منصور الأزهري: معنىٰ الدُّلوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفَلَت: دالكة؛ لأنها في الحالتين زائلة. قال: والقول عندي أنه زوالُها نصفَ النهار. لتكون الآية جامعةً للصلوات الخمس. والمعنىٰ: أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس إلىٰ غسق الليل، فيدخل فيها الظهرُ والعصر، وصلاتا غَسق الليل، وهما العشاءان، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فهذه خمس صلوات. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: انتصب قرآن، لكونه معطوفاً علىٰ الصلاة، أي: وأقِم قرآن الفجر، قاله الفراءُ. وقال الزجاجُ والبصريون: انتصابه على الإغراء، أي: فعليك قرآنَ الفجر. قال المفسِّرون: المراد بقرآن الفجر صلاةُ الصبح. قال الزجاج: وفي هذه فائدةٌ عظيمة تدلُّ علىٰ أن الصلاة لا تكون إلاَّ بقراءة حتىٰ سمِّيت الصلاةُ قرآناً. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار كما ورد بذلك الحديثُ الصحيح المرويُّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع علىٰ صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: ٱقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. وأنشد اللغويون شاهداً علىٰ دلوك الشمس بمعنىٰ غروبها:

هـذا مَقـامُ قـدمَـيْ رَبـاحِ ذَبَّـبَ حتـىٰ دلَكَـت بَـراحِ

قال محمد بن المستنير المعروفُ بقطرب: بَراحِ مثلُ قطامِ: اسمٌ للشمس. وقال الفراء هي: بِراح، جمع راحةٍ، وهي الكفُّ، يقول: يضع كفَّه علىٰ عينيه، ينظر هل غربت الشمس بعدُ؟

وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه كتب إلىٰ خالد بن الوليد رضي الله عنه: إنه بلغني أنك دخلت حمّاماً بالشام، وأنّ مَن بها من الأعاجم أعدُّوا لك دَلُوكاً عُجِنَ بخمر، وإني أظنكم آلَ المغيرة ذَرْءَ النار. الدَّلُوك: اسم الشيء الذي يُتدَلَّكُ به من

الغَسُولات المطيِّبة. والدَّلُوك، بالفتح، كما قيل: السَّحُور، لما يُتسحَّر به. والفَطُور، لما يُفطر عليه، والبَخُور لما يُتبخَّر به، والوَضوء لما يُتوضَّأ به، وهو الماء، وقوله: ذَرْءَ النار، ويروىٰ: ذَرْوَ النار، فمَن قال: ذرءَ النار بالهمز، فإنه أراد خَلْقَ النار، أي: إنكم خُلِقتُم لها، من قوله: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءاً، ومن قال: ذَرْوَ النار، فهو مِن ذرا يذرو، من قوله تعالىٰ: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وفي حديث الحسن البصريّ رضي الله عنه، أنه سُئل: أيُدالِكُ الرجلُ امرأته؟ فقال: نعم، إذا كان مُلْفَجاً. قوله: «يُدالِك» يعني يُماطل بالمهر، وكلُّ مماطِل فهو مدالك. وقال الزمخشري: المُدالَكة والمُداعَكة والمماعكة: المماطلة. وقوله: «إذا كان مُلْفَجاً» المُلْفَج بفتح الفاء: المُعْدِمُ الذي لا شيء له، من قولهم: ألفَجَتْني إليك الحاجة، أي: اضطرتني. قال رؤبة يمدح قوماً:

أحسابُكم في العُسْرِ والإلفاجِ شِيبَتْ بعَذْبٍ طيِّبِ المِزاجِ

[د ل ل](١)

جاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يصف صحابة رسول الله ﷺ، ودخولَهم عليه، قال: «يدخلون رُوَّاداً ولا يتفرَّقون إلاَّ عن ذَواق، ويخرجون أدِلَّة. أدِلَّة: جمع دليل، أي بما قد عُلِّمُوه فيدُلُّون عليه الناس، يعني يخرجون من عنده فقهاء، فجعلهم أنفُسَهم أدِلَّةً مُبالَغة. وقوله: «ولا يتفرّقون إلاَّ عن ذَواق» الذَّواق بفتح الذال: اسم ما يُذَاق، يقال: ما ذُقتُ ذَواقاً، وهو مَثَلٌ لما ينالون عنده

(١) اقتصر المؤلف رحمه الله في هذه المادة علىٰ شواهدها من الحديث النبوي الشريف، ولم يسُق مواردَها من الكتاب العزيز ولا مقياسَ ابن فارس، كدأبه في بقية مواد هذا الكتاب. وقد آثرنا إبقاء المادة كما هي دون إضافةٍ أو تتميم. (الناشر).

من الخير. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنهم كانوا يرحلون إليه فينظرون إلىٰ سمْتهِ وهَدْيه ودَلِّه، فيتشبَّهون به. السَّمْتُ والهَدْيُ والدَّلُّ قريب بعضُه من بعض، وهو عبارةٌ عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السَّكينة والوقار، وحُسْنِ السِّيرة والطريقة، واستقامة المنظر والهيئة. ومنه حديث سعد رضي الله عنه: «بينا أنا أطوفُ بالبيت إذ رأيت امرأةً أعجبني دَلُّها» قال شَمِر: الدَّلُّ والدَّلالُ: حسنُ الحديث، وحُسنُ الهيئة، قال: ويقال: هي تُدِلُّ عليه، أي: تجترىء. ويقال: ما دَلَّك علىٰ فلانٍ؟ أي: ما جرَّأك؟ والدَّالَّةُ ممَّن يـدُلُّ علىٰ من له عنده منزلةٌ: شِبْهُ جُرأةٍ منه. يقال: لفُلانٍ عليك دالّةٌ وتدَلُّلٌ وإدلال، وهو مُدِلٌّ بصُحبته عليك إدلالاً ودَلالاً ودالّةً، أي: مجترىء. وفي الحديث: «يمشي علىٰ الصِّراط مُدِلاً» أي: مُنْبسطاً لاخوفَ عليه، وهو من الإدلال والدالَّةِ علىٰ من لك عنده منزلة.

[د ل و]

يقول ربُّنا عز وجل، في قصة إغواء إبليسَ لآدمَ وحواءَ عليهما السلام: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].
قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ التدليةُ والإدلاء: إرسالُ الشيء من أعلىٰ إلىٰ أسفل. يقال: أدلىٰ دلوه، أي: أرسلها، والمعنىٰ: أنه أهبطهما بذلك من الرُّتبة العليّة إلى الأكل من الشجرة. وقال أبو عبيد الهروي: أي: قرَّبَهما إلىٰ المعصية، بغروره. وقيل: دلاَّهما من الجنة إلى الأرض، وقيل: دلاَّهما فأطعمهما. قال أبو منصورٍ الأزهريُّ: أصلُه الرجلُ العَطْشان يُدَلَّىٰ في البئر ليَرْوَىٰ من مائها فلا يجد فيها ماءً. فيكون مُدَلّىً فيها بالغرور، فوُضعت التدليةُ موضع الإطماع فيما لا يُجدي نفعاً. وقيل: فدلاَّهما: فجرَّأهما إبليسُ علىٰ أكل الشجرة. والأصل فيه: دَلَّلَهما من الدَّلِّ، وهي

الجرأةُ، والدالّةُ مثلُها. والمعنىٰ يدور حول الخديعة، وأنشد نفطويه:

إن الكـريـمَ إذا تشـاءُ خـدَعْتَـهُ   وترىٰ اللئيمَ مجرِّباً لا يُخْدَعُ

وقال عزّ من قائل، في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ [يوسف: ١٩] أي: أرسلهـا في البئـر. يقـال: أدلىٰ دلوه: إذا أرسلهـا ليملأها، فإذا نزعها وأخرجها قيل: دَلاها يَدْلُوها. وفي حديث عبد الله بن الزبيـر رضـي الله عنهما: أن حبشيّاً وقع في بئر زمـزم، فأمرهـم أن يَدْلُـوا مـاءَها. قال الخطابي: قوله: «يدلوا» أي: ينزحوها بالدِّلاء. يقال: دلوتُ الدَّلوَ: إذا نشطتَها. وأدليتُها: إذا ألقيتَها في البئر، فإن أرسلْتَ في بئر أو في مَهْواة شيئاً غير الدَّلو، كالحبل ونحوه، قلت: دليْتُه تدليةً، فأما قولُه تعالىٰ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ ﴾ [الأعراف: ٢٢] فالمعنىٰ أنه غرَّهما. يقال: دلاَّه بحبل غُرور، إذا غرّه، والتدليةُ والحَبْلُ مَثَلان. قال الشاعر، وهو الشُّوَيْعر الحنفي:

وإنّ امْـرَأً دُنْيـاه أكبـرُ همِّـهِ   لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحَبْلِ غُرورِ

وفي حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما، قال عمر وقد أخذ العباس إليه: اللهم إنا نتقرَّب إليك بعمِّ نبيِّك وقَفيّة آبائه وكُبْر رجاله، فإنك تقول وقولُك الحق: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهمَّ نبيَّك في عمِّه، فقد دَلَوْنا به إليك مستشفعين ومستغفرين. قوله: «دلونا به إليك» قال ابن قتيبة: أي: توسَّلْنا واستشفعْنا، وهو من الدلو؛ لأنّ بها يُسْتقىٰ الماءُ ويُوصلُ إليه، فكأنه قال: جعلناه الوسيلة إلىٰ ما عندك. وردَّ تفسيرَ ابن قتيبة هذا أبو سليمان الخطابيُّ، فقال: هذا محرَّفٌ عن وجهه، موضوعٌ في غير موضعه، إنما يقال: أدليتُ بالألف بمعنىٰ مَتَتُّ وتوسَّلْتُ. يقال: فلانٌ يُدْلي بحُجّة ويُدْلِي بقرابةٍ ونحو ذلك، تمثيلاً له بمن يُرسِـل الدلوَ يستقي ماءً. يقال: أدلـىٰ الرجـلُ دلـوَه: إذا ألقاها في البئر، ودَلاها يدلوها: إذا نزَعَها. ومعنىٰ: «دلونا به» في قول عمر: أقبَلْنا به وسِرْنا. قال الفراء:

الدَّلْو: السَّيْرُ الرُّوَيد، وأنشد:

لا تَعْجَـلا بـالسَّيـرِ وادْلُـواهـا

وقال غيره: الدلو: السَّير الرفيق، وكلاهما واحد، وقال الراجز:

لا تَقْلُـواهـا وادلُـواهـا دَلْـوا   إنَّ مـعَ اليـومِ أخـاه غَـدْوَا

وقال عز من قائل، في قصة الإسراء والمعراج: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]. قال أبو عبيدٍ الهرويُّ: معنىٰ دنا وتدلَّىٰ واحدٌ، أي: قرُب وزاد. والتدلِّي: من عُلوٍ إلىٰ سُفْلٍ، وفي حديث عثمان بن عفـان رضـي الله عنه، قال حين تنكَّر له الناس: إن هـؤلاء النفر رَعاعٌ غَثَرة، تَطأْطَـأْتُ لهم تطأطُؤَ الـدُّلاة. الـدُّلاة: جمع دال، وهو المستقي بالدّلْو، مثل قاضٍ وقُضاة. وأراد بالتطأطؤ هاهنا: الخضوعَ والتواضُعَ لهم وخفْضَ نفسِه في سيرته معهم، فضربه لذلك مثلاً. والرَّعاع، بفتح الراء: الغَوْغاء من الناس، ورجلٌ رَعاعةٌ: ليس له فؤاد، وهو من الرَّعرعة: اضطراب الماء علىٰ وجه الأرض؛ لأن العاقل يوصَفُ بالتثبّت والتماسُك، والأحمقُ بضـدٍّ ذلك. والغَثَرة: جمع غاثر، مثل كافر وكفرة، والغَثْراء: عامة الناس، والغُثْرة والغُبْرةُ شيءٌ واحد.

وفي حديث أم المنذر العدوية قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ومعه عليُّ ابن أبي طالب رضي الله عنه وهو ناقِهٌ، ولنا دَوالٍ معلَّقة، فقام فأكل، وقام عليٌّ يأكل، فقال له رسول الله ﷺ: «مَهْلاً! فإنك ناقِه». فجلس عليٌّ، وأكل منها رسول الله ﷺ. ثم جعلتُ لهم سِلْقاً وشعيراً، فقال له: «مِن هذا أصِبْ فإنه أوفَقُ لك». الدَّوالي: بُسْرٌ يُعلَّق، فإذا أرطب أُكل. قال الهرويُّ: واحِدُها في القياس: دالية، ولم أسمع به. والناقه: القريبُ العَهْدِ بالمرض. والسِّلْق: نبتٌ له ورقٌ طِوال، يُطْبخ.

وقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]. قوله: ﴿وَتُدْلُواْ﴾ مأخـوذٌ من: أدليتُ الدلو، ومنـه يقـال: أدلىٰ بحُجَّته: إذا أرسلها. روي عن ابن

عباس قال: هذا في الرجل يكون عليه مالٌ وليس عليه فيه بيّنة، فيجحدُ المالَ ويخاصِم إلىٰ الحُكّام وهو يعرف أن الحقَّ عليه وهو يعلم أنه آثمٌ آكِلٌ الحرامَ.

وقد ورد في «الصحيحين»، عن أم سلمة، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخَصْم، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض فأقضيَ له، فمن قضيت له بحقِّ مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملْها أو ليذَرْها». قال أهل العلم: فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه إلىٰ شهادة زور أو يمينِ فجور، فلا يحلُّ له أكله.

[د م م]

يقول ربنا عز وجل في قصّة قوم صالح وعقرهم الناقة: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤]. قال الأزهري: أي: أطبق عليهم العذاب، يقال: دممتُ علىٰ الشيء: إذا أطبقتَ عليه، وكذلك دمَمْتُ علىٰ القبر، وناقةٌ مدمومة: ألْبَسَها الشحمُ، فإذا كرَّرتَ الإطباق قلت: دَمْدَمْتُ عليه. وقيل: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: غضب عليهم. والدَّمْدمةُ والدِّمدام: الهلاك. وقال مؤرِّج السَّدوسي: الدَّمدمةُ: إهلاكٌ باستئصال. وقال ابنُ الأعرابي: دمدم: إذا عذَّب عذاباً تامّاً. وقال الجوهريُّ: دمدمت الشيء: إذا ألزَقْتَه بالأرض وطحطحته، ودمدم الله سبحانه عليهم، أي: أهلكهم.

وهذه المادة (دمم) تدلُّ علىٰ أصل واحدٍ في اللغة هو ــ كما قال ابن فارس ــ غِشْيانُ الشيء، من ناحية أن يُطْلىٰ به. تقول: دممْتُ الثوب، إذا طليتَه بالصِّبغ، ودَمَّ البيت، أي: طيَّنه، وكلُّ شيء طُلِيَ علىٰ شيء فهو دِمام، ومنه ما جاء في كلام الشافعيِّ رضي الله عنه: وتَطْلِي المُعْتدَّةُ وَجْهها بالدِّمام، وتمسحه نَهاراً. فالدِّمام: الطلاء.

قال ابن فارس: فأما الدَّمدمَةُ فالإهلاك، قال الله تعالىٰ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾. وذلك لِمَا غشَّاهم به من العذاب والإهلاك. قال: فأما قولهم: رجلٌ دميم الوجه فهو من الباب، كأن وجْهَه قد طُلي بسواد أو قُبح. يقال: دَمَّ وجهُه يدِمُّ دمامةً فهو دميم. وفي الحديث: كانت بأسامة دَمامةٌ، فقال النبيّ ﷺ: «قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية» قال ابن الأثير: الدَّمامةُ، بالفتح: القِصَرُ والقُبْح، ورجلٌ دميم. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: لا يُزَوِّجَنَّ أحدُكم ابنتَه بدميم.

وفي حديث إبراهيم النخعيّ: لا بأس بالصلاة في دِمَّة الغنم. قيل: دِمَّةُ الغنم: مَرْبِضُها، كأنه دُمَّ بالبول والبَعْر، أي: أُلْبِس وغُشِّيَ.

* [د م ن] قال أبو عبيد القاسمُ ابن سلام: إنما هو دِمْنة الغنم، بالنون. والدِّمنة: ما دَمَّنتِ الإبلُ والغنم وما سوَّدَتْ من آثار البَعْر والأبوال، وجمعها دِمَن، ويقال لها: المَباءةُ أيضاً، ومنه الحديث عن النبي ﷺ أنه قال له رجلٌ: أأصلِّي في مباءة الغنم؟ قال: «نعم».

وقال الزمخشري في تفسير «دِمّة الغنم»: قَلَب نونَ الدمنة ــ لوقوعها بعد الميم ــ ميماً، ثم أُدغمت الأولىٰ في الثانية، وذلك لتقاربهما واتفاقهما في الغُنَّة والهواء، قال سيبويه: وتُدغم النون مع الميم نحو: عمَّطر؛ لأن صوتهما واحد، ثم قال: حتىٰ إنك تسمع الميم كالنون، والنون كالميم، حتىٰ تبيِّنَ الموضع، ولهذا جمعوا بينهما في القوافي في كثير من الشعر. وفي الحديث: «إياكم وخضراءَ الدِّمَن» قال ابن الأثير: الدِّمَن: جمع دِمْنة، وهي ما تُدَمِّنه الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها، أي: تلبِّدُه في مَرابضِها، فربَّما نبت فيها النباتُ الحسنُ النضير. وحول هذا الحديث كلامٌ يحسُن إيراده هنا.

قال العجلونيُّ في «كشف الخفا ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس»: رواه الدارقطني في «الأفراد»، والرامَهُرْمُزيُّ والعسكريُّ في «الأمثال»، وابنُ عدِيٍّ في «الكامل»، والقُضاعيُّ في «مسند الشهاب»، والخطيبُ في

«إيضاح المُلْبِس»، والديلميُّ من حديث الواقديّ، عن أبي سعيد مرفوعاً، لكن بزيـادة: قيل: وماذا يارسول الله؟ قال: «المرأة الحسنـاءُ في المنبت السوء». قال [ابنُ] عديّ: تفرّد به الواقديّ. وذكره أبو عبيد في «الغريب»، وقال الدارقطنيُّ: لا يصحُّ مِن وجه، ومعناه أنه كره نِكاحَ ذاتِ الفساد، فإن أعراق السوء تنزِعُ أولادَها. وأصله أن النبات ينبُت علىٰ البَعَر في الموضع الخبيث، فيكون ظاهره حسناً، وباطنُه قبيحاً فاسداً، إذِ الدِّمَنُ جمع دِمنة، وهي البعر، وأنشدوا لزُفَر ابن الحارث:

وقد ينبُتُ المرعىٰ علىٰ دِمَنِ الثَّرَىٰ وتبقىٰ حزازاتُ النفوسِ كما هيا

ومعنىٰ البيت أن الرجُلين قد يُظهران الصلح أو المودة، وينطويان علىٰ البغضاء والعـداوة، كمـا ينبُتُ المرعىٰ علىٰ الدِّمن. وهذا أكثريٌّ أو كلِّيٌّ في زماننـا، والله المستعان. وذكره السخاويّ. وقال القاري: لا يكون موضوعاً، سواء كان موقوفاً أو مرفوعاً. وذكره صاحب «تحفة العروس» عن عمرَ موقوفاً بلفظ: «إياكم وخضراء الدِّمن، فإنها تَلِدُ مثلَ أصلِها. وعليكم بذات الأعراق، فإنها تلدُ مثل أبيها وعمّها وأخيها».

ومن أحاديث مادة (دمن) ما جاء: فأتينا علىٰ جُدْجُدٍ مُتدَمِّن. قال ابن الأثير: أي: بئرٍ حولَها الدِّمنة. وقال أبو عبيد: المتدمِّن: الماءُ الذي سقطت فيه دمَنُ الإبل والغنـم، وهـي أبعارها، والجُدجُد: البئرُ الكثيرة الماء. وقال أبو عبيد: إنما هو الجُدّ، وهو البئر الجيّدةُ الموضعِ من الكلأ، وأنشد للأعشىٰ:

مـا جُعِـلَ الجُـدُّ الظَّنُـونُ الـذي جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الماطرِ

وفي الحديث: «مُدمنُ الخمر كعابد الوَثَن»، هو الذي يعاقِرُ شُرْبَها ويلازمه ولا ينفَكُّ عنه. قال ابن الأثير: وهذا تغليظٌ في أمرها وتحريمها.

وفي الحديث: أن الناس كانوا يتبايعون الثمار قبل أن يبدُوَ صلاحُها، فإذا جَدَّ الناسُ وحضر تقاضيهم قال المبتاع: قد أصاب الثمرَ الدَّمانُ، وأصابه قُشام. فلما

كثُرت خصومتُهم عند النبي ﷺ، قال: «لا تتبايعُوا الثمرةَ حتىٰ يبدُوَ صلاحُها» كالمَشُورة يشير بها لكثرة خصومتهم واختلافِهم. الدَّمان، بفتح الدال كما قيَّدَه الجوهري والأزهريّ: فسادُ الثمر وعفَنُه قبل إدراكه حتىٰ يَسْوَدّ، من الدِّمْن، وهو السِّرْجين، الزِّبْل. وضبطه الخطابيُّ بالضم: الدُّمان، قال ابن الأثير: وكأنه أشبه؛ لأن ما كان من الأدواء والعاهات فهو بالضم، كالسُّعال والنُّحاز والزُّكام. وقد جاء في الحديث: القُشامُ والمُراض، وهما من آفات الثمرة، ولا خِلافَ في ضمِّهما. وقيل: هما لغتان.

[د ن و]

تدلُّ مادة دنا في العربيّة علىٰ أصل واحد، هو القُرب والمقاربة. قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. قوله تعالىٰ: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قِنوان: جمع قِنْو، وهو عِذق النخلة. ودانية، أي: قريبةٌ من المتناول. وروىٰ ابنُ جرير: يعني بالقنوان الدانية قِصارَ النخل اللاصقةَ عذوقُها بالأرض. وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنىٰ: منها دانيةٌ ومنها بعيدة فحذَف، ومثله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: وتقيكم البردَ. وخصَّ الدانية بالذكر؛ لأن الغرض من الآية بيانُ القَدْر والامتنان، وذلك فيما يقرُبُ تناوله أكثرَ. ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: ثمرهما قريبٌ إليهم متىٰ شاءوا تناولوه علىٰ أي صفة كانوا، كما قال تعالىٰ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]. وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها. وقوله تعالىٰ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى

﴿ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٢ ـ ٣] أدنىٰ الأرض: قيل: أطراف الشام، أي أدنىٰ أرض العرب. قال أهل التفسير: غلَبَت فارسٌ الرومَ، ففرح بذلك كفارُ مكة وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب! وافتخروا علىٰ المسلمين وقالوا: نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارسٌ الروم. وكان المسلمون يحبون أن تظهرَ الرومُ علىٰ فارس، لأنهم أهل كتاب. ومعنىٰ في ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أقرب أرضهم من أرض العرب، أو في أقرب أرض العرب منهم. قيل: هي أرض الجزيرة، وقيل: أذرعات، وقيل: الأردن، وقيل: فلسطين. وهذه المواضع هي أقرب إلىٰ بلاد العرب من غيرها، وإنما حُملت الأرضُ علىٰ أرض العرب؛ لأنها المعهود في ألسنتهم؛ إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب. وقيل: إن الألف واللام عوضٌ عن المضاف إليه، والتقدير: في أدنىٰ أرضهم، فيعود الضميرُ إلىٰ الروم، ويكون المعنىٰ: في أقرب أرض الروم من العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]. السماء الدُّنيا، أي: القُرْبىٰ التي تلي الأرض، من الدنوّ وهو القُرْب، فهي أقرب السماوات إلىٰ الأرض، ومذكَّر الدُّنيا: الأَدْنىٰ، مثل: الأصغر والصُّغرىٰ.

قال الراغب الأصبهاني: ويُعَبَّر بالأدنىٰ تارةً عن الأصغر، فيقابل بالأكبر نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَلآ أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلآ أَكْبَرَ﴾ [المجادلة:٧]. في قراءة الزهري وعكرمة. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ بالثاء المثلثة. وتارةً يعبَّر بالأدنىٰ عن الأرذل الأخَسّ، فيُقابل بالخيْر، نحو قوله تعالىٰ: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة:٦١]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ [المائدة:١٠٨] أي: أقربُ لنفوس الشهود في إقامة الشهادة والتحرِّي في أدائها علىٰ وجهها، فلا يحرِّفون ولا يبدلون ولا يخونون. ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ [الأحزاب:٥١]، أي: ذلك التخيير الذي جعله الله لنبيه ﷺ في أن يضمَّ إليه من يشاء من نسائه ويؤخِّرَ نَوْبةَ من يشاء منهن، هذا

التخيير أقربُ إلىٰ رضا أمهات المؤمنين، إذ كان من عند الله؛ لأنهن إذا علمن أنه من الله قرَّت أعينهن، ولا يحزَنَّ بإيثارِكَ بعضِهن دون بعض.

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]. يقال: دانيتُ بين الأمرين، أي: قاربتُ بينَهما. وقال ابن عرفة نفطويه: أي: يتغطَّيْنَ ويَتَوارَيْنَ بثيابهنَّ ليُعلَمَ أنهن حرائر. ذكر الحافظ ابن كثير قال: قال علي بن طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساءَ المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يُغطِّين وجوهَهُنَّ من فوق رءوسهنَّ بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة. وقال محمد بن سيرين: سألتُ عَبيدةَ السَّلمانيَّ عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فغطىٰ وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرىٰ، وقال عكرمة: تغطي ثُغرةَ نحرِها بجلبابها تدنية عليها.

وفي الحديث: «سَمُّوا الله ودَنُّوا وسَمِّتُوا» أي: إذا بدأتم بالأكل كلُوا مِمّا بين أيديكم وقَرُب منكم، وهو فَعَّلُوا من: دنا يدنو. وسَمِّتوا، أي: ادعوا بالبركة لمن طُعِمْتُم عنده، والتسميت: الدعاء.

وفي حديث الحديبية: «علامَ نُعطي الدَّنِيّةَ في دينِنا؟» الدنية: الخصلة الممومة. والأصل فيه: الدنيئة بالهمز، وقد تخفف. والدنيّ والدنيء، مهموزٌ وغير مهموز بمعنىٰ الضعيف الخسيس. وجاء في حديث الحج: «الجمرة الدنيا» أي: القريبةُ إلىٰ مِنىٰ، وهي فُعْلىٰ من الدُّنُوّ. والدنيا أيضاً اسمٌ لهذه الحياة لبُعد الآخرة عنها، والسماءُ الدُّنيا لقُربها من ساكني الأرض. ويقال: سماءُ الدنيا، علىٰ الإضافة.

[د و ر]

يقول ربنا عز وجل في شأن المنافقين الذين يوالون اليهودَ والنصارىٰ توقُّعاً لما يكون من انتصارهما علىٰ المسلمين فينفعُهم ذلك، فيقول عز وجل: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢] الدائرة: ما تدورُ مِن مكاره الدهر، أي: نخشىٰ أن تظفر الكفار بمحمد ﷺ، فتكونَ الدولةُ لهم، وتبطلَ دولتُه فيصيبَنا منهم مكروه، ومنه قول الشاعر:

يـرُدُّ عنكَ القَـدَرَ المقـدورا ودائراتِ الدهر أن تدورا

أي: دُولاتُ الدهـر، الدائرةُ من قومٍ إلىٰ قوم. وقال أبو منصور الأزهـريّ: معنىٰ الدائرة: الدولةُ تدورُ لأعداء المسلمين عليهم. وقال ابن عرفة نفطويه: دائرة أي: حادثة من حوادث الدهر. وقال ابن قتيبة: أي: يدور علينا الدهر بمكروه، يعنون بالدائرة: الجَدْب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٩٨] الدوائر: المـوت أو القتـل. والـدوائر: جمع دائرة، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلىٰ البلية، وأصلها ما يحيط بالشيء. ودوائـر الزمان: نُوَبُه وتصاريفُه ودُولُه وكأنها لا تستعمل إلاّ في المكروه، ثـم دعا سبحانه عليهـم بقوله: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ وجعل ما دعـا بـه عليهم مماثـلاً لمـا أرادوه بالمسلميـن، أي: عليهم دائرة الهزيمة والشـرّ، والعـذاب والبلاء. وقوله تعالـىٰ: ﴿ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ أي: يعتقـد أن الـذي ينفقـه في سبيل الله غرامـةٌ وخسران.

[د ي ر]

وقال عز من قائل علىٰ لسان نبيِّه نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] قوله: ﴿دَيَّارًا﴾، أي: أحداً، وهو من يسكن الديار، وأصله: دَيْوار بوزن فَيْعال، مِن: دار يدور، فقلبت الواو ياءً وأدغمت إحداهما في الأخرىٰ، مثلُ القيام، أصله قِيْوام. وقال ابن قتيبة: أصله من الدار، أي نازل بالدار، يقال: ما بالدار ديّارٌ، أي: أحدٌ. وقيل: الديّار: صاحب الديار، والمعنىٰ: لا تدَعْ أحداً منهم إلاّ أهلكته.

وقال عز وجل في قصة نبيه موسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥] أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلىٰ الهلاك والدمار. قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلىٰ ما يصير إليه حالُ من خالَفَ أمري، علىٰ وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمرَه. قال ابن كثير: وقيل معنىٰ ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام وأعطيكم إياها. وقيل: منازلُ قوم فرعون بأرض مصر. قال: والأول أولىٰ والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسىٰ وقومه عن بلاد مصر، وهو خطابٌ لبني إسرائيل قبل دخولهم التِّيه، والله أعلم.

وجاء في الحديث: «ألا أُخبركم بخير دُور الأنصار؟ دورُ بني النجار، ثم دُورُ بني الأشهل، ثم دور بني الحارث، ثم دور بني ساعدة. وفي كلٍّ دور الأنصار خير». قال الزمخشري: دُورُ القوم وديارُهم: منازلُ إقامتهم، ومنه قولهم: ديارُ ربيعة وديارُ مُضر للبلاد التي أقاموا بها، وأما قولهم: دورُ بني فلان، يريدون

القبائل، ومرَّت بنا دارُ بني فلان، أي: جماعتهم، وكذلك قولهم: بيـوتُ العرب وبيوتاتُها، والمراد أحياؤها، وهي في الأصل: الأخْبِية، فعلىٰ أنّ أصلَه أهلُ الدور، وأهل البيوت، فحذف المضاف واستمرّ علىٰ حذفه، كقولهم: قريش ومضر.

ومنه الحديث: «ما بقِيَت دارٌ إلاَّ بُنِيَ فيها مسجد» أي: ما بقيت قبيلةٌ إلا بني فيها مسجـد. فأما قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عَقِيلٌ من دار»؟ فإنما يريد به المنزلَ لا القبيلة. ومنـه حديثُ زيارة القبور: «سلامٌ عليكم دارَ قوم مؤمنين». سَمَّى موضعَ القبور داراً تشبيهاً بدار الأحياء، لاجتماع الموتىٰ فيها.

وجاء في حديث الشفاعة: «فأستأذن علىٰ ربّي في داره» أي: في حضرة قدسه. وقيل: في جنته، فإن الجنة تسمَّىٰ دارَ السلام، والله هو السلام.

وفي حديث أهل النار: «يحترقون فيها إلا داراتِ وجوههم» الدارارت: جمع دارة، والمراد بها هنا ما يحيط بالوجه من جوانبه، أراد أنها لا تأكلُها النار، لأنها محلُّ السجود. وفي خطبة النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلَقَ الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُم: ثلاثةٌ متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجبُ مضرَ الذي بين جمادىٰ وشعبان».

يقال: دار يدور واستدار يستدير، بمعنىٰ إذا طاف حولَ الشيء، وإذا عاد إلىٰ الموضـع الذي ابتـدأ منه، ومعنىٰ الحديـث أن العرب كانوا يؤخرون المحرم إلىٰ صفر، وهو النَّسيءُ ليقاتلوا فيه، ويفعلون ذلك سنةً بعد سنة، فينتقل المحرمُ من شهر إلىٰ شهر حتىٰ يجعلوه في جميع شهور السنة، فلما كانت تلك السنةُ كان قد عاد إلىٰ زمنه المخصوص به قبل النقل، ودارت السنةُ كهيئتها الأولىٰ.

وفي الحديث: «مثَلُ الجليس الصالـح مَثَـلُ الداريّ » الداريّ بتشديد الياء: العطـارُ، قالوا: لأنه نُسبَ إلىٰ دارين، وهو موضـعٌ في البحر يُؤْتَىٰ منه بالطيب. والدارُ في غير هذا: الرجل الذي يقيمُ أكثرَ دهره في داره لا يركب الأسفار.

[د و ل]

يقول ربنا عز وجل في حكم الفيء، وهو: كلُّ مالٍ أُخذ من الكفار من غير قتالٍ ولا إيجاف خيلٍ ولا ركاب، كأموال بني النَّضير، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل بهم من الرعب الذي ألقىٰ الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله علىٰ رسوله، ولهذا تصرَّف فيه كما يشاء، فردَّه علىٰ المسلمين في وجوه البرّ والمصالح التي ذكرها الله عز وجل، فقال: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

قال أبو منصور الأزهري: الدُّولة: اسمٌ لكلّ ما يتداول من المال، يعني الفيء، والدُّولة: الانتقالُ من حال البؤس والضرّاء إلىٰ حال الغبطة والسرور. قال مقاتل: المعنىٰ أنه يَغلِب الأغنياءُ الفقراءَ فيقتسمون الفيء بينهم. وقال ابنُ كثير: أي: جعلنا هذه المصارفَ لمال الفيْء كيلا يبقىٰ مأكلةً يتغلَّبُ عليها الأغنياء ويتصرّفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلىٰ الفقراء. ويقال: تداولَ القومُ الشيءَ بينهم: إذا صار من بعضهم إلىٰ بعض. والدَّوْلةُ والدُّولةُ لغتان، ويقال: بل الدُّولةُ في المال، والدَّولةُ في الحرب.

ويقول عز من قائل مخاطباً عبادَه المؤمنين لمّا أُصيبوا يومَ أُحد، وقُتل منهم سبعون: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. القَرْح: الجُرْح. والمراد ما نال المسلمين من القتل والهزيمة. وقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ المداولة: المُعاوَرَة، داولته بينهم، أي: عاورْتُه،

والدَّوْلةُ: الكَرَّةُ والظَّفر. ويقال: أدال الله فلاناً من فلانٍ، أي: جعل له الدَّولة عليه والغَلَبةَ والظَّفر. والمُدالُ: الظافر. قال أبو عبيد الهرويُّ صاحب «الغريبين»: وتُجمع الدَّولةُ دِوَلاً ودَوْلات، أنشدني الأزهريّ للخليل بن أحمد:

وفَّيتُ كلَّ صديقٍ وَدَّني ثَمَناً ... إلاَّ المؤمِّلَ دَوْلاتي وأيامي

وجاء في حديث أشراط الساعة: «إذا كان المغنمُ دُوَلاً» هو جمع دُولة، بالضم، وهو: ما يُتداوَلُ من المال، فيكون لقومٍ دونَ قوم.

ومنه حديثُ الدعاء: «حدِّثْني بحديث سمعتَه من رسول الله ﷺ لم تتداولْه بينَك وبينَه الرجال» أي: لم تتناقلْه الرجالُ، ويرويه واحدٌ عن واحد، إنما ترويه أنت عن رسول الله ﷺ. وفي حديث وفد ثقيف: «نُدالُ عليهم ويُدالُون علينا» الإدالةُ: الغلبةُ. يقال: أديل لنا علىٰ أعدائنا، أي: نُصرنا عليهم، وكانت الدولةُ لنا، والدَّولةُ: الانتقال من حال الشدة إلىٰ حال الرخاء. وفي حديث أبي سفيان وحواره مع هرقل حول رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان: نُدَال عليه ويُدالُ علينا، يريد: نغلبه مرَّةً ويغلبنا أُخرىٰ.

وجاء في خُطبةٍ بليغة للحجاج بن يوسف الثقفي، قال: يوشك أن تُدالَ الأرضُ منا فلنسكُنَنَّ بطنَها كما عَلَوْنا ظهرَها، ولتأكُلَنَّ من لحومنا كما أكلنا من ثمارها، ولتشربَنَّ من دمائنا كما شربْنا من مائها، ثم لتُوجَدَنَّ جُرُزاً، ثم ما هو إلا قول الله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. قال أبو سليمان الخطابيّ: قوله: «تُدال» من الدَّولة، أي: تكون لها الدولةُ علينا إذا مِتْنا فتأكلُ أجسادنا وتبليها، شبَّهها بالعدوِّ يظفر بالإنسان، فينال منه تِرتَهُ ويُدرك ثأره. والجُرُز: الأرضُ التي قد جُرِز ما عليها، أي: أُكِل ورُعِيَ فبقيت صعيداً لا نبات فيها ولا شيءَ عليها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] يقال: جُرِزَت الأرضُ، وجَرَزها الجرادُ يجرُزُها جَرْزاً: إذا لحَسَها.

[د و م]

يقول ربنا عز وجل في شأن أهل النار: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، قال أبو عبيد الهروي: أي: دوامُها. والعربُ تضع هذه اللفظة موضع التأبيد والدوام. وقال الإمام الشوكاني: وقد اختلف العلماء في بيان معنىٰ هذا التوقيت؛ لأنه قد عُلم بالأدلة القطعية تأبيدُ عذاب الكفار في النار وعدمُ انقطاعه عنهم، وثبت أيضاً أن السموات والأرضَ تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبارَ جارٍ علىٰ ما كانت العرب تعتاده؛ إذا أرادوا المبالغةَ في دوام الشيء قالوا: هو دائمٌ ما دامت السمواتُ والأرض، ومنه قولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، وما اختلف الليلُ والنهار، وما ناح الحمامُ ونحوُ ذلك. فيكون معنىٰ الآية أنهم خالدون فيها أبداً، لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له. وقيل: إن المراد سماواتُ الآخرة وأرضُها، فقد ورد ما يدل علىٰ أن للآخرة سماوات وأرضاً غيرَ هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمةٌ بدوام دارِ الآخرة، وأيضاً لا بُدَّ لهم من موضعٍ يُقلُّهم وآخَرَ يظلهم، وهما أرضُ وسماء والله أعلم.

يقال: دام الشيء يدوم: إذا سكن، وأدمتُه أنا، أي: سكَّنتُه. وفي الحديث: أن النبي ﷺ نهىٰ أن يبال في الماء الدائم، يعني الراكدَ الساكن. قال ابن فارس: والدليل علىٰ صحة هذا التأويل أنه روي بلفظة أخرىٰ، وهو أنه نهىٰ أن يُبال في الماء القائم. ومن ذلك يقال: أدَمْتُ القِدْرَ إدامةً، إذا سكَّنْتَ غلَيانَها بالماء، قال النابغةُ الجعديُّ:

تفورُ علينا قِدْرُهُمْ فنُديمُها ونفثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غلا

وقال بعضُ أهل اللغة: الدائمُ من حروف الأضداد، يقال للساكن: دائمٌ، وللدائر: دائم. ويقال: أصاب فُلاناً دُوامٌ، أي: دُوارٌ، وبه سُمِّيت دُوَّامةُ الوليد ـ

وهي لُعبةٌ للصّبيان ــ لدورانها. ومن ذلك حديثُ عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تصف من الدُّوام سَبْعَ تَمَراتٍ عجوةً في سبع غَدَواتٍ علىٰ الريق. قال أبو سليمان الخطابيّ: الدُّوام كالدُّوار، وهو: ما يأخذ الإنسان في رأسه فيُدارُ به، ومنه تدويم الطائرِ وهو أن يستدير في طيرانه، ومنه اشتُقّت الدُّوّامةُ التي يُلعَبُ بها، وقد استدام الرجل: إذا استدار، قال جرير:

إذا أرسلتُ صاعقةً عليهم   رأَوْا أخرىٰ تَخرَّقُ فاستدامُوا

أي: يُدارُ بهم من الفزع. والتدويم أيضاً في الطير: أن يُسكِّنَ الطائرُ جناحيه عن الخفَقان في الهواء. ومنه قولهم: ماءٌ دائم: إذا كان راكداً لا يجري. قال ابنُ فارس: ومن ذلك قولهم: دوَّمَتِ الشمسُ في كبد السماء، وذلك إذا بلغت ذلك الموضع، ويقول أهلُ العلم: إنَّ لها ثَمَّ كالوقفة ثم تَدْلُك، أي: تزول، قال ذو الرُّمَّة:

والشمسُ حَيْرَىٰ لها في الجَوِّ تدويمُ

أي: كأنها لا تمضي. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أنها قالت لليهود: عليكم السَّامُ الدَّامُ. أي: الموتُ الدائم، فحذَفَتِ الياء لأجل السَّام. والحديث بتمامه: أن رَهْطاً من اليهود استأذنوا علىٰ النبي ﷺ، فقالوا: السَّامُ عليكم يا أبا القاسم. فقالت عائشة: عليكم السَّامُ والذَّامُ واللعنةُ والأفنُ والدَّامُ. فقال ﷺ لها: «لا تقولي ذلك، فإن الله لا يحبُّ الفحشَ ولا التفاحش». ويروىٰ أنه قال لها: «إن الله يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه». فقالت: ألم تعلم ما قالوا؟ قالوا: السَّامُ عليكم. فقال: «قد قلت: عليكم». وفي حديث عائشة رضي الله عنها أيضاً أنها سُئلت: هل كان رسول الله ﷺ يُفضِّل بعضَ الأيام علىٰ بعض؟ فقالت: كان عملُه دِيمةً. قال الأصمعيُّ وغيره: قولها: «ديمة» أصلُ الديمة: المطر الدائم مع سكون. قال لبيد:

باتَتْ وأسبل داكنٌ من ديمةٍ   يُرْوِي الخمائلَ دائماً تَسْجامُها

فأخبر أن الدِّيمة الدائم. قال أبو عبيد: فشبَّهَتْ عملَه ﷺ في دوامه مع الاقتصاد ـ وليس بالغلوّ ـ بديمة المطر. ويُروىٰ عن حذيفة شبيهٌ بهذا حين ذكر الفتن، فقال: «إنها لآتيتكم دِيَماً دِيَماً» يعني أنها تملأ الأرضَ مع دوام.

وفي الحديث: رأيت النبيَّ ﷺ وهو في ظلِّ دَوْمة. قال أبو إسحاق الحربيُّ: سمعتُ ابن الأعرابيّ يقول: الدَّوْمُ: ضِخَامُ الشجرِ ما كان. وقال الأزهريُّ: الدَّومُ شجرٌ يُشبه النخلَ، إلا أنه يُثمر المُقْلَ، وله لِيفٌ وخوص.

روىٰ الإمام مسلمٌ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا تسبُّوا الدَّهر، فإن الله هو الدهر». قال الإمام الجليل أبو عبيدٍ القاسمُ بن سلام: تأويله عندي ـ والله أعلم ـ أن العرب كان شأنُها أن تذمَّ الدهر وتسبَّه عند المصائب التي تنزل بهم، من موتٍ أو هَرَم أو تلفِ مالٍ أو غيرِ ذلك، فيقولون: أصابتهم قوارعُ الدهر، وأبادهم الدهرُ، وأتىٰ عليهم الدهر، فيجعلونه الذي يفعل ذلك فيذمونه عليه، وقد ذكروه في أشعارهم، قال الشاعر يذكر قوماً هلكوا:

فاستأثرَ الدهرُ الغَداةَ بهمْ ... والدهرُ يرميني وما أَرْمي
يا دهرُ قد أكثرْتَ فجْعَتَنا ... بسَراتِنا ووقرْتَ في العَظْمِ
وسلبْتَنا ما لستَ تُعْقِبُنا ... يا دهرُ ما أنصفْتَ في الحُكمِ

وقال عمرو بنُ قميئة:

رمتْني بناتُ الدهرِ من حيث لا أرىٰ ... فكيف بمَنْ يُرْمَىٰ وليس برامِ
فلو أنها نَبْلٌ إذاً لاتّقَيْتُها ... ولكنَّما أُرْمَىٰ بغيرِ سهامِ
علىٰ الراحتَيْنِ مرَّةً وعلىٰ العصا ... أنوءُ ثلاثاً بعدَهنَّ قيامي

فأخبر أن الدهرَ فعل به ذلك نصفَ الهَرَم. وقد أخبر الله تعالىٰ بذلك عنهم في كتابه الكريم، قال اللّهُ عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ثم كذَّبهم بقولهم فقال: ﴿وما لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] فقال النبي عليه السلام: «لا تسبُّوا الدهر» علىٰ تأويل: لا تسبُّوا الذي يفعل بكم هـذه الأشيـاء، ويصيبُكم بهذه المصائب، فإنكم إذا سببتم فاعلها فإنما يقع السبُّ علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه عز وجل هو الفاعل لها، لا الدهر، فهذا وجه الحديث إن شاء الله، لا أعرف له وجهاً غيره.

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لعمّه أبي طالب لمّا أدركه الموت: «قل: لا إله إلا اللهُ تُصِبْ بها كرامةَ الدنيا والآخرة». قال: يا ابن أخي، لولا رهبةُ أن تقول قريش: دهَرَه الجزعُ، فيكونَ سُبَّةً عليك وعلى بني أبيك، لفعلتُ. قال أبو سليمان الخطابي: يقال: دَهَرَه، أي: نكبَهُ الدهرُ وأصابه بمكروهه فجزِع لذلك. يقال: دَهَر فلاناً أمرٌ، أي: نزل به مكروه من مكاره الدهر.

وكان أهل الجاهلية يضيفون المصائبَ والنوائبَ إلىٰ الدهر، وهم في ذلك فرقتان:

فرقةٌ لا تؤمن بالله، لا تعرف إلاّ الدهرَ الذي هو: مَرُّ الزمان واختلافُ الليل والنهار، اللذين هما محلُّ الحوادث، وظرفٌ لمَساقِط الأقدار، فتنسُبُ المكارِهَ إليه علىٰ أنها من فِعله، ولا ترىٰ أن له مدبِّراً ومصرِّفاً. وهؤلاء الدَّهرية الذين حكىٰ اللهُ عنهم في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفرقـةٌ تعرِفُ الخالق فتُنزِّهُـه أن تنسُـبَ إليه المكـاره، فتضيفُهـا إلـىٰ الدهر والزمان.

وعلىٰ هذين الوجهين كانوا يسُبُّون الدهر ويذمُّونه، فيقول القائل منهم: يا خيبةَ الدهر، ويا بؤسَ الدهر، إلىٰ ما أشبه هذا من قولهم. فقال النبيُّ ﷺ مُبْطلاً ذلك من مذهبهـم: «لا يسُبَّنَّ أحدُكمُ الدهرَ، فإن الله هـو الدهـر»، يريد ـ والله أعلم ـ: لا تسُبُّوا الدهرَ علىٰ أنه الفاعلُ لهذا الصنيع بكم، فإن الله هو الفاعل له، فإذا سببتم الذي أنزل بكم المكاره رَجع السبُّ إلىٰ الله تعالىٰ عن ذلك، وانصَرَف إليه.

ومعنىٰ قوله: «أنا الدهر» أي: أنا مالك الدَّهر ومصرِّفُه، فحذَف اختصاراً للّفظ واتِّساعاً في المعنىٰ. وبيان هذا في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أنا الدهر، لي الليلُ والنهار، أُجِدُّه وأُبْليه، وأذهب بالملوك وآتي بهم». وفي حديث أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: يؤذيني ابنُ آدم، يقول: يا خيبةَ الدهر! فلا يقولنّ أحدُكم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أقلبُه ليلَه ونهارَه، فإذا شِئْتُ قبضتُهما».

وقولُ أبي طالب: لولا أن تقول قريش: دهره الجزع، فإن الجَزَعَ مِن جَزَعِ القلَق، وذلك ما جاء في حديث أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ: «قل: لا إلٰه إلاّ الله، أشهدْ لك بها يوم القيامة» قال: لولا أن تعيِّرني قريشٌ، يقولون: إنما حَمَلَه علىٰ ذلك الجَزَعُ، لأقْرَرْتُ بها عينَك. قال: فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. فهذه رواية الجَزَع.

وروىٰ أبو عمر الزاهد، عن أبي العباس ثعلب، أنه كان يقول: إنما هو الخَرَعُ بمعنىٰ الضعف والخَوَر. قال: وأصل الخَرَع: اللينُ والاسترخاء. قال: ومنه قيل للمرأة الفاجرة: خَرِيع، قال كُثيِّر:

وفيهنَّ أشباهُ المَها رَعَتِ الفَلا ... نواعِمُ بِيضٌ في الهوىٰ، غيرُ خُرَّعِ

أي: غير فواجر. وقال أبو عبيدة: إنما سُمِّيت المرأة خَرِيعاً للينها وطاعتها، وقال أبو مالك: الخَرِعُ: الذي ليس بصُلب. يقال: رجلٌ خَرِعٌ: إذا كان ضعيفاً خَوّاراً، قال: ومنه اشتُقّ الخِرْوَع، وذلك للينه. وفي شعر عبد المسيح بن بُقَيلة الغسَّاني، المذكورِ في حديث سطيح الكاهن، وهو في «دلائل النبوة»، يقول:

إن يُمْسِ مُلْكُ بني ساسانَ أَفرطَهُمْ ... فإنّ ذا الدهرَ أطوارٌ دهاريرُ

حكىٰ الهرويُّ عن شيخه الأزهري، أن الدهارير جمعُ الدُّهور، وأراد أن الدهرَ

ذو حالين، من بُؤْس ونُعْم، وقال الزمخشري: الدهارير: تصاريف الدهر ونوائبه، مشتقٌّ من لفظ الدهر، ليس له واحدٌ من لفظه، كعباديد. قال الجوهري: وقولهم: دهرٌ دهاريرُ، أي: شديدٌ، كقولهم: ليلةٌ ليلاء، ونهارٌ أنْهَر، ويومٌ أيْوَمُ، وساعةٌ سوعاءُ، وأنشد أبو عمرو بن العلاء لرجلٍ من أهل نجد، وهو حُرَيْث بنُ جَبْلَة العُذْري:

وبينَما المرءُ في الأحياءِ مُغْتبطٌ ... إذا هُوَ الرَّمسُ تعفوه الأعاصيرُ
حتىٰ كأنْ لم يكن إلاّ تذكُّرُهُ ... والدَّهرُ أيَّتَما حالٍ دهاريرُ

قال الزمخشري: أي: دَواهٍ وخطوبٌ مختلفة. ثم أنشد لرجلٍ من كلب يذمّ الدهر:

لحا اللهُ دَهْراً شَرُّه قبلَ خيرِهِ ... تقاضَىٰ فلم يُحسِنْ إليَّ التَّقاضيا

وليحيىٰ بن زياد:

عذيريَ من دهرٍ كأني وتَرْتُهُ ... رهينٌ بحبلِ الوُدِّ أن يتقطَّعا

وجاء في حديث أمِّ سُلَيم: «ما ذاكِ دَهْرُكِ» يقال: ما ذاك بدهري، وما دهري بكذا، أي: عادتي وهِمَّتي. قال متممُ بنُ نُويرة من قصيدته الشهيرة في رثاء أخيه مالك:

لعمرِيْ وما دهري بتأبينِ هالكٍ ... ولا جَزَعاً ممّا أصابَ فأوجَعا

وفي حديث النجاشيّ: فلا دَهْوَرَةَ اليومَ علىٰ حرب إبراهيم. الدَّهْورة: جَمْعُك الشيءَ وقذْفُك إياه في مَهْواة، كأنه أراد: لا ضيعة عليهم ولا يُتْرَك حفظُهم وتعهُّدُهم. ويقال: هو يُدَهْوِر اللُّقَم: إذا كبَّرها.

[د هـ م]

يقول ربُّنا عز وجل في وصف الجنتين اللَّتين أعدَّهما لمن خاف مقامه: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]. قال مجاهد: مُسْوَدَّتان، وقال غيره: خضراوان من الرِّيِّ حتىٰ تَضربَ خضرتُهما إلىٰ سوادٍ قليل، وقال بعضهم: الدُّهمة عند العرب: السواد، وإنما قيل للجنَّة: مدهامة؛ لشَدّة خضرتها، ويقال: اسودَّت الخُضْرةُ، إذا اشتدَّت. قال الجوهريُّ: والعرب تقول لكلِّ أخضرَ: أسود. وسُمِّيت قُرىٰ العِراق سَواداً لكثرةِ خُضرتها، ويقال: فرسٌ أدهمُ وبعيرٌ أدهم، وناقةٌ دهماء، إذا اشتدّتْ وُرْقَتُه حتىٰ ذهب البياضُ الذي فيه، فإن زاد علىٰ ذلك حتىٰ اشتدَّ السَّوادُ فهو جَوْن.

والدَّهْمُ: العددُ الكثير. ورُوي أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء رجلٌ فأخبر النبيَّ ﷺ، فأنـزل الله تعالىٰ ساعتَئذ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠] فقال أبو جهل: يا معشر قريش، ثكلَتْكم أُمَّهاتُكم، أسمَعُ ابنَ أبي كبشة يُخبركم أن خزنة جهنَّمَ تسعة عشر، وأنتم الدَّهْمُ ــ أي: العددُ الكثير ــ أفيعجزُ كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خزنة جهنم؟ فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ [المدثر: ٣١] أي: شديدي الخَلْقِ، لا يُقاوَمُون ولا يُغْلَبُون، وذلك لما رُوي أن أبا الأشدَّين ــ واسمه كَلَدةُ بن أَسِيد بن خلف ــ قال: يا معشر قريش، اُكفوني منهمُ اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعةَ عشر، إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القُوَّة فيما يزعمون أنه كان يقف علىٰ جلد البقرة ويُجاذبه عشرةٌ لينزِعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجِلدُ ولا يتزحزح عنه. قال السُّهيلي ــ فيما حكاه ابن كثير ــ: وهو الذي دعا رسولَ الله ﷺ إلىٰ مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك. فصرعه النبيُّ ﷺ مِراراً فلم يؤمن!

وفي الحديث، أن أبا جهل لم يشعر بعسكر رسول الله ﷺ يومَ بدر حتىٰ تصايح

الفريقان، ففزع أبو الحكم، فقال: ما الخبر؟ فقيل: محمدٌ في الدَّهم بهذا القَوْز، قال: فأخذته خَوَّةٌ فلا ينطق. الدهم: العددُ الكُثير. يقال: جَيْشٌ دَهْمٌ أي: كثير، والجمع الدُّهُوم. قال طَرَفة:

وأنـا امـرُؤٌ أكـوي مـن القَصَـرِ الـ ... بادي، وأغْشىٰ الدَّهْمَ بالدَّهْمِ

والقَصَر: يُبْسٌ في العُنُق. وقال آخر:

جئنا بدَهْمٍ يَدْحَرُ الدُّهُوما ... مَجْرٍ كـأنّ فـوقَـهُ النُّجـومـا

والمَجْر: الجيش. والقَوْز: الكثيبُ مـن الرمل. وقوله: «فأخذَتْه خَوَّةٌ فلا ينطق» الخَوَّة: الفَتْرةُ، وأصله من الخَوَىٰ، وهو الجُوع، فاستعيرت.

وفي حديث بشير بن سعد رضي الله عنه: أنه خرج في سريّةٍ إلىٰ فَدَك، فأدركه الدَّهْمُ عند الليل، وأُصيب أصحابه، وولّىٰ منهم مَن ولّىٰ، وقاتل قتالاً شديداً، حتىٰ ضُرِب كعبُه وقيل: قد مات. قوله: أدركه الدَّهْمُ، يريد العدُوَّ، والدَّهْمُ: العدد الكثير. وقوله: «ضُرِبَ كعبُه»: إنما يُفْعَل ذلك بمن يُوجَدُ صريعاً في المعركة ليُعْلَمَ أحيٌّ هو أم ميّت، فإذا ضُرب كعبُه فلم يتحرَّك أيقنوا بموته.

وفي الحديث: «من أراد المدينة بدَهْمٍ أذابه الله كما يذوب المِلْحُ في الماء». قوله: «بدهم» أي: بأمر عظيم وغائلة، من أمرٍ يَدْهَمُهم، أي: يفجَأُهم.

وروىٰ أبو سليمان الخطابيُّ، عن أبي عمر الزاهد، عن أبي العباس ثعلب، عن ابن الأعرابيّ، قال: الدَّهْم: الخَلْقُ الكثير، وقال أعرابيٌّ وقد سبق الناسَ إلىٰ عرفة: اللهم اغفِرْ لي قبلَ أن يدهمك الناسُ. قال ابن الأثير: أي: يكثُرُوا عليك ويفجأوك. وقال: ومِثلُ هذا لا يجوز أن يستعمل في الدعاء إلاّ لمن يقولُه من غير تكلُّف.

وقال المبرّد: يقال للعامّة: الدهماء، يُراد أنهم قد غطُّوا الأرض، كما يقال: عليك بالسَّواد الأعظم. وفي حديث حذيفة رضي الله عنه، حين ذكر الفتنة فقال: أتتْكم الدُّهيماءُ تَرْمي بالنشَف، ثم التي تليها ترمي بالرَّضَف. قال أبو عبيد القاسم بن

سلاّم: قوله: الدُّهَيماء، نُراه أراد الدهماء ثم صَغَّرها، وبعضُ الناس يذهب بها إلىٰ الدُّهَيم، فإن كانت منه فإن الدُّهَيْمَ: الداهية، ويقال: إن سبَبَها أن ناقةً كان يقال لها: الدُّهيم، فغزا قومٌ قوماً فقتِل منهم سبعة إخوة، فحُمِلُوا علىٰ الدُّهَيم، فصارت مثلاً في كلِّ داهيةٍ وبليّة. وقوله: «ترمي بالنّشف» فإنها حجارةٌ سودٌ كأنها محترقة، قالها الأصمعيّ، وقال أبو عمرو: هي التي تُدْلَكُ بها الأرجل. وأما الرَّضْفُ فإنها الحجارة المُحَمّاةُ بالنار أو الشمس، واحدتُها: رضفة. وروي أن حذيفة رضي الله عنه قال بعد أن ذكر هذه الفتنة ووصَفها: والذي نفسي بيده، ما أعرفُ لي ولكم إلا أن نخرُجَ منها كما دخلنا فيها. قال الزمخشري: ذكر تتابُعَ الفتن وفظاعة شأنها، وضرَب رَمْيَها بالحجارة مثلاً لما يُصيب الناسَ من شرِّها، ثم قال: ليس الرأي إلا أن تنجليَ عنَّا ونحن في عدم التباسنا بالدنيا كما دخلنا فيها.

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول والعمل، كما نعوذ بك من فتنة المحيا والممات.

[د هـ ن]

يقول ربنا عز وجل في شأن تصدّع السماء يوم القيامة: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] الدِّهان: جمعُ الدُّهْن، وهو ما يُدْهَنُ به. قال سعيدُ بن جبيرٍ وقتادة: المعنىٰ: فكانت حمراء، وقيل: فكانت كلون الفرس الوَرْد، وهو الأبيض الذي يضرب إلىٰ الحُمرةِ أو الصُّفرة. قال الفراء وأبو عبيدة: تصير السماءُ كالأديم لشدّة حرّ النار، وقال الفراء أيضاً: شبَّه السماء في اختلاف ألوانها بالدُّهْن واختلاف ألوانه. ويقال: الدِّهان: الأديمُ الأحمر، وأنشدني ابنُ الأعرابيّ:

ومخاصِمٍ قاومتُ في كَبَدٍ　　مثلِ الدِّهان فكان لي العُذْرُ

قـال: والدِّهـان: الطريـق الأملـسُ هاهنـا، وأما في القرآن فالأديـمُ الأحمرُ الصِّرف. وقال الزجاج: أي: تتلوَّن من الفزَع كما تتلوّنُ الدِّهانُ المختلفـة، ودليل ذلك قولـه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨] أي: كالزَّيت المَغْلِيّ. وأُثِر مثلُ هذا عن زيد بن أسلم قال: إنها تصير كعصير الزيت، وقال الحسن: كالدِّهان، أي: كصبيب الدُّهن، فإنك إذا صببتَه ترىٰ فيه ألواناً، وروي عن الزجاج أيضاً، قال: إنها اليومَ خضراءُ وسيكون لها لونٌ أحمر. قال الماورديُّ: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبُعْدِ المسافة تُرَىٰ بهذا اللون الأزرق.

ويقول عز وجل مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨ ــ ٩]. الإدهـان هنا هو المُلاينـةُ والمسـامحـةُ والمـداراة، قـال الراغبُ الأصبهانـي: الإدهان في الأصـل مثـلُ التَّدهيـن، لكن جُعل عبارةً عن المـداراة والمُلاينة وتركِ الجِدّ. وقال ابن فارس: الإدهان: من المداهنة، وهي المصانعة، داهنتُ الرجـلَ: إذا واريْتَه وأظهرْتَ له خلافَ ما تُضمِرُ له، كأنه إذا فعل ذلك فهو يَدهُنُه ويسكِّنُ منه.

وفي معنـىٰ الآية الكريمة يقول الفراء: المعنىٰ: لو تلينُ فيلينون لك. وقال قتادة: ودُّوا لو تذهبُ عن هذا الأمر فيذهبون معك. وقال الضحاك والسُدّيّ: ودُّوا لو تكفر فيتمادَوْن علىٰ الكفر. وقال الربيع بن أنس: ودُّوا لو تكذبُ فيكذبون، وقال الحسن: ودُّوا لو تصانِعُهم في دينك فيصانعونك. قال ابن قتيبة: كانوا أرادوه أن يعبد آلهتهم مُدَّةً ويعبُدوا الله مُدّة.

ومن مجيء الإدهان بمعنىٰ الكذب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] أي: كاذبـون، ويقال: كافـرون. قـال الزجـاج: المدهِن والمُداهن: المنافق. وقال عطاء: هو الكذَّاب، وقال المؤرِّج بن عمرو السَّدُوسي: المُدْهِن: المنافـق الذي يُليـن جانبَه ليُخفيَ كفرَه، والإدهان والمداهنـة: التكذيب والكفرُ

والنفاق، وأصلُه اللِّين وأن يُسِرَّ خلافَ ما يُظهر. وقال الزمخشريّ: مدهنون، أي: متهاونون به كمن يُدهِنُ في الأمر، أي: يُلين جانبَه ولا يتصلَّبُ فيه تهاوُناً به.

وجاء في حديث جرير بن عبد الله البجليِّ وذكر الصَّدقة، قال: حتىٰ رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلَّلُ كأنَه مُدْهُنة. المُدْهُنة: تأنيثُ المُدْهُن، وهو نُقْرةٌ في الجبل يجتمع فيها المطر، وقد شبَّه جريرٌ وجهه ﷺ لإشراق السُّرور عليه بصفاء الماء المجتمع في الحَجَر. والمُدْهُنُ أيضاً والمُدْهُنة: الوعاء الذي يُجْعَلُ فيه الدُّهْن، فيكون قد شبَّهه بصفاء الدُّهْن. قال ابن الأثير: وقد جاء في بعض نُسَخ مسلم: كأنّ وجْهَه مُذْهبة، قال: فإن صحّت الرواية فهي من الشيء المُذْهَب، وهو المُموَّه بالذهب، أو من قولهم: فرسٌ مُذْهَب، إذا عَلَتْ حُمْرتَه صُفْرةٌ، والأنثىٰ مُذْهبة، وإنما خصَّ الأنثىٰ بالذكر؛ لأنها أصْفَىٰ لوناً وأرقُّ بشَرَة.

وجاء في حديث طِهْفةَ بن أبي زهير النهديّ الوافدِ علىٰ رسول الله ﷺ، قال يصف أرض قومه: قد نَشِفَ المُدْهُنُ ويَبِس الجِعْثِنُ. المُدْهُن: نُقرةٌ واسعةٌ في الجبل والصخر يجتمع فيها الماء، وهو من قولهم: دَهَن المطرُ الأرض، إذا بَلَّها بلاًّ يسيراً. والجِعْثِنُ: أصل النبات، وقيل: أصلُ الصِّلِّيان.

وجاء في حديث هرقل: وإلىٰ جانبه صورةٌ تُشْبِهُه إلاَّ أنه مُدْهانُّ الرأس. مُدْهانّ الرأس، أي: دَهِينُ الشَّعر، كالمُصْفارّ والمُحْمارّ، بمعنىٰ الأصفر والأحمر.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وفَدَ إليه عاملُه من اليمن وعليه حُلَّةٌ مُشَهَّرة، وهو مرجَّلٌ دهين، فلما رآه عمر علىٰ هذه الحالة قال له مستنكراً: هكذا بعثناك! فأمر بالحُلَّةِ فنُزِعت، وأُلبس جُبَّةَ صوف، ثم سأل عن ولايته فلم يُذْكر إلاَّ خيرٌ، فردَّه علىٰ عمله. ثم وفد إليه بعد ذلك، فإذا أشعثُ مغبرٌّ عليه أطلاس. فقال عمر: لا، ولا كلُّ هذا، إن عاملنا ليس بالشَّعِث ولا العافي. كلوا واشربوا وادَّهِنوا، إنكم ستعلمون الذي أكره من أمركم. قوله: «حُلَّة مشهّرَة» أي: فاخرةٌ موسومةٌ بالشُّهرة لحُسْنها. ومُرجَّل: رُجِّل شعرُه، أي: سُرِّح. ودهين، أي: دُهِنَ

رأسُه، فعيل بمعنىٰ مفعول، ويقال: ادَّهَن وتدَهَّن. وقوله: «عليه أطلاس» جمع طِلْس، وهو الثوبُ الخَلَق، فِعْل بمعنىٰ مفعول، مِن: طلَس الكتابَ وطلَّسه: إذا محاه ليُفْسدَ الخط، وقيل: هي الوَسِخةُ من الثياب، من الذئب الأطلس، وهو الذي في لونه غبرة. والعافي: الطويل الشَّعر، مِن عَفا وَبَرُ البعير: إذا طال ووَفُر. ورحم الله عمر، ما كان أعدلَه وأصدقه!

[د ي ن]

تدل مادة (دين) في العربية علىٰ أصل واحد، إليه يرجع فروعُه كلُّها، هو كما قال ابن فارس: جِنسٌ من الانقياد والذُّلّ، وقوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي: يوم الحساب، وقيل: الجزاء. ومنه قولُهم: كما تدين تدان، أي: كما تُجازي تُجازىٰ، أي: تُجازىٰ بفعلك وبحسَب ما عملت، ويقال: دانه دِيناً، أي: جازاه. وقوله تعالىٰ: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي: مَجْزِيُّون محاسَبُون. ومنه: الدَّيّان في صفة الله تعالىٰ، أي: المجازي والمحاسِب، وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: الحِسابُ الصحيح والعَدَدُ المستوْفَىٰ، لقوله تعالىٰ، في صدر الآية: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾.

وقال عز وجل في جزاء الذين يرمُون المحصَنات المؤمنات: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۞ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤ ــ ٢٥] ﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾، أي: جزاءَهم الواجب، أي: يوم تشهد عليهم جوارحُهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفوراً، فالمراد بالدِّين هنا الجزاءُ، والمراد بالحقِّ: الثابتُ الذي لا شكَّ في ثُبوته.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات:٦] يعني الجزاء الواقعَ يومَ القيامة. قال ابن عرفة نفطويه: الدينُ: الحُكْم، ومنه قيل للحاكم: ديّانٌ. وفي حديث بعض الصحابة: كان عليٌّ ديَّانَ هذه الأمة. قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالىٰ: «الديّان» قيـل: هو القَهَّار، وقيل: هو الحاكـم والقاضي، وهو فَعَّالٌ من دان الناس، أي: قهرهم علىٰ الطاعة، يقال: دِنتُّهم فدانوا، أي: قهرتهم فأطاعوا، ومنه شعر الأعشىٰ الحِرْمازيّ يخاطب النبيَّ ﷺ، يشكو إليه امرأته وقد هربت منه ناشزةً عليه:

يـا سيّـدَ النـاسِ ودَيّـانَ العـرَبْ ... إليكَ أشكو ذِرْبةً منَ الذِّرَبْ

والذِّرْبة: مِن ذَرَبِ اللسان، وهو الحِدَّة والسَّلاطة والقِحَة. وأنشد نفطويه لذي الإصبَع العَدْوانيّ:

لاهِ ابنُ عمِّكَ! لا أفضَلْتَ في حَسَبٍ ... عنّـي، ولا أنتَ دَيّانـي فتَخْـزُوَنـي

قال ابن السِّكّيت: أي: ولا أنت مالكٌ أمري فتسُوسَني.

قال نفطويه: وقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] أي: يوم الحساب، راجعٌ إلـىٰ معنـىٰ الحُكْم، وكذلك قولـه عـز وجل في شأن إقامة الحدِّ علىٰ الزاني والزانية: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور:٢] أي: في حُكمه الذي حَكَم به علىٰ الزانيَيْن.

وقوله تعالىٰ في قصة نبيِّه يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف:٧٦] ﴿ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، أي: في حُكمه، لأن سيرته كانت غيرَ ذلك، كانت سيرتُه تغريمَ السارق ضِعْفَيْ ما سرق، وقوله تعـالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا ﴾ أي: دَبَّرْنـا، قالـه ابـن قتيبة، وقال ابن الأنباري: أردنا. قال أهل التفسير: أي: ما كان يوسفُ ليأخذ أخاه (بنيامينَ) في دين الملك، أي ملك مصر، وفي شريعته التي كان عليها، بل كان دينُه، أي: حكمُه وقضاؤُه أن يُضرَبَ السارقُ ويغرَمَ ضِعْفَ ما سرَقَه، ولم يكن عقابُه الاستبعادَ والاسترقاقَ سَنةً

كما هو دينُ يعقوبَ عليه السلام وشريعتُه، لولا ما كاد الله ليوسف عليه السلام ودبَّره وأراده حتىٰ وجد السبيل إليه، وهو ما أجراه علىٰ ألسُن إخوته من قولهم: إن جزاء السارق الاسترقاق، وذلك ما حكاه عنهم قولُه تعالىٰ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ [يوسف:٧٥] فكان قولُهم هذا هو بمشيئه الله وتدبيره، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف:٧٦]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢] الدِّين هنا: الطاعةُ والإخلاص. وواصِباً، أي: دائماً، قال الدُّؤلي:

ولا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤُهُ　　بذمٍّ يكون الدهرَ أجمعَ واصبا

ومن الدين ـ الذي هو الطاعةُ ـ قوله عز وجل: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقوله عز من قائل: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] أي: لا يُطيعون الله طاعةَ حقّ. وقولُه تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] أي: التوحيد، أي: أن الدِّين الخالص من شوائب الشرك وغيرِه هو لله، وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص الذي أمر به. قال قتادة: الدين الخالص: شهادةُ أن لا إلٰه إلا الله. والدِّين: اسمٌ لجميع ما تعبَّدَ اللّهُ به خلْقَه، وهو راجع إلىٰ معنىٰ الانقياد والطاعة، يقال: دان له، أي: أطاعه. قال عمرو بن كلثوم:

وأيّـــامٍ لنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ　　عصَيْنا المَلْكَ فيها أن ندِينا

أي: نَخضعَ ونُطيع، ويقال: دان بكذا ديانة وتديَّن به، فهو ديِّنٌ ومُتَديِّنٌ.

ويقول عز من قائل مبيِّناً عجْزَ المكذِّبين المعاندين الذين لا يُقرُّون بالرُبوبيّة والعبودية: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ * تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦ ــ ٨٧] ﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾، أي: غير مملوكين ومدبَّرين ومربوبين، ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾، أي: ترْجعون النفْسَ التي قد بلغت الحلقوم. ويقال: دان السلطان رعيّته، أي: ساسهم واستعبدهم. قال الفراء: دِنْتُهُ: ملكتُه، وأنشد للحطيئة:

لقـد دُيِّنْـتَ أمـرَ بنيـكَ حتّـىٰ   تـركتَهُـمُ أدقَّ مـن الطَّحِيـنِ

يقول ربنا عز وجل، علىٰ لسان المشرك الذي كان يوسْوس للمؤمن في الدنيا، مشكِّكاً له في البعث والحساب، فيقول عز من قائل: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات: ٥٣] ﴿ لَمَدِينُونَ ﴾، أي: مَجْزيُّون بأعمالنا ومحاسَبُون بها بعد أن صِرْنا تراباً وعظاماً. وقيل: معنىٰ مدينون: مسُوسُون. يقال: دانه، إذا ساسه. قال أبو عبيد الهرويّ: وقولُ الفقهاء: يُدَيَّنُ، أي: يُقلَّد، أي: يُجْعَلُ ذلك إليه بغير بيِّنة، أي: يُلْزَمُ من ذلك ما يُلزِمُه نفسَه في دينه من الاستحلال والتورُّع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. قال أبو عبيد الهرويُّ: الدَّينُ: ما له أجل، والقَرْضُ: لا أجلَ له، وقد أَدنْتُ الرجُلَ وداينتُه: إذا بعتَ منه بأجل، وادَّنْتُ منه، أي: اشترْيـتَ بأجل مُسمَّـىٰ. وفي «الصحـاح»: دان فـلانٌ يدينُ دَيْناً، أي: استقرض وصار عليه دينٌ، فهو دائنٌ، وأنشد للعُجَيْر السَّلُوليّ:

ندينُ ويقضي اللّهُ عنا وقد نَرَىٰ   مصـارِعَ قـومٍ لا يَـدينُـون ضُيَّعـا

وفي حديث عمرَ رضي الله عنه، وقد طُلِب إليه أن يشهد علىٰ ما اشتراه قيسُ بن سعد من رجلٍ جُهني، فقال: لا أشهد، هذا يدين ولا مالَ له، إنما المالُ مالُ أبيه. معنًى يدين، أي: يأخذ الدين، يقال: دانَ الرجلُ وادَّان واستدان بمعنىً واحد، وهو أن يأخذ الدَّيْنَ، وأدان يُدينُ: إذا أعطىٰ غيره، فالمعطي مُدينٌ والآخذُ مُدانٌ. وفي حديث عمر أيضاً: ألا إن الأُسيفعَ أُسَيْفعَ جُهَيْنة قد رضِيَ من دِينه وأمانته بأن يقال له: سابِقُ الحاجِّ، أو قال: سبق الحاجَّ، فادَّان مُعْرِضاً، فأصبح قد رِينَ به، فمن كان له عليه دَيْنٌ فلْيَغْدُ بالغَداة فَلْنَقْسِمْ مالَه بينَهم بالحِصَص. قوله: «ادَّان» بمعنىٰ استدان كما سبق، وهو: افْتَعل، من الدَّيْن، كاقترض من القَرْض. وقوله: «ادَّان مُعْرِضاً» من قولهم: طأْ مُعْرِضاً، أي: ضع رِجلَك حيث وقَعَتْ ولا تتَّقِ شيئاً، ومنه قوله البَعيث:

فطَأْ مُعْرِضاً إن الحتوفَ كثيرةٌ   وإنك لا تُبْقي منَ المالِ باقياً

والمراد أنه استدان ممّن وجد، بأي وجهٍ أمكنه، ومن أي عُرْضٍ، أي: جانب وناحية، غيرَ مميِّز، ولا مبالٍ بالتَّبعة، وقوله: «فأصبح قد رِينَ به» أي: غُلِب وأحاط الدَّينُ بماله.

وأصل الرَّين: الطَّبْع والخَتْم. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وفي الحديث: «ثلاثةٌ حقٌّ علىٰ الله عونُهم»، منهم: «المِدْيانُ الذي يريد الأداء». المِدْيانُ: الكثيرُ الدَّين الذي علَتْه الدُّيون، وهو مِفْعالٌ من الدَّين للمُبالغة. وفي حديث مكحول: الدَّينُ بين يدَيْ الذهب والفِضَّة، والعُشر بين يدي الدَّيْن في الزرع والإبل والبقر والغنم. يعني أن الزكاة تُقدَّم علىٰ الدَّين، والدَّيْنَ يُقدَّمُ علىٰ الميراث.

ومن أحاديث مادة (دين) ما جاء في حديث أبي طالب، قال له ﷺ: «أريدُ من قريشٍ كلمةً تدِينُ لهم بها العربُ». أي تطيعهم وتخضعُ لهم. وفي الحديث: «الكيِّسُ من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبعَ نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله تعالىٰ». دان نفسَه: أي أذلَّها واستَعْبدها، وقيل: حاسبَها.

وجاء في بعض الأخبار: كان رسول الله ﷺ علىٰ دين قومه. قال الهرويُّ في «الغريبين»: ليس معناه أنه كان يُشركُ بالله عز وجل، هذا خطأٌ كبير، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] وحاشا له من هذه الصِّفة، وإنما المعنىٰ أنه كان علىٰ دين قومه، يعني ما كان بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل، في حَجِّهم ومناكِحهم وبيوعِهم وأساليبهم، سوىٰ التوحيد، فإنه لم يكن قطُّ إلاَّ عليه، وما نُنكر أن وفَّقه الله لذلك، وقد وَحَّده قُسُّ بنُ ساعدة الإياديّ وزيدُ بنُ عمرو، وورقةُ بنُ نوفل في الجاهلية الجهلاء. وقيل: إن معنىٰ «علىٰ دين قومه» يريد به أخلاقَهم في

الكَرَم والشجاعة وغيرهما.

وفي حديث دعاء السفر: «أستودعُ الله دينَك وأمانتَكَ» قال ابن الأثير: جعَل دينَه وأمانته من الودائع؛ لأن السفر تصيبُ الإنسانَ فيه المشقّةُ والخوفُ فيكونُ ذلك سبباً لإهمال بعض أمور الدِّين، فدعا له بالمعونة والتوفيق، وأما الأمانة هاهنا فيريدُ بها أهل الرجل ومالَه ومَن يُخْلِفُه عند سفرِه.

وجاء في حديث الخوارج: «يمرُقون من الدِّين مروقَ السهم من الرميّة» المراد بالدِّين هنا: الطاعة، أي: أنهم يخرجون من طاعة الإمام المفترَضِ الطاعة، وينسلخون منها. يريد أن دخولَهم في الإسلام ثم خروجَهم منه لم يتمسَّكوا منه بشيء، كالسَّهم الذي دخل في الرميّة ثم نفذ فيها وخرج منها ولم يعلَقْ به منها شيء. قال الخطابي: قد أجمع علماءُ المسلمين علىٰ أن الخوارج علىٰ ضلالتهم فرقةٌ من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتَهم، وأكْلَ ذبائحهم، وقبول شهادتهم، وسئل عنهم علي بن أبي طالب، فقيل: أكفارٌ هم؟ قال: من الكفر فرُّوا. قيل: أفمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله بكرةً وأصيلاً. فقيل: ماهم؟ قال: قومٌ أصابتهم فتنةٌ فعَمُوا وصَمُّوا.

نسأل الله أن يعصمنا من الفِتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

❋ ❋ ❋

﴿ ذ ﴾

[ذ ب ب]

يقول ربُّنا عز وجل في شأن المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣]. قوله تعالىٰ: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ ﴾ أي: متردِّدين، لا إلىٰ المسلمين ولا إلىٰ الكافرين. وقال ابن عرفة نفطويه: المُذَبْذَب المضطربُ الذي لا يَبْقىٰ علىٰ حالةٍ مستقيمة، يقال: تذبذب الشيءُ، إذا اضطرب، ومنه قيل لأسافل الثوب: ذَباذِب؛ لأنها تَنُوس، أي: تتحرّك وتتذبْذب، ومنه حديث جابر رضي الله عنه، قال: سرتُ مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ، فقام فصلَّىٰ وكانت عليَّ بُرْدةٌ فذهبتُ أُخالفُ بين طرفَيْها فلم تبلغ، وكانت لها ذَباذِبُ فنكسْتُها وخالفْتُ بين طرفيها، ثم تواقصْتُ عليها لئلاّ تسقط، فنهاني عن ذلك، وقال: «إن كان الثوب واسعاً فخالف بين طرفيه وإن كان ضيّقاً فاشدُدْه علىٰ حَقْوك».

قال الخطابي: ذباذِبُ الثوب: أهدابُه، وسُمِّيت ذباذب لتَذَبْذُبها، وهو أن تجيء وتذهب. قال أبو عمرو: أطرافُ الثياب يقال لها: الذَّعاليب، واحدُها ذُعْلُوب، وهي الذَّناذنُ أيضاً، واحدها ذِنْذِن. مثلُ ذِنْذِنِ الشجر سواء، وأسافلُ القميص يُقال لها: الذَّلاذل، واحدُها ذُلَذِلٌ. قال الشاعر:

إذا خـرجَ الفِتْيـانُ للغَـزْوِ شَمَّـرَتْ عن السَّاقِ يومَ الرَّوعِ منهُ ذَلاذِلُهْ

وقول جابر: «تواقَصْتُ عليها» أي: أمسكتُ عليها بعُنُقي لئلاً تسقط، وهو أن يَحْنيَ عليها عُنُقَه، كأنه يحكي خِلْقة الأوقص، وهو الذي قصُرَتْ عنقُه، كأنه رُدَّ في جـوف صدره. وفي الحديـث: «فكأني أنظـر إلىٰ يديـه تَذَبذبـان» أي: تتحـركان وتضطربان، يريد كُمَّيهْ.

وفي حديث سلمـان رضي الله عنه: أنه كان في سريّة وهو أميرُها علىٰ حِمار، وعليه سراويلُ وخَدَمتـاه تَذَبْذبان. والخَدَمة: سيـرٌ محكـم كالحَلْقة يُشَدُّ في رُسْغ البعيـر، ثم يُشَدُّ إلى سريحة النَّعـل، وهو السَّيْـرُ الذي يُخصَـفُ بـه النعـل. وفـي الحديث: «تزوّجْ وإلاّ فأنت من المُذَبْذَبين» قال نفطويه: معناه المطرَدين المنافقين، إذا مضى إلى المسلمين طرَدُوه، وإذا مضىٰ إلىٰ أهل الكفر طردوه، قال: وأصلُه من الـذَّبِّ، وهو الطرد، فكرَّروا فيـه البـاء، فقيل: ذُبْـذِب. وقـال ابن الأثير: أي: المطرودين عن المؤمنين، لأنك لم تقتدِ بهم، وعن الرُّهبان لأنك تركت طريقتهم.

وفي الحديـث: «من وُقِـيَ شرَّ ذَبْذَبِـه دخـل الجَنّـة». يعني الذَّكَـر، سُمِّي به لتَذَبْذُبه، أي: حركته. وأخرج الخطابيُّ بسنده إلىٰ الحسن قال: نظر ابنُ الخطاب إلىٰ شـاب، فقال: يا شابُّ، إن وُقيتَ شَرَّ لَقْلِقك وقَبْقبك وذَبْذَبك فقـد وُقيت شرَّ الشباب. قال الأصمعيُّ: فاللَّقلق: اللسان، والقَبْقب: البطن، والذَّبْذَب: الفرج.

وفي الحديث: أن وائلَ بن حُجْر قال: أتيت رسول الله ﷺ ولي شَعَرٌ طويل، فلما رآني قال: «ذُبابٌ ذُباب». قال: فرجعتُ فجزَزْتُه، ثم أتيتُه من الغَد فقال: «إني لم أعْنِك، وهذا أحسن». قال الخطابي: سمعت أبا عُمَر ــ يعني الزاهدَ ــ يقول: سمعت أبا العباس ثعلباً يقول في هذا الحديث: الذُّباب: الشُّؤْم، ويقال: رجلٌ ذُبابيٌّ، أي: مشؤوم، والذُّباب أيضاً: الشرّ، قال أوس بنُ حجر:

وليس بطـارقِ الجيـرانِ منّـي ذُبــابٌ لا يُنيـمُ ولا يَنــامُ

وجاء مثل هذا في حديث المغيرة بن شعبة الذي وصف فيه المرأة الواحدة التي لا يتزوج عليها زوجُها، قال في حديث طويل يذمُّها: «شرُّها ذُباب» أي: شرُّها دائمٌ مقيم.

وفي حديث أُحُد: لما قصّ النبيُّ ﷺ رؤياه التي رآها قبل الحرب علىٰ أصحابه، قال: «رأيت كأنَّ ذُبابَ سيفي كُسر، فأوَّلتُ ذلك أنه يُصاب رجلٌ من أهلي، فقُتل حمزةُ في ذلك اليوم». ذبابُ السيف: طرَفُه الذي يُضرَبُ به، من الذَّبِّ، وهو الدَّفْع، وذُبابا أذني الفرس: هما ما حُدَّ من أطرافِهما.

وفي الحديث: «عُمْرُ الذباب أربعون يوماً، والذُّباب في النار» قيل: كونُه في النار ليس بعذابٍ له، ولكن ليُعذَّبَ به أهل النار بوقوعه عليهم، ويؤيّد ذلك ما جاء في الحديث الآخر: «كل مؤذٍ في النار» قال الخطابي: يُتأوَّلُ علىٰ وجهين: أحدهما: أنّ من آذىٰ الناس في الدنيا آذاه الله وعاقبه في النار. والقولُ الآخر بلغني عن أبي عبد الله نفطويه، قال: معناه أن كلَّ شيءٍ ممّا يتأذىٰ به الناسُ في الدنيا من السِّباع العادية والهوامِّ القاتلة والأشياء الضارَّة المؤذية قد جعله الله في النار وأعدَّه عقوبةً لأهلها، وعلىٰ نحو هذا يُتأوّلُ قولهُ ﷺ: «الذُّبابُ في النار»: يريد أنها تكون في النار عقوبةً لأهلها، لا أنَّ كونها في النار عقوبةٌ لها.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: كتب إلىٰ عامله بالطائف في خلايا العسل وحمايتها: إن أدَّىٰ ما كان يؤدِّيه إلىٰ رسول الله ﷺ من عشور نحله فاحْمِ له، فإنما هو ذبابُ غيث يأكلُه من شاء. قال ابن الأثير: يريد بالذباب النحل، وإضافتُه إلىٰ الغيث علىٰ معنىٰ أنه يكون مع المطر حيث كان، ولأنه يعيش بأكل ما يُنبته الغيث، ومعنىٰ حماية الوادي له أن النحل إنما يرعىٰ أنوار النبات وما رَخُصَ منها ونَعُم، فإذا حُمِيت مراعيها أقامت فيها ورعَتْ وعسَّلتْ فكثُرت منافعُ أصحابها، وإذا لم تُحْمَ مراعيها احتاجت إلىٰ أن تُبعدَ في طلب المرعىٰ فيكونَ رعيُها أقلَّ. وقيل: معناه أن يحميَ لهم الوادي الذي تُعَسِّل فيه، فلا يُتركُ أحدٌ يعرِضُ للعسل، لأن سبيل العسل

المباح سبيل المياه والمعادن، وإنما يملِكه من سَبَق إليه، فإذا حماه ومنع الناسَ منه وانفرد به، وجب عليه إخراج العُشر منه، عند من أوجب فيه الزكاة.

[ذ ب ح]

يقول ربنا عز وجل في قصة فِداء إسماعيل - وقيل إسحاق - عليهما السلام: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٧] الذِّبْـح بكسر البـاء: المَـذْبوح، فِعْل بمعنىٰ مفعول، كالطِّحن بمعنىٰ المطحون، والذَّبْح بفتح الذال: المصدر، ومعنىٰ «عظيم» عظيمُ القَدْر، ولم يُردْ عِظمَ الجُثَّة، وإنما عِظمَ قدره؛ لأنه فُدِيَ به الذَّبيح، أو لأنه مُتَقبَّل. ومنه ما جَاء في حديث الضحيّة: «فدعا بذِبْحٍ فذبحه» قال ابن الأثير: الذِّبْح بالكسر: ما يُذْبح من الأضاحيِّ وغيرها من الحيوان، وبالفتح: الفِعلُ نفسُه.

وفي حديث أم زرع: وأعطاني من كلِّ ذابحةٍ زَوْجاً، أي: أعطاني من كلِّ ما يجـوز ذبحُه من الإبل والبقـر والغنـم وغيرها زوجاً، وهي فاعلة بمعنىٰ مفعولة. وهكذا جاء في رواية، والرواية المشهورة: أعطاني من كلِّ رائحةٍ زوجاً، وهي ما يروح من المواشي إلىٰ الرَّعي.

وفي الحديث: «كلُّ شيء في البحر مذبوح» أي: ذكيٌّ لا يحتاجُ إلىٰ الذَّبح. وفي الحديث: أن النبي ﷺ نهىٰ عن ذبائح الجنّ. من معتقدات الجاهلية الباطلة أنهم كانوا إذا اشترَوْا داراً أو استخرجوا عين ماء، أو بَنَوْا بنياناً، ذبحوا ذبيحة مخافةَ أن تصيبَهمُ الجنُّ، فأضيفـت الذبائـحُ إليهم لذلك. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: ومعناه أنهم يتطيّرون إلىٰ هذا الفعل مخافةَ أنهم إن لمْ يذبَحوا ويُطعموا أن يُصيبَهم فيها شيءٌ من الجِنّ يؤذيهم، فأبطل النبيُّ عليه السلامُ ذلك ونهىٰ عنه.

ويدخل هذا في عموم التحريم في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. قال أهلُ التفسير: المراد هنا ما ذُكر عليه اسمُ غير الله كاللاّت والعُزّىٰ، إذا كان الذابحُ وثنيّاً، والنارِ إذا كان الذابحُ مجوسيّاً، ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله، ومثلُه ما يقع من المعتقِدين للأموات من الذّبح علىٰ قبورهم، فإنه مما أُهِلَّ به لغير الله، ولا فرق بينه وبين الذّبْح للوثن.

وفي الحديث: «من وُلِّي قاضياً فقد ذُبح بغير سكِّين» ورُوي: «من جُعل قاضياً بين الناس فقد ذُبح بغير سكين». قال ابن الأثير: معناه التحذيرُ من طلب القضاء والحرص عليه، أي: من تصدَّىٰ للقضاء وتولاَّه فقد تعرَّض للذبح فلْيحذَرْه، والذَّبْحُ هاهنا مجازٌ عن الهلاك، فإنه مِن أسرع أسبابه، وقوله: «بغير سكِّين» يحتمل وجهين: أحدهما أن الذَّبْحَ في العُرْفِ إنما يكون بالسكِّين، فعَدَل عنه ليُعلم أن الذي أراد به ما يُخافُ عليه من هلاكِ دينه دون هلاك بدنه، والثاني أن الذَّبْح الذي يقع به راحةُ الذبيحة وخلاصُها من الألم إنما يكون بالسكِّين، فإذا ذُبح بغير السكّين كان ذبْحُه تعذيباً له، فضَرَب به المثل ليكون أبلغَ في الحذر، وأشدَّ في التوقِّي منه، وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «ذبْحُ الخمرِ المِلْحُ والشمس والنِّينان». النينان: جمعُ نُونٍ، وهي السمكة. قال الحافظ أبو موسىٰ المَدينيّ الأصبهاني: هذا مُرِّيٌّ ــ أي: إدام ــ يُعمل بالشام، تؤخذُ الخمرُ فيُجعَلُ فيها المِلْحُ والسَّمَكُ، وتوضَعُ في الشمس فتتغيَّرُ عن طعم الخمر، إلىٰ طعم المُرِّيّ، فتستحيل عن هيئتها كما تستحيل إلىٰ الخَلِّيَّة. يقول: كما أن الميتة حرام، والمذكَّاة حلال، فكذلك هذه الأشياءُ ذكّت الخمرَ وذبحَتْها فحلَّتْ بها، ولولاها كانت حراماً. وأصل الذَّبح الشقّ، ومنه ذَبْحُ الشاة، لأنه شقُّ الأوداج، ثم يُستعملُ في الغلبة والإهلاك ويستعار للإحلال بعد التحريم.

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ عاد البراءَ بن مَعْرور رضي الله عنه، وأخذَتْه الذُّبْحَة، فأمر مَنْ لَعَطه بالنار». الذُّبْحةُ والذُّبَحَةُ والذُّبَاح: وجَعٌ يعرضُ في الحلق من الدم، وقيل: هي قَرْحةٌ تظهرُ فيه فينسدُّ معها وينقطع النَّفَسُ فتَقْتُل. وروىٰ أبو حاتم عن أبي

زيد أنه لم يعرف «الذُّبْحة» بإسكان الباء. وقوله: «فأمر مَن لعطه» من اللَّعْط، وهو الكيُّ بالنار في عُرْض العُنُق، من الشاة اللعطاء. وهي التي بعُرْض عنُقها سواد، ومن ذلك قولهم: لعطه بأبيات: إذا وسَمَه بهجاء. ومنه الحديث: أنه كوىٰ أسعَدَ بنَ زُرارة في حَلْقه من الذُّبْحة، ورُوي: «في أكحله»، والأكحل: عِرقٌ في وسَطِ الذِّراع كثُر فصدُه. وجاء في حديث كعب بن مُرَّةَ وشعره:

إنـي لأَحسَـبُ قـولَـه وفِعـالَـهُ　　　يوماً وإن طال الزمانُ ذُباحا

قال ابن الأثير: هكذا جاء في رواية، والذُّباح: القتل، وهو أيضاً نبتٌ يقتل آكلَه، والمشهور في الرواية: رياحاً.

وفي حديث مروان: أنه أُتِيَ برجُلٍ ارتـدَّ عن الإسـلام، فقال كعب: أدخلوه المَذْبَـح وضَعُوا التوراة وحَلِّفـوه بالله. المذبـح: واحد المذابـح، قـال شَمِر: هي المقاصيـر، ويقال: هي المحاريبُ ونحوها، قال: وذَبَّح الرجلُ ودَبَّـح: إذا طأطأ رأسَه للركوع. ومنه الحديث: أنه نَهَىٰ عن التذبيح في الصلاة، هكذا جاء في روايةٍ: بالذال المعجمة، والمشهورة: التدبيح بالدال المهملة. يقال: دَبَّح الرجل: إذا طأطأ رأسَه في الركوع حتىٰ يكون أخفضَ من ظهره، ودَبَّح ظهرَه: إذا ثناه فارتفع وسَطـه كأنه سنام، قال أبو منصـور الأزهريّ: رواه الليث بالذال المعجمة، وهو تصحيف، والصحيح بالمهملة.

[ذ ر أ]

يقـول ربنا عز وجـل مبيِّناً قدرتـه في خلـق السمـاوات والأرض، وتـكثيـر النَّسْـل في الإنسان والأنعام، فيقول عز من قائل: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. قوله تعالىٰ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يكثِّركم بالتزويج؛ لأن ذلك سببُ النَّسل. وقال ابن قتيبة: يذرؤكم فيه، أي: في الزوج، وقيل: في البطن، وقيل: في الرَّحِم. وقيل: يخلقُكم فيه، أي في ذلك الخلق علىٰ هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً، خَلْقاً بعد خَلْق، وجيلاً بعد جيل، ونَسْلاً بعد نَسْل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنىٰ الباء، أي: يذرؤكم به. قال الشاعر:

وأرغَبُ فيها عن لقيطٍ ورَهْطِهِ ... ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أرغبُ

يريد: أرغب بها عن لقيط.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: خلقْنا وجعلْنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، قال ابن كثير: أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالىٰ لمّا أراد أن يخلقَ الخلقَ علِم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلُق السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ كما ورد في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدَّر مقاديرَ الخَلْق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء». وفي «صحيح مسلم» أيضاً من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: دُعي النبيُّ ﷺ إلىٰ جنازة صبيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبَىٰ له، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمَلِ السوءَ ولم يدركْه. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَغيرُ ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النارَ وخلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»

وجاء في حديث الدعاء: «أعوذ بكلمات الله التامّات من شرِّ كلِّ ما خلق وذرَأ وبَـرَأ». يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهـم ذرءاً، أي: خلقهـم. قال الجوهريّ: ومنه الذريّة، وهي نَسْلُ الثقلَيْن، إلا أن العرب تركت همزَها، والجمع: الذَّراريّ.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه كتب إلىٰ خالد بن الوليد: بلغني أنك دخلت الحمّامَ بالشام، وأن مَن بها من الأعاجم أعَدُّوا لك دَلُوكاً عُجِن بخمر، وإني أظنكم آلَ المغيرةِ ذَرْءَ النار. الدَّلُوك: ما تدلِكُ به جسدك من طيبٍ وغيره. وقوله: «ذَرْءَ النار». قال ابن الأثير: يعني خَلْقَها الذين خُلِقُوا لها، ويُرْوىٰ: ذَرْوَ النار، بالواو، أراد الذين يُفرَّقون فيها، مِن: ذَرَت الريحُ التُّراب: إذا فرَّقته. وقال الزمخشري: الذَّرْء أصلُه مِن: ذَرأ الأرضَ، إذا بَذَرها وذَرَأَ فيها وزرع فيها الحب، ألقاه فيها، وزَرْعٌ ذريء، قال عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

شققْتِ القلبَ ثم ذرأْتُ فيهِ هواكِ فَلِيمَ فالتام الفُطورُ

فهذا أصل الذَّرْء، ثم استعير للخَلْق.

[ذ ر و]

قال عز من قائل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]. قوله تعالىٰ: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تسفيه وتفرِّقه، يقال: ذرَتْه الريحُ تَذْرُوه وتَذْريه، ومن قال: أذرَتْه الريحُ فمعناه ألقَتْه، يقال: أذريتُه عن ظهر فرسه، إذا ألقيتَه، وقيل: ذَرَتْ وأذْرَتْ، لغتان. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١] الذاريات: الرياح، أقسم سبحانه بالرياح التي تَذْري التراب. وقيل: أراد: وربِّ الذاريات.

وفي الحديث: «إن الله خلق في الجنة ريحاً من دونها بابٌ مغلَق، لو فُتح ذلك البابُ لأذْرَتْ ما بين السماء والأرض» وفي رواية: «لَذَرَتِ الدنيا وما فيها». يقال: ذرَتْه الريحُ وأذرَتْه تَذْرُوه وتُذْريه: إذا أطارتْه، ومنه تذريةُ الطعام. ومنه حديث عليٍّ رضي الله عنه يصف مُدَّعيَ العِلم: يذرو الروايةَ ذَرْوَ الريح الهشيم، أي: يسرُدُ رواية

الحديث بسُرعة كما تنسِفُ الريح هشيم النَّبْت.

وجاء في حديثِ أوّل الثلاثة الذين يدخلون النار: «منهم ذو ذَرْوةٍ من المال، لا يُعطي حقَّ الله من مالِه». ذو ذَرْوة، أي: ذو ثَرْوة وهي الجِدَةُ والمال، وقد أُبدلت الذالُ من الثاء لاشتراكهما في المخرج، وقيل: هو من الذِّروة، لما في الثروة من معنىٰ العلوّ والزيادة. وفي حديث أبي موسىٰ: أُتِي رسولُ الله ﷺ بإبلٍ غُرِّ الذُّرَىٰ، أي: بيض الأسنمة سِمانِها، والذُّرىٰ: جمع ذِرْوة، وهي أعلىٰ سنام البعير، وذِرْوةُ كلِّ شيءٍ أعلاه.

وفي حديث الزبير بن العوام: أنه سأل عائشة الخروجَ إلىٰ البصرة فأبتْ عليه، فما زال يفتِلُ في الذِّروة والغارب حتىٰ أجابَتْه جَعَل فَتْلَ ذروة البعير وغاربه مَثَلاً لإزالتها عن رأيها، كما يُفعَلُ بالجمل النَّفُور إذا أريدَ تأنيسُه وإزالةُ نفارِه. وفي حديث سليمان بن صُرَد أنه غاب عن عليٍّ رضي الله عنه، فبلغه عنه قول، فقال: بلغني عن أمير المؤمنين ذَرْوٌ من قول تشذَّرَ لي به، من شتْمٍ وإيعاد، فسِرْتُ إليه جَواداً. الذَّرْوُ من الحديث: ما ارتفع إليك، وترامىٰ من حواشيه وأطرافه، من ذرا الشيءُ وذروته أنا: إذا طيَّرْتَه. قال صخر بن حبناء:

أتاني عن مغيرةَ ذَرْوُ قولٍ وعن عيسىٰ، فقلتُ له كذاكا

والتشذُّر: التوعُّدُ والتغضُّب.

[ذ ك ر]

يقول ربنا عز وجل مخاطباً خاتم أنبيائه ﷺ، مقويّاً له ومسدِّداً: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] أي: لا يكن في صدرك ضيقٌ منه من إبلاغه للناس، مخافةَ أن يكذِّبوك ويؤذوك، فإن الله حافظُك

وناصِـرُك، أو: لا يضِقْ صدرُك حيث لم يؤمنـوا به ولـم يستجيبـوا لك. وقوله: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. الذكرىٰ: اسمٌ يقوم مقام التذكير، كما تقول: اتقيتُ تقوىٰ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٤٣] أي: وعِبْرةً لهم.

ويقـول عـز مـن قائـل: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص:٤٦] قرىء: ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ بالتنوين وعدم الإضافة. وقرىء: ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بإضافة خالصـة إلىٰ ذكـرىٰ. قال الواحـدي: مـن قرأ بالتنويـن في «خالصة» كان المعنـىٰ: جعلناهم لنا خالصين، بأن خَلُصَتْ لهم ذِكرىٰ الـدار. والخالصةُ مصدر بمعنىٰ الخلوص، والذكرىٰ بمعنىٰ التذكّر، أي: خَلُص لهم تذكُّرُ الدار، وهو أنهم يذكرون التأهُّب لها ويزهدون في الدنيا، وذلك من شأن الأنبياء. وأما من أضاف، فالمعنىٰ: أخلصنا لهم، بأن خلُصَت لهم ذكرىٰ الدار، فالخالصة مصدر مضاف إلىٰ الفاعل، والذكرىٰ علىٰ هذا المعنىٰ: الذِّكر، أي: التذكرة والعبرة. وقد لخَّص هذا أبو عبيـد الهرويُّ فقال: وقوله: ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ أي: يُذكَّـرُون بالـدار الآخـرة، ويُزَهَّدون بالدنيا، ويجوز أن يكون أنهم يُكثرُون ذِكْرَ الآخرة.

وقال عز من قائل في وعيد شديد للكفار: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٨] يقول: فكيف لهم إذا جاءتهم الساعةُ بذكراهم؟ أي: أنّىٰ لهم التذكّرُ إذا جاءتهم الساعةُ؟ كقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر:٢٣]. وقـولـه: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي: أمـاراتُها وعلاماتُها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن النبي ﷺ آخر الأنبياء، فبِعْثتُه من علامات القيامة.

وقال تعـالىٰ ذكرُه ممتنـاً علىٰ عبـاده بأعظم النِّعَم وأبقاها، وهو إنزالُ القرآن الكريم، فيقول عز وجل: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾، أي: فيه شرفكم وما تُذكَرُون به. كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤]. وقيل: فيه ذكرُكم، أي: ذِكرُ أمر دينكم،

وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثوابٍ أو عقاب. وقيل: فيه حديثكم، وقيل: مكارمُ أخلاقِكم ومحاسنُ أعمالِكم، وقيل: فيه العملُ بما فيه حياتُكم.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]. قيل: المراد بالذِّكر هنا القرآن، أي: أتيناهم بالكتاب الذي هو فخرُهم وشَرَفُهم. والمعنىٰ: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يَقبلوه ويُقْبِلُوا عليه. وقال قتادة: المعنىٰ: بذكرهم الذي ذُكر فيه ثوابُهم وعقابُهم، وقيل: المعنىٰ بذكر ما لهم به حاجةٌ من أمر الدين. وقيل: الذِّكْر: هو الوعظ والتحذير. وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] أي: والقرآنِ المشتملِ علىٰ ما فيه ذِكرٌ للعباد ونَفْعٌ لهم في المعاش والمعاد، [و] قال الضحَّاك في قوله تعالىٰ: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيرُكم، وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما وسعيدُ بن جبير وجماعة: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة، قال ابن كثير: ولا منافاةَ بين القولين، فإنه كتابٌ شريف مشتملٌ علىٰ التذكير والإعذار والإنذار.

وقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] قال أهل التفسير: لما كان كفَّارُ مكة مقرِّين بأن اليهود والنصارىٰ هم أهلُ العلم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، صَرَف الخِطابَ إليهم وأمرهم أن يَرْجعوا إلىٰ أهل الكتاب، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فاسألوا أيها المشركون مؤمني أهل الكتاب إن كنتم لا تعملون، فإنهم سيخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً، أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده الظاهرُ، فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه. وقيل: المعنىٰ فاسألوا أهل القرآن. وقال أبو عبيد الهروي: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: مَن آمن من أهل الكتاب، وقيل: أراد كلَّ من يُذكرُ بعِلم، وافق هذه الملَّة، أو خالفَهم، والدليلُ

علىٰ أن أهلَ الذِّكر أهلُ الكتاب قولُه تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فالذكر هو القرآن، وقد جاءت هذه الآية تالية لقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾. وقولُه تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. فالذِّكر هو القرآن. قال أبو إسحاق الزجاج: المعنىٰ: وهذا القرآنُ ذكرٌ لمن تذكر به وموعظةٌ لمن اتعظ به، والمبارك: كثيرُ البركة والخير. وقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: كيف تنكرون كونه منزَّلاً من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزَّلةٌ من عنده؟

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]. ﴿ذِكْرًا﴾، أي: تذكُّراً، وقيل: جِدّاً وورَعاً. وقوله تعالىٰ حاكياً قول المشركين، إذ كانوا قبل المبعث المحمّديّ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨ ـ ١٦٩] أي: لو جاءنا ذكرٌ كما جاء غيرَنا من الأوَّلين! أي: كتابٌ من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل.

يقول ربنا عز وجلّ معدِّداً مظاهرَ الحياة والأحياء التي تفرَّد بإيجادها وخلقها دون مُعينٍ أو شريك، فيقول تقدَّست أسماؤه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١ ــ ٧٣] ﴿تُورُونَ﴾، أي: تستخرجونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب. وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: جعلنا هذه النار التي في الدنيا مُذكِّرةً بنار جهنَّمَ الكبرىٰ. وقال عطاء: موعظةً ليتّعظَ بها المؤمن. وقال مجاهد وقتادة: تبصرةً للناس في الظلام. وقوله: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: منفعةً للذين ينزلون بالقِواء، وهي الأرضُ القفر، كالمسافرين وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة.

ويقول عز وجل: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]. قوله: ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيبُها. قال أبو إسحاق الزجاج: يقال: فلانٌ يذكرُ

الناسَ، أي: يغتابُهم، ويذكُرُهم بالعيوب، وفلانٌ يذكرُ الله، أي: يصفه بالتعظيم ويُثني عليه، وإنما يُحذف مع الذكر ما عُقِل معناه، وعلىٰ ما قالوا لا يكون الذكرُ في كلام العرب العيبَ، وحيث يُرادُ به العيبُ يُحذف منه السُّوء. قيل: ومن هذا قول عنترة:

لا تـذكـري مُهْـرِي ومـا أطعمتُـهُ فيكونَ جلدُكِ مثلَ جلدِ الأجربِ

أي: لا تَعيبي مُهْرِي. ومن ذلك أيضاً قوله تعالىٰ علىٰ لسان قوم إبراهيم عليه السلام بعد أن كسَّر أصنامهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقال تعالىٰ مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: اقرءوا ما فيه واحفظوه وادرسوه، واعملوا بما فيه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١]. أي: احفظوها ولا تضيِّعُوا شكرها، كما يقول العربي لصاحبه: اذكر حقي عليك، أي: احفظْه ولا تضيِّعْه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ قال الزجاج: يُظهر التوبة ومن أين له التوبة؟ وقيل: معناه يتّعظ ويذكرُ ما فَرَط منه ويندمُ علىٰ ما قدَّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

وجاء في الحديث: «القرآن ذَكَرٌ فذكِّروه» أي: جليلٌ خطيرٌ فأجلّوه، ونحوه: «القرآن فخمٌ ففخِّموه». وفي الحديث: «الرجلُ يقاتلُ للذكر، ويقاتلُ ليُحمد» أي: ليُذكرَ بين الناس ويوصَفَ بالشجاعة. والذكر: الشَّرَفُ والفخر، ومنه الحديثُ في صفة القرآن: «وهو الذِّكْرُ الحكيم» أي: الشَّرفُ المحكَمُ العاري من الاختلاف. وجاء في حديث عائشة: ثم جلسوا عند المَذْكَر حتىٰ بدا حاجبُ الشمس. المَذْكَرُ: موضعُ الذّكُر، كأنها أرادت عند الركن الأسود أو الحِجْر، قال ابن الأثير: وقد تكرَّر ذِكرُ: «الذكر» في الحديث، ويُرادُ به تمجيدُ الله تعالىٰ وتقديسه وتسبيحُه وتهليلُه، والثناء عليه بجميع محامده.

وفي حديث علي: إن علياً يذكرُ فاطمةَ» أي: يخطبُها، وقيل: يتعرَّضُ لخِطبتها. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ سمع عمر رضي الله عنه يحلف بأبيه، فنهاه عن ذلك، قال: فما حلفْتُ بها ذاكراً ولا آثِراً. قال أبو عبيد: أمّا قوله: ذاكراً، فليس من الذكر بعد النسيان، إنما أراد متكلِّماً به، كقولك: ذكرتُ لفلان حديث كذا وكذا. وقوله: «ولا آثِراً» يريد ولا مخبراً عن غيري أنه حلف به، يقول: لا أقول: إن فلاناً قال: وأبي لا أفعل كذا وكذا. ومن هذا قيل: حديثٌ مأثور، أي يخبِرُ به الناسُ بعضُهم بعضاً.

وفي الحديث: «إذا غلب ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا» أي: ولَدَا ذكراً، وفي رواية: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكَرَتْ بإذن الله» أي: ولدته ذكراً. قال الخطابيُّ: يقال: أذكرت المرأةُ: إذا جاءت بولدٍ ذكر، فهي مُذْكِر، فإذا كانت من عادتها أن تلد الرجال قيل: مِذْكار، وكذلك: آنثت المرأةُ فهي مؤنث، إذا جاءت بأنثىٰ، فإذا كان ذلك من عادتها قيل: مِئناث، وكذلك: أتأمتْ فهي مُتْئِم، فإذا كان ذلك من عادتها قيل: مِتْآم. قال ذو الرُّمَّة:

أبونا إياسٌ قدَّنا من أديمِهِ ... لوالدةٍ تُذْهي البنينَ وتُذْكِرُ

أي: تأتي بهم ذكوراً دهاةً، ومن هذا قولُ الزهريِّ: الحديثُ ذكَرٌ ولا يحبُّه إلاَّ ذكورُ الرجال.

قال الخطابيّ: فأما قوله تعالىٰ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقد قرىء بالتخفيف والتثقيل، ومعنىٰ أحدِهما غيرُ معنىٰ الآخر، ثم روىٰ بسنده إلىٰ أبي عمرو بن العلاء قال: من قرأ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بالتشديد فهو من طريق التذكير بعدَ النسيان، تقول لها: تذكُرين يومَ شهِدْنا في موضع كذا وبحَضْرتنا فلانٌ أو فلانة، حتىٰ تذكر الشهادة. ومن قرأ: ﴿فَتُذْكِرَ﴾. قال: إذا شهِدَتِ المرأةُ ثم جاءت الأخرىٰ فشهدت معها أذكرَتْها؛ لأنهما يقومان مقامَ رجل.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أنه ﷺ كان يتطيّبُ بذِكارَة الطيب. الذِّكارة ـبالكسرـ: ما يصلُح للرجال، كما في الحديث الآخر: «طيبُ الرجال ما ظهر ريحُه وخفِيَ لونُه» كالمِسْك والعنبر والعود، والذِّكارة: جمع ذكَرَ، والذُّكورةُ مثلُه، ومنه الحديث: كانوا يكرهون المؤنَّثَ من الطيب ولا يَروْن بذكُورته بأساً. قال ابن الأثير: هو ما لا لون له ينفُض، كالعود والكافور والعنبر. والمؤنَّثُ: طِيبُ النساء، كالخَلُوق والزعفران.

[ذ ك و]

يقول ربنا عز وجل في سياق ما حُرِّم أكلُه: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٣] قال أبو عبيد الهرويُّ: معنىٰ التذكية أن يدركها وفيها بقيةٌ من الحياة، تشْخَبُ معها الأوداج، وتضطرب اضطراب المذبوح، وأصل الذكاء تمامُ السِّنّ وبلوغُ كلِّ شيءٍ منتهـاه، وذكَّيتُ النار: إذا أتممـت إشعالها، وقال الشوكاني: التذكيةُ في الشرع: عبارةٌ عن إنهار الدم، وفَرْي الأوداج في المذبوح، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور مقروناً بالقصد لله وذكر اسمه عليه.

وهذه المادة (ذكا) تدلُّ علىٰ أصل واحدٍ مطـردٍ منقـاس، هو حِدَّةٌ في الشيء ونفاذ، ويقال للشمس: ذُكاء؛ لأنها تذكو كما تذكو النار، ويقال للصُّبح: ابنُ ذكاء؛ لأنه من ضوئها، وذكَّيتُ الذبيحة أُذكّيها، وذكَّيتُ النار أذكّيها، وذكوْتُها أذكُوها، والذكاء: ذكاء القَلْب، قال زهيرُ بن أبي سُلْمَىٰ:

يفضِّلُـهُ إذا اجتهـدا عليـهِ تمامُ السِّنِّ منهُ والذَّكاءُ

وقال الحجاج في خطبته الشهيرة: لقد فُرِرْتُ عن ذَكاء. قال الحافظ أبو موسىٰ المَديني: الذكاء: الانتهاءُ في السّنِّ، أي: أُصِبْتُ ووُجدتُ تامَّ السّنّ، وفي حديث

ذكر النار: «أن رجلاً يمُرُّ علىٰ جسر جهنم فيقول: يا رب، قَشَبَنِي ريحُها وأحرقني ذَكاؤها». الذَّكاء: شدّةُ وهج النار، يقال: ذكّيْتُ النارَ، إذا أتممْتَ إشعالها ورفعْتَها، وذكت النارُ تذكو ذَكاً، أي: اشتعلت. وقوله: «قشبني ريحُها» أي: أصابني بما يُكرَه ويُسْتقذَرُ من القَشْب، وهو القَذَر، قال النابغة:

فبتُّ كأنَّ العائدات فرَشْنَني هَراساً بهِ يُعْلَىٰ فِراشي ويُقْشَبُ

وفي الحديث: «ذكاةُ الجنين ذكاةُ أمه» هكذا رواه أحمد وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه، عن أبي سعيد مرفوعاً، ورواه الحاكم عن ابن عمر بلفظ: «ذكاةُ الجنين إذا أُشْعِرَ ذكاةُ أمه، ولكنه يذبح حتىٰ ينصابَ ما فيه من الدم». قال ابن الأثير: التذكية: الذَّبح والنحر، يقال: ذكّيتُ الشاة تذكيةً، والاسم الذَّكاة، والمذبوح ذكِيٌّ. ويروىٰ هذا الحديث بالرفع والنصب، فمن رفعه جعله خبرَ المبتدأ الذي هو ذكاةُ الجنين، فتكون ذكاة الأمِّ هي ذكاة الجنين، فلا يحتاجُ إلىٰ ذبح مستأنَف، ومن نصب كان التقدير ــ أي ذكاةَ الجنين ذكاةَ أمّه ــ كان التقدير: ذكاةُ الجنين كذكاةِ أُمّه، فلما حُذِف الجارُّ نُصِب، أو علىٰ تقدير: يُذَكَّىٰ تذكِيةً مثلَ ذكاة أمِّه، فحَذَف المصدر وصِفتَه وأقام المضاف إليه مُقامه، فلا بُدَّ عنده من ذبح الجنين إذا خرج حيّاً، ومنهم من يرويه بنصب الذكاتين ــ أي: ذكاةَ الجنين ذكاةَ أمّه ــ فتقديره: ذكُّوا الجنين ذكاةَ أُمِّه.

وقد ذكر القاضي العجلوني في «كشف الخفا» هذين الوجهين، ثم قال: فعلىٰ النصب يفيد أنه لا بُدَّ من ذكاة الجنين، وهو مذهبُ كثيرين من الحنفية، وأما علىٰ الرفع فيفيد أن ذكاةَ أمّه كافيةٌ عن ذكاته، وهو مذهبُ الشافعيّ فاعرفْه.

وجاء في حديث الصيد: «كُلْ ما أمسكَتْ عليك كلابُك ذكيٌّ وغير ذكيّ» قال ابن الأثير: أراد بالذكيّ ما أمسك عليه فأدركه قبل زُهوق رُوحِه فذكّاه في الحلق أو اللَّبَّة، وأراد بغير الذَّكيّ ما زَهِقَتْ نفسُه قبل أن يُدركه فيُذكِّيَه ممَّا جرحه الكلبُ بسِنِّه أو ظُفْرِه.

وفي حديث محمد بن الحنفية رضي الله عنه: ذكاةُ الأرض يُبْسُها. قال أبو عبيد الهرويُّ: يريد طهارتَها من النجاسة، والذكاةُ هي الحياة، من ذكَتِ النارُ، إذا حَيِيَتْ واشتعلت، فكأن الأرض إذا نجِسَتْ كانت بمنزلة المَيْتة، فإذا جَفَّتْ ذكَتْ، أي حَيِيتْ. قال: سمعتُ بعضَهم يقول: الذكاة في الذبيحة تطهيرٌ لها وإباحةٌ لأكلها، فجَعَل يُبْسَ الأرض بعد النجاسة ــ تطهيراً لها وإباحةً للصلاة فيها ــ بمنزلة الذكاة للذبيحة، وهو قولُ أهل العراق، وقال ابن الأثير: جعل يُبْسَها من النجاسة الرطبة في التطهير بمنزلة تذكية الشاة في الإحلال؛ لأن الذبح يُطهِّرها ويُحِلُّ أكلها.

وهذا الأثر ذكره الحافظ السخاويّ في «المقاصد الحسنة»، وقال: احتجَّ به الحنفيّة ولا أصلَ له في المرفوع. نعم، ذكره ابن أبي شيبة موقوفاً، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر، وعن ابن الحنفية وأبي قِلابة، قال: «إذا جَفَّت الأرضُ فقد ذَكِيَتْ» وقولُ ابن الحنفية عند ابن جرير في «تهذيبه» أيضاً، وقول أبي قلابة رواه عبدُ الرزاق أيضاً بلفظ: «جُفوفُ الأرض طُهورُها». ويعارضُه حديثُ أنس في الأمر بصبّ الماء علىٰ بول الأعرابي، بل ورد فيه الحَفْرُ من طريقين مسندين وطريقين مرسلين، وكلُّها في الدارقطنيّ مع بيان عللها.

وحكى هذا القاضي العجلوني في «كشف الخفا»، ثم زاد وقال في اللآلي: لا أصلَ له، وإنما هو قولُ محمد بن الحنفية، ورُوي عن عائشة مرفوعاً وموقوفاً، وجعله في «الهداية» مرفوعاً. قال الحافظ ابن حجر: لم أرَه، وقال القاري ما حاصله أن موقوفَ الصحابة حجّةٌ عندنا، وكذا الحديث المنقطعُ إذا صح سندُه، مع أن المجتهد إذا استدلَّ بحديثٍ علىٰ حكم فلا يُتصوَّر أن لا يكون صحيحاً أو حسناً عنده، ويقوِّي المذهبَ ما في «سنن أبي داود»، باب طُهور الأرض إذا يبِسَتْ، وأسند عن ابن عمر أنه قال: كنت أَبيتُ المسجد في عهد رسول الله ﷺ وكنت فتىً، فكانت الكلابُ تبول وتُقبِلُ وتُدْبِرُ في المسجد، ولم يغسلوه. مع العلم بأنهم يقومون فيه للصلاة وغيرها، فيكون هذا بمنزلة الإجماع علىٰ طُهورها بالجفاف.

[ذ ل ل]

تدلّ مادة (ذلل) في العربية علىٰ أصل واحد هو الخضوعُ والاستكانةُ واللين. ذكره ابن فارس، ثم قال: فالذُّلُّ ضِدُّ العِزّ، وهذه مقابلةٌ في التضادّ صحيحة تدلُّ علىٰ الحكمـة التي خُصَّت بها العربُ دون سائر الأمم؛ لأن العِزَّ من العَزاز، وهي الأرضُ الصُّلبة الشديدة.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣] أي: عدَدُكم قليل، والأذلّة: جمع ذليل، والمعنىٰ أنهم كانوا بسبب قِلّتهم أذِلَّة، إذ لم يكونوا في أنفسهم أذلَّة، بل كانوا أعِزَّة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] أي: جانبُهم ليّنٌ علىٰ المؤمنين، ولم يُرِدِ الهوان، وقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: جانبُهم غليظٌ عليهم. يقال: دابّةٌ ذلول، أي: ليّنٌ سَهْل، وقال نفطويه: أذلّةٍ علىٰ المؤمنين، أي: يلينون لهم، وأعزّةٍ علىٰ الكافرين، أي يُعازُّونهم ويُغالبونهم، يقال: عزَّه: إذا غلبه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غلبني. وقال تعالىٰ في الإحسان إلىٰ الوالدين: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] قُرِىء: ﴿ ٱلذُّلِّ﴾ بضم الذال، و﴿الذِّلِّ﴾ بكسرها؛ فالذُّلُّ ضدُّ العِزّ، والذِّلُّ ضدُّ الصعوبة، وهو الانقياد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١] أي: لم يتخذ وليّاً يحالفه ويعاونُه لذِلَّةٍ به، وكانت العرب يحالفُ بعضُها بعضاً يلتمسون بذلك العزَّة والمنْعَة، فنفَىٰ ذلك عن نفسه جلَّ ثناؤُه.

وقال تعالىٰ في وصف أشجار الجنة وثمارها: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤] قال مجاهد: إن قام ارتفع إليه، وإن قعد تدلَّىٰ إليه القِطْف، وقال نفطويه ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾، أي: أمكنَتْ فلا تمتنع علىٰ طالب، يقال لكلِّ مطيع

غير ممتنع: ذليل، ومن غير الناس: ذَلُول، وقال ابن قتيبة: ذُلِّلت: أُدْنيت، من قولهم: حائط ذليل، إذا كان قصيرَ السَّمْك، وقال أبو جعفر النحاس: المُذَلَّل: القريبُ المتناوَل، ومنه قولهم: حائطٌ ذليل، أي: قصير.

وفي الحديث: «رُبَّ عِذْقٍ مُذَلَّل لأبي الدَّحداح في الجنة». قال أبو منصور الأزهري: تذليل العُذُوق: أنها إذا خرجَتْ من كوافيرها التي تغطِّيها عند انشقاقها عنها يعمِدُ الآبرُ فيُسمِّحُها ويُيسِّرها حتىٰ يُدلِّيَها خارجةً من بين ظَهْرانَي الجريد، ويُسمِّحُها، أي: يقضِبُها فيسهُلُ قِطافُها عند إيناعها. والعَذْق، بفتح العين: النخلة، وبالكسر: العُرجُون بما فيه من الشماريخ. وفي الحديث: «يتركون المدينة علىٰ خير ما كانت مُذلَّلةً لا يغشاها إلاَّ العوافي» أي: ثِمارُها دانيةٌ سهلةُ المتناول، مخلاَّةٌ غيرُ محميَّة ولا ممنوعة، علىٰ أحسن أحوالها. وقيل: أراد أن المدينة تكون مخلاَّةً خالية من السُّكّان، لا يغشاها إلاَّ الوحوش. قال الزمخشريّ: يريد أن أهل المدينة يخرجون منها في آخر الزمان ويتركون نخلهم لا يغشاها إلاَّ العوافي، وهي السباع والطير.

وفي حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: بعضُ الذُّلِّ أبقىٰ للأهل والمال. قال أبو عبيد الهرويُّ: تأويله أن الرجل إذا أصابتْه خُطّةُ ضَيْمٍ ينالُهُ فيها ذُلٌّ فصَبَر عليها كان أبقىٰ له ولأهله ومالِه، فإذا اضطرب فيها طالباً للعِزّ غرَّر بنفسِه وأهلِه ومالِه، وربَّما كان ذلك سبباً لهلاكه. وفيه وجْهٌ آخر، وهو: أن الرجل إذا علتْ همَّتُه وسَمَتْ إلىٰ طلب المعالي عُودِيَ ونُوزِعَ فيما يحاولُه وقُوتل علىٰ ذلك، فرُبَّما يُقْتَلُ ويُستفاءُ مالُه، وإذا صبرَ علىٰ الذُّلِّ وأطاع المُسَلَّطَ عليه حقَنَ دمَه وحَمَىٰ أهلَه وأحرزَ مالَه، وهذا أيضاً قريبٌ من الأول. انتهىٰ كلام الهروي. وهو مبنيٌّ علىٰ أن «الذُّلّ» بضم الذال، الذي هو ضدُّ العزّ، لكنّ ابن فارس قيَّده بكسر الذال وجعله من الذِّلّ الذي هو خلافُ الصُّعوبة، وكذلك صنع الجوهريُّ، قال: يقال: دابةٌ ذَلُولٌ بيِّنةُ الذِّلِّ، من دوابَّ ذُلُلٍ، ومنه قولهم: بعضُ الذِّلِّ أبقىٰ للأهل والمال.

ومن ذلك الحديث: «اللهم اسقنا ذُلُلَ السَّحاب»: هو الذي لا رعدَ فيه ولا برق. وهو جمع ذَلُول، من الـذِّلّ بالكسر، ضدِّ الصَّعب، ومنه حديث عليٍّ رضي الله عنه حين سُئل: ما كان ذو القرنين ركِب في مسيره يومَ سار؟ فقال: خُيِّر بين ذُلُلِ السَّحابِ وصِعابِه، فاختار ذُلُلَه.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما من شيءٍ من كتاب الله إلاَّ وقد جاء علىٰ أذلاله. أي: علىٰ وجوهه وطرقه، وهو جمع ذِلٍّ بالكسر أيضاً. قال أبو عمرو: يقال: ركبوا ذِلَّ الطريق، وهو ما مُهِّدَ منه وذُلِّل. ومنه قولُ زياد بن أبي سفيان في خطبته: إذا رأيتموني أُنفِذُ فيكم الأمرَ فأَنْفِذُوه علىٰ أذلاله، أي: علىٰ وجهه. ويقال: جاء علىٰ أذلاله، أي: علىٰ وجهه، ويقال: دَعْه علىٰ أذلاله، أي: علىٰ حاله. وأمورُ الله جاريةٌ علىٰ أذلالها، أي: علىٰ مجاريها وطُرُقها، وأنشد أبو عمرو للخنساء في رثاء أخيها:

لتَجْرِ المنيّةُ بعدَ الفتىٰ الـ ... مُغادَرِ بالمَحْوِ أَذلالَها

أي: فلستُ آسىٰ بعده علىٰ شيء. وفي حديث فاطمة رضي الله عنها: ما هو إلاَّ أن سمعت قائلاً يقول: مات رسولُ الله ﷺ، فاذلَوْلَيْتُ حتىٰ رأيتُ وجهَه. أي: أسرعت. يقال: اذْلَوْلىٰ الرجلُ، إذا أسرع مخافةَ أن يفوتَه شيء، واذلَوْلَتِ الريحُ: مرَّتْ مَرّاً سهلاً. وهو فعلٌ ثلاثي كُرِّرت عينُه وزِيدَ واواً للمبالغة. وأصله من ذَلَىٰ الطعامَ يَذْليه، إذا ازْدَرَدَهُ لسُرعةِ ذلك. ونظيرُه: اثنَوْنَى، من ثَنَىٰ يثْني.

[ذ م م]

يقول ربنا عز وجل في شأن المشركين وحث المؤمنين علىٰ قتالهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠] الإلّ: القرابة، والذِّمّةُ: العهد. قال تميمُ بنُ أُبيٍّ بن مقبل:

أفسـدَ النـاسَ خُلـوفٌ خَلَفُـوا قطعوا الإلَّ وأعراقَ الرَّحِمْ

وقال حسانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه:

وجـدنـاهُـمُ كـاذبـاً إلُّهُـمْ وذو الإلِّ والعهدِ لا يكذِبُ

وقـال ابن عرفة نفطويـه: الذّمـةُ: الضمان، يقال: هو في ذِمَّتي، أي: فـي ضماني، وبه سُمِّي أهلُ الذمةِ لدخولهم في ضمان المسلمين، ويقال: له عليَّ ذمَّةٌ وذِمامٌ ومَذِمَّة. وهي الذِّمُّ أيضاً. قال الشاعر:

كما ناشدَ الذِّمَّ الكفيلُ المعاهِدُ

وقال أبو زيد: مَذِمَّة بالكسر، من الذِّمام، وهو الضمان، ومَذَمَّة بالفتح، من الذَّمّ، ومنه قولهم: البخلُ مَذَمَّة، أي: مما يُذَمُّ عليه، وهو خلاف المَحْمَدة. وقال الأزهريُّ: ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: ولا أماناً، والذِّمَّةُ: العهدُ أيضاً. وقال ابن الأثير: قد تكـرَّر في الحديث ذكرُ: «الذِّمّة والذِّمـام» وهما بمعنـىٰ العهد والأمان والضمـان والحرمةِ والحقّ، وسُمِّي أهلُ الذّمّة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم.

وفي حديث النبي ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعىٰ بذِمتهم أدناهم، ويُرَدُّ عليهم أقصاهم، وهم يدٌ علىٰ من سواهم، لا يُقتلُ مسلمٌ بكافر، ولا ذو عهدٍ في عهده» قال أبو عبيد: أما قوله: «تتكافأ دماؤهم» فإنه يريد: تتساوىٰ في القِصاص والدِّيات، فليس لشريف علىٰ وضيع فضلٌ في ذلك. وأما قوله: «يسعىٰ بذمّتهم أدناهم» فإن الذمّةَ الأمان. يقول: إذا أعطىٰ الرجلُ منهم العدوَّ أماناً جاز ذلك علىٰ جميع المسلمين، ليس لهم أن يُخفِروه. كما أجاز عمرُ رضي الله عنه أمانَ عبدٍ علىٰ جميع أهل العسكر، وكان أبو حنيفة لا يجيز أمانَ العبد إلاَّ بإذن مولاه، وأما حديث عمر فليس فيه ذِكرُ مولىٰ. ومنه قولُ سلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه: «ذمَّةُ المسلمينَ واحدة» فالذِّمَّة هي الأمان، ولهذا سُمِّي المعاهَدُ ذِمّياً، لأنه قد أُعطي الأمانَ علىٰ مالِه ودمِه، للجزية التي تؤخذ منه. قال الشعبي: لم يكن لأهل السواد عهد، فلما

أُخذت منهم الجزيةُ صار لهم عهدٌ أو ذِمَّةٌ، وسُمِّي العهدُ ذِمَّةً وذِماماً، لأن الإنسان يُذَمُّ علىٰ إضاعته منه، قاله ابن فارس، قال: وهذه طريقة للعرب مستعملة، وذلك كقولهم: فلانٌ حامي الذِّمار، أي: يحمي الشيءَ الذي يُغْضِب، وحامي الحقيقة، أي: يحمي ما يحِقُّ عليه أن يمنعَه.

وفي حديث دعـاء المسافر «اقلِبْنا بذمَّـة» أي: اردُدْنـا إلىٰ أهلنا آمنين. وفي الحديث: «فقد برئتْ منه الذِّمَّة» أي: أنَّ لكلِّ أحدٍ من الله عهداً بالحفظ والكَلاءة، فإذا ألقىٰ بيده إلىٰ التهلُكة، أو فَعَل ما حُرِّم عليه، أو خالَفَ ما أُمِر به خذلتْه ذِمَّةُ الله تعـالىٰ. وفي الحديث: «لا تشتـروا رقيـقَ أهلِ الذمَّـة وأرَضيهِم»، قـال ابن الأثير: المعنىٰ أنهم إذا كان لهم مماليكُ وأرَضُون وحالٌ حسنةٌ ظاهرة كان أكثـرَ لجزيتهم، وهذا علىٰ مذهب من يرىٰ أن الجزية علىٰ قدر الحال، وقيل في شراء أَرَضيهم: إنه كرِهه لأجل الخراج الذي يلزم الأرضَ لئلاَّ يكون علىٰ المسلم إذا اشتراها فيكونَ ذُلاًّ وصغاراً.

وفي حديـث سلمـانَ الفارسيِّ رضي الله عنه، قيل له: ما يحلُّ لنا من ذِمَّتِنا؟ فقـال: من عَماكَ إلىٰ هُـداك، ومن فقرِك إلىٰ غناك. قوله: ما يحل لنا من ذِمّتنا؟ أراد: من أهل ذمّتنا. فحـذف المضـاف. وقوله: «من عَمـاك» العمىٰ هنا: ضلالُ الطريق، أي: إذا ضلَلْتَ طريقاً أخذتَ أحدَهم بأن يقِفَك ويدُلَّكَ على الطريقِ، وإذا مررْتَ بحائطه ــ أي: بُسْتانه أو مالِه وافتقرت إلىٰ ما يقيمك لا غِنىً بك عنه، فخذ منه قَدْرَ كفايتك، هذا إذا صُولحوا علىٰ ذلك، وشُرِط عليهم، وإلاَّ فلا يحِلُّ منهم إلاَّ الجزية.

وفي خُطبة علي رضي الله عنه: ذمتي رهينةٌ وأنا به زعيم، أي: ضماني وعهدي رهنٌ في الوفاء به. وفي الحديث: أن الحجاج بن مالك الأسلمي سأل النبيَّ ﷺ: ما يُذهب عني مَذَمَّة الرضاع؟ فقال: «غُرَّة؛ عبدٌ أو أمة». المذَمَّة بفتح الذال: مَفْعَلةٌ من الـذَّمّ، الذي هو ضدُّ المدح، والمَذِمَّـة بالكسـر، من الذِّمَّة والذمام، وقيل: هي

ـ بالكسر والفتح ـ: الحقُّ والحُرْمة التي يُذَمُّ مضَيِّعُها، فالمراد بمَذَمّة الرضاع: الحقُّ اللازمُ بسبب الرّضاع، فكأنه سأل: ما يُسقط عني حقَّ المرضِعة حتىٰ أكون قد أدَّيْتُه كاملاً. قال إبراهيم النخعيُّ في تفسيره: كانوا يستحبّون عند فِصال الصبيّ أن يأمروا للظئر ـ أي المرضِعة ـ بشيء سوىٰ الأجر. والعرب تقول: أذهِبْ عني مَذَمَّتَهم بشيء، أي: أعطهم شيئاً فإن لهم ذِماماً، أي: حقّاً وحُرْمة.

وفي الحديث: «خِلالُ المكارم كذا وكذا والتذمُّمُ للصاحب». هو أن يحفظ ذِمامَه ويطرحَ عن نفسِه ذَمَّ الناسِ له إن لم يحفظْه. وجاء في حديث يونسَ عليه السلام: «أن الحوتَ قاءَه رَذِيّاً ذِمّاً» أي: مَذموماً شِبْهَ الهالك، والذِّمُّ والمذموم بمعنًى واحد. والرَّذِيُّ: الضعيفُ من كل شيء. ويقال: ناقةٌ رذِيَّة، أي: هزيلة، ونوقٌ رَذايا.

[و] جاء في الحديث: «أُرِيَ عبدُ المطلب في منامه: احفِرْ زمزم، لا تُنْزَفُ ولا تُذَم». قال أبو بكر بنُ الأنباري: فيه ثلاثةُ أقوال: إحداهنّ: لا تُعاب، من قولك: ذممتُه إذا عبْتَه، والثاني: لا تُلْفَىٰ مذمومة، يقال: أذممتُه، إذا وجدْتَه مذموماً، كما تقول: أحمدتُه إذا وجدتَه محموداً. والثالث: لا يُوجَدُ ماؤها قليلاً ناقصاً، من قولك: بئرٌ ذَمَّةٌ، إذا كانت قليلةَ الماء.

ومنه حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير، فأتينا علىٰ رَكِيٍّ ذَمَّة، يعني قليلةَ الماء، قال: فنزل فيها سِتَّةٌ أنا سادسُهم ماحَةً فأُدْلِيتْ إلينا دلوٌ، قال: ورسول الله ﷺ علىٰ شَفة الركيّ، فجعلنا فيها نصفَها أو قُرابَ ثلثيها، فرُفِعت إلىٰ رسول الله ﷺ، قال البراء: فكِدْتُ بإنائي هل أجد شيئاً أجعله في حلقي؟ فما وجدت فرُفِعَتِ الدلوُ إلىٰ رسول الله ﷺ، فغمس يدَه فيها، فقال ما شاء الله أن يقول، فعِيدت إلينا الدلو بما فيها. قال: فلقد رأيت أحدَنا أُخرِج بثوبٍ خشيةَ الغرق. قال: ثم ساحت يعني جَرَتْ نهراً. الرَّكيُّ: البئر، والجمع: الرَّكايا. وقوله: «ماحة» جمع مائح، وهو الذي ينزل في البئر إذا قل ماؤها فيملأ

الدلوَ بيده، وقد ماح يميحُ مَيْحاً، وكلٌّ من أولىٰ معروفاً فقد ماح، والآخذ ممتاحٌ ومستميح. وقال الأصمعي: الذَّمَّةُ: القليلةُ الماء. يقال: هذه بئر ذَمَّة، وجمعُها ذِمام. قال ذو الرُّمَّةِ يصف عيونَ الإبل، وأنها قد غارت من طول السَّير:

علىٰ حِمْيريّاتٍ كأن عيونَهَا ذِمامُ الرَّكايا أنكزَتْها المواتحُ

وقوله: أنكزَتْها يعني أنفدَتْ ماءَها. والمواتح: المُسْتقية.

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: قد طلع في طريقٍ مُعْوِرةٍ حَزْنة، وإن راحلتَه قد أذَمَّتْ به وازْحَفَتْ». يقال: أذَمَّتْ راحلتُه: إذا تأخرت عن ركاب القوم فلم تلحقْها، ومعناها: صارتْ إلىٰ حالٍ تُذَمُّ عليها. وقوله: «أزحفت» أي: أزْحَفَها السيرُ، وهو أن يجعلها تزحَفُ من الإعياء، والزَّحْفُ: ثِقَلُ المشي. وقوله: «طريقٌ مُعْوِرة» من: أعور المكان، أي: صار ذا عورة، وهي في الثغور والحروب والمساكن: خَلَلٌ يُتخوَّفُ منه الفَتْكُ وهجومُ العدوّ.

وفي حديث حليمةَ السعديةِ رضي الله عنها: «فخرجتُ علىٰ أتاني تلك، فلقد أذمَّتْ بالركب» أي: حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها. ومن ذلك حديثُ المقداد رضي الله عنه حين أحرز لِقاحَ رسول الله ﷺ: وإذا فيها فرسٌ أذمُّ، أي: كالٌّ قد أعيا فوَقَف. وفي حديث الشؤم والطِّيَرة: «ذَرُوها ذَميمةً» أي: اتركوها مذمومة، فعيلة بمعنىٰ مفعولة، وإنما أمرهم بالتحوّلِ عنها إبطالاً لما وقع في نفوسهم من أن المكروه إنما أصابهم بسبب سُكنىٰ الدار، فإذا تحوَّلوا عنها انقطعت مادَّةُ ذلك الوهم، وزال ما خامرهم من الشُّبهة. وفي حديث موسىٰ والخضر عليهما السلام: «أخذَتْه من صاحبه ذِمامة» أي: حياءٌ وإشفاقٌ، من الذمِّ واللوم. ومنه حديث ابن صياد: فأصابتني منه ذِمامة.

[ذ ن ب]

يقول ربنا عز وجل متوعداً الكافرين بوقوع العذاب عليهم كما وقع علىٰ أشباههم من الأمم السابقة: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي: لهم نصيبٌ من العذاب. وأصل الذَّنوب: الدلوُ العظيمةُ ملأىٰ ماءً، ومن استعمال الذَّنوب في النصيب من الشيء قولُ الشاعر:

لعمرُك والمنايا طارقاتٌ لكلِّ بني أبٍ منها ذَنُوبُ

وما في الآية الكريمة مأخوذٌ من مقاسمة السُّقاة الماءَ بالدلو الكبير، فهو تمثيل: جعلَ الذَّنُوبَ مكان الحظِّ والنَّصيب. وفي حديث بوْلِ الأعرابيِّ في المسجد: فأمر رسول الله ﷺ بذنُوب من ماء فأُريقَ عليه. فالذنوب: الدلو العظيمة، وقيل: لا تُسمَّىٰ ذَنُوباً إلاَّ إذا كان فيها ماء.

وفي حديث ابن عباس الذي ذكر فيه قصةَ موسىٰ عليه السلام حين ألقىٰ عصاه فصارت حية: وأن فرعونَ كان علىٰ فرسٍ ذَنُوبٍ حِصان، فالذَّنُوب: الوافرُ الذَّنَب. والحِصان: الفحل. وفي حديث علي رضي الله عنه، وذكَرَ فتنةً تكون في آخر الزمان، قال: فإذا كان ذلك ضرب يعسوبُ الدِّين بذَنَبه، أي: سار في الأرض مسرعاً بأتباعه ولم يعرِّجْ علىٰ الفتنة. والأذناب: الأتباع، جمع ذَنَب، كأنهم في مقابل الرءوس، وهم المقدِّمون. واليعسوب: السيّدُ والرئيس والمقدم، وأصله فحلُ النْحل.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه، وذكَرَ خروجَ عائشة رضي الله عنها، فقال: وإن قيساً لن تنفكَّ تبغي دين الله شرّاً حتىٰ يركبَها الله بالملائكة فلا يَمْنعوا ذَنَبَ تَلْعة» التلعة: واحدةُ التلاع وهي مسايل الماء، وذَنَبُ التلعة: أسفلها، أي: يُذلُّها الله حتىٰ لا تقدرَ علىٰ أن تمنع ذيل تلعة.

وفي الحديث: أنه كان يكره المُذَنِّبَ من البُسْر مخافةَ أن يكونا شيئين فيكونَ خليطاً» المُذَنِّب بكسر النون: الذي بدا فيه الإرطابُ من قِبَل ذنَبه، أي: طرَفه، ويقال له أيضاً: التَّذنُوب. وقد تكرَّر هذا اللفظ في الحديث. وجاء في الحديث: «من مات على ذُنابَىٰ طريقٍ فهو من أهلِه» يعني علىٰ قصدِ طريق. وأصل الذُّنابىٰ: مَنْبِتُ ذنبِ الطائر.

[ذ و د]

يقول ربنا عز وجل، في قصة موسىٰ وشعيب عليهما السلام: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣]. قوله: ﴿ تَذُودَانِۖ ﴾ أي: تطرُدان وتدفعان غنمهما عن الماء حتىٰ يفرُغَ الناسُ ويخلوَ بينهما وبين حوض الماء. وأصل الذَّوْد: الدفعُ والحَبْس، ومنه قول سويد بن كُراع:

أَبِيتُ بأبوابِ القوافي كأنما ... أَذودُ بها سِرْباً منَ الوحشِ نُزَّعا

ويروىٰ: أُصادي بها، أي: أحبسُ وأمنع، وورد الذَّودُ بمعنىٰ الطرد في قول الشاعر:

لقد سَلَبَتْ عصاك بنو تميمٍ ... فما تدري بأيِّ عصاً تذودُ

أي: تطرد. وفي حديث الحوض: «إني لَبِعُقْرِ حوضي أذودُ الناسَ عنه لأهل اليمن». عُقْرُ الحوض: موضعُ الشاربة منه، أي: أطرُدُهم وأدفَعُهم لأجل أن يردَ أهلُ اليمن. وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: أخبرني عن قريش، قال: أما نحن بنو هاشم فأنجادٌ أمجاد، وأما إخواننا بنو أمية فقادةٌ أَدَبَةٌ ذادة. الأَدَبة: جمع الآدِب، وهو الذي يدعو علىٰ الطعام، قال طرفة في بيته الشهير:

نحن في المشتاةِ ندعو الجفَلَىٰ ... لا تــرىٰ الآدِبَ فينــا ينتقِــرْ

والذّادة: جمع ذائد، وهم الرؤساء الذين يقودون الجيوش ويدافعون عنها، والذَّودُ: الدفعُ عن الحريم، قال زهير:

ومن لا يذُدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ، ومَن لا يَظْلمِ الناسَ يُظْلَمِ

قال محمد بن إسحاق: لمَّا قسم قُصَيٌّ مكارمَه بين ولده أعطىٰ القيادة عبد مناف، فولِيَها من بعد عبد مناف عبدُ شمس، ثم وليها من بعده أميَّةُ بن عبدشمس، ثم من بعده حربُ بن أمية، فقاد بالناس يومَ عكاظ في حرب قريش وقيس عيلان، وفي الفِجارين الأولِ والثاني، ثم قاد بالناس أبو سفيان بنُ حرب، فلما كان يومُ بدر قاد الناس عتبةُ بنُ ربيعة وكان أبو سفيان في العير، فلما كان يوم أُحدٍ قاد الناسَ أبو سفيان بنُ حرب، وقاد الناس يوم الأحزاب، وكانت آخرَ وقعة لقريش، ثم جاء الله بالإسلام، وأسلم أبو سفيان رضي الله عنه.

وفي الحديث: «فلَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي» أي: ليُطْرَدَنَّ. ويروىٰ: «فلا تُذادُنَّ» أي: لا تفعلوا فِعْلاً يوجب طردكم عنه.

وفي الحديث: «ليس فيما دون خمسِ ذَوْدٍ صدقة». الذَّودُ من الإبل: ما بين الثنتين إلىٰ التِّسع، وقيل: ما بين الثلاث إلىٰ العشر. وهي مؤنَّثة ولا واحدَ لها من لفظِها كالنَّعَم. وفي المثل: «الذَّوْدُ إلىٰ الذَّود إبل» و «إلىٰ» هنا بمعنىٰ «مع»، أي: إذا جَمَعْتَ القليلَ مع القليل صار كثيراً.

[ذ و ق]

تدل مادة (ذوق) ــ كما يقول ابن فارس ــ علىٰ أصل واحد هو اختبار الشيء من جهة تطعُّم، ثم يُشتقُّ منه مجازاً. فيقال: ذقتُ المأكول أذوقه ذَوْقاً، وذقتُ ما عند فلان: اختبرتُه. وقال الخليل: كلُّ ما نزل بإنسان من مكروهٍ فقد ذاقه، ويقال:

ذاق القوس: إذا نظر ما مقدارُ إعطائها وكيف قوَّتُها. قال الشماخ:

فـذاقَ فـأعطتْـهُ مـنَ اللِّيـنِ جـانبـاً كفىٰ، ولها أن يُغرق السَّهمَ حاجزُ

ويقول عز من قائل مخاطباً مشركي قريش عقِبَ هزيمتهم يومَ بدر: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ١٤] قال أبو عبيد الهروي: قوله: ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ تبكيت، تقول لعدوِّك إذا أدخلت عليه مكروهاً: ذُقْ، ومنه قولُ أبي سفيان لحمزة رضي الله عنه يومَ أحد لما رآه مقتولاً معفَّراً: «ذُقْ عُقَقُ». قال ابن الأثير: أي: ذُقْ طعْمَ مخالفَتك لنا وتركك دينَك الذي كنت عليه يا عاقَّ قومِه، جعل إسلامه عقوقاً، وهذا من المجاز أن يُستعملَ الذوقُ ـ وهو مما يتعلقُ بالأجسام ـ في المعاني، كقوله تعالىٰ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]. وقوله: ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ [التغابن: ٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ [الطلاق: ٩] أي: خَبرتْ، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ [النحل: ١١٢] أي: ابتلاها الله بسوء ما خبرتْ من عقاب الجُوع والخوف.

وفي صفته ﷺ: لم يكن يذُمُّ ذَواقاً. أي: شيئاً مما يُذاقُ، ويقع علىٰ المأكول والمشروب، فَعالٌ بمعنىٰ مفعول، من الذَّوق، ويقال: ذقتُ الشيء أذوقُه ذواقاً وذوْقاً، وما ذُقْتُ ذَواقاً، أي: شيئاً.

وفي حديث صفته ﷺ أيضاً الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ذكر دخولَ أصحابه عليه فقال: يدخلون رُوّاداً، ولا يفترقون إلاّ عن ذَواق، ويخرجون أدلَّة. الروّاد: جمع رائد، وهو الذي يتقدّم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعىٰ قبل وصولهم. «ويخرجون أدِلَّة»: جمع دليل، أي: يدلُّون الناس بما قد علِموه منه وعرفوه، يريد أنهم يخرجون من عنده فقهاء. وقوله: «لا يفترقون إلاّ عن ذواق» الذواق أصله الطَّعمُ كما سبق، ولكنه ضربه مثلاً لما ينالون عنده من الخير. وقال أبو بكر بنُ الأنباري: أراد لا يتفرقون إلاّ عن علمٍ يتعلمونه يقومُ لهم مقامَ الطعام والشراب، لأنه يحفظ أرواحَهم كما يحفظ الطعامُ أجسامهم، والعرب تقول: أذقتُهُ

الخَسْفَ، إذا أوصلتَه إليه.

وفي الحديث: «إن الله لا يحب الذَّوّاقين ولا الذوَّاقات» قال الخطّابي: هذا في النكـاح. كره ﷺ أن يكون الرجلُ كثيـر النكـاح سريع الطلاق، بمنزله الذائق للطعام غير الآكل منه. قال الأعشىٰ:

وذُوقـي فتَـىٰ حـيٍّ فـإنـيَ ذائـقٌ فتاةً لأقوامٍ كما أنتِ ذائقهْ

يقول: استطرفي زوجاً غيري.

❋ ❋ ❋

﴿ ر ﴾

[ر أ ى]

يقول ربنا عز وجل مخبراً أنه وحده المتصرّفُ في خلقه بما يشاء، الكاشفُ لما ينْزل بهم من الضرّ والبلاء: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٠]. قوله تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيْتَكُمْ ﴾ معناه الاستخبار، يقول: أخبروني. والعرب تقول: أرأيتَكَ وأريتَكُما وأريتَكُم وأريتَكِ، مفتوحة التاء مذكَّرة موحَّدةً دائماً. ومعناه: أخبرني وأخبراني وأخبروني وأخبريني، فإذا كان بمعنىٰ الرؤية ثَنَّيْتَ وجمعْتَ وأنَّثْتَ، فقلت: أرايتَك خارجاً وأرأيتُماكما خارجَيْن وأريتُموكُم خارجين، وأرأيتُكِ خارجةً، وأرأيْتُنَّكُنَّ خارجات.

والعرب تقول: ألم تَرَ إلىٰ فلان؟ وألم تَرَ إلىٰ كذا؟ وهي كلمةٌ تقولها العرب عند التعجُّب من الشيء، وعند تنبيه المخاطب، كقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٢٣] أي: ألم تعجَبْ بفعلهم؟ وأَلَمْ ينتهِ شأنُهم إليك؟

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قال نِفْطويه: عَجَّبَ الله من فِعلهم، والعرب تقول: ألم ترَ إلىٰ فلان؟ يعنُون: ألم تعجَبْ لفلان؟ وقال سيبويه: سألت الخليل عن قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الحج: ٦٣]، فقال: هذا واجبٌ معناه التنبيه، كأنه قال: ألم تسمع! أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا. وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٢٣] قال الأزهري: معناه ألم ينته علمُك إلىٰ هؤلاء. ومعناه: اعرِفْهم.

وأصلُ الرؤية الإبصارُ بالعين. وتأتي بمعنىٰ العِلم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨] أي: علِّمْنا. قال الشاعر:

أريني جواداً مات هَزْلاً، لعلَّني أرىٰ ما تَرَيْنَ، أو بخيلاً مُخلَّداً

أي: أعلميني. وقوله تعالىٰ: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ [النجم:٣٥] أي: يعلَم. وقال نفطويه: أي: يرىٰ ما غاب عنه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد:٣٠] أي: عَرَّفناكهم فعرفتهم. يقال: أريتُه ذلك الأمرَ، أي: عرَّفْتُه. وقوله تعالىٰ: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم:٧٤]. قال ابن عباس: الأثاث: المالُ. والرِّئْيُ: المنظرُ الحسن. أنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي:

أشاقتْك الظَّعائنُ يوم بانوا بذي الرِّئْيِ الجميلِ من الأثاثِ

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء:٦١] قال نفطويه: تقابلا فصار كلُّ واحدٍ منهما بإزاء صاحبه بحيث يراه. وقوله تعالىٰ في صفة النار التي أعدَّها للمكذِّبين: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] أي: قابلتْهم. يقال: منازلُهم تتراءىٰ، أي: يُقابِلُ بعضُها بعضاً.

وفي الحديث: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلم مع مشرِك». قيل: لمَ يا رسولَ الله؟ قال: «لا تراءَىٰ ناراهما». قال أبو عبيد: فيه قولان: أمّا أحدُهما فيقول: لا يحلُّ لمسلم أن يسكن بلاد المشركين فيكونَ منهم بقَدْر ما يرىٰ كلُّ واحدٍ منهم نارَ صاحبه، فجعل الرؤية في هذا الحديث للنار، ولا رؤيةَ للنار، وإنما معناه أن تدنوَ هذه من هذه، وكان الكسائيُّ يقول: العرب تقول: داري تنظر إلىٰ دار فلان، ودُورُنا تَناظَرُ، وتقول: إذا أخذت في طريق كذا وكذا فنظر إليك الجبلُ فخُذ عن يمينه أو عن يساره، هكذا كلام العرب. فهذا وجه، وأما الوجه الآخر، فيقال: إنه أراد

بقوله: « لا تراءىٰ ناراهما» يريد نارَ الحرب، قال الله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ ﴾ [المائدة: ٦٤]. فيقول: ناراهما مختلفتان: هذه تدعو إلىٰ الله، وهذه تدعو إلىٰ الشيطان فكيف تتفقان؟ وكيف يساكن المسلمُ المشركين في بلادهم وهذه حال هؤلاء وهؤلاء؟ ويقال: إن أول هذا أن قوماً من أهل مكة أسلموا وكانوا مقيمين بها علىٰ إسلامهم قبل فتح مكة، فقال النبيُّ عليه السلام هذه المقالة فيهم ثم صارت للعامة.

والترائي: تفاعـلٌ من الرؤيـة. يقـال: تراءىٰ القـومُ إذا رأىٰ بعضُهـم بعضاً، وتراءىٰ لي الشيءُ، أي: ظهر حتىٰ رأيته. ومنه الحديث: «إن أهل الجنة لَيتراءَوْن أهلَ عِلِّيين كما ترون الكوكبَ الدُّرِّيَّ في أفق السماء» أي: ينظرون ويـروْن، ومنه حديثُ أبي البختريّ: «تراءَيْنا الهلال» أي: تكلَّفْنا النظرَ إليه، هل نراه أم لا.

وفـي الحـديـث: جاء حنظلـةُ الأسـديُّ رضـي الله عنـه، فقـال: نافـق حنظلـةُ يا رسولَ الله، نكون عنـدك تذكِّـرُنا الجنة والنار كـأنا رأْي عينٍ، فإذا رجعنا عافَسْنـا الأزواجَ والضيعةَ. تقـولُ: جعلتَ الشيءَ رأيَ عينِـك وبمـرأىً منك، أي: حِذاءك ومقابلَك بحيث تراه، فقوله: «رأْيَ عين» منصوب علىٰ المصدر، أي: كأنا نرىٰ الجنة والنار رأيَ العين. والمعافسة: المُعالجة، والضيعة: الصناعة والحرفة.

وفي حديث الرؤيا: «فإذا رجلٌ كريه المَرْآة» أي: قبيحُ المنظر. يقال: رجلٌ حسنُ المنظر والمرآة، وحسنٌ في مَرْآةِ العين، وهي مفعلةٌ من الرؤية. وفي حديث عمر رضي الله عنه ــ وذكر المُتعة ــ: ارتأىٰ امرُؤٌ بعد ذلك ما شاء أن يرتئي، أي: أفكَرَ وتأنَّىٰ، وهو افتعل من رؤية القلب، أو من الرأي. ومنه حديث الأزرق بن قيس: «وفينا رجلٌ له رأي» قال ابن الأثير: يقال: فلانٌ من أهل الرأي، أي أنه يرىٰ رأيَ الخوارج، ويقول بمذهبهم، وهو المراد هنا، والمحدِّثون يُسمُّون أصحاب القياس أصحاب الرأي. يعنُون أنهم يأخذون برأيهم فيما يُشكل من الحديث، أو ما لم يأتِ فيه حديثٌ ولا أثر. وفي حديث عمر رضي الله عنه، قال لسواد بن قارب:

أنت الذي أتاكَ رِئِيُّكَ بظهور رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. يقال للتابع من الجن: رَئِيٌّ بوزن كَمِيّ، وهو فعيلٌ أو فَعُول سُمِّي به لأنه يتراءىٰ لمتبوعه، أو هو من الرأي، من قولهم: فلانٌ رَئِيُّ قومه، إذا كان صاحبَ رأيهم، وقد تُكْسر راؤه لإتباعها ما بعدها، فيقال: رِئِيٌّ.

[ر ب ب]

يقول ربنا عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] ربُّ العالمين: هو مالكهم والمتصرّفُ في جميع أمورِهم، وكلُّ من ملك شيئاً فهو ربُّه. وقال ابن الأثير: الربُّ يُطلق في اللغة علىٰ المالك والسيّد والمدبِّر والمربِّي والقيِّم والمنعِم، ولا يُطلَق غيرَ مضاف إلاَّ علىٰ الله تعالىٰ، وإذا أطلق علىٰ غيره أُضيف، فيقال: ربُّ كذا، وقد جاء في الشعر مطلقاً علىٰ غير الله تعالىٰ، وليس بالكثير. وقال الراغبُ الأصبهانيُّ: ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله تعالىٰ المتكفِّلِ بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥]. وعلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠] أي: آلهةً وتزعمون أنهم الباري مسبِّبُ الأسباب والمتولّي لمصالح العباد. وقال أبو عبيد الهروي: وكانت العرب تسمِّي الملوكَ أرباباً. ومن ذلك قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: عند ملكِك. وقوله: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:٢٣] يعني العزيز، وقال الحارثُ بنُ حِلِّزةَ في استعمال الربِّ في معنىٰ الملك:

وهو الرَّبُّ والشهيدُ علىٰ يو م الحِيارَيْنِ والبلاءُ بلاءُ

عنىٰ بالربِّ المنذرَ بنَ ماءِ السماء. قال أبو بكر بن الأنباري: والربُّ في هذا

الموضـع السيّـدُ. قال الله جلَّ ذكـرُه: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف:٤١] أراد فيسقىٰ سيده. والربُّ: المالك. يقال: ربَّني فلانٌ يربُّني رَبّاً، أي: ملَكَني. ويقال لكلٍّ من قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: قد رَبَّه يرُبُّه فهو ربٌّ له، ومنه سُمِّي الربانيُّون لقيامهم بالكتب.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤] قال ابن عرفة نفطويه: قال أحمد بن يحيى ثعلب: إنما قيل للعلماء: ربّانيُّون لأنهم يرُبُّون العلم، أي: يقومون به، ومنه الحديث: «ألك نعمةٌ ترُبُّها؟» أي: تحفظها وتُراعيها وتُربِّيها، كما يُربِّي الرجلُ ولدَه. قال: وسُمِّي ابنُ امرأةِ الرجل ربيبًا لأنه يقوم بأمره ويملِك عليه تدبيرَه، والله ربُّ الأرباب، يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقُه، وكلُّ ربٍّ سواه غيرُ خالق ولا رازق، وكلُّ مخلوقٍ مُملَّكٌ بعد أن لم يكن مالكاً، ومنتزَعٌ ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء، وصِفةُ الله مخالفةٌ لهذه المعاني، فهذا الفرقُ بين صفات الخالق والمخلوق.

وقال أبو منصور الأزهريُّ في قوله: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران:٧٩]: هم أربابُ العلم الذين يعملون بما يعلمون. وأصله من الـرَّبِّ ــ وهو التربية ــ كانوا يُربُّون المتعلِّمين بصغار العلوم قبلَ كبارها، وزيدت النونُ والألفُ للمبالغة في النَّسَب، كما يقال: لِحْيانيّ، للرجل العظيم اللحية، وجُمَّانيٌّ، للرجل العظيم الجُمَّة، وهي مجتمعُ شعر الرأس، ومنه حديث عليٍّ رضي الله عنه: الناسُ ثلاثة، فعالمٌ ربّاني. قال ابنُ الأعرابي: هو العالي الدرجة في العلم، ومنه حديث محمد بن الحنفية، قال حين توفي عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: مات ربَّانيُّ هذه الأمة.

قال أبو عبيد القاسمُ بن سلام: سمعت رجلاً عالماً بالكتب يقول: الربانيّون: العلماءُ بالحلال والحرام. وقال ابن الأثير: الربّانيّ: العالم الراسخ في العلم

والدين. أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالىٰ، وقيل: العالمُ العامل المعلِّم. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ﴿رِبِّيُّونَ﴾: جمع رِبِّيّ، منسوبٌ إلىٰ الرِّبَّة، وهي الجماعة. فالرِّبِّيُّون: هـم الجماعات الكثيرة، وقيل: هم الأتباع، وقيل: هم العلماء. وقال الخليل: الربّيُّ: الواحدُ من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الربانيُّون، نُسِبوا إلىٰ التألُّه والعبادة ومعرفةِ الربوبية. وجمع الربِّ أرباب، قال تعالىٰ: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال الراغب: ولم يكن من حق الربّ أن يُجمع، إذ كان إطلاقُه لا يتناول إلا الله تعالىٰ، لكن أتىٰ بلفظ الجمع فيه علىٰ حسَب اعتقاداتهم، لا علىٰ ما عليه ذاتُ الشيء في نفسه.

* [رُبَّ]: وقولُه تعالىٰ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]. رُبَّ: حرف تقليـل، ولِمَا يكون وقتاً بعد وقـت. وزيـدت «مـا» مع «رُبَّ» ليليَها الفعل. تقول: رُبَّ رجلٍ جاءني، وربَّما جاءني رجل، ويقال: رُبَما ورُبَّما مخففةً ومشدَّدة، ورُبَّ رجل، ورُبَ رجل، ورُبَّتَ رجلٍ، ورُبَتَ رجل، وربَتما رجلٍ.

وجاء في حديث أشراط الساعة: «وأن تلد الأمةُ ربَّها أو ربَّتَها» المراد بالربّ في هذا الحديث: المولىٰ والسيّد، يعني أن الأمة تلد لسيّدها ولداً، فيكونُ هذا الولد لها كالمولىٰ؛ لأنه في الحسَب كأبيه. أراد أن السَّبْيَ يكثُرُ والنِّعمةَ تظهر في الناس فتكثرُ السَّراري.

وفي حديـث إجابة المؤذّن: «اللهـم ربَّ هذه الدعوة التامة» أي: صاحبَها، وقيل: المتمِّمَ لها والزائدَ في أهلها والعمل بها والإجابة لها.

ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « لا يقُلِ المملوكُ لسيِّده: ربِّي» قال ابن الأثير: كره أن يجعلَ مالكه ربّاً له، لمشاركة الله تعالىٰ في الربوبيّة، فأما قوله تعالىٰ: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف: ٤٢] فإنه خاطبه علىٰ المتعارف عندهم، وعلىٰ ما

كانوا يُسمُّونهم به، ومثله قولُ موسىٰ عليه السلام للسامريّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه:٩٧]، أي: الذي اتخذته إلها.

قال: فأما الحديث في ضالَّة الإبل: «حتىٰ يلقاها ربُّها» فإن البهائمَ غير متعبَّدة ولا مخاطبة، فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافةُ مالكيها إليها وجعْلهم أرباباً لها. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: ربُّ الصُّرَيْمة ورَبُّ الغُنَيمة. وقد تكرر ذلك في الحديث.

وفي حديث عروة بن مسعود رضي الله عنه لمّا أسلم وانصرف إلىٰ قومه قدم عِشاءً، فدخل منزله فأنكر قومُه دخولَه منزلَه قبل أن يأتي الربّة، ثم قالوا: السفرُ وخَضْدُهُ. فجاءوا منزله فحيَّوْه تحية الشرك، فقال: عليكم بتحية أهل الجنة: السلام. الربَّةُ: هي اللات، وهي الصخرة التي كانت تعبدُها ثقيف ــ قومُ عروةَ ــ بالطائف. وقولهم: «السفرُ وخَضْدُه» الخَضْدُ: كسرُ الشيء الليّن من غير إبانةٍ له، وقد يكون الخضْدُ بمعنىٰ القطع، فاستعير ذلك المعنىٰ لما ينال المسافرَ من التعب والإعياء. وأريد: السفرُ وخضدُه: مانِعاه أو مثبِّطاه، فحُذِف. ومن ذلك حديث ثقيف: كان لهم بيتٌ يُسمُّونه الرَّبَّةَ يُضاهئون به بيتَ الله تعالىٰ، فلما أسلموا هدمه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس مع الزبير: لأن يرُبَّني بنو عمِّي أحبُّ إليَّ من أن يرُبَّني غيرُهم، وفي رواية: وإن رَبّوني رَبَّني أكفاءٌ كِرام. أي: يكونون عليَّ أمراءَ وسادةً مقدَّمين. يعني بني أمية، فإنهم في النسب إلىٰ ابن عباس أقربُ من ابن الزبير.

يقال: ربَّه يرُبُّه، أي: كان له ربّاً، أي: قيّماً ومالكاً، نحوَ سادَه: إذا كان له سيّداً. ومن ذلك قولُ أبي سفيان رضي الله عنه عند الجولة التي كانت من قِبَل المسلمين يومَ حنين: غلبَتْ والله هوازن. أجابه صفوان بن أميّة: بفيك الكَثْكث؛ لأنْ يربَّني رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجلٌ من هوازن. والكَثْكَث والكِثْكِث، بفتح الكاف وكسرها: دُقاق الحصىٰ والتراب. والمراد الخَيْبة.

وفي الحديث: «ألك نعمةٌ ترُبُّها؟» أي: تحفظُها وتراعيها وتربِّيها كما يربّي الرجلُ ولدَه. يقال: ربَّ فلانٌ ولدَه يرُبُّه ربًّا، وربَّاه وربَّبَه، كلُّه بمعنىً واحد. وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال للمصدِّق ـ وهو جامع الزكاة ـ: دعِ الرُّبَّىٰ والماخِضَ والأكُولة. أمره أن يعُدَّ علىٰ ربّ الغنم هذه الثلاثة ولا يأخذها في الصدقة لأنها خِيارُ المال. والرُّبّىٰ بوزن فُعْلىٰ، وهي التي تُربّىٰ في البيت من الغنم لأجل اللبن. وقيل: هي الشاة القريبةُ العهدِ بالولادة، وجمعُها رُباب، بضم الراء، والمصدر: رِباب بالكسر، وهو قربُ العهد بالولادة، تقول: شاةٌ رُبّىٰ بيّنةُ الرِّباب، وأعنُزٌ رُباب. قال الأموي: هي رُبّىٰ ما بينَها وبين شهرين. وقال أبو عبيد: يقال: هي في رِبابها ما بينَها وبين خمس عشرة ليلة. قال أبو زيد: الرُّبّىٰ من المَعْز، وقال غيره: من المَعْز والضأن جميعاً، وربما جاء في الإبل أيضاً.

قال الأصمعيُّ: أنشدَنا منتجعُ بن نَبْهان:

حنينَ أمِّ البَوِّ في رِبابها

وقوله: «الأكولة» فهي التي تسمَّنُ للأكل ليست بسائمة، وأما الماخِضُ فهي التي قد أخذها المخاضُ لتضع. ومنه حديثُ الأعرابي الذي جاءه القوم فأخرج لهم شاةً فذبحوها، ثم أخرج لهم أخرىٰ فذبحوها، ثم قال: ما بقي في غنمي إلا فحلٌ أو شاة رُبّىٰ.

وفي حديث إبراهيمَ النخعيّ، قال: ليس في الربائب صدقة، الربائب: هي الغنم التي يربِّيها الناسُ في البيوت لألبانها وليست بسائمة، واحدتها ربيبة بمعنىٰ مربوبة، لأن صاحبها يرُبُّها، أي: يحفظها ويتعهّدها بالعناية والرعاية، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: ما كان لنا طعامٌ إلا الأسودان: التمرُ والماء، وكان لنا جيرانٌ من الأنصار لهم ربائب، فكانوا يبعثون إلينا من ألبانها.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: إنما الشرط في الربائب، يريد بنات

الزوجات من غير أزواجهن الذين معهن. وهو ما جاء في آية النساء المحرمات، من قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣]. قال أهل التفسير: الربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره، سمّيت بذلك لأنه يربيها في حِجره، فهي مربوبة، فعيلة بمعنىٰ مفعولة. وفي حديث مجاهد: أنه كان يكره أن يتزوج الرجلُ امرأةَ رابِّهِ، وكان عطاءٌ وطاووس لا يريان بذلك بأساً. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قوله: «امرأةُ رابِّه» يعني امرأة زوج أمه، وهو الذي تسميه العامة الربيب، وإنما الربيبُ: ابنُ امرأة الرجل، فهو ربيبٌ لزوجها، وزوجُها المربوبُ له، وإنما قيل له: رابٌّ لأنه يرُبُّه ويربِّيه، وهو الغذاءُ والتربية، وابنُ المرأة هو المربوب، فلهذا قيل: ربيب، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. وكان عمرُ بنُ أبي سلمة يسمَّىٰ ربيبَ النبي ﷺ، لأنه ابن أم سلمة، وقال معنُ بن أوس المزني ــ وذكر ضيعةً له كان جاراه فيها عمر بن أبي سلمة وعاصمَ بنَ عمر بنِ الخطاب ــ فقال:

وإنّ لهـا جـاريْـنِ لـن يغْـدُرا بهـا ... ربيبَ النبيِّ وابنَ خيرِ الخلائفِ

يعني عمرَ بن أبي سلمة وعاصم بنَ عمرَ بن الخطاب.

وفي حديـث المغيرة بن شعبـة رضي الله عنه الذي وصـف فيه النساء، قال: «حَمْلُها رِباب» رِبابُ المرأة: حِدْثانُ ولادتها، وقيل: هو ما بين أن تضع إلىٰ أن يأتي عليهـا شهـران، وقيل: عشرون يوماً. يريد أنها تحمل بعـد أن تلد بيسير، وذلك مذمومٌ في النساء، وإنما يُحمد أن لا تحملَ بعد الوضع حتىٰ تُتمَّ رَضاعَ ولدِها.

وجاء في حديث الرؤيا: «فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابة البيضاء» الرَّبابة، بفتح الراء: السَّحابة التي ركِبَ بعضُها بعضاً. وفي حديث الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من غِنًى مُبْطِر وفَقْرٍ مُرِبّ» أو قال: «مُلِبّ» أي: لازمٍ غيرِ مفارق، مأخوذ من: أرَبَّ بالمكان وألَبَّ، إذا أقام به ولزمه.

[ر ب ط]

يقول ربنا عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] قال أبو منصور الأزهريّ: في قوله: ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ قولان: أحدُهما: أقيموا علىٰ جهاد عدوِّكم بالحرب وارتباط الخيل. والثاني ما قال رسول الله ﷺ من «إسباغِ الوَضُوءِ علىٰ المكاره وانتظارِ الصلاة بعد الصلاة، ألا فذلكم الرباط»، جعل هذه الأعمال مثلَ مرابطةِ الخيل لجهاد أعداء الله تعالىٰ وتقدّس.

وهذا الحديث الذي ذكَرَ طرَفاً منه الأزهريُّ رواه مسلمٌ والنسائيُّ من حديث مالك بن أنس، بسنده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ألا أُخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوَضُوء علىٰ المكاره، وكثرةُ الخُطىٰ إلىٰ المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». وقيل: إن المرابطةَ المأمورَ بها في الآية الكريمة هي المداومةُ في مكان العبادة والثبات.

وأخرج الحافظ ابنُ كثير عن ابن مردويه، بسنده إلىٰ أبي سلمة بن عبدالرحمن، قال: أقبل عليَّ أبو هريرة يوماً فقال: أتدري يا ابن أخي فيمَ نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾؟ قلت: لا، قال: أمَا إنه لم يكن في زمان النبيّ ﷺ غزوٌ يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد، ويصلّون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله بها، فعليهم أُنزلت ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ أي: علىٰ الصلوات الخمس، و﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أنفسَكم وهواكم ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ في مساجدكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. قال ابن كثير: وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا مرابطةُ الغزو في نُحور العدوّ، وحفظُ ثغور الإسلام وصيانتُها عن

دخول الأعداء إلىٰ حوزة بلاد المسلمين. وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذكر كثرةِ الثواب فيه، فروىٰ البخاريُّ في «صحيحه» عن سهل بن سعد الساعديّ، أن رسول الله ﷺ قال: «رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها»، وروىٰ مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامِه، وإن مات جرىٰ عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأجرِيَ عليه رزقُه وأمِن الفتّان».

وقال عز من قائل آمراً المؤمنين بإعداد آلات الحرب لمقاتلة الكفار، حسَبَ الطاقة والإمكان والاستطاعة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقرأ عبد الله بنُ مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمِنْ رُبُطِ الْخَيْلِ﴾ بضم الراء والباء، ككُتُب: جمع كتاب. يقال: رباط وأربطة ثم رُبُط، وهي ما ارتُبط من الخيل بالفِناء للقتال، الواحد رَبيط. يقال: رابطتُ: إذا لزمتَ الثغر. وقال أبو حاتم السجستانيّ: الرباط من الخيل: الخَمسُ فما فوقها، وهي الخيلُ التي تُرتبَط بإزاء العدوّ، ومنه قول الشاعر:

أمَرَ الإلهُ بـرَبْطِها لعدوِّه ... في الحربِ، إن الله خيرُ موفِّقِ

وقال الزمخشريُّ: والرِّباط اسمٌ للخيل التي تُربَط في سبيل الله، ويجوز أن يُسَمَّىٰ بالرِّباط الذي هو بمعنىٰ المرابطة، ويجوز أن يكون جمعَ ربيط، كفصيل وفصال. وقال ابن قتيبة: المرابطة: أن يربِط هؤلاء خيولَهم ويربط هؤلاء خيولهم في ثَغْرٍ، كلٌّ مُعِدٌّ لصاحبه، فسُمِّي المُقامُ في الثغر رباطاً. ويقال: لفلانٍ رباطٌ من الخيل، كما تقول: تِلادٌ، وهو أصلُ خيله. ومن الرِّباط بمعنىٰ المرابطة، وهي الإقامةُ في الثغر، حديثُ عمر رضي الله عنه، قال: إذا انتاطت المغازي، واشتدّت العزائمُ، ومُنعت الغنائم، فخيرُ غزوِكم الرِّباط. وقوله: «انتاطت»: بَعُدت، مشتق من نياط المفازة، وهو بُعدُها كأنها نيطت بأخرىٰ. والمغازي: مواضع الغزو

ومُتَوَجَّهاتُ الغُزاة. والعزائم: عزَماتُ الأمراء علىٰ الناس في الغزو إلىٰ الأقطار البعيدة وأخذُهم به.

ويقال: ربَطَ لذلك الأمرِ جأشاً، أي: صبرَ نفسَه وحبَسها عليه. وفلانٌ رابطُ الجأش وربيطُ الجأش، أي: شديدُ القلب، كأنه يربِطُ نفسه عن الفِرار. وفي الحديث: أن ربيط بني إسرائيل قال: «زينُ الحكيم الصمت». قال أبو سليمان الخطابيّ: يريد بالربيط الحكيم، ومعناه ذو العزم والقوّة في الرأي، من قولك: فلانٌ رابطُ الجأش وربيط الجأش، ويقال: بل الرَّبيط: الحَبْرُ العالم الذي ربَط نفسَه عن الدُّنيا وشغلها بالعلم والحِكمة. ومنه حديث عدي: قال الشَّعبيّ: وكان لنا جاراً ورَبيطاً بالنهرين، ومن ذلك حديثُ ابن الأكوع: فربطتُ عليه أستبقي نفسي، أي: تأخرتُ عنه، كأنه حبَس نفسَه وشدَّها.

وقال عز من قائل في قصة أصحاب الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤]. قوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: قوَّيناهم بالصبر علىٰ هجر الأهل والأوطان. ومن ذلك قوله عز وجل في قصة أم موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠]. قال أبو عبيد الهرويّ: الربطُ علىٰ القلب: إلهام الله جل وعز وتسديدُه وتقويتُه. ومن ذلك أيضاً قوله تقدست أسماؤه، ممتنّاً علىٰ عباده المؤمنين، وما كان من نصره إياهم يوم بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

[ر ب ع]

تدور مادة (ربع) حول ثلاثةِ أصول: أحدُها جزءٌ من أربعة أشياء، والآخر: الإقامة، والثالث: الإشالةُ والرفع، كما قال ابنُ فارس. وبكلّ هذه المعاني جاء الحديثُ والأثر. ولم يأتِ من هذه المادة في القرآن الكريم إلا ما يدور حول العدد أربعة ومشتقاته. جاء في الحديث: «يقول الله تعالىٰ يوم القيامة: يا ابن آدم، ألم أحمِلْك علىٰ الخيل والإبل، وزوّجتُك النساء، وجعلتك تَرْبَعُ وتَدْسَع؟ قال: بلىٰ، قال: فأين شكرُ ذلك؟» قوله: «تَرْبَع» أي: تأخذ رُبُعَ الغنيمة، يقال: ربَعْتُ القومَ أرْبَعُهُـم وأرْبُعُهـم: إذا أخذتَ رَبُعَ أموالهـم، مثلَ: عشَرْتُهم أعَشُرُهم. يريد ألم أجعلْك رئيساً مطاعاً؛ لأن الملك كان يأخذ الرُبُع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه، ويسمَّىٰ ذلك الرُبُعُ المِرباع. قال عبد الله بن عنمةَ الضبّيّ:

لـك المِـربـاعُ منهـا والصَّفـايـا   وحكمُكَ والنَّشيطةُ والفضولُ

ومنه قولـه ﷺ لعديّ بن حاتم: «إنك تأكـل المِرْبـاع، وهو لا يحـلُّ لك في دينك»، وفي حديث عمرو بنِ عَبَسة: لقد رأيتني وإني لربُعُ الإسلام، أي: رابعُ أهل الإسلام، تقدّمني ثلاثة وكنت رابعَهم. وفي حديث الشَّعبيّ في السِّقط: إذا نُكِس في الخلق الرابع، أي: إذا صار مضغةً في الرحم، لأن الله عز وجل قال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي صفتـه ﷺ: أطولُ من المربوع. المربوع: المعتدل القامة، وهو الوسط بين الطويل والقصير. يقال: رجلٌ رَبْعة ومربوع.

وفي حديث شريح القاضي: حدِّثِ امرأةً حديثين، فإن أبت فأربَع. قال ابن الأثير: هذا مثلٌ يُضرب للبليد الذي لا يفهم ما يقال له، أي: كرّر القولَ عليها أربع مـرات. ومنهـم من يرويه بوصل همزة أربع، أي «فإن أبت فارْبَعْ» بمعنـىٰ قِفْ

واقتصر. يقول: حدِّثْها حديثين، فإن أبت فأمسك ولا تُتعِبْ نفسك. وفي حديث سُبَيعة الأسلمية: لما تَعلَّتْ من نفاسها تشوَّفَتْ للخُطّاب، فقيل لها: لا يحلُّ لك. فسألت النبيَّ ﷺ، فقال لها: «اربَعي علىٰ نفسك» قال الزمخشري: هذا يحتمل وجهين: أحدُهما أن يكون من رَبَع بمعنىٰ وقف وانتظَر، قال الأحوص:

ما ضَرَّ جيرانَنا إذِ انتجَعوا   لو أنهم قبلَ يومِهمْ رَبَعُوا

فيوافق قوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وهذا يقتضي أنه أمرها بالكف عن التزوّج وانتظارِ تمام مدة التربص، وهو مذهب علي رضي الله عنه، قال: عدّتُها أبعدُ الأجلين.

ويحتمل أن يكون من قولهم: ربَع الرجلُ، إذا أخصَبَ من الربيع، ومنه رجلٌ مربوع، أي: منعوش مُنْفَسٌ عنه، فيكون المعنىٰ: نَفِّسي عن نفسك، وارمي بها إلىٰ الخِصْب والسَّعة، وأخرجيها عن بؤس المعتدّة وسوء حالها وضنَكِ أمرها، ويعضُده ما يروىٰ أن سُبيعة وضعتْ بعد وفاة زوجها بشهرٍ أو نحوه، فمرَّ بها أبو السَّنابل فقال: لقد تصنَّعْتِ للأزواج، لا حتىٰ تأتي عليك أربعةُ أشهر وعشر، فأتت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «كذبَ، فانكِحي فقد حللت».

وعن عمر رضي الله عنه: إذا ولَدتْ وزوجُها علىٰ سريره ــ يعني لم يُدْفَن ــ جاز أن تتزوج. ومنه حديثُ صِلَة بن أشْيَم رضي الله عنه، قال: طلبتُ الدنيا من مظانِّ حلالها، فجعلتُ لا أصيبُ منها إلاَّ قُوتاً، أما أنا فلا أَعيلُ فيها، وأما هي فلا تُجاوزني. فلما رأيت ذلك قلت: أيْ نفسُ، جُعل رِزْقُكِ كَفافاً فاربَعي. فربعَتْ ولم تكد. قوله: «من مظانّ حلالها» أي: من المواضع التي علمتْ فيها الحلال. ولا أعيل، أي: لا أفتقر؛ من العَيْلة. وقوله: فاربعي، أي: أقيمي واستقرّي وارْضَيْ بالقُوت، من: رَبَع بالمكان، إذا مكث به واستقر. وقوله: «ولم تكد» أي: ولم تكد تربع، فحذف خبر كاد.

وفـي حديث الدعاء: «اللهـم اجعـلِ القرآنَ ربيع قلبي» جعله ربيعاً له؛ لأن الإنسان يرتاح قلبُه في الربيع من الأزمان ويميل إليه. وفي دعاء الاستسقاء: «اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً مُرْبِعاً» أي: عامّاً يُغني عن الارتياد والنُّجعة، فالناسُ يَرْبَعُون حيث شاءوا، أي: يقيمون ولا يحتاجون إلىٰ الانتقال في طلب الكلأ. أو يكون من أربَعَ الغيثُ إذا أنبت الربيع.

وفي الحديث: أن سوادةَ بن الربيع أتىٰ النبيَّ ﷺ بأمه، فقال لها عليه السلام فيما قال: «مُرِي بَنِيكِ أن يُحْسِنوا غِذاءَ رِباعهم» الرِّباع، بكسر الراء: جَمعُ رُبَع، وهو ما وُلد من الإبل في الربيع، وقيل: ما وُلِد في أول النتاج. وإحسانُ غذائها أن لا يُستَقْصىٰ حَلْبُ أمهاتِها إبقاءً عليها.

وفي حديث سليمانَ بن عبد الملك:

إنّ بنـــيَّ صِبْيَـــةٌ صيفيُّـــونْ أفلحَ مَن كان له رِبْعيُّونْ

الرِّبْعـيُّ: الذي وُلِد في الربيـع، علـىٰ غيـر قيـاس، وهو مَثَلٌ للعرب قديم. والصبية الصيفيون: الذين وُلِدوا للرجل علىٰ كبر.

وفي كتابه ﷺ للمهاجرين والأنصار: «إنهم أمةٌ واحدة علىٰ رِباعتهم» يقال: القومُ علىٰ رِباعتهم ورِباعهم، أي: علىٰ استقامتهم. يريد أنهم علىٰ أمرهم الذي كانوا عليه. ورباعةُ الرجل: شأنُهُ وحالُه التي هو رابعٌ عليها، أي: ثابتٌ مقيم. وفي الحديـث: أنـه ﷺ مرَّ بقومٍ يَرْبَعُـون حجـراً، ويروىٰ: «يرتبعـون». رَبْـعُ الحَجَر وارتباعُه: إشالتُه ورفْعُه لإظهار القوَّة.

وفي الحديث: «أغِبُّوا عِيادةَ المريض وارْبِعوا» أي: دعوه يومين بعد العيادة، وأْتُوه اليوم الرابع، وأصله من الرِّبْع في أوراد الإبل وهو: أن تردَ يوماً وتُترك يومين لا تُسْقَىٰ، ثم ترِدُ اليوم الرابع.

[ر ب و]

تدل مادة (ربا) علىٰ معنًى واحد في اللغة هو الزيادةُ والنماءُ والعلوّ. يقال: ربا الشيء يربو رَبْواً، أي: زاد. قال عز وجل: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠] قال الفراء: أي: زائدة، كقولك: أربيتُ إذا أخذتَ أكثرَ مما أعطيت. وقال أهل التفسير: أي أخذهم الله أخذةً نامية زائدة علىٰ أخَذات الأمم. والمعنىٰ أنها بالغة في الشدة إلىٰ الغاية.

والرِّبا المنهيُّ عنه المذموم في قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] هو الزيادة علىٰ أصل المال من غير عقد تبايُع.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] الربا هنا ليس هو المنهيَّ عنه في الآية السابقة، وإنما المراد به الهديّة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الربا رباءان، فربـاً لا يصحّ، يعني ربا البيع، ورباً لا بأس به، وهو هديّة الرجل يريد فضلها، أي: أضعافها، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعِفُ الله لهم الثوابَ والجزاء.

كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحدٌ بعِدْل تمرة من كسبٍ طيب إلاّ أخذها الرحمن بيمينه فيُربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدُكم فَلُوَّه أو فصيلَه حتىٰ تصير التمرةُ أعظمَ من أُحد». وقال السُّدِّيّ: الربا في هذا الموضع الهديّةُ يُهْديها الرجلُ لأخيه يطلب المكافأة، لأن ذلك لا يربو عند الله، لا يؤجَرُ عليه صاحبُه، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادةُ والضحاك، قال الواحدي: وهو قولُ جماعة المفسّرين. قال أبو إسحاق الزجاج: يعني دفْعَ الإنسان الشيءَ ليعوَّض أكثر منه، وذلك ليس بحرام،

ولكنه لا ثوابَ فيه؛ لأن الذي يهَبُه يستدعي به ما هو أكثرُ منه، وقال الشعبي: معنىٰ الآية أن ما خدَم به الإنسانُ أحداً لينتفعَ به في دنياه، فإن ذلك النفعَ الذي يُجْزَىٰ به الخِدمة لا يربو عند الله. وقيل: هذا كان حراماً علىٰ النبي ﷺ علىٰ الخصوص، لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخت وارتفعت. وقرأ أبو جعفر يزيدُ بنُ القعقاع: ﴿وَرَبَأَتْ﴾ أي: ارتفعت حتىٰ صارت بمنزلة الرابئة، وهو الذي يحفظ القوم علىٰ مكان مشرِفٍ، ويقال له: رابىء ورابئة وربيئة.

ويقول تقدست أسماؤه آمراً بالوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظةِ علىٰ الأيمان المؤكدة: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٢]. قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أن تكون جماعةٌ هي أربىٰ من جماعة، أي: أكثرَ عدداً منها وأوفرَ مالاً. قال أبو زكريا الفراء: المعنىٰ لا تغدِروا بقومٍ لقلّتهم وكثرتكم، أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عزَّرتموهم بالأَيمان. قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شوكةً في أعادي حلفائهم نقضوا عهدَهم وحالفوا أعداءَهم. وقيل: هو تحذيرٌ للمؤمنين أن يغترُّوا بكثرة قريش وسَعةِ أموالهم فينقُضوا بيعةَ النبيّ ﷺ. وقال ابن عرفة نفطويه: يقول: إذا كان بينكم وبين أمةٍ عقدٌ أو حِلفٌ نقضتم ذلك وجعلتم مكانَهم أمةً هي أكثرُ منهم عدداً. والرَّباء: الكثرةُ والرفعةُ، قال الأخطل:

تعلو الهضابَ وحَلُّوا في أَرومتها ... أهلُ الرَّباءِ وأهلُ الفخرِ إن فَخَرُوا

ويكون أرْبَىٰ بمعنىٰ أغنىٰ وأعلىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧] قوله تعالىٰ: ﴿ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ ﴾ أي: مرتفعاً طافياً فوق الماء. والزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ علىٰ وجه السَّيل، والمراد من هذا تشبيهُ الكفر بالزَّبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحلُّ ويعلَقُ بجَنبَات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يَذهب الكفر ويضمحل، وهو قوله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الرعد: ١٧].

قال عز من قائل: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] الربوة: ما ارتفع من الأرض. وقال الخليل: الربوة أرضٌ مرتفعة طيبة. وفيها ثلاث لغات: رُبْوة ورَبْوة ورِبْوة. وبالضم قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وبالفتح قرأ بعض أهل الشام والكوفة. وبالكسر قرأ ابن عباس. ويقال أيضاً: رَباوة، بالحركات الثلاث في الراء. ثم يقال: ربَوْتُ الرابيةَ، أي: علوتُها.

جاء في كتاب النبي ﷺ إلىٰ وائل بن حُجْر الحضرميّ وقومِه: «ومن أجبا فقد أربىٰ». قال ابن الأثير: أربىٰ، أي: دخل في الرِّبا، يقال: أربىٰ يُربي إرباءً، وأصل الربا: الزيادةُ، وقد ربا المالُ يربو رَبْواً، والاسم الرِّبا، مقصور، والمعنىٰ أنه إذا باعه علىٰ أن فيه كذا كذا قفيزاً، وهو غير معلوم، فإنْ نَقَص أو زاد عما وقع التعاقدُ عليه، فقد حصل الرِّبا في أحد الجانبين. وقوله: «أجبا» يقال: أجبا الرجلُ: إذا باع الزرعَ قبل أن يبدوَ صلاحُه، وأصلُه الهمز، من جبأَ عن الشيء: إذا كفَّ عنه، لأن المبتاعَ ممتنعٌ من الانتفاع به إلىٰ أن يُدرك، وإنما خُففت الهمزة ليُزاوجَ «أربىٰ».

وجاء في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لطِهْفة بن أبي زهير النهدي، إلىٰ بني نهد ابن زيد: «من أقرَّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاءُ بالعهد والذِّمةُ، ومن

أبىٰ فعليـه الرِّبْوَة». الرِّبوة: الزيادةُ علىٰ ما فُرِض علىٰ المذعن المطيـع، أي: من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادةُ في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له. وكل شيء زاد فقـد ربـا. ويروىٰ: «من أقرَّ بالجزية فعليه الرِّبوةُ» أي: من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثرُ مما يجب عليه بالزكاة.

وفي الحديـث: «الفردوسُ رَبْوةُ الجنة» أي: أرفعُها. والرَّبوة بالفتح والضمّ والكسر: ما ارتفع من الأرض. وفي معنىٰ هذا الحديث ما رُوي في «الصحيحين»، أن رسـول الله ﷺ قـال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِردوسَ، فإنه أعلىٰ الجنة وأوسطُ الجنة، ومنه تَفجَّرُ أنهارُ الجنة، وفوقَه عرشُ الرحمن».

وجاء في حديثه ﷺ، في صلح أهل نجران: أنه ليس عليهم رُبِّيَّةٌ ولا دم. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: هكذا الحديث بتشديد الباء والياء، قال الفراء: إنما هي رُبْيَةٌ، مخفّفة، أراد بها الربا، قال أبو عبيد: يعني أنه صالحهم علىٰ أنْ وضع عنهم الربـا الذي كان عليهم في الجاهليـة والدمـاءَ التي كانت عليهـم يُطلَبُـون بهـا. قال الفراء: ومثلُ رُبْية من الربا: حُبْيةٌ من الاحتباء، سماعٌ من العرب، يعني أنهم تكلموا بهما بالياء، فقالوا: رُبْية وحُبْية، ولم يقولوا: حُبْوة، ورُبْوة، وأصلُهما الواو من الحَبْـوة والرَّبْـوة، قال: والذي يراد من هذا الحديث أنه أسقط عنهم كلَّ دم كانـوا يُطْلَبُون به في الجاهلية وكلَّ رِباً كان عليهم إلا رؤوسَ الأموال، فإنهم يردُّونها، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. وهذا مثلُ حديثه الآخر: «ألا إن كلَّ دمٍ ومالٍ ومأثُرةٍ كانت في الجاهلية، فإنها تحت قدميَّ هاتين إلاَّ سِدانةَ البيت وسقاية الحاج» يعني أنه أقرَّهما علىٰ حالهما. والسِّدانةُ في كلام العرب: الحجابة، والسادنُ: الحاجب، وهم السَّدَنة، والسَّدنةُ: الجماعة.

وفي حديث الأنصار يوم أُحدٍ: «لئن أصبْنا منهم يوماً مثلَ هذا لنُرْبيَنَّ عليهم في التمثيل» أي: لنَزيدَنّ ولنُضاعفَنّ. والتمثيل مبالغة في المُثْلة، يقال: مَثَلْتُ بالقتيل: إذا جدعتَ أنفه أو أذُنَه أو مذاكيرَه، أو شيئاً من أطرافه. والمُثْلةُ منهيٌّ عنها.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ من بيتِها ليلاً، ومضىٰ إلىٰ البقيـع فتبعَتْـه وظنّت أنه دخل بعضَ حُجْـر نسائـه، فلما أحسَّ بسَوادهـا قصد قصْدَه، فعَدتْ وعَدا علىٰ أثرِها، فلم يدركها إلاّ وهي في جوف حجرتها، فدنا منها وقد وقع عليها البُهْرُ والربو، فقال: «ما لي أراكِ حَشْيا رابية»؟ هذا الحديث أخرجه الزمخشـري من حديث أم سلمة، وأخرجه ابن الأثيـر من حديث عائشة رضي الله عنهمـا. والحَشْيـا: هي التي أصابها الحَشَىٰ، وهو الرَّبْـو. والرابية: التي أخذهـا الرَّبْوُ، وهو النّهيجُ وتواترُ النَّفَس الذي يعرضُ للمُسرع في مشيه وحركته.

ومن أحاديث المادة: التربية. يقال: ربَّيتُه تربيةً وتربَّيْتُه، أي: غذَوْتُه، ويقال هـذا لكلِّ ما ينمـي كالولد والزرع ونحوها. ويقال: ربَوْتُ في بني فلان ورَبِيـتُ ــبوزن رَضِيتُ ــ أي: نشأتُ فيهم. قال مسكينٌ الدارميّ:

ثلاثةُ أملاكٍ رَبَوْا في حُجُورِنا فهل قائلٌ حقّاً كمَنْ هو كاذبُ

وفي حديث بني نهدٍ: قال علي رضي الله عنه: يارسول الله، نراك تكلِّمُ وفودَ العرب بما لا نفهم أكثره، ونحن بنو أبٍ واحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «أدَّبني ربِّي فأحسَنَ تأديبي ورَبِيتُ في بني سعد». رَبِيت بوزن رضيت، أي: نشأت. وهذا الحديث أكثر ما يدور في كتب اللغة، وتكلم عليه رجال الحديث مضعِّفين، فقال الحافظ السخاوي في« المقاصد»: سنده ضعيف جداً، وإن اقتصر شيخنا ــ يعني ابن حجر ــ علىٰ الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه، ولكنَّ معناه صحيح. . . . لا سيما وفي «تاريخ أصبهان» لأبي نعيم بسندٍ ضعيف أيضاً من حديث ابن عمر، قال: قال عمر: يا نبيَّ الله، ما لك أفصحُنا؟ فقال النبي ﷺ: «جاءني جبريل فلقّنني لغة أبي إسماعيل». بل أخرج أبو سعد السمعانيُّ في «أدب الإملاء» بسندٍ منقطع، فيه من لم أعرفْه، عن عبد الله ــ أظنه ابنَ مسعود رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أدَّبنـي فأحسـن تأديبي، ثم أمرني بمكـارم الاخلاق، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾» [الأعراف: ١٩٩]. ثم قال السخاوي: وبالجملة، فهو

كما قال ابن تيمية: لا يُعرَفُ له إسنادٌ ثابت. وقد صححَّ هذا الحديثَ الحافظُ أبو الفضل ابنُ ناصر علىٰ ما ذكر القاضي العجلونيُّ في «كشف الخفا».

[ر ت ع]

تدلُّ مادة (رتع) علىٰ الاتّساع في المأكل، تقول: رتَع يرْتَعُ، إذا أكل ما شاء، ولا يكون ذلك إلاّ في الخِصب، والمراتع: موضع الرَّتْعة. هكذا قال ابن فارس. وقال الجوهريُّ: رتعَتِ الماشيةُ تَرْتع رُتوعاً، أي: أكلت ما شاءت، وإبلٌ رِتاعٌ: جمع راتع، مثل نِيام جمع نائم، وقومٌ راتعون، والموضع مَرْتَع، وأرتع إبلَه فرتَعَتْ، وقومٌ مُرْتِعُون. قالت الخنساء:

ترتَعُ ما رتَعَتْ حتىٰ إذا ادَّكرتْ فـإنمـا هـيَ إقبـالٌ وإدبـارُ

وقال الفرزدق:

راحـتْ بمسلمـةَ البغـالُ عشيّـةً فارْعَىٰ فَزارةُ، لا هَناكِ المَرْتَعُ

فهذا أصلُه أكلُ البهائم ومواضعُ أكلها. قال الراغب: ويُستعار للإنسان إذا أُريدَ به الأكلُ الكثير، وعلىٰ طريق التشبيه. قال سويد بن أبي كاهل اليشكُري فيمن أظهر له وُدّاً وأخفىٰ بُغْضاً:

ويُحيِّينـــي إذا لاقَيْتُـــهُ وإذا يخلُـو لـهُ لحمي رَتَـعْ

ويقال: خرجنا نرتَعُ ونلعب: أي نَنْعَم ونلهو. قال عز من قائل علىٰ لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] قال ابن عباس: أي: يلهو وينشَطُ ويسعىٰ، وهذا إخبارٌ عن يوسف عليه السلام، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾

بالنون، أخبر الإخوة عن أنفسهم مع يوسف عليه السلام. وقرأ نافع [وابنُ كثير: ﴿نَرْتَعِ﴾ بكسر العين، وقرأ نافع]: ﴿يَرْتَعِ﴾ بالياء [فيهما][1]، وبكسر العين مثل ابن كثير، من رعىٰ الغنم، أي يرعىٰ ماشيته، ويرعىٰ المال كما يرعاه الراعي. وقال ابن قتيبة: معنىٰ نَرْتَع: نتحارس ونتحافظ ويرعىٰ بعضنا بعضاً، من قولهم: رعاك الله، أي: حفظك. ونلعَبْ: من اللعب. قيل لأبي عمرو بن العلاء كيف قالوا: ﴿ونَلْعَبْ﴾ وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. وقيل: المراد به اللعب المباح من الأنبياء، وهو مجرد الانبساط، وقيل: هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب، ويتقوَّوْن به عليه، كما في قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧] لا اللعبُ المحظور، الذي هو ضدُّ الحقّ، ولذلك لم ينكر يعقوب عليهم لما قالوا: ﴿ونَلْعَبْ﴾.

وجاء في حديث الاستسقاء: «اللهم اسْقِنا غيثاً مُرْبِعاً مُرْتِعاً» فالمربع بالباء الموحدة: هو الدائمُ المقيم، يقال: رَبَع بالمكان وأرْبَع، إذا أقام به، أي: غيثاً يحمل الناسَ علىٰ أن يقيموا عنده، لعُموم نباته وكثرةِ مائه. والمرتِع، بالتاء المثناة من فوق، من رتَعتِ الإبل: إذا رعت، وأرْتَعها الله، أي: أنبت لها ما تَرتَعُ فيه وترعاه.

وفي حديث ابن زِمل الجهنيّ ورؤياه التي قصَّها علىٰ رسول الله ﷺ ــ وهو في الطِّوال، قال فيما قال: «فمنهم المُرْتِعُ» المرتعُ: التارك دابَّته لتَرْتَع. يقال: رتعت الإبلُ، إذا رعت، وأرْتَعَها صاحبهُا. قال الزمخشري: ولا يكون الرتعُ إلاَّ في الخِصْب والسَّعة، ومنه: رتع فلانٌ في مال فلان. ومنه حديثُ أمِّ زَرْع المرويّ في

(١) ما بين المعقوفتين سقط عند المؤلف رحمه الله، والجادّة إثباته. انظر «حجة القراءات» لابن زنجلة ص: (٣٥٥) وما بعدها، و«الموضَح» لابن أبي مريم (٢: ٦٧١) وما بعدها أيضاً. (الناشر).

«الصحيحين»: «ضيفُ أبي زرع، وما ضيفُ أبي زرع! في شِبَعٍ ورِيٍّ ورَتْع» الرَّتْع: التنعُّم، وأصلُه من الرَّعْي في الخِصْب.

وفي الحديث: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قال ابن الأثير: أراد برياض الجنـة ذِكْر الله، وشبَّه الخَوْضَ فيه بالرّتْـع في الخِصْب. قال العجلونيُّ في «كشف الخفا»: وعند الترمذي، عن أبي هريرة: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قيل: وما رياضُ الجنة؟ قال: «المساجد». قيل: وما الرَّتْعُ؟ قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». ورواه الطبرانيُّ، عن ابن عباس بلفظ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قيل: يارسولَ الله، وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس العلم». وقال في «الجامع الكبير»: ورواه ابن شاهين، عن أبي هريرة بلفظ: « إذا مررتم برياض الجنة فاجلسوا إليهم». قالوا: يا رسولَ الله، وما رياض الجنة؟ قال: «أهل الذكر».

وفي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحـلال بيّـن والحرام بيّن، وبينهما مشبَّهاتٌ لايعلمها كثيرٌ من الناس. فمن اتقىٰ المشبَّهاتِ استبـرأ لدِينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعىٰ حول الحِمىٰ يوشك أن يواقعه» الحديث. وروي: «وإنه من يرتعُ حول الحِمىٰ يوشك أن يخالطه» أي: يطوفُ به ويدور حولَه. وفي رواية ثالثة: «ومن أرْتَعَ فيه كان كالمُرْتِع إلىٰ جنب الحِمىٰ يوشك أن يقع فيه».

قال ابن حجر: وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة، وهي أن ملوك العرب كانوا يحمون لمراعي مواشيهم أماكنَ مختصة يتوعَّدون من يرعىٰ فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثَّل لهم النبي ﷺ بما هو مشهور عندهم، فالخائف من العقوبة المراقب لرضا الملِك يَبْعُد عن ذلك الحمـىٰ خشيةَ أن تقع مواشيه في شيء منه، فبُعْدُه أسلمُ له ولوِ اشتدَّ حذرُه، وغير الخائف المراقب يقرُب منه ويرعىٰ من جوانبه، فلا يأمن أن تنفرد الفاذَّةُ فتقعَ فيه بغير اختياره، أو يمحُلَ المكان الذي هو فيه ويقعَ الخِصْبُ في الحمـىٰ فلا يمـلك نفسَه أن يقـع فيـه. فالله سبحانه وتعالـىٰ هو الملِك حقاً،

وحِماه محارمُه.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: إني والله أُرْتِع فأُشبِع، يريد حسنَ رعايته للرعيّة، وأنه يدَعُهم حتىٰ يشبعوا في المرتع. وفي حديث الغضبان الشيباني المحبوس، قال له الحجاج: سَمِنْتَ! قال: أسمَنني القيدُ والرَّتَعَة. الرَّتَعة بفتح التاء وسكونها: الاتساعُ في الخِصب، وأراد طولَ مكثه في الحبس، يتوسَّع في الأكل، ولا يتحرّك، فهو أدعىٰ لترهُّلِه وسِمَنه.

[رجع]

يقول ربنا عز وجل في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢] قال أبو عبيد الهرويّ ــ في «الغريبين» في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ــ أي: يردُّون البضاعة؛ لأنها ثمن ما اكتالوه، وأنهم لا يأخذون شيئاً إلاّ بثمنه. وقيل: يرجعون إلينا إذا علموا ما كِيلَ لهم من الطعام، ولم يُؤخذ ثمنُه، ويدلّ علىٰ هذا القول قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ﴾ الآية. . . [يوسف: ٦٥].

وتفسيرُ الهرويّ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بـ (يَرُدُّون البضاعةَ) إشارةٌ إلىٰ أن الفعل (رجع) يستعمل لازماً ومتعديّاً. تقول: رجع زيدٌ ورَجَعتُه أنا، وقولُ الناس: «أرجعتُ الشيءَ» غير معروف إلاّ في لغةٍ لهذيل. قال تعالىٰ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١]. وقال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣]. وقال: ﴿فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي: علىٰ إعادته حيّاً بعد موته وبِلاه؛ لأنه المبتدىء المعيد. وقال مجاهد: لقادرٌ علىٰ أن يردَّ

الماءَ في الإحليل، وقال عكرمة والضحّاك: علىٰ أن يردَّ الماءَ في الصُّلب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق:١١] أي: ذات المطر بعد المطر. قال أبو إسحاقَ الزجاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. ويقال للغدير من الماء: رَجْعٌ، قال المتنخلُ الهذليّ يصف سيفاً:

أبيضُ كالرَّجعِ رَسُوبٌ إذا ... ما ثاخَ في مُحْتَفَلٍ يختلي(١)

وفي الحديث: أنه ﷺ نَهىٰ أن يُستنجىٰ برَجيعٍ أو عَظْم. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: فأما الرجيع فقد يكون الروثَ أو العَذِرةَ جميعاً، وإنما سُمِّي رجيعاً لأنه رجع عن حاله الأولىٰ بعدما كان طعاماً أو عَلَفاً إلىٰ غير ذلك، وكذلك كلُّ شيء يكون من قول أو فِعل يُردَّد فهو رجيع؛ لأن معناه مرجوع، أي: مردود، وقد يكون الرجيع الحجرَ الذي قد استنجي به مرةً ثم رَجَعه إليه فاستنجىٰ به، وقد رُوي عن مجاهد أنه كان يكره أن يستنجي بالحجر الذي قد استُنجيَ به مرة. وفي غير هذا الحديث أنه أُتي برَوْث في الاستنجاء فقال: «إنها رِكْس» وهو شبيه المعنىٰ بالرجيع، يقال: ركستُ الشيءَ وأركسْتُه ــ لغتان ــ: إذا رددْتَه، قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ [النساء:٨٨] وتأويله فيما نَرىٰ أنه ردَّهم إلىٰ كفرهم.

وفي الحديث: أنه ﷺ رأىٰ في إبل الصدقة ناقةً كوماء، فسأل عنها المصدِّق فقال: إني ارتجعتها بإبلٍ، فسكت. الارتجاعُ: أن يقدَمَ الرجلُ بإبله المِصرَ فيبيعَها ثم يشتريَ بثمنها غيرَها، فهي الرِّجعة بكسر الراء، وكذلك هو في الصدقة، إذا وجب علىٰ ربِّ المال سِنٌّ من الإبل فأخذَ مكانها سنّاً أخرىٰ فتلك التي أخذ رِجعةٌ؛ لأنه ارتجعها من الذي وجبت عليه، ومنه حديث معاوية رضي الله عنه: شَكَتْ بنو

---

(١) أراد بالأبيض: السيف، والرجع: الغدير، شبّه السيف به في البياض. والرسوب: الذي يرسب في اللحم. والمحتفَل ــ بفتح الفاء ــ: أعظَمُ موضع في الجسد. يختلي: يقطع. ثاخ: ذهب في الأرض سُفلاً. اهـ. «لسان العرب»: (ثوخ). (الناشر).

تغلب إليه السَّنة ــ أي الجدب ــ فقال: كيف تشكون الحاجة مع اجتلاب المِهارة وارتجاع البِكارة؟ أي: تجلُبون أولادَ الخيل فتبيعونها وترتجعونِ بأثمانها البِكارةَ للقِنْيَة. والبِكارة، بكسر الباء: الإبل، جمع البَكْر.

وفي حديث السُّحور: «فإنه يؤذِّن بليل ليَرْجِعَ قائمَكُمْ ويوقِظَ نائمَكم». قال ابن الأثير: القائم: هو الذي يصلّي صلاة الليل. ورجوعُه: عودُه إلىٰ نومه أو قعودُه عن صلاته إذا سمع الأذان. ويَرْجع فعلٌ قاصر ــ أي لازم ــ ومتعدّ. تقول: رجع زيدٌ ورجعته أنا، وهو هنا متعد ليزاوج «يوقظ».

وفي صفة قراءته عليه الصلاة والسلام يوم الفتح: «أنه كان يُرَجِّع». قال الحافظ أبو موسىٰ المَديني: الترجيع: ترديدُ القراءة. قال الأصمعيّ: رجَّع الفحلُ في هديرِه: إذا ردَّده، ومنه الترجيعُ في الأذان. وقيل: هو تقارُب ضروبِ الحركات في الصوت، يقال: رجَّع الوشْيَ والنَّقشَ: إذا قارب ما بين أجزائها، وقد حكىٰ عبد الله بنُ مغفَّلٍ رضي الله عنه ترجيعَه بمَدّ الصوت في القراءة نحو آء، آء، آء، وهذا إنما حصل منه ــ والله أعلم ــ لأنه كان راكباً، فجعلت الناقة تُنزِّيه وتحرِّكُه فيحصُل هذا من صوته، والموضعُ الذي رُوِي: «أنه كان لا يرجِّع» لعلّه حين لم يكن راكباً، فلم يلجأ إلىٰ الترجيع.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، حين نُعِي له قُثَمُ ابنُ العباس بن عبد المطلب استرجع. أي: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. يقال منه: رجَّع واسترجع. وفي الحديث: أنه نَفَّل في البَدْأةِ الربُعَ وفي الرَّجعةِ الثلث. أراد بالبدأة: ابتداءَ الغزو، وبالرَّجعة: القُفولَ منه. والمعنىٰ: كان إذا نهضت سريّةٌ من جملة العسكر المقبلِ علىٰ العدوّ فأوقعت بهم نفَّلَها الربعَ مما غنمت، وإذا فعلت ذلك عند عود العسكر نفَّلَها الثلثَ؛ لأن الكرَّة الثانية أشقُّ عليهم والخطرَ فيها أعظم، وهم في الأول أنشطُ وأشهىٰ للسَّير والإمعانِ في بلاد العدوّ، وهم عند القفول أضعفُ وأفترُ وأشهىٰ للرجوع إلىٰ أوطانهم، فزادهم لذلك.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: من كان له مالٌ يبلِّغُه حجَّ بيتِ الله، أو تجبُ عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل سأل الرجعةَ عند الموت، أي: سأل أن يُردَّ إلىٰ الدنيا ليُحسِنَ العمل ويستدرك ما فات. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال للجلّاد: اضرِبْ وارجِعْ يديك. قيل: معناه ألاّ يرفع يديه إذا أراد الضرب، كأنه كان قد رفع يدَه عند الضرب، فقال: ارجعها إلىٰ موضعها.

[ر ج ل]

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج:٢٧] ويقول تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ [البقرة:٢٣٩]. الرِّجَال في هاتين الآيتين جمع راجل. وهو الماشي غيرُ الراكب، ويقال: رجلٌ راجل، أي: قويٌّ علىٰ المشي. ويُجمع الراجلُ علىٰ رِجالٍ، مثلَ صاحب وصِحاب، ويُجمع علىٰ رَجْل، مثلَ صاحب وصَحْب، وراكب ورَكْب، وتاجر وتَجْر، ومنه قوله تعالىٰ مبطِلاً كيدَ إبليسَ عليه لعنةُ الله ومُمْهِلَه: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] قرىء: ﴿ورَجْلِكَ﴾ بسكون الجيم، و﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسرها، وهما سواء، ويجمع الراجل أيضاً علىٰ رَجَّالة. وفي قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه:

تظلُّ منه سباعُ الجوِّ ضامزةً ولا تُمَشِّي بواديهِ الأراجيلُ[1]

(١) ضمَزَ الحيوان: أمسك بلقمته في فمه فلم يجترّ، من الفزع وغيره. والبيت من قصيدة كعب المشهورة المسماة (البردة)، ورواية البيت في «المجموعة النبهانية» (٣: ٧): (ضامرة) بالراء، و(تَمَشَّىٰ) بفتح التاء والشين وبعدها ألفٌ مقصورة علىٰ مثال: تغدّى. (الناشر).

الأراجيل: هم الرَّجّالة. قال ابن الأثير: وكأنه جمعُ الجمع، وقيل: أراد بالأراجيل الرجال، وهو جمع الجمع أيضاً. والرجل: هو المذكَّر من الناس. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وفي الحديث: أنه ﷺ لعن المترجِّلات من النساء. يعني اللاتي يتشبَّهْن بالرجال في زيِّهم وهيأتهم، فأما في العلم والرأي فمحمود. وفي رواية: لعن الرَّجُلةَ من النساء، يعني المترجِّلة. ويقال: امرأة رَجُلَة: إذا تشبَّهت بالرجال في الرأي والمعرفة، ومنه الحديث: أن عائشة كانت رَجُلة الرأي، أي: كان رأيُها رأيَ الرجال. قال الشاعر:

كُلُّ جارٍ ظَلَّ مغتبطاً ... غيرَ جيرانِ بني جَبَلَهْ

مزَّقُوا جيبَ فتاتِهِمُ ... لم يُبالوا حُرْمةَ الرَّجُلَهْ

وفي حديث العُرنيِّين: فما ترجَّلَ النهار حتىٰ أُتي بهم، أي: ما ارتفع النهار، يقال: ترجَّلتِ الضُّحىٰ، أي: ارتفع وقتُها، تشبيهاً بارتفاع الرجُل عن الصِّبا وفي الحديث: أنه ﷺ نهىٰ عن الترجُّل إلاَّ غِبّاً، يقال: ترجَّل الرجلُ: إذا رجَّل شعَرَه، كقولك: تخمرت المرأةُ: إذا خمَّرت رأسَها، وتطيَّب: إذا طيَّب نفسَه، وترجيلُ الشعَر: تسريحُه وتغذيتُه بالأدهان وتقويتُه، كأنه ﷺ كره كثرةَ الترفُّه والتنعُّم.

وفي الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي ولِجوْفِه أزيزٌ كأزيز المِرْجَلِ من البكاء». المرجل: كلُّ قِدْر يُطبَخُ فيها من حِجارة أو خزَفٍ أو حديد، قيل: إنما سُمِّي بذلك لأنه إذا نُصِب فكأنه أقيم علىٰ أرجل.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنه دخل مكة رِجلٌ من جَراد، فجَعل غلمانٌ مكة يأخذون منه، فقال: «أمَا إنهم لو علموا لم يأخذوه». قال أبو عبيد: قوله: «رِجلٌ من جراد» الرِّجْل: الجماعة الكثيرة من الجراد خاصّة، وهذا جمعٌ علىٰ غير لفظ الواحد، ومثله في كلامهم كثير، وهو كقولهم لجماعة النعام: الخيْطُ

والخِيط، ولجماعة الظباء: إجْل، ولجماعة البقر: صِوار، وللحمير: عانة. والذي يُراد من هذا الحديث، أنه كرِه قتلَ الجراد في الحرم لأنه كان عنده من صيد البرّ، وقال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: أهدىٰ لنا أبو بكر رِجْلَ شاةٍ مشويّةٍ، فقسمْتُها إلا كتفَها. قال الخطابي: قولها: «رجل شاة» تريد رجلها مما يليها من شَقِّها طولاً، ولولا ذلك لم يكن فيها كتِف، وقد يجوز أن تكون أرادت شاةً وافية الأعضاء، كَنَتْ عنها بالرِّجل، كما يُكْنىٰ عنها بالرأس. يريد أنه من باب تسمية الكل باسم البعض.

وفي حديث سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه: وإني لا أعلم نبيّاً هلك علىٰ رِجله من الجبابرة ما هلك علىٰ رِجْل موسىٰ عليه السلام. علىٰ رِجْل موسىٰ، أي: في زمانه. يقال: كان ذلك على رِجْل فلانٍ، وعلىٰ قدم فلانٍ، وعلىٰ حيِّ فلانٍ، أي: في عهده وزمانه. وفي الحديث: أنه ﷺ اشترىٰ رِجْل سراويل. هذا كما يقال: اشترىٰ زوجَ خُفّ، وزوجَ نَعْل، وإنما هما زوجان، يريد رِجْلي سراويل؛ لأن السراويل من لباس الرِّجْلين، وبعضهم يسمِّي السراويل رِجْلاً. وفي الحديث: «الرِّجلُ جُبار» أي: ما أصابت الدابةُ برجلها فلا قودَ علىٰ صاحبها. قال ابن الأثير: والفقهاء فيه مختلفون في حالة الركوب عليها وقَوْدِها وسَوْقِها وما أصابت برجلها أو يدها.

وفي الحديث: «الرؤيا لأول عابر، وهي علىٰ رِجْلِ طائر». يقال: عبَرْتُ الرؤيا أعبُرها عَبْراً، وعبَّرْتَها تعبيراً: إذا أوّلْتَها وفسَّرْتَها، وخبَّرْتَ بآخر ما يؤول إليه أمرُها. ومعنىٰ: «لأول عابر» أي: إذا عَبَرها وفسَّرها بَرٌّ صادق عالمٌ بأصولها وفروعها، واجتهد ووفَّقه الله للصواب، وقعت له دون غيره ممَّن فسَّرها بعده. وقوله: «وهي علىٰ رجل طائر»: قال ابن الأثير: أي أنها علىٰ رِجل قَدَرٍ جارٍ، وقضاءٍ ماضٍ من خير أو شر، وأن ذلك هو الذي قسمه الله لصاحبها، من قولهم: اقتسموا داراً فطار

سهمُ فلان في ناحيتها، أي: وقع سهمُه وخرَج، وكلُّ حركةٍ من كلمةٍ أو شيء يجري لك فهو طائر. والمراد أن الرؤيا هي التي يُعبِّرها المعبِّرُ الأول، فكأنها كانت على رجل طائر، فسقطت ووقعت حيث عُبِّرت كما يسقط الذي يكون على رِجل الطائر بأدنى حركة.

[ر ج م]

ترجع مادة (رجم) إلى أصل واحد هو الرميُ بالحجارة كما قال ابن فارس، ثم يُستعار ذلك ويُتصرَّف فيه إلى معانٍ أخرى، مثل: اللعن والشتيمة والظنّ والحَدْس. قال عز من قائل، على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢٠]، وقال على لسان قوم نوح عليه السلام: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦]، فكلُّ ذلك بمعنى القتل رمياً بالحجارة، وهو المعنى الأصلي لمادة (رجم).

وقال عز من قائل لإبليس بعدَما أبى واستكبر أن يكون من الساجدين: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٣٤]، أي: ملعون. وقيل: مرجومٌ بالشُّهب. وقيل: الشيطانُ الرجيم من ذلك، أي: المرجوم بالشُّهب والكواكب كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى على لسان أبي إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]. قوله: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي: لأشتِمنَّك، ومنه قولُ النابغة الجعدي رضي الله عنه:

تـراجَمْنـا بمُـرِّ القـولِ حتـىٰ   نصيـرُ كـأننـا فـرسـا رِهـانِ

وقال تعالىٰ، في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] أي: يقولون ذلك حَدْساً وظنّاً من غير يقين. يقال: إنه لَيُرَجِّم في ذلك، أي: يقول فيه بالحدس. قال زهير:

ومـا الحـربُ إلاَّ مـا علِمتُـمْ وذقْتُـمُ   وما هوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

ويقال: صار فلانٌ رَجْماً، أي: لا يوقَفُ علىٰ حقيقةِ أمره. وفي الحديث: أنه قـال لأسامة: أُنظُرْ، هل ترىٰ رَجَماً»؟ قال الأصمعيّ: هي الحجـارة المجتمعة، يجمعها الناس للبناءِ وطيِّ الآبار، وهي الرِّجام. وفي حديث عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه، قال في وصيّته: «لا تُرَجِّموا قبري». قال أبو عبيد: والمحدّثون يقولون: «لا تَرْجُموا قبري» مخفَّفاً، وإنما هو: «لا تُرَجِّموا» يقول: لا تجعلوا عليه الرُّجَم، وهي الرِّجام، يعني الحجارة، وكانوا يجعلونها علىٰ القبور، وكذلك هي إلىٰ اليوم حيث لا يوجد التراب، قال كعب بن زهير، رضي الله عنه:

أنا ابنُ الذي لم يُخْزِني في حياتِهِ   ولم أُخْزِه حتىٰ تغيَّبَ في الرَّجَمْ

قال: وقد تأوله بعضُهم على النِّياحة والقول السيىء فيه، من قول أبي إبراهيم لإبراهيم: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يعني: لأقولَنَّ فيك ما تكره، وإنما أراد ابنُ مغفَّل تسويةَ القبـر بالأرض، وألاَّ يكونَ مسنَّماً مرتفعاً، وكذلك حديثُ الضَّحّاك أنه قـال في وصيّتـه: «أُرمُسُوا قبري رَمْساً» أي: سَوُّوه بالأرض ولا تجعلـوه مسنَّمـاً مرتفعاً. وأصـل الرَّمْس: السَّترُ والتغطية، ويقال لما يُحْثَىٰ علىٰ القبر من التُّـراب: رمس، وللقبـر نفسه: رمس. قال أبو عبيد: وأما حديـث موسىٰ بن طلحة: أنه شهد دفْنَ رجل فقال: جمْهِرُوا قبرَه جمهرةً، فهو غير ذلك، إنما أراد أن يجُمَعَ عليه الترابُ جمعـاً ولا يُطيَّنَ ولا يُصْلَح، والأصـل من هذا جماهيـرُ الرمـل، واحدها جُمهور وجَمهـرة. وقـال الأصمعـي: الجمهور: الرملة المشرفة علىٰ مـا حولها، وهي

المجتمعة، قال ذو الرمة:

خليليَّ عُوجا مِن صدورِ الرواحلِ بجُمهورِ حُزْوَىٰ فابكِيا في المنازلِ

وفي حديث قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهْتَدىٰ بها. قال ابن الأثير: الرجوم: جمع رَجْم، وهو مصدرٌ سُمّي به، ويجوز أن يكون مصدراً لا جمعاً، ومعنىٰ كونها رجوماً للشياطين أن الشُّهب التي تَنْقَضُّ في الليل منفصلةٌ من نار الكواكب ونورها، لا أنهم يُرْجَمُون بالكواكب أنفسِها؛ لأنها ثابتةٌ لا تزول، وما ذاك إلاَّ كقبَس يؤخَذُ من نار، والنارُ ثابتةٌ في مكانها. وقيل: أراد بالرجوم الظُّنونَ التي تُحْزَر وتُظَنّ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]. وما يُعانيه المنجِّمون من الحَدْس والظنّ والحكم علىٰ اتصال النجوم وافتراقها، وإياهم عنىٰ بالشياطين؛ لأنهم شياطينُ الإنس، وقد جاء في بعض الأحاديث: «من اقتبس باباً من علم النجوم لغير ما ذكَرَ الله فقد اقتبس شعبة من السّحر، المنجّمُ كاهن، والكاهن ساحر، والساحرُ كافر». فجعل المنجِّمَ الذي يتعلَّم النجوم للحُكم بها، وعليها، وينسُبُ التأثيراتِ من الخير والشرِّ إليها كافراً. نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العصمة في القول والعمل.

ومثلُ حديثِ قتادة هذا حديثُ جرير بن عبد الله البجليّ، حين أقبل مسلماً ومُبايعاً، قال: يا رسول الله، أخبرني عن السماء الدنيا، وعن الأرض السفلىٰ، قال ﷺ: «خلَقَ الله السماء الدنيا من الموج المكفوف وحَفَّفَها بالنجوم، وجعلها رجوماً للشياطين، وحفظاً من كل شيطان رجيم، وخلق الأرض السفلىٰ من الزَّبَد الجُفاء والماء الكُباء، سبحانَ خالقِ النور». الموج المكفوف، أي: المحبوسُ الممنوع من السُّقوط؛ لأن مَن منعْتَه فقد كففْتَه، والماءُ إذا لم يُمنع جرىٰ بطبعه. والزَّبدُ الجُفاء هو ما جفاه الوادي فرمىٰ به. والماءُ الكُباء: هو العالي العظيم.

[ر ج و]

تدلُّ مـادة (رجا) علىٰ معنيين متباعديـن: أحدهمـا الأمل، والآخر: ناحيةُ الشيء. كذا قال أبو الحسين بنُ فارس. قال عز من قائل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] أي: يأمُل ويطمع في رحمة ربه.

وقد يُتوسَّعُ في الرجاء فيستعمل في معنىٰ الخوف. قال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧]. قوله تعالىٰ: ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ [يونس: ٧] قال ابن عرفة نفطويه: قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب: أي: لا يخافون. وأنشد لأبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعتْهُ النحلُ لم يرْجُ لسْعَها ... وحالفَها في بيتِ نُوبٍ عواملِ

والنُّوب: النحل. قال ابن عرفة: وكلُّ راجٍ فهو مؤمِّلٌ ما يرجوه وخائفٌ فوْتَه، فللرّاجي هاتان الحالتان، فإذا انفرد بالخوف أتبعتْه العربُ حرفَ النفي، فدلَّت به علىٰ الخوف. وقيل: ﴿ يَرْجُونَ ﴾ في الآية، أي: يطمعون، ومنه قول الشاعر:

أترجو بنو مروانَ سمعي وطاعتي ... وقـومـي تميـمٌ والفـلاةُ ورائيـا

قال الشوكانـي: فالمعنىٰ علىٰ الأول: لا يخـافون عقابـاً، وعلـىٰ الثاني: لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المرادُ باللقاء حقيقتَه، فإذا كان المرادُ به حقيقتَه كان المعنـىٰ: لا يخافون رؤيتنـا أو لا يطمعون في رؤيتنا. وقيل: المراد بالرجـاء هنا التوقّع، فيدخل تحتَه الخـوفُ والطمع، فيكون معنىٰ ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾، أي: لا يتوقعون لقاءنا، فهم لا يخافون ولا يطمعون فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي: لا تخافون لله عظمة، والوقار: العظمة، من التوقير، وهو التعظيم، والمعنىٰ لا تخافون حقَّ عظمته فتوحدونه وتطيعونه، وقال مجاهد والضحّاك: ما لكم لا تُبالون لله عظمةً، قال قطرب: هذه لغة حجازية، وهذيلٌ وخزاعةُ ومضر يقولون: لم أرجُ، أي: لم أُبَلْ، أو: لم أُبالِ، وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبةَ الإيمان، وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم علىٰ توقيركم خيراً، وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة.

ويقول عز من قائل في أهوال يوم القيامة: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦ ـ ١٧]. قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: نواحيها، الواحد رَجاً، مقصور، ﴿وَالْمَلَكُ﴾ هاهنا بمعنىٰ الملائكة. يقال: رَجاً، ورَجَوان، وأرجاءُ. والرجَوان: حافتا البئر، فإذا قالوا: رُميَ به الرجَوان، أرادوا أنه طُرِحَ في المهالك(١). قال الشاعر:

فلا يُرْمَىٰ بيَ الرَّجَوانِ إنّي أقلُّ الناسِ من يُغْني غَنائِي

وقال آخر:

كأن لم تَرَيْ قَبْلي أسيراً مكبَّلاً ولا رجُلاً يُرْمَىٰ بهِ الرَّجَوانِ

أي: لا يستطيع أن يستمسك. وقال ثالث:

فما أنا بابن العَمِّ يُجعَلُ دونَهُ الـ ـقصيُّ، ولا يُرْمَىٰ به الرَّجَوانِ

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: أنه لما أُتي بكفنه قال: «إن يُصِبْ أخوكم

---

(١) شرحه في «اللسان» بأحسنَ مما هنا، فقال: الرَّجا، مقصور: ناحية كل شيء، وخص بعضهم به ناحية البئر: من أعلاها إلى أسفلها وحافتَيْها. وكل شيء وكل ناحية رجاً، وتثنيته رجَوان، كعصاً وعصَوانِ. ورُمي به الرجوانِ: استهين به، فكأنه رُمي به هنالك، أرادوا أنه طُرح في المهالك. (الناشر).

خيراً فعَسَىٰ، وإلاَّ فلْيَترامَ بي رَجَواها إلىٰ يوم القيامة». قال الخطابي: قوله: «رَجَواها» يريد ناحيتي القبر، وإنما أنَّث علىٰ نيّة الأرض أو إضمار الحُفْرة كقوله جلّ وعز: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] ولم يتقدّم للأرض ذِكر. وقال الزمخشريُّ: أراد عذاب القبر، أي: وإلا كنتُ في حفرتي علىٰ حالٍ شديدة، لا قرارَ لي معها، ولا طمأنينة ولا خروج. وفي حديث ابن عباس ــ وقيل أسامة ــ يصف معاوية رضي الله عنهم أجمعين: ما رأيت أحداً كان أخلَقَ للمُلْك من معاوية، كان الناسُ يَرِدُون منه أرجاء وادٍ رَحْب. أرجاء وادٍ، أي: نواحيه، وصفه بسَعَة العَطَن، والاحتمال والأناة.

والمهموز من مادة (رجا) يدلُّ علىٰ التأخير، يقال: أرجأتُ الأمر، أي: أخَّرْتُه، ويستعمل معتلاً أيضاً فيقال: أرجَيْتُه. جاء في حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه: وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا. أي: أخَّره، فهذا من المهموز، ومن المعتل قوله عز وجل: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] أي: تؤخر. قال الشَّعبيُّ: كنّ نساءٌ وهَبْن أنفُسَهنّ للنبي ﷺ، فدخل ببعضهن وأرجَأَ بعضَهن لم يُنكَحْنَ بعده.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]. قرأ أهلُ المدينة وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفص: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بغير همز، بوزن مُعْطَوْن. وقرأ الباقون: ﴿مُرْجَؤُون﴾ بالهمزة المضمومة بعد الجيم. وهما سواء، والمعنىٰ أنهم مؤخَّرون في تلك الحال، لا يُقْطَع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم علىٰ ما تبيَّنَ من أمر الله سبحانه في شأنهم.

وفي حديث ابن عباس، أنه ذكَرَ ــ في قول النبي ﷺ: «من ابتاع طعاماً فلا يَبِعْهُ حتىٰ يكتالَه» ــ قال طاووس: فقلت: لم؟ قال: ألا ترىٰ أنهم يتبايعون بالذهب والطعامُ مُرْجىٰ» أي مؤجَّلاً مؤخَّراً، ويقال: «مُرْجَأٌ» مهموزٌ وغير مهموز. قال ابن الأثير: ومعنىٰ الحديث أن يشتريَ من إنسان طعاماً بدينار إلىٰ أجل، ثم يبيعَه منه أو

من غيره قبل أن يقبضه بدينارين مثلاً، فلا يجوز؛ لأنه في التقدير بيعُ ذهب بذهب، والطعامُ غائبٌ، فكأنه قد باعه دينـارَه الذي اشترىٰ به الطعام بدينارين، فهو ربًا؛ ولأنه بيعُ غائبٍ بناجِز، ولا يصحُّ.

[ر ح ل]

[و]جاء في الحديـث: «تجِـدونَ الناسَ كإبلٍ مئـة لـيـس فيها راحلة». هذا الحديـث من جوامـع كلمه ﷺ، وقد اختلفت أقوالُ الشّراح فيـه. قال ابن قتيبة: الراحلة من الإبل: هي التـي يختـارها الرجلُ لِمَركبه ورحله، علىٰ النجابة وتمامِ الخَلْـق وحُسنِ المنظر، فإذا كانـت في جماعـة الإبـل عُـرِفت. يقـول: فالنـاس متساوون؛ ليس لأحدٍ منهم فضلٌ في النَّسَب، ولكنهم أشباهٌ كإبلٍ مئة، ليـس فيها راحلة.

وقد تعقّبه أبو منصور الأزهـريُّ فقـال: غلِط في شيئيـن مـن هذا الحديث، أحدُهما أنه جعل الراحلة ناقةً وليس الجمل عنده راحلة، والراحلةُ عند العرب تكون الجملَ النجيبَ والناقةَ النجيبةَ، وليست الناقةُ أوْلىٰ بهذا الاسم من الجمل، والهاءُ فيه للمبالغة، كما يقال: رجلٌ داهية وراوية، وقيل: إنما سمّيت راحلةً لأنها تُرْحَل، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي: مَرْضِيَّة، وكما قال: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي: مدفوق. وأما قوله: إن النبيَّ عليه السلام أراد أن الناس متساوون في النَّسَب ليس لأحدٍ منهم فضلٌ، ولكنهم أشباهٌ كإبل مئة، فليس المعنىٰ ما ذهب إليه، والذي عندي فيه أن الله تبارك وتعالىٰ ذمَّ الدنيا، وحذَّر العبادَ سوءَ مَغَبَّتها، وضَرَب لهم فيها الأمثال ليعتبروا، كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يونس: ٢٤] الآية وما أشبهها من الآي، وكان النبيُّ عليه السلامُ يحذِّرُهم ما

حذَّرهم الله ويُزَهِّدُهم فيها، فرغِب أصحابُه بعده فيها، وتشَاحُّوا عليها، حتىٰ كان الزهـدُ في النـادر القليل منهم، فقـال النبي ﷺ: «الناسُ بعدي كإبلٍ مئة ليس فيها راحلة»، أراد أن الكاملَ في الزهدِ في الدنيا والرغبةِ في الآخرة قليل لقلّة الراحلة في الإبل.

ومنه حديث النابغة الجعدي: أن ابن الزبير أمر له براحلةٍ رحيل. أي: قويٌّ علىٰ الرِّحْلَة، ولم تثبت الهاء في «رحيل» لأن الراحلة تقع علىٰ الذكر. وقوله: راحلةٍ رحيل، كما يقال: فحلٌ فَحيل.

وفي الحديـث: «إذا ابتلّتِ النعـال فالصـلاةُ في الرِّحال» يعني بالرِّحال هنا: الدورَ والمساكن والمنازل، وهي جمعُ رَحْل، يقال لمنزل الإنسان ومَسكِنه: رحلُه، وانتهينـا إلىٰ رحالنا، أي: منازلنا. وقوله: «إذا ابتلـت النعال» فالنعال هنا: جمع نَعْل، وهو ما غَلُظ من الأرض في صلابة، وإنما خصَّها بالذكر لأن أدنىٰ بَلَلٍ يُنَدِّيها، بخِلاف الرِّخوة، فإنها تنشِّف الماء.

ومن الرحال بمعنىٰ المنازل حديثُ يزيد بن شجرة: وفي الرحال ما فيها. وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنما هو رحلٌ وسَرْجٌ، فرحلٌ إلىٰ بيت الله، وسرجٌ في سبيل الله. يريد أن الإبلَ تُركَبُ في الحج، والخيلَ تُركَبُ في الجهاد. والرَّحْل أيضاً: رحلُ البعير، وهو أصغر من القَتَب، ويقال: رحَلتُ البعيرَ أرحَلُه رَحْلاً، إذا شدَدْتَ علىٰ ظهره الرحل، قال الأعشىٰ:

رحَلَـتْ سُمَّيَـةُ غُـدوةً أجمـالَهـا ... غضْبَىٰ عليكَ، فما تقول بدا لَها

وقال المثقِّبُ العبديُّ، مخبراً عن ناقته:

إذا مـا قمـتُ أرحَلُهـا بليـلٍ ... تـأوَّهُ آهـةَ الـرجـلِ الحـزيـنِ

ويقال للناقة التي شُدَّ عليها رحلُها: مَرْحُولة. وقد جاءت في حديث فاطمةَ الزهراءِ رضي الله عنها، وهو قولها: فدُونَكَها مرْحولةً مَزْمُومة. وفي الحديث: أن

النبي ﷺ سجد فركبه الحسن، فأبطأ في سجوده، فلما فرغ سُئل عنه فقال: إن ابني ارتحَلَني فكرِهتُ أن أُعجِلَه. أي: جعلني كالراحلة فركب علىٰ ظهري. يقال: ارتحل فلانٌ فلاناً إذا ركبه وعلا ظهرَه.

وفي الحديث: «عند اقتراب الساعة تخرُج نارٌ من قعر عدن تُرحِّلُ الناس» أي: تحمِلُهم علىٰ الرحيل، والرحيلُ والترحيلُ والإرحال بمعنىٰ الإزعاج والإشخاص. قال شعبة: أي: تنزل معهم إذا نزلوا، وتَقِيل إذا قالوا. قال شَمِر: وقيل: تُرَحِّلُ الناس، أي: تُنْزِلُهمُ المراحل.

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج ذات غداةٍ وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل. المِرْط: الكساء، ويكون من صوفٍ، وربما كان من خَزٍّ أو غيره. والمرحَّل: الذي قد نُقِش فيه تصاويرُ الرِّحال. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها، وذكَرتْ نساءَ الأنصار: فقامت كل امرأةٍ إلىٰ مِرْطها المرحّل. ومنه الحديث: كان يصلِّي وعليه من هذه المرحَّلات، يعني: المروط المرحَّلة، وتُجْمع علىٰ المراحل، ومنه الحديث: «حتىٰ يبنيَ الناسُ بُيوتاً يُوَشُّونَها وَشْيَ المراحل» ويقال لذلك العمل: الترحيل. قال الهرويّ: ويقال لها: المراجلُ، بالجيم أيضاً. ويقال أيضاً: الراحُولات.

وفي الحديث: أن رجلاً من المشركين بمؤتةَ سبَّ النبيَّ ﷺ، فطفِقَ يسُبُّه، فقال له رجلٌ من المسلمين: والله لتكُفَّنَّ عن شتمه أو لأَرْحَلنَّك بسيفي هذا.. ثم أسلم هذا الرجل المشرك وحَسُن إسلامه، فكان يقال له: الرَّحيل. قوله: «لأرحلنك» يريد لأعلونَّك بالسيف ضرباً. يقال: فلانٌ يرحَلُ فلاناً بما يكره، أي: يركَبُه بمكروه، وهو من: رحلتُ الناقةَ، أي: ارتحلتُها فركبتُها.

وفي الحديث: أنه ﷺ سُئِل: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الحالُّ المرتحل». قيل: وما ذاك؟ قال: «الخاتِمُ المفتِتح» وهو القارىء الذي يختتم القرآن بتلاوته، ثم يفتتح التلاوة من أوّله. شبَّهه بالمسافر يبلغ المنزلَ فيحُلُّ فيه ثم يرتحل فيفتتح سيراً، أي يبتدؤه. قال ابن الأثير: وكذلك قرّاءُ أهل مكة، إذا ختموا القرآن بالتلاوة،

ابتدأوا وقرأوا الفاتحةَ وخمسَ آيات من أول سورة البقرة إلىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] ثم يقطعون القراءةَ ويُسمُّون فاعلَ ذلك: الحالَّ المرتحل، أي: ختم القرآن وابتدأ بأوله ولم يفصل بينهما بزمان. وقيل: أراد بالحالّ المرتحل: الغازيَ الذي لا يَقْفُل عن غزو إلاَّ عقَبَه بآخر.

[رح م]

تدلّ مادة (رَحِم) علىٰ معنىً واحد في اللغة، وهو الرقّةُ والعطفُ والرحمة. والرحمن الرحيم: من أسماء الله عز وجل، وهما مشتقان من الرحمة، ونظيرهما في اللغة نديمٌ ونَدْمان، وهما بمعنًى واحد، قال الجوهريُّ: ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقُهما علىٰ جهة التوكيد، كما يقال: فلانٌ جادٌّ مُجدّ، إلا أن الرحمن مختصٌّ لله تعالىٰ، لا يجوز أن يُسمَّىٰ به غيرُه، ألا ترىٰ أنه تبارك وتعالىٰ قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء:١١٠] فعادَلَ به الاسم الذي لا يشركُه فيه غيرُه، وقال الحسن البصريّ: الرحمنُ اسمٌ ممتنعٌ، لا يُسمَّىٰ به غيرُ الله، وقد يقال: رجلٌ رحيم، والرحمةُ في بني آدم عند العرب: رقّةُ القلب، ثم عطفُه، ورحمةُ الله: عطفُه وإحسانه ورزقه.

وقال عز وجل بعد الأمر بإيتاء ذي القربىٰ حقَّه والمسكينِ وابن السبيل: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٨] قال عكرمة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ أي: ابتغاءَ رِزْق. ومعنىٰ الآية ــ كما قال الحافظُ ابن كثير ــ أي: إذا سألك أقاربُك ومَن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيءٌ وأعرضت عنهم لِفقْد النفقة فقل لهم قولاً ميسوراً، أي: عِدْهم وعْداً بسُهولةٍ ولين: إذا جاء رزقُ الله فسنصلكم إن شاء الله. وقال الشوكانيّ: وليس المرادُ هنا الإعراضَ

بالوجه، وفي هذه الآية تأديبٌ من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائلٌ ما ليس عندَهم كيف يقولون، وبمَ يردُّون، ولقد أحسن من قال، وهو محمدُ بن يسير:

إن لا يكنْ وَرِقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلينَ فإنّي ليّنُ العُودِ
لا يَعْدَمُ السائلونَ الخيرَ مِن خلُقي ... إمَّا نوالاً وإما حُسنَ مردودِ

وقال تعالىٰ في شأن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قال أبو عبيد الهروي: أي: عَطْفاً وصُنْعاً. وقد تكرر ذلك في أحاديثه عليه الصلاة والسلام، فمنه قوله: «إنما أنا رحمةٌ مُهْداة». وقوله: «إن الله بعثني رحمةً مهداة، بُعثْتُ برفع قومٍ وخفض آخرين». وقوله وقد قيل له: يا رسول الله، ادعُ علىٰ المشركين، فقال: «إني لم أُبعَثْ لعَّاناً وإنما بُعِثت رحمة». وروىٰ الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيُّما رجلٍ سبَبْتُه في غضبي أو لعنْتُه لعنةً فإنما أنا رجلٌ من ولد آدم، أغضَبُ كما تغضبون، وإنما بعثني الله رحمةً للعالمين، فاجْعَلْها صلاةً عليه يوم القيامة».

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يشمل جميع الناس، مؤمنَهم وكافرَهم. فقيل: معنىٰ كونه عليه السلام رحمةً للكفار أنهم أَمِنُوا به من الخَسْف والمَسْخ والاستئصال. وأخرج الحافظ ابن كثير عن ابن عباس، قال: من تبعه كان له رحمةً في الدُّنيا والآخرة، ومن لم يتبَعْه عُوفي مما كان يُبْتلىٰ به سائرُ الأمم السابقة من الخَسْف والمَسْخ والقذْف. قيل: وتصديقُ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] الناس هاهنا: الكافرون. والرحمة هنا: المطرُ والخِصْبُ بعد الجَدْب وضيق المعايش. وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]. الرحمةُ هنا: النعمةُ من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن.

وقال تعالىٰ في قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف:٨١] أي: ولداً أزكىٰ من هذا وأطيبَ ديناً وصلاحاً وطهارةً من الذنوب. ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾، أي: عَطفاً. والرَّحِم والرُّحْم: العطفُ والرحمةُ، والجمع: الأرحام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء:١] قرىء: ﴿ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ بالنصب، وقرىء: ﴿وَالأَرْحَامِ﴾ بالجر، فمن قرأ والأرحامَ، أراد: اتقوا الله واتقوا الأرحامَ فلا تقطعوها، فإنها ممّا أمر اللهُ به أن يوصَل. ومن قرأ: والأرحامِ، أراد: تساءلون به وبالأرحام، أي: يسأل بعضُكم بعضاً بالله والرحم، فإنهم كانوا يقرِنون بينهما في السؤال والمناشدة فيقولون: أسألك بالله والرحم، وأنشُدُك الله والرحم. والأرحام: اسمٌ لجميع الأقارب من غير فرقٍ بين المحرم وغيره.

قال القرطبي: اتفقتِ الملةُ علىٰ أن صلة الرحم واجبةٌ وأن قطيعتَها محرَّمة. وقد تظاهرت بذلك الأحاديث، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالىٰ خلق الخلق، حتىٰ إذا فرغ منهم قامت الرحمُ فقالت: هذا مقامُ العائذِ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضَيْنَ أن أصِلَ من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلىٰ: قال: فذلك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾» [محمد: ٢٢]. قال ابن فارس: الرَّحِمُ: علاقةُ القرابة، ثم سمّيت رحِمُ الأنثىٰ رحِماً من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يُرْحَم ويُرَقُّ له من ولد.

وفي الحديث: «ثلاثٌ يَنْقُصُ بهنّ العبدُ في الدنيا، ويُدركُ بهنّ في الآخرة ما هو أعظـمُ من ذلك: الرُّحْـم والحياءُ وعيُّ اللسان» قال ابن الأثير: الرُّحم بالضم: الرحمة، يقال: رَحِم رُحْماً، ويريد بالنقصان ما ينال المرءُ بقسوة القلب ووقاحة الوجه وبسطة اللسان، التي هي أضدادُ تلك الخِصال من الزيادة في الدنيا.

ومن أسماء مكة: «أمُّ رُحْم» أي: أصلُ الرحمة، وهو من قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقْرَبَ

رُحۡمٗا﴾ [الكهف: ٨١] كما سبق. وقال زهير:

ومِـن ضَـريبتِـهِ التقـوىٰ ويعصِمُـهُ   من سيِّىءِ العَثَراتِ اللّهُ والرُّحُمُ

[ر د د]

تدل مادة (ردد) في العربية علىٰ رَجْع الشيء وصَرْفِه، ثم تُستعمل في معانٍ أخرىٰ ترجع إلىٰ هذا المعنىٰ العامّ.

قال عز من قائل: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩] قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أراد: عضُّوا أناملَهم غيظاً مما أتتْهم به الرسُل، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وإنما فعلوا ذلك لأن الرسلَ جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم. قال صخرُ الغَيِّ الهذلي:

قـدَ أفْنـىٰ أنـاملَـهُ غيظُـهُ   فأمسىٰ يَعَضُّ عليَّ الوَظِيفا

والوظيف: مستدقُّ الذراع والساق، وقال آخر:

يـردُّنَّ فـي فيـهِ غيـظَ الحسـو   دِ حتىٰ يعضَّ عليَّ الأكُفّا

وقال ابن اليزيدي ـ في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩] ـ: هذا مَثَـلٌ، أي: كَفُّوا عمَّا أُمِروا به ولم يُسْلِموا، وهكذا قال أبو عبيـدة والأخفش، وردَّ ذلك ابن قتيبة، فقال: لم يُسمَع أحدٌ من العرب يقول: ردَّ يده في فيه: إذا تركَ ما أُمر به، وإنما المعنىٰ: عَضُّوا علىٰ الأيدي حنَقاً وغيظاً. وقيل: إن المعنىٰ أنهم أشاروا بأصابعهم إلىٰ أفواههم لمّا جاءتهم الرسلُ بالبيّنات، أي: أُسكتوا واترُكوا هذا الذي

جئتم به، تكذيباً لهم وردّاً لقولهم.

وفي صفته ﷺ من الحديث المرويّ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردِّد. أي: المتناهي في القصر، كأنه تردَّد بعض خلقه علىٰ بعض، وتداخلت أجزاؤه. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ» أي: مردودٌ عليه، ويقال: أمرٌ ردٌّ: إذا كان مخالفاً لما عليه أهلُ السنة، وهو مصدرٌ وُصِف به. ويقال أيضاً: شيءٌ رَدٌّ، أي: رديء، وفي لسانه ردٌّ، أي: حُبْسة.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال لسُراقةَ بن جُعْشُم: «ألا أدلُّك علىٰ أفضلِ الصدقة؟ ابنتك مردودةٌ عليك، ليس لها كاسبٌ غيرُك». المردودة: هي المطلقةُ التي تُرَدُّ إلىٰ بيت أبيها، فأما التي مات زوجُها فيقال لها: فاقد. وأراد ﷺ: «ألا أدلُّك علىٰ أفضل أهل الصدقة» فحذف المضاف. ومنه حديث ابن الزبير رضي الله عنهما: أنه كتب في صكِّ دارٍ وقفَها: «وللمردودة من بناته أن تسكنها غيرَ مُضَرَّةٍ ولا مُضَرٍّ بها، فإن استغنت بزوج فلا شيء لها».

وفي الحديث: «رُدُّوا السائل ولو بظِلْفٍ مُحْرَق». الظِّلْفُ للبقر والغنم كالحافر للفرس والخُفِّ للبعير، أي: أعطوه ولو ظِلْفاً مُحْرَقاً، ولم يُرد ردَّ الحرمان والمنع، كقولك: سلَّم فردَّ عليه، أي: أجابه، وكلَّمني فما رددتُ عليه سوداءَ ولا بيضاء. قال أبو عبيد الهروي: وأما قولُ ذي الرُّمّة:

وقَفْنا فسلَّمْنا فردَّتْ سلامَنا ... علينا، ولم تَرْجِعْ جوابَ المُخاطِبِ

فإنه كما تقول: ردَّ القاضي شهادتَه. وكذلك فَسَّره أبو نصر الباهليُّ، شارحُ «ديوان ذي الرُّمّة»، قال: وقفنا بالدار فسلّمنا فردَّتِ الدارُ تحيّةً علينا، أي: لم تقبل التحية، أي: ردَّتْها ولم تُجب، ثم بيَّن فقال: ولم تَرْجِعْ جواب المُخاطِبِ. والرواية في الديوان:

وقفنا فسلّمنا فردت تحيَّة

وقال أبو عليٍّ الفارسيّ: وقد قيل في قوله: «فردَّتْ تحيّةً» قولان، أحدهما: ردّت التحية، أي: لم تقبلها. والآخر: ردَّتْ تحيّةً، أي: ردتْ جوابها كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء:٨٦]. وهذا الحديث: «رُدُّوا السائل ولو بظِلْفٍ محرَق». رُوي: «لا تَرُدُّوا السائل ولو بظِلْفٍ محرَق» قال الحافظ أبو موسىٰ المديني: ومعناهما شيءٌ واحد، وليس يُضادُّ أحدُهما الآخر، أي: لا تردُّوهم بلا شيء واصرِفوهم ولو بظِلْف.

وجاء في حديث الفتن: «ويكون عندَ ذلكم القتالِ رَدَّةٌ شديدة» الرَّدَّة، بفتح الراء. ويريد: عَطْفَةً قوية. وأما الرِّدَّة بكسر الراء، فهي مصدرُ قولِك: رَدَّه يردُّه رَدّاً ورِدَّة، وهي أيضاً الاسم من الارتداد. وفي الشرع: الرجوع من الإسلام إلىٰ الكفر، والفعل منه ارتدَّ. قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] الآية. والمرتدُّون أو أهل الرِّدَّة: هم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة بعد أن قبض الله نبيَّه ﷺ، وقالوا: نصلّي الصلاة ولا نزكي، واللّهِ لا تُغصَبُ أموالُنا. وقد قاتلهم الصديق رضي الله عنه كما هو معروف.

وفي حديث القيامة والحوض الذي رواه ابن عباس، قال ﷺ: «وإنه سيُجاء برجال من أمتي، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشمال فأقول: يا رب، أصحابي! قال: «فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدَثُوا بعدَك، لم يزالوا مرتدين علىٰ أعقابهم مذ فارقتَهم» الحديث. قال الحافظ أبو موسىٰ المديني في تفسير: «مرتدين»، أي: متخلِّفين عن بعض الواجبات، ولم يُرد رِدَّةَ الكفر، ولهذا قيَّده بأعقابهم، لأنه لم يرتدَّ أحدٌ من الصحابة، وإنما ارتدَّ قومٌ من جُفاة الأعراب.

وفي حديث أبي إدريسَ الخولانيّ، قال لمعاوية: إنه ليس مِن أجيرٍ اسْتُرعيَ رعيّةً إلاّ ومستأجِرُه سائلُه عنها، فإن كان داوىٰ مرضاها وردَّ أُولاها علىٰ أُخراها... الحديث. أي: إذا تقدّمت أوائلُ الإبل، وتباعدت عن الأواخر، لم يدَعْها تتفرَّق،

ولكنْ يحبِسُ المتقدّمةَ حتىٰ تصلَ إليها المتأخرة، وذلك من حسن الرعاية والسِّياسة. وفي حديث عمر بن عبد العزيز: «لا رِدِّيدَىٰ في الصدقة» رِدِّيدَىٰ ــبالكسر والتشديد والقصرــ: مصدر رَدَّ يَرُدُّ. والمعنىٰ أن الصدقة لا تؤخذ في السنة مرتين، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ثِنَىً في الصدقة». ونحو: «رِدِّيدَىٰ» في المصادر: خِلِّيفَىٰ من الخِلافة، نِمِّيمَىٰ من النميمة، ودِلِّيلَىٰ من الدَّلالة، وهِزِّيمَىٰ من الهزيمة، وحِجِّيزىٰ من المحاجزة.

[ر د ف]

تدل مادة (ردف) علىٰ التتابع والمتابعة. يقال: رَدِفَه، أي: تبعه، وأردَفْتُه معه: أركبْتُه، وجاءوا رُدَافَىٰ، أي: يتبَع بعضُهم بعضاً، والرِّدْف والمُرْتَدِف: الراكبُ خلف الراكب.

ويقول تقدست أسماؤه، مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادِهم وقوعَه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ ــ ٧٢] قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾. قال الفراء ونفطويه: أي: دنا لكم، وقيل: جاء بعدكم، وحكىٰ الإمامُ الشوكاني عن ابن شجرة، قال: معنىٰ رَدِف لكم: تبِعَكم، قال: ومنه رِدْفُ المرأة لأنه تبعٌ لها من خلفها، ومنه قول أبي ذؤيب:

عاد السوادُ بياضاً في مَفارِقِهِ   لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيبِ إذ رَدِفا

ويقال: رَدِفه وأردفه، مثل تبِعه وأتْبَعه، قال خزيمةُ بنُ مالك بن نهد:

إذا الجوزاءُ أردفَتِ الثُّرَيّا   ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا

والمعنىٰ: قل يا محمد لهؤلاء الكفار: عسىٰ أن يكون هذا العذابُ الذي به

تُوعَدُون تبعكم ولحِقكم. قال ابن كثير: وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿ رَدِفَ لَكُم﴾ لأنه ضُمِّن معنىٰ عُجِّلَ لكم، كما قال مجاهد في روايةٍ عنه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عُجِّل لكم.

وقال عزَّ من قائل في قصة بدر وما كان من إمداده المسلمين بالملائكة عوناً لهم ونصراً: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] قال الفراء: متتابعين، ومن قرأ: ﴿مُرْدَفِيْنَ﴾ بفتح الدال، أي: فُعِل ذلك بهم، أي: أردفَهمُ الله بغيرهم. يقال: رَدِفْتُه أَرْدَفُه: إذا ركبت خلْفَه، وأردفْتُه: أركبْتُه خلفي، وهي دابَّةٌ لا تُرادِف، ولا تقل: ولا تُرْدِف، ويقال: أردفْتُ الرجلَ، أي: جئتُ بعدَه. فمعنىٰ ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾: يأتون فِرقةً بعد فرقة. وقال ابنُ الأعرابيّ: يقال: ردِفْتُ الرجلَ وأردفْتُهَ، ولحِقْتُه وألحقْتُه بمعنًى واحد.

وفي حديث وائل بن حُجر: أن معاوية سأله أن يُرْدِفَه وقد صحبه في طريق. فقال: لستَ من أرداف الملوك. أرداف الملوك: هم الذين يخلُفونَهم في القيام بأمر المملكة بمنزلة الوزراء في الإسلام، والاسم: الرِّدافة كالوِزارة.

وقال عز من قائل: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات: ٦ ــ ٧] الراجفة: هي النفخة الأولىٰ التي يموت بها جميعُ الخلائق. والرادفة: هي النفخة الثانية التي تكون عند البعث وقيام الساعة. وسمِّيت رادفةً لأنها رَدِفَت النفخة الأولىٰ، أي: تبِعَتْها وجاءت بعدَها. وأخرج الإمام أحمد، من حديث الطفيل بن أبيّ بن كعب، عن أبيه: قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه»، وفي رواية للترمذي: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أُبيّ: قلت: يا رسول الله، إني أُكثِرُ الصلاةَ عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك» قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك» قلت:

فالثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلَّها. قال: «إذن تُكفىٰ همَّك، ويغفرَ لك ذنبُك»، قال: الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من صاحب إبلٍ لا يؤدِّي حقَّها إلا بُعِثَتْ له يومَ القيامة أسمنَ ما كانت علىٰ أكتافِها أمثالُ النَّواجدِ شَحْماً، تدعونه أنتم الروادفَ، مُحْلَسٌ أخفافُها شوكاً من حديد، ثم يُبطحُ لها بقاعٍ قَرِق، فتضرِب وجهَه بأخفافِها وشوكِها. ألا وفي وَبَرِها حق، وسيجد أحدُكمُ امرأتَه قد ملأت عِكْمَها من وبرِ الإبل فلْيُناهِزْها فلْيقتطِعْ فليُرْسِلْ إلىٰ جاره الذي لا وبرَ له. وما من صاحب نَخْلٍ لا يؤدِّي حقَّها إلا بُعث عليه يومَ القيامة سعَفُها وليفُها وكرانيفُها أشاجعَ تنْهَسُه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنة. النواجدُ: طرائقُ الشحم، جمع ناجدة، من النَّجْد، وهو الارتفاع. والرَّوادِفُ مثلُ النَّواجد، واحدها: رادفة، كأنه يريد أن كُتَلَ شحم هذه الإبل تتابعت وترادفت، مبالغةً في السِّمَن. وقوله: «مُحْلَسٌ أخفافُها شوكاً» أي أن أخفاف هذه الإبل أُحلست شوكاً، بمعنىٰ أنها طوُرقَتْ به وأُلْزِمَتْه، من قولهم للذي يلزَم مكانَه لا يبرَح: حِلْس، فيقال: هو حِلْسُ بيت، أي: لا يُغادره. وقوله: «بقاعٍ قرِق» أي: بقاع مستوٍ.

وهذا الحديث واحدٌ من أحاديثَ ذواتِ عدد في التحذير والتخويف من كَنْز الأموال، وقبْض اليد عن أداء الزكاة والصدقات. وأصل هذا الوعيدِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

ورُوي عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية، قال النبي ﷺ: «تبّاً للذهب! تبّاً للفضة» يقولها ثلاثاً. قال: فشَقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأيَّ مالٍ نتّخِذ؟ فقال عمر رضي الله عنه: أنا أعلَمُ لكم ذلك. فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شقَّ عليهم وقالوا: فأيَّ

المال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين أحدَكم علىٰ دِينه».

وروي عن ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «من ترَك بعدَه كنْزاً مُثِّلَ له يومَ القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتانِ يَتْبَعُه ويقول: ويْلَك! ما أنت؟ فيقول: أنا كنزُك الذي تركْته بعدك. ولا يزال يتبعُه حتىٰ يُلْقِمَه يدَه فيقضِمَها ثم يُتبعهَا سائرَ جسده». والشُّجاع بضم الشين وكسرها الحيَّة الذكر. والأقرع: الذي لا شعرَ علىٰ رأسه، أي: قد تمعَّط جِلدُ رأسه لكثرة سَمِّه وطولِ عمُرِه. والزبيبة: نكتةٌ سوداء فوق عين الحية. وقيل: هما زَبَدَتانِ في شِدْقيها. نعوذ بالله من البخل وسوء عاقبته.

[ر د ي]

يقول ربنا عز وجل في شأن هؤلاء الذين ظنوا أنهم يقدرون علىٰ الاستخفاء بمعاصيهم عن الله عز وجل: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. قوله: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلكَكم. والمعنىٰ أن ظنَّكم بأن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم وطرحكم في النار. يقال: رَدِي يَرْدَىٰ رَدىً فهو رَدٍ ورادٍ. قال القُطامي:

أيامَ قومي مكاني مَنْصِبٌ لهمُ ... ولا يظنُّونَ إلا أنني رادِ

أي: هالك، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ ـ ١٦]. قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتَهْلِك لأن انصدادَك عن الإيمان بقيام الساعة، بصدِّ الكفار لك، مستلزِمٌ للهلاك ومستتبِعٌ له.

وقال عز من قائل في شأن عاقبة البخيل: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١]. قيل: إذا تردَّى، أي: إذا مات فتردَّىٰ في قبره، وقيل: إذا تردَّىٰ في النار، أي: سقط

فيها، مِن: رَدَيْتُ الحجرَ: إذا رميْتُه، وقيل: إذا هلك.

وقال تقدست أسماؤه في سياق المحرَّمات: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة:٣]، وهي التي تسقُط من جبَل، أو تقعُ في بئر فتَهْلِك. ومنه ما جاء في الحديث، أنه ﷺ قال في بعير تردَّىٰ في بئر: «ذَكِّهِ من حيث قدَرْت». قال ابن الاثير: تردَّىٰ، أي: سقط، يقال: رَدِيَ وتردَّىٰ لغتان، كأنه تفعَّل، من الرَّدىٰ: الهلاك، أي: اذبَحْه في أي موضع أمكنَ من بدنه إذا لم تتمكنْ من نحرِه.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من نصَر قومَه علىٰ غير الحقِّ فهو كالبعير الذي رَدِيَ فهو يُنزَعُ بذَنَبه» أراد أنه وقع في الإثم وهلَك، كالبعير إذا تردَّىٰ في البئر، وأُريد أن يُنزَعَ بذَنَبه فلا يُقدَرَ علىٰ خلاصِه.

وفي حديث ابن مسعود أيضاً: «إن الرجلَ لَيتكلّمُ بالكلمةِ من سخَطِ الله تُرديهِ بُعْدَ ما بينَ السماءِ والأرض» تُرديه، أي: تُوقعه في مَهْلكة. وفي قصة أُحد: «أنه لمّا قُتِل علىٰ رايةِ المشركين مَن قُتِل من بني عبد الدار أخذ اللواءَ غلامٌ لهم أسود، وكان قد انتكس فنصبَه العبدُ وبَرْبَرَ يسُبّ، قال سعد: فرميتُه فأصبْتُ ثُغْرتَه، فسقط صريعاً، فأقبل أبو سفيان فقال: من رَداهُ مَن رداه؟ يريد من رماه مَن رماه؟. قال أبو سليمان الخطابي: يقال: رديْتُ الرجلَ بالحجر: إذا رمْيتَه به، وأكثرُ ما يكون ذلك في الحجر الضخم الذي يشدَخُ بثِقَله، ومنه المِرْداةُ يُكسَرُ بها الشيء الصُّلْب، فأما أرداه فمعناه أهلكه، والردَّىٰ الهلاك، والرَّدِي: الهالك، قال دريد بنُ الصمة:

تنادَوْا فقالوا: أرْدَتِ الخيلُ فارِساً ... فقلتُ: أعبدُ اللّهِ ذلكمُ الرَّدِي؟

وقوله: «بَرْبَر» أي: أكثر الكلام في غضب. والبربرة: كثرةُ الكلام في غير بيان. ويقال: إن بعضَ ملوك حِمْيَر غزا البربرَ فظفر بهم فقال: ما أكثرَ بربرتَهم! أو جَلَبتَهم، فسُمُّوا البَرْبر.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أراد البقاء ــ ولا بقاء ــ

فلْيُخفِّفِ الرِّداء. قيل: وما خِفَّةُ الرِّداء؟ قال: قلَّةُ الدَّيْن. قال أبو منصور الأزهريُّ: سُمِّي الدَّينُ رِداءً؛ لأنَّ موقعَه مُجْتمَعُ العُنُقِ والمنكِبين، والدَّينُ أمانة، وهم يقولون في ضمان الدَّيْن: هو لك في عنقي، لازِمٌ رقبتي، فقيل للدَّين رِداءٌ؛ لأنه يلزمُ عنقَ الرجل، ومنه قيل للسَّيف: رِداءٌ؛ لأن من تقلَّده فكأنه تردَّىٰ به، ويقال للوشاح رِداء. قال الأعشىٰ:

وتبـــرُدُ بَـــرْدَ رِداءِ العـــرو سِ بالصَّيفِ رقْرَقْتَ فيهِ العَبيرا

ومنه الحديث: «نِعمَ الرِّداءُ القوس» لأنها تُحمل في موضع الرِّداء من العاتق. وفي حديث قُسّ بن ساعدة: قدِم الجارودُ بنُ عبد الله في وفد عبد القيس علىٰ رسول الله ﷺ، وكان الجارود سيّداً في قومه، مطاعاً في عشيرته، في كلِّ كَمِيٍّ صنديد، قد دوَّمُوا العمائم وتَرَدَّوْا بالصَّماصم... إلىٰ آخر الحديث. فالكميُّ: الرجلُ الشجاع المتكمِّي في سلاحه، المتغطِّي به المستُخْفي، والجمع الكُماة. والصِّنديد: الرئيس الشريف، الغالبُ لكلِّ أحد. ودوَّموا العمائم، أي: لفُّوها وأدارُوها حولَ رءوسهم، والصماصم: جمع الصِّمصامة، وهي السيفُ القاطع. والتردِّي: جعْلُ حمائِلها علىٰ عواتقهم، تشبيهاً بوضع الأردية.

[ر ذ ل]

يقول عز من قائل علىٰ لسان قوم نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]. أرادوا: اتَّبعك أخِسَّاؤنا ولم يتبعْك أحدٌ من الأشراف. والأراذلُ: جمع الأرذلِ، والأرذال: جمع الرَّذْل، وهو النَّذْل الخسِيسُ، وقد رَذُل فلانٌ ـ بالضم ـ يرذُل رَذالةً ورُذُولة، فهو رَذْلٌ ورُذال.

ويقال: رذِلٌ، بالكسر أيضاً. ورُذالُ كلِّ شيء: رديئُه. وقال أبو جعفر النحاس: الأراذل: الفقراءُ والذين لا حسَبَ لهم، والحَسَبُ: الصناعات. قال أبو إسحاق الزجاج: نسَبوهم إلىٰ الحياكة، ولم يعلَموا أن الصناعات لا أثرَ لها في الديانة.

ومثلُ هذه الآية قولُه تعالىٰ: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] والأرذلون: جمع الأرذل. وقال تعالىٰ مخبراً عن تصرُّفه في عباده بالخلق والإنشاء والإماتة والضعف في الخِلقة: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ٧٠]. الأرذلُ من كل شيء: الرديءُ منه. قال النيسابوري: اِعلَمْ أن العقلاء ضبطوا مراتب عمُر الإنسان في أربع: أولاها سِنُّ النُّشُوِّ، وثانيها سِنُّ الوقوف، وهو سنُّ الشباب، وثالثها سِنُّ الانحطاط اليسير، وهو سنُّ الكهولة، ورابعها سنُّ الانحطاط الظاهر، وهو سِنُّ الشيخوخة. قيل: وأرذل العمر: هو عندَ أن يصيرَ الإنسانُ إلىٰ الخرَف، وهو أن يصير بمنزلة الصبيّ الذي لا عقل له. وقيل: هو خمس وسبعون سنة، وقيل: تسعون سنة. وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «أعوذ بك من البخلِ والكَسَلِ والهرَمِ وأرْذلِ العمُرِ وعذابِ القبر وفتنةِ الدجال وفتنةِ المَحْيا والمَمات».

[ر ز ق]

في أسماء الله تعالىٰ: «الرزَّاق» وهو: الذَي خلق الأرزاق وأعطىٰ الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم، وفعَّال من أبنية المبالغة. والأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنةٌ للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم.

قال عز من قائل: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ [المنافقون: ١٠]. أي: أنفقوا من المال والجاه والعلم. قال أهل التفسير: الظاهر

أن المراد الإنفاقُ في الخير علىٰ عمومه، وقال الراغب الأصبهاني: والرازقُ يقال لخالق الرزق ومُعطِيه والمسبِّب له، وهو الله تعالىٰ، يقال ذلك للإنسان الذي يصير سبباً في وصول الرزق، والرزاقُ لا يُقال إلا لله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ١٥] أي: بسبب في رزقه ولا مدخلَ لكم فيه. والمراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ المماليكُ والخدمُ والدوابُّ والأولادُ الذين رازقُهم في الحقيقة هو الله، وإن ظنَّ بعض العباد أنه الرازقُ لهم باعتبار استقلاله بالكسب. قال الحافظ ابنُ كثير: والقصد أنه تعالىٰ يمتنّ عليهم بما يسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخَّر لهم من الدوابِّ التي يركبونها، والأنعامِ التي يأكلونها، والعبيدِ والإماءِ التي يستخدمونها، ورِزْقُهم علىٰ خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزقُ علىٰ الله تعالىٰ.

ومن ذلك أيضاً قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] أي: ليسوا بسببٍ في رزقٍ بوجه من الوجوه، وسببٍ من الأسباب.

ويقال: ارتزق الجندُ: أي أخذوا أرزاقهم، والرَّزْقَةُ: ما يُعْطَوْنه دَفْعةً واحدة. وقال تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. قال ابن عرفة نفطويه: أي: لا نسألك أن ترزق نفسك، وقال في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]: يقول: الله يرزقكم وتجعلون مكانَ الاعتراف بذلك والشكرِ عليه أن تنسُبوه إلىٰ غيره، فذلك التكذيب. قال أبو عبيد الهرويّ في كتابه «الغريبين»: وسمعتُ الأزهريَّ وشيخي رحمهما الله يقولان: معناه: وتجعلون شكرَ رِزقكم. انتهىٰ كلامه. ويريد أنه علىٰ حذف المضاف وإقامةِ المضافِ إليه مُقامه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أي: أهلَ القرية. وأخرج الإمام أحمد، بسنده إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، يقول: شُكرَكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا

وكذا بنجم كذا وكذا». وقال مجاهد: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولُهم في الأنواء: مُطِرْنا بنوء كَذا وبنوءِ كذا، يقول: قولوا هو من عند الله، وهو رزقُه. وقال أبو الفرج بنُ الجوزيّ: ذكر أهلُ التفسير أن الرزق في القرآن علىٰ عشرة أوجه: أحدُهـا العطـاء، ومنه قوله تعالىٰ في البقرة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]. والثاني: الطعام، ومنه قوله تعالىٰ في البقرة: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾. أي أُطعِمُوا. ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]. أي: أُطعِمْنا. والثالث: الغَداءُ والعَشاء، ومنه قوله تعـالىٰ في مريـم: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. والرابـع: المطـر، ومنه قولـه تعالىٰ في الجاثية: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]. وفـي الذاريـات: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. والسماء أيضاً تسمّىٰ المطر، ومنه قول الشاعر:

إذا نـزل السمـاءُ بـأرض قـومٍ رعيْنـاه وإن كـانـوا غِضـابـا

والخامس: النفقة، ومنه قوله تعالىٰ في البقرة: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. والسادس: الفاكهة، ومنه قوله تعالىٰ في آل عمران: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال أهل التفسير: كان زكريا إذا دخل علىٰ مريمَ وجد عندها فاكهةَ الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. والسابع: الثواب، ومنه قوله تعالىٰ في آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وفي ﴿حم﴾ المؤمن: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]. وفي الطلاق: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]. والثامن: الجنة، ومنه قوله تعالىٰ في ﴿طه﴾: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. وصدر الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. ونظيرها في الحجـر: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجـر: ٨٨]. الأزواج

هنا: الأصناف، والمعنىٰ: لا تطمَحْ ببصرك إلىٰ زخارف الدنيا طموحَ رغبةٍ فيها وتَمَنٍّ لها، قال الواحديُّ: إنما يكون مادًّا عينيه إلىٰ الشيء إذا أدام النظرَ نحوه، وإدامةُ النظر إليه تدلُّ علىٰ استحسانه وتمنِّيه. وقيل: إن المراد بالرزق في هذه الآية الثواب علىٰ ما سبق في القسم السابع. والمعنىٰ: أن ثواب الله وما ادَّخر لصالحي عباده في الآخرة خيرٌ مما رزقهم في الدنيا علىٰ كلِّ حال، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع، وهذا ينقطع، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾. والتاسع: الحَرْثُ والأنعام، ومنه قوله تعالىٰ في يونس: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩]. والعاشر: الشكر، ومنه قوله في الواقعة: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. قال ابن السكّيت: الرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر، ومنه في هذه الآية. وتقول: رزقني فلان، أي: شكرني، ويقال أيضاً: فعلتُ ذلك لمَّا رزقْتَني، أي لمَّا شكرتني، وسبق قولُ الأزهري: إن الآية علىٰ حذف المضاف والتقدير: وتجعلون شكرَ رزقكم.

[ر س ل]

تدلُّ مادة (رسل) علىٰ أصل واحد في اللغة هو الانبعاثُ والامتداد، فالرَّسْل: السَّيرُ السَّهل، وناقةٌ رَسْلة: لا تكلِّفُك سياقاً، وناقةٌ رَسْلةٌ أيضاً: ليّنةُ المفاصل. قال ذلك ابن فارس.

والرسولُ المرسَلُ إلىٰ قومه مشتقٌّ من هذا؛ لأنه ينبعث إلىٰ هداية قومه في تؤدة ورفق ليبلّغهم أمرَ الله. وقال عز وجل مخاطباً موسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. وحَّدَ الرسول هنا ولم يُثنِّه كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. وللعلماء في ذلك قولان:

الأول أن الرسول هنا مصدر بمعنىٰ رسالة، والأصل في المصدر ألاَّ يثنَّىٰ ولا يجمع، أما إذا كان الرسول بمعنىٰ المُرْسَل فإنه يثنَّىٰ مع المثنَّىٰ ويُجمع مع الجمع. قال أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ: رسول بمعنىٰ رسالة، والتقدير علىٰ هذا: إنّا ذوا رسالة ربِّ العالمين. ومن استعمال الرسول بمعنىٰ الرسالة قول الأسعر الجُعفِيّ:

ألا أبلــغْ أبــا عمــرٍو رســولاً ... بــأنــي عــن فُتــاحَتِكــم غنِــيُّ

والفُتاحة: الحكم. وقولُ أبي المنهال بُقَيْلة الأشجعيّ، من أبيات كتبها إلىٰ عمر رضي الله عنه:

ألا أبلــغْ أبــا حفــصٍ رســولاً ... فدًى لك مِن أخي ثقةٍ إزاري

وقولُ كثيِّر عَزة:

لقد كذَبَ الواشونَ، ما بُحْتُ عندَهمْ ... بســـرٍّ ولا راسلْتُهـــم بـــرَسُـــولِ

والقول الثاني: أن يكون الرسول بمعنىٰ الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي، وذلك لأن فعولاً وفعيلاً مما يستوي فيهما الواحد والمثنَّىٰ والجمع، مثلَ عدوٍّ وصديق. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقوله تعالىٰ في سياق ذكر البيُوت التي لا حرَج عليهم في الأكل منها: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. أي: بيوت أصدقائكم، أي لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة، ومن ذلك قول جرير:

دعَـوْن الهـوىٰ ثـم ارْتمين قلُـوبَنـا ... بــأسهُــمِ أعــداءٍ وهــنَّ صــديــقُ

ومن استعمال الرسول في الجمع قول الشاعر:

أَلِكْنــي إليهــا وخيــرُ الــرســو ... ل أعلمُهــم بنــواحــي الخَبَــرْ

أراد: وخيرُ الرُّسُل. وألكْني: من المَأْلُكة، وهي الرسالة. وقال تعالىٰ علىٰ

لسان عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على ألسنة رسُلك.

قال ابن كثير: وهذا أظهر. قال الراغب الأصبهانيُّ: ورسلُ الله تارةً يُرادُ بها الملائكة، وتارةً يرادُ بها الانبياءُ، فمن الملائكة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]. فإن المراد به جبريلُ عليه السلام، وقولُه: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. فهذا من قول الملائكة للوطٍ عليه السلام، ومن ذلك أيضاً قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: ٧٧]. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣١]. وقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

أما إطلاق الرُّسُل على الأنبياء فهو كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله عز من قائل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]. والمرسَلون هم الرُّسُل، قيل: وهو محمولٌ علىٰ رُسلِه من الملائكة والإنس، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

قال أبو إسحاق الزجّاج: هذه مخاطبةٌ لرسول الله ﷺ، ودلَّ الجمع علىٰ أن الرسل كلَّهم كذا أُمِرُوا، وقيل: إن هذه المقالة خوطب بها كلُّ نبيّ؛ لأن هذه طريقتُهم التي ينبغي لهم الكونُ عليها، فيكون المعنىٰ: وقلنا يا أيها الرسُلُ خطاباً لكلِّ واحدٍ علىٰ انفراده؛ لاختلاف أزمنتهم. وقال الراغب الأصبهاني: عنَىٰ به الرسولَ وصَفْوة أصحابه، فسمَّاهم رسُلاً لضمِّهم إليه، كتسميتهم المهلَّبَ وأولادَه المَهالبة. والمراد بالطيبات في الآية الكريمة الحلال، قال الحسن البصريُّ رضي الله عنه: أمَا والله، ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حُلوِكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهُوا إلىٰ الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

يعني الحلال. ورَوىٰ ابنُ أبي حاتم بسنده، أن أمَّ عبد الله بنتَ شدّاد بن أوس بعثت إلىٰ النبي ﷺ بقدح لبن عند فِطره وهو صائم، وذلك في أول النهار وشدّة الحرّ، فردّ إليها رسولَها: «أنّىٰ كانت لك الشاة؟» فقالت: اشتريتها من مالي. فشرب منه. فلما كان من الغدِ أتته أمُّ عبد الله بنتُ شداد، فقالت: يا رسول الله، بعثتُ إليك بلبنٍ مَرْثيةً لك من طول النهار وشدة الحر فرَدَدْتَ إليّ الرسول فيه، فقال لها: «بذلك أُمِرَتِ الرسُلُ أن لا تأكلَ إلا طيباً ولا تعملَ إلاّ صالحاً». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيل السفر أشعثَ أغبر، ومطعمُه حرام ومشربُه حرام وملبَسُه حرام، وغُذي بالحرام، يُمُدّ يديه إلىٰ السماء: يا ربِّ يا ربِّ، فإنّىٰ يُستجاب لذلك؟» اللهم ارزقنا رضاك وامنحنا هداك، وأطِبْ مطعَمَنا ومشرَبَنا وملْبَسَنا ومأكلَنا.

قال عز من قائل: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات: ١]. قال جمهور أهل التفسير إن المرسَلاتِ هنا هي الرياح، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وعُرْفاً: أي إن هـذه الرياح أُرسلت كعُـرْف الفرس، أي: إنها متتابعةٌ يتبع بعضُها بعضاً، تقول العرب: سار الناسُ إلىٰ فلان عُرْفاً واحداً، إذا توجّهوا إليه، وهم علىٰ فلان كعُرْف الضَّبْع، أي: تألّبوا عليه. ويجوز أن يكون العُرفُ هنا ضدَّ النُّكْر، أي: المرسلات لأجل العُرْف، كما قال الحطيئة:

مـن يفعـلِ الخيـرَ لا يعـدِمْ جَـوازِيَـهُ   لا يذهبُ العُرفُ بينَ اللّهِ والناسِ

ويقول عز وجل: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ ﴾ [طه: ٤٧]. أي: خَلِّ عنهم وأرسِلْهم مُطلقين من أسْرِك واستعبادِك إياهم كما تقول:

صاد صيداً ثم أرسَلَه، وكان في يدي فارسَلْتُه، ومنه قولُ أبي دؤاد الإيادي:

أنَّى أُتيحَ لها حِرباءُ تنضُب لايُرسِلُ الساقَ إلاَّ مُمسِكاً ساقاً

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. أي: خليناهم وإياهم، وقيل: سلَّطْناهم. وتفصيلُ هذا ما حُكي عن الزجاج، فقد ذكَرَ في معنىٰ هذا وجهين: أحدُهما أن معناه: خلَّينا بين الكافرين وبين الشياطين، فلم نعصمهم منهم ولم نُعِذْهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

الوجه الثاني: أنهم أرسلوا عليهم وقُيِّضوا لهم بكفرهم، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. قال الشوكانيُّ: فمعنىٰ الإرسال هاهنا التسليط، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، ويؤيد الوجه الثاني تمامُ الآية، وهو: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾. فإن الأزَّ والهزَّ والاستفزاز معناه التحريك والتهييج والإزعاج، فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرِّك الكافرين وتهيّجهمُ وتُغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم.

وفي الحديث أن الناسَ دخلوا علىٰ النبي ﷺ بعد موته أرسالاً أرسالاً يصلُّون عليه. قوله: «أرسالا» يريد أفواجاً وفِرقاً متقطعة، يتبع بعضهم بعضاً، واحدهم رَسَلٌ بفتح الراء والسين. قال أبو عبيدة: إذا أورد الرجل إبله متقطعةً قالوا: أوردها أرسالاً، قال امرؤ القيس:

فهنَّ أرسالٌ كرِجْلِ الدَّبَى أو كقَطَا كاظمةَ الناهِلِ

والدَّبَىٰ: أصغر ما يكون من الجراد. قال: وإذا أوردها جماعةً قالوا: أوردها عِراكاً. وفي الحديث: «إني فَرَطٌ لكم علىٰ الحوض، وإنه سيؤْتىٰ بكم رسَلاً رسَلاً» أي: فِرَقاً فِرقاً. وقوله: «فرَطٌ لكم على الحوض» أي: متقدِّمُكم إليه. يقال: هو

فارطٌ وفـرَطٌ: إذا تقدَّم وسبَقَ القومَ ليرتاد لهم الماء، ويهيىءَ لهم الدِّلاءَ والأرشِيَـة. والرَّسَل: ما كان من الإبل والغنم من عشر إلىٰ خمس وعشرين. وفي حديث طِهفة ابن أبي زُهير النهديّ الوافد مع قومه إلىٰ رسول الله ﷺ، قال يصف ما أصابهم من جفاف وقحط: ولنا نعَمٌ هَمَلٌ أغفالٌ ما تبِضُّ ببِلال، ووقيرٌ كثيرُ الرَّسَل قليل الرِّسْل. النّعم: الإبلُ والبقرُ والغنم، وأكثر ما يُستعمل في الإبل. والهمَلُ ــ بفتحتين ــ: المهملة التي لا رُعاةَ فيها ولا من يُصلحها ويَهْديها، ومنه المثل: «اختلط المَرْعيُّ بالهَمل» أي الخيرُ بالشرِّ والصحيحُ بالسقيم. والأغفالُ: جمع غُفْل بالضم، وهي النَّعَم التي لا سمة عليها. وقيل: أراد بها التي لا ألبان لها، من قولهم: أرضٌ غُفلٌ: إذا لم تُمطر، وهو الأشبه. وقوله: «ما تبِضُّ ببِلال» يقال: بَضَّ الضَّرعُ يبضُّ: إذا قطـر منه اللبن، وبضَّ الحجرُ: إذا خرج منـه القليـل من الماء. والبلال: النَّداوة واليسيرُ من الماء قدرَ ما يبُلُّ الشيءَ. والبلالُ أيضاً: جمع بلَل، واراد اللبَنَ؛ لأنه يبُلُّ ما مسَّه، أي أن هذه النَّعَم لهزالِها ما تقطُر ضروعُها بلبن يَبُلُّ. والوقيرُ: الغنم الكثيـر، قال أبو عبيدة: لا يقال للقطيع وقيـرٌ حتىٰ يكونَ فيه الكلب والحمار الذي يحمل الراعي عليه متاعَه. وقوله: «كثيرُ الرَّسَل قليلُ الرِّسْل»، فالرَّسَل بفتح الراء والسيـن: ما يُرسَل من الماشيـة إلىٰ المرعـىٰ، وهو فَعَـلٌ بمعنـىٰ مُفْعَـل، وجمعـه أرسال، وقيل: هو القطيع من كلِّ شيء، ومنه قولهم: جاءوا أرسالاً: أي جماعاتٍ متفرقـة. والرِّسْل، بكسر الراء: اللبـن، أي: هـي كثيـرة العـدد عند الخـروج إلىٰ المرعـىٰ قليلـة اللبن لهزالها. وتفسيرُ قوله: «كثيرُ الرَّسَلِ قليلُ الرِّسْلِ» بأنهـا كثيرةُ العدد قليلة اللبن هو لابن قتيبة. وقد فسَّره العُذْريُّ فقال: كثيرُ الرَّسَل: أي شديدُ التفرّق في طلب المرعىٰ . قال أبو سليمان الخطابيّ: هذا أشبهُ من قول ابن قتيبة: إنها كثيـرةُ العدد قليلة اللبن، لأن الحـال التي ذكرها [طِهفة] أشبهُ بصفة الجدب، وكيـف يصفها بكثرة العدد وهو يقول في أول هـذا الحديث: «مات الوديُّ وهلك الهَديُّ» [الوَدِيُّ: الفسيلُ الصغير من النخل، واحدتها وَدِيَّة] والهَدِيُّ: الإبلُ، وهي

أبقىٰ علىٰ السَّنَة [أي الجدب والقحط] من الغنم، فإذا هلك الإبلُ كيف تسلمُ الغَنَمُ وتنْمي حتىٰ يكثُر عدَدُها، وإنما الوجهُ ما قاله العُذْريُّ، وهو أنه وصف قِلَّةَ المَرْعىٰ وعِزَّ الشجر، وأن الغنم تنتشرُ في طلب الرِّعْي أرسالاً متفرقين.

روي أن رسول الله ﷺ قال: «هلك الفَدَّادون إلا من أعطىٰ في نَجْدتها ورِسْلها». الفدّادون: هم الكثيرُو الإبل، كان إذا ملَك أحدُهم المئينَ من الإبل إلى الألف قيل له: فَدّاد، ويقال: لفلان فديدُ من الإبل والغنم، يُراد الكثرة، ومرجِعُه إلىٰ معنىٰ الجَلَبَة، يقال: فَدَّ يَفِدُّ فديداً. قال زيد الخيل:

أتـانـي أنهـم مـزِقُـونَ عِـرْضـي جحـاشُ الكِـرْمِلَيْـنِ لهـا فـديـدُ

جحاش: جمع جَحْش. والكرْمليْن: مثنىً كِرْمل، وهو ماءٌ بجبل من جبلَيْ طيىء، وفديد: صوت. وقوله: «إلاَّ من أعطىٰ في نجدتها ورِسْلها» معنىٰ النجدة: الشدّة، قال أبو عبيدة: فنجدتها أن تكثر شحومها وتحسُن حتى يمنَع ذلك صاحِبَها أن ينحرها نَفاسةً بها، فصار ذلك بمنزلة السِّلاح لها تمتنع به من ربِّها، فتلك نَجدَتُها، وقد ذكرت العرب ذلك في أشعارها، قال النمر بن تولب:

أيـامَ لـم تـأخُـذْ إلـيَّ رمـاحُـهـا إبلـي لجِلَّتِهـا ولا أبكـارِهـا

فجعل شحومَها وحُسنَها رماحاً تمتنع بها من أن تُنحر. وقال الفرزدق يذكر أنه نحر إبله:

فمكَّنْـتُ سيفـي مـن ذواتِ رمـاحِهـا غشـاشـاً ولـم أحفِـلْ بكـاءَ رِعـائيـا

غِشاشاً: أي علىٰ عجلة. قال أبو عبيد: وأما قوله: «رِسْلها» فهو أن يعطيَها وهي تهونُ عليه؛ لأنه ليس فيها من الشحوم والحُسن ما يبخلُ بها، فهو يعطيها رِسْلاً، كقولك: جاء فلانٌ علىٰ رِسْله، وتكلّم بكذا وكذا علىٰ رسله، أي: مستهيناً به، فمعنىٰ الحديث أنه أراد: من أعطاها في هاتين الحالتين في النجدة والرِّسْلِ، أي: علىٰ مشقّةٍ من النفس وعلىٰ طيب منها، وهذا كقولك: في العُسْر واليُسْر

والمنشَط والمكرَه. قال أبو عبيد: وقد ظنَّ بعض الناس أن الرِّسْلَ هاهنا اللبن، وقد علمنا أن الرسلَ اللِّين، ولكن ليس هذا في موضعه، ولا معنىٰ له أن يقول: في نَجْدتها ولبنها، وليس هذا بشيء.

وقد جمع ابن الأثير أقوالَ أهل العلم في تفسير هذا الحديث، وخلَص إلىٰ رأيه هو، قال رحمه الله: النجدة: الشِّدَّة، والرِّسْل بالكسر: الهينةُ والتأنّي. قال الجوهريّ: يقال: افعلْ كذا وكذا علىٰ رِسلك بالكسر، أي اتئدْ فيه كما يقال: علىٰ هينتك، قال: ومنه الحديث: «إلاَّ من أعطىٰ في نجدْتها ورِسْلها» يريد الشدّةَ والرخاء، يقول: يُعطي وهي سِمانٌ حِسانٌ يشتدُّ علىٰ مالكها إخراجها، فتلك نجدتُها، ويعطي في رِسْلِها وهي مَهازيلُ مُقاربة، وقال الأزهري: معناه: إلاّ من أعطىٰ في إبِلِه ما يشُقُّ عليه عطاؤُه، فيكون نجدةً عليه، أي شدة، ويُعطي ما يهون عليه إعطاؤُه منها مستهيناً به علىٰ رِسْلِه، وقال ابن الأعرابي: في «رسلها»: أي بطيب نفسٍ منه. وقيل: ليس للهزال فيه معنىٰ؛ لأنه ذكر الرِّسْلَ بعد النجدة، علىٰ جهة التفخيم للإبل، فجرىٰ مجرىٰ قولهم: إلا من أعطىٰ في سِمنها وحسنها ووفور لبنها. وهذا كله يرجع إلىٰ معنًى واحد، فلا معنىٰ للهزال؛ لأن من بذَل حقَّ الله من المضنون به كان إلىٰ إخراجه مما يهون عليه أسهل، فليس لذكر الهُزال بعد السِّمَن معنىٰ. قال ابن الأثير: قلت: والأحسن ــ والله أعلم ــ أن يكون المراد بالنجدة: الشدّةَ والجَدْب، وبالرِّسْل الرخاءَ والخِصب؛ لأن الرِّسل اللبن، وإنما يكثُر في حال الرخاء والخصب، فيكون المعنىٰ أنه يُخرج حقَّ الله في حال الضيق والسَّعة والجَدْب والخِصب؛ لأنه إذا أخرج حقَّها في سنَةِ الضيق والجدب كان ذلك شاقاً عليه، فإنه إجحاف به، وإذا أخرجها في حال الرخاء كان ذلك سهلاً عليه، ولذلك قيل في الحديث: يا رسول الله، وما نَجدتُها ورِسْلُها؟ قال: «عُسْرُها ويُسْرُها»، فسَمَّىٰ النجدةَ عُسْراً والرِّسلَ يُسراً؛ لأن الجدبَ عُسرٌ والخِصْبَ يُسر. فهذا الرجلُ يعطي حقَّها في حال الجدب والضيق، وهو المراد بالنجدة، وفي حال الخِصب

والسَّعة، وهو المرادُ بالرِّسل. والله أعلم.

ومن مجيء الرِّسْل بمعنىٰ اللبن ما روي أن امرأةً قالت للنبي ﷺ: إني ابتعتُ غنماً أبتغي نسْلَها ورِسْلَها، وإنها لا تنمو. فقال: «ما ألوانُها؟» فقالت: سودٌ، فقال: «عَفِّري». قال الزمخشري: الرِّسْل: اللبن، وأرسَلُوا: إذا كثُر عندهم الرِّسْل، ورسَّلْتُ فُصلاني: سقيْتُها إياه. وقوله: «عَفِّري» أي: بيِّضي، من الشاة العفراء، وهي الخالصةُ البياض، والمراد: استبدلي بها بِيضاً، أو اخلِطيها بِبيضٍ. ومنه حديث أبي سعيد الخدريّ، قال: رأيتُ في عام كثُر فيه الرِّسْلُ؛ البياضَ أكثرَ من السَّواد، ثم رأيت في عام بعد ذلك كثُر فيه التَّمرُ السَّوادَ أكثرَ من البياض، وإذا كثُرت المؤتفكاتُ زكَتِ الأرض». قال الزمخشريّ: البياضُ والسواد: اللبن والتمر، يعني أنهما لا يجتمعان في الكثرة، بل يكون بين كثرتيهما التعاقب. والمؤتفكات: الرياح إذا اختلفت مَهابُّها.

وفي حديث صفية: فقال النبيّ ﷺ: «علىٰ رِسْلِكما» أي: اثبُتا ولا تعجلا، ويقال لمن يتأنَّىٰ ويعملُ الشيءَ علىٰ هينته. وفي الحديث: كان في كلامه ﷺ ترسيل. أي: ترتيل. يقال: ترسَّل الرجلُ في كلامه ومشيه: إذا لم يعجل، وهو والترتيل سواء. ومنه حديث عمر: إذا أذَّنتَ فترسَّلْ، أي تأنَّ ولا تعجَلْ. وفي الحديث: «أيُّما مسلم استرسل إلىٰ مسلم فغَبنه فهو كذا»، وفي حديث آخر: «غَبْنُ المسترسلِ ربا». الاسترسال: الاستئناسُ والطُّمأنينةُ إلىٰ الإنسان والثِّقةُ به في ما يحدِّثُه به. وأصله السكونُ والثبات.

وفي حديث أبي هريرة: أن رجلاً من الأنصار تزوّج امرأةً مُراسِلاً. أي: ثيِّباً. المرأة المراسِل: هي التي مات زوجُها أو طلقها فالخطاب يراسلونها[1]. قال جرير:

(١) هي المراسِل، بكسر السين، لا اختلاف، ولكنها سميت بذلك لأنها هي التي تراسل الخطّاب لا هم الذين يراسلونها. كذا في «القاموس»، وقال: أو التي فارقها زوجها أو أسنّت=

يمشـي هبيـرةُ بعـدَ مقتـلِ شيخِـهِ مشْـيَ المـراسِـلِ بُشِّـرتْ بطـلاقِ

[ر س و]

تدل مادة (**رسا**) على الثبات، يقال: رسا الشيءُ يرسُو: أي ثبت، وأرساه غيـرُه. قـال عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا﴾ [الرعد: ٣]. الرواسي: الجبال الثوابت، واحدها: راسية، لأن الأرضَ ترسُو بها: أي تثبُت. والإرساء: الثبوت، قال عنترة يصف نفسَه بالشجاعة والثبات:

وعلمـتُ أن منيّتـي إن تـأْتِنـي لا يُنْجِني منها الفِرارُ الأسرعُ
فصبـرْتُ عـارفـةً لـذلـكَ حُـرَّةً ترسُو إذا نَفْسُ الجبانِ تطلَّعُ

والنفس العارفة: هي الصابرة. وقوله تعالىٰ: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾. أي: بَسَطها طُولاً وعرضاً. قال الشوكاني: وهذا المدُّ الظاهر للبصر لا يُنافي كُرويةَ الأرض في نفسها، لتباعد أطرافها.

وقال عز من قائل ذاكراً ما أنعم به علىٰ عبده سليمانَ عليه السلام من تطويع الجن له وعملِهم بين يديه: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. الجِفان: جمع جَفْنة، وهي القصعة الكبيرة. والجواب: جمع جابية، وهي الحوضُ الكبير الذي يُجبىٰ فيه الماء: أي يُجمَع. والقُدور: قال قتادة: هي قُدور النحاس تكون بفارس، وقال الضحاك: هي قُدورٌ تُنْحتُ من الجبال الصُّمّ، عمِلتْها له الشياطين. ومعنىٰ راسيات أي: أن هذه القُدورَ ثابتاتٌ لا تُحْمَل ولا تُحرَّك لعِظَمِها. وقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]

= أو مات زوجها أو أحسّت منه الطلاق، فتزَيَّنُ لآخرَ وتراسله، وفيها بقية. (الناشر).

أي: متىٰ ثُبوتُها وقيامُها؟ وقوله تعالىٰ في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِٱسْمِ ٱللَّهِ مُجْـرَاهَـا وَمُـرْسَاهَا﴾(١) [هـود: ٤١] أي: حيـث تُجْـرَىٰ وحيـث تُـرْسَىٰ. يقال: أُرْسِيت السفينةُ: إذا أُوقِفت. وفي الآية قراءات أخرىٰ.

[ر ش د]

تـدل مادة (رشد) علىٰ استقامـة الطريـق، ثـم تستعمـل فـي معنـىٰ الهـدايـة والاهتداء. يقال: رشَد يَرْشُد رُشْداً، ورَشِدَ يرشَدُ رشَداً، والرَّشَدُ والرُّشْدُ: خلافُ الغَي. قال تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. أي: يهتدون، قال أبو عبيد الهروي: الرُّشْد والرَّشَد والرّشاد: الهدىٰ والاستقامة. وفي سبب نزول هذه الآيـة الكريمة رُوي أن أعرابياً جاء إلىٰ النبـي ﷺ، فقال: يارسول الله، أقريبٌ ربُّنا فنُناجيَـه، أم بعيـدٌ فنُناديَـه؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. وقيل: سأل أصحابُ النبي ﷺ: أين ربُّنا؟ فأنزل الله هذه الآية. ورُوي عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعَلْنا لا نصعَدُ شرَفاً ولا نعلو شرَفـاً ولا نهبطُ وادياً إلا رفعْنـا أصواتَنا بالتكبيـر، قـال: فدنا منـا، فقال: «يا أيها الناس، اربَعُوا علىٰ أنفسكم، فإنكم لا تدْعُون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون اقربُ إلىٰ أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلّمُك كلمة من كنوز الجنة؟» قال: قلت: بلىٰ، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ومن أحاديث الدعاء ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿مَجْرِيٰهَا﴾ بفتح الميم وكسر الراء، وقرأ الباقون «مُجراها» بضم الميم، وهي التي أوردها المؤلف رحمه الله هنا. (الناشر).

«يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، يقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يَستجبْ لي»، وفي رواية: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدْعُ بإثمٍ أو قطيعة رَحِم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يَسْتجبْ لي، فيسْتَحْسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء».

ويقول تقدست اسماؤه آمراً برفع الحَجْر عن اليتامىٰ ودَفْع أموالهم إليهم بعد بُلوغِهم وصلاح عقولهم: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦]. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾. أي: اختبروا. ورُشْدا: أي طريقاً مستقيماً في حفظ المال، قال سعيدُ بن جبير والشَّعْبي: إنه لا يُدفع إلىٰ اليتيم مالُه إذا لم يؤنَس رشدُه وإن كان شيخاً، قال الضّحاك: وإن بلغ مائةً سنة. قال الشوكاني: وجمهور العلماء علىٰ أن الرشدَ لا يكون إلاّ بعد البلوغ، وعلىٰ أنه إن لم يرشُد بعد بلوغ الحُلُم لا يزول عنه الحجر، وقال أبو حنيفة: لا يُحجر علىٰ الحُرّ البالغ وإن كان أفسق الناس واشدَّهم تبذيراً، وبه قال النخعيُّ وزُفَر. قال الشوكاني: وظاهر النظم القرآني أنها لا تُدْفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية، هي بلوغُ النكاح، مقيّدةً هذه الغايةُ بإيناس الرُّشد، فلا بُدَّ من مجموع الأمرين، فلا تُدفَع إلىٰ اليتامىٰ أموالُهم قبل البلوغ وإن كانوا معروفين بالرُّشد، ولا بعد البلوغ إلاَّ بعد إيناس الرشد منهم، والمراد بالرشد نوعُه، وهو المتعلِّق بحُسن التصرّف في أمواله وعدم التبذير بها ووضعِها في مواضعها.

وجاء في أسماء الله تعالىٰ: «الرشيد» قال ابن الاثير: هو الذي أرشد الخلق إلىٰ مصالحهم، أي هداهم ودَلَّهم عليها، فَعيل بمعنىٰ مُفْعِل، وقيل: هو الذي تنساق تدبيراتُه إلىٰ غاياتها علىٰ سَنَن السَّداد، من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسَدِّد. وفي الحديث الذي رواه العِرْباضُ بنُ سارية أن النبي ﷺ قال في موعظته: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين». الراشد: اسمُ فاعل، والرُّشد: خِلافُ الغَيّ. قال ابن الأثير: ويريد بالراشدين أبا بكر وعمرَ وعثمان وعليًّا، وإن كان عامًّا في كلِّ

من سار سيرتَهم من الأئمة، ومنه الحديث: «وإرشاد الضال» أي: هدايته الطريقَ وتعريفُه. وفي الحديث الذي يرويه ابن عباس رضي الله عنهما: ومن ادعىٰ ولداً لغير رِشْدةٍ فلا يرِثُ ولا يُورَث. يقال: هذا ولدُ رِشْدة إذا كان لنكاح صحيح، كما يقال في ضدِّه: ولدُ زِنْية، بالكسر فيهما. وقال الأزهري: كلام العرب المعروف: فلانٌ ابن زَنْية وابن رَشْدة، وقد قيل: زِنْية ورِشْدة، والفتح أفصح اللغتين.

[ر ص د]

تدلُّ مادة (رصد) علىٰ الاستعداد والتهيُّؤ لِرقْبةِ شيء علىٰ طريقه ومَسْلَكِه. قال عز من قائل: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾. أي: كونوا لهم رَصَداً لتأخذوهم من أيّ وجهٍ توجَّهوا. وقال أبو منصور الأزهري: أي علىٰ كلّ طريق. يقال: رصَدْتُ فلاناً أرصُدُه: إذا ترقبّتَه، وأرصدتُ الشيءَ: إذا أعددْتَه. قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمتُ وما إخالُك عالماً أن المنيَّةَ للفتىٰ بالمَرْصَدِ

وقال النابغة:

أعاذِلَ إنّ الجهلَ من لذَّة الفتىٰ وإنّ المنايا للنفوسِ بمَرْصَدِ

وقال تعالىٰ في شأن مسجد الضِّرار الذي بناه منافقو المدينة بجوار مسجد قُباء: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. قال الزجاج: الإرصاد: الانتظار، وقال ابن قتيبة: الإرصاد: الانتظار مع العداوة، وقال

الأكثرون: هو الإعداد. قال الشوكاني: والمعنىٰ متقارب، يقال: أرصدْتُ لكذا: إذا أعددْتَه مرتقِباً له به.. وقال أبو زيد: يقال: رصدتُه وأرصدتُه في الخير، وأرصدت له في الشرّ، وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلاّ أرصدت، ومعناه ارتقبْتُ. وكان من خبر مسجد الضِّرار ما رُوي أن أبا عامر الراهبَ أحدَ كبراء الخزرج، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، خرج فارّاً إلىٰ كفار مكة يُمالِئُهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ، وقدم معهم يومَ أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل بالهزيمة. فلما فرغ الناسُ من أحد، وأخذ المسلمون في لمِّ الشملِ ورأب الصدع، ساء أبا عامر هذا ما رآه من ارتفاع أمرِ الرسول عليه السلام وظهورِه، فذهب إلىٰ هرقل ملك الروم يستنصره علىٰ النبي ﷺ، فوعده هرَقلُ ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلىٰ جماعة من قومه من الأنصار، من أهل النِّفاق والرَّيب يعدهم ويمّنيهم أنه سيَقْدَم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، ويغلبه ويردُّه عمّا هو فيه، وأمَرهم أن يتخذوا له مَعْقِلاً يَقْدَمُ عليهم فيه من يَقْدَمُ مِن عنده لأداء كتبه، ويكونُ هذا المعقِلُ مَرْصَداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرَعوا في بناء مسجد مجاورٍ لمسجد قُباء، فبَنَوْه وأحكموه، وجاءوا فسألوا الرسول عليه السلام أن يأتيَ إليهم فيصليَ في مسجدهم ليحتَجّوا بصلاتِه فيه علىٰ تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بَنَوْه للضعفاء منهم وأهل العِلّة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، ونزل قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وبعث رسول الله عليه السلام من هَدَمه قبل مقْدمِه المدينةَ من تبوك.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. قال ابو عبيد الهرويُّ: أي بالطريق الذي ممرُّك عليه. وقال الزجّاج: أي يرصُدُ من كفَر بالعذاب. وقال نفْطويه: أي يرصُدُ كلَّ إنسان حتىٰ يُجازيَه بفِعله. وقال ابنُ الأنباري ــ في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥] ــ: المرْصَد والمِرْصاد: الطريق عند العرب،

وقال غيره: المِرصادُ: الموضعُ الذي يُرْصَدُ الناسُ فيه كالمِضمار، وهو الموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل. ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]. قال الشوكانيُّ: معنىٰ الآية أن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضعَ رَصْدٍ يرصُدُ فيه خَزَنةُ النار الكفّارَ ليعذّبوهم فيها، أو هي في نفسها متطلعةٌ لمن يأتي إليها من الكفار، كما يتطلع الرَّصْدُ لمن يمرُّ به ويأتي إليهم، والمرصاد: مِفعال من أبنية المبالغة، كالمِعطار والمِعمار، فكأنه يكثُر من جهنم انتظارُ الكفار.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال له رسول الله ﷺ: «ما أُحبُّ عندي مثلُ أحدٍ ذهباً فأُنفِقُه في سبيل الله وتُمْسي ثالثةٌ وعندي منه دينارٌ إلاَّ ديناراً أُرصِدُه لدَيْن»، أي: أُعِدُّه، ومنه حديث الحسن بن علي بن أبي طالب، وذكر أباه فقال: ما خلَّفت من دُنياكم إلاّ ثلاثَمائةِ درهم كان أرصَدَها لشراءِ خادم. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرىٰ فأرصد الله تعالىٰ علىٰ مَدْرَجته مَلَكاً، فلما أتىٰ عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمةٍ ترُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببتُه في الله. قال: فإني رسولُ الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببْتَه فيه». ومعنىٰ: «أرصد الله علىٰ مَدْرَجته ملكاً» أي: وكّله بحفظ المَدْرَجة، وهي الطريق، ومعنىٰ: «هل لك عليه من نعمة ترَبُّها؟» أي: تحفظها وتراعيها وتُربِّيها كما يُربي الرجلُ ولدَه. والمراد أن حُبَّه لأخيه خالصٌ لله مبرَّأٌ من شوائب الدُّنيا. وفي حديث محمد بن سيرين رضي الله عنه: كانوا لا يرصُدُون الثمارَ في الدَّيْن، وينبغي أن يرصُدوا العَيْنَ في الدين. قال الزمخشري: يعني أنه إذا ركب الرجلَ دينٌ وله من العين مثلُه فلا زكاة عليه، وإن أخرَجت أرضُه ثمـرةً يجب فيها العُشْرُ لم يسقُـط عنـه العُشرُ من أجل الدَّيْن. وهذا من تفسير ابن المبارك الذي أورده أبو عبيد القاسم بن سلام. قال: فهذا الذي أراد ابنُ سيرين، وقد كان غيرُه يُفتي بغير هذا ويقول: لا تكون عليه زكاةٌ في أرضه أيضاً إذا كان عليه دَيْنٌ بقدر ذلك. وقال الزمخشري: يقال: إن فلاناً ليُرْصِدُ الزكاةَ في صِلة أخوانِه، إذا

وصَلَهم، واعتدَّ بذلك من زكاة مالِه، لأنه إذا اعتدّ به منها فقد أعدَّه لها.

[ر ض ع]

يقول ربُّنا عز وجل في شأن أهوال يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ــ ٢]. قال أبو عبيد الهروي: المُرْضِعة: التي تُرضِع ولدَها، يقال: أرضعتْه فهي مُرْضِعة، إذا أردْتَ الفعلَ به ــ أي الإرضاع ــ ألحقت هاءَ التأنيث، فإذا أردتَ أنها ذاتُ رضيع أسقطت الهاء فقلت: امرأةٌ مُرْضِع، بلا هاء، يريد الوصف، أي: سواءٌ أرضعتْه أم لم ترضِعه. ومنه ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال في ابنه إبراهيم: «إن له مُرْضِعاً في الجنّة»، قال أبو سليمان الخطابيّ: يروىٰ علىٰ وجهين: مُرْضِعاً من أرضعَتِ المرأةُ فهي مرضِعٌ. والمُرْضِعُ: ذات اللبن، فأما المُرْضعة: فهي التي لها ولد. ويروىٰ أيضاً: مَرْضعاً، مفتوحة الميم، أي: رَضاعاً. يعني فيكون مصدراً. وبهذا الفرقِ ــ بين المرضعة، وهي التي تباشر الإرضاع فِعلاً وحالاً، والمُرْضِع، وهي ذات اللبن التي من شأنها أن تُرضِع، وإن لم تباشر الإرضاع ــ يتبين لنا سرٌّ من أسرار النظم القرآني. قال الحافظ ابن كثير: أي: فتشتغل لهول ما ترىٰ عن أحبّ الناس إليها، والتي هي أشفَقُ الناس عليه، تَدْهَش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾. ولم يقل: مُرْضِع. و«ما» في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾. بمعنىٰ المصدر، أي: تذهل عن الإرضاع، قاله أبو العباس المبرّد، قال: وهذا يدلُّ علىٰ أن هذه الزَّلْزَلةَ في الدُّنيا، إذ ليس بعد القيامة حملٌ وإرضاع، ويقال: هذا مَثَلٌ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. وقال عز من قائل: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ

﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. قوله: ﴿يُرْضِعْنَ﴾ أسلوبٌ خبري يراد به الأمر، أي: ليُرْضِعْنَ، كما جاء في قول العرب: «اتَّقَىٰ اللّهَ امرؤٌ فعَلَ خيراً يُثَبْ عليه» أي: لِيتَّقِ ولْيَفْعَلْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. ﴿تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾: أي: تطلبوا لهم مرضعة. وقال الزجاج: التقدير: أن تسترضعوا لأولادكم غيرَ الوالدة. ومعنىٰ الآية كما قال ابن كثير: إذا اتفقت الوالدة والوالد، علىٰ أن يستلِم منها الولد، إما لعُذْرٍ منها: أو لعُذْر له، فلا جناح عليها في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلَّمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضَعَ لولده غيرَها بالأجرة بالمعروف.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «انظُرْن مَن إخوانكُنّ، فإنما الرَّضاعةُ من المجاعة». الرضاعة بفتح الراء وكسرها: الاسمُ من الإرضاع. والمعنىٰ أن الإرضاع الذي يحرِّم النكاحَ إنما هو في الصِّغَر عند جُوع الطفل، فأما في حال الكبر فلا، يريد أن رضاع الكبير لا يحرِّم. وهذا الذي عليه أكثر الأئمة، أنه لا يُحَرِّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحوْليْن، فلو ارتضع المولودُ وعمره فوق الحولين لم يَحْرُم. والدليل علىٰ ذلك قوله ﷺ: «لا رَضاعَ بعد فِصال ولا يُتْمَ بعدَ احتلام». قال الحافظ ابن كثير: وتمامُ الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ [لقمان: ١٤].

وفي حديث سُوَيد بن غَفلَة: فإذا في عهد رسول الله ﷺ أن لا يأخذَ من راضع لَبَن. قال ابن الأثير: أراد بالراضع ذاتَ الدَّرِّ واللبن، وفي الكلام مضاف محذوف تقديره: ذاتُ راضع. وقال الحافظ أبو موسىٰ المديني: والأشبهُ أن الراضعَ: الصغيرُ الذي هو بَعْدُ يرْضَعُ أُمَّهُ. قال أبو سليمان الخطابي: إنما نهاه لأنها خِيارُ المال. ولفظة «مِن» فيه زائدة كما يقال: لا تأكُلْ من الحرام، ويجوز أن يريد الشاة الواحدة، أو اللِّقْحة قد اتَّخذها للدَّرِّ فلا يؤخَذُ منها شيء. وفي حديث ثقيف، حين جاء

المغيرة بنُ شعبة إلىٰ «الرَّبّة» وهي بيتهم الذي كانوا يضاهون به بيت الله الحرام، فهَدَمها، قالت عجوزٌ منهم: أسْلَمها الرُّضَّاع وتركوا المِصَاع. الرُّضّاع: جمع راضع، وهو اللئيم، سُمِّي به لأنه للؤمه يَرْضَعُ إبلَه أو غنَمَه ليلاً، ولا يَحْلُبها لئلاَّ يُسمَعَ صوتُ حَلْب اللبن فيُطلَبَ منه. وقيل: لأنه يرضَعُ الناسَ: أي يسألُهم. والفعل منه رَضُع بالضم. ويقال: لأنه رَضِع اللؤمَ من أمِّه، أي: وُلِد لئيماً. والمِصاع: المضارَبَةُ بالسَّيف. قال الأعشىٰ:

هناكَ مِصاعٌ باللطائمِ بينَنا ولكنه لم يُذْمِ هاماً وجُمْجُما

وقال القُطاميّ:

تراهم يغمِزُون مَنِ استركُّوا ويجتنبونَ مَن صَدَق المِصاعا

وفي المثل: لئيمٌ راضِع. ومنه حديث أبي ميسرة: لو رأيتُ رجلاً يَرْضَعُ فسَخِرتُ منه خشيتُ ان أكون مثلَه، وهو من المعنىٰ السابق، أي: يرضَعُ الغنمَ من ضرُوعها ولا يحلُب اللبن في الإناء للؤمه، أي: لو عيّرتُه بهذا الحديث لخشِيتُ أن أُبْتلَىٰ به. قال الشاعر:

لا يحلُبُ الضَّرعَ لؤماً في الإناءِ ولا يرَىٰ له في نَواحي الصَّحْنِ آثارُ

ومنه حديث سلمةَ بن الأكوع:

خذْها وأنا ابنُ الأكوعِ واليومُ يومُ الرُّضَّعِ

الرُّضَّع: جمع راضِع، كشاهدٍ وشُهَّد، أي: خُذِ الرَّميةَ مني واليومُ يومُ هلاك اللئام.

وفي حديث الإمارة، قال: «نِعمت المرضعةُ وبئست الفاطمة»، ضرب المرضعة مثلاً للإمارة وما توصِّلُه إلىٰ صاحبها من المنافع، وضرب الفاطمة مثلاً للموت الذي يهدِم عليه لذّاتِه، ويقطعُ منافعَها دونه.

[ر ع و]

يقـول ربنـا عز وجل ناهياً عبادَه المؤمنين عن التشبـه باليهود في استعمالهم أسلوبَ التورية في خطاب رسول الله ﷺ. فقال عز من قائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]. فالظـاهر من لفـظ ﴿ رَٰعِنَا ﴾ أنه من المراعـاة، ولكـنّ اليهودَ كانوا يريدونه من الرُّعُونة، وهي الحُمْق، كما قال تقدست أسماؤه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦]. قال ابن عرفـة نفطويـه: ﴿ رَٰعِنَا ﴾ من المراعاة، والعرب تقول: راعني: أي تعهَّدْني وافهَمْ عني وأفهِمْني. وقال أبو منصور الأزهري: كانت هذه الكلمة تجري من اليهود علىٰ حَدِّ السَّبِّ والهُزْء. قال: والظاهر من راعِنا: أَرْعِنا سمْعَك، وكانوا يذهبون بها إلى الرُّعونة، والأرعن: الأحمق.

وقال عز وجل في صفة عباده المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]. أي حافظون. قال أبو عبيد الهرويّ: الأصل في الرَّعي: القيامُ علىٰ إصلاح ما يتولىٰ الراعي من كلِّ شيء. وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ وابنتي شعيب عليهما السلام: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣]. الرِّعاء بكسر الراء والمدّ: جمع راعي الغنم، وقد يُجمَع علىٰ رُعاةٍ بالضم.

ومنـه ما جاء في حديـث الإيمـان وأشراط السـاعة: «حتـىٰ ترىٰ رِعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان». قال أبو سليمان الخطابي: وأخبرني بعضُ أصحابنا، أخبرني ابنُ الأنبـاري، عن أبي العباس ثعلب، قال: من دُعاء الأعـراب: اللهم حبِّب بين

نسائنا، وبغِّض بين رِعائنا ــ والمراد بالنساء هنا الضرائر ــ قال: وذلك أن الحبَّ يدعوهن إلىٰ التعاون في العمل، والاجتماع علىٰ السَّمَر والغَزْل، والرِّعاءُ إذا تباغضت تفرّقت في المراعي، فكان أسمَنَ للغنم. وفي حديث دريد بن الصمّة، قال يوم حُنين لمالك بن عوف: إنما هو راعي ضأن، ما لَهُ وللحرب؟ كأنه يستجهله ويُقصِّر به عن رُتبه من يقود الجيوش ويسُوسُها، وفي الحديث: «كلكم راعٍ وكلُّكم مسئول عن رعيّته» أي: حافظٌ مؤتمَن. والرَّعيّةُ: كلُّ من شَمِله حِفْظُ الراعي ونظرُه. وفي حديث لقمانَ بن عاد: إذا رعىٰ القومُ غَفَل، أي: إذا اهتموا برعاية بعضهم بعضاً، أو برعاية إبلهم، لم يهتمَّ بشيء من ذلك، وكان غافلاً عنه. وقال ابن قتيبة: لم يُرِد رِعْية الغنم، وإنما أراد: إذا تَحافَظَ القومُ الشيءَ يخافونه غَفَل، ومنه قولهم: رعاك الله، أي: حفِظك، وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا يُعطىٰ من المغانم شيءٌ حتىٰ تُقَسَّم، إلا لراعٍ أو دليل. الراعي هنا عينُ القوم علىٰ العدوّ؛ لأنه يرعاهم ويحفظهم، ومنه قول النابغة:

فإنك ترعاني بعينٍ بصيرةٍ ... وتبعثُ أحراساً عليَّ وناظرا

ومن كلمة بليغة لعليّ رضي الله عنه، قال: أيها الناس، متاعُ الدّنيا حُطامٌ مُوبِئٌ، فتجنبوا مَرْعاةً قُلْعَتُها أحظىٰ من طُمأنينتها. المَرْعاة: مَفْعلةٌ من الرَّعْي، وهي أخصُّ من المرعىٰ. والقُلْعة: الانقلاعُ عن الشيء ومفارقتُه، والحُظْوة: الانتفاع بالشيء. يريدُ أنّ الإنسان إذا كان في الدنيا منزعجاً، متهيئاً للرحيل عنها، خيرٌ له من أن يكون ساكناً إليها مطمئناً بالمُقام فيها.

وفي الحديث: «خيرُ نساءٍ ركبْن الإبل، صوالحُ نساء قريش، أحناه علىٰ ولد في صغره، وأرعاه علىٰ زوجٍ في ذات يده». قال ابن الأثير: هو من المراعاة: الحفظِ والرِّفق وتخفيف الكُلَفِ والأثقال عن الزوج، وذاتُ يدِه كنايةٌ عما يملِك من مال وغيره. وهنا دقيقةٌ من دقائق العربية، فإنه ذكر النساء وهُنّ جَمْع، ثم وحَّد الضمير العائد إليهن فقال: أحناه وأرعاه. وهذا محمولٌ علىٰ المعنىٰ، وتقديره:

أحْنىٰ مَن وُجِد أو مَن خُلق، أو مَنْ هناك. قال ابن الأثير: وهو كثيرٌ في العربية ومن أفصح الكلام. ومنه ما جاء في صفة عبد المطلب: أوسَمُ الناس وأجْمَلُه. وشاهده من الشعر قولُ ذي الرمة:

وميّـةُ أحسـن الثقليـن وَجْهـاً وسـالفـةً وأحسَنُـه قَـذَالا

وقولُ الآخر:

لأخْوَيْنِ كانا أحسنَ الناسِ شِيمةً وأنفعَـهُ فـي حـاجـةٍ لـي أريـدُهـا

وفي الحديث: «شرُّ الناس رجُلٌ يقرأ كتابَ الله لا يرعوي إلىٰ شيء منه» أي: لا ينكفُّ ولا ينزجر، من رعا يَرْعُو، أي: كفَّ عن الأمور، وقد ارْعَوَىٰ عن القبيح يرعوي أرعواءً، والاسمُ الرَّعيا والرُّعيًا وقيل: الرُّعْيا بالضم، والرعوىٰ بالفتح، مثل البُقْيا والبَقْوىٰ. وقيل: الارعواء: الندمُ علىٰ الشيء والانصراف عنه وتركه، وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا كانت عندك شهادةٌ فسُئلتَ عنها فأخبرْ بها ولا تقُلْ: حتىٰ آتيَ الأميرَ، لعله يرجع أو يرعوي». قال أبو عبيد القاسم بن سلام: يقول: لعل الذي عليه الحقُّ إذا علم بشهادتك رجع أو ارعوىٰ عن رأيه، والارعواء: الندمُ علىٰ الشيء والانصراف عنه، والتركُ له. قال ذو الرمة:

إذا قلتُ عن طول التنائي: قد ارْعَوَىٰ أبـىٰ حبُّهـا إلاَّ بقـاءً علـىٰ الهَجْـرِ

[ر غ ب]

تدلُّ مادة (رغب) علىٰ أصلين في اللغة، أحدهما: طَلَبٌ لشيء والآخر: سَعةٌ في شيء. هكذا قال ابن فارس. ومن الأول الذي هو الطلب، يقال: رغبتُ في الشيء: أي أردتُه، ورغبتُ عنه: أي لم أرِدْه وزهدتُ فيه. قال عز من قائل: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠]. أي: من يعدِل عن ملة إبراهيم

ـ وهي الحنيفية ـ ويتخذُ اليهودية أو النصرانية إلاّ من سَفِهَ نفسَه؟ أي: جهل أمر نفسه فلم يفكّرْ فيها؟ وقيل: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: فعل بها من السَّفَه ما صار به سفيهاً. وعلى [احتمال معنىٰ](١) «رغب فيه» بمعنىٰ أراده، و«رغب عنه» بمعنىٰ زهِدَ فيه ولم يرِدْه: فُسِّر قولُه عز وجل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]. قال أهل التفسير: يحتمل أن يكون التقدير: في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾: أي ترغبون في أن تنكحوهنّ لجمالهنّ، ويحتمل أن يكون التقدير: وترغبون عن أن تنكحوهنّ لعدم جمالهنّ.

وأخرج البخاريُّ بسنده، أن عروة بن الزبير سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]. فقالت: يا ابن أختي، هذه ليتيمة تكون في حَجْر وليِّها تشْرَكُه في ماله ويُعجبه مالُها وجمالُها، فيريدُ وليُّها أن يتزوَّجها بغير أن يُقسِطَ في صداقها فيُعطيَها مثلَ ما يُعطيها غيرُه. فنُهوا عن أن ينكِحوهُنّ إلاّ أن يُقسِطوا لهنّ ويبلُغُوا لهنّ أعلىٰ سُنَّتِهنَّ في الصَّداق. فأُمِرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفْتَوْا رسول الله ﷺ في هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله تعالىٰ في آيةٍ أخرىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبةُ أحدكم عن يتيمته حين تكونُ قليلة المال والجمال، قالت: فنُهوا أن ينكحُوا من رغبوا في ماله وجماله في يتامىٰ النساء إلاّ بالقسط، من أجل رغبتهم عنهنّ إذا كنَّ قليلاتِ المال والجمال. قال ابن حجر: قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾: «رغبةُ أحدكم عن يتيمته» فيه تعيين أحد الاحتمالين في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾؛ لأن «رغب» يتغير معناه بمتعلَّقه. يقال: رغب فيه: إذا أراده، ورغب عنه: إذا لم يردْه، لأنه يحتمل أن تُحذَف «في»

---

(١) في الأصل بياضٌ، قدّرناه كما ترىٰ. (الناشر).

وأن تُحـذف «عن»، وقد تأولـه سعيـدُ بن جبيـر علـىٰ المعنييـن فقال: نزلت في الغنيّة والمُعدِمة. قال ابن حجر: والمرويّ هنا عن عائشة أوضحُ في أن الآية الأولىٰ نزلت في الغنية ــ وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾. وهذه الآية نزلتْ في المُعدِمة، وهي قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

وقوله في الحديث: «فنُهُوا» أي: نُهُوا عن نكاح المرغوب فيها لجمالها ومالها، لأجل زهدهم فيها إذا كانت قليلة المال والجمال، فينبغي أن يكون نكاح اليتيمتين علىٰ السواء في العدل. وقال الحافظ ابن كثير: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيُلقي عليها ثوبَه، فإذا فعل ذلك لم يقدِر أحدٌ أن يتزوَّجَها أبداً، فإن كانت جميلةً وهويَها تزوَّجها وأكل مالها، وإن كانت دميمةً منعها الرجالَ أبداً حتىٰ تموت، فإذا ماتت وَرِثَها، فحَرَّم الله ذلك ونهىٰ عنه.

ومن استعمال (رغب) في معنىٰ ترك الشيء والزهد فيه قوله تعالىٰ علىٰ لسان أبي إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

وفي الحديث: «كيف أنتم إذا مَرِج الدِّين وظهرت الرغبةُ واختلف الإخوان»؟ مَرِج: أي اضطـرب وقَلِق. والرَّغبـة هنا معناها: قلّةُ العفَّـة وكثـرةُ السؤال. يقال: رغب يرغب رغبةً: إذا حَرَص علىٰ الشيء وطمِع فيه. ويقال: رغبتُ إلىٰ فلان في كذا: إذا سألتَه إياه، ومنه حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي أتتني وهي راغبةٌ، أفأعطيها؟ قال: «نعم، فصِليها». قال الخطابيُّ: وأصل الرغبة الحرصُ والسؤال، ومن هذا قولُ الداعي: اللهم إني أرغبُ إليك في كذا، أي: أسألك بحرصٍ وفاقة.

وفي الحديث: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يزيد في تلبيته: والرُّغْبىٰ إليك والعمل، وفي رواية: «والرَّغباءُ إليك» الرُّغْبىٰ والرَّغباء: من الرغبة، مثل النُّعْمىٰ والنَّعماء من النِّعمة. وفي الحديث: «الرُّغْب شؤم» أي: البشرةُ والحِرصُ علىٰ

الدنيا، وقيل: سَعةُ الأمل وطلَبُ الكثير. ومنه شِعرُ مازن بن الغُضُوبة:

وكنت امرءاً بالرُّغبِ والخمرِ مولَعاً شبابي إلىٰ أن آذن الجسمُ بالنَّهْجِ

أي: بسَعةِ البطن وكثْرة الأكل.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: قالوا له عند موته: جزاك الله خيراً، فعلت وفعلتَ. فقال: راغب وراهب، يعني أن قولكم لي هذا القولَ إمَّا قولُ راغبٍ فيما عندي، أو راهبٍ مني، وقيل: أراد: إنني راغبٌ فيما عند الله، وراهبٌ من عذابه، فلا تعويلَ عندي علىٰ ما قلتم من الوصف والإطراء. ومن استعمال (رغب) في معنىٰ السَّعة ما جاء في الحديث: «افضلُ العمل منحُ الرِّغاب، لا يعلَمُ حُسْبانَ أجرِها إلا الله عز وجل». الرِّغاب: الإبل الواسعةُ الدّرِّ الكثيرةُ النفع، جمع الرغيب: وهو الواسع، يقال: جوفٌ رغيب ووادٍ رَغيب. والرَّغيبة: العطاء الكثير، والجمع الرغائب، قال النمر بن تولب رضي الله عنه:

ومتىٰ تُصِبْك خصاصةٌ فارْجُ الغنىٰ وإلىٰ الذي يُعطي الرغائبَ فارغَبِ

وفي حديث حذيفة: ظعن بهم أبو بكر ظعنةً رغيبة، ثم ظعن بهم عمر كذلك، أي: ظعنةً واسعةً كبيرة. قال الحربيُّ: هو إن شاء تسييرُ أبي بكر الناسَ إلىٰ الشام وفتحُه إياها بهم، وتسييرُ عمرَ إياهم إلىٰ العراق وفتحُها بهم. وفي حديث أبي الدرداء: ويلٌ للقلب النخيب والجوف الرغيب ولا يبالي بقول الطبيب. القلب النخيب: هو الفاسدُ النَّغِل، وأصل هذا في الجُبْن. والرغيب: الأكولُ الواسعُ الجوف. ويقال أيضاً: إناءٌ رغيبٌ ومكانٌ رغيب: أي واسع. قال حميد بن ثور:

تبادرُ أطفالاً مساكينَ دُونَها فلاً ما تخطَّاه العيونُ رغيبُ

يقول ربنا عز وجل محرِّضاً ومرغِّباً في الهجرة ومفارقةِ المشركين، ومبيِّناً أن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحةً وملجأ يُتحصَّن فيه، فيقول عز من قائل: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. المراغَمُ: المَذْهَب والمَهْرَب. قال النابغة الجعديُّ رضي الله عنه:

وكـان زيـادٌ ثِمـالاً لنـا ونَعْشاً كفَىٰ غيْبَةَ الغُيَّبِ
كطَـوْدٍ نلـوذُ بـأكنـافِـهِ عزيزِ المُراغمِ والمَهْربِ

وقال ابن عباس في تفسير «مُراغَماً»: هو التحوَّلُ من أرض إلىٰ أرض، وقال مجاهـد: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ يعني مُتَزَحْزَحـاً عمَّـا يكـره. وقال ابن زيـد: المـراغَم: المهاجَر، وبه قال أبو عبيدة والهرويُّ. وقال أبو عمرو بنُ العلاء، في قوله تعالىٰ: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾: الخروجُ عن العدوِّ يُرْغِمُ أنفه. قال أبو جعفر النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعاني، فالمراغم: المذهب والمتحوَّل، وهو الموضع الذي يُراغَـمُ فيـه، وهو مشتقٌّ من الرَّغـام، وهـو التـراب، ورغِم أنفُ فلان: أي لصِق بالتراب، وراغمتُ فلاناً: هجرتُه وعاديتُه ولم أبالِ أنْ رَغِمَ أنفُه، وقيل: إنما سمّـي مهاجَـراً ومراغماً، لأن الرجل كان إذا أسلـم عادىٰ قومه وهجَرهم، فسُمِّي خروجُه مُراغَما، وسُمِّي مسيرُه إلىٰ النبي ﷺ هجرة. قال الشوكاني: والحاصل في معنىٰ الآيـة: أن المهـاجِر يجد في الأرض مكانـاً يسكن فيه علىٰ رغـم أنف قومه الذين هاجَرهم: أي علىٰ ذلِّهم وهوانهم.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «رغِم أنفُه، رغِم أنفُه، رغِم أنفُه». قيل: مَن يا رسولَ الله؟ قال: «مَن أدرك أبويْه أو أحدَهما حيّاً ولم يدخُلِ الجنة». يقال: رَغِمَ يرغَمُ، ورَغَم يرغَم رَغْماً ورِغْماً ورُغْماً، وأرغم الله أنفه، أي: ألصقه بالرَّغام وهو التراب، هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذُّلّ والعجز عن الانتصاف، والانقياد علىٰ كُره. ومنه الحديث: «إذا صلَّىٰ أحدُكم فلْيُلزِم جبهتَه وأنفه الأرض حتىٰ يخرجَ منه الرَّغمُ» أي: يظهرَ ذلُّه وخُضُوعه. ومنه الحديث: «وإن رغِم أنفُ أبي ذر» أي: وإن ذلَّ. وقيل: وإن كرِه. ومنه حديث معقل بن يسار: رغم أنفي لأمر الله، أي: ذلَّ وانقاد. ومنه حديث سجدتي السَّهو: «كانتا ترغيماً للشيطان». وفي حديث عائشة

رضي الله عنها، في المرأة تتوضّـأ وعليهـا الخِضاب قالت: اسلُتِيـهِ وأرْغِميـه. قال أبو عبيد: قولها: أرْغِميه، تقول: أهينيه وارمي به عنك، وإنما أصل هذا من الرَّغام، وهو التراب، وأحسَبُـه اللَّيِّـنَ منه، فكـأن عائشـةَ أرادت: ألقيهِ في التـراب. ومنه حديث الشاة المسمومةِ بخيبر: فلما أرْغَمَ رسولُ الله ﷺ أرغَمَ بشرُ بن البراء ما في فيه، أي: ألقى اللُّقمة من فيه في التراب. وفي حديـث أبـي هريرة رضي الله عنه: «صلِّ في مُراحِ الغنم، وامسحِ الرُّغامَ عنها». قال الحافظ أبو موسىٰ المدينيّ: كذا أورده بعضُهم، وقال: الرُّغام: ما يسيل من الأنف من داءٍ وغيره. والمشهور «الرُّعام» بالعين المهملة، وهو أيضاً ما يسيل من أنوف الغنم. وقال أبو زيد: أمرغ الرجلُ إمراغاً، إذا سال مَرْغُه، وهو لُعابُه إذا نام. والرُّغام: زبَدُ الماء يرمي به السَّيل، قال أبو موسىٰ: فلعله شُبِّه بهذا. وقال ابن الأثير: ويجوز أن يكون أراد مَسْحَ التراب عنها رعايةً لها وإصلاحاً لشأنها. وفي الحديث: «بُعثتُ مَرغَمةً» المَرْغَمة: الرَّغم، أي: بُعثت هواناً للمشركين وذُلاًّ. وفي حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إنّ أمي قدِمتْ عليَّ راغمةً وهـي مشركـةٌ، أفأصِلُها؟ قال: «نعم». قـال ابن الأثيـر، وفي كلامه بعض كلام للزمخشريّ: لما كان العاجزُ الذليل لا يخلو من غضب قالوا: ترغَّم إذا غضِب، وراغَمـه إذا غاضَبـه. تريد أنها قـدمتْ عليَّ غضْبَـى لإسلامـي وهجرتي متسخّطةً لأمري، أو كارهةً مجيئَها إليَّ لولا مسيسُ الحاجة. وقيل: راغمة، أي هاربةٌ من قومها من قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ﴾ [النسـاء: ١٠٠] أي: مَهْـربـاً ومتَّسَعـاً. وفي الحديث: «إن السِّقْطَ لَيُراغِمُ ربَّه إن أدخل أبويه النار فيجترُّهما بسَرَرِه حتىٰ يُدخلَهما الجنة» أي: يُغاضبُه. والسَّرَر: ما تقطعه القابلةُ من السُّرّة. ومن المراغمة حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمّا أسلمتُ راغمتْنـي أمّي، فكانت تلقاني مرّةً بالبشـر ومـرَّةً بالبَسْر، فقولـه: «راغمتْني» أي: غاضبتْني، والبِشْر: الطلاقة، والبَسْر: القُطوب.

[ر ف ث]

يقول ربنا عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].
ويقول عز من قائل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧].
الرَّفَثُ في الآية الأولىٰ يُراد به الجماع. وفي الآية الثانية يراد به الفُحشُ والتكلُّم بالقبيح، ويدخل فيه التعريضُ بذكْر الجماع. وهذه التفرقة مروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روىٰ الخطابيُّ بسنده عن طاوس، قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾. قال: الرفث الذي ذُكر ها هنا ليس بالرفث الذي ذُكر هنا، يعني قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾. قال: ومن الرفث التعريضُ بذكر الجماع، وهي القرابة في كلام العرب. وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما أنشد وهو محرم شعراً فيه ذكرٌ للنساء، فقيل له: أتقول الرفثَ وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفثُ ما رُوجع به النِّساء، قال ابن الأثير: كأنه يرىٰ الرفث الذي نهىٰ الله عنه ما خُوطبت به المرأة، فأما ما يقوله ولم تسمعْه امراةٌ فغير داخلٍ فيه. وقال أبو منصور: الرفث كلمةٌ جامعة لكلِّ ما يُريده الرجل من المرأة. وقال ابن فارس: هو كلُّ كلامٍ يُستحيا من إظهاره.

[ر ف د]

تدل مادَّة (**رفد**) علىٰ أصلٍ واحد هو كما قال ابن فارس: المعاونةُ والمظاهرةُ بالعطاء وغيره. يقال: رفدَه يَرْفِدُه رَفْداً: إذا أعطاه. والاسم: الرِّفْد. قال عز من قائل في شأن قوم فرعون: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]. أي: بئس العطاءُ المُعْطىٰ، وكلُّ شيءٍ عمَدْتَه بشيء وجعلْتَه عوناً له فقد

رفدْتَه وأسندْتَه. أي: وأُتْبعوا لعنةً يوم القيامة يلعنهم أهلُ المَحْشَر جميعاً، ثم إنه جعل اللعنة رِفْداً لهم علىٰ طريقة التهكُّم. وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من فعلهنّ فقد طعِم الإيمان: من عبَدَ الله وحدَه. وأعطىٰ زكاةَ ماله طيّبةً نفسُه، رافدةً عليه، كلَّ عام، ولم يُعطِ الهرِمةَ ولا الدَّرِنة ولا المريضة ولا الشَّرَطَ اللئيمة». قوله: «رافدةً عليه» من الرِّفْد، وهو الإعانة، أي: أن نفسَه تُعينه علىٰ أداء الزكاة ولا تحدِّثُه بمَنْعها. والدَّرِنة: الدُّون، وأصلُ الدَّرَن الوسَخ، الشَّرَط: رُذالُ المال، كالصغيرة والمُسِنَّة، والأعجف، ومنه حديث عُبادة بن الصامت: ألا ترون أني لا أقوم إلاّ رِفْداً؟ أي: إلاّ أن أُعانَ علىٰ القيام، ومنه ذكر «الرِّفادة» وهو شيءٌ كانت قريشٌ تترافد به في الجاهلية، فيُخرج كلُّ إنسان منهم بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيامَ الموسم، فيشترون به الغنمَ والطعام والزبيب، فلا يزالون يُطعمون الناس حتىٰ ينقضي موسمُ الحج، وكان أولَ من قام بذلك وسنَّه هاشمُ بن عبد مناف، ويقال: إنه سُمِّي هاشماً لهذا؛ لأنه هشم الثريد، واسمه عمرو، وفيه يقول الشاعر:

عمرو العلا هشَم الثريدَ لقومِهِ ورجـالُ مكـةَ مُسنِتـونَ عِجـافُ

ثم قام بعده عبد المطلب، ثم العباس، فقام الإسلام، وذلك في يد العباس، ثم كان في زمن النبي ﷺ، ثم لم تزل الخلفاء تفعل ذلك. ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]. قال: من النصر والرِّفادة والنصيحة، أي: الإعانة. وفي حديث وفد مَذْحِج، قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك علىٰ مذحِج، وعلىٰ أرض مذحج، حيٌّ حُشَّدٌ رُفَّد». حُشَّدٌ رُفَّد: جمع حاشد ورافِد، والمعنىٰ أنهم أهل احتشاد ومعونه، أي: إذا حزَبَ أمرٌ حشـد بعضُهـم بعضـاً وتسانَدُوا وتظاهروا، وصاروا يداً واحدة متعاونين في الخطوب.

وفي حديث أشراط الساعة: «وأن يكون الفيء رِفْداً» أي صِلةً وعطيّةً، يقال: رفدتُ فلاناً أرفِدُه رَفْداً. يقول: يُصَيَّر الخراجُ الذي هو لجماعة المسلمين صِلاتٍ

وعطاء لا يوضَعُ مَواضعَه، لكن يُخَصُّ به قومٌ دون قوم، بحُسْنِ الرأي وسوءِ الرأي.
وفي الحديث قال ﷺ: «هل من رجل يَمنح من إبله ناقةً أهلَ بيتٍ لا دَرَّ لهم، تَغْدُو بِرَفْدٍ وتروح برَفْـد، إنّ أجرَها لعظيم» الدَّرُّ: اللبن. والرَّفد: القدحُ الضخم، بفتح الراء، ويقال أيضاً: الرِّفدُ، والمِرْفَد، والرَّفُودُ من النُّوق: التي تملأ الرَّفْد في حَلْبةٍ واحدة. وجمع الرَّفُود: الرُّفْد. ومنه حديث حفر زمزم:

ألم نَسْقِ الحجيج وننحَرُ المِذْلاقةَ الرُّفْدا

والمذلاقة: الناقة السريعةُ السير. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ مرَّ علىٰ أصحاب الدِّرَكْلَة، فقال: «خذوا يا بَني أرْفِدَة حتىٰ يعلمَ اليهودُ والنصارىٰ أن في ديننا فُسْحة». قال: فبينا هم كذلك إذا جاءه عمر، فلما رأوه ٱبذعَرُّوا. الدِّرَكْلَة والدِّرَقْلَة، وهو ضربٌ من لُعَب الصبيان، وقيل: رقْصٌ للحبشة. وبنو أرفدة: لقبٌ للحبشة، وقيل: هو اسمُ أبيهم الأقدم، يُعرَفُون به، وفاؤه مكسورة، وقد تفتح وقوله: «ابْذَعَرُّوا» أي: تفرَّقُوا، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: ابذعَرَّ النفاق أي: تفرَّق وتبدَّد.

[ر ف ع]

الرفعُ ضدُّ الخفض، هذا أصله، ويقال في الأجسام والأشياء المرئيّة المُحَسَّة، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. ويقال في المكانة والمنزلة، كما في قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. ويقال في الذِّكر والتنويه به، كما في قوله تعالىٰ يخاطب خاتم أنبيائه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. لما قال قتادة: رفع الله ذِكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا متشهّدٌ ولا صاحبُ صلاة إلاّ ينادي، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وقيل: ذكرناك في الكتب المنزلة علىٰ الأنبياء قبلك،

وأمرناهم بالبشارة بك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور: ٣٦]. أي: تُشَرّف. وقد يأتي الرفعُ بمعنىٰ التقريب، وعليه فُسِّر قوله تعالىٰ: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٤]. أي: مُقَرَّبَة لأصحاب اليمين. ومن ذلك قولهم: رفعْتُه للسلطان.

وفي أسماء الله تعالىٰ: «الرافع» قيل: هو الذي يرفع المؤمنين بالإسعاد، وأولياءَه بالتقريب. وفي الحديث: «كلُّ رافعةٍ رفعَتْ علينا من البلاغ، فقد حرَّمْتُها أن تُعضَدَ أو تُخبَط» أي: كلّ نفسٍ أو جماعةٍ تُبلِّغُ عنّا وتُذيع ما نقولُه، فلْتُبلِّغْ ولْتَحْكِ، أني حرَّمْتُها أن يُقطع شجرُها أو يُخبطَ ورَقُها. يعني المدينة. والبلاغ بمعنىٰ التبليغ، كالسَّلام بمعنىٰ التسليم، والمراد: من أهل البلاغ، أي المبلغين، فحذَف المضاف. والرفع هنا: مِن رَفَع فلانٌ علىٰ العامل: إذا أذاع خبره وحكىٰ عنه، ورفعتُ فلاناً إلىٰ الحاكم، إذا قدّمْتَه إليه. وفي الحديث: «فرفعتُ ناقتي». أي كلّفْتُها المرفوعَ من السَّير، وهو فوق الموضوع ودون العَدْو. يقال: «ارْفَعْ دابّتَك» أي أسرعْ بها. وفي حديث الاعتكاف: كان إذا دخل العَشْرُ أيقظ أهلَه ورَفَع المئزر. جعل رفع المئزر ــ وهو تشميره عن الإسبال ــ كناية عن الاجتهاد في العبادة، وقيل: كَنَىٰ به عن اعتزال النساء.

وفي حديث ابن سلاَم رضي الله عنه: ما هلكت أمَّةٌ حتىٰ ترفع القرآن علىٰ السُّلطان، أي: يتأولونه ويرَوْن الخروج به عليه.

[ر ف ف]

يقول ربنا عز وجل في وصف ما عليه أهل الجنة وما يتقلّبون فيه من نعيم: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦]. قال الجوهري: الرَّفْرفُ ثيابٌ

خُضر تُتخذ منها المحابسُ، الواحدة رَفْرَفة، والمحابس: جمع مَحْبِس، وهو سَتْرُ الفِراش وقيل: الرَّفْرَفُ: الوسائد، واشتقاقه من رَفّ يرفُّ: إذا ارتفع، ومنه رفْرَفَةُ الطائر، وهي تحريك جناحيه في الهواء. والرَّفْرَف أيضاً كِسْرُ الخِباء وجوانبُ الدرع وما تدَلَّىٰ منها، وسُمّي بذلك لأنه يتحرك عند هبوب الرِّيح.

وفي حديث وفاته ﷺ: فرُفِع الرَّفرفُ، فرأينا وجْهه كأنه ورَقَة. الرَّفرف هنا الفسطاط، أو السِّتر، أراد شيئاً كان يحجُب بينه وبينهم، وكلُّ ما فَضَل من شيءٍ فثُني وعُطِف فهو رَفْرَفٌ، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]. قال: رأىٰ رَفْرفاً أخضرَ سدَّ الأُفُق. قال ابن الأثير: أي بساطاً، وجمع: فِراشاً. ومنهم من يجعل الرفرفَ جمعاً واحده رفْرفة، وجمع الرفرف: رَفارِفُ، وقد قرىء به: ﴿مُتَّكِئِيْنَ عَلَىٰ رَفَارِفَ خُضْرٍ﴾.

وفي الحديث: «رَفْرفَتِ الرحمةُ فوقَ رأسِه» يقال: رفرف الطائرُ بجناحيْهِ، إذا بسَطهما عندَ السقوط علىٰ شيءٍ يحُومُ عليه ليقَعَ فوقَه. ومنه حديثُ أمِّ السائب رضي اللّه عنها: أنه مرَّ بها وهي تُرفْرِف من الحُمَّى، فقال: «ما لكِ ترفرفين؟» أي: ترتعد، من قولهم: رَفَّ الحاجب إذا اختلج. ورواه بعضهم: «تُزَفْزِف» بالزاي، ومعناه: ترتعد أيضاً.

وفي الحديث: «من حفَّنا أو رَفَّنا فليقتصد» أراد المدح والإطراء. يقال: فلانٌ يرُفُّنا: أي يحُوطُنا ويعطِفُ علينا. وفي حديث ابن زِمْل الجهنيِّ يصف مَرْجاً، قال: لم تَرَ عيني مثلَه قطُّ يرفُّ رفيفاً يقطُر نداه. يقال للشيء إذا كثُر ماؤُه من النَّعمة والغضاضة، حتىٰ يكادُ يهتزّ: رَفَّ يرِفُّ رَفيفاً. قال الراجز:

يا لكَ مِن غيثٍ يرِفُّ بَقْلُهْ

ومنه حديث معاوية رضي الله عنه، قالت له امرأة: أُعيذك بالله أن تنزلَ وادياً فتدَعَ أولَه يرفُّ وآخره يقِفّ. وقوله: «يقفّ» أي يَيْبَس. وفي الحديث: أن نابغة بني

جَعْدة أنشد النبيَّ ﷺ شعراً، فقال له: «أجدْتَ، لا يفْضُضِ الله فاك» قال: فنيَّف على المائة، وكأنَّ فاه البرَدُ المُنْهلُّ ترِفُّ غُروبُه». لا يفضُضِ الله فاك: معناه لا يكسر الله أسنانك التي في فيك. والبَرَدُ المّنْهلُّ: أي حبُّ الغَمام الذي سقط لوقته، وفيه بياضُه ورونَقُه. يقال: هلَّ السماءُ بالمطر هلاًّ، وانهلَّ انهلالاً وهو شِدّة انصِبابه. وقوله: «ترِفُّ غُروبُه» الغُرُوب: الأسنان، أي تَبرُق وتتلألأ، قال عمرُ بن أبي ربيعة:

يـرِفُّ إذا تَفْتَـرُّ عنـه كـأنَّـه　　　حصا بَرَدٍ أو أُقْحُوانٌ مُنَوَّرُ

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسُئل عن القُبلة للصائم، فقال: إني لأَرُفُّ شفتيها وأنا صائم، قال أبو عبيد: قوله: «أرُفُّ» الرَّفّ: هو مثل المَصِّ والرَّشْف ونحوه، يقال منه: رفَفْت الشيء أرُفُّه رَفًّا، فأما يرِفُّ بالكسر فهو من غير هذا. يقال: رَفّ الشيء يرِفُّ رَفًّا ورفيفاً، إذا بَرَق لونه وتلألأ، ومن ذلك حديث عَبيدةَ السَّلماني رحمه الله تعالىٰ: قال له ابن سيرين: ما يُوجب الجنابة؟ فقال: الرَّفُّ والاستملاق يعني المَصَّ والجماع؛ لأنه من مقدِّماته. وقال الزمخشري: المُلْق علىٰ معنيين، يقال: ملَق الفصيلُ أُمَّه وملجَها وملَعَها، إذا رَضِعها، وملق المرأة إذا جامعها. والاستملاق: يحتمل أن يكون استفعالاً من المَلْق بمعنىٰ الرَّضع، ويُكنىٰ به عن المواقَعة؛ وأن يكون من المَلْق بمعنىٰ الجماع. وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنـه، قال عُقبـة بنُ صُوحان: رأيتُ عثمان نازلاً بالأبطح، وإذا فُسطاطٌ مضـروبٌ، وسيفٌ معلَّـقٌ في رفيـف الفسطاط، وليس عنـده سيَّـافٌ ولا جِلواز. الأبطح: مَسيل الوادي، والفسطاط: هو ضربٌ من الأبنية في السَّفر دون السُّرادق. وقيل: هو الخيمة. ورفيف الفسطاط ورفيفُ السحاب، ورفرَفُهما: ما تدلَّىٰ منهما كالذيل. والجِلْواز: الشُّرَطيّ. قال الزمخشري: سمّي بذلك ــ إن كان عربيّاً ــ لتشديده وعُنفِه، من قولهم: جَلّز في نَزْع القوس: إذا شدَّد فيه. وقيل: رفيف الفسطاط: سَقْفُه. وفي حديث أم زرع، قالت إحدىٰ النساء: «زوجي إن أكل رَفّ» الرَّفُّ: الإكثارُ من الأكل. هكذا جاء في رواية. والرواية المشهورة: «إن أكل لَفّ»

أي جمع صُنوفَ الطعام وخلَط. يقال: لفَّ الكتيبةَ بالأخرىٰ، إذا خلط بينهما، ومنه اللفيفُ من الناس. وفي الحديث: أن امرأةً قالت لزوجها: أحجَّني، قال: ما عندي شيءٌ. قالت: «بعْ تَمْرَ رَفِّك» الرَّفُّ بالفتح: خَشَبٌ يُرفَعُ عن الأرض إلى جنب الجدار يوقَّى به ما يوضَعُ عليه، والجمع رُفوف ورِفاف. وقال الجوهريُّ: الرَّفّ: شِبهُ الطاق. ومنه حديث كعب بن الأشرف، لعنه الله: إن رِفافي تقصَّفُ تمراً من عجوة يغيب فيها الضِّرس. تقصَّفُ: أي تزدحم من كثرة التمر بها. والرِّفاف: جمع الرّفّ. وفي حديث المرأة العجوز التي وقفت علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالت: أجاءتني النآئدُ إلىٰ استيشاءِ الأباعد بعد الرِّفّ والوقير، فهل من ناصر يَجْبُر أو داع يُشكَر؟ قولها: «أجاءتني» أي ألجأتني واضطرتني، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]. والنآئد: الدواهي، واحدتُها: نـآدى ونآد. والاستيشاء: استخراج الشيء الكامن، يقال: استَوْشيْتُ الناقةَ: إذا حلبتَها، واستوشَيْتُ المسألةَ: إذا استنبطتَ فِقْهها ومعناها. والرِّفُّ بكسر الراء: الإبلُ العظيمة. والوقير: القطيع العظيم من الغنم. تريد بعد الغِنىٰ واليسار.

❋ ❋ ❋

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

by: Prof. Mahmoud M. Al-Tanahi

vol. 1

هذا الكتاب

غريب القرآن والحديث هو موضوع هذا الكتاب، اختار فيه المؤلف على ترتيب حروف الهجاء ما هو الغريب في نصوص الكتاب والسنة، من المادة الثلاثية الواحدة، ثم بحث معنى الغريب، وبيّنه ووضحه، مع سهولة في الشرح، وجزالة في الأسلوب، وإثراء للنص، حتى قرّب معنى كل كلمة للقارىء الذي من شأنه النفور من جمود معاجم اللغة، فضلاً عمن آتاه الله حظاً من محبة العربية وأهلها. وقد استمدّ المؤلف مادته الغزيرة من الكتب الأصيلة في شرح الغريب، ونقل عن المعاجم المعتبرة، وعن أرباب العربية ورواتها الكبار، متسلسلاً في الكشف عن معنى مفردات الغريب وغموضه، بادئاً بذكر المقياس اللغوي الذي ينضم إليه مجموع مفردات اللفظ الغريب، فإذا أتم ذلك فرش مفردات الجذر وأعمل فيها نظرية ابن فارس البارعة التي أودعها معجمَه المقاييس.

كما حفل الكتاب بفوائد غزيرة نثرها المؤلف، من علوم القرآن، والحديث، والسيرة، والقَصَص، وأقوال العرب وعاداتها ولهجاتها، ولطائف من اللغة والنحو والصرف والبلاغة والفروق، وقطعاً من الأدب، ونبذاً تاريخية، ومواقف، فكأنما يطوف بالقارىء في بستان، بل هو بستانٌ معرفي وممتع حقاً. والمؤلف بذلك كله قد أتى عملاً أكاديمياً فريداً تستوجبه الفائدة والبيان وأمانة الاستقصاء، في معجم لغوي وثقافي ثري وماتع.

من تصدير الأستاذ
سليمان أحمد عليوات

9789957230746

دار الفتح للدراسات والنشر
www.alfathonline.com